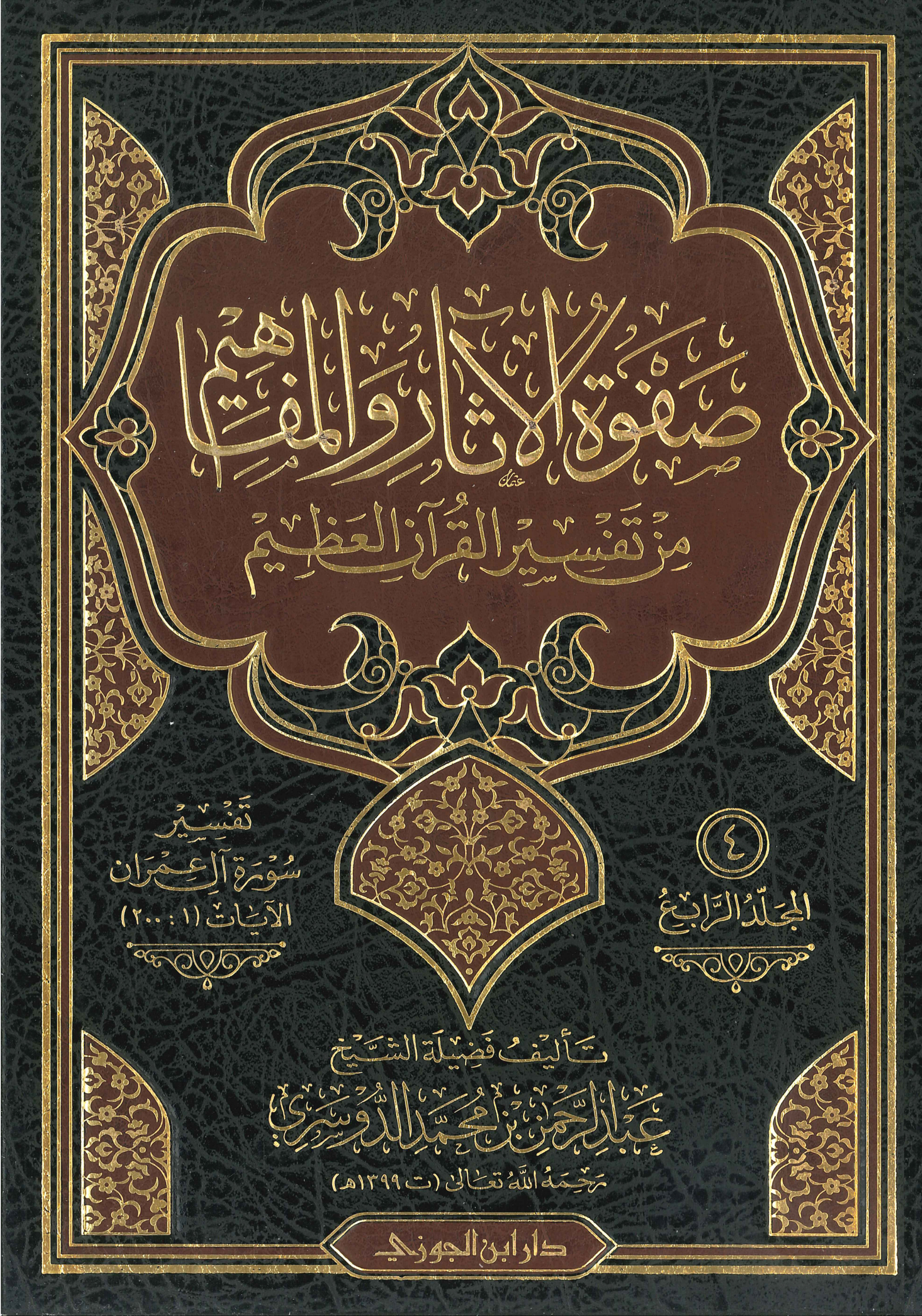
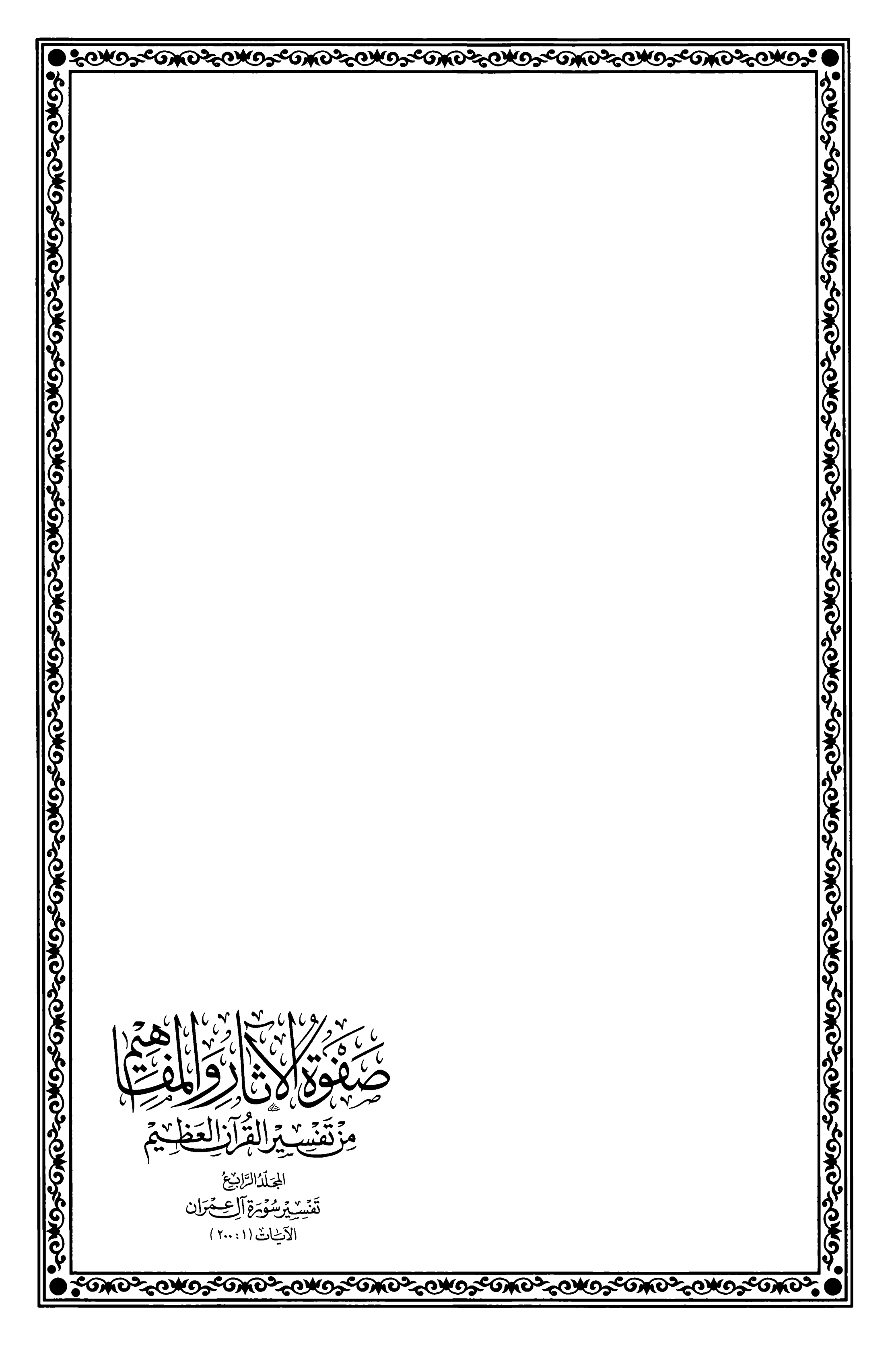

صفوة الآثار والمفاهيم
من تفسير القرآن العظيم
تفسير
سورة آل عمران
الآيات (١ : ٢٠٠)
٤
المجلد الرابع
تأليف فضيلة الشيخ
عبد الرحمن بن محمد الدوسري
رحمه الله تعالى (ت ١٣٩٩هـ)
دار ابن الجوزي



صفوة الآثار والمفاهيم

من تفسير القرآن العظيم

المجلد الرابع

تفسير سورة آل عمران

الآيات (١ : ٢٠٠)

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ، ١٤٣٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الدوسري ، عبد الرحمن محمد
صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم . / عبد الرحمن محمد الدوسري - ط ١ . - الدمام ، ١٤٣٩ هـ
٥٢٣٢ ص ؛ .. سم
ردمك : ٥ - ٣٥ - ٨٢٢٢ -٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - التفسير بالمأثور أ . العنوان
ديوي ٣٢ , ٢٢٧ ٩٣٠ / ١٤٣٩

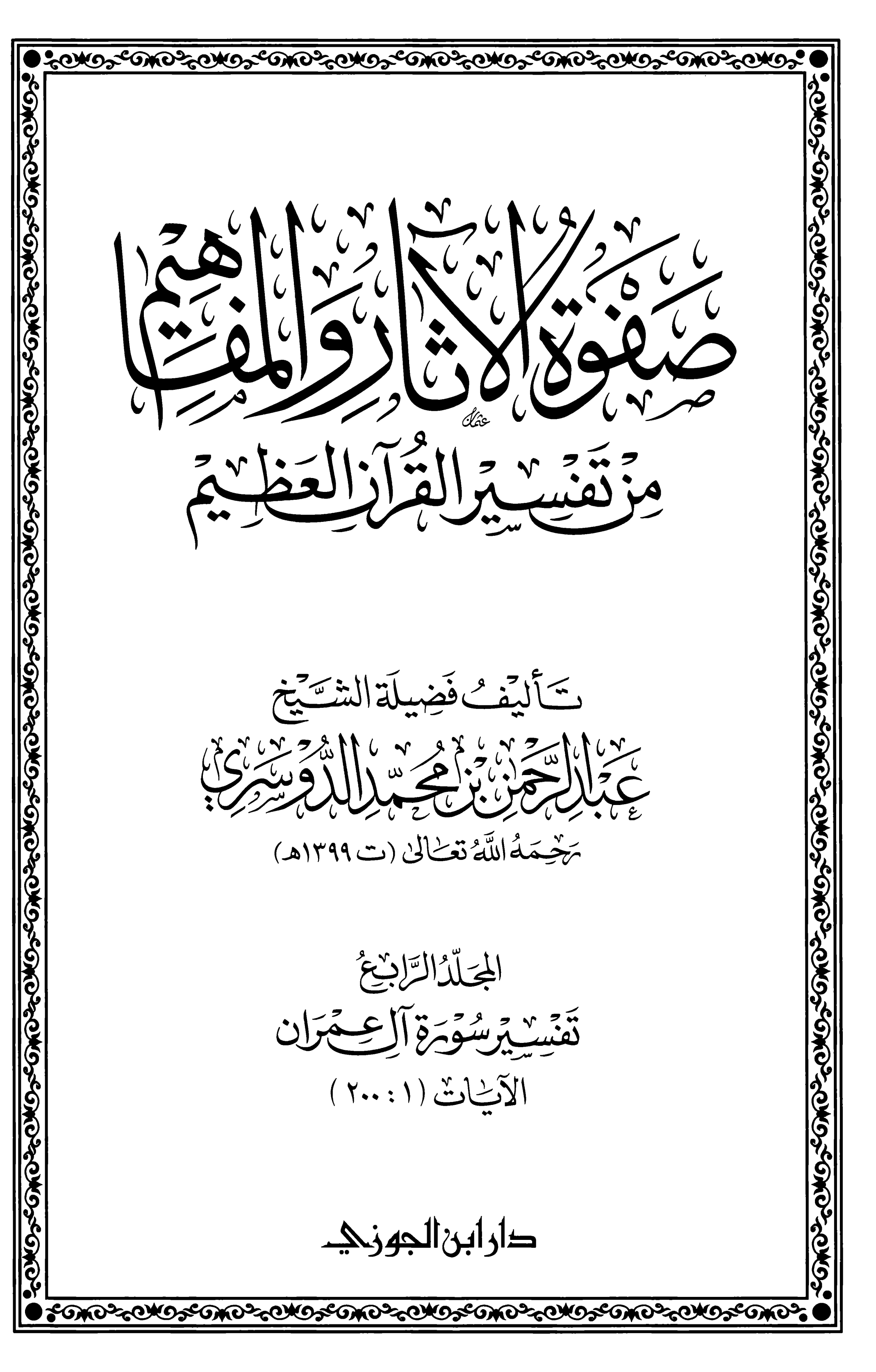
رقم الإيداع : ١٤٣٩/٩٣٠
ردمك : ٥-٣٥-٨٢٢٢-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثالثة
(١٤٣٩هـ)



دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية : الدمام - طريق الملك فهد - ت : ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣ ، ص ب : ٢٩٥٧
الرمز البريدي : ٣٢٢٥٣ - الرقم الإضافي : ٨٤٠٦ - فاكس : ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس : ٢١٠٧٢٢٨
جوال : ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨ - الإحساء - ت : ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت : ٠١٢٦٨١٤٥١٩ - بيروت
هاتف : ٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس : ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول : ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨
تلفاكس : ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ - الإسكندرية - ٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - البريد الإلكتروني :
aljawzi@hotmail.com-www.aljawzi.com



صفوة الآثار والمفاهيم

من تفسير القرآن العظيم

تأليف فضيلة الشيخ

عبد الرحمن بن محمد الدوسري

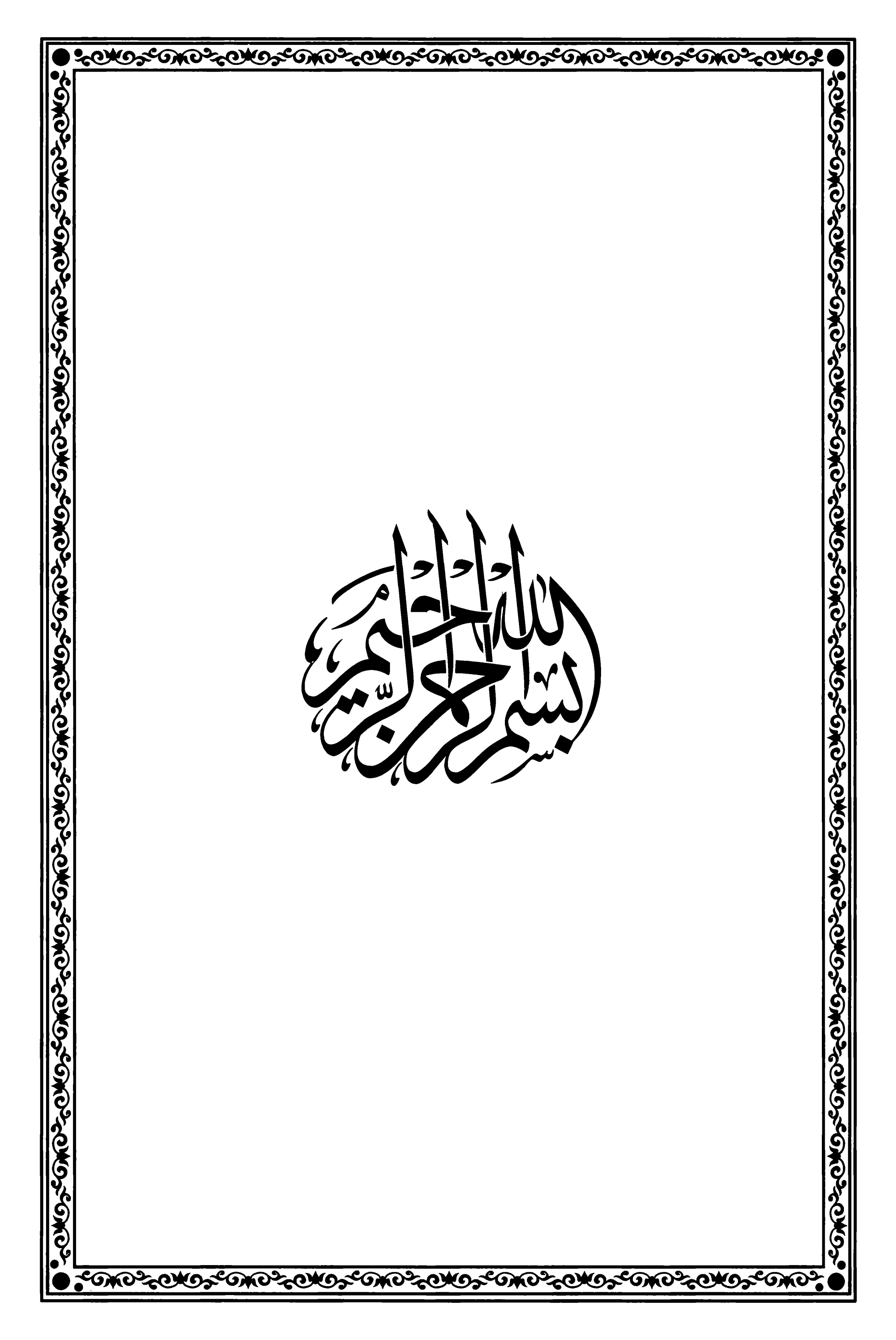
رحمه الله تعالى (ت ١٣٩٩هـ)

المجلد الرابع

تفسير سورة آل عمران

الآيات (١ : ٢٠٠)

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة آل عمران

(وهي مدنية، عدد آياتها مِئَتَان، وقيل: إلَّا واحدة)

صلتها بسورة البقرة:

يرجع اتصال سورة آل عمران بسورة البقرة التي قبلها، لما بين السورتين من تناسب في ذكر الكتاب، وفي ذكر أقسام الناس من حيث الاهتداء به، ولما تضمنتا من تركيز أمر العقيدة، وكشف فضائح اليهود والنصارىٰ، وبيان حقيقة عيسىٰ عليه السلام، وإبراز كرامته، وإظهار براءة أمه مريم.

وكذلك لتضمن سورة البقرة لذكر خلق آدم عليه السلام، وفي المقابل تضمنت سورة آل عمران خلق عيسىٰ عليه السلام وتشبيه الثاني بالأول في كونه جاء «بدعًا»، أي علىٰ غير سنة سابقة في الخلق، فآدم عليه السلام خلقه اللَّه بلا أب ولا أم، وحواء بدون أم، وعيسىٰ بدون أب.

كما أن السورتين تضمنتا أحكامًا مشتركة، كأحكام القتال.

والجدير بالذكر أن من قابل بينهما، وجد أن ما في السورة الأولىٰ، أحق بالتقديم وما في السورة الثانية أحق بالتأخير.

أسماؤها:

- سميت هذه السورة بآل عمران؛ لأن اصطفاء آل عمران نزل فيها، وهم: عيسىٰ، يحيىٰ، مريم، ووالدها عمران عليهم السلام. وقد جعل هذا الاصطفاء دليلًا علىٰ اصطفاء محمد ﷺ، إذ هو من آل إبراهيم، الذين اصطفاهم اللَّه قبل اصطفائه آل عمران، فجعله اللَّه متبوعًا لكل محب للَّه، ومحبوب له.

ـ وتسمىٰ ـ أيضًا ـ بالزهراء؛ لأنها تكشف مفتريات أهل الكتابين اليهود والنصارىٰ في عيسىٰ عليه السلام من غلو فيه، وطعن له.

ـ وتسمىٰ الأمان؛ لأن من تمسك بها أمن من الغلط في شأنه.

ـ وتسمىٰ الكنز؛ لكشفها حقيقة عيسىٰ عليه السلام؛ وما دار فيها من جدال بين الرسول ﷺ ونصارىٰ نجران، حيث نزل في ذلك ما يزيد علىٰ ثمانين آية من آيات السورة.

ـ وتسمىٰ الطيبة؛ لجمعها أصناف الطيبين في الآيتين السادسة عشرة، والسابعة عشرة منها: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾.

❊ ❊ ❊

فصل

قال تعالى في الآيات (١، ٢، ٣، ٤) من السورة: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤﴾:

تقدم بعض الكلام عن ﴿الٓمٓ﴾ وغيرها من الحروف المقطعة من أوائل سورة البقرة، ووعدنا بتكملة البحث فيها في سورة يوسف عليه السلام، ونرجو من اللَّه أن يوفقنا للوفاء بِهذا الوعد.

ومما تجدر الإشارة إليه أنها ـ أي الحروف المقطعة ـ مما تحدىٰ اللَّه به العرب، وأن هذا القرآن مركب من هذه الحروف التي تعرفونها، والتي تستخدمونها في خطبكم وأشعاركم. ومما ذكرناه في أوائل تفسير سورة البقرة أن العرب كانوا يألفون هذه الحروف، ولم ينكروها أو يتساءلوا فيها، رغم شدة إنكارهم للقرآن، وعنادهم في الكفر، ولم تكن مستغربة عندهم إلَّا بعد أن استعجمت الأدمغة والألسن، وكان هذا مع بداية القرن الثاني الهجري.

أما قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ فقد تكلمنا فيه في تفسير آية الكرسي العظيمة بما لعله يكفي ويشفي، فليرجع إليه.

وقوله سبحانه: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، يعني أن اللَّه أوحىٰ إليك يا محمد هذا الكتاب العزيز، محتويًا علىٰ الحق ومتصفًا به.

والتعبير عن الوحي بـ«التنزيل» و«الإنزال» كما هو هنا وفي آيات أخرىٰ للإشعار بعلو مرتبة الموحي تعالى علىٰ الموحىٰ إليه. ويصح التعبير «بالإنزال» ويراد بها إعطاء اللَّه نعمة لخلقه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥].

والتعبير عن القرآن بلفظ «الكتاب» تعبير عنه باسم الجنس، للإعلام بكمال تفوقه على سائر أفراد جنسه، لحيازته كمالات الجنس جميعها، فكأنه الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب دون غيره، كما ينبئ بذلك ذكر اسمي «التوراة» «والإنجيل».

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يعني أن فيه ما يثبت أنه من عند اللَّه، فلا يحتاج لغيره ليكون دليل إثبات على أحقيته، بل دليله ظاهر منه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧]، فكل منصف صادق يتلوه، يستيقن أنه من عند اللَّه، وكلما تدبره ازداد يقينه بذلك، لما اشتمل من فضائح بني إسرائيل، وأخبار الغيب التي لا يعلمها محمد ﷺ، ولا أمته قبل نزول القرآن، ولما فيه من الحجج الواضحة، والآيات الكونية الدالة على قدرة اللَّه وسابغ إنعامه، ولما تضمن من مقارعة الكافرين بالبراهين الدامغة الدالة على ألوهية اللَّه، وإثبات البعث والنشور، عقلًا وحسًّا.

قوله سبحانه: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني مصدقًا للكتب التي بين يديه، من كتابي موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام أنهما حق من عند اللَّه، وتصديقه هذا مؤكد لأحقيته في نفسه، بأنه من عند اللَّه الذي أنزل هذه الكتب قبله. فإن الحق يصدق بعضه بعضًا والباطل على العكس تمامًا ينقض بعضه بعضًا ويكذب بعضه بعضًا، والمراد أن اللَّه لم يبعث رسولًا ولم ينزل كتابًا إلَّا بالدعوة إلىٰ توحيده، والإيمان به وباليوم الآخر، ومن الإيمان به تنبيهه عما لا يليق به، كما أن جميع الكتب السماوية دعت إلىٰ العدل والإحسان، وأتت بالشرائع المناسبة لحياة أهلها. والقرآن مصدق لجميع هذه الكتب في كل ذلك، تصديقًا إجماليًّا، وليس في هذا تصديق لواقع أهل الكتاب، الذين حرفوا ونسوا. وهذا صريح قوله تعالىٰ: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ فيه بيان لما

أبْهمه اللَّه من قبل في قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وتعيين له بالتوراة والإنجيل وفي ذلك تبيين لرفعة محله، وتأكيد لما قبله، وتمهيد لما بعده، وبذلك يعلو شأن من يصدق بهما رفعة ونباهة، وتتدنىٰ حال من كفر بهما ضعة وهوانًا. كما استتبع ذلك ذكر العذاب الأليم والانتقام ـ كما قال المحققون ـ، و«التوراة» اسم عبري بمعنىٰ «الشريعة». و«الإنجيل» لفظة يونانية معناها «البشرىٰ» يعني الخبر الحسن، وقد حاول بعض الأدباء تطبيق هذين الاسمين علىٰ أوزان لغة العرب واشتقاقها منها فتخبطوا تخبط العشواء.

قوله سبحانه: ﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ متعلق بـ«أنزل»، يعني: أنزلهما من قبل إنزال القرآن، و﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ يعني لقوم موسىٰ وعيسىٰ، أو ما هو أكثر من ذلك، لأن هذه الأمة متعبدة بما لم ينسخه القرآن من الشرائع الأولىٰ، وتصريح اللَّه بالإنزال مع ظهور الأمر، يفيد المبالغة والزيادة في البيان. ويطلق النصارىٰ اسم «التوراة» علىٰ جميع الكتب التي يسمونها «العهد القديم»، وهي كتب الأنبياء وتاريخ قضاة بني إسرائيل وملوكهم قبل المسيح؛ في حين أن منها ما لا يعرف كاتبه، أما التوراة في عرف القرآن، فهو ما أنزله اللَّه علىٰ موسىٰ من الوحي، وقد أخبرنا اللَّه عن بني إسرائيل أنهم لم يحفظوه وجعلهم نوعين:

نوعًا نسوا حظًّا مما ذكروا به، ونوعًا حرفوا ما حفظوه، حيث قال: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣]، وفي آية ثانية: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ٤١].

وتشهد أسفارهم الخمسة التي عندهم بما يؤيد ذلك، كالذي جاء في سفر «التثنية» في الإصحاح الحادي والثلاثين من رقم (٢٤ ـ ٤٥)، مما لا نحب ذكره في تفسير الكتاب المبارك، وقد أورد كبار اللاهوت، أن التوراة ضاعت مع التابوت، وأنهم كتبوا غيرها مما حفظوه وزادوا فيها وأنقصوا، كإلحاقهم خبر موت موسىٰ في التوراة وما هو منها، وجاء في نفس أخبارهما في الفصل الرابع والثلاثين من أخبار الأيام

الثاني أن «حلقيا الكاهن» وجد سفر شريعة الرب، فادعوا أن الذي كتب هذا السفر هو موسىٰ ﵇ ولا دليل عندهم علىٰ ذلك. وقد كتب لهم - أيضًا - «عزرا الكاهن» ما كتب بأمر ملك فارس «أرتخشتا» الذي أذن لهم بالعودة إلىٰ القدس، فعدوه من التوراة، وهذا من تلاعبهم بوحي اللَّه. وقد أمر هذا الملك أن تقام شريعتهم وشريعته - كما جاء في الفصل السابع من سفر «عزرا» - فجميع أسفار التوراة التي عندهم كتبت بعد السبي. وهذا مما يحقق نسيانهم لبعضها، وتحريفهم للبعض الآخر، كما أثبت ذلك القرآن ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]. وأما الإنجيل فقد تأخرت كتابته عن زمن عيسىٰ بعدة قرون، بسبب اضطهاد اليهود والرومان للنصارىٰ، والمشهور عندهما إنجيل بطرس، وإنجيل حنا، وإنجيل يعقوب، ورؤيا يوحنا.

وهذه الأربعة عبارة عن كتب وجيزة في سيرة المسيح، وشيء من تاريخه وتعاليمه، دون أن يكون لها سند متصل عند أهلها، وهم مختلفون في تاريخ كتابتها اختلافًا كثيرًا، والصحيح أن كتب النصارىٰ لم تعرف ولم تشتهر إلا في القرن الرابع لميلاد المسيح، وذلك بسبب الاضطهاد الذي تعرضوا له، وقد عبثت الماسونية اليهودية في أناجيلهم، وبمكرهم الدقيق تمكن بعض اليهود الماسونيين من الدخول في النصرانية إفكًا ونفاقًا للدس والتحريف، وأصدق أناجيلهم إنجيل «برنابا» وأكثرهم لا يعترف به، لما دهاهم من المكر الماسوني الذي خرب أفكارهم وقلب مفاهيمهم رأسًا علىٰ عقب، وهذا الإنجيل - إنجيل برنابا - فيه بشارة عيسىٰ ﵇ بمحمد ﷺ، ولهذا أبت عليهم الماسونية قبوله إلَّا قليلًا منهم، وما معنىٰ الإنجيل إلَّا البشارة وقد جاء فيه نص بأن عيسىٰ ﵇ مصدق لما بين يديه من التوراة ومبشر بنبينا محمد ﷺ، كما ثبت ذلك في سورة الصف، في الآية السادسة منها. وإفراد اللَّه سبحانه لذكر الإنجيل في القرآن دائمًا يدل علىٰ أن هذه الأناجيل المتعددة عند النصارىٰ ليست هي الإنجيل الذي أنزله

اللَّه علىٰ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكذلك الأمر بالنسبة للتوراة، وقد جاءت في القرآن مفردة.

ومن تأمل القرآن الكريم يجد أنه قال في حق التوراة: ﴿هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤]، أما في الإنجيل فيصفه بأنه هدىٰ ونور، وأنه مصدق لما بين يديه من التوراة، قال تعالىٰ: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧] في حين تخلو الأناجيل المتعددة من التشريع الذي يمكن أن يحكم به، فيتبين بذلك التدليس والغش الذي تعرض له الإنجيل علىٰ يد الماسونية.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾؛ فقد تقدم أن الفرقان هو ما يفرق اللَّه به بين الحق والباطل، والمعنىٰ: وأنزل الفصل بين الحق والباطل، فيما اختلفت فيه الأحزاب وأهل الملل في أمر عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وغيره، كما قال ابن جرير، ورجح تأويل محمد بن جعفر بن الزبير؛ من أن الفرقان هو الفصل بين الحق والباطل فيما اختلفت فيه الأحزاب في أمر عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وغيره، فيكون الفرقان في الموضع قد فصل اللَّه به بين نبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والذين حاجوه في أمر عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي غير ذلك من الأمور. حيث أتىٰ بالحجة البالغة القاطعة عذرهم وعذر نظرائهم من أهل الكفر باللَّه.

وعلل ابن جرير أولوية هذا القول بالصواب بأن اللَّه أخبر عن تنزيله القرآن أولًا، قبل إخباره بتنزيل التوراة والإنجيل في هذه الآية، فلا وجه لتكريره مرة أخرىٰ، فالفرقان هو الفصل بين الحق والباطل، إما بالحجة البالغة الدامغة، وإما بالقهر والغلبة بالأيدي والقوة، كما سمىٰ اللَّه يوم بدر بالفرقان.

وقال شيخ صاحب «المنار»: إن الفرقان هو العقل الذي به تكون التفرقة بين الحق والباطل، وأيده تلميذه قائلًا: إن العقل هو آلة التفرقة، وقد خفي عليهما ـ رحمهما اللَّه تعالىٰ ـ أن العقل لا يستقل بذلك حتىٰ يستنير بنور اللَّه، وأنه لا يمكن أن يتحقق الفرقان بالحجة

الدامغة إلَّا بوحي من اللَّه، ولا يتحقق الفرقان بالقهر والغلبة إلَّا بنصر اللَّه وتأييده، وأما العقل فمجاله محدود وخطواته مضطربة، ولا يستقيم أمره أو ينضبط اتزانه إلَّا بوحي اللَّه الذي يستنير به، وكل من اعتمد علىٰ العقل منعزلًا عن نصوص القرآن فقد ظهر شططه واضطرابه، وتفاقم تناقضه، كما جرىٰ لأهل الكلام الذين خاضوا في العقائد، معتمدين علىٰ العقل، ومتزودين له بالمنطق دون القرآن، فقد حرمهم اللَّه من الصواب، لما أعرضوا عن نوره، وأضاعوا أعمارهم في القيل والقال، والقول علىٰ اللَّه بغير علم.

✍ وفي هذه الآيات نكت بديعة:

إحداها: أن اللَّه أتىٰ بذكر المنزل عليه مشيرًا إلىٰ محمد ﷺ: ﴿**أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ**﴾ يعني: القرآن، ولم يأت بذكر من أنزل عليه التوراة والإنجيل، وهذا تخصيص لنبينا محمد ﷺ، وتشريف له بالذكر لأنه أفضل من سائر الأنبياء.

ثانيها: أن اللَّه سبحانه جاء بذكر الخطاب، لما في الخطاب من المؤانسة، كما قال المحققون.

ثالثها: أن اللَّه سبحانه أتىٰ بلفظ «علىٰ»، في قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ﴾ لما فيها من الاستعلاء، كأن هذا الكتاب ـ هو القرآن ـ تجلله وتغشاه كله ﷺ.

رابعها: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**بِٱلْحَقِّ**﴾، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «بالعدل»، وفيه وجهان:

أحدهما: العدل فيما استحقه عليك من حمل أثقال النبوة.

والثاني: بالعدل فيما اختصك به من طرف النبوة.

ورجح ابن جرير معنىٰ بالحق: بالصدق، حيث قال ـ يقول ـ جل ثناؤه: يا محمد، إن ربك، ورب عيسىٰ، ورب كل شيء، هو الرب الذي أنزل عليك الكتاب، يعني بالكتاب القرآن، ﴿**بِٱلْحَقِّ**﴾، يعني: بالصدق،

فيما اختلف فيه أهل التوراة والإنجيل، وفيما خالفك فيه محاجوك من نصارىٰ أهل نجران وسائر أهل الشرك وغيرهم؛ وذلك يقتضي إتيانه بالحجج القاطعة والبراهين الدامغة.

خامسها: الباء في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ تحتمل السببية، أي بسبب إثبات الحق، وتحتمل الحال، أي: محقًّا، نحو: خرج زيد بسلاحه، أي: متسلحًا، واللَّه أعلم.

سادسها: إنزال الكتاب بالحق يستلزم القيام به، وأخذه بقوة، وذلك بتنفيذ أوامر اللَّه فيه بكل صدق وإخلاص وتشرف، وتحليل حلاله، وتحريم حرامه، لا كما يفعله العصريون من معاكسة القرآن، ومن ثم أن يقام بنشر هدايته، ويبذل الغالي والرخيص، بل النفس والنفيس في ذلك، وأن يستقل أهله بشخصياتهم، وسائر أعمالهم عما سواهم، إذ هم المصدرون لا المستوردون، ولهذا أعقب اللَّه سبحانه ذكر الإنزال بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾؛ لأن كل من خالف أحكام القرآن فهو كافر[1]، ومن استحل ما حرمه القرآن فهو كافر، مهما كان، ومن عطَّل العمل بالقرآن فهو كافر، وإن لم يصرح بإنكاره، إذ إن الغاية من نزول القرآن أن يعمل به، وأن يجعل نبراسًا بالإضافة لسنة الرسول ﷺ فإنها الوحي الثاني.

وقد تقدم أن الكفر هو ستر الحق، والتعامي عنه بأي وجه من الوجوه، والكفر ـ بضم الكاف ـ ضد الإيمان وهو مأخوذ من «الكَفر» ـ بفتح الكاف ـ وهو ستر الشيء وتغطيته، ومنه قيل للسحاب: كافر، لستره ضوء الشمس، وللزارع ـ أيضًا ـ لستره البذر بالتراب، فالكافر يخفي الحق ويغطيه بأنواع التلبيس المختلفة.

---

(١) مراد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أن من استحل مخالفة القرآن أو رأىٰ عدم وجوب الأخذ بأحكامه فهو كافر. وأما مطلق المخالفة فليس بكفر مخرج من الملة ـ كما هو معلومٌ من عقيدة أهل السنة والجماعة ـ.

والكفر أنواع، فتارة يكون بإنكار اللَّه أو جحود وحدانيته، أو إنكار النبوة أو الشريعة، أو إباحة أي شيء مما حرم اللَّه، أو الافتراء علىٰ اللَّه، بتبني مبدأ أو مذهب مخالف لملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو مناقض لمدلول الشهادتين، مما تنصرف به القلوب عن حب اللَّه والتزام أوامره والعمل لدينه والجهاد في سبيله وتتوجه به الناس إلىٰ حب الجنس أو الوطن، والعمل من أجلهما، والقتال في سبيلهما أو تتوجه به إلىٰ حب الأشخاص وطاعتهم، والجهاد في سبيله واستحسان ما يشرعونه مع مخالفته شرع اللَّه، والخضوع لهم في تحريم الحلال وتحليل الحرام، وغير ذلك مما يعتبر عبادة للطواغيت، وكذلك طاعة الماسونية اليهودية، في فتنها المتنوعة، وتربيتها المنحرفة، فكل هذا من أنواع الكفر.

وكذلك الإلحاد بأي ثوب ظهر، وبأي سمة اتسم، مما هو ميل عن دين اللَّه، ومخالفة لوحيه، قولًا أو عملًا.

والكفر أعم من الشرك، فالشرك الأكبر كفر، كاتخاذ الأنداد للَّه، أيًّا كانوا ناطقين أم صامتين، أحياء أم مقبورين، ولو لم يعتقد فيهم التأثير، فإن مشركي العرب الذين كفرهم اللَّه وأباح دماءهم وأموالهم ونساءهم لم يكونوا يعتقدون التأثير في أصنامهم ونحوها، وإنما كانوا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]؛ فتقييد الكفر باعتقاد التأثير هو شيء حادث من تلبيس الشيطان علىٰ مشركي هذا الزمان، فكل من اتخذ وسائط بينه وبين اللَّه، يدعوهم ويستغيث بهم في الشدائد، معتمدًا عليهم فهو مشرك، وإن لم يعتقد التأثير.

وكل من اتخذ من دونه أندادًا يحبهم ويرجوهم ويخافهم، ويوالي من أجلهم فهو مشرك، وإن أعتقد ربوبية اللَّه؛ لأنه جالب علىٰ ألوهيته بمحبة سواه، ورجائه والخوف منه، والموالاة والمعادات من أجله وقد أثبتت الوقائع أنهم يحبون الأنداد التي اتخذوها من دون اللَّه أشد من حب اللَّه، ويخافونها أكثر مما يخافون اللَّه، ويرجونها

ويغضبون لأجلها أشد مما يغضبون للَّه، مع اعتقادهم أنه الرب الخالق الرازق المحسن المحيي المميت، ولكنهم ساووهم باللَّه، أو زادوهم عليه في الحب والتعظيم والإذعان، فهم مشركون شركًا أكبر لذلك.

وليس الشرك مقصورًا علىٰ ذلك، بل إنه يتمثل بانصراف القلب عن اللَّه إلىٰ غيره، أيًا كان، ولهذا قال ﷺ: «**تَعِس عبدُ الدرهم، تَعِس عبدُ الدينار، تعس عبد القطيفة، تَعِس عبدُ الخميصة**»[١]، أي: عبد ما أحب من المادة، والمتاع، والزينة، والشهوات، وغير ذلك.

ثم إن هناك شركًا أعظم من ذلك كله، وهو شرك التعطيل، تعطيل اللَّه عن صفاته وأسمائه، أي تعطيل اللَّه في حاكميته فلا تمتثل أوامره، وتجتنب نواهيه ولا تقام حدوده، ولا يلتزم وحيه، فأرباب هذا الشرك الذين لا يلتزمون وحي اللَّه، ولا يتقيدون بشريعته، شركهم أفظع وأشنع من شرك عباد الأصنام؛ لأن عباد الأصنام يعظمون اللَّه مع جهلهم حقيقة تعظيمه حيث اتخذوا له الوسائط، أما ذوو التربية الماسونية الحديثة، فليس للَّه ذرة حب في قلوبهم، بل فيهم من ينكره ويزعم أنه خرافة، أو أنه فكرة متطورة، كما أوضحت ذلك في ردي علىٰ الشاعر القروي[٢].

وبعضهم إذا احتل الصدارة، أو افترس الحكم أعلن ما يضمره من إنكار للَّه، والاستهزاء بالدين، والطعن في شخصية الرسول ﷺ، والقرآن الذي جاء به، فشركهم التعطيلي أشنع من كل شرك، وأكفر من كل كفر، والعياذ باللَّه.

فقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، يعني: إن الذين

---

(١) رواه البخاري (٢٨٨٦).

(٢) رشيد سليم الخوري الذي قال:

بلادك قدِّمها علىٰ كلِّ ملةٍ ... ومن أجلها أفطر ومن أجلها صُمِ

كفروا بآيات اللَّه، علىٰ اختلاف كفرهم، لهم عذاب شديد من عذاب الدنيا كالقتل، والأسر، والسبي، والغلبة، والعقوبات الأخرىٰ، ومن عذاب الآخرة كنار الجحيم، وعذاب القبر، وما يحصل لهم يوم القيامة من شرر النار، واختطاف كلاليبها لهم عند الصراط، وما يذوقونه من مقامع الزبانية، وطعام الزقوم، وشرب الحميم الذي يشوي الوجوه، وغير ذلك من صنوف العذاب الشديد المقيم. سواء أكان كفرهم بجحود اللَّه، أو جحود بعض أوصافه، أو إنكار ملائكته، أو رسله، أو كتبه، أو جحود آياته الواردة في المسيح وغيره، أو كان جحودهم للقرآن، الذي هو الفصل بين الحق والباطل، أو كان جحودهم بالاستهزاء بآياته أو بسنة نبيه ﷺ، أو بعباده الصالحين لأجل التزامهم الدين. أو كان كفرهم كفر تعطيل للَّه عن أسمائه، أو عن طاعته والتزام وحيه وحدوده، فالذين كفروا علىٰ اختلاف كفرهم لهم العذاب الشديد في الدنيا والآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور: ٤٧] إلىٰ أن يقول: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة].

قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ يعني: عزيز لا يرام جانبه، ممتنع بعزته عن كل قهر؛ لأنه القاهر الغلاب الذي لا يغلبه شيء، ولا يفلت من حكمه وعزته شيء، فهو المنتصر لنفسه، والناصر لأوليائه، الخاذل لأعدائه وأعدائهم، وهو ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ أي: ذو سطوة وعقوبة ليس لها مثيل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]. وهذا الوعيد للكفار جاء به اللَّه عقب ما تقدم من إنزال الكتب، حملًا لهم علىٰ الإذعان، وزجرًا لهم عن التمرد والعصيان، والنقمة هي المكافأة بالعقوبة، بمعنىٰ النقمة والسطوة، وقوة السلطة، لا بمعنىٰ التشفي كما يستعمله أهل العصر الحديث، فإن العبرة بمعنىٰ اللغة، وقت النزول لا بما أحدثه المولَّدون في اللغة، فذو الانتقام في أصل اللغة العربية، يعني: ذو العقوبة الشديدة التي لا

يقدر علىٰ مثلها منتقم.

وعقوبته سبحانه ماضية وجارية علىٰ جميع أنواع الكفار والمرتدين ممن كسبتهم الماسونية بتربيتها الحديثة، فأزاحتهم عن دين آبائهم المسلمين، فاستباحوا ما حرم اللَّه، وأقاموا حكمًا علمانيًّا يفضلون به المجرمين علىٰ المسلمين، وجميعهم يتقلب في أنواع من عقوبات اللَّه القدرية من الخوف، والإزعاج، والنقص في الثمرات، وتسلط بعضهم علىٰ بعض، وإضاعة أموالهم وطاقاتهم في غزو الفضاء، وتسابقهم في التسلح، وإغراء اللَّه العداوة بينهم بحيث لا يخلو القرن الواحد من حرب أو حربين أو أكثر، تجري فيها المجازر البشرية الهائلة، وتدمر فيها المدن العديدة ويجري فيها من الدمار ما اللَّه أعلم به.

والمرتدون الذين كسبتهم الماسونية يهلك بعضهم بعضًا، بالثورات التي يذهب بها كبارهم لتشاحنهم وتكالبهم علىٰ المنصب والرئاسة والجاه، وأكل أموال الناس بالباطل بصنوف الدجل والتضليل، وعملهم علىٰ سد أبواب المنافسة، فتفسد التجارة، وبقية الأعمال الأخرىٰ، وكل هذا من بعض عقوبات اللَّه القدرية التي ذكرنا قسمًا كبيرًا منها عند تفسير الآية (٢١١) من سورة البقرة، وما توعدهم اللَّه به في الآية (٦٥) من سورة الأنعام بقول: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام].

وقوله سبحانه في الآية (٥، ٦) من السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾:

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾، لما افتتح اللَّه هذه السورة بذكر انفراده بالألوهيَّة، التي نازعه فيها الكفار والمشركون، من شرك في الوسائط، وشرك في التعطيل من كل من يريد أن يجعل الخيرة لنفسه في كل ميدان من ميادين الحياة، ثم ذكر

الحياة والقيومية، ثم ذكر إنزال الكتب السماوية، وإعداد العذاب للكافر بها كفرًا عمليًّا أو كفرًا اعتقاديًّا، أعقب ذلك بذكر صفة العلم فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾.

وكلمة ﴿شَيْءٌ﴾ نكرة في سياق النفي، فتعم وتشمل جميع الكليات والجزئيات.

وتعبيره سبحانه عن العالم بالأرض والسماء؛ لأنهما أكبر ما نشاهده، وإلَّا فلا يحيط بأكوانه وعوالمه وجنوده أحد من خلقه، وليست الأرض والسماء مقر علمه فقط، بل علمه محيط بما وراءهما إذ المراد بالأرض والسماء جميع العوالم مما لا يحيط به علمًا سواه.

وتقديمه سبحانه الأرض علىٰ السماء، يفيد إظهار الاعتناء بشؤون وأحوال أهلها، وهذا يشير إلىٰ وعيد أهل الضلالة منهم، وأن اللَّه يعلم إيمان المؤمن منهم، وكفر الكافر، ونفاق المنافق، وإلحاد الملحد علىٰ اختلاف أنواع الكفر، والنفاق، والإلحاد، ويعلم سبحانه حقيقة من يظهر الصلاح وهو يبطن ضده من الغش، ويعلم سر حال من شرح بالكفر صدرًا، ومن هو مكره علىٰ الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ويعلم حال المادي المساير للحكام والمتزلف إليهم علىٰ حساب دينه، وذاك الذي يسترخص نفسه ودينه، فيصدر الفتاوىٰ المخالفة لشرع اللَّه. فهو عليم بحقيقة عباده لا تخفىٰ عليه منهم خافية، وهذا من كمال قدرته، وعظيم عزته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أما بيان إحاطة علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكل شيء، فيفيد تفخيم الوعيد السابق للكافرين، والإشارة إلىٰ كونه عَزَّ وَجَلَّ جبارًا كامل القدرة، وبكمال العلم والقدرة يتم معنىٰ القيومية، إذ هو القائم بمصالح الخلق ومهماتهم، كما يتضح بذلك معنىٰ «العزة» التي هي من صفات الذات، وفي ذلك رد علىٰ النصارىٰ، إذ إن شبهتهم التي جعلتهم يقولون بألوهيَّة عيسىٰ كانت نابعة من إخباره عن الغيب وهذه ترجع إلىٰ صفة العلم، وأنه

يحيي الموتىٰ وهذه تعود إلىٰ صفة القدرة، فهذه الآية نبهت المسلمين، وأعطتهم حجة قوية دامغة، من أن اللَّه هو العالم بجميع الأشياء، فلا يخفىٰ عليه منها شيء أبدًا، ومن المعلوم أن عيسىٰ عليه السلام لم يكن عالمًا بكل شيء، فلزم من هذا أن عيسىٰ ليس إلهًا، أما إخباره عن بعض المغيبات، أو إحياؤه لبعض الأموات فهذه معجزات أجراها اللَّه علىٰ يديه، فلا يلزم منها القول بألوهيته، كما زعم النصارىٰ.

فهذه الآية وما قبلها فيهما التنبيه الواضح علىٰ هذه الحقيقة، كما أن قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ فيه الرد الكافي علىٰ من زعم أن عيسىٰ إلهًا؛ إذ من المعلوم بالضرورة أنه قد صوره اللَّه في رحم أمه، وهو بنفسه - يعني عيسىٰ - ليس بقادر علىٰ التصوير في الرحم قطعًا. وأما ما فعله من معجزات فقد اعترف به لبني إسرائيل، أنه إنما يفعله بإذن اللَّه، حيث قال فيما سيأتي بيانه: ﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩]. فعمله محدود، ومقيد بإذن ربه، وليس في طاقته تصوير الأنفس في الأرحام، فهذا مما اختص اللَّه به وحده دون ما سواه.

وفي قوله سبحانه: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ﴾ تنبيه علىٰ أن إيقاف بعض الرسل علىٰ بعض المغيبات كعيسىٰ عليه السلام - وهو بمعزل عن بلوغ رتبة الصفات الإلهية - إنما هو من المعجزات التي أجراها وأمثالها علىٰ أيدي رسله.

وفي تكرير اللَّه سبحانه حرف النفي بين الأرض والسماء وتكرير الإسناد والظرفية تقوية للحكم، يستفيده السامع من عموم النفي، إن اللَّه سبحانه لا يخفىٰ عليه شيء ما، كائن في العالم بأسره، كيفما كانت الظرفية.

وتعبير اللَّه بعدم الخفاء أبلغ من التعبير بالعلم.

وفي قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ﴾ أبلغ تحذير لعباده من مخالفته، سواء كانت المخالفة سرية أم جهرية، وأكبر إشعار بالوعيد بالمجازاة علىٰ المخالفة.

قال الماتريدي: فإن اللَّه لا يخفىٰ عليه شيء من الأمور الخفية عن الخلق، فكيف تخفىٰ عليه أعمالكم التي هي ظاهرة عندكم.

وفي الحقيقة إن محتويات هذه السورة المباركة كلها توجيه إلىٰ العقيدة الإسلامية وبيان لها، وجدال مرير حولها مع أهل الكتاب، وكلها تثبيت لقلوب المسلمين المؤمنين مما يصيبهم من فتنة أو هزيمة، نتيجة لمخالفتهم أمر اللَّه، وتفضيلهم الدنيا علىٰ الآخرة، ولهذا كان مبدؤها إعلامًا بمحتوياتها العقائدية ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، ونهايتها وصية اللَّه لعباده بالصبر والمصابرة علىٰ العقيدة، والمرابطة من أجلها طيلة العمر، والتزام تقوىٰ اللَّه في جميع الشؤون ليفوزوا بالفلاح.

والأصل الكبير في العقيدة، حسن تأليه الإله، كما يطلبه ويرتضيه بالحب، والإجلال، والتعظيم، وصدق الانقياد، والإخلاص في الامتثال، وقبول جميع وحيه بالتنفيذ، في رغبة وقوة، وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فهو الأصل الأصيل، الذي تلتقي عنده جميع الرسالات، والذي يوجب علىٰ أهله معاملة اللَّه أعظم من معاملة المحب لحبيبه؛ لأنه الحي الأبدي الأزلي، لا بداية لوجوده ولا نهاية، والقيوم الذي قام بنفسه دون استمداد من مصدر، ويقوم به غيره، ويستمد منه وجوده، ويفتقر إليه، فجميع ما في العوالم العلوية والسفلية من نعمة فهي منه، وملجؤها إليه دون ما سواه.

ففي هذه الآية الكريمة يظهر لنا وجوب توحيد الإله، وتوحيد الاتجاه إليه سبحانه، في التلقي والهداية، والتربية والثقافة، وذلك بالالتزام الكامل بما جاء في القرآن والسنة، ولذا قال سبحانه: ﴿نَزَّلَ

عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالحق في كل شيء، وفي كل مجال من مجالات الحياة، سواء كان ذلك في العقيدة، أو الشريعة، أو الأخلاق، أو غير ذلك.

ولما كان كذلك، فقد جاء الوعيد الشديد لمن كفر بِهذا الكتاب الذي هو الحق، سواء كفر به أصلًا، أو آمن به ولكنه عطل أحكامه، ولم يعمل بها اتباعًا لهوًى، أو مصلحة، كما هو الأمر في زماننا.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾: في الآية إثبات لقيوميته ﷻ، وتقرير لسعة علمه، حيث يذكر الناس بنشأتهم الأولىٰ، تلك النشأة المجهولة في ظلمات الأرحام حيث لا علم لهم بها، ولا قدرة لهم عليها متقلبين علىٰ وفق مشيئته في أطوار متغايرة من نطفة، إلىٰ علقة، إلىٰ مضغة، إلىٰ آخر الأطوار من تكوين العظام وكسوتها باللحم؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

ثم تصويرهم علىٰ ما شاء ﷻ، من الذكورة والأنوثة وبألوان مختلفة، وصور شتىٰ، الفرع منهم يشبه أصله، حسب غَلَبة النطفة، وما تحمله من مادة الشبه.

﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾ جمع «رحم»، وهي معلومة، وكأنها مشتقة مما يتراحم ويتعاطف به، كما ورد الحديث بذلك.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ توكيد لما جاء في الآيات السابقة من حصر الألوهية في اللَّه وحده.

وتوحيد الألوهية هذا هو الذي وقع النزاع والخصومة فيه بين جميع المرسلين وأممهم من نوح عليه السلام إلىٰ نبينا محمد ﷺ، وهو الذي لا يزال التفلت منه قائمًا عند جميع الأحزاب القومية والمادية، وأصبح اللَّه عندهم ليس ربًّا ولا إلهًا ولا ملكًا للناس.

وناسب ذكر الألوهية ختم الآية بصفتي العلم والقدرة، ذلك العلم الشامل للكليات والجزئيات، والخفيات والجليات، وتلك القدرة الخلاقة المكونة المصورة المتقنة الباهرة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك].

وهاهنا لابد من بيان بعض الفوائد:

إحداها: جمع اللّه ﷻ بين السماء والأرض تنبيهًا للحس علىٰ إعانة العقل في التفكير في خلق السماوات والأرض وبإعانته له يحصل كمال الفهم وقوته.

ثانيها: ذكر التصوير في الأرحام بعد ذكر علمه بما في الأرض والسماء أفاد أمرين:

١ ـ كمال علمه ﷻ بحاجات الناس كما وكيفا.

٢ ـ كمال القدرة علىٰ تنفيذها وتحقيقها.

ثالثها: أفادت الآية سعة علم اللّه ﷻ، ومحدودية علم المخلوقين، ومنهم عيسىٰ عليه السلام وفي هذا دحض لشبهة النصارىٰ في علم المسيح، ولا أدل علىٰ ذلك من عدم معرفته بمكر أعدائه الذين أرادوا قتله وصلبه.

رابعها: في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ دلالة علىٰ بشرية عيسىٰ عليه السلام، ومخلوقيته، ونفي لألوهيته، حيث صوره اللّه في رحم أمه مما شاء، وكيف شاء، وبدون أب.

وأما استدلال النصارىٰ علىٰ ألوهية عيسىٰ بما جاء في القرآن من أنه روح اللّه وكلمته، فنقول: هذا من المتشابه الذي يجب رده إلىٰ المحكم، وإن فعلنا ذلك كان المراد بروح اللّه، نفخة جبريل في مريم، وبكلمته تكليمه الناس في المهد.

وقوله تعالى في الآيات: (٧، ٨، ٩) من السورة: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ

فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾:

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية (٧) فيها مسائل مفيدة:

إحداها: أنه ﷻ هو وحده المختص بإنزال الكتاب، الذي هو كلامه، منه بدأ وإليه يعود، ولهذا فإنه وحده المستحق للعبادة، دون سواه.

ثانيها: في الآية دليل علىٰ قيوميته ﷻ علىٰ خلقه، وقيامه علىٰ مصالحهم، وحسن رعايتهم، وهذه هي الغاية من إنزال الكتاب.

ثالثها: إن هذا القرآن دل علىٰ أنه بكليته محكم، وأنه بكليته متشابه، ودل علىٰ أن بعضه محكم، وبعضه متشابه.

أما أدلة كونه محكمًا بكليته قوله ﷻ: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود: ١]، وقوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف] والمعنىٰ في الآيات المتقدمة إنه كلام فصيح الألفاظ، واضح المعاني لا يدانيه في ذلك كلام.

وأما الأدلة علىٰ أنه كله متشابه، فهو قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣].

والمعنىٰ: أنه يشبه بعضه بعضًا في حسن البيان، كما يصدق بعضه بعضًا كما قال عنه تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وأما الدليل علىٰ أن بعضه محكم، وبعضه متشابه، فهو هذه الآية التي نتكلم عنها. فالمحكم مشتق من أحكم الشيء، أي: وثقه وأتقنه، حتىٰ يمتنع تطرق الخلل إليه. والمتشابه فهو ما اشتبه، أو التبس معناه، مأخوذ من اشتباه الأمور.

لقد أثبتت الآية المحكم والمتشابه في القرآن، ولكن من فسر القرآن

بالقرآن، وبالسنة الصحيحة فسيتضح له حقيقة المتشابه وينجو من الالتباس.

أما من أراد تفسير القرآن بالعقل المجرد، وأخضعه للمنطق، فهذا سيبقىٰ في التيه والحيرة.

رابعها: أحسن ما قيل في الآيات المحكمات: أنهن اللواتي قد أحكمهن اللَّه بالبيان والتفصيل، وأثبت حججهن وأدلتهن علىٰ ما جُعِلنَ أدلة عليه من حلال وحرام، ووعد ووعيد، وثواب وعقاب، وأمر ونَهْي وخبر، ومثل وعظة وعبر وهذا تعبير ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله سبحانه: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: أصل الكتاب الذي يرجع إليه في معرفة الدين، والفرائض والحدود، وسائر ما يحتاج إليه المسلمون عند الحاجة، وقد كانت العرب تسمي الجامع لمعظم الشيء: «أمًّا له»؛ فتسمىٰ البلدة التي يحتاج إليها أهل القرىٰ في معاملاتهم ومراجعاتهم: «أم القرىٰ»، وتسمىٰ بلغة العصر الحديث «العاصمة».

وراية القوم التي تجمعهم ويدافعون عنها تسمىٰ «أمهم» إلىٰ غير ذلك، ومن أراد مزيدًا من التفصيل فليرجع إلىٰ الجزء الأول من تفسير ابن جرير (ص ١٠٧، ١٠٨) عند كلامه علىٰ تسمية سورة الفاتحة «أم الكتاب».

خامسها: جاء لفظ ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مفردًا، ولم يأت بصيغة الجمع «هن أمهات الكتاب» للدلالة علىٰ أن جميع الآيات المحكمات هن أم الكتاب، وليس كل آية منهن أم الكتاب، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠] فلم يقل: آيتين.

وقال بعض نحاة البصريين في قوله تعالىٰ: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾: إنها جاءت علىٰ وجه الحكاية، مستشهدًا بشعر بعيد عن المقصود، وهذا غلط ظاهر.

سادسها: أن أصح ما قيل في المتشابهات، أنهن متشابهات في التلاوة مختلفات في المعنىٰ، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥]، يعني: متشابها في المنظر، أو الاسم، مختلفا في الطعم.

قال ابن جرير: وتأويل الكلام إذن، أن الذي لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء هو الذي أنزل عليك يا محمد القرآن منه آيات محكمات بالبيان، هن أصل الكتاب الذي عليه عمادك وعماد أمتك في الدين، وإليه مفزعك ومفزعهم فيما افترضت عليك وعليهم من شرائع الإسلام، وأخر متشابهات في التلاوة، مختلفات في المعاني. وقد روىٰ هو أي - ابن جرير - عن مجاهد عكس هذا التفسير للفظ ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾.

ولعلماء التفسير اختلاف كبير في ذلك، لا يجوز نقله تجنبًا للتطويل، واضطراب الأسماع.

وقال ابن زيد في المتشابه من القرآن: من يرد اللَّه به البلاء والضلالة، يقل: ما شأن هذا لا يكون هكذا؟ وما شأن هذا لا يكون هكذا؟.

وقال ابن جرير بعد سياقه كلام أهل التأويل، وحديث جابر بن عبداللَّه بن رئاب الذي تكرر ذكره في أول سورة البقرة، عن بعض اليهود الذين أولوا الحروف المقطعة بالأرقام المفيدة عن عُمُر هذه الأمة، فكذبهم اللَّه، وأعلمهم أن ما ابتغوا علمه من هذه الحروف، لا يدركونه منها، ولا من غيرها. قال ابن جرير بعد ذلك: وهذا القول الذي ذكرناه عن جابر بن عبداللَّه أشبه بتأويل الآية، وذلك أن جميع ما أنزل اللَّه عز وجل من آي القرآن علىٰ رسول اللَّه ﷺ فإنما أنزل عليه بيانًا له ولأمته، وهدىٰ للعالمين، وغير جائز أن يكون فيه ما لا حاجة لهم به، ولا أن يكون فيه ما بهم إليه حاجة، ويصعب عليهم تأويله».

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾

يعني فأما الذين في قلوبهم ميل عن الحق، وانحراف عنه، من اليهود، والنصارىٰ، والمنافقين، وسائر المبتدعة والملحدين، فإنهم يتبعون ما تشابَهت ألفاظه، واختلفت معانيه، بمختلف التأويلات، ليصدقوا ما ابتدعوه، وما انتحلوه من الأباطيل، إرضاء لأهوائهم، وقد أخبر رسول اللَّه ﷺ: «**أن أهلَ الأهواء تتجارىٰ بهم الأهواءُ، كما يتجارىٰ الكَلَبُ بصاحبه**»(١). والكلب داء ينتج من عضة الكلب.

﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ يعني ابتغاء فتنة الناس بالشبهات التي تستزلهم بها عن صراط اللَّه، واتباع وحيه.

﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ أي بدعاويهم الباطلة، فهم غير عالمي تأويله ما لم يرجعوا إلىٰ المحكمات رجوع المنصف، وأنىٰ لهم ذلك وقد ملئت نفوسهم زيغًا وضلالة وحقدًا. لذا فإنهم يصرون علىٰ تأويل المتشابه من الآيات علىٰ وجه يرضي نفوسهم المريضة.

وكان قتادة إذا قرأ قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ قال: «إن لم يكونوا الحرورية والسبئية، فلا أدري من هم، ولعمري لقد كان في أهل بدر والحديبية وأهل بيعة الرضوان من المهاجرين والأنصار خبر لمن استخبر، وعبرة لمن استعبر، ولمن كان يعقل أو يبصر، إن الخوارج خرجوا وأصحاب رسول اللَّه ﷺ كثيرون بالمدينة، والشام، والعراق، وأزواجه يومئذ أحياء واللَّه ما خرج منهم من ذكر ولا أنثىٰ حروريًّا قط، ولا رضوا الذي هم عليه، ولا مالؤوهم فيه، بل كانوا يحدثونهم بما عابهم رسول اللَّه ﷺ، ونعتهم به، وكانوا يبغضونهم بقلوبهم، ويعادونهم بألسنتهم، وتشتد واللَّه عليهم أيديهم إذا لقوهم، ولعمري لو كان أمر الخوارج هدىً لاجتمع، ولكنه كان ضلالًا فتفرق، وكذلك الأمر إذا كان من عند غير اللَّه وجدت فيه اختلافًا كثيرًا، فقد ألاصوا هذا الأمر من زمن طويل ـ يعني أداروه علىٰ الشيء الذي يريدونه ـ

---

(١) رواه أبو داود (٤٥٩٧).

فهل أفلحوا يومًا أو نجحوا؟ يا سبحان اللّه كيف لا يعتبر آخر هؤلاء القوم بأولهم؟.. » إلىٰ آخر ما قاله قتادة.

والحرورية هم الخوارج، سموا بذلك لأنهم نزلوا «حروراء»، موضع بالعراق رابطوا فيه لقتال علي رضي الله عنه.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾، قال أكثر المحققين: إن الوقف علىٰ لفظ الجلالة «اللّه» واجب شرعًا وعقلًا، وقد اختلف كبار المفسرين في تفسير هذا الجزء من الآية علىٰ النحو التالي: فمنهم من قصر العلم بالمتشابه علىٰ اللّه فقط، وجعل الراسخون في العلم يقولون: آمنا به كل من عند ربنا، فكيف يختلف، وهو قول واحد من رب واحد؟.

- ومنهم من قال: إن الراسخين في العلم يعلمون تأويله، وإن اللّه لم يتعبد عباده بما لا يعلمون، ولا أنزل عليهم ما هو غامض محجوب علمه عنهم.

ولابن عباس قولان مشهوران كل قول أخذ به جماعة، وكان ابن عباس يقول: «أنا ممن يعلم تأويله»، ونقلوا عن مجاهد عدة روايات أنه يقول عن الراسخين في العلم: إنهم يعلمون تأويله.

وعلىٰ ما قدمناه، فالخلاف لفظي بين الفريقين؛ لأن المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا اللّه، هو ما كان من المغيبات، كعلم قيام الساعة، وانقضاء عمر هذه الأمة، وماهية الروح، ونحو ذلك، وأما المتشابه في الألفاظ مع اختلاف المعاني فإن الراسخين في العلم يعلمون تأويله برده إلىٰ المحكم، وتفسيرهم الكتاب، بالكتاب والسنة الصحيحة.

وقد كانت قراءة أُبيٍّ وابن عباس رضي الله عنهم: «ويقول الراسخون في العلم»، وهي قراءة صحيحة وليست تفسيرًا منه رضي الله عنه. وفي قراءة عبداللّه بن مسعود رضي الله عنه: «إن تأويله: إلَّا عند اللّه والراسخون في العلم يقولون آمنا به».

ثم إن في هذه الآية مدحًا من اللّه للراسخين في العلم، الذين

عرفوا مجال العقل فأوقفوه عند حده، ولم يطلبوا به علم ما وراء المحسوس، فيخوضوا بما لا يعلمون، بل دفعهم الإيمان المطلق إلىٰ أن يقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.

فالراسخون في العلم هم أهل التسليم بعجز العقل البشري عن إدراك ما وراء المحسوس، وفي عصرنا الحاضر، حيث بلغ فيه العلم المادي مبلغًا ضخمًا ما زال العقل البشري عاجزًا عن إدراك كنه الكهرباء، وعن إدراك النفس الإنسانية وغيرها من المغيبات.

ونحب هنا أن ننقل كلامًا لابن تيمية كما نقله عدد من المفسرين قبلنا، وذلك لأنه من أبدع ما حررته الأقلام في هذا المقام.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المحكم في القرآن تارة يقابل بالمتشابه، والجميع من آيات اللَّه، وتارة يقابل بما نسخه اللَّه مما ألقاه الشيطان، ومن الناس من يجعله مقابلًا لما نسخه اللَّه مطلقًا حتىٰ يقول: هذه الآية محكمة، ليست منسوخة، ويجعل المنسوخ ليس محكمًا، وإن كان اللَّه أنزله أولًا، اتباعًا للظاهر من قوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]، فهذه ثلاث معان تقابل المحكم، ينبغي التفطن لها.

وجماع ذلك أن الإحكام تارةً يكون في التنزيل، فيكون في مقابلته ما يلقيه الشيطان. فالمحكم المنزل من عند اللَّه، أحكمه اللَّه أي فصله من الاشتباه بغيره، وفصل منه ما ليس منه، فإن الإحكام هو الفصل والتمييز، والفرق والتحديد الذي به يتحقق الشيء ويحصل إتقانه، ولهذا دخل فيه معنىٰ المنع، كما دخل في الحد بالمنع جزء من معناه، لا جميع معناه.

وتارة يكون في إبقاء التنزيل عند من قابله بالنسخ، الذي هو رفع ما شرع، وهو اصطلاحي، أو يقال: وهو أشبه والسلف كانوا يسمون كل رفع نسخًا، سواء كان رفع حكم، أو رفع دلالة ظاهرة، فكل ظاهر

ترك ظاهره لعارض راجح كتخصيص العام، وتقييد المطلق فهو منسوخ باصطلاح السلف.

وإلقاء الشيطان في أمنيته قد يكون في نفس لفظ المبلغ، وقد يكون في مسمع المبلغ، وقد يكون في فهمه، كما قال تعالىٰ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧] ومعلوم أن من سمع النص الذي يرفع حكمه أو دلالته فإنه يلقي الشيطان في تلك التلاوة أتباع ذلك المنسوخ، فيحكم اللَّه آياته بالناسخ، الذي به رفع الحكم، وبان المراد. وعلىٰ هذا يصح أن يقال عن المتشابه: المنسوخ بِهذا الاعتبار، واللَّه أعلم.

وتارة يكون الإحكام في التأويل والمعنىٰ، وهو تمييز الحقيقة المقصودة من غيرها، حتىٰ لا تشتبه بغيرها.

وفي مقابلة المحكم من الآيات المتشابهات التي تشبه هذا، وتشبه هذه، فتكون محتملة للمعنيين.

ولم يقل في المتشابه: «لا يعلم تفسيره ومعناه إلَّا اللَّه»، وإنما قال: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وهذا هو فصل الخطاب، بين المتنازعين في هذا الموضع، فإن اللَّه أخبر أنه لا يعلم تأويله إلَّا هو، والوقف هنا علىٰ ما دل عليه أدلة كثيرة، وعليه أصحاب رسول اللَّه ﷺ وجمهور التابعين، وجماهير الأمة، ولكنه لم يخف عليهم معناه وتفسيره، بل قال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، وهذا يعم الآيات المحكمات والمتشابهات، وما لا يعقل له معنىٰ لا يتدبر، وقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [محمد: ٢٤] ولم يستثن شيئًا منه، نَهي عن تدبره من اللَّه ورسوله، إنما ذم من اتبع المتشابه ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله، ومدح من تدبر المحكم والمتشابه، كما أمره اللَّه، وطلب بذلك فهمه ومعرفة معناه، بل هو ما أمر اللَّه به.

ومن التأويل المذموم ما قد روي: أن جماعة من اليهود في المدينة،

علىٰ عهد النبي ﷺ ـ كحيي بن أخطب وغيره ـ أولوا حروف الهجاء التي في أوائل السور علىٰ أنها تعني مدة بقاء هذه الأمة، كما سلك ذلك ـ أيضًا ـ طائفة من المتأخرين، موافقة منهم للصابئة والمنجمين، فادعوا أن مدة بقاء هذه الأمة ستمئة وثلاثة وتسعون عام؛ لأن ذلك هو عدد ما للحروف من حساب الجمل بعد إسقاط المكرر، وهذا من نوع تأويل الحوادث، التي أخبر بها القرآن في اليوم الآخر.

وروي أن من النصارىٰ الذين وفدوا علىٰ النبي ﷺ في وفد نجران من تأول «إنا ونحن» علىٰ أن الآلهة ثلاثة؛ لأن هذا ضمير جمع، وهذا تأويل في الإيمان باللَّه، فأولٰئك اليهود، تأولوا في اليوم الآخر، وهؤلاء النصارىٰ، تأولوا في اللَّه.

ومعلوم أن «إنا ونحن» من المتشابه، فإنه يراد بها الواحد، الذي معه غيره من جنسه، ويراد بها الواحد الذي معه أعوانه، وإن لم يكونوا من جنسه، ويراد بها الواحد المعظم نفسه، الذي يقوم مقام من معه غيره لتنوع أسمائه، التي كل اسم منها يقوم مقام مسمىٰ، فصار هذا متشابهًا؛ لأن اللفظ واحد، والمعنىٰ متنوع. والأسماء المشتركة في اللفظ هي من المتشابه، وبعض المتواطئ ـ أيضًا ـ من المتشابه، ويسميها أهل التفسير «الوجوه والنظائر»، كما صنفوا كتبها. فالوجوه في الأسماء المشتركة، والنظائر في الأسماء المتواطئة، وقد ظن بعض أصحابنا المصنفين في ذلك أن الوجوه والنظائر جميعًا في الأسماء المشتركة، فهي نظائر باعتبار اللفظ، ووجوه باعتبار المعنىٰ، وليس الأمر كذلك، بل إن كلام العلماء صريح فيما قلناه لمن تأمله.

والذين في قلوبهم زيغ يدعون المحكم ـ الذي لا اشتباه فيه ـ، مثل: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]، ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤]، ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [الفرقان: ٢]، و﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٣، ٤] ويدَّعون أن مثل هذا هو المحكم، ويتبعون

المتشابه ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾، ليفتنوا به الناس إذا وضعوه علىٰ غير مواضعه، وحرفوا الكلم عن مواضعه، ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾، وهو الحقيقة التي أخبر عنها، وذلك أن الكلام نوعان: إنشاء ـ وفيه الأمر ـ، وإخبار؛ فتأويل الأمر هو نفس الفعل المأمور به، كما قال من السلف: «إن السنة هي تأويل الأمر»، قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول اللّه ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللّهم وبحمدك، اللّهم اغفر لي**»، يتأول القرآن[1]. تعني قوله تعالىٰ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [النصر]، وأما الإخبار: فتأويله عينُ الأمر المخبر به إذا وقع، وليس تأويله فهم معناه.

وقد جاء اسم «التأويل» في القرآن في غير موضع، قال اللّه تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف]، فقد أخبر أنه فصل الكتاب، وتفصيله ببيانه وتمييزه بحيث لا يشتبه، ثم قال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾، أي ينتظرون ﴿تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ...﴾ إلىٰ آخر الآية، وإنما ذلك مجيء ما أخبر به القرآن ووقوعه؛ من القيامة وأشراطها ـ كالدابة، ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها ـ، ومجيء ربك والملك صفًّا صفًّا، وما في الآخرة من الصحف والموازين، والجنة والنار، وأنواع النعيم والعذاب، وغير ذلك، فحينئذ يقولون: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣].

وهذا القدر الذي أخبر به القرآن من هذه الأمور لا يعلم وقته وقدره وصفته إلَّا اللّه، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في الدنيا مما في الجنة إلَّا الأسماء»؛ فإن اللّه قد أخبر أن في الجنة خمرًا، ولبنًا، وماءً، وعسلًا،

---

(١) رواه البخاري (٤٨١٧)، ومسلم (١٠٨٥).

وحريرًا، وذهبًا، وفضة، وغير ذلك، ونحن نعلم قطعًا أن تلك الحقيقة ليست مماثلةً لهذه، بل بينهما تباين عظيم التشابه، كما في قوله: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥]؛ علىٰ أحد القولين بأنه يشبه ما في الدنيا وليس مثله، فأشبهت أسماءُ تلك الحقائقِ أسماءَ هذه الحقائق، كما أشبهت الحقائق من بعض الوجوه؛ فنحن نعلمها إذا خوطبنا بتلك الأسماء من جهة القدر المشترك بينهما، ولكن لتلك الحقائق خاصية لا ندركها في الدنيا، ولا سبيل إلىٰ إدراكنا لها، لعدم إدراك عينها أو نظيرها من كل وجه، وتلك الحقائق ـ علىٰ ما هي عليه ـ هي تأويل ما أخبر اللّٰه به.

وهذا فيه رد علىٰ اليهود والنصارىٰ والصابئة من المتفلسفة وغيرهم، فإنهم ينكرون أن يكون في الجنة أكلٌ وشرب ولباس ونكاح، ويمنعون وجود ما أخبر به القرآن! ومن دخل الإسلام ونافق المؤمنين تأول ذلك علىٰ أن هذه أمثال مضروبة لتفهيم النعيم الروحاني ـ إن كان من المتفلسفة الصابئة المنكرة لحشر الأجساد ـ، وإن كان من منافقة الملتين المقرين بحشر الأجساد تأول ذلك علىٰ تفهيم النعيم الذي في الجنة؛ فكلٌّ ضال يحرف الكلم عن مواضعه إلىٰ ما اعتقد ثبوته، وكان في هذا ـ أيضًا ـ متبعًا للمتشابه.

إذًا الأسماء تشبه الأسماء، والمسميات تشبه المسميات، ولكن تخالفها أكثر من تشابُهها، فهؤلاء يتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة، بما يوردونه من الشبهات علىٰ امتناع أن يكون في الجنة هذه الحقائق، وابتغاء تأويله، ليردوه إلىٰ المعهود الذي يعلمونه في الدنيا، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وقال عن تلك الحقائق: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، أي لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ﴾ إما أن يكون الضمير عائدًا علىٰ الكتاب أو علىٰ المتشابه؛ فإن كان عائدًا علىٰ الكتاب لمجيء ﴿مِنْهُ﴾ في قوله: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ فهذا يصح؛ فإن جميع آيات الكتاب

المحكمة والمتشابهة التي فيها إخبار عن الغيب، الذي أمرنا أن نؤمن به لا يعلم حقيقة هذا الغيب ومتىٰ يقع إلا اللّه، وقد يستدل لهذا أن اللّه جعل التأويل للكتاب كله، مع إخباره أنه مفصل بقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف]؛ فجعل التأويل للكتاب المفصل، وقد بينا أن ذلك التأويل لا يعلمه ـ وقتًا ولا قدرًا، ولا نوعًا ولا حقيقةً ـ إلَّا اللّه، وإنما نعلم نحن بعض صفاته بمبلغ علمنا، لعدم نظيره عندنا؛ كذلك قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩].

وإذا كان التأويل للكتاب كله، والمراد به ذلك، ارتفعت الشبهة، وصار هذا بمنزلة قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧]. وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٣﴾ [الأحزاب]، فأخبر سبحانه أنه لا يعلمها إلَّا هو، أي علم وقتها، وحقيقتها، وإلَّا فنحن نعلم من صفاتها ما أخبرنا به.

وإن كان الضمير عائدًا إلىٰ ما تشابه ـ كما يقوله كثير من الناس ـ فلأن المخبَر به من الوعد والوعيد متشابه، بخلاف الأمر والنهي، فإنه متميز، غير مشتبه بغيره.

ومما جاء من لفظ التأويل قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩].

ففرق بين الإحاطة بعلمه وبين إتيان تأويله، فتبين أنه يمكن أن يحيط أهل العلم والإيمان بعلمه، ولمَّا يأتِهم تأويله، وأن الإحاطة بعلم القرآن ليست إتيان تأويله، فإن الإحاطة بعلمه معرفةُ معاني الكلام علىٰ التمام، وإتيان التأويل نفس وقوع المخبر به، وفرق بين معرفة الخبر وبين معرفة المخبر به؛ فمعرفة الخبر هي معرفة تفسير القرآن، ومعرفة المخبر به هي معرفة تأويله، وهذا هو الذي بيناه فيما تقدم.

إن اللَّـه أنـزل القـرآن لـيُعلَم، ويفهـم، ويفقـه، ويتدبـر، ويتعـبد بـه، محكمه ومتشابِهه، وإن لم يُعلم تأويله.

وأخبر اللَّـه ذمًّا للمشركين بقوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء]، أي: أنه إذا قرئ عليهما القرآن حجب بين أبصارهم وبين الرسول بحجاب مستور، وجعل علىٰ قلوبهم أكنةً أن يفقهوه وفي آذانهم وقرًا. ولو كان أهل العلم والإيمان علىٰ قلوبهم أكنةٌ أن يفقهوا بعضه لشاركوهم في ذلك. وقوله: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ يعود إلىٰ القرآن كله، فعلم اللَّـه يجب أن يفقه، ولهذا قال الحسن البصري: «ما أنزل اللَّـه آيةً إلَّا وهو يحب أن يعلم بما أنزلت، وماذا عنىٰ بها»، وما استثنىٰ من ذلك متشابهًا ولا غيره.

وقال مجاهد: «عرضت المصحف علىٰ ابن عباس ـ من أوله إلىٰ آخره ـ مرات، أقف عند كل آية وأسأله عنها».

فهذا ابن عباس حبر الأمة، وهو أحد القائلين بالوقف علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ كان يجيب مجاهدًا عن كل آية في القرآن الكريم، الأمر الذي جعل مجاهدًا ومن وافقه ـ كابن قتيبة ـ أن يقولوا بالوقف عند قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ فجعلوا الراسخين في العلم يعلمون التأويل، وسر ذلك أن مجاهدًا تعلم من ابن عباس تفسير القرآن كله، وبيان معانيه، فظن أن هذا هو التأويل المنفي عن غير اللَّـه.

والأصل في ذلك أن لفظ «التأويل» فيه اشتراك بين ما عناه اللَّـه في القرآن، وبين ما كان يطلقه طوائف من السلف، وبين اصطلاح طوائف من المتأخرين، فبسبب الاشتراك في لفظ «التأويل» اعتقد كل من فهم منه معنًىٰ بلغته أن ذلك هو المذكور في القرآن، ومجاهد إمام التفسير.

قال الثوري: «إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به».

وأما التأويل فشأن آخر، ويبين ذلك أن الصحابة والتابعين لم يمتنع أحد منهم عن تفسير آية من كتاب اللَّه قائلًا: هذا من المتشابه الذي لا يعلم معناه، ولا قال أحد من سلف الأمة، ولا من الأئمة المتبوعين: إن في القرآن آيات لا يُعلم معناها، ولا يفهمها رسول اللَّه ﷺ، ولا أهل العلم والإيمان جميعهم. وإنما قد ينفون علمَ بعض ذلك عن بعض الناس، وهذا لا ريب فيه، وإنما وضع هذه المسألة المتأخرون من الطوائف، بسبب الكلام في آيات الصفات وآيات القَدَر وغيرها فلقبوها.

س: هل يجوز أن يشتمل القرآن علىٰ ما لا يفهم معناه، وما تعبدنا بتلاوة حروفه بلا فهم؟

ج: لقد جوز ذلك طوائف متمسكين بظاهر هذه الآية، وبأن اللَّه يمتحن عباده بما شاء، ومنعها طوائف، ليتوصلوا بذلك إلىٰ تأويلاتهم الفاسدة، التي هي تحريف للكلم عن مواضعه، والغالب علىٰ كلتا الطائفتين الخطأ، فأولئك يقصرون في فهم القرآن، وهم بمنزلة من قيل فيه: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة]، وهؤلاء معتدون، وهم بمنزلة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه.

ومن المتأخرين مَن وضع المسألة بلقب شنيع فقال: «يجوزُ أن يتكلم اللَّه بكلام، ولا يعني به شيئًا خلافًا للحشوية»، وهذا لم يقله مسلم: «إن اللَّه يتكلم بما لا معنىٰ له» وإنما النزاع، هل يتكلم بما لا يفهم معناه؟ وبين نفي المعنىٰ عند المتكلم، ونفي الفهم عند المخاطب بون عظيم. ثم احتج بما لا يجري علىٰ أصله فقال: «هذا عبث»، والعبث علىٰ اللَّه محال.

وعنده أن اللَّه لا يقبُح منه شيء أصلًا؛ بل يجوز أن يفعل كل شيء، وليس له أن يقول: «العبث صفة نقص»، فهو منتفٍ عنه؛ لأن النزاع في

الحروف، وهي عنده مخلوقة من جملة الأفعال، ويجوز أن يشتمل الفعل عنده علىٰ كل صفة، فلا نقل صريح ولا عقل صحيح.

ومثار الفتنة عند الطائفتين، ومحار عقولهم: أن مدعي التأويل أخطؤوا في زعمهم أن العلماء يعلمون التأويل، وفي دعواهم أن التأويل هو تأويلهم الذي هو تحريف الكلم عن مواضعه؛ فإن الأولين لعلمهم بالكتاب والسنة، وصحة عقولهم، وعلمهم بكلام السلف، وكلام العرب؛ علموا يقينًا أن التأويل الذي يدعيه هؤلاء ليس هو معنىٰ القرآن، فإنهم حرفوا الكلم عن مواضعه، وصاروا مراتب ما بين قرامطة وباطنية يتأولون للأخبار والأمر، وما بين صابئة فلاسفة يتأولون عامة الأخبار عن اللَّه واليوم الآخر حتىٰ عن أكثر أحوال الأنبياء، وما بين جهمية، ومعتزلة، يتأولون بعض ما جاء في اليوم الآخر، وآيات القدر، وآيات الصفات، وقد وافقهم بعض متأخري الأشعرية علىٰ ما جاء في بعض الصفات.

والذين ادعوا العلم بالتأويل ـ مثل طائفة من السلف، وأهل السنة، وأكثر أهل الكلام والبدع ـ رأوا ـ أيضًا ـ أن النصوص دلت علىٰ معرفة معاني القرآن، ورأوا عجزًا وعِيًّا وقبحًا أن يخاطب اللَّه عباده بكلام يقرؤونه وهم لا يفهمونه! وهم مصيبون فيما استدلوا به من سمع وعقل، لكنهم أخطؤوا في معنىٰ «التأويل» الذي نفاه اللَّه ﷻ، وفي التأويل الذي أثبتوه، وتسلق بذلك مبتدعتهم إلىٰ تحريف الكلام عن مواضعه، وصار الأولون أقرب إلىٰ السكوت والسلامة بنوع من الجهل، وصار الآخرون أكثر كلامًا وجدلًا، ولكن بفرية علىٰ اللَّه، وقولٍ عليه بما لا يعلمونه، وإلحاد في أسمائه وصفاته.

و«التأويل» في عرف المتأخرين من المتفقهة، والمتكلمة، والمحدثة، والمتصوفة، وغيرهم: «هو صرف اللفظ عن المعنىٰ الراجح، إلىٰ المعنىٰ المرجوح، لدليل يقترن به»، وهذا هو التأويل الذي يتكلمون عليه في أصول الفقه ومواقع الخلاف، فإذا قال أحد منهم: «هذا

الحديث، أو هذا النص مؤول، أو هو محمول علىٰ كذا». قال الآخرون: «هذا نوع من تأويل، والتأويل يحتاج إلىٰ دليل». والمتأوِّل عليه وظيفتان:

الأولى: بيان احتمال اللفظ للمعنىٰ الذي ادعاه.

الثانية: بيان الدليل الموجب للصرف عن المعنىٰ الظاهر.

وهذا هو التأويل الذي يتنازعون فيه في مسائل الصفات، فقد صنف بعضهم في إبطال التأويل، أو ذمه.

وقال بعضهم: إن آيات الصفات لا تؤول.

وقال آخرون: بل يجب تأويلها.

وقال غيرهم: بل التأويل جائز يُفعل عند المصلحة، ويترك عند المصلحة، أو يصح للعلماء دون غيرهم.

أما التأويل في لفظ السلف فله معنيان:

أحدهما: تفسير الكلام، وبيان معناه، سواء وافق ظاهره أو خالفه، فيكون التفسير والتأويل عند هؤلاء مترادفًا أو متقاربًا، وهذا ـ واللَّه أعلم ـ هو الذي عناه مجاهد بقوله: «إن العلماء يعلمون تأويله»، ومحمد بن جرير يقول: «واختلف أهل التأويل في هذه الآية»، ويريد بذلك أهل التفسير.

ثانيهما: أنه نفس المراد بالكلام، فإن كان الكلام طلبًا كان تأويله نفس الفعل المطلوب، وإن كان خبرًا كان تأويله نفس الشيء المخبر به.

وبين المعنيين بون شاسع:

ـ فالتأويل علىٰ المعنىٰ الأول: يكون من باب العلم والكلام، كالتفسير والشرح والإيضاح، فله وجود ذهني، ولفظي، ورسمي.

ـ أما علىٰ المعنىٰ الثاني: فالتأويل هو نفس الأمور الموجودة في الخارج، سواء أكانت ماضية أو مستقبلة. فإذا قيل: طلعت الشمس، فتأويل هذا نفس طلوعها، وهذا هو الوضع والعرف.

أما المعنىٰ الثالث فهو ما جاء في قول يعقوب ليوسف عليهما السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦]، وقول يوسف عليه السلام لصاحبي السجن: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ [يوسف: ٣٧]، وقول الذي ادكر منهما بعد أمة: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥]، وقول يوسف بعد أن رفع أبويه علىٰ العرش وخرُّوا له سجدًا: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠]؛ فتأويل الأحاديث ـ التي هي رؤيا المنام ـ هي نفس مدلوها الذي تؤول إليه، كما قال يوسف عليه السلام فيما مضىٰ.

وقال تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]؛ قالوا: أي: أحسن عاقبةً ومصيرًا. فالتأويل هنا تأويل فعلهم ـ الذي هو الرد إلىٰ الكتاب والسنة ـ، والتأويل في سورة يوسف عليه السلام تأويل أحاديث الرؤيا، والتأويل في سورتي الأعراف ويونس عليه السلام تأويل القرآن، وكذلك في سورة آل عمران.

وقال تعالىٰ في قصة موسىٰ والعالِم: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨ ـ ٨٢]؛ فالتأويل هنا تأويل الأفعال التي فعلها العالم، من خرق السفينة بغير إذن صاحبها، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، فهو تأويل عمل، لا تأويل قول.

وإنما كان كذلك؛ لأن التأويل مصدر: أوَّله يؤوِّله تأويلًا، مثل حوَّل تحويلًا، وعول تعويلًا.

وأوَّل يؤول ـ تعديةً ـ: آل، يؤول، أوْلًا، مثل: حال يحول حولًا، وقولهم: آل يؤول، أي عاد إلىٰ كذا، ورجع إليه، ومنه المآل: وهو ما يؤول إليه الشيء. ويشاركه في الاشتقاق: الموئل. والموئلُ هو المرجع، قال تعالىٰ: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨].

ومما يوافقه في الاشتقاق الأصغر: الآل، فإن آلَ الشخص من يؤول إليه، ولهذا لا يستعمل إلا في عظيم، بحيث يكون المضاف إليه يصلح

أن يؤول إليه الآلُ، كآل إبراهيم، وآل لوط، وآل فرعون، بخلاف الأهل.

والأول «أفعل» لأنهم قالوا: في تأنيثه أُولىٰ، كما قالوا: جمادىٰ الأولىٰ وفي سورة القصص ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ ومن الناس من يقول: «فوعل»، إلَّا أن عدم صرفه يدل علىٰ أنه «أفعل» لا «فوعل». وسمي المتقدم «أول» ـ واللَّه أعلم ـ لأن ما بعده يؤول إليه، ويبنىٰ عليه، فهو أسٌّ لما بعده، وقاعدة له.

والصيغة صيغة تفضيل، مثل أكبر وكبرىٰ، وأصغر وصغرىٰ، لا من باب أحمر وحمراء؛ ولهذا يقولون: جئته أول أمس، وقال: ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ [التوبة: ١٠٨]، ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣]، ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٤١].

ومثل هذا أولُ هؤلاء، فهذا الذي فضل عملهم في الأول؛ لأن كل واحد يرجع إلىٰ ما قبله فيعتمد عليه، وهذا السابق كلهم يؤول اليه.

وصيغة التفضيل: «أول»، تشعر أن الأول مفضل في كونه مآلًا ومرجعًا، ولكن التفضيل المطلق في ذلك يقتضي أن يكون هو السابق المبتدي، واللَّه أعلم.

فالتأويل: هو ما أوِّل إليه الكلام، أو يؤول إليه، أو تأوَّل هو إليه.

والكلام إنما يعود ويرجع ويستقر ويؤول إلىٰ حقيقته(١) التي هيٰ عين المقصود به، كما قال بعض السلف في قوله تعالىٰ: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنعام]، قالوا: أي حقيقته.

فإن كان الكلام خبرًا فإلىٰ الحقيقة المخبر بها يؤول ويرجع، وإلَّا لم تكن له حقيقة ولا مآل ولا مرجع، بل كان كذبًا.

وإن كان طلبًا، فإلىٰ الحقيقة المطلوبة يؤول ويرجع، وإلا لم يكن مقصوده موجودًا، ولا حاصلًا.

---

(١) وقعت الجملة في المطبوع: «والكلام إنما يعود ويرجع ويستقر ويؤول ويئول إلىٰ حقيقته»، ولعل الأصح ما أثبتُّه.

ومتىٰ كان الخبر وعدًا أو وعيدًا فإلىٰ الحقيقة المطلوبة المنتظرة يؤول، كما روي عن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ۝٦٥﴾ [الأنعام]، ثم قال ﷺ: «**إنها كائنة، ولم يأتِ تأويلها بعد**»[(١)].

وأما إدخال أسماء اللَّه وصفاته ـ أو بعضها ـ في المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا اللَّه، أو اعتقاد أن ذلك هو المتشابه الذي استأثر اللَّه بعلمه وتأويله ـ وبكلا القولين قالت طوائف من أصحابنا، وغيرهم ـ؛ فإنهم وإن أصابوا في كثير مما يقولونه، ونجوا من بدع وقع فيها غيرهم: فالكلام علىٰ هذا من وجهين:

الأول: من قال: «إن هذا من المتشابه، وإنه لايفهم معناه»، فما دليله علىٰ ذلك فإني لا أعلم عن أحد من سلف الأمة، ولا من الأئمة ـ لا أحمد بن حنبل ولا غيره ـ أنه جعل ذلك من المتشابه الداخل في هذه الآية، أو نفىٰ أن يعلم أحد معناه، أو جعلوا أسماء اللَّه وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمي، الذي لا يفهم، ولا قالوا: إن اللَّه ينزل كلامًا لا يفهم أحد معناه، وإنما قالوا كلمات لها معان صحيحة؛ قالوا في آيات الصفات: «تمر كما جاءت»، ونَهوا عن تأويل الجهمية، وردوها وأبطلوها؛ والتي كان مضمونها تعطيل النصوص عما دلت عليه.

وأحمد قد قال في غير أحاديث الصفات: تُمَرُّ كما جاءت في أحاديث الوعد، والوعيد، مثل: «**مَن غشَّنا فليس منا**»[(٢)]، وكذا في أحاديث الفضائل. ومقصوده بذلك أن الحديث لا يحرف كله عن مواضعه؛ كما يفعله من يحرف، ويسمي تحريفه تأويلًا بالعرف المتأخر.

فتأويل هؤلاء المتأخرين تحريف باطل عند الأئمة، الذين اتفقوا

---

(١) رواه التِّرمذي (٣٠٦٦).

(٢) رواه مسلم (١٠١).

علىٰ أنهم يعلمون معنىٰ المتشابه، وأنه لا يُسكت عن بيانه وتفسيره، بل يبين ويفسر باتفاقهم، من غير تحريف الكلم عن مواضعه، أو إلحادٍ في أسماء اللَّه وآياته. والدليل علىٰ أن أسماء اللَّه وصفاته ليست من المتشابه الذي لا يعلم معناه أن نقول: لا ريب أن اللَّه سمىٰ نفسه في القرآن بأسماء مثل الرَّحمن، والودود، والعزيز، والجبار، والعليم، والقدير، والرؤوف، ونحو ذلك، ووصف نفسه بصفات كما في سورة الإخلاص، وآية الكرسي، وأول سورة الحديد، وآخر سورة الحشر، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤] والمقسطين... والمحسنين، وأنه يرضىٰ عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزخرف].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ [محمد: ٢٨].

وقوله: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦].

وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه].

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢].

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤].

وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

وقوله: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥].

وقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرَّحمن].

قوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨].

وقوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩].

إلىٰ غير ذلك من الآيات المماثلة.

فيقال لمن ادعىٰ في هذا أنه متشابه لا يعلم معناه:

أتقول هذا في جميع ما سمىٰ اللَّه ووصف به نفسه أم في البعض؟

فإن قلت: «هذا في الجميع»، كان قولك عنادًا ظاهرًا، وجحدًا لما يعلم بالضرورة من دين الإسلام، بل كفر صريح؛ فإنا نفهم من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥]، معنًىٰ، ونفهم من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، معنىٰ غير الأول، ونفهم من قوله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، معنىٰ آخر، ومن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٧] معنىٰ آخر ـ أيضًا ـ، وصبيان المسلمين ـ بل وكل عاقل ـ يفهم هذا.

ثم يقال لهذا المعاند: هل هذه الأسماء دالة علىٰ الإله المعبود، أو علىٰ حق موجود، أم لا؟.

فإن قال: «لا» كان معطلًا محضًا، وما أعلم مسلمًا يقول هذا.

وإن قال: «نعم» قيل له: فهل فهمت منها دلالتها علىٰ نفس الرب، ولم تفهم دلالتها علىٰ ما فيها من المعاني من العلم والرحمة، وكلاهما في الدلالة سواء؟! فلابد أن يقول: «لا»؛ لأن ثبوت الصفات مجردة عن الذات محال في العقل، حيث يلزم منه التركيب أو الحدوث، فيخاطب حينئذ بما يخاطب به الفريق الثاني كما سنذكره؛ وهو من أقر بفهم بعض الأسماء والصفات دون بعض فيقال له:

ما الفرق بين ما أثبته، وبين ما نفيته، أو سكت عن إثباته أو نفيه؟ فإن الفرق:

ـ إما أن يكون من جهة السمع، بأن أحد المعنيين دل دلالةً قطعيةً أو ظاهرة بخلاف الآخر.

ـ أو من جهة العقل بأن أحد المعنيين يجوز إثباته دون الآخر.

وكلا الوجهين باطل في أكثر المواضع:

أما الأول: فلأن دلالة القرآن علىٰ أنه رحمن، رحيم، ودود، سميع، بصير، علي عظيم؛ كدلالته علىٰ أنه عليم قدير، ليس بينهما فرق من جهة النص، وكذلك ذكره لرحمته ومحبته وعلوه، مثل ذكره لمشيئته وإرادته.

وأما الثاني: فيقال لمن أثبت شيئًا ونفىٰ الآخر: لم نفيت ـ مثلًا ـ حقيقة رحمته ومحبته، وأعدت ذلك إلىٰ إرادته؟.

فإن قال: لأن المعنىٰ المفهوم من الرحمة في حقنا هي رقة تمتنع علىٰ اللَّه.

قيل له: والمعنىٰ المفهوم من الإرادة في حقنا هي ميلٌ يمتنع علىٰ اللَّه.

فإن قال: إرادته ليست من جنس إرادة خلقه.

قيل له: ورحمته ليست من جنس رحمة خلقه، وكذلك محبته.

وإن قال ـ وهو حقيقة قوله ـ: إني لم أثبت الإرادة وغيرها بالسمع وإنما أثبت ذلك بالعقل؛ إذ الإحكام دليل علىٰ العلم، والتخصيص دليل علىٰ الإرادة.

قيل له: الجواب علىٰ ذلك من ثلاثة وجوه:

أحدها: أن الإنعام والإحسان وكشف الضر؛ دل ـ أيضًا ـ علىٰ الرحمة، كدلالة التخصيص علىٰ الإرادة، والتقريب والإدناء تدلان علىٰ المحبة.

الثاني: يقال له: هب أن العقل لا يدل علىٰ هذا، فإنه لا ينفيه إلَّا بمثل ما ينفي الإرادة، فلأي شيء نفيت مدلوله، أو توقفت، وأعدت هذه الصفات كلها إلىٰ الإرادة؟ مع العلم أن النصوص تفرق؟ فلا يذكر حُجةً إلا عورض بمثلها في إثبات الإرادة زيادة علىٰ الفعل.

الثالث: يقال له: مقولة الجهمية من أن الإرادة لا معنىٰ لها إلا عدم الإكراه، أو نفس الفعل والأمر به، وزعمهم أن إثبات الإرادة يقتضي محذورًا سواء قالوا بقدمها، أو قالوا بحدوثها.

ومن هنا اضطربت المعتزلة، فإنهم لا يقولون بإرادة قديم، لامتناع أن تكون الصفة قديمةً عندهم، ولا يقولون بتجدد صفة له، لامتناع حلول الحوادث عند أكثرهم، مع تناقضهم.

ونكتة هذا الكلام: أن غالب من نفىٰ وأثبت شيئًا مما دل عليه الكتاب والسنة، لابد أن يُثبت الشيء لقيام المقتضي، وانتفاء المانع، وينفي الشيء لوجود المانع، أو لعدم المقتضي، أو يتوقف إذا لم يكن عنده مقتضٍ ولا مانع، فيبين له أن المقتضي فيما نفاه قائم، كما أنه فيما أثبته قائم إما من كل وجه، أومن وجه يجب به الإثبات؛ فإن كان المقتضي هناك حقًّا فكذلك هنا، وإلا فدرء ذاك المقتضي من جنس درء هذا.

وأما المانع الذي تخيله فيما نفاه، فإنه من جنس المانع الذي تخيله فيما أثبته، فإن كان ذلك المانعُ المستحيل موجودًا علىٰ التقديرين، لم ينج من محذوره بإثبات أحدهما ونفي الآخر. وإن كان حقًّا نفاهما، وإن كان باطلًا لم ينف واحدًا منهما، فعليه أن يسوي بين الأمرين في الإثبات والنفي، ولا سبيل إلىٰ النفي، فتعين الإثبات؛ فهذه نكتة الإلزام لمن أثبت شيئًا.

وإني لا أعلم أحدًا من الخارجين عن الكتاب والسنة، من جميع فرسان الكلام والفلسفة، إلا ولابد أن يتناقض؛ فيحيل ما أوجب نظيره ويوجب ما أحال نظيره، ويرجع ذلك لأن كلامهم من عند غير اللَّه القائل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

والصواب ما عليه أئمة الهدىٰ، وهو أن يوصف اللَّه بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، لا يتجاوز القرآن والحديث، ويتبع في ذلك سبيل السلف الماضين، أهل العلم والإيمان.

والمعاني المفهومة من الكتاب والسنة لا تُردُّ بالشبهات، فتكون من باب تحريف الكلم عن مواضعه، ولا يعرض عنها، فيكون من باب

الذين إذا ذُكِّروا بآياتِ ربِّهم خرُّوا عليها صمًّا وعميانًا، ولا يترك تدبر القرآن، فيكون من باب الذين: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨]؛ فهذا أحد الوجهين وهو منع أن يكون من المتشابهات.

والوجه الثاني: أنه إذا قيل: هذه من المتشابه، أو كان فيها ما هو من المتشابه ـ كما نقل عن بعض الأئمة أنه سمىٰ بعض ما استدل به الجهمية: متشابهًا ـ؛ فيقال: إن المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، إما أن يكون المتشابه، وإما أن يكون الكتاب كله كما تقدم، ونفيُ علم تأويله لا ينفي علم معناه، كما قدمنا ـ أيضًا ـ. وهذا الوجه قوي إن ثبت حديث ابن إسحاق في وفد نجران، أنهم احتجوا علىٰ النبي ﷺ بقوله: «إنا» و«نحن»، ونحو ذلك.

وأيضًا، فالسلف من الصحابة والتابعين، وسائر الأمة قد تكلموا في جميع نصوص القرآن ـ آيات الصفات وغيرها ـ، وفسروها بما يوافق دلالتها، ورووْا عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة توافق القرآن. وأئمة السلف في هذا أعظم من غيرهم، مثل عبداللَّه بن مسعود رضي الله عنه الذي كان يقول: «لو أعلم أحدًا أعلم بكتاب اللَّه مني تبلغه آباط الإبل، لأتيته»، وعبداللَّه بن عباس رضي الله عنهما ـ الذي دعا له النبي ﷺ وهو حبر الأمة، وترجمان القرآن ـ كانا هما وأصحابهما من أعظم الصحابة والتابعين إثباتًا للصفات، ومن أكثرهم رواية لها عن النبي ﷺ. ومن له خبرة بالحديث والتفسير يعرف هذا، وما في التابعين أجل من أصحاب هذين السيدين. ثم إن الصحابة نقلوا عن النبي ﷺ أنهم كانوا يتعلمون منه التفسير مع التلاوة، ولم يذكر أحد منهم قط أنه امتنع من تفسير آية واحدة.

قال أبو عبدالرَّحمن السلمي: «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا ـ عثمان ابن عفان، وعبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنهما ـ أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات من القرآن، لم يجاوزوها حتىٰ يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل».

وكذلك الأئمة، كانوا إذا سئلوا عن شيء من ذلك لم ينفوا معناه؛ بل يثبتون المعنىٰ، وينفون الكيفية؛ كقول مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما سئل عن قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] كيف استوىٰ؟ فقال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة». وكذلك ربيعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ من قبله.

وقد تلقىٰ الناس هذا الكلام بالقبول، فليس في أهل السنة من ينكره. وقد ثبت أن اتباع المتشابه ليس في خصوص الصفات فقط، ففي «صحيح البخاري» أن النبي ﷺ قال لعائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «**يا عائشة، إذا رأيتِ الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمَّىٰ اللَّـهُ فاحذريهم**»[1]. وهذا عام.

وقصة صَبيغ بن عِسْل مع عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من أشهر القضايا؛ حيث بلغ عمر أن صبيغًا يسأل عن متشابه القرآن، حتىٰ رأىٰ عمر فسأله عن «الذاريات ذروًا» قال له عمر: ما اسمك؟ قال: عبداللَّه صبيغ، فقال له عمر: وأنا عبداللَّه عمر، وضربه ضربًا شديدًا.

وكان ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا إذا ألح عليه رجل في مسألة من هذا الجنس، يقول: «ما أحوجك أن يُصنع بك كما صنع عمر بصبيغ!».

وهذا لأنهم رأوا أن غرض السائل ابتغاء الفتنة، لا الاسترشاد والاستفهام، كما قال النبي ﷺ عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «**إذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه...**»، وكما قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾، وقد نَهَىٰ النبي ﷺ عن ذلك وقال: «**لا تضربوا كتاب اللَّه بعضه ببعض، فإن ذلك يوقع الشك في قلوبكم**»[2].

فإن قيل: لقد دعا النبي ﷺ لابن عباس: «**اللَّهم فقِّهه في الدين، وعلمه التأويل**»[3].

---

(١) رواه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥).

(٢) رواه ابن ماجه (٨٥).

(٣) رواه البخاري (١٤٣)، ومسلم (٢٤٧٧).

قيل: المراد بالتأويل هنا: تأويل الأمر والنهي، فذلك يعلمه، واللام هنا للتأويل المعهود، ولم يقل: تأويل كل القرآن، أما التأويل المنفي فذلك تأويل الأخبار التي لا يعلم حقيقة مخبرها إلَّا اللَّه. واللَّه ﷻ أعلم.

وبهذا انتهىٰ كلام الشيخ ابن تيمية رحمه الله، فليرجع إلىٰ رسالة «الإكليل في المتشابه والتأويل».

ولننقل كلامًا آخر لشيخ الإسلام ابن تيمية، قاله في تفسير سورة الإخلاص - ننقله باختصار، وقليل تصرف اضطراري -:

قال رحمه الله: إنما غلط المفسرون في تفسير التأويل في الآية، لأنهم جعلوه بالمعنىٰ الاصطلاحي، وإن تفسير كلمات القرآن بالموضوعات الاصطلاحية كان منشأ غلطٍ يصعب حصره.

* ذُكر التأويل في سبع سور من القرآن:

- سورة آل عمران أولاها.

- والثانية: سورة النساء في ختام الآية (٥٩): ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾؛ فسر التأويل هنا مجاهد وقتادة بالثواب والجزاء، وفسره السدي وابن زيد، وابن قتيبة والزجاج بالعاقبة، وكلاهما بمعنىٰ المآل، لكن الثاني أعم، فهو يشمل حسن المآل في الدنيا.

- والثالثة: سورة الأعراف (٥٣): ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾، فسر ابن عباس ﴿تَأۡوِيلُهُۥ﴾ هنا بتصديق وعده ووعيده، أي يوم يظهر صدق ما أخبر به من أمر الآخرة.

قال قتادة: ﴿تَأۡوِيلَهُۥ﴾: ثوابه، قال السدي: عاقبته، وقال مجاهد: جزاؤه، وقال ابن زيد: حقيقته، وكل هذه الألفاظ متقاربة المعنىٰ، والمراد ما يؤول إليه الأمر من وقوع ما أخبر به القرآن من أمر الآخرة، لا يحتمل أن يراد به تفسيره.

- الرابعة: سورة يونس، قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩]؛ فسر أهل الأثر «تأويله» هنا بنحو ما تقدم، أي ما يؤول إليه الأمر، من ظهور صدقه، ووقوع ما أخبر به.

- الخامسة: سورة يوسف: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦]، ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ [يوسف: ٣٦]، ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف: ٣٧]، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤]، ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ [يوسف: ٤٥]، ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١]؛ فإخباره بالتأويل هو إخباره بالأمر الذي سيقع في المآل.

- والسادسة: سورة الإسراء الآية (٣٥): ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

- السابعة: سورة الكهف ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]، ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

فالإنباء بالتأويل إنباء بأمور عملية ستقع في المآل لا بالأقوال.

فتبين من هذه الآيات أن لفظ «التأويل» لم يرد في القرآن إلا بمعنىٰ الأمر العملي الذي يقع في المآل تصديقًا لخبر، أو رؤيا، أو لعمل غامض يقصد به شيء في المستقبل.

فيجب أن تفسر آية آل عمران بذلك، ولا يجوز أن يحمل التأويل فيها علىٰ المعنىٰ الذي اصطلح عليه قدماء المفسرين، وهو جعله بمعنىٰ التفسير كما يقول ابن جرير: القول في تأويل هذه الآية كذا، ولا علىٰ ما اصطلح عليه متأخروهم من جعل التأويل عبارة عن نقل الكلام عن وضعه إلىٰ ما يحتاج في إثباته إلىٰ دليل، لولاه ما ترك ظاهر اللفظ.

ومثله قول أهل الأصول: التأويل صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلىٰ الاحتمال المرجوح لدليل.

وبحمل التأويل على المعنىٰ الاصطلاحي تمسكت الباطنية في دعواهم إذ قالوا: إن أحدًا لم يفهم القرآن في زمن التنزيل، ولا بعده، وإن اللَّه وعد بتأويله، فلابد من انتظار من يبعثه اللَّه بهذا التأويل.

والبابية آخر فرقةٍ ظهرت من الباطنية تدَّعي أن الباب هو ذلك الموعود. والبهائية منهم من يقول: بل هو البهاء. وقد سمعت من دعاتهم من يحتج بقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٣]! فقلت له: المراد بـ ﴿تَأْوِيلِهِۦ﴾ ما وعد به، كقوله تعالىٰ: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ [محمد: ١٨]، و﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يس].

فهذا وأمثاله هو تأويله، والقرآن كله مفهوم، إن اشتبه منه شيء علىٰ بعض الناس لم يشتبه علىٰ غيرهم.

قال ابن تيمية في «تفسير سورة الإخلاص» ـ بعد كلام طويل ـ ما نصه: والمقصود هنا أنه لا يجوز أن يكون اللَّه أنزل كلامًا لا معنىٰ له، ولا يجوز أن يكون الرسول ﷺ وجميع الأمة لا يعلمون معناه، كما يقول ذلك من يقوله من المتأخرين. وهذا المعنىٰ واضح جلي في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، فإن كل مؤمن، يجب عليه أن يؤمن به، فلما خص الراسخين في العلم، علم أنهم امتازوا بعلم تأويله فعلموه؛ لأنهم عالمون، وآمنوا به، لأنهم مؤمنون، وكان إيمانهم به مع العلم أكمل في الوصف، وقد قال عقب ذلك: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ﴾، وهذا يدل علىٰ أن هناك تذكرًا يختص به أولو الألباب.

والشيء المذموم هو اتباع المتشابه لابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وهو حال أهل القصد الفاسد، الذين يريدون القدح في القرآن؛ كالذي وقع من صبيغ ابن عِسل، وهم الذين عناهم الرسول ﷺ في حديثه لعائشة رضي الله عنها، وقد سبق ذكره.

وأما من سأل عن المتشابه ليعرفه، ويزيل ما عرض له من الشُّبَه،

وهو عالم بالمحكم متبع له، مؤمن بالمتشابه لا يقصد فتنةً؛ فهذا لم يذمه اللَّه. وهكذا كان الصحابة يقولون بالأثر المعروف بسنده إلىٰ معاذ بن جبل: «يقرأ القرآن رجلان: فرجل له فيه هوًىٰ ونية، يفليه فليَ الرأس، يلتمس أن يجد فيه أمرًا يخرج به علىٰ الناس، أولئك شرار أمتهم، أولئك يعمي اللَّه عنهم سبل الهدىٰ، ورجل يقرؤه ليس له فيه هوىٰ ولا نية، يفليه فلي الرأس، فما تبين له منه عمل به، وما اشتبه عليه وكله إلىٰ اللَّه. ليتفقهن أولئك فقهًا ما فقهه قوم قط، حتىٰ لو أن أحدهم مكث عشرين سنة؛ فليبعثن اللَّه له من يبين له الآية التي أشكلت عليه، أو يفهمه إياها من قبل نفسه».

فهذا معاذ رضي الله عنه يذم من اتبع المتشابه لقصد الفتنة، وأما من قصد الفقه، فقد أخبر أن اللَّه لابد أن يفقهه المتشابه فقهًا ما فقهه قوم قط.

وبالجملة، فالدلائل الكثيرة توجب القطع ببطلان قول من يقول: إن في القرآن آيات لا يعلم معناها الرسول ﷺ ولا غيره. نعم قد يكون في القرآن آيات لا يعلم معناها كثير من العلماء فضلًا عن غيرهم، وليس ذلك في آية معينة؛ بل قد يشكل علىٰ هذا ما يعرفه هذا، وذلك تارةً يكون لغرابة اللفظ، وتارةً لاشتباه المعنىٰ بغيره، وتارةً لشبهة في نفس الإنسان تمنعه من معرفة الحق، وتارةً لعدم التدبر التام، وتارةً لغير ذلك من الأسباب؛ فيجب القطع بأن قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ يجب أن يعلم أن الصواب قول من يجعل ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ معطوفًا علىٰ ما قبله عطف مفرد علىٰ مفرد، أو يكون كلا القولين حقًّا، وهما قراءتان، والتأويل المنفي غير التأويل المثبت. وإن كان الصواب قول من يجعلها واو استئناف، فيكون التأويل المنفي علمه عن غير اللَّه، هو الكيفيات التي لا يعلمها غيره.

والأقوال التي نسبت لابن عباس رضي الله عنهما تجمع القولين، فتبين أن العلماء يعلمون من تفسيره ما لا يعلمه غيرهم، وأن فيه ما لا يعلمه إلا اللَّه.

فأما من جعل الصواب الوقف عند قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وجعل التأويل بمعنىٰ التفسير، فهذا أخطأ قطعًا.

وأما التأويل بالمعنىٰ الثالث ـ والذي هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلىٰ الاحتمال المرجوح ـ فهذا الاصطلاح لم يكن معروفًا في عهد الصحابة، ولا التابعين، ولا الأئمة الأربعة، ولا القرون الثلاثة، بل ولا علمت أحدًا فيهم خص لفظ التأويل بِهذا، ولكن لما صار تخصيص لفظ التأويل بِهذا شائعًا في عرف كثير من المتأخرين، فظنوا أن التأويل في الآية هذا معناه، صاروا يعتقدون للمتشابه في القرآن معانِيَ تخالف ما يفهم منه، وفرقوا دينهم بعد ذلك وكانوا شيعًا.

فلو كان هذا هو المتشابه الذي لا يعلم معناه إلا اللَّه؛ لصار كل القرآن لا يعرف أحد معناه ـ لا الرسول ولا غيره ـ، ومعلوم أن هذه مكابرة ظاهرة. وأيضًا فمعلوم، أن العلم بتأويل الرؤيا أصعب من العلم بتأويل الكلام؛ لأن دلالة الرؤيا علىٰ تأويلها دلالة خفية غامضة، لا يهتدي لها جمهور الناس، بخلاف دلالة لفظ الكلام علىٰ معناه؛ فإذا كان اللَّه قد علم عباده تأويل الأحاديث التي يرونها في المنام؛ فلأَنْ يعلمهم تأويل القرآن العربي المبين، الذي ينزله علىٰ أنبيائه بطريق الأولىٰ.

وأيضًا فإنه إن بنىٰ علىٰ ما يعتقده ـ من أنه لا يعلم معاني الآيات الخبرية إلا اللَّه ـ؛ لزمه أن يكذب كل من احتج بآية من القرآن خبرية علىٰ شيء من أمور الإيمان باللَّه واليوم الآخر.

ثم ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أقوال العلماء في نوع المتشابه؛ مفندًا لما زعموه أنه لا يعرف تفسيره ومعناه، وساق رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنواعًا عشرة ذكرها العلماء وعدوها من المتشابه، وليست كلها كذلك، كما أوضح الشيخ بالشواهد والأدلة الكثيرة، ومن أراد التفصيل فليرجع إلىٰ ما قاله في «الإكليل»، وآخر سورة الإخلاص، وقد ذكر في رسالتيه «الحموية»

«والتدمرية» ما يكفي ويشفي من توضيح إثبات الصفات، مع التزام التنزيه وعدم التكييف والتشبيه، وأن القول في صفاته كالقول في ذاته سبحانه: لا تشبهه الذوات، وصفاته لا تشبهها الصفات.

وقال صاحب «المنار» رَحِمَهُ اللَّهُ: فأهل التأويل يحظرون أن يقول الناس في مخاطبتهم: «إن اللَّه في السماء»؛ لئلا يوهم ذلك أن ذاته محصورة في هذا المخلوق الذي فوق رؤوسنا، فهم يريدون المبالغة في التنزيه. أما الأثريون فإنهم يجيزون استعمال كل ما ورد؛ محتجين بنصوص الكتاب والسنة، وما كان لبشر أن يدعي أنه أحرص علىٰ تنزيه اللَّه من اللَّه ورسوله، وقد يبالغ هؤلاء فيستعملون من ذلك ما لم يرد به نص، أو النص في غير ما ورد فيه، أو علىٰ غير الوجه الذي ورد فيه توسعًا وعملًا، والقياس في هذا ممنوع المقام. اهـ.

وذكر الإمام عماد الدين أحمد الواسطي، العارف المحقق، في رسالته «نصيحة الإخوان» ما حاصله في مسألة الاستواء والعلو والفوقية: «إن اللَّه عَزَّ وَجَلَّ كان ولا مكان ولا عرش ولا ماء ولا فضاء ولا ملأ، وأنه كان منفردًا في قِدَمه وأزليته، متواجدًا في فردانيته، لا يوصف بأنه فوق كذا، إذ لا شيء غيره تعالىٰ، وهو في تلك الفردانية منزه علىٰ لوازم الحدث وصفاته؛ فلما اقتضت الإرادة أن يكون للكون جهات من العلو والسفل، واقتضت الحكمة الإلهية أن يكون الكون في جهة التحت، لكونه مربوبًا مخلوقًا، اقتضت العظمة الربانية أن يكون هو تعالىٰ فوق الكون، باعتبار الكون لا باعتبار فردانيته، إذ لا فوق فيها ولا تحت.

والرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما كان في قدمه لم يحدث في ذاته ولا في صفاته ما لم يكن له في قدمه وأزليته، فهو الآن كما كان؛ لمَّا أحدث المربوب المخلوق ذا الجهات والحدود والملأ والفوقية والتحتية؛ كان مقتضىٰ حكم العظمة الربانية أن يكون فوق ملكه، وأن تكون المملكة تحته،

باعتبار الحدوث من الكون لا باعتبار القدم المكون؛ فإذا أشير إليه بشيء؛ يستحيل أن يشار إليه من جهة التحتية، أو من جهة اليَمْنة، أو من جهة اليسرة، بل لا يليق أن يشار إليه إلا من جهة العلو والفوقية.

وإذا علم ذلك فالاستواء صفة كانت له ﷻ في قدمه، لكن لم يُظهر حكمها إلا خَلقُ العرش، كما أن الحساب صفة قديمة لا يظهر حكمها إلا في الآخرة، وكذلك التجلِّي في الآخرة لا يظهر حكمه إلا في محله.

وإذا علم ذلك ـ أيضًا ـ فإن الأمر الذي تَهرب منه المتأولة حيث أولوا الفوقية بفوقية المرتبة، والاستواء بالاستيلاء، فنحن أشد الناس هربًا من ذلك، وتنزيهًا للباري تعالىٰ عن الحد الذي يحصره، فلا يُحد بحد يحصره، بل بحد تتميز به عظمة ذاته عن مخلوقاته. اهـ.

وللإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام طيب في كتابه «إلجام العوام عن علم الكلام»، الذىٰ صنفه بعد رجوعه إلىٰ مذهب السلف، فينبغي قراءته بتمعن وحذر من تعقيد عباراته.

هذا وقد ذكر المفسرون عدة تعليلات لإنزال المتشابه؛ أحسنها ثلاث علل:

أحدها: أن اللَّه أنزل المتشابه ليختبر قلوب عباده، ويمتحنهم في التصديق به والوقوف عند الحد فيما لا يعرفونه، ويردُّون علمه إلىٰ مُنزله الخلاق العليم، فيعظم بذلك ثواب المؤمنين المصدقين، ويزداد إثم الزائغين الذين يبتغون الفتنة.

ثانيها: حفز الهمم، وشحذ الأذهان للنظر والتأمل كي يستعملوا عقولهم في التدبر المطلوب لآيات اللَّه، وهذا من عظيم رحمته وحكمته ﷻ، أن جعل في الدين مجالًا للعقل.

ثالثها: تدريب عباده علىٰ استخراج المعاني الغامضة، والمسائل الدقيقة، والعبر والحكم الكامنة، ولعل هذا التعليل قريب من سابقه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يعني: وما يتعقل معاني

القرآن، ويعتني بمعرفة غوامضها إلا أرباب العقول المستنيرة، والقلوب الكبيرة، التي تعرف واجبها أمام وحي اللَّه الواجب فهمه وتدبره.

وجاء الوصف لأولي العلم بـ«الراسخين»؛ لبيان أن رسوخهم في العلم لم يحصل لهم إلَّا بالتدبر والتعقل لجميع آيات اللَّه، وذلك حسب القواعد التي يرجع إليها ويقاس عليها.

وهاهنا فوائد:

إحداها: إذا تعارض العام والخاص؛ فيقدم اللفظ المحكم الواضح منهما وجوبًا.

ثانيها: إذا تعارض نصان ـ محكم ومتشابه لم يتضح إجماله ـ، فيقدم ما استحسنه العقل منهما استدلالًا بما وضح من تأويل الخضر صاحب موسىٰ عليهما السلام بموافقة العقل.

ثالثها: الوقوف علىٰ قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ واجب علىٰ الصحيح، وليس في هذا نفي لعلم التفسير، وإنما نفي للتأويل الغيبي الذي اختص اللَّه به.

رابعها: الحذر من الخوض في القرآن بلا علم، أو تفسيره بالرأي، أو إخضاع معانيه للمصطلحات المنطقية ونحوها، فذلك سبب الزيغ والضلال.

خامسها: يختلف حكم الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله باختلاف فتنتهم وتأثيرهم وسوء نتائجهم:

ـ فمنهم من يُقتل ويقاتل دفعًا لشره وفتنته، وحكمه حكم الصائل؛ لأنه صائل علىٰ العقيدة.

ـ ومنهم من يجب قتله وقتاله لكفره وردته عن الإسلام، كالخوارج والقرامطة والباطنية والزنادقة الذين يبطلون أحكام الإسلام، أو يعطلون شرائعه، أو يبيحون المحرمات، أو يلغون حدود اللَّه.

وما عداها يعزر تعزيرًا رادعًا مثل صبيغ بن عِسْل، حسب اجتهاد الإمام.

📖 **قوله ﷻ في الآية (٨) من السورة:** ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ⑧﴾:

فيه إخبار منه ﷻ عن حالة الراسخين، حيث وصلوا إقرارهم بدعاء اللَّه ليحفظهم من الزيغ؛ فهم لما قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، سألوه أن يحفظ قلوبهم من الزيغ والانحراف بعد الهداية، فالرحمة المقصودة في هذا الدعاء بِهذه الآية هي الثبات والاستقامة، وإزاغة القلب هي فساد وميل عن الدين.

وليعلم المسلم أن هذا السؤال محمول علىٰ أمرين:

أحدهما: أنهم سألوا اللَّه ـ بعد هدايته لهم ـ ألَّا يبتليهم بما يثقل عليهم من الأعمال، فيعجزوا عنه ويحل بهم الزيغ.

ثانيهما: أنهم سألوا اللَّه ألَّا يزيغوا فيُزيغ قلوبهم، كما قال في الآية الخامسة من سورة الصف: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وفي هذه الآية التي نحن بصددها تعليم من اللَّه لعباده المؤمنين مداومة السؤال بإلهام الرشد والثبات عليه. وقد روىٰ الترمذي عن شهر بن حوشب قال: قلت لأم سلمة: يا أم المؤمنين، ما كان أكثر دعاء النبي ﷺ، إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه: «**يا مقلِّبَ القلوب، ثبِّتْ قلبي علىٰ دينك**»، فقلت: يا رسول اللَّه، ما أكثر دعائك بِهذا! قال: «**يا أم سلمة إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع اللَّه، فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ**»، فتلا معاذ رضي الله عنه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾، قال الترمذي: حديث حسن[١].

وقوله سبحانه: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾: تعليم ثانٍ

---

(١) رواه التِّرمذي (٣٥٢٢).

منه سبحانه لعباده أن يسألوه هبة الرحمة. والهبة: عطيةٌ بدون مقابل، إذ لا غنىٰ لعباده عن رحمته طرفة عين. وقد أخرج البخاري ومسلم بسنديهما إلىٰ النبي ﷺ **«إن للَّهِ مئةَ رحمة، أمسك عنده منها تسعًا وتسعين، وبسط رحمةً واحدةً بين خلقه، بها يتراحمون ويتعاطفون، وبها تَرفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه، وبها تعطف السباع علىٰ أولادها»**[(١)].

وقوله: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ أي من عندك، فإن «لدن» تستعمل بمعنىٰ عند، وإن لم تكن مرادفةً لها، بل هي أخص وأقرب مكانًا، ولا تستعمل «لدن» إلا في الشيء الحاضر، فهي أدل علىٰ الاختصاص، والمعنىٰ: هب لنا من عندك رحمة نتوفق بها إلىٰ الصواب والاستقامة.

وليس معنىٰ ذلك أن العلم هبة من اللَّه من غير اكتساب بالتعلم والتفهم، كما يتشبث بذلك جهالُ المتصوفة وزنادقة الباطنية محتجين بأمثال هذه الآية، زاعمين أن النظر في الأوراق حجاب، وأن العلم موهبة من اللَّه بلا تعليم.

وقوله ﷻ في الآية (٩) من السورة: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝٩﴾:

هذا من أخبار اللَّه أن الراسخين في العلم يوقنون بيوم القيامة، في حين أن أكثر المتشابه هو من أخبار الساعة وأحوال الدار الآخرة، فكأنهم بأدعيتهم يقولون: إن غرضنا من سؤال الاستقامة عن الزيغ، وتحصيل الرحمة: ليس ما تعلق بالدنيا الفانية، وإنما لأجل الفوز في الدار الآخرة، فإننا نعلم أنك جامع الناس في ذلك اليوم للجزاء ووعدك الحق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ هذا من كلام اللَّه تصديقًا للمؤمنين. وقيل هذا انتقال من الغيبة إلي الحضور، كما ورد مثلها كثير في

---

(١) رواه البخاري (٦٤٦٩)، ومسلم (٢٧٥٢).

القرآن الكريم، وعلىٰ هٰذا فتكون الجملة من كلام المؤمنين، والأول أرجح، والله أعلم.

وقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ لا يستدعي عدم الغفران عن المذنبين ـ كما يزعمه بعض المبتدعة من الخوارج والمعتزلة ـ؛ وإنما يستدعي وقوع يوم الجمع الذي جعله الله تعالىٰ ميعادًا للأولين والآخرين.

وأما الذنوب ـ ولو كانت كبيرة ـ، فإن الله يكفرها بالتوبة والاستغفار وبالحسنات الماحيات، وبما يصيب فاعلها من الأمراض والنكبات، وبما يقام عليه من حدود، وباستغفار المؤمنين، وشفاعة الشافعين بإذن رب العالمين، وبالصدقات التي تقع موقع النفع وغيرها مما سنذكره.

وقوله ﷻ في الآية (١٠) من السورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ١٠﴾:

إخبار من الله سبحانه عن سوء مصير الكفار الذين أعرضوا عن الهداية منتقصين جناب الله العظيم، أو منكرين لوجوده بالكلية. وقد قضىٰ الله بعدم نفع الأموال والأولاد للكفرة علىٰ اختلاف مللهم ونِحَلهم؛ لأن أكثر الكفر سببه الأموال والأولاد، إذ بعض الكفار رفض الاستجابة لله خوفًا علىٰ أمواله وضيعته مفضلًا لها علىٰ ما عند الله، وبعض الكفار رفض الاستجابة لله، خوفًا من أن يقطع قادة الكفر وملوكهم رزقه، كما صرح بذلك بعض وفد نجران. وبعضهم يرتد عن الإسلام من حيث يشعر، أو من حيث لا يشعر بمسايرته للطواغيت، وتقبُّله لمخططاتهم وتشريعاتهم أو مشيه في ركابهم.

وقد خرج ابن المبارك من حديث العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يظهرُ هذا الدين حتىٰ يجاوزَ البحار، وحتىٰ تخاضَ البحار بالخيل في سبيل الله، ثم يأتي أقوامٌ يقرؤون القرآن، فإذا**

قرؤوه قالوا: من أقرأ منا؟ من أعلم منا؟». ثم التفت إلىٰ أصحابه فقال: «هل ترون في أولئكم من خير؟» قالوا: لا، قال: «أولئك منكم، وأولئك من هذه الأمة، وأولئك هم وقود النار»(١).

ويشهد له قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

والمرتدون أصحاب المبادئ القومية والمذاهب المادية أسوأ من الكفار الأصليين؛ لأنهم لا يعترفون للّٰه بالألوهية، ولا بالحاكمية اعترافًا حقيقيًّا، بل إن اعترفوا فاعترافهم لفظي لا يجاوز حناجرهم، فهم يجعلون الأمر لهم من دون اللّٰه، بل يجعلون أمرهم فوق أمر اللّٰه، وحكمهم وشريعتهم أنفذ من تشريعات اللّٰه.

وهذا أعظم تعطيل لأسماء اللّٰه وصفاته، وإن لم يكن إنكارًا لذاته العلية فهو كالإنكار؛ إذ لا فرق بينهم وبين مَنْ أنكر اللّٰه جهرة، وهؤلاء من المرتدين عن دين اللّٰه يلتحقون بركب الكفار حكمهم حكمهم، وشأنهم شأنهم.

وقوله ﷻ في الآية (١١) من السورة: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾:

هذا مثل ضربه اللّٰه للذين كفروا من هذه الأمة، وأن دأبهم ـ يعني شأنهم وعادتهم في التكذيب والتمرد ـ كشأن آل فرعون والذين من قبلهم من الأمم السابقة الكافرة، التي حملها الكفرُ بالنعمة علىٰ الكفر بالأنبياء، والتطاول عليهم وعلىٰ أتباعهم بالإرهاب والتعذيب. ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن استحق العذاب بذنبه، وعقوباته ﷻ شديدة متنوعة، لا تحيط بها العقول.

«آل فرعون» هم أتباعه الذين يتبعون طريقته إلىٰ يوم القيامة، فإنه

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد والرقائق» (٤٥٠).

لا نسل له حتىٰ ينسب إليه؛ كما أن آل محمد ﷺ هم أتباع ملته وحملة سنته بالحق، فمن صده الملك والرئاسة عن اتباع دين الحق؛ فهو من آل فرعون، ومن منعته وزارته ووظيفته عن اتباع دين الحق؛ فهو من آل هامان، ومن منعته تجارته عن اتباع دين الحق؛ فهو من آل قارون، وهكذا يلحق كل كافرٍ لاحقٍ بمن شاكله من السابقين، حتىٰ إنه يُحشر معه يوم القيامة، كما قال ﷻ: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [الصافات: ٢٢]؛ يعني أشباههم في العقيدة والأخلاق، وليس المراد بأزواجهم زوجاتهم، فقد تكون زوجاتهم مسلمات مؤمنات، وهم كفرة فجرة. وكما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧﴾ [التكوير] يعني قرن معها أشباهها مما يناسبها في العقيدة والاتجاه.

ومن أعظم الجرائم التي تعرض المسلمين لعقوبة اللَّه: تركهم الجهاد لاستلام القيادة وإعلاء كلمة اللَّه وبتحكيم شريعته.

و«الدأب» في أصل اللغة الاجتهاد والتعب، كما قال تعالىٰ: ﴿تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾ [يوسف: ٤٧]، ولما كان اجتهاد الكفرة في معصية اللَّه يجلب عليهم التعب والمشقة في الدنيا والآخرة، سمىٰ اللَّه عملهم هذا دأبًا.

📖 وقوله سبحانه في الآية (١٢) من السورة: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝١٢﴾:

فيه إخبار منه سبحانه ـ علىٰ لسان نبيه ﷺ ـ للكافرين المغرورين بكثرتهم وقوتهم، وما لديهم من المادة: أنهم سيغلبون في الدنيا، ويتجرعون خزي الهزيمة والذل وعار الإفلاس. وقد حدث هذا، وحققه اللَّه تعالىٰ علىٰ أيدي المؤمنين في غزوة «بدر، وخيبر، والفتح» وغيرها من الغزوات والانتصارات التي حققها اللَّه علىٰ أيدي الخلفاء؛ هذه سنة اللَّه في الكون، أن ينصر المؤمنين، ويذل الكافرين ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [الفتح: ٢٣]، والآيات في

ذلك كثيرة، ولا يتخلف نصر اللَّه عن المؤمنين إلا بضعف إيمانهم وسوء أعمالهم، وفساد مقاصدهم.

ثم إن الكفار الذين كتب اللَّه عليهم خزي الهزيمة في الدنيا، قد كتب لهم في الآخرة شر المستقر، حيث قال: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [الرعد: ١٨]، والبئس هو الشر مأخوذ من البأساء، والمهاد هو الفراش، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨]، وقال: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]؛ فالمهاد هو الفراش، والغواش هو اللحاف، وفي هذه الآية إثبات لحشر الأجساد، واللَّه أعلم.

والحكمة من أمر اللَّه لنبيه ﷺ أن يتولىٰ إخبار الكافرين، أو يحكي لهم سوء عاقبتهم في الدنيا والآخرة: هي رفعة قدره وشفاء صدره ﷺ مما لاقاه منهم من التعنت والتمرد والإيذاء المستمر للمؤمنين.

وقد قرأ حمزة والكسائي: ﴿سَيُغْلَبونَ ويُحْشَرونَ﴾ بالياء التحتانية علىٰ سبيل الحكاية، وقرأ الباقون ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾ بالتاء الفوقية المثناة، وهي القراءة المشهورة.

والفرق بين القراءتين في المعنىٰ: أن القراءة بالتاء، تعني أن اللَّه أمره أن يخبرهم، والقراءة بالياء معناه أنه يحكي لهم حقيقة سوء عاقبتهم، وخبث مصيرهم.

ولما أخبر اللَّه في الآيتين السابقتين عن سوء عاقبة الكفار ومصيرهم، وأنه لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم، ولا كثرتهم ولا قوة شوكتهم عن حكم اللَّه الذي قضاه عليهم، أخذ يذكِّر المؤمنين بحادثة حسية واقعة لا إشكال فيها، وهي آية لرسول اللَّه ﷺ والمؤمنين، حيث نصرهم فيها علىٰ ضعفهم وقلة عددهم:

📖 **فقال سبحانه في الآية (١٣) من السورة:** ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ

رَأْيَ ٱلْعَيْنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾:

فهذا تذكير بالواقعة وتصوير للحقيقة، ففي يوم بدر التقت هاتان الجماعتان في القتال، جماعة المسلمين المقاتلين في سبيل اللَّه حقًّا، وجماعة المشركين الذين خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس، للصد عن سبيل اللَّه، والوقوف بوجه الحق.

وسميت الجماعة «فئة»؛ لأنه يرجع إليها في وقت الشدة؛ إذ أصل الفئة من الفيء، وهو الرجوع، وجمعها فئات وفئون، وقد أجمع المفسرون علىٰ أن المقصود بالفئتين في هذه الآية هم: المسلمون أتباع محمد ﷺ، وقريش مشركو مكة أتباع أبي جهل وعتبة ونحوهما.

وقد قال تعالي: ﴿كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ ولم يقل: «كانت لكم آية»؛ لأن تأنيث ﴿ءَايَةٌ﴾ غير حقيقي فردها للبيان.

وهاتان الفئتان ليس بينهما تكافؤ لا في العدد ولا في القوة، فالمسلمون علىٰ غاية من الضعف في عددهم وعدتهم، فلم يتجاوزوا الثلاثمئة وبضعة عشر رجلًا، وليس لديهم من الخيل إلا فَرَسان، ومن الدروع إلا ستة، وكان يعتقب الأربعة منهم علىٰ بعير واحد، ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وكان مع المشركين سبعمئة بعير، ومئة فرس، ومئة درع، ولهذا الفارق بين القوتين كان انتصار المسلمين آيةً ظاهرة ومعجزةً باهرة.

وفي هذه الآية المُشيرة لغزوة بدر عدة فوائد ومعجزات:

أولها: أن الرسول ﷺ أخبر المؤمنين أن اللَّه عَزَّ وَجَلَّ أعطاه إحدىٰ الطائفتين وأخبرهما عن مصارعهم، فلما وجدوا ما أخبرهم به، علىٰ وفق ما حدث كان هذا معجزة؛ لأنه إخبار عن الغيب.

ثانيها: وهذا من بديع تقدير اللَّه سبحانه، حيث قلل المشركين في أعين المؤمنين ليغريهم بهم، كما قلل المؤمنين بأعين المشركين

ليهموا بهم، وكان هذا بادئ الأمر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٤]، ولكنه سبحانه عكس الأمر حين تلاقىٰ الفريقان في ساحة القتال، فأكثرَ اللَّه المؤمنين في أعين المشركين، ليذعروا فينهزموا بإذن اللَّه، وهذا أبلغ في إظهار معجزة اللَّه.

ثالثها: إمداد اللَّه لرسوله بالملائكة الكرام في تلك الغزوة علىٰ خيل نواصيها بيضاء.

رابعها: ذكر سبب النصر في قوله تعالىٰ: ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾؛ فإن نصر اللَّه لا يحظىٰ به إلَّا المؤمنون الصادقون.

خامسها: أن نصر اللَّه لا يتخلف عن المؤمنين، إلا لعيب فيهم، يحول بينهم وبين النصر.

سادسها: أن غزوة بدر فيها رد صريح علىٰ القائلين بأن الجهاد في الإسلام دفاعي لا هجومي، فراحوا يلتمسون لكل غزوة سببًا، ويلوون معاني آيات القرآن وِفق ما ترسب في أدمغتهم، من كلام أسيادهم من الكفرة والمبشرين.

وقوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، أي أن النصر من عند اللَّه يؤيد به من يشاء من المؤمنين والكافرين، علىٰ حسب ما تقتضيه حكمته ورحمته، ولكنه ﷻ قضىٰ علىٰ نفسه بنصر المؤمنين المخلصين، مكافأةً لهم علىٰ إخلاصهم، ورفعةً لمنار دينه علىٰ أيديهم.

وأما الكفار المتحاربون فإن اللَّه ينصر بعضهم ليذيق بأسهم البعض الآخر، وينكِّل بعضهم ببعض، ولكن ليس لهم نصيب من مدده الذي يمد به المؤمنين المتقين؛ بل يجري نصرهم علىٰ وفق مقتضيات السنن الكونية، ومدىٰ الاستفادة منها. وقد ينصر اللَّه الكافرين علىٰ المسلمين المفرطين في خدمة عقيدتهم وحمل رسالتهم ليذوقوا وبال أمرهم، ويكون ذلك تربية لهم، وردًّا لهم إلىٰ حظيرة دينهم.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾، يقص اللَّه علينا من أنباء نصره للمؤمنين من السالفين في القرون الأولىٰ إلي نصره للرسول ﷺ وأصحابه في غزوة «بدر» والأحزاب وغيرهما، ليحصل الاعتبار الصحيح، الذي يجعل المسلم لا تخيفه أي قوة أبدًا ولا يخشىٰ إلا اللَّه، يستمطر نصره ومدده بحسن طاعته، والصدق معه، والإخلاص له، ليحصل له من النصر ما حصل لأسلافه ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧].

وقوله ﷻ في الآية (١٤): ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾:

«الشهوات»: جمع شهوة، وهي توقَانُ النفس إلىٰ المشتهىٰ والمراد.

و«القناطير»: جمع قنطار، وهو المال الكثير، وقد اختلفوا في حد وزنه، والصحيح أنه غير محدود، وأصل القنطار مأخوذ من الإحكام، يقال: قنطرت الشيء أحكمته، وسمي البناء المحكم قنطرة؛ لثباته وقوته، وتحمُّله العبور فوقه، فإضافة القنطار إلىٰ المال يعطي المال صفة الكثرة، بحيث يتوثق به الإنسان في دفع أصناف النوائب.

وأما ﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ فهي لفظ قصد به التأكيد كقولهم: ألوف مؤلفة، ودرهم مدرهمة.

﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ ذات الهيئة الحسنة من الأوضاح الغر المحجلة، وهي أرغب شيء في الخيل. وسميت «خيلًا» لاختيالها في مشيتها.

﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ جمع نَعَم، وهي الإبل والبقر والغنم، وبعضهم عممها في غيرها، وهو خلاف معروف.

﴿وَٱلْحَرْثِ﴾ أنواع الزروع التي تُحرث الأرض من أجلها.

وقد ذكر اللَّه هذه المشتهيات الستة، مقدمًا منها ما يكثر الاستئناس به واللذة، وما يحصل به العشق المقلق المهلك: «النساء»، ومخصصًا فيها ذكر البنين من الأولاد لكثرة تفضيلهم عند الآباء علىٰ الإناث،

وحب التكثر بهم من دونِهن. وثلَّث بذكر القناطير من الذهب والفضة لما ذكرنا من التوثق بها لدفع النوائب، ورفعة الشخص.

وجاء ذكر هذه المشتهيات عقب ما تقدم لبيان الأسباب التي تدعو الناس إلىٰ العدول عن الهداية والإعراض عن الحق.

والمزيِّن لهذه المحبوبات، هو اللَّه ﷻ حيث فطر الناس علىٰ هذه الطبيعة، وأنشأهم عليها، ولكن الشيطان له تزيين آخر بإذن اللَّه وتسليطه، فهو يزين المحرم منها لإغوائهم عن طاعة اللَّه، وهذا هو مذهب أهل السنة، ودع عنك مذاهب المبتدعة.

ومما ينبغي أن يُعلم ويفهم جيدًا أن محبوبات النفس من هذه المشتهيات ليست محرمةً في دين اللَّه علىٰ الإطلاق، خصوصًا الشهوة الجنسية، كما هي الحال في تعاليم النصاري، التي تفرض عليهم الكبت العنيف، مما اضطرهم إلىٰ الانغماس في الشهوات، والثورة علىٰ الكنيسة، في حين نجد الدين الإسلامي يبيح الطيبات ويرغِّب فيها، ويثبت للمتمتع بها الأجر والثواب إذا نوىٰ بها التقوي علىٰ طاعة اللَّه، أو الاستغناء بها عما حرم اللَّه، كما صح عنه ﷺ أنه قال: «**وفي بُضع أحدِكم صدقة**»، قالوا: يا رسول اللَّه، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟! قال: «**أرأيتم لو وضعَها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر**»[(١)].

إن الإسلام ـ إذ يعترف بنوازع الإنسان وميوله الفطرية التي فطره اللَّه ﷻ عليها ـ، فإنه لاحظ استعداده للتسامي والتعالي، فجاء بشرائع تُهذب هذه الغرائز وتنظمها، وتنقِّيها من شوائب البهيمية، وتجعل منها دوافع تدفع الإنسان إلىٰ ما فيه خيره وصلاحه من جهةٍ ثانيةٍ تدفعه إلىٰ بناء مجتمعه وإسعاده، ومن هنا كان الإسلام دينًا متزنًا، حيث وازن بين مطالب الجسد ومطالب الروح؛ حيث طلب من

---

(١) تقدم تخريجه.

المسلمين أمرين:

الأول: ألَّا يزيد حب هذه الشهوات والمحبوبات علىٰ حب اللَّه ورسوله، أو يعادله.

ثانيهما: أن يسخر هذه المحبوبات في مرضاة اللَّه، ويجعلها وسيلةً لا غاية.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾، يعني حسن المرجع في الدار الآخرة، لذا فالمؤمن لا يجعل كل همه في هذا المتاع القريب الزائل، فينقص حظه مما عند اللَّه، كما قال تعالىٰ: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]؛ فالجنة لا تنال إلا بقطع مفاوز المكاره والصبر عليها، كما أن النار لا ينجي منها إلا ترك الشهوات المحرمة، وفطام النفس عنها، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**حُفَّت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**»[١].

وسر البَدء بالنساء من بين المشتهيات؛ لأنَّهنَّ أعظم فتنة للرجال من بقية المذكورات، فهن حبائل الشيطان ومصائده، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما تركتُ بعدي فتنةً أشد علىٰ الرجال من النساء**». رواه الشيخان[٢].

وقد روىٰ الشيخان في «صحيحيهما»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما من صاحب ذهبٍ ولا فضةٍ لا يؤدي منها حقَّها، إلا إذا كان يومُ القيامة صُفِّحت له صفائحَ من نار، فأُحمي عليها في جهنم، فيُكوىٰ بها جنبُه وجبينه وظهره، كلما برَدت أُعيدت له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتىٰ يُقضىٰ بين العباد، فيرىٰ سبيله، إما إلىٰ الجنة، وإما إلىٰ النار**»، قيل يا رسول اللَّه: فالإبل؟ قال: «**ولا صاحبُ إبلٍ لا يؤدي حقها ـ ومن حقها حلبها يوم وردها ـ، إلا إذا كان**

---

(١) رواه مسلم (٢٨٢٢).

(٢) رواه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠).

يوم القيامة، بُطح لها بقاع قرقر، أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلًا واحدًا، تطؤه بأخفافها، وتعضُّه بأنيابها، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتىٰ يقضىٰ بين العباد، فيرىٰ مصيره، إما إلىٰ الجنة وإما إلىٰ النار»، قيل: يا رسول اللَّه، فالبقر والغنم؟ فقال: فيها مثل ذلك، قيل: يا رسول اللَّه، فالخيل؟ قال: «الخيلُ ثلاث، هي لرجل وِزر، ولرجل سِتر، ولرجل أجر، فأما التي هي له وزر: فرجلٌ ربطها رياءً وفخرًا ونَواءً لأهل الإسلام، فهي له وزر، وأما التي هي له ستر: فرجلٌ ربطها في سبيل اللَّه، ثم لم ينسَ حق اللَّه في ظهورها، ولا في رقابها، فهي له ستر، وأما التي هي له أجر: فرجل ربطها في سبيل اللَّه، لأهل الإسلام في مرج أو روضةٍ، فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة من شيءٍ إلا كُتب له عدد ما أكلت حسنات، وكتب له عددَ أرواثها وأبوالها حسنات، ولا استنَّت شرفًا أو شرفين، إلا كتب له عدد آثارها وأرواثها حسنات، ولا مر بها صاحبُها علىٰ نهر فشربت منه ـ ولا يريد أن يسقيها ـ، إلا كتب اللَّه له عددَ ما شربت حسنات» قيل: يا رسول اللَّه، فالحمر؟ قال: «ما أُنزل عليَّ في الحمر شيءٌ إلا هذه الآية الفذةَ الجامعة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾»[1].

وروىٰ الشيخان ـ أيضًا ـ عن عمرو بن عوف أن رسول اللَّه ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلىٰ البحرين يأتي بجزيتها، فقدم بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدومه، فوافوا صلاة الفجر مع رسول اللَّه ﷺ، فلما صلىٰ انصرف، فتعرضوا له، فتبسم ﷺ حين رأهم، ثم قال: «أظنكم قد سمعتُم أن أبا عبيدة قدم بشيءٍ من البحرين؟» فقالوا: أجل يا رسول اللَّه! فقال: «أبشروا وأمِّلوا ما يسركم، فواللَّه لا الفقرَ أخشىٰ عليكم، ولكني أخشىٰ أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسطت علىٰ من كان قبلكم، فتتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم»[2].

---

(١) رواه البخاري (١٤٠٢)، ومسلم (٩٨٧).
(٢) رواه البخاري (٦٤٢٥)، ومسلم (٧٣٥١).

روىٰ الشيخان ـ أيضًا ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا حسدَ إلا في اثنتين: رجل آتاه اللَّه مالًا فسلَّطه علىٰ هلكته في الحق، ورجل آتاه اللَّه حكمة فهو يقضي بها ويعلمها**»(١).

وعنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أيكم مالُ وارثه أحبَّ إليه من ماله؟**» قالوا: يا رسول اللَّه، ما منا أحد، إلا ماله أحب إليه، قال: «**فإن مالَه ما قدم، ومال وارثه ما أخر**». رواه البخاري(٢).

وقوله سبحانه في الآية (١٥) من السورة: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾:

هذا توضيح من اللَّه سبحانه وتعالى لحسن مآب المتقين، الذين اتقوا ربهم، بتفضيل محبته علىٰ كل محبوب، فسخَّروا جميع متاع الدنيا في مرضاته، وجعلوه وسيلة لتحقيق طاعته وحمل رسالاته، ولم يغرقوا أنفسهم في المادة، ولم تشغلهم الدنيا عن وظيفتهما الربانية في الأرض. والتعبير بالاستفهام فيه لفت نظر للنفوس إلىٰ معرفة جواب الاستفهام، تشويقًا إليه. والإنباء بالشيء هو الإخبار به. قيل في «الكليات»: «النبأ والأنباء لم يردا في القرآن إلَّا لما له وقع وشأن عظيم». وعلىٰ هذا يكون التعبير الإلهي بحقيقة النبأ ومادته تشويقًا آخر حيث أخبرهم سبحانه وتعالى بما هو خير من محبوباتهم الدنيوية، جنات غير متعبة، إذ يحصل أهلها علىٰ كل نعيم فيها دونما بحث أو نظر.

وهناك في الجنة ما هو أعظم من نعيمها، ومن كل نعيم؛ ألا وهو: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾؛ فإن هذا الرضوان لا تعدله الدنيا والآخرة.

ففي هذه الآية الكريمة ما يسلي عن الدنيا، ويقوي القلوب علىٰ ترك فضولها وشهواتها.

---

(١) رواه البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٥).
(٢) رواه البخاري (٦٤٤٢).

وقد ورد في الحديث، أن اللَّه يقول لأهل الجنة: «**تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: يا ربنا ألم تبيِّض وجوهنا؟ ألم تُنجنا من النار؟ ألم تدخلنا الجنة؟ وأي شيء أفضل من هذا؟ قال: أُحلُّ عليكم رضائي، فلا أسخط عليكم أبدًا**». رواه مسلم(١).

وفي قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلي أن ما ذكره سبحانه في الآية السابقة من متاع الدنيا ومشتهياتها خير في نفسها، وليست بشر، فهي من خير نعم اللَّه علىٰ الناس، وإنما يُحصَّلُ الشر فيها من سوء التصرف، كما يحصل الشر من حواس الناس وعقولهم وجوارحهم، إذا أساؤوا استعمالها، ولم يشكروا اللَّه في استعمالها الاستعمال المرضي للَّه، كالذي يسرف في حب النساء إسرافًا يجعله يعطي المرأة المحبوبة، أو ولدها حق غيرها من الميراث، أو يهمل تربية ولده الذي هو من غيرها، ويعتني بها وبأولادها فقط، أو يضيع حقوق اللَّه من أجلها وأولادها، أو يعتدي في حبه النساء بمحبته أزواج غيره، أو يسرف في حب الأموال، فيكتسبها من الحرام، أو ينفقها في الحرام، ونحو ذلك مما يجعل به الخير وسيلة للشر، فهذا كمن يسعىٰ برجليه لنيل محرم، أو يتناول بيديه ما حرم اللَّه أو يستعمل عقله للكيد بالناس، والتخطيط لإيذائهم، وأكل أموالهم بالباطل، فهذا ـ والعياذ باللَّه ـ قد قلب آلات الخير إلىٰ الشر، بسوء استعماله لها، وإلا فهي خير في نفسها.

وليس فيما رواه البخاري في «صحيحه» عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: وقد رأىٰ سكةً وشيئًا من آلة الحرث، فقال: سمعت رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم يقول: «**لا يدخلُ هذا بيتَ قوم، إلا أدخله اللَّه الذل**»(٢)؛ ليس في هذا الحديث ما يفيد منع الحراثة، أو أنها شرٌّ بذاتها، ولكن فيه منع

(١) رواه مسلم (١٨١).
(٢) رواه البخاري (٢٣٢١).

من الانشغال بها بالمباشرة ممن هم أهل للجهاد، وأنه ينبغي أن تجعل لمن لا يصلح للجهاد من العلوج والمغلوبين، أو من الجبناء والمرجفين ونحوهم.

ولو كانت شرًّا في ذاتها لما قال ﷺ ـ كما ورد في الصحيحين عن أنس، رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال ـ: «**ما من مسلم يغرسُ غرسًا، أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير، أو إنسان أو بهيمة؛ إلا كان له به صدقة**»[1].

وفي قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ خير ختام لهذه الآية، إذ هو إشعار منه لعباده بعمق علمه، وبصيرته بخفايا النفوس ودقائق الأعمال، وأنه ليس كل من ادعىٰ التقوىٰ بلسانه أو حسبها في نفسه يكون متقيًا، ولا كل من ادعىٰ الصلاح والإصلاح يكون صالحًا مصلحًا، لأن ميزان الأعمال ليس علىٰ ظواهرها؛ بل علىٰ صلاح الباطن من إخلاص النيات، وتطهير المقاصد.

📖 **وقوله سبحانه في الآيتين: (١٦، ١٧) من السورة: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴿١٧﴾﴾:**

هذا وصف من اللَّه سبحانه لأهل التقوىٰ ببعض صفاتهم، وذلك أنهم لما تأثرت قلوبهم بالتقوىٰ، التي هي ثمرة الإيمان، لهجت ألسنتهم بالاعتراف بِهذا الإيمان في مقام الدعاء والابتهال، كغيض من فيض، وهذا من جملة مدح اللَّه لهم.

ولا يضر الفصل بين الصفة والموصوف ـ ولو طال الفصل ـ ما دام المراد ظاهرًا بدون التباس. ولعل هذه الصفة صفةٌ معنوية، وليست مجرد النعت المشهور عند النحاة.

وقد حكىٰ اللَّه عنهم هنا ـ في معرض المدح لهم والثناء عليهم ـ

---

(١) رواه البخاري (٢٣٢٠)، ومسلم (١٥٥٢).

أنهم توسلوا بالإيمان إلىٰ طلب المغفرة، وهذا يدل علىٰ أن العبد إذا أخلص إيمانه، يستوجب المغفرة والرحمة. ولا يخلص إيمان المرء، إلا إذا أطاع اللَّه في جميع الأمور، وتاب من جميع الذنوب ونصح للَّه بالدعوة إليه، وملازمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فالمؤمنون علىٰ الحقيقة هم الذين يعملون الصالحات، ويسابقون في الخيرات، وقلوبهم وجلة يخافون ألَّا يقبل منهم كما قال اللَّه تعالىٰ في الآية: (٦٠، ٦١) من سورة المؤمنون: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾.

وقد صح في الحديث أن عائشة رضي الله عنها سألت رسول اللَّه ﷺ عن ذلك فقالت: أهم الذين يزنون ويسرقون؟ قال: «**لا ـ يا ابنة الصديق ـ، ولكن هم الذين يصلُّون ويصومون ويتصدقون، ويخافون ألَّا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات**»[(١)].

هذا وقد وصف اللَّه سبحانه أصحاب الإيمان ـ الذين يسألون المغفرة والوقاية من النار ـ بأوصاف بليغة المعاني ـ وهي خمسة ـ، كما جاء في قوله تبارك وتعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾.

«الصبر» أولىٰ صفاتهم، وقد تقدم التفسير والكلام عن الصبر عند تفسير آية (١٥٣) من سورة البقرة، حيث قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة].

ونقول هنا: إن الصبر حبس النفس علىٰ المكروه، ومجاهدتها في سبيله، فهو تصبير النفس علىٰ كل ما يشق احتماله.

وأكمل أنواع الصبر حبس النفس علىٰ أداء الواجبات والمندوبات، وترك المحرمات والمكروهات، والتزام شريعة اللَّه في جميع الأحوال: في المنشط والمكره، والعسر واليسر، والغضب والرضا، والصبر

---

(١) تقدم تخريجه.

علىٰ الأثرة[١]، فهم صابرون علىٰ أقدار اللَّـه في كل ما ينزل بهم من الشدائد والمحن، وما يصيبهم من المصائب شعارهم فيها ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، وهم صابرون علىٰ زوابع الشهوات وأعاصير الفتنة المتنوعة، ليوقفوا أنفسهم عند حدود اللَّـه. ثم هم صابرون في البأساء علىٰ شدة الحروب وهولها، حيث تذهل النفوس غير الصابرة.

وكل أمة يضعفُ الصبر في قلوب أفرادها، يضعف فيها كل شيء، وتذهب منهم كل قوة. وبالجملة فالصبر خلق كريم عظيم، يتوقف عليه حصول كل كمال في الدنيا، ورضوان اللَّـه سبحانه في الآخرة.

وليُعلم أن تقديم اللَّـه ذكر الصابرين علىٰ ما بعده؛ لأنه كالشرط، إذ لا تحصل الأشياء البواقي بدونه، ففاقد الصبر لا يقدر علىٰ الصدق، ولا علىٰ القنوت، ولا علىٰ الإنفاق، ولا علىٰ الاستغفار، وإن قدر علىٰ البعض من ذلك، فإنه لا يقدر علىٰ إكماله.

«الصدق» الصفة الثانية، والمراد به أنهم الصادقون في جميع أقوالهم وأعمالهم ونواياهم، وسائر أحوالهم؛ لأن الصدق يكون في القول والعمل والوصف؛ فهم الصادقون مع اللَّـه في نياتهم وأعمالهم، فلا يقع منهم إلا ما يرضىٰ اللَّـه ﷻ. كما أنهم صادقون مع الناس في المعاملة والإخبار، فلا يسيئون لأحد من الناس بعمل أو قول، لذا أثنىٰ اللَّـه عليهم بوصفه لهم به، فإن منتهىٰ الكمال في كل شيء هو الصدق.

«القنوت» صفة المتقين الثالثة، والقنوت: المداومة علىٰ الطاعة والعبادة، وقد وهم من فسَّر القنوت بطول القيام علىٰ الإطلاق، ويرد عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الروم]، ونحوها من الآيات التي يأبىٰ تفسيرها بطول القيام، لكن معنىٰ الخشوع يقتضي التمهل في جميع أفعال الصلاة وحركاتها، من قبل الخاشع.

---

(١) **الأثرة**: ما يسمىٰ بلغة العصر: الأنانية.

«الإنفاق» الصفة الرابعة للمتقين، فقد وصفهم اللَّه ﷻ بالمنفقين علىٰ الإطلاق، ليشمل جميع إنفاقهم في النواحي المشروعة والمحمودة.

«الاستغفار بالأسحار» هي الصفة الخامسة، والاستغفار ليس بمجرد القول كاستغفار البطالين، ولا كاستغفار المذنب المزاول للذنب، ممن وردت فيه الآثار أنه كالمستهزئ باللَّه، وإنما استغفار المتقين بالعمل والصلاة، فهم يصلون شطرًا من الليل حتىٰ إذا جاء السحر قبل الفجر شرعوا بالاستغفار، خوفًا من الإعجاب بعملهم، أو خوفًا من عدم قبوله، وقد فسر مجاهد هذا الاستغفار بالصلاة، وهو أقرب إلىٰ المعنىٰ، وذلك أنهم يستغفرون في صلب صلاتهم.

فهم يصلون للَّه آخر الليل، في الوقت الذي يطيب فيه النوم للغافلين، وصلاتهم في هذا الوقت أثقل شيء في التكليف، وأبعد عن الرياء، وأروح للنفس، وأفرغ للقلب من الشواغل، وأتقىٰ للَّه، وأحظىٰ منه قربة.

وهذا الاستغفار من صالح الأعمال التي حث النبي ﷺ عليه، حيث كان يقول: «**استغفروا اللَّه؛ فإني أستغفر اللَّه في اليوم سبعين مرة**»(١). ووردت عنه أحاديث صحيحة أنه يستغفر اللَّه مئة مرة في اليوم.

وأما التهجد آخر الليل فهو من أسباب قبول الاستغفار، وقد أمر اللَّه نبيه ﷺ به، وأمره له يشمل أمته علىٰ العموم بالندب لا بالوجوب، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء]، وكقوله تعالىٰ في سورة المزمل: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل]، وقد صح الحديث عنه ﷺ أنه قال: «**مَن لزم الاستغفارَ جَعل اللَّه له من كلِّ همٍّ فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب**»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٧).

(٢) رواه أبو داود (١٥١٨)، وابن ماجه (٣٨١٧).

هذا وإن وعد اللَّه تعالىٰ للمؤمنين المتقين بالمغفرة لا ينافي حكايته دعاء المستغفرين؛ لأن من كان باللَّه أعرف كان منه أخوف. والنكتة في كون هذه الأوصاف الجليلة تأتي معطوفة بحرف العطف علىٰ نسق؛ مع أن الأوصاف المعدودة تسرد غير معطوفة؛ فقد ذكر صاحب «الكشاف»: أن العطف يفيد كمال الموصوفين بهذه الأوصاف.

ونفىٰ ذلك بعض المفسرين، ولكن من عنده ذوق في اللسان يجد في نفسه هذا الفرق، ويؤيد ما قاله صاحب «الكشاف»، ويشهد له قول الشاعر:

ولو كان رمحًا واحدًا لاتقيتُه ... ولكنه رمحٌ وثانٍ وثالثُ

فالفرق ظاهر بين قول الشاعر: «ولكنه رمح وثان وثالث»، وبين قولك: ثلاثة رماح.

وقوله سبحانه في الآية (١٨)، من السورة: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)﴾:

اعلم أن عبارات السلف في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ تدور علىٰ الحكم والقضاء، يعني: حكم اللَّه، قضىٰ اللَّه، وتدور علىٰ الإعلام والبيان والإخبار، قال مجاهد: حكم وقضىٰ، وقال الزجاج: بيَّن، وقالت طائفة: أخبر وأعلم.

وكل هذه الأقوال حق لا تنافي بينها ولا تناقض؛ لأن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره، وإعلامه وبيانه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الشهادة: لها أربع مراتب:

فأول مراتبها: علم، ومعرفة، واعتقاد صحة المشهود به، وثبوته.

وثانيها: تكلمه بذلك ونطقه به، إن لم يعلم به غيره، بل يتكلم به مع نفسه، ويذكرها وينطق بها أو يكتبها.

وثالثها: أن يُعلم غيره بما شهد به، ويخبره به، ويبينه له.

ورابعها: أن يلزمه بمضمونها، ويأمره به.

وأقول: لعل هذه مراتب الشهادة علىٰ الإطلاق، أما اللَّـه فلا يليق بجلاله بعض ما جاء في المرتبة الثالثة.

وقد فسر بعض الخلف هذه الشهادة علىٰ مقتضيات مذاهبهم التي تضطرهم إلىٰ العدول عن الحقيقة إلىٰ المجاز، علىٰ خلاف ما قرر في الأصول، من عدم العدول عن الحقيقة إلا لمسوغ ضروري.

وهذه الآية تضمنت إثبات حقيقة التوحيد ولبابه، الذي هو توحيد المحبة والتعظيم الموجب لإخلاص العبادة، وكمال الطاعة، ودوام الانقياد والتنفيذ. ولقد شهد اللَّـه ﷻ بالوحدانية لنفسه في هذه الآية. ومن أعظم شهادةً من اللَّـه؟ ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩].

وشهادة اللَّه لنفسه بالوحدانية، والقيام بالقسط، قد تضمنت المراتب الأربعة السابقة: علمه بذلك، وتكلمه به، وإعلامه لخلقه، وأمرهم به وإلزامهم. ولكن شهادة اللَّـه هذه لا يقدرها حق قدرها إلا أصحاب القلوب الممتلئة بالإيمان، والموقنة حقًّا بوجود اللَّه.

أما مرتبة العلم فإن الشهادة بالحق تتضمنها ضررورة، وذلك لكمال العلم، وإلا لكان الشاهد جاهلًا بحقيقتها، فلا يصلح للشهادة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

وأما مرتبة التكلم والخبر فقد حصلت من إخباره تعالىٰ، ومن تكلم بشيء وأخبر به فقد شهد به، وإن لم يتلفظ بالشهادة، وفي القرآن أمثلة كثيرة علىٰ ذلك، نقتصر علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف: ١٩].

فجعل ذلك منهم شهادة، إن لم ينطقوا بلفظ الشهادة. وهذا مذهب

الإمام مالك وأهل المدينة، وظاهر كلام الإمام أحمد، ولا يعرف عن أحد من الصحابة أنه اشترط النطق بالشهادة. وقد أجمع العلماء علىٰ أن الكافر إذا قال: «لا إله إلا اللَّه» فقد دخل في الإسلام، دون أن يتلفظ بلفظ الشهادة.

وأما مرتبة الإخبار والإعلام فهي نوعان: إعلام بالقول، وإعلام بالفعل، وكل مُعلِمٍ لغيره يعلمه تارةً بقوله، وتارةً بفعله. وقد علَّم اللَّه وأخبر عن وحدانيته وعبوديته بالقول بإرسال الرسل وإنزال الكتب. وأما تعليمه وإخباره بالفعل، فهو ما نصبه من الآيات الكونية والنفسية الدالة علىٰ وحدانيته، والتي هي معلومة بالفطرة، ويشهد لها العقل الصحيح السليم.

قال ابن كيسان رَحِمَهُ اللَّهُ: «شهد اللَّه بتدبيره العجيب وأموره المحكمات عند خلقه إنه لا إله إلا هو».

وسئل بعض الأعراب ما الدليل علىٰ وجود الصانع؟ فقال: «البعرة تدل علىٰ البعير، وأثر الأقدام يدل علىٰ المسير، فهيكل علوي بِهذه اللطافة، ومركز سفلي بِهذه الكثافة، أما يدلان علىٰ الصانع الخبير؟».

وقال الواحدي: «اللَّه بين دلالات التوحيد بجميع ما خلق».

وأقول: إن إعلامه الفعلي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو ما نصبه لخلقه من الآيات النفسية والآفاقية، كخلق السماوات والأرض وما بينهما من الأجرام والتخوم العلوية، والنجوم والكواكب التي لا حصر لها، والقرآن الكريم مليءٌ بالآيات الدالة علىٰ ذلك، والتي يعجز القلم عن جمعها في هذا المقام، فكل القرآن المكي من هذا القبيل سواء سوره أو آياته.

ومع كل هذا البيان والإيضاح العملي من اللَّه سبحانه؛ فإننا نجد حمقىٰ الملاحدة من أطفال العقول يَسخَرون من صنع اللَّه، زاعمين أن اللَّه لم يخلق طائرة، ولا صاروخًا، ولا مركبة فضائية، كما صنع ملاحدتهم ويقولون: إن اللَّه يخلق البعير والحمار والحشرات!

يريدون بذلك الاستخفاف باللّه وأن يجعلوا الإنسان أقوىٰ وأقدر من هذا الإله الذي يؤمن به المؤمنون.

وهم إذ يقولون ذلك يتعامون عن خلق اللّه للأرض والسماوات والأجرام العظيمة، وإمساكهن في الفضاء عن الزوال والسقوط، وأنه خلق كل شيء من العدم، وأن للّه ﷻ هو الذي أوجد المادة وأودع فيها خصائصها، ووهبهم العقول لاكتشاف هذه الخصائص، فكل شيء منه ﷻ؛ مصداقًا لقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات].

فنحن نتحدىٰ هؤلاء الملاحدة أن يُوجدوا مادةً واحدةً من العدم، أو أن يَهَبُوا لمادة خاصيةً ليست موجودةً فيها، كما ورد علىٰ لسان الأنبياء السابقين: «**من ذا الذي يخلق كخلقي؟ فليخلقوا ذرةً، أو فليخلقوا حبةً، أو فليخلقوا شعيرة**»[1].

وقد دخل بعض الملاحدة علىٰ الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يسألونه فقال لهم: إن فكري مشغول بخبر سفينةٍ فيها حمولة، مخرت[2] نهر دجلة بدون قادةٍ ولا ملاحين، فأنزلت شحنتها علىٰ الشاطئ بنفسها، فاستنكروا هذا الخبر، وسخروا منه، كيف يُعِير هذا الخبر اهتمامه، فقال لهم: كيف تنكرون وجود سفينة علىٰ هذه الحالة، وتعتقدون أن هذه العوالم قد وجدت بلا خالق مكون لها؟ فبُهتوا وانقطعت شبهاتهم، وأسلموا علىٰ يديه.

وفي ضمن هذه الشهادة الإلهية: ثناءُ علىٰ أهل العلم الشاهدين بما شهد اللّه لنفسه، وتقدير اللّه لهم، فإنه سبحانه قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته الكرام، واستشهد بهم سبحانه علىٰ أجل مشهود به ـ وهو وحدانيته ـ، وجعلهم حجةً علىٰ من أنكرها، كما يحتج بالبينة علىٰ من أنكر الحق.

---

(١) ورد هذا المعنىٰ من قوله ﷺ كما رواه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١).
(٢) **مخرت**: عبرت.

وشهادة أهل العلم فسِّرت بالإظهار والتبيين، وفسِّرت بالإقرار، وهي تتضمن الأمرين، فشهادتهم إقرار إظهار وإعلام، وهم شهداء اللَّه علىٰ الناس يوم القيامة، كما قال تعالىٰ: ﴿لِتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقوله ﷻ: ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ منصوب علىٰ الحال، والقسط هو العدل. وفيه شهادة من اللَّه لنفسه أنه قائم بالعدل في توحيده، وبالوحدانية في عدله.

والتوحيد والعدل هما جماع صفات الكمال، ذلك أن التوحيد يتضمن تفرده ﷻ بالكمال والجلال، والمجد والتعظيم الذي لا يجوز لسواه، والعدل يتضمن وقوع أفعاله كلها وفق الحكمة والصواب، وعلىٰ هذا فإن الذين يصلحون للشهادة علىٰ الناس هم الموحدون العادلون المتبعون لمنهج اللَّه ﷻ، وليس أولئك الذين لعبت الماسونية بعقولهم، وسيطرت علىٰ قلوبهم حتىٰ قالوا بكل صراحة ووقاحة: إن الدين لا يصلح أن يكون أساس الحكم! وعملوا بكل قواهم علىٰ إقامة حكم علماني، يوالي أهلُه الكافرين من دون المؤمنين، ويؤاخون بين أصناف الكفر باسم الجنس والوطن.

وليسوا هم العصريين الذين يزعمون أن الدين طائفية، والأخذ به مدعاة للشقاق، وأنه لا سبيل لنجاح الأمة إلا بطرح الدين جانبًا، وتبني مبدأ القوميات التي تجمع الملل في اتحاد قومي ومصلحة واحدة؛ كما زعموه بتصوراتِهم الفاسدة، ومنطقهم السقيم القائل: «الدين للَّه والوطن للجميع»، مخالفين بذلك، الولاء والبراء ـ الذي هو ملة إبراهيم عليه السلام ـ، أي: الولاء للمؤمنين، والبراء من الكافرين.

واعلم أن القسط الذي قام به اللَّه هو قسط عام شامل لخلقه، علىٰ وجه يحقق مصلحة الإنسان، ويكفل له وظيفة الخلافة في الأرض.

فمن قيامه سبحانه بالقسط: النظام الدقيق، والتماسك العجيب، والتناسق الغريب بين الأكوان السفلية والعلوية.

ومن قيامه بالقسط: أن جعل دينه وسطًا، بين الشرك والتعطيل وبين الإفراط والتفريط.

ومن قيامه سبحانه بالقسط: أن أنزل شريعة وأحكامًا وحدودًا مبنيةً علىٰ تزكية النفوس، والارتفاع بها من مستوىٰ البهيمية إلىٰ مستوىٰ الإنسانية الحقة، كما أنها مبنية علىٰ إقامة العدل، وتحقيقه بين الناس.

ومن قيامه بالقسط: أنه لا يخذل أولياءه المؤمنين إذا صدقوا في معاداة الكافرين ومحاربتهم لوجهه الكريم ـ لا لمقاصد أخرىٰ ـ، وأنه يخزي الكافرين بأيدي المؤمنين.

ومن قيامه بالقسط: تقديره سبحانه أرزاق خلقه وأعمارهم، وعدله بين البشرية في أمر الموت.

وذِكر أهل العلم في الآية يفيد أمورًا:

١ ـ المراد بأهل العلم في هذه الآية: نحا فيه [أهل] التفسير عدة مناح، فزعم الزمخشري بأنهم المعتزلة، وزعم الرازي أنهم أهل الأصول، وزعم بعضهم أنهم الصحابة، وزعم آخرون بأنهم علماء أهل الكتاب.

وهذا من عجيب الاختلاف؛ لأن أهل العلم لا يحتاجون إلىٰ تعريف يختلف فيه المفسرون؛ إذ هم أهل العلم الديني البرهاني، الذي يقدرون به علىٰ إقناع غيرهم بالحجة والبيان، وهم موجودون في هذه الأمة والأمم التي قبلها، وحيث لا تخصيص لهم في الآية، فذكرهم يشمل كل عالم قادر علىٰ رفع الريب والشبهات.

٢ ـ في الآية الكريمة دليل علىٰ شرف العلم وفضله، وعلىٰ شرف أهله وفضلهم علىٰ من سواهم، إذ لو كان أحد يعدلهم من غيرهم لقرن اللَّه شهادته بشهادته، كما قرن شهادةَ أهل العلم بشهادته ﷻ، وفي هذا حض للمسلمين علىٰ تعلم العلم النافع الموصل إلىٰ اللَّه والهادي إليه.

٣ ـ روىٰ غالب القطان حديثًا طويلًا عن الأعمش أنه قال: حدثني

أبو وائل عن عبداللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ في هذه الآية: «**يجاء بصاحبها يوم القيامة، فيقولُ اللَّه تعالىٰ: عبدي عَهِد إليَّ، وأنا أحق من وفىٰ، أدخلوا عبدي الجنة**»[1].

وقد تكلم ابن الجوزي وابن عدي في غالب القطان، ولكن وثقه الإمام أحمد وابن معين، وأبو حاتم، ويكفي في توثيقه أن البخاري ومسلم رويا عنه.

٤ ـ أهل الشهادة ـ في هذه الآية ـ يشهدون للَّه بالوحدانية في ألوهيته وربوبيته، وعلىٰ هذا فاللَّهُ وحده هو مصدر التلقي، فلا يُحتكم إلا لكتابه وسنه نبيه ﷺ، ومن عزلهما عن السياسة وأقصاهما عن الحكم، فقد رفض ألوهية اللَّه رفضًا عمليًّا ـ وإن نطق بلسانه خداعًا لنفسه وللناس ـ، فلا ينفعه نطقه بالشهادتين، ما دام ممزقًا للوحي ـ الكتاب والسنة ـ تمزيقًا معنويًّا، وهو أفظع وأبشع من التمزيق الحسي، كما لا تنفعه العبادات البدنية ـ كالصلاة والصوم والحج ـ ما دام يعمل ببعض الكتاب، ويكفر ببعضه كفرًا عمليًّا ـ كفر تعطيل أو كفر إباحية ـ كما قال تعالىٰ في الآية (٨٥) من سورة البقرة: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

٥ ـ بتحقيق الناس لمقتضىٰ الألوهية يحصلون علىٰ الوحدة الصحيحة، التي هي الغاية المنشودة، والتي سلكوا فيها سبلًا غير صراط اللَّه، فضلوا عن سواء السبيل، وانعكست مقاصدهم إلىٰ فُرقة شنعاء، وشقاق بعيد، واللَّه يقول في الآية (١٥٣) من سورة الأنعام: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

فالوحدة الصحيحة الثابتة لا تحصل مع اختلاف الأهداف والأنانية

---

(١) رواه البيهقي في «الشُّعَب» (٢٤١٤).

المسعورة أبدًا، وإنما تحصل بالاتفاق علىٰ توحيد الألوهية.

٦ ـ تكرار قوله تعالىٰ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في الآية يفيد أمورًا منها: التأكيد، حيث يصبح المعنىٰ: شهد اللَّه أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم، وإذا شهد بذلك، فقد صح أنه لا إله إلا هو. إن التكرار يعلم المسلمين وجوب تكرير هذه الشهادة وهي شهادة الإخلاص.

٧ ـ وختام هذه الآية الكريمة بِهذين الاسمين الكريمين «العزيز الحكيم»، لأن العزة تتضمن القدرة والشدة والامتناع؛ لقوة قهره وعلوه وسلطانه، فلا يغلبه شيء علىٰ الإطلاق.

والحكيم يتضمن حكمه وعلمه وحكمته فيما يقول ويفعل، فأمره حسن، وقوله صدق، وخلقه وتدبيره بحكمة بالغة، وكذلك تشريعاته ﷻ.

٨ ـ تضمنت هذه الآية ثلاثة أصول عظيمة:

ـ شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وأنه ﷻ قائم بالقسط في خلقه وتدبيره، وفي تشريعاته، وفي قضائه وقدره.

ـ ووحدانيته ﷻ المنافية للشرك.

ـ وعدله المنافي للظلم والجور، وعزته المنافية للذل.

📖 **وقوله ﷻ في الآية (١٩) من السورة: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾:**

في هذه الآية الكريمة حصر لمدلول الدين، ونوعه المقبول عند اللَّه ﷻ، والذي لا يقبل دينًا سواه، ألا وهو الإسلام؛ الذي هو الاستسلام للَّه، في جميع الحالات والشؤون، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله.

والإسلام هو دين اللَّه، الذي دعت إليه جميع الرسل بأمره، من

نوح عليه السلام إلىٰ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

فأولهم نوح عليه السلام الذي قال لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس].

وإبراهيم عليه السلام أبو المسلمين الحنفاء، يقول: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام].

ثم موسىٰ عليه السلام القائل لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

وجواب الحواريين لعيسىٰ عليه السلام بما يريد: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

وروىٰ علي بن إبراهيم عن أمير المؤمنين ـ كرَّم اللَّه وجهه ـ أنه قال في خطبة له: «لأنسبن الإسلام نسبةً لم ينسبها أحد قبلي، الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل».

ثم قال: «إن المؤمن من أخذ دينه عن ربه، ولم يأخذه عن رأيه، إن المؤمن هو الذي يعرف إيمانه في عمله، وإن الكافر يعرفُ كفره بإنكاره، يا أيها الناس دينكم دينكم، فإن السيئة فيه خير من الحسنة في غيره، إن السيئة فيه تغفر، والحسنة في غيره لا تقبل».

وارتباط هذه الآية بما قبلها من عدة وجوه:

١ ـ إن التقدير: شهد اللَّه أنه لا إله إلا هو، وأن الدين عند اللَّه الإسلام، وذلك لأن كونه تعالىٰ واحدًا أوجب أن يكون الدين الحق هو الإسلام، لاشتماله علىٰ هذه الوحدانية.

٢ ـ وهو قول البصريين، أن يجعل الثاني بدلًا من الأول، وصورة ذلك في قراءة «أن» ـ بفتح الألف ـ: شهد اللَّه لأجل أنه لا إله إلا هو، أن الدين عند اللَّه الإسلام.

٣ ـ أما وجه الاتصال عند من قرأ «إن» ـ بكسر الهمزة ـ أنه تعالىٰ

بيَّن أن التوحيد أمر شهد اللَّه بصحته، وشهد به الملائكة وأولو العلم، ومتىٰ كان الأمر كذلك لزم أن يقال: إن الدين عند اللَّه الإسلام.

ولعظيم أهمية هذا الدين، حصر اللَّه وصفه علىٰ لسان نبيه ﷺ بالنصيحة، حيث قال ﷺ: «**الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة**»، قالها ثلاثًا، فقال بعض أصحابه: لمن يا رسول اللَّه؟، قال: «**للَّه، ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم**»[(١)].

والنصح هو تخليص الأقوال والأفعال والمقاصد من الغش والأغراض النفسية، وهو مأخوذ من خياطة الثوب، وتصفية العسل، فإن كلًّا منهما يسمىٰ نصحًا في اللغة العربية، فاستعير هنا لتصفية القلوب والأعمال للَّه ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم.

فالنصح للَّه يقتضي الإيمان بوحدانيته، ونفي الشريك والند والظهير وتنزيهه عما لا يليق بجلاله.

وأما النصح لرسوله ﷺ فيعني محبته وتصديقه علىٰ الرسالة، وطاعته والاقتداء بسنته، وتحبيبها للناس والذب عنها، وأن تجعل الأولوية للرسول ﷺ في كل شيء؛ لأن اللَّه تعالىٰ يقول: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

وقد وصف الرسول ﷺ نفسه في نصحه للمؤمنين، ورأفته بهم، أنه آخذ بحُجَزهم[(٢)] لئلا يتهافتوا في النار، كما نص حديث الفراش علىٰ ذلك[(٣)].

وأما النصح لأئمة المسلمين فتذكيرهم بالحق: ومعاونتهم عليه، ونصحهم بالكف عن الظلم والانحراف، وتعريفهم بما غفلوا عنه من حقوق الإسلام والمسلمين، وطاعتهم فيما ليس من معصية اللَّه ﷻ،

---

(١) رواه مسلم (٥٥).

(٢) **الحُجَز**: معقد الإزار، وهو كناية عن حرصه وشفقته عليهم ﷺ.

(٣) رواه البخاري (٦٤٨٣)، ومسلم (٥٩١٤) بنحوه.

وعدم الخروج عليهم بالقتال، ما لم يروا كفرًا بواحًا فيه من اللَّه سلطان، كما ورد في حديث عبادة بن الصامت ﵁ ـ الذي تقدم ذكره ـ، وهو في «الصحيحين»[1]، ونصيحتهم واجبة مع أمن الأذىٰ، ومن النصح لهم الصلاة خلفهم، والجهاد معهم، كما فعل الصحابة الكرام والتابعون لهم بإحسان؛ لأن العصمة مستحيلة، ولا تجوز المطالبة بها.

وأما النصح لعامة المسلمين فهي تعليمهم حقيقة الدين ولبابه، ونَهيهم عن مشابهة الكفار والتقرب لهم أو الأخذ عنهم، وأن يوجهوا إلىٰ الأخذ بالكتاب والسنة، ونبذ ما سواهما.

فهذه إشارة خفيفة إلىٰ معنىٰ «النصيحة» التي هي الدين بنص الحديث السالف الذكر.

وأما حديث: «**الدين المعاملة**»[2] الذي يتشبث به بعض الملاحدة قصرًا لمعناه علىٰ المعاملة المادية، فإنه علىٰ فرض صحته يقضي بمعاملة الخلاق العليم بما يستحق من العبادة والطاعة، وتنفيذ شريعته؛ فمن عامل اللَّه هذه المعاملة الحسنة، فإنه لابد وأن يعامل المخلوقين معاملةً حسنةً كما أراد اللَّه، فالدين الإسلامي ـ بعباداته وشرائعه ـ جاء لإصلاح حياة الإنسان الدنيوية والأخروية، ولهذا كانت كل شرائعه توازن بين روح الإنسان وجسده، فكفلت بذلك للإنسان حياةً حرةً كريمةً، وآخرةً طيبةً سعيدة.

ومن ثَم فالدين الإسلامي دينُ القوة، والزحف المقدس، ودينُ الاستقلال الكامل؛ بحيث يجعل أهله مسيَّرين لأهل الأرض لا مسايرين لهم، كما يريد المطبوعون بالثقافة الغربية، ودجل المدنية الكاذبة من أبناء المسلمين.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) لا أعلمُ له أصلًا، واللَّهُ تعالىٰ أعلم.

وإذا كان الدين الإسلامي يأمر أهله بالعلم النافع والعمل الصالح والأخذ بجميع أنواع القوة، والنصح في الصنعة والصدق في المعاملة، ورعاية الكرامة، والحفاظ علىٰ الشرف والعفة؛ إذا كان كذلك، فكيف يصح القول بأن الإسلام لا يصلح للحياة؟!.

ونعود فنقول كما قال اللَّه: إن الدين المقبول عند اللَّه هو الإسلام، وما عداه فهو دين شياطين الإنس والجن، وقد قضىٰ سبحانه بالانتكاس العام لكل من تنكَّب عن دين الإسلام، وأكثر ما يفتن الناس عنه الإعجاب بالعلم، فإنه يحصل منه فتنة الشبهات المؤدية إلىٰ الغواية والضلال، كما قال تعالىٰ في شأن الأمم الماضية الكافرة: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣]، وقال تعالىٰ في شأن أهل الكتاب المعاصرين لمحمد ﷺ وغيرهم، في آية آل عمران، والتي نحن بصدد تفسيرها: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾، وهذا بيان لسبب ابتعاد أهل الكتاب عن الدخول في الإسلام وعداوتهم له بغيًا وحسدًا، وهو الدين الذي جاء به كما يعرفون أبناءهم، مع أن جديهم إبراهيم ويعقوب عليهما السلام كانا متمسكين به، ووصاياهما متضافرة عليه فمن أين جاءتهم اليهودية والنصرانية؟ إنه من البغي الناشئ من الإعجاب بالعلم من جهة، والمتاجرة فيه من جهات أخرىٰ.

فالبغي الداعي إلىٰ تجاوز الحدود، ثم الطمع والأغراض النفسية من الرؤساء الروحانيين والسياسيين، هي الأسباب في تفشي البدع والافتراء علىٰ اللَّه من نواح كثيرة. وقد تكلم الإمام محمد عبده علىٰ هذا في تفسيره للآية (٢١٣) من سورة البقرة ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ فليرجع إليه.

ففي الآية الكريمة إنذار للمسلمين بأن يتلوا القرآن حق تلاوته، قراءة يستقلون بفهمها وتدبرها، وألَّا يحتقروا أنفسهم، ويظنون أن القرآن طقوس وطلاسم لا يفهمها إلا فلان وعلان، فيقعوا فيما وقع

فيه أهل الكتاب من الاختلاف والشقاق البعيد.

ولتعلم أمة محمد ﷺ أن موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام دينهما الإسلام، وأن الاختلاف الذي أدىٰ إلىٰ قلب معالمه ناشئ من رؤساء العلم والسياسة ـ كما أسلفنا ـ؛ فإنهم باختلافهم وتفرقهم جعلوا ذلك الدين الإلهي الواحد مذاهب ينقض بعضها بعضًا، ويعادي بعضها بعضًا، حتىٰ اقتتلوا ولا يزالون مختلفين.

إن السبب الوحيد لاختلاف النصارىٰ في دينهم، هو البغي، إذ لولا بغيهم لَمَا تمزق شمل الموحد لهم «آريوس» وأتباعه، الذين دعوا إلىٰ التوحيد والتنزيه بعد ما فشا فيهم الشرك والتشبيه، حيث حكم المَجمع المؤلف بأمر الملك «قسطنطين» عام (٣٢٥م) بمقاومة هذا الموحد وإحراق كتبه، وتحريم اقتنائها، ولما انتشرت تعاليمه من بعده، قضىٰ عليها «تيودوسيوس الثاني»، باستئصال مذهبه، وإبادة أهله بقانون روماني صدر عام (٣٨١م)، وبقيت مذاهب التثليث الشركية، يكافح بعضها بعضًا. وهذا من أكبر معائبهم أن قلبوا دين التوحيد إلىٰ أديان شركية يتقاتلون عليها، والسبب أنهم نسوا حظًّا مما ذكروا به، وسنفصل ذلك في تفسير سورة المائدة ـ إن شاء اللّٰه ـ.

والمقصود في هذا الإشعار من اللّٰه عن حالة أهل الكتاب: تحذير المسلمين ألَّا ينسوا حظًّا مما ذكروا به، بل يلتزموا دين التوحيد التزامًا صحيحًا؛ وذلك بالكفر بالطواغيت عمومًا. ولقد عمل اليهود علىٰ إبراز طواغيت في كل مكان، طواغيت يفترسون الحكم، كما حصل من العبيديين في مصر، وما لطخوا به الدين من أوضار الباطنية، وطواغيت يغشون الناس في أمر الخلافة، كما حصل من ابن سبأ اليهودي وأضرابه، وطواغيت يلبسون علىٰ الناس أمرهم في شأن العقيدة، كما حصل من «جعد بن درهم» و«جهم بن صفوان»، تلاميذ حفيد «ابن الأعصم» اليهودي، المسمىٰ «طالوت»، وطواغيت غزوا أدمغة العباد في شأن التصوف، حتىٰ قالوا: بالحلول والاتحاد؛ حتىٰ

نشأ من الجميع مذاهب كثيرة متنافرة، حصل منها علىٰ الإسلام شر كبير تجزأت فيه وحدة الأمة، وضعفت قوتها، فصارت مطمعًا لغزو التتار الذي برزت فيه طواغيت المبتدعة ـ كالنصير الطوسي وابن العلقمي وغيرهما ـ، ولا زالت المبتدعات تتجدد علىٰ أيدي المبتدعة الدهريين ـ كابن سيناء والفارابي وغيرهم ـ؛ حتىٰ إذا صار المجال للمادة أكثر من الدين، غزتهم الماسونية بالقوميات والوطنيات، والأفكار الماركسية، والمذاهب المادية المنبوشة من مذهب «مزدك» اليهودي، والمسلمون في غمرة ساهون.

وقد عمل الطواغيت ـ طواغيت القومية الطورانية ـ منذ الإطاحة بالسلطان التركي علىٰ تمكين اليهود من استعمار[1] فلسطين، ثم ساعدهم الخونة من طواغيت العرب حتىٰ جعلوا منها سلعةً عاطفيةً، وجراحةً مقصودةً لا تضمد، فتكون لهم متجرًا يتجرون بها، وورقة يلعبون بها كما يشاؤون، وينالون بسببها التقديس والاحترام، ويضمنون بها الإبقاء علىٰ عروشهم! كل هذا علىٰ حساب الإسلام الذي مزقوه شر ممزق، فعزلوه عن الحياة والأحياء، وأحلوا مكانه مبادئهم الهدامة، التي صنعها لهم أسيادهم.

ومن هنا كانت الآية الكريمة تحذيرًا للمؤمنين من أسباب الاختلافات، وإنذارًا لهم عن سلوك موجباته، أو محبة السالكين له، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة ـ أيضًا ـ:

فقد روىٰ البخاري ومسلم عن عائشة ﵂، عن النبي ﷺ، أنه قال: **«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو رد»**[2].

وروي البخاري عن ابن عباس ﵄ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«أبغض الناس إلىٰ اللَّه ثلاثة: مُلحِدٌ في الحرم، ومبتغٍ في الإسلام سنةَ الجاهلية،**

---

(١) الصواب أن يقال: احتلال.

(٢) تقدم تخريجه.

ومطَّلبٌ دم امرئ بغير حق ليُهريقَ دمه»[١].

وروىٰ البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: **«مثلي كمثل رجلٍ استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حولها جعل الفَراشُ وهذه الدوابُّ التي تقع في النار يقعن فيها، وجعل يَحجُزُهنَّ ويغلبنه فيقتحمن فيها؛ فأنا آخِذٌ بحجزكم عن النار، وأنتم تتقحَّمون فيها»**. هذه رواية البخاري، ولمسلم نحوها، وفي آخرها قال: **«فذلك مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحُجزكم عن النار: هلمَّ عن النار، هلم عن النار، فتغلبوني، تقحمون فيها»**[٢].

وكما أن اليهود والنصارىٰ قد ضلوا وعندهم التوراة والإنجيل، فإن أمة محمد تضل وعندها القرآن إذا لم تعطه حقه من التدبر والعمل به، وردِّ كل أمور من أمور حياتهم إلىٰ اللّه ورسوله.

وقد صح عنه ﷺ أنه قال: **«ما ضلَّ قومٌ بعد هدًىٰ كانوا عليه، إلا أوتوا الجدل**، ثم تلا قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾» [الزخرف: ٥٨][٣].

وليس المقصود بالخلاف هنا الاختلاف في الفروع المذهبية، كما تقصر عليه همة أدعياء الحديث ـ نور اللّه بصيرتهم ـ؛ فإن الاختلاف في الفروع ليس له أثر في فرقة الصفوف والتناحر، ولا زال الصحابة علىٰ اختلاف فيها، ومذاهبهم مشهورة. وإنما المقصود بالخلاف: الخلاف في أصول العقيدة، الناشئ عن الاستكانة للطواغيت والثقة بهم.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، يعني: من يكفر بآيات اللّه العظيمة الدالة علىٰ وحدة الدين، ووجوب الاعتصام به، والكفر بالطواغيت، وحصر الاتجاه إلىٰ اللّه عز وجل، وتلقي الهداية

---

(١) رواه البخاري (٦٨٨٢).

(٢) رواه البخاري (٢٢٨٤)، مسلم (٥٩١٦).

(٣) رواه التِّرمذي (٣٢٣٣).

من وحيه المبارك، من يكفر بها كفر تكذيب أو جحود أو كفر إعراض وتعطيل للعمل بها أو كفر انتقاص ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ يحاسب كل صنف من هذه الأصناف على حسب ما يستحقه من مبلغ كفره وتأثيره على غيره، سواء كان الكافر أصليًّا في كفره، أو مرتدًّا عن الإسلام بما ابتدعه من المبادئ الأرضية، أو المذاهب المادية المخالفة لملة إبراهيم ومحمد عليهما السلام.

وقوله سبحانه في الآية (٢٠) من السورة: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾:

يقول اللَّه تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ آمرًا له أن يعلن موقفه إعلانًا صريحًا أمام ضغوط الجاهلية، وخصامها في أي ثوب ظهرت، وبأي سمة اتسمت قائلًا لهم: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾، يعني: أقبلنا على اللَّه سبحانه مذعنين بعبادتنا له مخلصين له الدين، ومعرضين عما سواه، وهذا خير جواب للمعاندين المشاكسين المجادلين، إذ لا يفيد معهم إلا هذا الجواب، الذي أرشدنا اللَّه إليه، منعًا للجدل والمراء والكلام الفوضوي، الذي لا يجدي نفعًا.

ثم أمر اللَّه نبيه أن يسأل مشركي العرب، وأهل الكتاب عن موقفهم من رسالته، فقال سبحانه: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ﴾، وإنما خصهم بالذكر ـ وهو ﷺ مبعوث للناس جميعًا ـ لأنهم هم الذين خاطبهم مباشرة بلا واسطة.

والاستفهام في الآية للتقرير المتضمن معنىٰ الأمر بالإسلام والدعوة إليه؛ فيكون المعنىٰ: فإن حاجَّك أهل الكتاب، فقابلهم صراحةً بأنك أسلمت وجهك للَّه، وأخلصت قلبك له، وأذعنت إذعان المسلم الذي لا يشرك به شيئًا، ولا تقبل في ذلك جدالًا؛ لأن الجدل إنما يكون في شيء خفي، لا تنكشف حقيقته إلا بالمناظرة والحوار.

أما الدين الإسلامي الذي يجادلون به، فهو مكشوف وواضح، لا يجادل فيه إلا المعاند المكابر. وجاء التعبير بالوجه عن جملة الجسم في قوله: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ﴾ لأن الوجه أشرف الأعضاء الظاهرة، ومظهر القوىٰ والمشاعر، وبه يحصل التوجه إلىٰ كل شيء.

وقوله: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ بيان لاشتراكهم معه ﷺ في إسلام الوجه للّه، وفيه الخبر محذوف، والمعنىٰ: أسلمت وجهي للّه، ومن اتبعن كذلك، وهذا أولىٰ من كونه معطوفًا علىٰ لفظ الجلالة.

وقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ يفيد الهداية الشاملة لجميع نواحي الحياة، وشؤونها الاقتصادية، والاجتماعية، علمًا بأن منهم أميين لا يقرؤون ولا يكتبون.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الإسلام وأعرضوا عنه، سالكين مسلك آبائهم، فإنه لا يضرك كفرهم يا محمد، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ الذي كلفك اللّه به، ولست عليهم بمسيطر، فلا تبتئس بما كانوا يعملون.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ يعلم أحوالهم جميعًا، ما ظهر منها وما بطن، ولا يخفىٰ عليه شيء مما يضمرونه، فيجازيهم حسبما اقتضته حكمته الأزلية وقضاؤه المحتوم. وفي هذا تهديد ووعيد لمن لم يدخل في الإسلام، فهذه الآية منسوخة بآية السيف وغيرها.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**كلُّ أمتي يدخلون الجنة، إلا من أبىٰ**» قيل: ومن يأبىٰ يا رسول اللّه؟ قال: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبىٰ**»[1].

📖 **قوله سبحانه في الآية (٢١) من السورة:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾:

(١) رواه البخاري (٧٢٨٠).

فصَّل اللَّـه في هذه الآية أنواع كفر الكافرين، وعلىٰ الأخص اليهود ومن سلك طريقهم، أو تبنىٰ شيئًا من المبادئ التي أولعوا الناس بها، وأغروهم علىٰ التوجه إليها من دون اللَّـه؛ فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي كفروا كفر إنكار أو جحود، أو استهزاء، أو تعطيل، وقد أتىٰ بصيغة المضارع المستلزم للدوام؛ لأن الكفر يتجدد، وتتجدد أنواعه.

ومن أفظع أنواعه: كفر النفاق والتعطيل الحاصل في هذا الزمان ممن لا يظهر إنكار آيات ولا جحودها، بل يظهر الاعتراف بها والتقديس لها، وهو غير عامل بها، بل هو متحول عنها بقلبه وقالبه، مجتنب لها أتم الاجتناب، وعامل بما يناقضها، هذا نوع.

والنوع الثاني: ما وصفهم اللَّـه بقوله: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، وهم اليهود ومن علىٰ شاكلتهم؛ فإن اليهود اشتهروا بعداوتهم للأنبياء والمصلحين، وتعطشهم لدمائهم، وكذلك من انتهج منهجهم الماسوني؛ فإنه من أشد الظلمة للأنبياء وورثتهم من العلماء الربانيين المصلحين، الذي يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر. وأفظع أنواع المنكر الذي ينكره العلماء العاملون: تحكيم غير شرع اللَّـه وإقصاء القرآن والسنة عن حياة الناس؛ ولهذا نجد الحكام الذين لا يحكمون بما أنزل اللَّـه قد شابهوا اليهود، وطبقوا مذهبهم في قتل الدعاة إلىٰ اللَّـه، بل زادوا عليهم إفكًا وخسةً في تشويه سمعتهم، والنيل من كرامتهم، بافتراء الأكاذيب التي قد يضطرونهم إلىٰ الاعتراف بها لشدة التعذيب المذهل، ويفضلون بسببه الموت.

وقد روىٰ أبو عبيدة بن الجراح ﵁ قال: قلت: يا رسول اللَّـه، أي الناس أشد عذابًا يوم القيامة؟ قال ﷺ: «**رجلٌ قتل نبيًّا أو رجلًا أمر بمعروف أو نهىٰ عن منكر**»، ثم قرأ: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ

ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾»(١).

وقد جاء لفظ ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ نكرة، وهو كذلك في جميع مواقعه من القرآن إلا آية (٦١) من سورة البقرة، والمفهوم من ذلك أن قتل الأنبياء والمصلحين، لا يكون إلا بغير حق، فهو كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

فاللَّهُ ﷻ يذكر لنا في هذه الآية أصول الجرائم، من الكفر بآياته، وقتل المصلحين، وليس بعد هذا ذنب أعظم منه، ولهذا قال سبحانه: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي بشرهم ـ يا محمد ـ بأليم العذاب علىٰ الإطلاق، ليعم عذاب الدنيا والآخرة.

وهنا لابد من بيان أمرين:

١ ـ أن الخطاب موجه للكفار المعاصرين لنبينا محمد ﷺ؛ مع أنهم لم يعملوا بعمل أسلافهم من قتل الأنبياء والمصلحين، وذلك أنهم راضون بفعل أسلافهم، وسائرون علىٰ نَهجهم، وعازمون علىٰ الفتك بالرسول ﷺ، وأصحابه ﷺ، فاستحقوا أن يحمِّلهم اللَّه وزر أسلافهم.

٢ ـ البشارة تستعمل في الأخبار السارة التي بها يستبشر الوجه، فإذا استُعملت في عكسه صار التعبير للتهكم والاستهزاء، كما في بشارته لهم بالعذاب الأليم، والأليم هو الموجع المؤلم، الذي يعم ألمه جميع البدن.

ولا يغرنك تأويل بعض الفلاسفة لعذاب النار، أو نعيم الجنة، منكرين العذاب الحسي الذي جاءت به النصوص، ومستدلين بحديث المرأة التي رآها رسول اللَّه ﷺ تبالغ في إنقاذ طفلها، فقال: «**أرأيتم هذه قاذفةً ولدها في النار؟**»، قالوا: لا، قال: «**فاللَّهُ أرحم بعبده من هذه**

(١) رواه الإسماعيلي في «معجم الشيوخ» (٣٥١). وانظر: «مسند الإمام أحمد» (٤٠٧/١).

بولدها»[1].

وهؤلاء قد فاتهم أمران عظيمان:

١ ـ معرفة الآيات والأحاديث الكثيرة التي تصرِّح بالعذاب الحسي الدائم لأهل النار، وذكرها هنا يطول.

٢ ـ أنهم غفلوا عن التفريق بين العبودية الكونية التي يدخل فيها جميع الخلائق ـ حتىٰ إبليس اللعين ـ، وبين العبودية الشرعية التي اعترف إبليس أنه ليس له سلطان علىٰ أهلها.

فائدة:

تشبث الملاحدة بِهذه الآية ـ وأشباهها ـ مما ينص علىٰ قتل بني إسرائيل للأنبياء؛ بأنها تعارض وتناقض قوله تعالىٰ في سورة المؤمن: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر].

والجواب: أنه لا تعارض بحمد اللَّه، وذلك من وجهين.

١ ـ أن الأنبياء علىٰ نوعين، نوع لم يؤمروا بالقتال، فهؤلاء نصرهم بغلبة الحجة وظهورها، هذا من جهة.

ومن جهة أخرىٰ فإن لهم نصرًا عظيمًا آخر، وهو ثأر اللَّه لهم بعذاب أعدائهم، كما حصل في بني إسرائيل الذين قتلوا أنبياءهم.

٢ ـ أن النصر المذكور في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١] سيق هنا بخصوص النوع الآخر الذين أمروا بالقتال؛ فإن اللَّه يعصمهم من الناس، ويحفهم بحصانته التي لا يغلبها غالب، ويحقق لهم النصر علىٰ أعدائهم في النهاية، وهذا واقع حياة المرسلين وآخرهم سيدنا محمد ﷺ.

ثم إن الآية هذه فيها تشريف وتعظيم لدعاة الخير العاملين للإسلام، حيث جعلهم اللَّه تعالىٰ في مصاف الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، فجعل

---

(١) رواه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

عقوبة الاعتداء عليهم كعقوبة المعتدي على الأنبياء والمرسلين، فعلى الدعاة أن يحافظوا على هذه المنزلة، وذلك بالاستمرار والثبات على نَهج الأنبياء والمرسلين.

قوله سبحانه في الآية (٢٢) من السورة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٢﴾:

يعني هؤلاء الذين تقدمت صفاتهم - من الكفر باللّه، وقتل الأنبياء والمصلحين - قد فسدت أعمالهم فلا ينتفعون بشيء منها في الدنيا، ولا في الآخرة، وصار حظهم في الدنيا عدم الحرمة بإباحة دمائهم وأموالهم، وإهدار كرامتهم، فلا يحقن لهم دم، ولا يحترم لهم مال ولا عرض، ولا يستحقون مدحًا ولا ثناءً، ولا تجوز موالاتهم من المسلم - فضلًا عن الإدلاء إليهم بالمودة -؛ بل يجب بغضهم ومعاداتهم واجتنابهم، وكشف مخازيهم للناس، والعمل على قمعهم، لمن قدر عليه.

أما نصيبهم في الآخرة فأسوأ نصيب، كما ذكره اللّه في عدة مواضع من القرآن، من مثل قوله ﷻ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

وهم إذ يتجرعون هذا العذاب لا يجدون لهم نصيرًا ينصرهم، أو يمنعهم من العذاب فقد حرمهم اللّه من الناصرين، لأنهم فتكوا بمن لا ناصر له ولا معين، فكان الجزاء من جنس العمل.

وقوله سبحانه في الآية (٢٣، ٢٤) من السورة: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٤﴾:

هذا التفات من اللَّه يحمل تعجب رسوله والمؤمنين إلىٰ آخر الدهر بشأن اليهود ومن علىٰ شاكلتهم، الذين إذا عضتهم الحجة لجؤوا إلىٰ اللجاج والضجة، وأعرضوا عن سبيل المحجة؛ لأنه لا ناصر لهم حتىٰ في الجدال.

وقد أخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «دخل رسول اللَّه ﷺ بيت المِدراس علىٰ جماعة من يهود، فدعاهم إلىٰ اللَّه، فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد: علىٰ أي دين أنت يا محمد؟ فقال: «**علىٰ ملة إبراهيم ودينه**»، فقالا: إن إبراهيم كان يهوديًّا، فقال لهما رسول اللَّه ﷺ: «**فهلما إلىٰ التوراة فهي بيننا وبينكم**»، فأبيا عليه، فأنزل اللَّه هذه الآية ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾**﴾»[1].

وقيل: نزلت في جماعة من اليهود أنكروا نبوته، فقال لهما: «**هلموا إلىٰ التوراة فإن فيها صفتي**» فأبوا عليه.

وقيل: إنه لما دعاهم إلىٰ الإسلام قالوا: نحن أحق بالهدىٰ منك، وما أرسل اللَّه نبيًّا إلا من بني إسرائيل، فقال «**أخرجوا التوراة، فإني مكتوبٌ فيها إني نبي**»، فأبوا فأنزل اللَّه هذه الآية.

وقيل: إنه زنىٰ فيهم رجلٌ محصن، فتحاكموا في شأنه إلىٰ النبي ﷺ هروبًا من الرجم الذي في التوراة، وهم لا يريدون رجمه لأنه شريف، كعادتهم في تعطيل أحكام اللَّه، فحكم عليه النبي ﷺ بالرجم، فشغَّبوا عليه، فطلب منهم التوراة التي زعموا فيها عدم الرجم، فلما أتوا بها وضع ابن صوريا يده علىٰ آية الرجم، فأخبر عبداللَّه بن سلام رضي الله عنه رسول اللَّه ﷺ بأنه أخفاها تحت يده فانكشف أمره، وأجرىٰ الرسول ﷺ حكمه في رجمهما.

---

(١) رواه الطبري (٣/٢١٧).

وعلىٰ أية رواية صحت في سبب النزول، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ـ كما هو قول الجمهور ـ؛ فهذه الآيات الكريمات تكشف لنا من دفائن النفوس اليهودية الخبيثة، وعدم احترام وحي اللَّه وأوامره وحدوده، وأنهم لا يؤمنون إلا بما يوافق أهواءهم.

ثم أخبرت الآية أن الاغترار بالكذب الذي يفترونه من تلقاء أنفسهم ويتصورونه حقًّا كعادة الكذابين الدجالين هو سبب صدودهم وإعراضهم عن الحق.

وقوله تعالى في الآية (٢٥) من السورة: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

أي فكيف يكون حال هؤلاء المكذبين إذا جمعناهم يوم الحشر الذي لا ريب فيه، والذي يلاقي فيه كل إنسان جزاء عمله؟.

فإن قيل ما السر في مجيء «اللام» في قوله: ﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾، دون الحرف «في» ـ أي لم يقل: «في يوم لا ريب فيه» ـ؟.

فالجواب: أن معنىٰ «اللام» هنا يختلف عن معنىٰ «في»؛ إذ لو استبدلت «اللام» بحرف «في» لكان المعنىٰ: فكيف إذا جمعناهم في يوم القيامة ماذا يكون لهم من العذاب والعقاب. ولكن بدخول «اللام» يصبح المعنىٰ: فكيف إذا جمعناهم لما يحدث في يوم لا ريب فيه، فماذا سيكون نصيبهم من العذاب؟ فمع «اللام» نية وعمل، وخبر مطلوب تُرك ذكره؛ لأن «اللام» قد أجزأت عن ذكره، وهذا لا يتحقق بدخول حرف «في»، واللَّه أعلم.

وفي الآية تحذير للأمة الإسلامية من اتباع سنن اليهود ومشابَهتهم بالاعتماد علىٰ الأكاذيب المدسوسة، فقد اعتمد بعض المسلمين علىٰ شفاعة النبي ﷺ فاسترسل في المعاصي والإعراض عن الطاعة جهلًا منهم بحقيقة الشفاعة، وأنها لا تكون إلا بإذن اللَّه، ولمن أذن اللَّه لنبيه أن يشفع لهم، كما ينص بذلك حديث الشفاعة المشهور في

الصحيحين، ومن المسلمين من غرته شياطين الإنس والجن بتقديس الأضرحة والمجذوبين ممن يزعم له الولاية الكاذبة أو الصادقة، وقد ضل في دعوىٰ الولاية من المقبورين وغيرهم خلق كثير، شابَهوا المشركين واليهود والنصارىٰ، وعندهم في ذلك كتب فيها من الأكاذيب والروايات الباطلة ما هو من المضحكات المبكيات، التي لا يقبلها ذو عقل فطري سليم، زد علىٰ ذلك ما عند بعض الصوفية من دعوىٰ الاتحاد والحلول وأن لعبادة اللَّه حدًّا ونهاية، حيث تسقط عن المكلف إذا أصبح من الخاصة، أو من خاصة الخاصة ـ كما يزعمون!.

فالحاصل أن هذه الأمة خلقٌ كثير منها من ارتكب سَنن اليهود والنصارىٰ، كما ورد في الحديث الصحيح: «**لتتَّبِعُنَّ سَننَ من كان قبلكم حذوَ القُذَّة بالقُذة، حتىٰ لو دخلوا جُحر ضب لدخلتموه**»، قالوا: يا رسول اللَّه، اليهود والنصارىٰ؟ قال: «**فمن؟**»[(١)].

وهذا حديث مشهور سببه أنهم مرُّوا علىٰ شجرة للمشركين ينوطون بها[(٢)] أسلحتهم يقال لها «ذات أنواط»، فقالوا: يا رسول اللَّه، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**اللَّه أكبر إنها السُّنن، قلتم ـ والذي نفسي بيده ـ كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة**»[(٣)]. ثم ذكر الحديث.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع عن ابن أبي الجهم عن سالم بن أبي الجعد عن زياد بن لبيد رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ ذكر شيئًا، وقال: «**يوشك أن يضل أكثر هذه الأمة**»، فقلت: كيف نضل وعندنا كتاب اللَّه ـ القرآن ـ، نقرؤه ونقرئه أولادنا، وأولادنا يقرئونه أولادهم؟! فقال ﷺ: «**ثكلتك أمك ـ يا زياد ـ، إني لأظن أنك أفقهُ رجل بالمدينة، أوَ**

---

(١) رواه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

(٢) ينوطون: يعلِّقون.

(٣) رواه التِّرمذي (٢١٨٠).

ليس اليهود والنصارىٰ عندهم التوراة والإنجيل فضلوا؟»[١].

وهذا تصريح بأن القراءة المجردة للقرآن شيء آخر، غير القراءة بالتدبر والخشوع التي ينتج عنها التأثر بآي القرآن، ومن ثم محاسبة النفس علىٰ العمل بمضمونها.

وقوله ﷻ في الآية (٢٦، ٢٧) من السورة: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾:

هذا تعليم من اللَّه سبحانه لحصر الاتجاه العقائدي وانضباطه في متجه واحد، وبيان لحسن مصير المسلمين وخاتمتهم، بتحقيقهم توحيد اللَّه قولًا وعملًا وقصدًا، وأنه الملاذ والملجأ الوحيد، والمرجع ليس لهم سواه.

وفي هذا التعليم غرس لليقين في نفوس المؤمنين، فيتأتىٰ من ذلك الاستبسال والشجاعة، واقتلاع الخوف من جذوره، وإحلال السكينة والثبات والثقة بالنصر والتمكين، فلا يخافون إلا من مالك الملك المسيطر علىٰ كل شيء.

وقد ورد في سبب نزول هذه الآيات عدة أحاديث، منها ما رواه الواحدي عن ابن عباس وأنس بن مالك ﵄ أنه لما فتح رسول اللَّه ﷺ مكة، وعد أمته مُلك فارس والروم، فقال المنافقون واليهود: «هيهات هيهات، من أين لمحمد ملك فارس والروم، هم أعز وأمنع من ذلك!! ألم يكف محمدًا مكة والمدينة، حتىٰ يطمع في ملك فارس والروم؟!»، فأنزل اللَّه هذه الآية.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٦٠)، التِّرمذي (٢٦٥٣)، وابن ماجه (٤٠٤٨).

ويعارض هذا الخبر حديث آخر، والذي جاء فيه أن النبي ﷺ قد بشر أمته بذلك قبل واقعة الخندق، كما أخبر اللَّه فيها عن المنافقين والمخدوعين بهم بقوله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب]. فإن صح هذا الأثر، يكون النبي ﷺ قد بشرهم مرة ثانية.

وقد روىٰ أبو الحسن الثعالبي عن كثير بن عبداللَّه بن عمرو بن عوف، قال: حدثني أبي عن أبيه قال: خط رسول اللَّه ﷺ الخندق عام الأحزاب، ثم قطع لكل عشرة أربعين ذراعًا، قال عمرو بن عوف: كنت أنا وسلمان الفارسي، وحذيفة، والنعمان بن مقرن المزني، وستة من الأنصار في أربعين ذراعًا فحفرنا، فأخرج اللَّه تعالىٰ من بطن الخندق صخرة مدوَّرة، كسرت حديدنا، وشقت علينا، فقلنا: يا سلمان، ارقَ إلىٰ رسول اللَّه ﷺ، وأخبره خبر الصخرة، فإما أن نعدل عنها، وإما أن يأمرنا فيها بأمر، فإنا لا نحب أن نجاوز خطه.

قال: فرقىٰ سلمان إلىٰ النبي ﷺ وهو ضارب عليه قبةً تركيةً، فقال: يا رسول اللَّه، خرجت علينا صخرة بيضاء مدوَّرة من بطن الخندق وكسرت حديدنا، وشقت علينا حتىٰ ما يحتك فيها قليلٌ ولا كثير، فمرنا بأمر، فإنا لا نحب أن نجاوز خطك، فهبط رسول اللَّه ﷺ الخندق مع سلمان، والتسعة علىٰ شفير الخندق، فأخذ رسول اللَّه ﷺ المعول من سلمان، وضربها ضربةً صدعها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها، حتىٰ لكأن مصباحًا في بيت مظلم، وكبَّر رسول اللَّه ﷺ تكبيرةَ فتح، فكبر المسلمون، ثم ضربها رسول اللَّه ﷺ الضربة الثانية، فبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها، حتىٰ لكأن مصباحًا في بيت مظلم، وكبر رسول اللَّه ﷺ تكبيرة فتح، فكبر المسلمون، ثم ضربها الثالثة فكسرها، وبرق منها برق كذلك، فكبر ﷺ تكبيرة فتح وكبر المسلمون، وأخذ بيد سلمان ورقىٰ، فقال سلمان: بأبي وأمي أنت يا رسول اللَّه، لقد رأيت شيئًا ما رأيت مثله قط، فالتفت رسول اللَّه ﷺ

إلىٰ القوم فقال: «**رأيتم ما يقول سلمان؟**» قالوا: نعم يا رسول اللَّه، فقال: «**ضربتُ ضربتي الأولىٰ، فبرق لي الذي رأيتم، أضاءت لي قصورُ الحيرة، ومدائنُ كسرىٰ كأنها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت الثانية، فبرق لي الذي رأيتم، أضاءت لي منها القصورُ الحُمر من أرض الروم، كأنها أنيابُ الكلاب، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرةٌ عليها، ثم ضربت ضربتي الثالثة، فبرق لي الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصور صنعاء، كأنها أنياب الكلاب، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، فأبشروا**». فاستبشر المسلمون، وقالوا: الحمد للَّه، ووعده صدق، وعدنا النصر بعد الخطر فقال المنافقون: ألا تعجبون! يعدكم الباطل، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة، ومدائن كسرىٰ، وأنها ستفتح لكم، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفَرَق لا تستطيعون أن تبرزوا للقتال؟! فأنزل اللَّه تعالىٰ القرآن: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾، وأنزل اللَّه هذه الآية: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾[1].

ووردت آثار غير ذلك من أشهرها قوله ﷺ: «**إن اللَّه زَوىٰ لي الأرض، فرأيتُ مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلُغُ مُلكها ما زوي لىٰ منها**»[2].

ومعنىٰ ﴿ٱللَّهُمَّ﴾: يا اللَّه، فهي مشتملة علىٰ حرف النداء بالاسم الأعظم، علىٰ ما قرره علماء التفسير.

و«الملك»، هو المالك المتصرف، بيده مقاليد الأمور كلها. والملوكية، صفة قائمة بذاته، متعلقة بالغير تعلق التصرف التام المقتضي استغناء المتصرف، وافتقار المتصرف فيه، ولهذا لم يصح الوصف مطلقًا بـ«مالك الملك» إلا للَّه وحده، فهو مالك الملك الحقيقي،

---

(١) رواه الطبري (٢١/١٣٤).

(٢) رواه مسلم (٢٨٨٩).

المتصرف بملكه بما شاء، وكيف شاء. وفي هذا دلالة علىٰ أنه لا مؤثِّر في الوجود سوىٰ اللَّه، وقد ورد في حديث القصواء ـ ناقة رسول اللَّه ﷺ التي لا تسبق ـ حين سبقها قعودٌ صغير، فتعجب الصحابة من ذلك، فقال ﷺ: «حقٌّ علىٰ اللَّه ما ارتفع من شيء إلا وضعه»[(١)].

﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾، وذلك برحمته ﷻ، أو حكمة يدبرها في الكون، فيحصل بإيتائه الملك لشخص أو جماعة نعمة ورحمة لأناس، ونقمة وشقاء علىٰ أناس، وابتلاء وامتحان لأناس آخرين.

﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾، يعني كما أنك ـ يا اللَّه يا مالك الملك ـ تؤتي الملك من تشاء بأسباب تُهيئُها لهم، فإنك ـ أيضًا ـ تنزع الملك ممن تشاء، بتقييض أسباب النزع، عقوبةً لهم علىٰ كفرانهم وجحودهم؛ فهو سبحانه مالك الملك بجميع أنواعه، مُلك الدنيا والدين، ملك الغنىٰ والثروات التي يصيب بها من يشاء، وملك الحكم والقهر والتسلط بالحق أو بغير الحق، فملك البغاة والظلمة والطواغيت المتسلطين علىٰ العقول والأبدان، هو بإذن اللَّه ومشيئته خلافًا للمعتزلة، احتجاجًا منهم بقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]! وقد جهلوا مدلول الآية، إذ أن المراد بالعهد هنا عهد الإمامة الدينية، التي هي النبوة، والخلافة منهاج النبوة، فهذه لا ينالها الظالمون. وأما السلطة الدنيوية العامة، فقد يتولاها البر والفاجر، وفيها ما يرضي اللَّه ويسخطه، وكلها بقضائه وقدره، إذ لا يجوز خروج شيء عن مراده وقضائه ﷻ.

والشواهد الكونية علىٰ أنه مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء كثيرة جدًّا؛ بل هي أكثر من أن تحصىٰ، من إظهار القلة الضعيفة علىٰ الكثرة الكاثرة، وإسقاط ممالك ودول علىٰ أيدي حفنة من الجنود، ولا أدل علىٰ ذلك من قيصرية روسيا، وسلطان تركيا،

---

(١) رواه البخاري (٢٨٧٢).

إلىٰ غير ذلك من العروش البائدة.

أما قول بعض المفسرين: إن المراد بالملك في الآية هو النبوة؛ مستدلين علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤]، فهو قول لا مسوغ له من عدة وجوه:

١ - العطف المذكور والمفصول به بين النبوة والملك في الآية يقتضي المغايرة.

٢ - أن داود وسليمان وغيرهما من آل إبراهيم، قد أوتِيَ النبوة والملك معًا.

٣ - أن تفسيرهم هذا لا ينسجم مع قوله تعالىٰ: ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ إذ أن النبوة لا تنزع.

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾، أي أنه سبحانه هو المعز الحقيقي لمن يشاء إعزازه من البشر، بما يقيض له من الأسباب الموجبة للعز كالقوة، وحماية الذمار، ونصرة الحق، وكثرة الأعوان، ونفاذ الكلمة، وغير ذلك من الصفات التي تجعل الحاصل عليها عزيزًا. كما أنه سبحانه هو المذل لمن يشاء إذلاله، بما يقيض له من أسباب الذل والمهانة، كالضعف وعدم القيام بالحماية، وخذلان الحق وأهله، وفقدان النفوذ، وقلة الأعوان، وغير ذلك من الصفات التي تجعل المتصف بها ذليلًا مهابًا.

ولا تلازم بين العز والملك، فقد يكون الملك ذليلًا لعدم قوته ونفوذه، أو لعدم استقلاله بسياسته الخرقاء، فيكون منفذًا لإرادة الغير. وكم من إنسان لا ملك له ولا سلطان، ولكنه يعيش عزيزًا، وله نفوذ وعزة أقوىٰ من نفوذ وعزة السلطان، وذلك لتوفر وسائل العز وأسبابه التي قدرها اللّٰه له.

وقد رسم اللّٰه للمؤمنين سبيل العز وحدد وسائله، فعلىٰ المسلمين أن يأخذوا بها، وأن يصدقوا اللّٰه بالعمل بشريعته، والأخذ بقرآنه وسنة

نبيه حتىٰ يصدقهم اللَّـه وعده، بتحقيق النصر والعز والغلبة والمنعة، والتمكين في الأرض، والمسلمون هم المسؤولون عما حاق بهم من ذل وهوان، وانتكاس حيث فرطوا بدينهم، واتبعوا سنن أعدائهم، فأذلهم اللَّـه، وهذا من السنن الكونية، أن الكافر أو الفاسق الآخذ بسنن اللَّـه الكونية يغلب أدعياء الإسلام المفرطين بالأخذ بسنن اللَّـه الشرعية الكونية، وصدق اللَّـه إذ يقول: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧١].

وقوله سبحانه: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ جملة استئنافية، جاء فيها لفظ «الخير» معرفًا، ليفيد تعميمه في جميع الحالات.

وتخصيص ذكر الإعزاز والإذلال وإيتاء الملك ونزعه، يدل علىٰ أن الخير والشر كله بيده، ويؤيد ذلك قوله في ختام الآية ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وما أحرىٰ المسلمين ـ لا سيما علماؤهم ـ أن يقفوا عند هذه الآية متدبرين متعظين، ليعلموا أن العزة بيد اللَّـه وحده، فلا يطلبوها من غيره من البشر مما يضطرهم إلىٰ تقليده ومحاكاته وتعظيمه تعظيمًا يصل إلىٰ حد القداسة، يتلقون منه المناهج والقوانين، وينفذونها طائعين.

أما العلماء؛ فإن الآية ترتفع بهم عن أن يكونوا عبيدًا للحكام والساسة بسبب حبهم للمادة أو الجاه، لأن الآية قررت أن العز والملك بيد اللَّـه وحده، لا بيد أحد من البشر، فإن رامه أحد عن غير هذا الطريق، فلن يجني إلا الذل والخزي، فليحذر العلماء من التزلف والنفاق، والأكل بدينهم.

ونذكر هنا قول الشاعر:

ولو أن أهلَ العلم صانوه صانهم ... ولو عظَّموه في النفوس لعُظِّما

ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا ... محيَّاهُ بالأطماع حتىٰ تجهَّما

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ كلام نفيس في أن اللَّه سبحانه لم يخلق شرًّا محضًا، لخصه تلميذه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، وهذبه في شرحه «منازل السائرين» ونحن ننقله بمناسبة شرح قوله تعالىٰ: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ لعموم نفعه، وهاك نصه:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن الشر كله يرجع إلىٰ العدم - أعني عدم الخير وأسبابه المفضية إليه - وهو من هذه الجهة شر، وأما من جهة وجوده المحض فلا شر فيه. ومثاله: أن النفوس الشريرة وجودها خير من حيث هي موجودة، وإنما حصل لها الشر بقطع مادة الخير عنها، فإنها خلقت في الأصل متحركة لا تسكن، فإن أعينت بالعلم وإلهام الخير تحركت، إن تركت تحركت بطبعها إلىٰ خلافه وحركتها من حيث هي حركة خير، وإنما تكون شرًّا بالإضافة، لا من حيث هي حركة.

والشر كله ظلم، وهو وضع الشيء في غير موضعه، فلو وضع في موضعه لم يكن شرًّا، فعُلم أن جهة الشر فيه نسبة إضافية، ولهذا كانت العقوبات الموضوعة في محالِّها خيرًا في نفسها، وإن كانت شرًّا بالنسبة إلىٰ المحل الذي حلت به، لما أحدثت فيه من الألم الذي كانت الطبيعة قابلةً لضده من اللذة ومستعدةً له، فصار ذلك الألم شرًّا بالنسبة إليها، وهو خير بالنسبة إلىٰ الفاعل حيث وضعه موضعه؛ فإن اللَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يخلق شرًّا محضًا من جميع الوجوه والاعتبارات؛ لأن حكمته تأبىٰ ذلك؛ بل قد يكون ذلك المخلوق شرًّا ومفسدةً ببعض الاعتبارات، وفي خلقه مصالح وحكم باعتبارات أخر، أرجح من اعتبارات مفاسده، بل الواقع منحصر في ذلك.

فلا يمكن في جناب الحق جَلَّ جَلَالُهُ أن يريد شيئًا يكون فسادًا من كل وجه وبكل اعتبار لا مصلحة في خلقه بوجه ما، هذا من أبين المحال، فإنه سبحانه بيده الخير والشر ليس إليه؛ بل كل ما إليه خير، والشر إنما حصل لعدم هذه الإضافة بالنسبة إليه، فلو كان إليه لم يكن شرًّا فتأمله، فانقطاع نسبته إليه هو الذي صيره شرًّا.

فإن قلت: لم تنقطع نسبته إليه خلقًا ومشيئة.

قلت: هو من هذه الجهة ليس بشر، والشر الذي فيه من عدم إمداده بالخير وأسبابه، والعدم ليس بشيء حتىٰ ينسب إلىٰ من بيده الخير.

فإن أردت مزيد إيضاح في ذلك فاعلم أن أسباب الخير ثلاثة: الإيجاد، والإعداد، والإمداد؛ فهذه هي الخيرات وأسبابها، فإيجاد هذا السبب خير، وهو إلىٰ اللَّه. وإعداده خير وهو إليه ـ أيضًا ـ، فإذا لم يحصل فيه إعداد ولا إمداد حصل فيه الشر بسبب هذا العدم الذي ليس إلىٰ الفاعل، وإنما إليه ضده.

فإن قلت: فهلا أمده إذ أوجده؟.

قلت: ما اقتضت الحكمة إيجاده وإمداده؛ فإنه سبحانه يوجده ويمده، وما اقتضت الحكمة إيجاده وترك إمداده أوجده بحكمته، ولم يمده بحكمته، فإيجاده خير، والشر وقع من عدم إمداده.

فإن قلت: فهلَّا أمد الموجودات كلها؟

فالجواب: أن هذا سؤال فاسد؛ يظن مورده أن تساوي الموجودات أبلغ في الحكمة، وهذا عين الجهل، بل الحكمة ـ كل الحكمة ـ في هذا التفاوت العظيم الواقع بينهما، وليس في خلق كل نوع منها تفاوت، والتفاوت إنما وقع من أمور عدمية لم يتعلق بها الخلق، وإلا فليس في الخلق من تفاوت.

إلىٰ أن قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإن اعتاص ذلك عليك، ولم تفهمه حق الفهم، فراجع قول القائل:

إذا لم تستطع شيئًا فدعه وجاوزه إلىٰ ما تستطيعُ

انتهىٰ كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقوله تَعَالَىٰ: ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾، فسر ابن عطية وغيره من المفسرين ﴿ٱلۡمَيِّتِ﴾ هنا علىٰ حقيقته، ومثلوه بالنطفة يخلق منها الإنسان والحيوان، والبيضة التي يخلق منها الطير ونحوه، والنواة

التي يخلق منها النخلة، وعكسها النواة من النخلة، والبيضة من الطير وسائر البزورات، وأن يُخرج الميت من رحم الآدمية الحية والحيوان الحي، ويخرج الحي من رحم المرأة والحيوان الميت، وهكذا فهو الذي يخرج المتضادات بعضها من بعض، ولا يستعصي عليه شيء أبدًا، بل ينقاد له كل شيء حسبما يريده، وساعة ما يأمره به، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل].

وبعض المفسرين توسع في المعنىٰ إلىٰ المجازات فقال: ويخرج المسلم من الكافر، وعكسه؛ لأن الكافر ميت القلب، وإلىٰ هذا يشير قوله تعالىٰ في شأن القرآن الكريم: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠]؛ يعني به صاحب الحياة القلبية لا الجسمية؛ لأنه لا ينذر أموات الأجسام، ولا أموات القلوب، واستدلوا علىٰ قولهم بما روىٰ معمر عن الزهري رحمه الله قال: دخل رسول اللَّه ﷺ علىٰ نسائه، فإذا بامرأة حسنة الهيئة، قال: «من هذه؟» قيل: إحدىٰ خالاتك، قال: «ومن؟»، فقلن: هي خالدة بنت الأسود ابن عبد يغوث، فقال النبي ﷺ: «**سبحان اللَّه الذي يخرج الحي من الميت**»[1]، وكانت صالحةً مؤمنةً وأبوها كافرًا، فالمراد موت قلب الكافر، وحياة قلب المؤمن.

ويخرج ﷻ الصالح من الفاسد، والبر من الفاجر، والعالم من الجاهل، والجلد الفطن من البليد العاجز، والعكس، ومن أنواع المتضادات التي يخلقها اللَّه: تكوين النار الحارة اليابسة من الرطب البارد، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ [يس: ٨٠]، وجميع هذه الأشياء لا يقدر عليها سواه من المخلوقين أبدًا مهما بلغوا من العلم والمعرفة.

وقوله ﷻ: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، له معانٍ عدةٌ يعضد بعضها بعضًا، وهي:

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٨/١٨١).

١ ـ أنه يعطي من يشاء كما يشاء، حسب إرادته وحكمته ورحمته لا يحاسبه أحد علىٰ ذلك؛ إذ ليس فوقه من محاسب، فهو سبحانه المعطي المانع، الضار، النافع، القابض، الباسط.

٢ ـ أنه يرزق من يشاء بما يشاء من خزائن رحمته وفضله رزقًا غير مقدر بعدد، ولا محدودٍ بكمية؛ بل يبسط له الرزق ويوسعه له.

٣ ـ أنه سبحانه يرزق من يشاء رزقه وإغناءه برزق من غير استحقاق؛ لأن من كان رزقه باستحقاق كان محصورًا محدودًا، فكان رزقه سبحانه بحساب، أي محدودًا، وهو الأغلب.

والمقصود الصحيح بقوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: أنه لا محاسب للَّه سبحانه في ذلك، ومن هذه الآية يعلم أن الرزق ليس بالكد والعمل ولا بالفطنة، وإنما هو تفضل من اللَّه وتعالىٰ، ومع هذا فقد ربطه بأسباب وقدَّره بمقادير كونية، لذا وجب علىٰ الإنسان أن يأخذ بأسباب الرزق، من العمل المشروع، وألَّا يلجأ إلىٰ التواكل والاعتماد علىٰ القدر، فإن حقيقة التوحيد وحقيقة التوكل علىٰ اللَّه لا تتم إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها اللَّه مقتضِيات لمسبباتها قدرًا وشرعًا، وترك الأسباب وتعطيلها يقدح في حقيقة التوحيد وحقيقة التوكل، وعجز يسلم الإنسان إلىٰ الفقر، والمجتمع إلىٰ الاندثار.

وكما أنه لابد للإنسان من الأخذ بالأسباب المادية المشروعة للحصول علىٰ رزقه، فلابد له ـ أيضًا ـ من أن يقرنها بالأسباب الروحية المستمطرة لفضل اللَّه ورحمته ولطفه ومعونته، كفعل الطاعات، وصلة الرحم، والإحسان إلىٰ المحتاجين، وكثرة الاستغفار، وبر الوالدين، وتقوىٰ اللَّه ﷻ وهو القائل: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

قوله سبحانه في الآية (٢٨) من السورة: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨)﴾:

في هذه الآية الكريمة نَهْيٌ وتحذير للمؤمنين من موالاة الكافرين، ويقتضي ذلك أمرهم بأن يحصروا التجاءهم إلىٰ اللّه، واستعانتهم به وحده؛ لأنه مالك الملك، بيده الملك والعز، ومجامع الخير والسلطان في تصريف جميع الكائنات، يعز من يشاء، ويذل من يشاء، وهو القاهر فوق عباده، فمن الجهل الفظيع، والكفر الشنيع أن يلجأ أحد من المؤمنين إلىٰ أعدائه الكافرين به، المتطاولين علىٰ ألوهيته، فيعتز بهم من دونه ودون أوليائه المؤمنين.

فالآية ـ كما تري ـ لها ارتباط وثيق بما سبقها من آيات؛ إذ إن الآيات السابقة حصرت الملك والعز والخير بيده سبحانه، وما دام الأمر كذلك، فقد جاءت الآية هذه لتحذر المؤمنين من موالاة الكافرين طلبًا للأمن، وحرصًا علىٰ المال والعيال، وطمعًا في العز؛ لأن هذا كله بيد اللّه وحده، فإليه الملجأ، وهو المستعان.

وقد كان بعض الذين يدخلون في الإسلام ـ قبل اطمئنانهم بالإيمان ـ يوالون الكفار، ويركنون إليهم اغترارًا بقوتهم، وطمعًا بالعزة من طريقهم، فلذا جاء النهي والتحذير عن موالاتهم من دون المؤمنين في هذه الآية، وفي الآية (١١٣) من سورة هود: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣)﴾، وفي الآية (١٤٤) من سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٤٤)﴾.

وقد أبان اللّه سبحانه علة النهي هذا في الآيتين (١١٨ ـ ١١٩) من هذه السورة، وسيأتي بيانها ـ إن شاء اللّه تعالىٰ ـ.

وفي الآية (١٣٩) من سورة النساء بين اللّه ﷻ أن موالاة الكفار سمة

من أبرز سمات المنافقين؛ حيث قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

ويتضح من نص الآية التي نحن بصددها: أن تحريم الموالاة فيما إذا كانت من دون المؤمنين؛ لأن الذي من دونهم يضر بمصالحهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فالمعنىٰ: أن المؤمنين لا يجوز لهم اتخاذ الكافرين أولياء وأنصارًا يوالونهم علىٰ دينهم، ويظاهرونهم علىٰ المسلمين من دون المؤمنين، ويدلونهم علىٰ عوراتهم كما تقتضيه الولاية.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في معنىٰ هذه الآية: «نَهَىٰ اللَّه سبحانه المؤمنين أن يلاطفوا الكفار أو يتخذوهم وليجة من دون المؤمنين».

وقال الحسن رحمه الله: «لا يُتخذ الكافر وليًّا من دون المؤمنين».

وكذا قال السري، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم.

وقد وردت عدة آثار في سبب نزول هذه الآية، ولا عبرة بالسبب كما هي القاعدة؛ بل العبرة بالحكم.

وقوله تعالي: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حال من الفاعل، أي: حال كونهم متجاوزين المؤمنين إلىٰ الكافرين، استقلاله عنهم، أو اشتراكا معهم، فالمؤمنون هم الحقيقون بالموالاة، وفي موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفار وولايتهم، ولا تجتمعان أبدًا، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة] ولفظ ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لابتداء الغاية، أي لا تجعلوا ابتداء الولاية من مكان دون مكان المؤمنين.

وقد استدل بعض العلماء بِهذه الآية علىٰ أنه لا يجوز توظيف الكافر بوظيفة خطيرة في مجتمع المسلمين، مهما كان نوعها، مدنيةً كانت أو عسكريةً، مما يعتبر في العرف تعظيمًا، وكذا الكافر المرتد

من أبناء المسلمين، والغلاة من أهل البدع وأصحاب المذاهب الأرضية المادية.

وقد روىٰ البيهقي في «شعب الإيمان» مرسلًا: «**من وقَّر صاحب بدعة فقد أعان علىٰ هدم الإسلام**»[1].

وعن حسان بن عطية قال: «ما ابتدع قوم بدعة في دينهم إلا نزع اللَّه من سننهم سنةً، ثم لا يعيدها إلىٰ يوم القيامة»، إسناده صحيح، وقد أخرجه الطيالسي عن أبي هريرة.

واعلم أن التقييد الوارد في الآية، وهو قوله تعالىٰ: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ليس له مفهوم مخالف يدل علىٰ جواز اتخاذ الكفار أولياء إذا لم يكن من دون المؤمنين، فقد تقرر في علم الأصول: أن دليل الخطاب - الذي هو مفهوم المخالفة - له موانع تمنع من اعتباره والأخذ به.

ومن هذه الموانع: تخصيص المنطوق بالذكر لأجل موافقته للواقع، كما في هذه الآية؛ لأنها نزلت في قوم والوا اليهود دون المؤمنين، فنزلت الآية تنهىٰ عن الصورة الواقعة من غير قصد التخصيص بها؛ بل إن موالاة الكفار حرام علىٰ الإطلاق، كما تضافرت نصوص القرآن علىٰ ذلك مما أسلفنا ذكره، وغيرها من الآيات القرآنية، التي يطول ذكرها في هذا الموضع.

وقوله سبحانه في الآية: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾، أي أن من يتخذ الكفار أولياء فهو مفلس من ولاية اللَّه قطعًا، وذلك لانقطاع صلة الإيمان التي تربطه باللَّه؛ لأن الضدين لا يجتمعان أبدًا، فلا يمكن حصول ولاية الرَّحمن مع ولاية الشيطان من الإنس لأجل قرابة أو جلب مصلحة، أو دفع مضرة، فموالاةُ أعداء اللَّه تهدم محبة اللَّه، وتقضي عليها.

---

(١) رواه البيهقي في «الشُّعَب» (٩٤٦٤).

وقد استثنىٰ اللَّـه حالةً واحدة لجواز ولائهم، وهي حالة التقية لاتقاء شرهم، في وقت تكون بيدهم قوةٌ لا قدرة للمؤمنين بها، فتجوز عند ذٰلك موالاتهم أو معاشرتهم في الظاهر، مع اطمئنان القلب ببغضهم وعداوتهم، والتصميم علىٰ النفور منهم، وعدم الالتقاء معهم في أي شيء يمس العقيدة أو الأخلاق الإسلامية، والعمل علىٰ زوال المانع بكل صدق وإخلاص، واللَّـه سبحانه عليم بالسرائر، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

واعلم أن بعض أهل الأهواء ـ من النواصب وغيرهم ـ زعموا أن عليًّا وأولاده يستعملون التقية في غالب أمورهم، وأن لهم مذاهب يخفونها عن العامة، وهذا كذب صراح ومحال علىٰ الإمام عليٍّ أمير المؤمنين رضي الله عنه؛ لأن التقية لا يستعملها إلا الجبان الرعديد. ولست أدري كيف يتفق قولهم هذا وكذبهم مع زعمهم أن عليًّا قادر علىٰ إفناء الثقلين في لحظة واحدة!!.

هذا، وقد تضمنت كتب الشيعة ما ينقض زعمهم الكاذب علىٰ أمير المؤمنين وبنيه، فقد جاء في كتاب «نهج البلاغة» عن علي رضي الله عنه أنه قال: «علامة الإيمان إيثارك الصدق حيث يضرك؛ علىٰ الكذب حين ينفعك»، ومحال علىٰ أمير المؤمنين وبنيه أن يقولوا ما لا يفعلون، فيتبين من هذا الكذب الصريح في نسبة التقية إلىٰ عليٍّ رضي الله عنه وإلىٰ أبنائه من بعده.

قد أجاز بعض العلماء الاستعانة بالكافر والفاسق علىٰ حرب كافر أو مبطل، وزعموا أن قوله صلى الله عليه وسلم للكافر في غزوة بدر: «**ارجع فلن أستعين بمشرك**»[1] أنه منسوخ باستعانته بيهود بني قينقاع، واستعانته بصفوان بن أمية، في حرب هوازن حيث استعار منه الدروع؛ ولكنهم اشترطوا في جواز ذلك الحاجة إلىٰ المشركين، والوثوق بهم، وألَّا

---

(١) رواه مسلم (١٨١٧).

يكون لذلك أثر علىٰ عقيدة المسلمين وأخلاقهم.

ولا شك أن الأخذ بِهذه الشروط يضيق دائرة جواز الاستعانة بالمشركين للغاية، ويجعلها قريبةً من المنع المطلق، ولهذا قال اللَّه تعالىٰ في الآية: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، أي يحذركم اللَّه نفسه من أن ترتكبوا شيئًا من معاصيه، أو تتولوا أعداءه، فإليه المرجع والمصير، فيحاسبكم علىٰ أعمالكم السرية والعلنية.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند هذه الآية: وفيه تهديد عظيم مشعر بتناهي المنهي عنه في القبح، حيث علق سبحانه التحذير بنفسه.

وفي هذه الآية دليل علىٰ إباحة التقية، للمحافظة علىٰ النفس أو العرض أو المال.

هذا وإن العدو قسمان:

- قسم عداوته دينية؛ كالكافر مع المسلم.

- وقسم عداوته دنيوية؛ كالغرضين في المال والمتاع وطلب السيادة، والفسقة الطالبين للأعراض، ولذلك انقسمت التقية إلىٰ قسمين أو أكثر.

فالأول: كل مؤمن يقع في مجتمع لا يقدر فيه علىٰ إظهار دينه لتعرض المخالفين له، فهذا تجب عليه الهجرة أولًا إلي موقع يقدر فيه علىٰ الإظهار، فإن عجز عن الهجرة عجزًا ماديًّا أو قسريًّا أو لم يجد له مهجرًا، أو خاف الفتنة علىٰ أهله من بعده، جازت له التقية للضرورة، والضرورة تقدر بقدرها، ورجح بعض العلماء إظهار الدين، فإنه عزيمة علىٰ التقية، وهي رخصة، فإن قتل من أظهر دينه فهو شهيد، واستدلوا لذلك بما روىٰ الحسن من قصة مسيلمة الكذاب مع الرجلين اللذين أخذهما من أصحاب النبي ﷺ، فصدقه أحدهما برسالته الكاذبة تقية منه فأطلقه، وأبىٰ الثاني تصديقه فقتله، فلما بلغ رسول اللَّه ﷺ خبرهما قال: «**أما هذا المقتول فقد مضىٰ علىٰ صِدقه ويقينه، وأخذ بفضله فهنيئًا له، وأما الآخر فقد رخَّصه اللَّه فلا**

تبعةَ عليه»[١].

وينبغي أن يُعلم أن إظهار الدين الذي يترتب علىٰ عدمه وجوب الهجرة إنما هو الولاء والبراء، والتمكن هو تربية الذرية علىٰ منهاج الإسلام، وصيانة أفكارهم من صنوف الإلحاد، وليس هو كما يتصور البعض، الصلاة ونحوها من الشعائر البدنية، فإن جميع الدول حتىٰ روسيا الشيوعية لا تمنع المسلم من أداء الصلاة، وتسمح للمسلمين ببناء المساجد، ولكن تربية أولادهم بيد الدولة تصنعهم علىٰ عينها، وتصبغهم بصبغتها الإلحادية، وهم لا يقدرون علىٰ مجابَهة هذا الإلحاد، أو إبعاد أولادهم عنه، فضلًا عن تربيتهم علىٰ الدين والإسلام.

واعلم أن بقاء المسلمين في ظل هذه الأنظمة التي تسمح لهم بمزاولة شعائرهم الدينية البدنية، له خطورته البالغة، إذ أنهم سينصهرون مع الأيام في بوتقة الكفر والإلحاد، كما أنهم يُمدون هذه الأنظمة بعناصر القوة والبقاء والنماء، وهذا من أكفر الكفر؛ فليتنبه المسلمون لذلك.

أما القسم الثاني: فيما إذا كان للمسلم أعداء يعادونه من أجل الدنيا، فإن أدت هذه العداوات إلىٰ الفتك، وجبت الهجرة لإنقاذ النفس من التهلكة.

وقد جعل بعض العلماء مداراة الكافر بالهدية والبشاشة ونحوها، مما يلين القلوب من التقية أخذًا بالأثر: **«ما وقىٰ المسلم به عِرْضَه فهو صدقة»**[٢].

وبالحملة فالتقية رخصة للمسلم، أن يقول ما يرضي عدوَّه الفاتك، في حين يبقىٰ قلبه مطمئنًا بالإيمان، كما فعل عمار بن ياسر رضي الله عنهما، وكما فعل أحد الصحابة في فتنة مسيلمة الكذاب.

---

(١) رواه ابن عدي في «الكامل» (٥/٣٢٢).

(٢) رواه الحاكم (٢/٥٧).

وأما المداراة فيما لا يهدم حقًّا ولا يبني باطلًا؛ فهي حذق وكياسة يقتضيها أدب المجالسة إذا لم تصل إلىٰ حد النفاق، أو ينكسر لها قلب مؤمن.

وقد روىٰ البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: استأذن رجل علىٰ رسول اللَّه ﷺ وأنا عنده، فقال: «**بئس ابن العشيرة - أو أخو العشيرة -** ». ثم أذن له، فألان له القول، ثم خرج، فقلت: يا رسول اللَّه، قلت ما قلت، ثم ألنت له القول؟! فقال: «**يا عائشة، إن من شر الناس مَن يتركُه الناس - أو يدعه الناس - اتقاء فحشه**»[1]. ورواه البخاري - أيضًا - في «صحيحه» من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

وأما المداهنة في الدين لأجل معايشة الناس ومسالمتهم، فإن من جرائها الموافقة علىٰ شتم الدين أو شتم أحد من الصحابة، فهذا كفر والعياذ باللَّه، وإلا فهو فسوق ورقة في الدين قد تخرج صاحبها من الإيمان دون الإسلام واللَّه أعلم.

وقوله سبحانه وتعالى في الآية (٢٩) من السورة: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) ﴾:

كان تحذير اللَّه للمؤمنين نفسه - الآية السابقة لهذه الآية - يقتضي إيحاء هذه الآية للنبي ﷺ قائلًا له: قل - يا محمد - لأمتك: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾، أي أن ما تخفونه في صدوركم، وما تبدونه بلا مبالاة منكم؛ فإن اللَّه يعلمه علىٰ حد سواء.

وعند ربط هذه الآية بسابقتها، يتبين لنا أن اللَّه سبحانه وتعالى أمر نبيَّه أن يخبر المؤمنين بأنه سبحانه يعلم ما تنطوي عليه نفوسهم، وما يختلج في قلوبهم حول معاملة الكافرين وموقفهم منهم، ويعلمُ الحقيقة

---

(١) رواه البخاري (٦٠٣٢)، ومسلم (٢٥٩١).

الصحيحة المُلجئة إلىٰ التقية، من الهزيمة النفسية والميوعة في أمر العقيدة والدين وحب التلاقي مع الكافرين، لإدراك مصلحة أو تفويت مضرة، فعلمه سبحانه محيط بنياتكم وأعمالكم، وهو قديرٌ علىٰ محاسبتكم عليها، وفي هذا مزيد تهديد للمؤمنين الصادقين.

وتقديم الإخفاء علىٰ الإبداء في الآية، يفيد أن بداية البواعث علىٰ الأعمال تكون في الضمائر، وأن النية تسبق العمل، وهي من عمل القلب الذي هو مسيِّر أعضاء الإنسان وجوارحه، فكل ما فيه يظهر علىٰ جوارح الإنسان، ويترجم إلىٰ أقوال وأعمال ظاهرة.

📖 **وقوله سبحانه في الآية (٣٠) من السورة:** ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾:

إن اللَّه سبحانه يجازي الناس علىٰ أعمالهم يوم القيامة، يوم تنكشف السرائر وتظهر مخبآت الضمائر، وتُدان كل نفس بما عملت، وما أضمرت، وما أظهرت، فعامل الخير يجد منفعة عمله حاضرة لديه فيفرح، وعامل السوء والشر يتمنىٰ بعده عن عمله، وأن يكون بينهما مسافةً بعيدةً؛ وذلك لما يرىٰ من الشقاء السرمدي والعذاب الأليم، حين وجده محضرًا بين يديه.

والأمد: غاية الشيء ومنتهاه، والفرق بينه وبين الأبد: أن الأبد مدة من الزمان غير محدودة، والأمد محدود بحد مجهول، والتمني المذكور في الآية من المسيء يشبه ما ذكره اللَّه في سورة الزخرف عن صاحب قرين السوء: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ [الزخرف: ٣٨].

وللعلماء في إعراب هذه الآية خلاف كبير مشهور في التفاسير التي تعنىٰ بالإعراب، وأصحها قول الواحدي في أن ﴿مَّا﴾ بمنزلة الذي، و﴿عَمِلَتْ﴾ صلتها، ولا يجوز أن تكون شرطية.

و«الواو» في الجملة الثانية ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ واو العطف؛ كما

قاله أبو مسلم الأصفهاني وأتباعه، ولا يصح أن تكون للاستئناف لاختلاف المعنىٰ.

وقوله سبحانه: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ هو زيادةٌ في توكيد الوعيد يكرره لعباده ليبين لهم خطورة الأمر الذي نهاهم عنه، وحذرهم من مغبة الوقوع فيه.

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ يشمل جميع أنواع الرأفة من تكوين الفطرة سليمةً ميالةً إلىٰ الخير، وإنزال الهداية، وترغيب العباد بالوعد، وترهيبهم بالوعيد، وتحذيرهم من نفسه، وإيضاح كمال علمِه وقدرته، وأنه يُمهل ولا يهمل.

وقوله سبحانه في الآية (٣١، ٣٢) من السورة: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٢﴾:

لهاتين الآيتين ارتباط وثيق بما سبقهما من آيات، ووجه ذلك أنه سبحانه بين عظمته وجلال سلطانه، وانفراده في ملكه بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ الآية، وبذلك فقد تعلق قلب العبد المؤمن بموالاة ذي الملك والملكوت، والجلال والقهر والجبروت، وليكون هذا التعلق خالصًا من كل شائبة، جاء النهي عن موالاة أعداء اللّٰه الكافرين، وحذر من ذلك غاية التحذير بقوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ...﴾ الآية، ونبه علىٰ استئصال الموالاة وقطع جذورها من القلوب بقوله: ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُ﴾، وزاد ذلك التعلق بذاته العلية في قلوب المؤمنين، فاستأنف قوله سبحانه: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآيات، ليشيرَ إلىٰ طريق الوصول إليه، وأنه منحصر في طريق النبي ﷺ بتحقيق متابعته.

وأول المدارج لمتابعته ﷺ البراءة من الشرك وأهله، وبغضهم واجتنابهم، وعدم موالاتهم، والتوجه إلىٰ اللّٰه بكل طلب واستعانة،

ثم حصر الاقتداء بنبيه الكريم ﷺ في الأقوال والأعمال والأخلاق.

فقد جعل سبحانه هذه الآية ميزانًا لصدق دعوىٰ محبته، إذ ما من صاحب ملة إلا وهو يدعي حب اللَّه، فجعل اللَّهُ متابعة نبيه ﷺ هي الميزان الصادق لصدق ما يدَّعيه المدعي من محبته، فمن حقق متابعته ﷺ في الولاء والبراء، وإقامة أركان الإسلام وشعب الإيمان، وحقق تحكيمه في جميع شؤون الحياة، السياسية منها، والاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية، ولم يبتغ غير اللَّه حكمًا في ذلك، فهو الصادق فيما يدعيه من محبة اللَّه، ومن لم يحقق ذلك فهو كاذب ليس عنده إلا مجرد الدعاوي الفاجرة الكاذبة.

ومن المهم أن يعلم أن محبة اللَّه تعالىٰ تقتضي وتستلزم محبة رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ومحبته ﷺ تقتضي أن تجعل الأولوية له في كل شيء، وأن يجعل المسلم نفسه وماله فداءً له ﷺ في حياته، ولسنته بعد وفاته، وأن يكون حكمه ﷺ أنفذ علىٰ المؤمن من حكم نفسه، وحكم أي حاكم علىٰ الإطلاق؛ قال تعالىٰ في الآية (٦٥) من سورة النساء: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾.

وقد روي البخاري ومسلم عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا يؤمنُ أحدكم حتىٰ أكونَ أحب إليه من والده، وولده، والناس أجمعين**»(١).

وورد في حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال: يا رسول اللَّه، لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا نفسي، فقال: «**لا ـ يا عمر ـ؛ حتىٰ أكون أحب إليك من نفسك**»، فلما قال: لأنت الآن أحب إلي من كل شيء حتىٰ نفسي، قال: «**الآن يا عمر**»(٢).

---

(١) رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).
(٢) رواه البخاري (٦٦٣٢).

وآية الأولوية في سورة الأحزاب: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، فمحبته ﷺ من محبة اللَّه، وطاعته من طاعة اللَّه.

محبته ﷺ تقتضي متابعته والاقتداء به والعمل بسنته، وبدون هذا تكون دعوة المحبة كاذبة لا قيمة لها، وصدق الشاعر حيث قال:

تعصي الإلهَ وأنت تزعمُ حبَّه ... هذا لَعمري في القياس شنيعُ

لو كان حبُّك صادقًا لأطعتَه ... إن المحبَّ لمن يحبُّ مطيعُ

وقد ورد في الحديث الصحيح: «**واللَّهِ لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تبعًا لما جئت به**»(١).

وفي الصحيح - أيضًا - قوله ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرُنا فهو رد**»(٢).

وقد ورد في سبب نزول الآيات آثار عديدة:

منها: أن قريشًا ادعت محبة اللَّه، وهي تسجد للأصنام.

ومنها: أن اليهود قالوا: نحن نحب اللَّه. والأصح أن وفد نصارىٰ نجران قال ذلك.

ولا تعارض بين هذه الآثار؛ لأن فيها امتحانًا عامًّا من اللَّه لجميع من ادعىٰ محبته من كل الطوائف إلىٰ يوم القيامة، لذا فإنها تسمىٰ «آية المحنة».

ولا يفوتنا أن نبين أن من مقتضيات محبة اللَّه ولوازمها: محبة جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، علىٰ اختلاف أجناسهم وألوانهم، ومساعدتهم ومساندتهم بكل أنواع المساعدة والمساندة، وعدم تفضيل وموالاة الكافر عليهم لقرابته، أو لأي اعتبار آخر، ولهذا يشير ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٥).

(٢) تقدم تخريجه.

النبي ﷺ أنه قال: «**لا يؤمنُ أحدكم حتىٰ يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه**»[١]، وفي رواية أخرىٰ: «**مثلَ ما يحب لنفسه من الخير**»[٢].

وجاء أعرابي إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول اللَّه، متىٰ الساعة؟ فقال: «**ما أعددت لها؟**»، فقال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام، إلا أني أحب اللَّه ورسوله، فقال ﷺ: «**أنت مع من أحببت**».

قال أنس رضي الله عنه: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك[٣].

والأحاديث الواردة في حب اللَّه ورسوله ﷺ وحب المسلمين ووجوب التعاون معهم ونصرتهم، وتحرير ظلمهم وخذلانهم، وغمطهم حقوقهم، أحاديث كثيرة معروفة مشهورة، لا نطيل بسردها، ما دامت مراجعها متوفرةً ومتيسرةً، وللَّه الحمد.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: فإن أعرضوا وانصرفوا مدبرين عن قبول الهداية، ومتمردين عن الانقياد والطاعة للَّه ورسوله، فإن اللَّه لا يحب الكافرين ويكرههم، ومن كرهه اللَّه عذبه.

واعلم أن نفي محبة اللَّه للكافرين يقتضي حصرها بالمؤمنين، فهم أحباب اللَّه وأولياؤه. ونفي محبة اللَّه الكافرين أبلغ من إثبات كرهه لهم كما هو معلوم.

وقوله سبحانه في الآية الثانية: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾، تأكيد لما نصبه من العلامة علىٰ صدق دعوىٰ محبة اللَّه، وتفسير لمعنىٰ متابعة الرسول ﷺ. وقد حذف سبحانه متعلَّق طاعته وطاعة رسوله؛ ليشعر بعموم الطاعة في كل شؤون الحياة.

---

(١) رواه البخاري (١٢)، ومسلم (٤٥).
(٢) رواه النسائي (٥٠٣٢).
(٣) رواه البخاري (٦١٧١)، ومسلم (٦٦٥٧).

وقوله سبحانه في الآية: (٣٣، ٣٤) من السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾:

لما بين سبحانه أن دينه الإسلام دون سواه، وبين الميزان الصحيح لمحبته، وأثبت بغضه للكفار وحبه للمؤمنين، شرع في بيان من اختاره لحمل هذا الدين والقيام به.

والاصطفاء هو الاختيار، يعني جعلهم اللَّه صفوة خلقه، فأعلىٰ منازلهم، وشرف مناصبهم.

وذكر العلامة الحَليمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب «المنهاج»، أن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لهم مميزات يخالفون غيرهم فيها، وتكون هذه بالقوىٰ الجسمانية، والقوىٰ الروحانية، أما القوىٰ الجسمانية فهي إما مدركة أو محركة، والمدركة إما أن تكون بالحواس الظاهرة أو بالحواس الباطنة، فمن الحواس القوىٰ الباصرة، وقد كان للنبي ﷺ نصيب من ذلك؛ كما قال: **«زُويت لي الأرض فرأيتُ مشارقها ومغاربها»**(١)، وكقوله ﷺ: **«أقيموا صفوفكم وتراصوا، فإني أراكم من وراء ظهري»**(٢)، وكقوله تَعَالَىٰ عن خليله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥].

ومنها القوة السامعة؛ كسماعه ﷺ دويَّ الصخرة المقذوفة في جهنم(٣)، وسماعه غير ذلك.

قال الحليمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولا سبيل للفلاسفة إلىٰ استبعاد ذلك؛ فإنهم زعموا أن «فيثاغورث» راض نفسه حتىٰ سمع حفيف الفَلَك، وقد حصل نظير هذه القوة السمعية لسليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سماع قول ﴿ٱدْخُلُوا۟

(١) تقدم تخريجه.
(٢) رواه البخاري (٤١٨)، ومسلم (٤٢٤).
(٣) رواه مسلم (٢٨٤٤).

مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ [النمل: ١٨].

ومنها قوة الشم، كما شم يعقوب ريح قميص يوسف يوم فَصَلت العير من مصر.

وقوة الذوق، كما أحس رسول اللَّه محمد ﷺ بالذراع المسمومة(١).

وأما القوىٰ المحركة كرفع إدريس وعيسىٰ، وعروج محمد ـ عليه وعليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ، فهي قوة عارضة وليست دائمة.

وأما القوىٰ الروحانية العقلية فإنها في غاية الكمال، ونهاية الصفاء، فالنفس القدسية النبوية مخالفة بماهيتها لسائر النفوس، ومن لوازم تلك النفس الكمال في الفطنة والحرية، والاستعلاء والترفع عن الجسمانيات والشهوات، فإذا كانت الروح في غاية الصفاء والشرف، وكان البدن في غاية النقاء والطهارة، كانت هذه القوىٰ المدركة والمحركة في غاية الكمال». انتهي كلام الحليمي باختصار وتصرف.

وما قاله الحَليمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليس سببًا في تحصيل النبوة، لأنها لا تنال بالكسب ولا بالقوة؛ بل هي فضل من اللَّه يخص بها من شاء من عباده، كما قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وكما قال: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقد ذكر اللَّه في هذه الآية كبار أئمة الهداية ممن اصطفاهم من المرسلين. فبدأ بذكر آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأنه أبو البشر، وأنه تنقل في الأطوار إلىٰ مرتبة التوبة والإنابة، فاصطفاه اللَّه واجتباه كما في قوله تعالىٰ في سورة طه: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ١٢٢﴾ [طه]، فكان هاديًا مهديًّا وكان في ذريته ما شاء اللَّه من النبوة.

ثم ثنَّي بنوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأنه الأب الثاني للبشر، حيث لم ينج من الطوفان إلا ذريته؛ كما قال تعالي: ﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ٧٧﴾ [الصافات] فجميع

(١) رواه البخاري (٣١٦٩).

أهل الأرض هم من ذريته، وأكرم اللَّه منهم بالنبوة من شاء، وعاقب اللَّه من أقوامهم من شاء حتىٰ جاء إبراهيم في وقت انتشار الوثنية.

ثم ثلَّث بإبراهيم مع إضافة آله؛ لأنه سبحانه جعل في آل إبراهيم الملك والنبوة والكتاب، وجعله الأب للملَّة الحنيفية ودينه الإسلام.

والمراد بـ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، عالمي زمانهم فقط، وليس إلىٰ الأبد؛ فإن محمدًا ﷺ وأتباعه أفضل من جميع العالمين السابقين علىٰ الإطلاق.

وقوله سبحانه في الآيات: ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾، قال صاحب النظم فيما يرويه عن ابن حيان: الآية توجب أن يكون الأبناء ذرية للآباء، والآباء ذرية للأبناء وجاز ذلك؛ لأنه مأخوذ من ذرأ اللَّه الخلق، فالأب ذرئ منه الولد والعكس.

وقال النقاش بمعناه، واشتقاقها مذكور في أكثر التفاسير عند الكلام علىٰ قول إبراهيم ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: ١٢٤] في سورة البقرة، فهم ذرية بعضها من بعض في النسب الحسي، الذي يصدق فيه أن الذرية هي النسل فقط، وتخص الأولاد، ولا تطلق علىٰ الآباء. وأما النسب المعنوي الذي هو الدين والنبوة والهداية والاصطفاء لذلك؛ بمعنىٰ أنهم أشباه في الخيرية والفضيلة التي هي أصل اصطفائهم وثمرته الطيبة، فهذا النسب يستوي به الآباء والأبناء ويطلق عليهم جميعًا ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾.

وقد أخرج عبد بن حميد في «تفسيره» عن قتاده قال: ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ في النية والعمل والإخلاص والتوحيد، يعني يشبه بعضهم بعضًا في الرسالة والهداية، كما قال تعالىٰ في سورة الأنعام الآية (٨٧): ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنعام].

وقوله سبحانه في الآية: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعني سميع لأقوال العباد، وعليم بأفعالهم ومكنونات صدورهم، فيصطفي منهم من يشاء لعلمه

باستقامته ظاهرًا أو باطنًا. وسميع عليم بأكاذيب اليهود أنهم أبناء اللَّه وأحباؤه، ومزاعم النصارىٰ أن عيسىٰ ابن اللَّه فسيجازيهم عليها.

وقوله ﷻ في الآيات (٣٥، ٣٦، ٣٧) من السورة: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾:

يبين اللَّه لنا في هذه الآيات بعض نتائج الاصطفاء الرباني، وسريانه في الذرية. والتقدير: واذكر لهم إذ قالت امرأة عمران ـ وهي جدة عيسىٰ عليه السلام ـ: ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى﴾ من الحمل ﴿مُحَرَّرًا﴾ أي: خالصًا لعبادتك، وخدمة بيتك الذي هو المسجد، فلا يشتغل بغير ذلك، فهو محرر من رق الأغيار وأشغالهم التي يستعبدونه بها. ومثل هذا النذر كان شائعًا في الشريعة التي كانت لبني إسرائيل فقط.

وقد روىٰ المفسرون روايات في اسم امرأة عمران، وسبب نذرها، وكلها موقوفة علىٰ ابن عباس رضي الله عنهما، واللَّه أعلم بصحتها، ولذلك أعرضنا عنها.

وهذا النذر للَّه من امرأة عمران فعل جميل يحبه اللَّه؛ فلذلك أثبته في وحيه تنويها بشأنها. ثم أخبر اللَّه عن حقيقة ما في بطنها فقال: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾، فهو السميع لمناجاتها، وهو العليم بما وضعته قبل وضعها إياه، فقولها: ﴿إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ ليس لإعلام اللَّه بما وضعت، وإنما هو للخوف علىٰ نذرها؛ إذ لم يقع موقعًا يعتد له؛ لأن النذر الذي يستعمل لهذا الغرض لا يكون في العادة إلا من الغلمان، وإلىٰ هذا يشير قولها: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ

كَٱلْأُنثَىٰ﴾، وكانت تقول ذلك لا على سبيل الإخبار، ولكن على سبيل التحسر والاعتذار. واللَّهُ سبحانه رحيم بها، ومستجيب لدعائها، ومتقبل منها ما نذرت، «والتقبل» هو أخذ الشيء بالرضا والقبول، وأصله المقابلة بالجزاء الحسن.

أما قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ جملة اعتراضية ساقها اللَّه سبحانه لتعظيم أمر المولود الذي ولدته، والإعلاء من شأنه، وكانت تجهل هي كل هذا، والتقدير: واللَّه أعلم بالشيء الذي وضعته وما علق به من عظائم الأمور، ودقائق الأسرار وواضح الآيات، وأنت عن كل ذلك غافلة.

﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾، أي أنها تحسرت عندما كان ما وضعته أنثىٰ؛ لأن الأنثىٰ لا تقوم بمثل ما يقوم به الغلام من دوام الخدمة والعبادة، وذلك لما يصيبها من عوارض الحيض ونحوه.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾، سميتها مريم تفاؤلًا بما نذرت له من العبادة؛ لأن معنىٰ «مريم» في لغتهم: العبادة. ثم عطفت الاستعاذة باللَّه علىٰ التسمية بصيغة المضارع، لتدل علىٰ استمرار طلبها الاستعاذةَ لمولودتها وذريتها من بعدها، وقد استجاب اللَّه لها فأعاذ مولودها ونسلها مما استعاذت منه.

فقد روىٰ الشيخان بسنديهما إلىٰ النبي ﷺ قال: **«ما من مولودٍ يُولدُ إلا والشيطان يمسُّه حين يولد، فيَستهلُّ مِن مسِّه صارخًا، إلا مريم وابنها»**[1].

والأحاديث في هذا الباب كثيرة، يرجع إليها في مكانها.

وقد طعن بعض المعتزلة بِهذه النصوص بتعليلات لا يجوز لمسلم أن يعارض النص بها، وقد زعموا أن هذه أحاديث آحاد، ومعلومٌ أن

---

(١) تقدم تخريجه.

تقسيم الأحاديث إلىٰ متواتر وآحاد بدعة كلامية، ولم تعرف في عصر الصحابة والتابعين، وإنما أتىٰ بِهذا المنطقيون وشغف بها المقلدون، ومن تدبر السنة المطهرة وجد عمل الصحابة والتابعين بأخبار الآحاد، عملًا ظاهرًا مشهورًا.

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾، أي تقبلها ربها علىٰ أحسن وجه تقبل به النذور. الباء للاختصاص، أي أن اللَّه خصَّها بالقبول، لتكون محل الغلام، وقيل: بمعنىٰ «مع» أي: تقبلها مع القبول الحسن لدعاء أمها، والأول أولىٰ وأجدر.

﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ يعني أن اللَّه رباها تربيةً حسنةً وتعهدها بما يصلحها في بدنها وعقلها، فكانت تشب شبابًا حسنًا في أحسن طلعة فينمو جسمها، وينضج عقلها في وقت مبكر، كما أنه صان لها عرضها من كل دنس.

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾، أي: ضمها اللَّه إليَّه، وجعله كافلًا لها، ومعتنيًا بتربيتها، وسيأتي معنا أن قومها ألقوا أقلامهم للاقتراع علىٰ كفالتها، وجاء ذكر ذلك في القرآن إجماليًّا، فهل كان تكفل زكريا لمريم نتيجة الاقتراع، أو أنه بأمر من اللَّه، ونحن نقف علىٰ ما أجمله اللَّه من تكفيله زكريا بتربيتها دون البحث بالطرق المؤدية لذلك، وإن كانت الروايات الإسرائيلية تثبت الاقتراع، وأنه وقع علىٰ زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وزكريا هو من ولد سليمان بن داود الذي يتصل نسبه بآل إبراهيم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾؛ هذا إخبار من اللَّه عن إكرامه لمريم بما يجريه سبحانه من أمور خارقة للعادة، فكلما دخل عليها زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ المحراب وجد عندها رزقًا يستغربه، حيث يجد عندها من الرزق ما لا يوجد في البلد.

فقد أخرج ابن جرير عن الربيع أن زكريا كان يجد عندها فاكهة

الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف. وروىٰ ابن عباس رضي الله عنهما أن ذلك من ثمار الجنة.

واختلفوا هل هو بعد الفطام أو هو عوضًا عن الرضاع، أو أن ذلك بعد ما شبت وترعرعت. ولا يعوَّل علىٰ اختلافهم في هذا؛ لأنه لا سند لأحدهم في قوله، ويكفي المسلم أن يؤمن بما أخبر اللَّه به.

والمحراب: موضع مخصوص من المسجد أو الكنيسة يختص به الإمام، لكنه في الزمن السابق كان له جدران تحوطه، وله باب خاص كالغرفة يتعبد به المتبتل إلىٰ اللَّه، وقد سُمي «محرابًا» لأن فيه محاربة للنفس والشيطان، وقيل غير هذا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾، قال ابن جرير الطبري: هي جملة مستأنفة من كلام اللَّه، وظاهر السياق أن اللَّه يحكيها عن مريم عليها السلام.

والمعنىٰ أنه يعطي من يشاء ما يشاؤه سبحانه بغير حساب مقدر ولا محدود، بل يبسط له ويوسعه عليه.

وقوله سبحانه في الآيات من (٣٨) إلى (٤١) من السورة: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٤١﴾:

يعني أن زكريا عليه السلام بعدما شاهد المعجزات الباهرة التي أكرم اللَّه بها مريم، طمع في الولد، ولكن طمعه لم يخرجه عن أهداف المؤمنين من طلبهم للذرية، فقد طلب الولد ليرث منه النبوة، وحسن الطوية، وطيب الأعمال.

وقد نادىٰ زكريا ربه بحرارة ولهفة وحسن تعليل لطلب الولد، حتىٰ جاءته البشرىٰ بذلك. وقد عبر عن طلبه بالهبة؛ لأنها محض إحسان في غير مقابلة شيء، وهذا من حسن الأدب مع اللَّه، وهذا هو الأنسب لحاله؛ لأنه طلب من اللَّه ولدًا في حالة عدم توفر أسباب ذلك، لشيخوخته وعقم زوجته.

وقد ختم دعاءه بالثناء علىٰ اللَّه مما يناسب الحال، قائلًا: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾، يعنىٰ الإجابة لمن يدعوك من خلقك. وقد استجاب اللَّه لزكريا دعاءه في الحال كما يدل عليه ظاهر اللفظ، وليس كما قال بعض المفسرين أنه كان بين الدعاء والإجابة أربعين سنة.

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾، أي أن جمعًا من الملائكة نادوا زكريا، وليس جبريل وحده؛ لأن لفظ الملائكة جمع يدل علىٰ أكثر من واحد، وكان نداء الملائكة له قبل أن يبرح المحراب الذي دعا ربه فيه؛ وكان نداء الملائكة بشارةً له بأن دعوته قد استجيبت.

ويحيىٰ اسم أعجمي علىٰ الصحيح، وقيل: إنه عربي منقول، يعني معرَّب، والقائلون بعربيته وجهوا ذلك بأن اللَّه أحيا به عقم أمه بعدما كانت عاقرًا، وبعضهم قال: إن اللَّه أحيا قلبه بالإيمان.

﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ كل هذه صفات كريمة لابنه المبشر به من اللَّه؛ فقد وصفه بأربع صفات:

١ ـ ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، والكلمة فيها قولان: قيل: إنه عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقيل: إنه الكتاب، يشهد لهذا قوله تعالىٰ: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]، ولا يبعد أن البشارة بالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ في الكتاب؛ فيكون المعنىٰ واحدًا.

والكلمة تطلق علىٰ الكتاب، والأنبياء يصدق بعضهم بعضًا، والتصديق إما أن يكون باللسان أو في الكتاب بأن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ كلمة

من اللَّه. وتسمية عيسىٰ «كلمة» لأن اللَّه أوجده بكلمة «كن» من غير واسطة أو سبب من الأسباب التي جعلها اللَّه للتناسل. فهو أول من آمن وصدق بأن عيسىٰ عليه السلام كلمة اللَّه وروح منه، وفي هذا إعلام للناس بِهذه الحقيقة.

٢ - ﴿وَسَيِّدًا﴾، والسيد هو من يفوق قومه بالعلم أو بالكرم والحلم ومختلف طرق الخير، فيسود بينهم بذلك.

و«السيد» في اللغة هو المالك الذي تجب طاعته، ثم استعمل في كل فائق علىٰ قومه في الدين أو الدنيا. ويجوز أن يكون المراد: سيدًا في قومه متبوعًا.

٣ - ﴿وَحَصُورًا﴾ وهو الذي يحبس نفسه ويمنعها مما ينافي الفضل والكمال اللائق بها، ومن ذلك أنه لا يأتي النساء ترفعًا عن الانقياد للشهوة والنزول إلىٰ مستواهن في نيلها، ولذا أطلق عليه اسم الحصور؛ فإن الحصور يطلق علىٰ الممتنع عن النساء، وعلىٰ الكتوم للأسرار.

وقد ذكر بعض المفسرين في فقدان يحيىٰ لآلة الرجولة، أو نقصها عنده، وليس هذا بصحيح؛ إذ لو صح هذا الكلام لما كانت هذه الصفة «حصورًا» صفة مدح، ولا خرج الكلام مخرج المدح؛ لأن ما قالوه يعتبر عيبًا لا يجوز حصول مثله في الأنبياء. وعلىٰ تقدير أنه ليس بعيب، فإنه ينتفي عنه المدح؛ لأن امتناعه عن النساء عندئذ ليس عن مجاهدة نفس وترفع، بل يكون عن عدم دافع، فيصير كالمحجوب عن هذه الشهوة لفقدانها بتاتًا أو نقصها.

٤ - ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي أنه معدود في الأنبياء، وناشئ منهم فهو ذو نسب نبوي، ووظيفة نبوية، فيلزم من ذلك عصمته ونزاهته.

والتنصيص علىٰ صلاحه بقوله: ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يراد منه ما فوق الصلاح المعهود، وهو الصلاح الفائق المناسب لمنصب النبوة.

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾، لم يكن سؤال زكريا عليه السلام عن شك منه في حصول مطلوبه من اللَّه عز وجل، بل كان سؤال تشوق واستطلاع للحقيقة، ليطمئن قلبه عن كيفية هذه الاستجابة، هل يأتيه الولد هو وزوجته علىٰ هذه الحالة، أو يحولهما اللَّه إلىٰ حالة أخرىٰ تلائم الإنجاب، أم أن اللَّه سيأمره أن يتزوج غير زوجته العجوز؟.

وجاء سؤاله علىٰ وجه التواضع والتذلل للَّه سبحانه، والتضرع إليه، وذلك حيث وجه الخطاب إلىٰ ربه مباشرةً دون أن يخاطب الملائكة الذين نادوه بالبشارة في محرابه، فجاءه الجواب القاطع من اللَّه فاطمأن قلبه به: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ سواء كان الأمر بواسطة سبب من الأسباب الكونية التي رتبها اللَّه، أو من غير سبب؛ فإنه سبحانه لا يستعصي عليه شيء أبدًا.

وهذا جواب مجمل من جهة، ومطلق من جهة أخرىٰ، فمجمل لم يوضح فيه السبب الذي يحصل من طريقه الولد، ولكنه مطلق من جهة قدرة اللَّه النافذة. ولما كان الجواب مجملًا لزكريا ـ وهو شديد الشوق واللَّهفة إلىٰ الولد ـ سأل اللَّه سبحانه مرةً ثانيةً أن يجعل له علامةً يعرف بها علوق الولد؛ لأنه شيء خفي لا تظهر حقيقته إلا بعد شهور: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾، فهو يطلب من اللَّه علامةً عاجلةً يفرح بها وتقر عينه، وهذا من عجلة بني آدم، ولكنها ليست عيبًا ولا ذنبًا، ولو كانت كذلك لعاتبه اللَّه عليها، وهذا لم يكن.

والذي كان هو الجواب العاجل علىٰ سؤاله، حيث قال اللَّه له: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾، وظاهر هذه الآية حبس لسانه عن مكالمة الناس، فلا يحدثهم إلا رمزًا، أي بالإشارة بعينه أو بحاجبه أو بيده أو شفتيه، وهذه معجزةٌ له وليست عقوبة ولا مرضًا كما حكىٰ بعضهم مما ورد في التفاسير من الإسرائيليات.

وقال بعض المفسرين: إن هذا أمر له بالصمت عن كلام الناس، وألَّا يحرك لسانه إلا بذكر اللَّه، وعلىٰ هذا فلا يكون صمته آيةً؛ لأنه صمت باختياره، والأولىٰ أن يكون صمته بغير اختياره لتحقق المعجزة الإلهية، وانطلاق لسانه بالذكر والتسبيح ليكون عونًا له علىٰ شكر اللَّه لما أنعم عليه من الإكرام بالولد؛ استجابةً لدعوته وتحقيقًا لمطلبه.

وقوله سبحانه في الآية (٤٢) من السورة: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾:

هذا استطراد وتكملة للمزايا التي اصطفىٰ اللَّه بها آل عمران، وهذه الجملة من الآيات معطوفة علىٰ الجملة السابقة، عطف القصة علىٰ القصة.

والمناسب بينهما أن الأولىٰ مسوقةٌ لشرح حال الأم التي هي امرأة عمران، والقصة هذه لشرح حال البنت. والمعنىٰ: أن من شواهد اصطفاء هؤلاء الكرام قول الملائكة لمريم عليها السلام: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾، يعني اختارك بادئ الأمر، فلطف بك، وميزك علىٰ كل محرر، حيث تقبلك لما نذرت له وأنت أنثىٰ، وخصَّك بالكرامات السنية.

وكان هذا الخطاب لها مشافهةً من اللَّه كما يدل ظاهر الخبر، لا كما ذكر بعض المفسرين من أن ذلك كان إلهامًا. ولا يلزم من خطاب اللَّه لها من خطاب الملائكة لها أن تكون نبية؛ لأن اللَّه حصر النبوة بالرجال حيث قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

أما الملائكة فقد خاطبوا من ليس نبيًّا بالإجماع، كما وردت الأحاديث الصحيحة بأنهم كلموا من زار أخًا له في اللَّه. ولكن

خطاب اللَّه لها كان إكرامًا وأمرًا خاصًّا خارقًا للعادة، وإلىٰ هذا يشير قوله ﷺ: «**كمُل من الرجال كثير، ولم يكمُل من النساء إلَّا مريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون**»[1].

وقوله ﷺ: «**خيرُ نساء العالمين أربع: مريمُ ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم ـ امرأة فرعون ـ، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد**»[2].

وحديث ابن عباس رضي الله عنهما: «**أفضلُ نساء أهل الجنة خديجةُ بنت خويلد، وفاطمةُ بنت محمد، ومريمُ بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون**»[3].

وحديث آخر: «**سيداتُ نساء أهل الجنة بعد مريم، فاطمة وخديجة**»[4].

وفضل مريم شهد به اللَّه سبحانه، ونصُّه القرآن، وهو عام إلىٰ قيام الساعة، وليس فضلها علىٰ نساء زمانها؛ بل علىٰ جميع نساء العالمين، باستثناء بنات النبي ﷺ فإنَهن بَضعةٌ منه، وخصوصًا فاطمة الزهراء رضي الله عنها.

وقد أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**خير نساء رِكِبن الإبل نساءُ قريش، أحناه علىٰ ولدٍ في صغر، وأرعاه علىٰ بعلٍ في ذات يده، ولو علمتُ أن مريم بنت عمران ركبت بعيرًا ما فضَّلتُ عليها أحدًا**»[5].

وهذه الأحاديث السابقة لا يعارض بها ما قلناه من أفضلية فاطمة الزهراء وأخواتها، لجواز أن يراد بها أفضلية مطلقة من بعض الجهات، ومقيدة بحيثية من الحيثيات، فيجمع بين الآثار السابقة.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٣٣)، ومسلم (٢٤٣١).
(٢) رواه أحمد (١/٢٩٣).
(٣) رواه أحمد (١/٤٨٢).
(٤) رواه الطبراني في «الكبير» (١١/٤١٥).
(٥) رواه البخاري (٣٤٣٤)، ومسلم (٢٥٢٧).

وقوله سبحانه: ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ أي: طهَّرك مما يعتري بنات آدم من دم الحيض والنفاس ونحوه تطهيرًا حسيًّا، وطهرك تطهيرًا معنويًّا بالصفاء في العقيدة، والنقاء من الذنوب. ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولقد تقدم توضيح التفضيل بالاختيار علىٰ نساء العالمين. وقد ورد ذكر الاصطفاء في هذه الآية مرتين، وزيادة المبنىٰ تدل ـ في الغالب ـ علىٰ زيادة المعنىٰ.

والاصطفاء الأخير غير الاصطفاء الأول، فالأول اصطفاء الولاية من تقبُّلِ اللَّه لها وهي أنثىٰ، ومن رعايتها بالتربية حتىٰ أنبتها نباتًا حسنًا في الخلق والخلق. وأما الاصطفاء الثاني فهو الاصطفاء لولادة عيسىٰ الذي زادها علو منزلة بنبوة ابنها، وكونها حملته من غير أب، ونطقه ببراءتها ورسالته وهو طفل.

وقوله سبحانه في الآية (٤٣) من السورة: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾:

لا خلاف أن المنادي هنا هم الملائكة، وقد أمروها بفعل ثلاثة أفعال وهي من أهم هيئات الصلاة؛ إذا اعتبرنا القنوت داخلًا فيها أي بمعنىٰ الخشوع، أو السكوت كما فسره بعضهم، وإن اعتبرنا القنوت بمعنىٰ الطاعة ـ كما هو قول الشعبي وجابر بن زيد، وعطاء، وسعيد بن جبير، والضحاك، والحسن ـ فهو أمر منفصلٌ عن الصلاة، وشامل لجميع الحالات، وهذا أحسن معانيه وأصحها، ولذا فلا داعي للاستطراد في آراء المفسرين واختلافهم في معنىٰ القنوت. وعلىٰ القول بأن معنىٰ القنوت الطاعة؛ فتكون الملائكة قد أوصوا مريم أولًا بوصية عامة، وهي مداومة الطاعة بجميع أنواعها، ثم أمروها بأفضل أنواع العبادة وأشرفها ـ وهي الصلاة ـ، وخصوا من هيئاتها الركوع والسجود لشرفهما وعظيم أهميتهما، وقدموا السجود علىٰ الركوع؛ لأن المصلي أقرب ما يكون للَّه وهو ساجد، فالسجودُ أفضلُ أركان الصلاة.

قد استجابت مريم لأوامر ربها؛ فكانت تداوم على العبادة، وتطيل فيها كما روى ابن جرير عن الأوزاعي قال: «كانت مريم تقوم حتى يسيل القيح من قدميها».

وأخرج ابن عساكر في هذه الآية عن سعيد قال: «كانت مريم تصلي حتى تورَّمُ قدماها».

وقال المحققون: إن تعريض الملائكة لمريم بعنوان الربوبية في قولهم: ﴿ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾ هو للإشعار بعلة وجوب الامتثال لأوامره سبحانه وتعالى. وأما تقديمهم هذه الأوامر على البشارة، فلكمال التربية الروحية، ولتكون على حالٍ تتناسب مع فيضان الروح عليها. وقولهم لها: ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ ـ بعد الأمر بالسجود الذي يهدف إلى الصلاة ـ هو للتأسيس لا للتأكيد، إذ فيه زيادة أمر الركوع مع الراكعين، ويقصد به على أصح الأقوال صلاتها مع الجماعة.

فقال بعضهم: تقتدي بالجماعة وهي في المحراب، فلم يوجب عليها الخروج منه لكونها شابة، وقال بعضهم: إنها مأمورة بالصلاة مع الجماعة لكون الذين تصلي معهم ذوي رحم وقرابة، ولذلك اختصموا في ضمها وكفالتها، كما سيأتي النص في ذلك.

📖 **وقوله سبحانه في الآية (٤٤) من السورة:** ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

أي أن الذي مضى ذكره من قصة امرأة عمران وزكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهم السلام، هو من الغيبات عنك يا محمد، وعن قومك حسًّا وإخبارًا، فلا يمكنك معرفته قطعًا، إلا بالوحي الذي أكرمناك به وجعلناه حجة لك.

✍ **وفي هذه الآية مسائل:**

١ ـ لماذا سُلط النفي في الآية على مشاهدته ﷺ وهي منتفية بغير

شك، ولم يسلط علىٰ العلم والسماع الذي هو موهوم؟

والجواب علىٰ هذا السؤال: أن المشركين كانوا يعلمون بأن محمدًا ﷺ أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، وكانوا ينكرون أنه يوحىٰ إليه، فلم يبق طريق لمعرفة أخبار الأمم السابقة إلا طريق المشاهدة المستحيلة، فنفاها اللَّه علىٰ سبيل التهكم بالمنكرين للوحي، مع علمهم اليقين بأنه ليس هناك سماع ولا قراءة، فهذا أكبر شاهد علىٰ صحة نبوته وصدقه فيما أخبرهم به من وحي اللَّه.

فالنبي ﷺ يتلقىٰ بوحي اللَّه ما غاب عنه من أخبار الماضين الذين بينهم وبينه ما يقارب سبعة قرون، ممَّا يستحيل عليه معرفة أخبارهم فضلًا عن حضوره عندهم، ومشاهدته لهم حين يلقون أقلامهم للاقتراع في كفالة مريم، والاختصام في ذلك، فهذه معجزة لهم، تُفحم المكذبين له من قومه وتخرسهم، وتزيد في إيمان المؤمنين به.

٢ ـ «الأنباء» هي الأخبار الخفية التي لا تشيع، ولا تصل إلىٰ كل إنسان؛ لأن أصلها سر من الأسرار؛ فبينها وبين «الأخبار» فرق؛ لأن الأخبار تعني نقل المعلومات من جهة إلىٰ جهة، وأما الأنباء فهي مختصة بمعرفة الأسرار، ولهذا سمي الإعلام بالأحوال الغيبية: نبأً، وإنباءً.

٣ ـ الوحي يطلق علىٰ معانٍ كثيرة؛ أشهرها ما يوحيه اللَّه إلىٰ رسله بواسطة الملائكة، وأشهرهم جبريل، والإلهاء من أنواع الوحي، ولا يعول علىٰ من ادعاه بعد عصور الخلفاء الراشدين الأربعة رضي الله عنهم.

٤ ـ فسَّر بعض العلماء الأقلام الواردة في الآية السابقة بالسهام، لمشابَهتها لها في بريها، ولٰكني لا أجيز العدول عن ظاهر القرآن الذي ينص علىٰ لفظ «الأقلام»، كما أنه لا مانع من استخدام الأقلام لغير الكتابة كالاقتراع.

٥ ـ كما اختلف العلماء في السبب الذي أدىٰ بهم إلىٰ المخاصمة

والاقتراع لكفالة مريم عليها السلام، فقيل: لسيادة أبيها عليهم، وقيل: لكونها محررة لعبادة اللَّه، وقيل: لأنهم توقعوا أن يكون لها مستقبلًا عظيمًا.

ونحن نقف عند حدود النص، ولو كانت معرفة السبب فيها فائدة لنا لأخبرنا بها اللَّه تبارك وتعالى، فلا داعي للخوض في معرفتها، ولسنا مطالبين بذلك.

٦ ـ استدل بعض العلماء بِهذه الآية علىٰ جواز القرعة، معتمدًا علىٰ أن شرع من قبلنا شرعٌ لنا ما لم يأت شرعنا بخلافه، وكأنهم نسوا ـ أو ذُهلوا ـ أن القرعة لها أصل في شرعنا وهي مسنونة! وقد عمل بالقرعة ثلاثة من الأنبياء: يونس، وزكريا، ونبينا محمد ﷺ، وهو القدوة لنا في ذلك، وقد صح الخبر عنه ﷺ أنه كان إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه؛ فأيتهن خرج سهمها سافرت معه ـ كما ذكره البخاري رحمه الله[(١)] ـ.

وقوله سبحانه في الآية (٤٥، ٤٦) من السورة: **﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾:**

تتابع الآيات ذكر كرامة اللَّه لآل عمران، وظاهرُ الآية أن القائلين جمعٌ من الملائكة، إلا أن بعض المفسرين أفرد الجمع بجبريل عليه السلام اعتمادًا منهم علىٰ قوله سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧]. ويمكن الجمع بين القولين دون عدول عن الظاهر، فيقال: إن جمعًا من الملائكة قاموا بتبشيرها، وأما الذي تولىٰ النفخ في درعها فواحد وهو جبريل عليه السلام.

و﴿إِذْ﴾ المضافة إلىٰ ما بعدها في الآية بدلٌ من نظيرتها السابقة،

---

(١) رواه البخاري (٢٥٩٣)، ومسلم (٦٢٤٨).

بدلُ كلٍّ من كلٍّ، أو بدلُ اشتمال، ولا يضر الفصل بينهما، والتقدير: «وما كنت لديهم إذ قالت الملائكة...».

﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ سُمي عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بذلك؛ لأنه خلق من غير أب؛ بل بواسطة كلمة «كن» ـ كما بيناه سابقًا ـ.

﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ للمسيح عدة معانٍ؛ أشهرها أنه ممسوح من الأوزار والآثام، أو لأن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ مسحه عند ولادته من مس الشيطان، أو لأنه خرج من بطن أمه ممسوحًا بالدُّهن، أو لأنه كان يمسح الأرض ـ أي يقطعها ـ. والأقوال في ذلك كثيرة.

والمسيح معرَّب، وأصله في العبرانية «مشيخ» بالشين المعجمة، ومعناه الممسوح، وهو لقب عندهم للملك؛ لأن الكاهن يمسحه بالدهن المقدس عند توليه الملك. وقد اشتهر عند بني إسرائيل أن أنبياءهم كانوا يبشرونهم بمسيح يظهر منهم، وكانوا يعتقدون أنه ملكٌ يُعيدُ إليهم ما فقدوا من سلطانهم، فلما أُظهر عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وسمي بالمسيح؛ آمن به قوم لاعتقادهم السابق، وقد جعل اللَّه فيه البركة، فرفع عنهم مهانة الظلم، وأثقال التكاليف التي أرهقهم بها كهنة اليهود.

وأما اسم عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فأصله بالعبرانية: «يشوع»، ومعناه عندهم: السيد والمسيح، وهما من الألقاب المشرفة كالفاروق والصديق. وقد نسب إلىٰ أمه؛ لأنه لا أب له، وهذه النسبة تفيد زيادةَ فضله، وعلو درجته.

﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ الوجيه: ذو القدر والجاه والشرف في الدنيا، أما في الآخرة فهو وجيه بعلو منزلته ورفعة درجته عند اللَّه عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ عند اللَّه سبحانه؛ حيث أنزله منزلة الملائكة، وإنما زاد هذا الوصف؛ لأنه ليس كل وجيه يكون مقربًا.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾، يعني أنه يكلم الناس وهو رضيع في حجر أمه ممهد لشدة ضعف بدنه وعدم تماسك أعضائه، ثم

يكلمهم وهو كهل مكتمل الشباب، قد انتهىٰ شبابه إلي حد المشيب، وبعضهم يعبِّر بالكهولة عن التناهىٰ في الحسن والكمال، والأول أصح؛ ويطلق الكهل علىٰ من عمره بين الثلاثين والأربعين.

﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وقد ختم اللَّه صفات عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه من الصالحين، وتلك أعظمُ الصفات وأشرفها علىٰ الإطلاق، فلا ينال الصلاح إلا من واظب علىٰ النهج الأصلح، بتنفيذ أوامر اللَّه في الأصول والفروع.

وقوله سبحانه في الآية (٤٧) عن مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ: ﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾:

هو إخبار من اللَّه عن استفسار مريم لما بشَّرتها الملائكة بما هو غير مألوف من التوالد البشري، فسألت متعجبةً مستغربةً: كيف يتم هذا ولم يمسسها بشر؟! أيكون ذلك بواسطة بشر تتزوجه، وهي غير راغبة حتىٰ لا يشغلها عن عبادتها؟ أم يبتدئ اللَّه خلقه فيها من غير زوج؟ وكانت تخاطب ربها متخطيةً جبريل الذي بشرها، لقوة صلتها باللَّه وخوفها من جبريل الذي عبَّرت عنه بقولها: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ [مريم: ١٨]، فأجابها اللَّه بواسطة الملك، وقيل: بلا واسطة، وعلىٰ أي حال فقد أجابها اللَّه بالإعلام أن له سنةً أخري في الإبداع والاختراع، إذا أراد إيجاد شيء فإنه يوجده علىٰ خلاف السنة المألوفة التي ربط فيها الأسباب بالمسببات، فقال سبحانه لها: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، وجاء التعبير بلفظ: ﴿يَخۡلُقُ﴾، وفي بشارة زكريا بلفظ ﴿يَفۡعَلُ﴾ ـ وإن كان كل منهما خلقٌ وفعل في معنىٰ ما يؤول الأمر إليه ـ، لكن لفظ «الفعل» يستعمل كثيرًا فيما يجري علىٰ وفق الأسباب المعروفة المألوفة، ولفظ «الخلق» يستعمل في الإبداع والإيجاد علىٰ خلاف الأسباب.

ولما كان إيجاد اللَّه ليحيىٰ جاريًا بين زوجين - كإيجاد سائر الناس - عبر عنه بالفعل، فقال لأبيه زكريا: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾، وإن كان في ذلك آية من جهة كبر سنه، وعقم زوجته، بخلاف إيجاد عيسىٰ؛ فإنه علىٰ خلاف المعهود - حيث لا أب له - عبر عنه بالخلق في قوله تعالىٰ لأمه: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

وقوله تعالى في الآية (٤٨) من السورة: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

هذا إخبار من اللَّه لمريم عما هو فاعل بابنها عيسىٰ الذي بشرها به من الكرامة ورفعة المنزلة، وما يحتجُّ به علىٰ بني إسرائيل من البراهين الساطعة والمعجزات الناطقة بصحة رسالته. وقد ابتدأ اللَّه ذلك بذكر أمور أربعة معطوف بعضها علىٰ بعض؛ هي: ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾؛ يعني أن اللَّه سبحانه يعلمه الكتاب، أي الخط الذي يكتبه بيده، والحكمة التي هي العلم الصحيح الذي ينور اللَّه به بصيرته، فيصبح بها صالح القلب، مسدَّد الأقوال والأفعال، بصيرًا بأسرار المسائل وفقه الأحكام.

ومن هنا يعلِّمه التوراة التي هي كتاب موسىٰ؛ لأنه علمه الحكمة من قبل، فيبين أسرارها لقومه، ويقيم عليهم الحجج بواسطتها وعلىٰ ضوئها، ويوضح لهم ما حادوا به عن نصوصها، وما جهلوا من معانيها فوضعوه في غير موضعه، أو حرفوه علىٰ عمد، وهذا سرُّ تأخير تعليمه سبحانه لعيسىٰ التوراة عن تعليمه الخط والحكمة.

أما مجيء الإنجيل بعد التوراة وما قبلها من العلوم، لأنه وحي جديد من اللَّه يحتاج إلىٰ تأهيل، وقد كان.

واعلم أنه قد قرأ نافع وعاصم: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بالياء، وقرأ الباقون ﴿وَنُعَلِّمُهُ الكِتَابَ﴾ بالنون.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، فيها وجوه عدة:

١ ـ معناها: ونعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، ونبعثه رسولًا إلىٰ بني إسرائيل قائلًا: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ لأن الحذف يحسن إذا لم يُفضِ إلىٰ الاشتباه، وهذا هو الأجدر بالمعنىٰ.

وقال الزجاج بالإضمار، وقال الأخفش بحذف الواو. وقد أسلفنا أن القول بالحذف لا يحسن في القرآن.

٢ ـ تدلُّ هذه الآية أن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ رسول اللَّه إلىٰ جميع بني إسرائيل، لا إلىٰ قوم مخصوصين، كما يزعمه بعض المكذبين به من اليهود.

٣ ـ المراد بـ«الآية»: الجنس المتعدد من الآيات «المعجزات» لا آية واحدة، وإنما أنواع عديدة، فقد تقرر في الآية خمس معجزات.

الأولى: أن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كان يصور لقومه صورًا علىٰ هيئة الطير بتقدير وترتيب، وليس علىٰ سبيل الإنشاء والاختراع؛ لأن هذا من خصوصيات الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا هو القصد من قوله: ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم﴾، ثم ينفخ فيما صوره من الطين كهيئة الطير فتدب فيه الروح، فيتحرك حركات الطير الكاملة. ولعل اللَّه جعل في نفخ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ سرًّا من أسرار نفخة الروح الأمين التي خُلق منها بأمر اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقد قام عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بتركيز العقيدة الإسلامية بقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، أي أني لا أفعل ذلك من تلقاء نفسي، وأن الحياة التي تدب في هذه الصور الطينية فتكون طيرًا هي بإذن اللَّه وتأثيره، ليس لي فيها سوىٰ تنفيذ ما أمرني اللَّه به. ولا يعدو هذا الأمر أن يكون وسيلةً من اللَّه لإبراز هذه المعجزة لتكون آية له وحجة علىٰ قومه.

وقد اختلفوا هل كان ذلك التصوير للطين بطلب من قومه، أم لا؟

فذهب الأكثر إلىٰ أنه حصل بطلب قومه، جريًا علىٰ عادتهم في مرائهم مع أنبيائهم.

الثانية، والثالثة، والرابعة من معجزات عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ قوله: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾:

﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾ فيه أقوال، أرجحها: أنه الذي يولد أعمىٰ، أو يولد ممسوح العين، لم يُشَق بصره ولم يخلق له حدقة، وقد قيل: إنه لم يوجد في هذه الأمة من هذا النوع إلا قتادة بن دعامة السدوسي - صاحب التفسير -؛ فلعل كثرة هذا النوع في الأمم التي قبلنا، واللَّه أعلم.

وأما «البرص» فهو المرض المعروف، وهو داء في الجلد، وقد يكون هذا المرض أصيلًا في الخلقة، أو داء عارضًا، وأكثر ما يعرض من التخمة المنهي عنها.

وتخصيص ذكر إبراء عيسىٰ لهذين المرضين لا يدل علىٰ قصر علاجه عليهما، ولكن لصعوبة علاجهما، فإنهما من الداء العضال الذي أعجز حذاق الأطباء، وذكرهما يدل بطريق الأولىٰ علىٰ إبراء عيسىٰ ما دونهما من الأمراض، وكان يعالجهم بالعلاج الروحي العظيم، لا الأدوية المادية.

وهذه المعجزات مناسبات لقومه؛ لأنهم أهلُ شغف بالطب، فجعل اللَّه معجزة عيسىٰ من جنس ما يزاولونه، ليتفوق عليهم بعلاج ليس من بضاعتهم الأرضية المادية، وإنما هو من بضاعة السماء. وإن الأدوية المادية لتتلاشىٰ أمام العلاج الروحي، فكم من مدنف[1] قرر الأطباء استحالة حياته، ووقَّتوها بزمن قصير، فلجأ هو وأهله إلىٰ العلاج الروحي، فابتهلوا إلىٰ اللَّه، فحصل الشفاء في ليلة أو عدة ساعات.

---

(١) مدنف: مريض.

أما «إحياء الموتي» فهو ليس في وسع البشر أبدًا، مهما تطور علمهم واتسع في مجال الطب والتشريح، لذا فإن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يضف إحياء الموتىٰ لنفسه علىٰ الإطلاق؛ بل قيده بإذن اللَّه، والقيد هذا يشملُ إبراء الأكمه والأبرص ـ أيضًا ـ.

وذكر أهل التفسير أن عيسىٰ أحيا عددًا من الأموات؛ منهم من أحياه علىٰ طراوته، ومنهم من أحياه بعد تقادم العهد. ولا يشك مسلم في ذلك أصلًا ما دام الإحياء بأمر اللَّه وقدرته.

أما الآراء التي أوردوها في ذلك ـ من تسمية الأموات الذين أحياهم بالتخصيص ـ؛ فهي ليست موصولة بسند عن المعصوم ﷺ، ومن أوجهها ما أخرجه محيي السنة الإمام البغوي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «قد أحيا عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أربعة أنفس: عازر، وابن العجوز، وابنة العاشر، وسمام بن نوح». ونحن نؤمن بأصل الإحياء كما أفاد بذلك القرآن، أما هذه الآثار فلا نصدقها ولا نكذبها؛ لأنها لم تصل إلينا بطرق ثابتة.

الخامسة: قوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾، أي أنه يخبر بأشياء من الغيب تدل علىٰ نبوته، فهو يخبر قومه بمقدار ما أكلوه، ومقدار ما ادخروه، بناء علىٰ سؤال السائل.

وهكذا تأتي معجزات الأنبياء علىٰ الوجه الذي لا يقدر غيرهم عليها، ولا تلتبس بالشعوذة، ولا يعتمدون في أخبارهم علىٰ مادة أو وساطة، كما هو معروف في علم الجبر وعلم الفلك المقرونين بضوابط وأصول معينة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، الظاهر أن هذه الجملة من كلام عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لأنها جاءت بين كلام قد حكاه اللَّه عنه. والمعنىٰ: أن ما تقدم ذكره من المعجزة آيةٌ نافعة وهادية لكم إن آمنتم بها، ومثبتة لإيمانكم بعد حصوله.

وقوله سبحانه في الآية (٥٠) من السورة، حكايةً عن عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾:

هذه سنة اللَّه الشرعية في أنبيائه ورسله، أنهم يصدق بعضهم بعضًا، ويؤيد بعضهم بعضًا، كطريقة أهل الحق، بخلاف أهل الباطل الذين تتناقض مذاهبهم، وتتعارض مشاربهم؛ فعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء داعيًا للإيمان بالتوراة التي بشرت به، فهو مصدق لها عامل بمقتضاها، ولم يكن ناسخًا لها، وإنما جاء لإحلال بعض ما حرم اللَّه فيها علىٰ بني إسرائيل، تيسيرًا لهم، وتخفيفًا عليهم، كما في قوله تعالىٰ حكاية عنه: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ﴾؛ فقد حرم اللَّه في شريعة موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ من الطيبات علىٰ بني إسرائيل بسبب ظلمهم وكثرة سؤالهم، كتحريم لحوم الإبل، وشحوم البقر والغنم، إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم، وكتحريم بعض السمك والطير، هذا بالنسبة لما حرمه اللَّه، أما ما حرمه الأحبار علىٰ الناس، فإن عيسىٰ ﷺ نقضه برمته.

﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، هذا تكرار للتأكيد، ويعطي معنىٰ آخر وهو: أني جئتكم داعيًا إلىٰ ما دعا إليه جميع الأنبياء والمرسلين قبلي، من التوحيد الخالص اللَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، أي: اجعلوا لأنفسكم وقايةً من عذاب اللَّه بطاعتي وعدم مخالفتي، فإن طاعتي طاعة للَّه. وهذه الوصية من عيسىٰ هي وصية اللَّه في خلقه أجمعين، ودارت علىٰ ألسن الأنبياء أجمعين.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الآية (٥١) من السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾:

شرع عيسىٰ بالدعوة إلىٰ اللَّه، وابتدأ كلامه بقول مجمل، فإن الجملة الاسمية المؤكدة بـ«إن» تفيد استكمال القوة النظرية بالاعتقاد

الحق الذي غايته التوحيد، ﴿فَٱعۡبُدُوهُ﴾ إشارةً إلىٰ استكمال القوة العملية، وهي ملازمة الطاعة للّه ﷻ. وتعقيب هذا الأمر بقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ تقرير لما سبق من أن ما دعوتكم إليه من العبادة والطاعة هي صراط اللّه المستقيم الواجب سلوكه علىٰ أتباع الرسل كافةً، وهو الجمع بين الأمرين: الاعتقاد الصحيح بالوحدانية، والعمل الصالح، وهذا هو الطريق المشهود له بالاستقامة.

والآية هذه فيها براءة عيسىٰ من دعوىٰ الربوبية والألوهية والبُنوَّة للّه، وإثبات لعبوديته للّه ﷻ، وأنه بشر كسائر البشر، فقد قال لبني إسرائيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾، وأن من اعتقد فيه غير العبودية والرسالة، فهو مجانب للطريق المستقيم، الذي يرضاه اللّه ﷻ.

📖 **وقوله تعالى في الآية (٥٢، ٥٣) من السورة:** ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ۝٥٢ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٣﴾:

الإحساس عبارة عن وجدان الشيء بالحاسة، وذلك أنهم لما تكلموا بالكفر أحس بسوء النتيجة إحساسًا لا شبهة فيه، ولذلك طلب النجدة ممن آمن به قائلًا: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، يعني: من أنصاري في اللّه، أو للّه، أو من ينصرني ليكون من حزبي، الذين عندهم استعداد لمشاركتي في الدعوة، والتحمل في سبيلها، والدفاع عنها لذات اللّه لا لغرض آخر، وهذا أصح التفاسير.

والحواريون جمع «حواري» بمعنىٰ الخاصة، يعني خاصته وأصحابه وناصروه، وأصله من التحوير أي التبييض، ومنه الخبز الحواري الذي يكرر نخلُ دقيقِه مرةً بعد أخرىٰ، ويقال لنساء المدن الحضريات: حواريات؛ لما يغلب عليهن من البياض لعدم البروز إلىٰ الشمس.

ويطلق الحواري على القصَّار[1]؛ لتبييضه الثياب. فالحواريون هم خاصة أقوام الأنبياء، وصفوتهم؛ لبياض سرائرهم، وصفاء قلوبهم بقوة إخلاصها ومحبتها وسلامتها من كل شائبة.

وليس الحواري في اللغة جمعًا ككراسي ـ على ما توهمه بعضهم ـ، بل هو مفرد منصرف، كما ذكر المحققون.

وفسَّر بعضهم الحواريين بالمجاهدين، فإن أريد به الجهاد الخارجي الحربي فلا يستقيم؛ لأن عيسى لم يؤمر بالقتال، وإن أريد به جهاد النفس، كان تفسيرًا حسنًا.

وقد استشكل طلب عيسى من خاصته النصر وهو غير مأمور بالجهاد، وزاد الإشكال ما نصت عليه هذه الآية: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]. وأجيب عن هذا بأنه لما رأى عيسى أعداءه اليهود يريدون قتله استنجد بأتباعه وخاصته للقتال دون النفس، كما قاله الحسن ومجاهد، ولم يستنجد بهم على القتال للدخول في الإيمان.

والمراد بقوله: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤] أنه كان تأييدًا من حيث أن اللَّه أبطل مكرهم، ورد كيدهم في نحورهم، وجعلهم يقتلون صاحبهم الذي ألقى اللَّه عليه شبه عيسى.

وقولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ كتعليل لاستجابتهم لنصرة عيسى لما استصرخهم لتأييده، أي أنهم نصروه؛ لأنهم آمنوا باللَّه وصدقوا برسالة عيسى، والنصرة من لوازم الإيمان، وإلا فما قيمة إيمانهم؟.

وقولهم: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، فيه تصريح بأن الإسلام هو دين اللَّه، الذي ارتضاه للبشر، والذي ابتعث به عيسى عليه السلام وجميع الأنبياء قبله. كما أن هذا يعتبر طلبًا من الحواريين، أن يشهد لهم عيسى بالإسلام يوم القيامة، حين تشهد الرسل لأقوامهم أو عليهم، وذلك إيذانًا منهم بأن غرضهم مفرد هو سعادة الآخرة ومرضاة اللَّه

(١) **القصَّار**: المعتني بالثياب.

ﷺ، ولهذا أتبعوا طلبهم بعرض حالهم على اللَّه تعالى، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٣﴾؛ مبالغةً منهم في إظهار أمرهم، ليستمطروا سحائب رحمة ربهم فيستجيب دعاءهم حيث قالوا: ربنا آمنا بما أنزلت على رسولك إيمانًا امتلأت به قلوبنا، ونطقت به ألسنتنا، وانقادت به جوارحنا، لامتثال أمر رسولك وطاعته، فلا نبالي بما يصيبنا في هذا السبيل، فإنَّ صدق إيماننا بعزتك يسهل علينا الوفاء بما التزمناه من نصرة رسولك، ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ الصادقين معك المصدقين لرسولك، وأثبت أسماءنا مع أسماء الذين شهدوا بالحق، وأقروا لك بالتوحيد، وصدقوا رسلك، وأكرمنا بما تكرمهم به من جزيل إحسانك وكرمك.

وقوله سبحانه في الآية (٥٤) من السورة: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾:

المكرُ في الأصل هو التدبير الخفي المفضي بالمكور به إلى ما ليس في حسبانه، وقد غلب استعمال المكر في التدبير السيئ؛ لأن التدبير في الإحسان لا يكاد يخفى. والمعنى: ومكر الذين أحس عيسى منهم الكفر، ولكن اللَّه خير الماكرين ﷻ؛ مكر بهم بتدبيره وتقديره الخفي الذي لا يقدر عليه أحد ولا يغالبه أحد.

وحقيقة المكر من اليهود: هو احتيالهم في طريقة اغتيال عيسى، ويسمى المكر في عرف أهل هذا العصر «مؤامرة». ويجوز إطلاق «المكر» على اللَّه ابتداءً بالمعنى اللائق بجلاله، كما أخبر به وارتضاه لنفسه بقوله سبحانه: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾، أي: هو خير الماكرين بالقوة والشدة، وإنفاذ المكر فيمن يمكر به، وهو سبحانه خير الماكرين بحسن العاقبة، فمكره الذي يخفى على الناس إنما يكون لإقامة سنته، وإتمام حكمه، وكلها خير في نفسها، وإن لم يفهمها كثيرٌ من الناس، أو قصَّروا في الاستفادة منها لجهلهم وسوء

تصرفهم، ففي مكر اللَّه خير للمؤمنين.

وليس المكر في حق اللَّه من المتشابهات الواجب تأويلها كما يقول أهل الكلام، وهو في حق اللَّه عدل وحكمة؛ لأن مكر اللَّه بالمنافقين والكافرين، هو إحباطُ كيدهم وإفساد مكرهم، وإفشال خطتهم، وقلب مقصودهم عليهم بعكس ما أرادوه، وهو إن سمي مكرًا أو خداعًا أو استهزاءً أو سخريةً ونحوها فمن باب الوصف بالمقابلة، وإلا فهو في حقيقته رحمة للممكور له وفضل ومنةٌ منه سبحانه، ثم هو عدل محض بالممكور به مجازاة له علىٰ خبث ضميره، وسوء صنيعه، وليس فيه أي مظلمة أوحيف كما يجري من طغيان المخلوقين بعضهم علىٰ بعض، وهذا كقوله ﷻ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورىٰ: ٤٠]، فمن المعلوم أن الأولىٰ صدرت سيئةً من صاحبها حيث كانت معصية للَّه، وأما الثانية فهي عدل محض من اللَّه جزاءً للعاصي علىٰ معصيته، فهما وإن اتفق لفظهما فإن معناهما مختلف جدًّا، وهذا المفهوم يشمل كل ما جاء من الآيات علىٰ هذه الشاكلة.

ولقد كان مكر اللَّه باليهود ـ كما ذكره السدي والمحققون من المفسرين ـ هو إلقاء اللَّه شبه عيسىٰ علىٰ بعض أعدائه حتىٰ قتله اليهود وهم يحسبونه عيسىٰ، ولكن اللَّه رفعه إليه، فهذا مكر اللَّه وتدبيره العظيم الغالب الذي خيب مساعيهم وردهم بغيظهم لم ينالوا خيرًا، وكفىٰ اللَّه أصحابه الدفاع عنه.

واعلم أنه لا يجوز تسمية اللَّه ماكرًا، ولا ساخرًا، ولا مستهزئًا، ولا زارعًا، ولا فارشًا، ولا بانيًا، ونحو ذلك مما لم يرد نص بتعداده في سلك أسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا؛ وذلك لأن أسماء اللَّه توقيفية من حيث إنه ﷻ ـ أيضًا ـ لا يوصف إلا بما نص الوحي بتسميته به، فما وصف نفسه به وجب علينا اعتقاده بلا تأويل، ولا تشبيه، ولا تعطيل، وأما الذي يرد في القرآن بصيغة الفعل، أو الخبر، عن المقابلة دون التنصيص علىٰ أنه اسم؛ فلا يجوز تسميته به.

وقوله سبحانه في الآية (٥٥) من السورة: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾:

هذا بيان شطر من مكر اللَّه بأعداء عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، والشطر الثاني في سورة النساء. والعامل في ﴿إِذْ﴾ هو ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ بالقوم الكافرين المكذبين لعيسىٰ حين حاولوا قتله، فتكون ﴿إِذْ﴾ صلة من قوله تعالىٰ: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ يعني: مكر اللَّه بهم حين قال لعيسىٰ: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾؛ كما قاله الطبري وغيره، وهذا القول من اللَّه لعيسىٰ بواسطة الملَك؛ لأن اللَّه لم يكلم عيسىٰ كما كلم موسىٰ تكليمًا، وهو كالبشارة من اللَّه تَعَالَىٰ يخبره عن مصيره الطيب، ورفعة مكانته هو وأتباعه.

أما قوله تعالىٰ: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ فهي وفاةُ نوم ليرفعه اللَّه فيها بلا إحساس بملابسات الرفع، التي يُحسُّ بها المستيقظ ويتأثر بها، فضرب عليه النوم ليأمن من ذلك كله، والنوم وفاة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠] فالمعنىٰ: إني منيمُك، ورافعك في نومك، وبهذا قال الربيع والحسن، وروي في ذلك حديث مرسل أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لليهود: «**إن عيسىٰ لم يمت، وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة**»(١).

وفي معنىٰ «التوفي» هنا أربعة أقوال متقاربة في التعبير، ومختلفة في المعنىٰ، وقول خامس مخالف للحقيقة وللسنة الإلهية، وهذه الأقوال هي:

١ ـ هو ما ذكرناه، أي أنها بمعنىٰ النوم.

٢ ـ الوفاة بمعنىٰ القبض؛ كما يقال: توفيت من فلان ما عليه من

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨٩/٣).

الدين، بمعنىٰ قبضته واستوفيته، قالوا: إن معنىٰ ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: قابضك من الأرض حيًّا إلىٰ السماء بغير موت، ورافعك من بين أعدائك الكافرين، وقد روىٰ ابن جرير في ذلك ستة آثار.

٣ - أن التوفي هو أخذ الشيء وافيًا، والمعنىٰ أن اللَّه قد رفع عيسىٰ جسدًا وروحًا وهذه هي الوفاة الكاملة، وهذا قطعٌ للظن، فلا مجال لقول قائل: إن اللَّه رفعه بروحه دون جسده.

٤ - في الآية تقديم وتأخير؛ لأن الواو لا تقتضي الترتيب، فالمعنىٰ: إني رافعك إليَّ، ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد إنزالي إياك في الدنيا، ومثل هذا التقديم والتأخير كثير في القرآن الكريم، كقوله تعالىٰ: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾ [الأعلىٰ]، والمرعىٰ يكون أحوىٰ قبل أن يكون غثاءً بمدة طويلة.

٥ - فهو قول مخالف للحقيقة وللسنة الكونية، وهو قول من قال: إن اللَّه أماته موتةً عادية ورفعه إلىٰ السماء.

ومخالفة هذا القول للحقيقة: تأتي من أن إماتة عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ شفاء لصدور أعدائه، فإماتة اللَّه له تكون إعانةً لأعدائه، وثُكْلًا لأمه، ومصيبةً علىٰ أنصاره الحواريين.

أما مخالفة هذا القول للسنة الإلهية: فتأتي من كون عيسىٰ سيذوق الموت مرتين، هذه المرة المزعومة، ثم مرةً ثانيةً بعد نزوله من السماء في آخر الزمان لقتل الدجال، والقيام بتنفيذ الشريعة المحمدية، وهذا مخالف لسنة اللَّه في خلقه، كما هو واضح.

وأقوىٰ الأقوال وأولاها بالصواب القول الأول والثاني، لثبوت الأخبار الواردة بنزوله من السماء مما يقرب من خمسين حديثًا، منها ما هو في الصحيحين. وقد انخدع الشيخ «شلتوت» بتلبيس القاديانية حول المسيح الموعود الذي ادعوه، فأفتىٰ بأن عيسىٰ مات موتةً عاديةً، وأنه لم يرفع إلىٰ السماء إلا روحه، وأنه لا ينزل إلىٰ الأرض، وأن من

اعتقد ذلك فهو مسلم مؤمن، وقد رد عليه عدد من المشايخ في مصر في حينها.

وقوله سبحانه: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني مخلصك منهم، ومطهرك من رجسهم، وقد جعلهم اللَّه قذرًا ونجسًا فطهره منهم؛ لأن مخالطة الكفار والفجار تعتبر بمنزل الدنس في الثوب ينبغي تطهيره، وكذلك صحبة الأشرار ومخالطة الكفار تنجس القلوب وتدنس الضمائر، حتىٰ يحصل من ذلك فساد في التصور، كما قال تعالىٰ في سورة التوبة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]، فحصر اللَّه وصفهم بذلك. وكما قال ﷺ: «**المؤمنُ لا ينجُس**»[١]؛ فجعل علامة طهارته الإيمان.

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، المعنىٰ: أن اللَّه جاعل المتبعين لعيسىٰ فوق الكافرين به ما دامت الدنيا، يعلونهم بالحجة والبرهان تارةً، وبقوة القهر والغلبة تارةً، والمتبعون له هم المسلمون أهل التوحيد الذي جاء به عيسىٰ والنبيون من قبله، وخاتمهم ﷺ الذي بشر به الإنجيل الصحيح.

﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ يعني أن مرجع الفريقين إلىٰ اللَّه، الفريق المؤمن بعيسىٰ وهم المسلمون، والفريق الكافر به وهم اليهود، ومن علىٰ شاكلتهم في الإلحاد، حُكمهم إلىٰ اللَّه في الدنيا والآخرة حكم عادل لا يظلمُ مثقال ذرة، فحكمه العاجل في الدنيا علىٰ الكافرين، وجوب قتالهم من المؤمنين، وإثخانهم في القتل، وأسر المستسلم وسبي النساء والذراري، وفي الآخرة عذاب شديد.

وقوله سبحانه في الآية (٥٦، ٥٧) من السورة: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا

---

(١) رواه البخاري (٢٨٥)، ومسلم (٨٢٢).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٧﴾:

هذا تفصيل لعاقبة الاختلاف في عيسىٰ، الذي حقيقته الاختلاف في الدين، من تكذيب ما جاء من عند اللَّه ورفضه قولًا وعملًا، أو تصديقه وقبوله قولًا واعتقادًا وعملًا:

فالذين كفروا حكم عليهم بالعذاب الشديد علىٰ الإطلاق في الدنيا والآخرة، ليس لهم من ناصرين يدفعون عنهم العذاب أو يمنعونهم منه أو يخففونه عنهم، وفي وعيد اللَّه تعالىٰ لهم بالعذاب الشديد دحض لمزاعمهم التي يقولون فيها: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤]، ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١].

أما الذين آمنوا بك - يا عيسىٰ -، وصدقوك قولًا وعملًا واعتقادًا، فأولئك يوفيهم اللَّه أجورهم كاملةً غير منقوصة، بل لهم علىٰ إيمانهم هذا وعملهم بمقتضىٰ إيمانهم الجزاء الأوفىٰ.

واللَّهُ سبحانه لا يحب الظالمين، المتجاوزين حدودهم، المعتدين أو المنقصين حقوق غيرهم، الواضعين الشيءَ في غير موضعه، ولا يخفىٰ أن أبشع أنواع الظلم، وأشنع الظالمين من انتقص حق اللَّه عز وجل بتكذيب رسله، أو مخالفة أمره، أو ارتكاب معصيته. وهو سبحانه إذ لا يحب الظالمين؛ فهو منزَّه عن الظلم، لا يظلم مثقال ذرة ولا ينقص لمحسن عمله.

وقوله تعالىٰ في الآية (٥٨) من السورة: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ٥٨﴾:

يعني أن هذه الأنباء التي أنبأناك بها يا محمد، من الآيات العظيمة عن ابنة عمران وزكريا، وعن مريم وحملها من غير زوج، وعن عيسىٰ وما أكرمناه به من الآيات التي آخرها رفعه إلىٰ السماء، نقصها عليك، ويقرئكها جبريل عليه السلام، لتكون معجزةً من بعض معجزاتك،

وسلاحًا روحيًّا معنويًّا تشهره علىٰ من يجادلك ويحاجك في شأن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ﴾، أي نسرده عليك، ونذكره شيئًا بعد شيء، وتعبيره بالمضارع استحضارًا للصورة الحاصلة، واعتناء بها؛ لأن قصة عيسىٰ لم تنته. وتفريقه سبحانه بين الآيات والذكر الحكيم؛ لأن في الآيات حججًا دالة علىٰ صدق محمد ﷺ في نبوته حيث أخبرهم بما لا يعلمه ولا يخبر به إلا من يتلقىٰ الوحي من اللَّه العليم الحكيم، ﴿وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ يعني المحكم، ذو الحكمة في نظمه وتأليفه وكثرة علومه، فقد أحكم القرآن عن تطرق الخلل إليه وعن وجود الاختلاف والتعارض في ألفاظه وأحكامه.

وفي حديث علي بن أبي طالب المشهور الذي يرفعه إلىٰ النبي ﷺ خير شاهد حيث قال: «**ستكون فتنةٌ**»، فقلت: وما المخرج منها ـ يا رسول اللَّه ـ؟ قال: «**كتاب اللَّه، فيه نبأ ما قبلكم، وخبرُ ما بعدكم، وحُكمُ ما بينكم، هو الفصل، ليس بالهزل...**»الحديث[1].

تنبيهات:

١ ـ ليعلم القارئ مما تقدم ذكره معتقدَ النصارىٰ المتناقض في المسيح عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما يعترفون به من أن الرب الإله قد نال التعذيب البشع المؤلم، والقتل من اليهود، والصلب، والدفن في التراب، إلىٰ غير ذلك مما يظهر فساد تصورهم وسخافة عقولهم. وقد كشف العلماء ذلك في مؤلفات كثيرة يرجع إليها، وأشهرها: «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» لابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، وكتاب: «هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ» لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، وغيرهما.

٢ ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾، ليس فيه ما يدل علىٰ تميز اللَّه بجهة أو مكان ـ كما تصوره الجهمية ومن علىٰ شاكلتهم، فأوَّلوه ـ؛

(١) تقدم تخريجه.

فقد أجمعت الأمةُ ـ من عهد النبوة ـ على أن اللَّه في جهة الفوق، ولا يلزم من ذلك تحيُّز[1] ولا تجسيم؛ لأن اللَّـه في جهة الفوق بالنسبة لنا، وأما بالنسبة إليه فجميع الجهات عدم؛ لأنه المحيط بكل شيء، وليتأمل المسلم قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله ﷺ: «**ما السماوات السبع والأرضين السبع في الكرسي إلا كحلقةٍ ملقاةٍ في فلاة من الأرض**»، وقوله: «**ما الكرسيُّ بالنسبة إلى العرش إلَّا كحلقةٍ في فلاةٍ من الأرض**»[2].

وقوله سبحانه في الآية (٥٩، ٦٠) من السورة: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾:

تتابع الآيات القرآنية هذه الرد على وفد نجران؛ لأنها نزلت في حقهم حيث زعموا أن عيسى ابن اللَّه؛ لأنه لا أب له من البشر! وهذا منطق فاسد يرفضه العقل الاستقلالي السليم، فلو كان ما يقولونه في عيسى صحيحًا، لكان آدم أولى منه بذلك، فإن شِبْهَ عيسى إذ خلق من غير أب كشبه آدم الذي خلقه اللَّه من تراب بلا واسطة أب ولا أم، فليس خلق عيسى من أمه فقط بأعجبَ من خلق آدم من غير أب ولا أم، وليس عيسى بأولى ببنوَّة اللَّه من آدم، إن كان مجرد الخلق على خلاف طريقة التناسل موجب لهذه الدعوى الباطلة المغضبة للَّه.

لا شك أن ولادة عيسى غريبة وغير مألوفة، ولكن هذه الغرابة تتلاشى حين تُقرن بخلق آدم الذي خلقه بقوله له «كن»، وهذه هي الحقيقة الواقعة التي تقرُّها الفِطرُ البشرية والعقول الفطرية، ولهذا قال بعده: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾، يعني دُمْ على يقينك يا محمد، وعلى ما أنت عليه من ترك الامتراء. ولم يخاطب النبي ﷺ

---

(١) في المطبوع: «تميُّز»، وهو تحريف قطعًا.
(٢) رواه ابن حبان (٣٦١).

بهذا لأنه كان ممتريًا، وإنما قصد بالخطاب تثبيت أمته ﷺ، وهذا المثل ضربه اللَّه لعيسىٰ، وهو من سننه الكريمة في هداية البشرية، فإنه سبحانه يمثِّل للناس بما كانوا يعرفون، وكذلك يفعل ﷺ وقد علَّم اللَّه العرب هذه السنة، فكانوا يضربون الأمثال لما خفي معناه ودق إيضاحه، وهكذا لما خفيت ولادة عيسىٰ من غير أب ضرب اللَّه المثل بآدم الذي استقر خلقه وقصته في الأذهان، فمن أشكل عليه خلق اللَّه لعيسىٰ فليعتبر بخلق اللَّه لآدم.

وقوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي عند من يعلم حقيقة المجادلين، والمعنىٰ الذي وقعت فيه المشاركة بين عيسىٰ وآدم: هو كون كل منهما خلق من دون أب.

📖 **وقوله سبحانه في الآية (٦١) من السورة:** ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾:

هذا إرشاد من اللَّه سبحانه لنبيه ﷺ لما يُخرس ألسنة الخصوم، ويُبطل دعاويهم الجدلية، ويبرز الحق واضحًا جليًّا، ويكبت الباطل ويهزم أهله، يرشده اللَّه إلىٰ المباهلة التي تقطع دابر الكافرين الكاذبين وتخزيهم.

وأصل المباهلة: اللعنة والإهمال، ثم استُعمل في كل دعاء يجتهد فيه صاحبه.

والمعنىٰ: فمن جادلك ـ يا محمد ـ بأمر عيسىٰ[1] ـ بعد الذي سقناه من الأدلة والبراهين القاطعة علىٰ بشريته ونبوته ـ، فادعه إلىٰ المباهلة التي تقطع الكلام، وتحسم مادة الجدل.

والسر في تقديم الذراري والنساء علىٰ الأنفس، لتكون المباهلة

---

(١) أي: في أمر عيسىٰ عليه السلام.

أكثر وقعًا علىٰ نفس المباهل، حيث يدعىٰ إليها أعزَّةُ أهله، ومن يخاطر بنفسه من أجلهم ويحارب دونهم لشدة التصاقهم به. والمباهلة لها تأثير عظيمٌ بانتصار الصادق ورفعة شأنه، واندحار الكاذب، وتعجيل العقوبة له، وفضيحته وإظهار خزيه، ولذلك رفضها أهل نجران. وقد استعملها بعض أفاضل العلماء في الهند مع طاغية القاديانية وباهله، فأهلكه اللَّه ورجع عن مذهبه الباطل خلق كثير.

وقد أخرج البخاري ومسلم أن «العاقب» و«السيد» ـ وهما رؤساء وفد نجران ـ أتيا رسول اللَّه ﷺ فأراد أن يلاعنهما، فقال أحدهما لصاحبه: لا تلاعنه، فواللَّه لئن كان نبيًّا فلاعنَنَا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، فقالوا له: نعطيك ما سألت، فابعث معنا رجلًا أمينًا، فقال: «**قم يا أبا عبيدة**»، فلما قام قال: «**هذا أمين هذه الأمة**». ونص البخاري: ولا تبعث معنا إلا أمينًا، فقال: «**لأبعثن معكم رجلًا أمينًا حقَّ أمين**»، فاستشرف له أصحاب رسول اللَّه ﷺ، فقال: «**قم يا أبا عبيدة ابن الجراح**»، فلما قام قال رسول اللَّه ﷺ: «**هذا أمين هذه الأمة**»[١].

وأخرج أبو نعيم في «دلائل النبوة» من طريق عطاء، والضحاك، عن ابن عباس، أن ثمانية من أساقفة أهل نجران قدموا علىٰ رسول اللَّه ﷺ ـ منهم «العاقب» و«السيد» ـ، فأنزل اللَّه: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا...﴾ الآية، فقالوا: أخرنا ثلاثة أيام[٢].

وفي رواية أخرىٰ أصح من هذه: أن «السيد» وهو الكبير، و«العاقب» وهو الذي يكون بعده، قالا: يا رسول اللَّه أسلمنا، وذلك بعد ما دعاهما إلىٰ الإسلام، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**ما أسلمتما**»، قالا: بل أسلمنا قبلك، قال: «**كذبتما؛ يمنعكما من الإسلام ثلاثٌ فيكما: عبادتُكما الصليب، وأكلُكما الخنزير، وزعمكما أن للَّهِ ولدًا**» ونزل قوله

---

(١) رواه البخاري (٤٣٨٠)، ومسلم (٢٤٢).

(٢) سبق تخريج أصل الحديث من الصحيحين.

تعالىٰ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ...﴾ الآية، فلما قرأها عليهم قالوا: ما نعرف ما تقول، ونزل قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ...﴾ الآية، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللَّه تعالىٰ أمرني إن لم تقبلوا هذا أن أباهلكم**»، فقالوا: يا أبا القاسم، بل نرجع فننظر في أمرنا ثم نأتيك، فخلا بعضهما ببعض، وتصادقوا فيما بينهم، فقال السيد للعاقب: قد علمتم واللَّهِ أنه نبي مرسل، ولئن لاعنتموه إنه لاستئصالكم، وما لاعن قوم نبيًّا قط فبقي كبيرهم ولا نَبَتَ صغيرهم، فإن أبيتم أن تتبعوه، وأبيتم إلا إلف دينكم فوادعوه، وارجعوا إلىٰ بلادكم. فصالحوه علىٰ ألف حلة في صَفَر، وألف حلة في رجب ودراهم[١].

والذي راج عند أكثر المفسرين من اختيار النبي ﷺ عليًّا وفاطمة وولديهما للمباهلة دون سائر المؤمنين، ودون أزواجه الطاهرات وقصر كلمة ﴿وَنِسَآءَنَا﴾ علىٰ فاطمة، وكلمة ﴿وَأَنفُسَنَا﴾ علىٰ أمير المؤمنين علي ـ كرم اللَّه وجهه ـ؛ فذلك من ترويج الشيعة الذي انطلىٰ علىٰ أهل السنة لسلامة صدورهم، وخفاء مقاصد أولئك عنهم[٢]، وحاشا أن يسلك النبي ﷺ مسلك الأنانية، فيقصر أمر اللَّه علىٰ بنته وأولادها وزوجها.

وهذا القول من الشيعة ـ رغم أنه لا ينسجم مع عصمته ﷺ، ولا مع المعقول، ولا يصح من حيث اللغة ـ؛ فإنهم يقصدون من ورائه إثبات خلافة علي، ولو كان كما زعموا للزم أن يكون إمامًا في حياة النبي ﷺ، وهذا باطلٌ بالاتفاق، والروايات في ذلك كثيرة جدًّا، أكتفي منها بما رواه ابن عساكر، عن جعفر بن محمد، عن أبيه زين العابدين رضي الله عنه

(١) انظر: «نصب الراية» (٣/٢٠٣).

(٢) في كلام المؤلف رحمه الله نظرٌ بيِّن؛ فإن أهل الحديث لم تنطلِ عليهم مثل تلك الأكاذيب؛ بل انتقدوها، وغربلوها، وكشفوا زيفها وزيف واضعيها للناس. اللَّهم إلَّا إن كان المؤلف رحمه الله يقصد بمن انطلقت عليه ألاعيب الشيعة: عوامَّ المسلمين، والعلمُ عند رب العالمين.

أنه لما نزلت هذه الآية على رسول اللَّه ﷺ جاء بأبي بكر وولده، وبعمر وولده، وبعثمان وولده، وبعلي وولده[١]، وهذا خبر أصبح مغمورًا حيث طغت عليه الأخبار الأخرى التي روجها الشيعة بأحابيلهم المختلفة على أهل السنة.

وهذا الخبر عن محمد بن جعفر هو الموافق لمدلول الآية نصًّا ولغةً، فإما أن يكون هو المعتبر في القضية، أو تُطرح جميع النصوص، وفي الحقيقة ما دام نصارى نجران قد رفضوا المباهلة؛ فما الداعي إلى إتيان الرسول ببعض قرابته بين الناس؟! وهذا شيء لا يفعله رزين العقل فضلًا عن النبي الكريم المتزن في أقواله وأفعاله ﷺ.

وقوله سبحانه في الآية (٦٢، ٦٣) من السورة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾:

﴿ٱلْقَصَصُ﴾ هنا: مجموع الكلام الذي أكرمنا اللَّه به، مما يشتمل على الهداية للدين، والإرشاد في الحق.

و﴿ٱلْحَقُّ﴾: هو الشيء الثابت الذي لا ريب فيه، وهو كل ما جاء عن اللَّه، فلا تجوز مقارنته بغيره، ولا يجوز التعويل على غيره؛ لأن الثقة محصورة فيه.

و«اللام» في ﴿لَهُوَ﴾ للابتداء، والضمير للقصر والتأكيد.

والمقصود: أن هذا الإخبار السابق عن عيسى، هو القصص الحق الذي يجب قبوله واتباعه، لا ما يقوله النصارى واليهود.

وأصل القصص في اللغة: تتبع الأثر، ليعرف أين يذهب صاحبه، ومنه قوله تعالى - على لسان أم موسى عليهما السلام -: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١]، واستعمل في الأخبار لأن الحريص عليها يتتبعها خبرًا بعد

---

(١) «تاريخ دمشق» (٣٩/١٧٧).

خبر، أو يتتبع معانيها ليوردها.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ تأكيد لاستغراق نفي الألوهية عن غير اللَّه ﷻ. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: القاهر الغلاب ذو القوة العظيمة الشاملة، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: الذي يضع الأشياء مواضعها الحقيقية، ومنزلتها اللائقة بها، بحيث لا يمكن أن يعقِّب عليه معقِّب، ولا يستدرك عليه مستدرِك، وفي هذه الآية رد ضمني علىٰ مزاعم النصارىٰ في المسيح عليه السلام؛ وذلك أنه لو كان عيسىٰ إلهًا، لكانت قدرته لا تغلب، وبالتالي لما استطاع اليهود قتله وصلبه، كما ينسبون ذلك إلىٰ عيسىٰ! وكذا لو كان إلهًا لكان علمه محيطًا بكل شيء، ولعذب اليهود قبل أن يقتلوه لعلمه السابق بمؤامرتهم عليه.

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾، لقد وصف اللَّه المعرضين عن توحيده بأنهم مفسدون، وتوعدهم علىٰ ذلك وعيدًا مطلقًا يدخل تحته جميع أنواع العقوبات القدرية التي لا تحيط بها العقول؛ لأنه عليم بمخططاتهم للإفساد، عليم بمواطن إفسادهم وطرقهم في الإفساد، فكيف لا يستحقون ألوان العذاب، وهم قد أعلنوا الحرب علىٰ اللَّه بإفسادهم ما أصلح اللَّه.

📖 **وقوله تعالى في الآية (٦٤) من السورة:** ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

هذه آخر خطة رسمها اللَّه تعالىٰ لنبيه ﷺ، بعدما نَكَل[1] نصارىٰ نجران عن المباهلة؛ لأنهم ليسوا علىٰ يقين بألوهية عيسىٰ عليه السلام، وليس عندهم غير التقليد للآباء.

---

(١) نكل: تراجع.

وقد علَّم اللَّه نبيه ﷺ أن يدعوهم إلىٰ أصل الدين الذي تتحد به الكلمة، وتتوحد به الأهداف، وذلك بوحدانية المعبود، والتساوي في طاعته، ورفض ما سواه من كل مَن يجعل لنفسه حق الألوهية علىٰ الناس. فقل لهم: يا أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ وأتباعهم، هلموا وتقبلوا ما ندعوكم إليه، إنا ندعوكم إلىٰ كلمة التوحيد، كلمة نستوي نحن وأنتم في تقبلها وتطبيقها، وهي دعوة مبنية علىٰ الإنصاف وعدم الحيف، وترك الجدل والمراء، وهي: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وحده، ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ سواء كان: ملكًا، أو رسولًا، أو بشرًا، أو صنمًا، أو شجرًا... أو أي مخلوق من مخلوقات اللَّه. ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ نطيعهم في التحليل أو التحريم، أو نتقبل ما يصدر عنهم مخالفًا لوحي اللَّه ﷻ، فإن هذا هو معنىٰ عبادتهم، واتخاذها أربابًا من دون اللَّه، كما ورد النص في الحديث الصحيح، لما تلا رسول اللَّه ﷺ هذه الآية[1] علىٰ عديٍّ بن حاتم ﷺ، فقال عدي: إنا لم نعبدهم، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**أليسوا يُحلُّون لكم الحرام فتستحلُّوه، ويحرِّمون عليكم الحلال فتحرموه؟** قال: بلىٰ، قال: «**فتلك عبادتهم**»[2].

فكل من ادعىٰ أن له حق الطاعة لذاته بزعامته أو قداسته، فقد جعل لنفسه الألوهية في الأرض، ولو لم يصرح بكلمة فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤﴾ [النازعات]، وتشجيعُه بالإقرار والثناء عليه، وإضفاء ثوب الشرعية والقداسة علىٰ ما يصدر منه شركٌ باللَّه أو كفر به. فهذه دعوة خالصة لتوحيد اللَّه في ربوبيته وألوهيته، فمن استجاب له كان أخًا في الدين لكافة الموحدين.

---

(١) وهم المؤلف رحمه الله هنا، فإن النبي ﷺ لم يتلُ هذه الآية - آية آل عمران - علىٰ عدي ابن حاتم، وإنما تلا عليه آية سورة «التوبة»: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ...﴾ [التوبة: ٣١].

(٢) أخرجه البيهقي في سننه (١١٦/١٠)، والترمذي (٣١٠٤) - بنحوه -.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أي رفضوا توحيد اللَّـه، وأصروا علىٰ شركهم وافترائهم، بدا بينهم وبين المسلمين العداوة البغضاء والمنابذة التي ليس وراءها مصاحبة، وانقطع الجدل بينهم بالمفارقة والاعتزال، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾. وينبغي أن يكون هذا هو موقف المؤمنين من غيرهم، ممن يتخذ من دون اللَّـه أندادًا، وممن يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون اللَّـه في كل زمان ومكان، ليس في عصر الجاهلية الأولىٰ فقط، بل في جميع العصور حتىٰ يأتي أمر اللَّـه وهم كذلك.

والمعنىٰ: أنه إذا أعرض المشركون عن دعوتكم ـ دعوة التوحيد ـ فلا تلاينوهم، بل فاصلوهم واعتزلوهم، وقولوا لهم: ﴿ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ أي رضينا باللَّـه ربًّا، فلا نتألَّهُ غيره، ولا نحتكم إلا إلىٰ شريعته، ولا نقتدي إلا بنبيه ﷺ، ونحن مرتبطون بالإسلام في جميع أحوالنا السياسية، والثقافية، والاقتصادية، والاجتماعية، والعسكرية، ولا نرضىٰ بذلك بديلًا.

وهذه الآية أساس الدين الحنيف وأصله الأصيل؛ إذ بها تقرير وحدانية الربوبية، ووحدانية الألوهية، ولهذا كان النبي ﷺ يكثر من قراءتها في صلاة الفجر[1]، ويدعو بها أهل الكتاب إلي الإيمان، فقد أودعها كتابه إلىٰ «هرقل» ملك الروم، و«المقوقس» ملك مصر، ونص كتابه ﷺ هذا كما أثبته البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**من محمدٍ ـ عبدِ اللَّـه ورسوله ـ إلىٰ هرقل عظيم الروم: سلامٌ علىٰ من اتبع الهدىٰ، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام**[2]: **أسلم تسلَم، يؤتك اللَّـه أجرك مرتين، فإن توليتَ فإن عليك إثم الإريسيين ـ أو «الببريسيين» ـ**، ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا

---

(١) رواه مسلم (٧٢٧).

(٢) **الدعاية**: الدعوة.

أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾»[1].

وقوله سبحانه في الآية (٦٥، ٦٦) من السورة: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾:

هاتان الآيتان الكريمتان فيهما كشف لمخازي أهل الكتاب، وفضح لأكاذيبهم وتلبيسهم ودعاويهم الباطلة في انتسابهم لإبراهيم، وافترائهم عليه، فقد زعم اليهود أنه يهودي، والنصارىٰ أنه نصراني، وكذلك زعم كفار قريش؛ فقد كانو يجلُّونه ويعظمونه ويزعمون أنهم علىٰ دينه. وهذا من بعض الذكر الحسن الذي جعله اللَّه لسانَ صدق لإبراهيم، فإن جميع الملل متفقة علىٰ إمامته.

ويكشف اللَّه خبث أهل الكتاب، ويفضح مزاعمهم ومقاصدهم الدنيئة بسؤال مقرِّع لهم في البداية: كيف يزعم كل فريق منكم أن إبراهيم كان علىٰ دينه؛ وإبراهيم كان سابقًا لليهودية والنصرانية، وليس معاصرًا لهما؟! بل إن التوراة والإنجيل لم ينزلا إلا من بعده بمئات القرون؟! فما محاجتكم في ذلك إلا مجرد إفكٍ ومِراءٍ لا يستند إلىٰ دليل، ولا يقول به عاقل يحترم نفسه وعقله، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، أي أفلا تحجزكم عقولكم عن ادعاء ما يخالف الحقيقة والواقع، لأنه كذب مكشوف لا يصدر إلا عن سفاهة واضحة، إذ كيف يكون السابق تبعًا للاحق، والمتقدم تبعًا للمتأخر؟! فهذا كذب مكشوف لا يقبله إلا فاقد الشعور والإحساس، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ﴾؛ يعنىٰ أنكم - يا معشر الحمقىٰ ضعاف العقول - إذ حاججتم فيما لكم به علم، من مخالفة شريعة التوراة والإنجيل لشريعة القرآن، فكيف تحاجون فيما

(١) رواه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

ليس لكم به علم من ادعائكم أن شريعة إبراهيم مخالفة لشريعة محمد ﷺ وموافقة لشريعتكم؟! وهذا قول علىٰ اللّٰه بغير علم، وكذب وقح ليس علىٰ المسلمين فحسب، بل علىٰ رب الناس أجمعين، مع أن الاختلاف في الشرائع لا يدل قطعًا علىٰ الاختلاف في أصل الدين ـ الذي هو الإسلام الحنيف ـ، أو أنكم حاججتم فيما لكم به علم من أمر عيسىٰ عليه السلام، فكيف تحاجون فيما ليس لكم به علم من أمر إبراهيم، وليس لدين إبراهيم ذكر في كتابكم؟!

وبما أنهم اضطربوا في شأن عيسىٰ وتناقضوا، فيحتمل أن اللّٰه لم يصفهم بالعلم حقيقةً؛ إذ قال: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أراد أنكم تستجيزون المحاجة فيما تزعمون علمه، فكيف تحاجون فيما ليس لكم به علم بتاتًا؟ فالأولي أن يحمل معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ علىٰ ما يعلمونه من التوراة والإنجيل، عن شأن محمد ﷺ وشريعته، أما إبراهيم عليه السلام فلا علم لكم به؛ لأنه ليس له ذكر فيهما.

والواجب عليكم أن تتبعوا ما يوحيه اللّٰه إلىٰ نبيه محمد ﷺ في شأن إبراهيم، فإن اللّٰه أعلم به منكم؛ ولذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

✍ تنبيه:

أورد الرازي رحمه الله ـ كعادته ـ تساؤلات وإلزامات لما ليس بلازم فقال: فإن قيل: فهذا ـ أيضًا ـ لازم عليكم؛ لأنكم تقولون: إن إبراهيم كان علىٰ دين الإسلام، والإسلام إنما أنزل بعده بزمن طويل، فإن قلتم: إن المراد أن إبراهيم كان علىٰ أصول الدين الذي عليه المسلمون الآن، فنقول: فلِمَ لا يجوز ـ أيضًا ـ أن يكون إبراهيم يهوديًا، بمعنىٰ أنه كان علىٰ أصول الدين الذي عليه اليهود، أو الذي عليه النصارىٰ؟!

والجواب: إن القرآن أخبرنا أن إبراهيم عليه السلام كان حنيفًا مسلمًا،

وليس في التوراة والانجيل أنه كان يهوديًا أو نصرانيًا، فظهر الفرق. انتهىٰ كلام الرازي باختصار وزيادة تصرف.

📖 **قوله سبحانه في الآية** (٦٧)، **من السورة:** ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾:

في الآية براءةٌ صريحة من اللَّه لخليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مما نسبه إليه أعداؤه اليهود والنصاري ومشركو العرب، حيث نفىٰ عنه ذلك بأبلغ عبارة: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا﴾ علىٰ دين اليهود الحالي؛ لانحرافهم عن ملة إبراهيم التي جاء بها موسىٰ، والتي هي الإسلام الذي ارتضاه اللَّه دينًا للناس جميعًا. ولم يكن إبراهيم نصرانيًا علىٰ دين النصارىٰ وقت نزول القرآن لتحريفهم وحيَ اللَّه، وانحرافهم عما جاء به عيسىٰ وآمن به الحواريون من الدين الإسلامي، الذي هو ملة إبراهيم ﷺ، بل هو من اليهود والنصاري بَرَاءٌ، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾.

والحنيف: المائل قصدًا إلىٰ اللَّهِ تعالىٰ؛ فإنه ﷺ مائل - كل الميل - عن كل ما كان عليه قومه وأهل عصره من الشرك وعبادة الأهواء.

وكان ﴿مُّسْلِمًا﴾ وجهَه للَّه وحده بإخلاص التوحيد له، والصدق معه في العبادة، وأي إخلاص وصدق يشابه إخلاص وصدق إبراهيم ﷺ؟! لقد ضحىٰ بنفسه في ذات اللَّه يوم أن أُلقيَ به في النار، وضحىٰ بأعز ما لديه، حيث استجاب لأمر اللَّه، بإخراج أهله وولده - الرضيع الغالي - من جنان الشام وبَهجتها إلىٰ أرض لا ماء فيها ولا ثمر، ثم نفذ التضحية الثالثة بالعزم الأكيد حين أمره اللَّه تعالىٰ بذبح ولده إسماعيل، فأثبت للدنيا جميعًا أنه لن يزاحم حبَّ اللَّه محبةُ أقرب قريب، ولا أحب حبيب، مما يخسأ اليهود والنصارىٰ أن يصلوا إلىٰ ذرةٍ واحدةٍ من ذلك الذي حل بقلب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، من الحب والتعظيم للَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم كذَّب اللَّه انتساب المشركين إليه، من عرب وعجم، ونفىٰ عنه تُهمتهم له ﷺ، وأعلن براءته منهم بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ بل هو موحد للَّه تمام التوحيد، فقد حقق الإخلاص للَّه والصدق معه.

أَلَا؛ ما أبعد اليهود والنصارىٰ عن متابعة إبراهيم والانتساب إليه! كيف لا وهم مشركون باللَّه شركًا تبرأ منه إبراهيم وناصب أهله العداء في ذات اللَّه، وهذا واضح في الآيات (٢٦، ٢٧)، من سورة الزخرف، وآية (٤) من سورة الممتحنة.

ولما نفىٰ اللَّه عن إبراهيم الشرك بجميع أنواعه معبرًا بصيغة الماضي الدال علىٰ استغراق النفي لجميع الأزمان ـ بحيث لا يدعي مدعٍ أنه علىٰ شاكلة إبراهيم ﷺ ـ؛ فقد قرر اللَّه ﷻ إلي جانب ذلك حقيقة الانتساب إلىٰ إبراهيم ومن هو الأولىٰ بهذا الانتساب:

📖 **فقال تعالى في الآية (٦٨) من السورة:** ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾:

أي أن الانتساب إلىٰ إبراهيم والأولوية منه تحصل باتباعه في تجريد التوحيد، والبراءة من الشرك في زمنه وبعد زمنه؛ حتىٰ قيام الساعة. وأولىٰ الناس باللحوق به والحشر في زمرته هم أهل التوحيد المحض الخالص الذي لا يشوبه أيُّ لون من ألوان الشرك، حتىٰ إن أطفال المسلمين الذين لم يبلغوا الحلم هم في كفالة إبراهيم عليه السلام؛ لأنهم فارقوا الدنيا ولم يَعْلَقْ في قلوبهم شيء من الشرك.

ومن أولىٰ الناس بإبراهيم من نبينا محمد ﷺ، والذين آمنوا معه ومن سلك سبيلهم في الإيمان الصحيح الذي تصدقه الأعمال، والمجاهدة الصادقة؟! وخص اللَّه محمدًا ﷺ وأمته بذكر أحقيتهم في الولاية والانتساب لإبراهيم لمزيد الشرف؛ لأنه أفضل نبي، وأمته أفضل الأمم.

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين أسلموا وجوههم للَّه، وحصروا أنفسهم

بالعمل علىٰ وفق كتاب اللَّه، وسنةِ رسول اللَّه ﷺ، والعمل علىٰ رفع راية الإسلام والجهاد في سبيله، فهؤلاء يكرمُهم اللَّه بولايته، ويسدد خطاهم، ويوفقهم لصالح الأعمال التي تقودهم إلىٰ حياة طيبة في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

ومما تقدم تبين لنا أن أولىٰ الناس بمحمدٍ ﷺ هم العاملون بسنته، السائرون علىٰ طريقه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الرافعون علم الجهاد لنصرة الحق الذي جاء به. أما الذين يدَّعون الإسلام وليس لهم حظ منه سوىٰ الاسم، أو ما ورثوه من بدع وخرافات مخالفة لسنة النبي ﷺ، أو صرفتهم عن حقيقة التوحيد الإلهي موالاتُهم للكفار باسم الوطنية والقومية، فأصبحوا لا يحكمون بشريعة الإسلام، بل ينادون بإقصائها عن الحكم بتاتًا، فهؤلاء بعيدون عن النبي ﷺ وولايته؛ بل إن بعض المتنفذين منهم ـ أو أكثرهم ـ من أبعد الناس عنه، وما ذكرهم للنبي ﷺ إلا كذكر اليهود والنصارىٰ لإبراهيم الذي هو بريء منهم.

قوله سبحانه في الآية (٦٩) من السورة: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

يخبر اللَّه سبحانه عن الحقد العميق في نفوس كثير من أهل الكتاب، حقدًا يحدوهم إلىٰ إضلال المؤمنين، وتعمية الحقائق عنهم، وإنكار ما لا يمكن إنكاره؛ كقولهم: إن محمدًا ﷺ يعترف بموسىٰ وعيسىٰ، ومع هذا فإنه يدعي النبوة، وقولهم: إن موسىٰ أخبر في التوراة أن شرعه لا يزول، وقولهم: إن النسخ يلزم منه البَداءُ علىٰ اللَّه ـ والذي هو نقص العلم وتجدده ـ، وهذا مستحيل علىٰ اللَّه[1]... إلىٰ

---

(١) البَداء له معنيان:
١ ـ ظهور الشيء بعد خفائه، كما تقول: «بدا لنا سور المدينة».
٢ ـ نشأة الرأي الجديد الذي لم يكن من قبلُ.

غير ذلك من الأقوال التي يقصدون بها التشكيكَ وزعزعةَ العقيدة، ولكنَّ عملَهم علىٰ إضلال المسلمين هو ضلالةٌ في ذاته؛ لأنهم بعملهم هذا يتمكن الضلال من نفوسهم، وتتعمق جذوره، فيزدادون ضلالةً يُضلون بها أنفسهم، ويصدونها عن الهداية بحيث لا يكون فيها قابلية للخير والهدىٰ أبدًا، كما أن الذي يكرِّس جهده لهداية الناس يزداد هدًىٰ وبصيرة، وثباتًا علىٰ الحق.

وفي هذه الآية معجزة محمدية خالدة؛ لأنك لا تجد مسلمًا لامَسَ الإيمان شغاف قلبه انقلب عن الإسلام إلي اليهودية أبدًا، فهم لا يضلون إلا أنفسهم بإذهاب وقتهم في زيادة الضلالة؛ حتىٰ تنطبع في قلوبهم وتغشىٰ علىٰ أحاسيسهم، وهم لا يعلمون بِهذه النتائج السيئة التي تعودُ عليهم بسبب إضلالهم للمؤمنين، ولا يشعرون بالظلمات التي تتراكم علىٰ قلوبهم وأحاسيسهم ومشاعرهم، حتىٰ فقدوا كل ذلك فلم يعودوا يتأثرون بآثامهم، أو يتعظون بالمواعظ، ولا يخافون عذاب اللَّه وعقابه الذي يهددهم به في الدنيا والآخرة.

وقوله سبحانه في الآية (٧٠، ٧١) من السورة: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾:

يبين اللَّه لنا في هذه الآيات أنواعًا من سعيهم في إضلال عباد اللَّه:

١ ـ أنهم يكفرون بآيات اللَّه، وقلوبُهم تشهد بصحتها؛ لأنهم ـ كما

= وكلا القولين ـ علىٰ مذهب أهل السنة والجماعة ـ باطل في حق اللَّهِ ﷻ؛ لأنه يلزم منه أن يكون ربُّنا ـ تعالىٰ عن ذلك علوًّا كبيرًا ـ يجهل الأمور ـ أو بعضها ـ، ثم تظهر له بعد ذلك! وهذا من أمحل المحال في حق العليم الخبير ﷻ، ونسبته إليه ﷻ من أعظم الكفر والضلال. وهذه العقيدة الكافرة أصلُها يهودي، وهي مذكورة في كتابِهم المحرَّف، ويبدو أن مبتدعها كان عبداللَّه بن سبأ ـ لعنه اللَّـهُ ـ، الذي أخذها من «توراتِه»، وأشاعها بين المفتونين به تحت ستار التشيع.

أخبر اللَّه عنهم - ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]؛ لوجوده مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل. وقد كانوا قدوةً للوثنيين في موقفهم هذا، كما أجابوا قريشًا لما سألوهم عن أمر محمد ﷺ بخلاف ما يشهدون أوصافه في التوراة، حيث فضلوا الوثنية - دين قريش - علىٰ ما جاء به النبي ﷺ، وقد كشف اللَّه مزيَّتهم هذه، ولعنهم في الآيتين، (٥١، ٥٢) من سورة النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

وكما عملوا علىٰ صد سلمان الفارسي عن الإسلام واللحوق برسوله، فيتساءل اللَّه معهم أمام المؤمنين عن كفرهم هذا بآياته المنزلة علىٰ محمدٍ ﷺ، وهم يعلمون صدقها وحقيقتها من خلال التوراة والإنجيل اللذين بشَّرَا بمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا.

٢ - أنهم يلبسون الحق بالباطل، ولبسُ الشيء: خلطه بغيره حتىٰ لا يتميز، فتختلط الحقيقة بضدها، وذلك بالتحريف للكتاب، وإدخال ما ليس منه فيه.

وتلبيسُهم لوحي اللَّه كان علىٰ صورتين:

- إدخال منقولات الأحبار والرهبان في التوراة والإنجيل، وجعلها من وحي اللَّه روحًا ومعنًىٰ، وهذا من أكفر الكفر؛ لأنه افتراء علىٰ اللَّه.

- وتلبيس المعاني بالتحريف والتأويل علىٰ خلاف الحقيقة، متجنين بذلك علىٰ الوحي والعقل.

📖 **وقوله سبحانه في الآية (٧٢) من السورة:** ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾:

لم يكتف اليهود بتصميمهم علىٰ الكفر بما يعلمون صدقه وحقيقته،

ولا بما يقومون به من تلبيس الحق بالباطل، ولا بما يكتمونه مما يؤيد صدق محمد ﷺ، ولا بما ينكرونه من ذكر شخصية محمد ﷺ وأوصافه والبشارة به، زاعمين أنه ليس هو الموصوف المبشر به، وإنما غيره، ولم يأت زمانه بعد! لم يكتف اليهود بكل هذا المكر المتنوِّع؛ حتىٰ لجؤوا لزعزعة عقيدة المسلمين، واللعب بعقولهم، وتشكيكهم فيما هم عليه من الهداية، كما أخبرنا اللّٰه سبحانه في هذه الآية.

وإنها لطريقةٌ خبيثة لئيمة خطيرة في إفساد القلوب، وبلبلة الخواطر، وترويج النفاق، وإشاعة الإرجاف، حيث جنَّدوا جماعةً منهم من ذوي المرونة والحذق في المكر والحيلة، يُظهرون إسلامهم أول النهار فيجذبون المسلمين إليهم، ويتمكنون من قلوبهم، ويصولون ويجولون معهم، ويُودعون في قلوبهم أنهم مسلمون مثلهم، غايتهم طلبُ الحق والرغبة فيه، فيَبحَثون في بعض شرائع الإسلام قاصدين التشكيك فيها، فإذا حصل لهم هذا أظهروا الكفر؛ عسىٰ أن يلحق بهم بعض المؤمنين ضعاف الإيمان.

ووجه الخطورة في هذه الحيلة: أن العرب أمة أمية، كانت تعتقد أن أهل الكتاب أعرف منهم بما يتعلق بأمر العقيدة والألوهية، فإذا ارتد أهل الكتاب بعد إيمانهم ومخالطتهم للمسلمين، والنقاش معهم، حَسِبَ ضعفاء الإيمان من المسلمين أن هؤلاء لم يكفروا بما آمنوا إلا لشعورهم بأن ما آمنوا به ناقص ومغاير لما في دينهم الأول؛ فإما أن يكفر الضعفاء من المؤمنين بعد ذلك، أو تخالجهم الشكوك؛ فتجعلهم يتأرجحون بين الطرفين، فيشكِّلوا طائفة المنافقين.

ومكر اليهود هذا مبني علىٰ قاعدة ثابتة في العقل البشري وهي: أن من علامة الحق ألَّا يَرجع عنه من عرفه، ولهذا نجد «هرقل» ملك الروم قد أخذ بِهذه القاعدة عندما سأل أبا سفيان: «هل يرجع عنه من

دخل في دينه؟ فقال: لا»[١].

وهذه الطائفة اليهودية الموغلة في الغش، قررت العمل بِهذه القاعدة ليغشوا المسلمين، فيقولوا: لولا أنه ظهر لهؤلاء بطلان ما نحن عليه لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه وعرفوه، إذ لا يمكن في المعقول أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته بلا سبب.

ولعل الأمر النبوي بقتل المرتد عن الإسلام كان لزجر هؤلاء وتخويفهم حتىٰ يرتدعوا عن تدبير المكائد لإرجاع الناس إلىٰ الكفر بعد دخولهم في الإسلام، وذلك بما يبثُّونه من التشكيك في فترة إسلامهم المؤقت، وبما تُحدِثُه ردَّتُهم المصطنعة من بلبلة في الصف، وزعزعة في العقيدة.

فإن قيل: إن بعض الناس ارتد عن الإسلام بدون تأثرهم بِهذه الحيلة؛ فماذا يقال فيهم؟

فالجواب: إن دخول هؤلاء في الإسلام ليس عن رغبةٍ صادقة، وإنما دخولهم كان دخولًا انتهازيًّا لطلب منفعة أو دفع مضرة، وهؤلاء غير الصنف السابق، يصدق فيهم قوله تعالىٰ في الآية (١١) من سورة الحج: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾؛ فينبغي التفريق بين من أسلم عن رغبة؛ فلا يرجع عن إسلامه لا بمؤثرات عقائدية ـ من مثل مكر اليهود وأشياعهم ـ، وبين من أدخلته الانتهازيةُ الإسلامَ؛ فإن الانتهازية ـ والعياذ باللَّه ـ تحمل مواليد الإسلام ـ ذوي الإسلام الأصيل كابرًا عن كابر ـ علىٰ الردة عنه طمعًا في منصب أو مال أو شهوة، كما هو مشاهد محسوس.

فالانتهازية حملت بعض العلماء المتبحرين علىٰ أن يسترخصوا أنفسهم، ويبيعوا علمهم علىٰ دجاجلةِ السياسة حتىٰ جعلوهم نجوةً

(١) تقدم تخريجه.

يستجمرون بها[١].

وقوله سبحانه في الآية (٧٣) من السورة عن اليهود: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾:

يخبر اللَّه في هذه الآية عن تعصب اليهود وغرورهم، وحصرهم الثقة بأنفسهم، لزعمهم أن النبوة لا تكون إلا فيهم، واحتقارهم لغيرهم من عموم البشر بحيث يسمونهم «حميرهم» وأسماء أخرىٰ مذكورة في «التلمود»، وغيره من كتبهم وقراراتهم الملعونة، ويعطون لأنفسهم امتيازاتٍ ليست لغيرهم، لزعمهم أنهم شعب اللَّه المختار، وأنهم أبناء اللَّه وأحباؤه، وأن لهم الدنيا والآخرة عند اللَّه.

والآية تحكي لنا قول اليهود بعضهم لبعض، بما يفيد خبث نياتهم وسوء مقصودهم، إنهم يركزون معتقدهم بين أفرادهم تركيزًا دقيقًا، فيقول بعضهم لبعض: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، أي لا تصدِّقوا من لم يتبع دينكم إلا من أجل أن تخدموا عقيدتكم بذلك التلبيس، فتُدخلوا فيها من ليس فيها، وتضمنوا لأهل ملتكم البقاء علىٰ دينكم، فلتنحصر مقاصدكم بِهذا الإيمان المؤقت لمصلحة من تبع دينكم؛ تحفظونهم من الانسلاخ منه والدخول في دين غيره، فإنكم أهل التوراة، فلا تصدقوا إلا النبي الذي يقرر شرائعها، فأما من جاء بتغيير شيء منها فلا تصدقوه! وهم في الحقيقة كاذبون، فقد كذَّبوا بعيسىٰ عليه السلام الذي جاء مصدقًا لما بين يديه من التوراة وحاولوا قتله.

﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ وحده، هو مصدر ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ وهو الذي أمر به وأرشد إليه، وأوجب التمسك به، وهو الذي يملك الزيادة فيه، لا يملك ذلك أحد سواه؛ فإذا أرسل رسله بالهداية، وجب علىٰ البشر الانقياد إلىٰ ما جاءت به الرسل من اللَّه، وحرُم عليهم

(١) أي: حتىٰ جعلوهم كحجر الاستنجاء الذي تُمسح به القاذورات.

التخلف عنهم، والخروج عليهم.

﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾، «أو» جوابًا لليهود[١]؛ لأن فيها تفسيرين؛ لكل تفسير وجه لائق يرجحه:

التفسير الأول: أن تكون جملة ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ اعتراضية بين هذا الجزء من الآية ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ﴾ وبين ما سبقها، ويكون المعنىٰ: ولا تصدقوا أحدًا غير جماعتكم المتبعين لدينكم لئلَّا يؤتىٰ أحد مثل ما أوتيتم، أو يقيم الحجة عليكم عند ربكم. أي: لا تعترفوا أمام العرب - مثلًا - بأنكم تعتقدون أنه يبعث نبي من غير بني إسرائيل، فيقيموا عليكم الحجة.

وهذا التفسير مبني علىٰ أنهم ينكرون جواز بعثة رسول من العرب بألسنتهم، مكابرةً وعنادًا، أو كتمانًا لما يعرفونه وما هو مستقر في قلوبهم، وأنهم لا يعترفون به إلا لمن آمنوا من قومهم، وهذا التوجيه للآية حسب قراءة الجمهور، ويكون قوله تعالىٰ: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ﴾ معللًا لمحذوف تقديره: لأن يؤتىٰ أحد مثل ما أوتيتم.

والحاصل أنهم نهوهم عن إظهار هذين الأمرين للمسلمين، لئلَّا يزدادوا تصلبًا، ولا لمشركي العرب لئلَّا يحملهم ذلك علىٰ الإسلام.

وجاء الفصل بحرف «أو» في قوله: ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ﴾ تنبيهًا علىٰ استقلال كل من الأمرين في غيظهم وحسدهم؛ حتىٰ دبروا ما دبروه من الحيلة السابق ذكرها.

أما فائدة الإتيان بالجملة المعترضة بين الفعل ومتعلقه في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾، فهي الإشارة إلىٰ أن كيدهم ليس بمضر.

وقال الزمخشري في «الكشاف»: وقوله ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ﴾ معناه: لأن يؤتىٰ أحد مثلما أوتيتم؛ قلتم ذلك ودبرتموه لا لشيء آخر. ويجوز أن يكون ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ بدلًا من ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ قبلها، و﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ﴾ خبر «إن» علىٰ

---

(١) كذا في المطبوع.

معنىٰ: قل إن هدىٰ اللَّه أن يؤتىٰ أحد مثلما أوتيتم، أو يحاجوكم حتىٰ يحجوكم[1] عند ربكم؛ فيقرعوا باطلكم بحقهم، ويدحضوا حجتكم. انتهىٰ باختصار، وهو مقارب للرأي الأول.

﴿قُلْ﴾ ـ يا محمد ـ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ من عباده الذين يستحقونه، ولا تملكون دفعه عنهم، ولا جلبه إليكم، واحتكاركم له من دون الناس.

ولا شك أن هذه الآية من المشكلات الصعبة، ولكن اللَّه يذلِّل معانيها للمتدبر الحريص علىٰ الفهم، فإن قوله سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ يعطي دليلًا أنه ما دام الهدىٰ هدىٰ اللَّه ـ الذي آتاكم الكتاب والحكم والنبوة ـ؛ فإنه يؤتي نبيه كما آتاكم، ويجعل أمته شاهدةً عليكم وعلىٰ الناس، ويحجونكم بما آتاهم اللَّه في الدنيا والآخرة، فكيف تمكرون هذا المكر لإضلال المؤمنين، ويوصي بعضكم بعضًا ألَّا يؤمنوا إلا لمن تبع دينكم؛ من أجل أن يؤتي أحد مثلما أوتيتم، فتنكرون ذلك وتسعون ضده؟!

وبذلك تكون هذه الجملة من الآية ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ أي من أجل أن يؤتىٰ أحد؛ كقوله تعالىٰ: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القلم] أي من أجل أن كان ذا مال وبنين.

وفي قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ توبيخ وتقريع لليهود الذين استنكروا أن يؤتىٰ أحد مثلما أوتُوه من النبوة والكتاب، فأخبرهم اللَّه ـ علىٰ جهة التقريع والتوبيخ ـ أن الفضل بيد اللَّه وحده يتصرف به كما يشاء.

و«الفضل» هنا: هو الرسالة، وهو في اللغة عبارة عن الزيادة، وأكثر ما يستعمل في زيادة الإحسان. و«الفاضل»: هو الزائد علىٰ

---

(١) أي: يغلبوكم في الحجة.

غيره في خصال الخير والشهامة. وجميع أنواع الفضل تصغر أمام الرسالة التي يكرم بها اللَّه من شاء من عباده، ويصطفيه لحملها.

ولما كان من مستلزمات الرسالة ومقتضياتها وموجباتها المشروعة قيادة العالم كله إلىٰ الحق الذي يسعدون به، فقد أفزع اليهودَ أن تكون الرسالة الخالدة والخاتمة لمحمد ﷺ يقود بها العالم أجمع، وتَخلُفه من بعده أمته، وتنتهي قيادتهم إلىٰ الأبد؛ ولذلك اشتدت عداوتهم لهذه الرسالة وصاحبها وأتباعها، فأخذوا يكيدون لها بشتىٰ أنواع الكيد والمكر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ تأكيد لسعة فضله وجوده، فلا يخص فضله جهةً أو قومًا دون آخرين، ولكنه سبحانه عليم بمن يستحق هذا الفضل، فيعطيه، ومن لا يستحق فيحرمه.

📖 **وقوله سبحانه في الآية (٧٤) من السورة:** ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٧٤﴾:

هذا تأكيد لما تقدم، ومعناه ـ علىٰ ما قال الحسن ومجاهد ـ: أنه يفرد من يشاء بالنبوة والرسالة؛ فيخصه بهذه الرحمة.

وسميت الرسالة «رحمةً»، لما تضمنته ـ أو لما تحمله ـ من معاني الخير، والتراحم، والتعاطف، ولأن اللَّه يرحم الناس بسببها.

وفضل اللَّه سبحانه وجُوده وسع الخليقة، وعمَّ جميع الوجود، ولن يستغني عنه مخلوق في جميع الأكوان ـ العلوية والسفلية ـ، إنسانًا كان أو حيوانًا أو جمادًا.

📖 **وقوله سبحانه في الآية (٧٥) من السورة:** ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝٧٥﴾:

هذا بيان من اللَّـه سبحانه لخيانةٍ أخرىٰ يقترفها فريق من أهل الكتاب، فإنه سبحانه لما ذكر الخيانة الدينية التي يقترفها فريق من أهل الكتاب، خشيةَ أن يؤتىٰ أحد مثلما أوتوا، وخوفًا من قيام حجة المسلمين عليهم عند اللَّـه. فقد شرع اللَّـه في بيان خيانتهم الدنيوية وسط الإخبار عن خياناتهم الدينية الأثيمة اللئيمة، علىٰ أن الخيانة الدنيوية ناشئة من خياناتهم الدينية ـ كما سيأتي بيانه ـ. وقد أنصفهم اللَّـه؛ فلم يعمهم بوصف الخيانة جميعًا، بل أخبرنا بسجية كل فريق منهم، لسبب اختلافهم في أداء الأمانة؛ لأنهم علىٰ صنفين في الفروع، وإن كان أكثرهم يجمعه الكفر في الأصول. واللَّـهُ سبحانه لما أخبرنا بقبائح خياناتهم الدينية في الآيات السابقة، أخبرنا عن خياناتهم الأخرىٰ علىٰ سبيل التبعيض قائلًا: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾.

والقنطار: هو كناية عن المال الكثير في العرف الأول، ويستعمل للمبالغة غالبًا، وفي تقديره آثار وأقوال وردت من ألف ومئتي أوقية ذهبًا إلىٰ سبعين أو ثمانين ألف دينار. والصحيح التعبير به عن المبالغة في الكثرة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وأما الدينار: فمعروف تحديده، وهو أربعة وعشرون قيراطًا، والقيراط وزن ثلاث حبات شعير من الوسط، والدينار لفظ أعجمي معرَّب، ومجموعه ثنتان وسبعون حبة من وسط الشعير.

فقد أخبرنا اللَّـه في هذه الآية عن معاملة أهل الكتاب الدنيوية، وأن بعضهم أمين لو عاملته بشيء كثير في البيع والشراء أو التوزيع أو الإعارة، أو غير ذلك؛ لأدىٰ إليك الحق كاملًا بدون غش ولا خيانة. وأن فيهم الفريق الآخر علىٰ أحط المستويات في الخيانة؛ بحيث لا يؤتمن في أقل قليل، حتىٰ إنك لو عاملته بما قيمته دينار واحد في بيع أو شراء أو وديعة ونحوها، لا يؤديه إليك إذا فارقته أو أمهلته

لحظة واحدة، حتىٰ تقوم علىٰ رأسه، وتلازمه ملازمة الغريم، وإلا يخونك ولو في الشيء اليسير.

وقد رُوي في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس: أن رجلًا من قريش استودع عبداللّه بن سلام ألفًا ومئتي أوقية ذهبًا فأداها إليه، وأن فنحاص ابن عازر استودع رجلًا دينارًا فجحده.

وهذا مما يندرج تحت الخبر، فالعبرة بعموم اللفظ لا بحادثة معينة، وقد ذكر اللّه السبب لهذا التفاوت العظيم في الأمانة والخيانة، وهو أنهم كانوا يعتقدون عدم حرمة أموال غيرهم ممن خالفهم في العقيدة، كما قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ أي: ليس حرج، ولا ذم، ولا عتاب، ولا أي حجة في أخذ أموالهم، فإنها لنا وقد حلَّت بأيديهم بدون حق، وهذا مجرد افتراء علىٰ اللّه يزيد في جريمتهم وإثمهم، وهو من باب العذر الذي هو أقبح من الفعل كعادتهم في تعليلاتهم ومعاذيرهم.

وعلىٰ هذا فالأمانة في بعضهم سجية خلقية، وإن كان لها علاقة بالدين اليهودي أو النصراني.

وفي الآية فوائد:

١ ـ استدل بعض العلماء من قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾، علىٰ نكتة لطيفة وهي: أن الحياء في العينين؛ لأن قيام الرجل أمام خصمه بوجهه يورث الهيبة والحياء. وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «لا تطلبوا من الأعمىٰ حاجة؛ فإن الحياء في العينين، وإذ طلبت من أخيك حاجة فانظر إليه بوجهك حتىٰ يستحي فيقضيها».

وروىٰ ابن ماجه قال: حدثنا محمد بن المصفىٰ: حدثنا محمد بن حرب، عن سعيد بن سنان، عن أبي الزاهرية، عن أبي شجرة ـ كثير بن مرة ـ، عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**إن اللّه عز وجل إذا أراد أن يُهلك عبدًا نزع منه الحياء، فإذا نَزع منه الحياء لم تلقه إلا مقيتًا ممقَّتًا،**

فإذا لم تلقه إلا مقيتًا ممقتًا نُزعت منه الأمانة، فإذا نُزعت منه الأمانة لم تلقه إلا خائنًا مخوَّنًا، فإذا لم تلقَه إلا خائنًا مخونًا نُزعت منه الرحمة، فإذا نُزعت من الرحمة، لم تلقَه إلا رجيمًا مُلعَّنًا، فإذا لم تلقه إلا رجيمًا ملعنًا، نُزعت منه ربقة الإسلام»[(١)].

٢ ـ لا يجوز التشبه بأهل الكتاب في معاملتنا للعدو غير المحارب، فقد قال رجلٌ لابن عباس: «إنا نصيب في العمل من أموال أهل الذمة، الدجاجةَ والشاة، ونقول: ليس علينا في ذلك بأس، فقال له ابن عباس: هذا كما قال أهل الكتاب: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾، إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا عن طيب نفس»[(٢)].

وقوله سبحانه في الآية (٧٦) من السورة: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾:

في هذا رد وتكذيب لليهود ومن علىٰ شاكلتهم ممن يبرِّرون لأنفسهم الخيانة والغدر بمزاعم كاذبة يلصقونها بالدين ـ كما تقدم ذكره أنه افتراء علىٰ اللَّه ـ، وفيه تقرير لمبدأ إسلامي رفيع؛ وهو ربط الأخلاق والسلوك بالعقيدة ربطًا محكمًا، بحيث يلتزم المسلم في ذلك تقوىٰ اللَّه مع صديقه أو عدوه، ويجعل الناس سواسيةً في الحقوق المدنية، والعاملات المالية، فلا يبيح لنفسه الغدر ولا الخيانة؛ كما قال تعالىٰ في الآية (٨١) من سورة المائدة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

فالآية التي نحن بصددها ـ وغيرها من الآيات ـ تقرُّ مبدأ العدالة التامة، التي يحب اللَّه أهلها من بين سائر البشر بعدما فضح مفتريات أهل الكتاب علانية فيقول: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٠٥٤).

(٢) رواه عبد الرزاق في «المصنَّف» (١٠١٠٢).

فقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ جواب لقولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ يقتضي تكذيبهم، وإبطال مزاعمهم من الأساس، ﴿بَلَىٰ﴾ عليهم سبيل في ذلك، وإثم عظيم، وقد سلك اللَّه في ذلك أصل الأصول الذي هو الوفاء بالعهد على الإطلاق، ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ﴾، والوفاء بالعهود لا يصح إلا بتحقيق أعظم عهد، وهو الوفاء بعهد الإيمان باللَّه وبرسوله؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]. فإذا تحقق القيام بِهذا العهد يتحقق الوفاء بباقي العهود، والتزامها من ترك الخيانة لأمانات اللَّه ﷻ وأمانات المخلوقين، فإن رعاية أمانات الخلق لا تتحقق إلا بتقوىٰ اللَّه وخشيته؛ فلذلك قال سبحانه: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ﴾.

فهذه الآية مشتملة علىٰ أصول الطاعات التي لا يأتي بها إلا من اتقىٰ اللَّه في رعاية جميع عهوده، التي من أوفىٰ بها عن حسن تقوىٰ، استحق محبة اللَّه، ومن لم يقم بتحقيقها كان محرومًا من محبة اللَّه، بل صار بغيضًا للَّه عدوًّا له.

ومن وفَّىٰ بعهود المخلوقين وعقودهم دون تقوىٰ من اللَّه، ولا مبالاة بجنابه العظيم، وإنما يجري منهم ذلك مجاملةً ومداهنةً أو منافسةً لغيرهم من التجار والصناع ـ كما شاهدنا اليهود لما كانوا بين ظهرانينا في ثلثي هذا القرن الرابع عشر الهجري من أحسن الناس معاملة، في السماحة والصدق والنزاهة وعدم الغش والمماطلة، بحيث إنهم تفوقوا علىٰ أكثر تجار المسلمين؛ أعني المسلمين بالانتساب والنطق المجرد بالشهادتين ـ؛ فهذا الصدق والوفاء من اليهود لا يجعلهم من أحباب اللَّه؛ لأن حسن معاملتهم لم تصدر عن تقوىٰ اللَّه، بل عن الشرف والمنافسة، وهكذا كل من تحسن معاملته بدون تقوىٰ لا يكون لعمله قيمة عند اللَّه، فضلًا أن يكون من أحبابه؛ ولذلك ختم اللَّه الآية بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله تعالى في الآية (٧٧) من السورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧﴾:

وجه المناسبة في اتصال الآية بما قبلها: هو أن الذين يخونون الناس بفتنتهم عن الإسلام بأنواع المكر والتضليل والكذب والافتراء ـ كما تقدم بيانه في الآيات السابقة ـ، أو يخونونهم بأموالهم باستباحتها بجميع الوسائل ـ كما تقدم ذكره أيضًا ـ؛ هؤلاء الخونة جميعًا إنما يسيئون إلىٰ اللَّه رب العالمين قبل أن يسيئوا إلىٰ من خدعوهم من البشر، فأعمالهم الخبيثة القبيحة متصلة باللَّه الذي يحب الوفاء بعهده علىٰ الإطلاق مع كامل التقوىٰ.

ولما كانت العلاقة بين الخائن وبين اللَّه أعظم مما بينه وبين من خانهم في عقيدتهم أو أموالهم، وكان السبب في خيانته تحصيل طمع مادي أو معنوي؛ فقد استبدل ذلك بعهد اللَّه وأيمانه، وفضل أطماعه وأغراضه المحبوبة عنده علىٰ ما يحبه اللَّه من الوفاء بالعهد والصدق في الأيمان. وهذه معاوضة خاسرة مهما كثر الثمن أو ضخم المنصب؛ لأن أكثر الكثير وأكبر الكبير قليل وصغير بالنسبة إلىٰ ما عند اللَّه من الفوز والرضوان، والنعمة الحسنة والحياة الطيبة في الدنيا والآخرة، ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، يعني أن هؤلاء الذين يتعرضون بخيانة عهد اللَّه الذي عَهِد إليهم من إقامة الدين علىٰ وجهه الصحيح، وحمل رسالته بقوة وإخلاص، فيقلبون الحقائق للتضليل والصد عن سبيله، يتعوضون بذلك مالًا أو منصبًا زائلًا، إنه شراء خاسر قد أفلسوا به من رحمة اللَّه في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا ليس لهم نصيب من نصره ومدده، بل حظهم الذلة واللعنة من جميع أهل العوالم العلوية والسفلية، ثم هم في الآخرة ليس لهم نصيب من أنواع الخير التي ينالها المتقون.

وهذه هي العقوبة الأولىٰ التي يلاقونها في الآخرة.

أما العقوبة الثانية: فهي أن اللّٰه لا يكلمهم يوم القيامة، والمعنىٰ: لا يكلمهم كلامًا يسرهم ـ كما قال ابن جرير ـ؛ وذلك لأن اللّٰه يكلم عباده الصالحين كلامًا بغير واسطة ولا سفير، تشريفًا لهم وإكرامًا خاصًّا يجدون فيه منتهىٰ الفخر واللذة، أما أولئك الخونة الذين تعوَّضوا عن عهد اللّٰه بالدنيا الزائلة فلا يكلمهم اللّٰه إلا بالسخط المحيط بهم من كل ناحية؛ مثل قوله: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

أما العقوبة الثالثة: فهي أن اللّٰه لا ينظر إليهم نظر عطف ورحمة، فلا يعيرهم نظره لشدة غضبه عليهم، وإلا فرؤية اللّٰه عامة لجميع الكائنات، لا يغيب شيء عن بصره اللائق بجلاله؛ إذ ليس نظره بتقليب حدقة العين ـ كالمخلوق المحدود النظر ـ، وكذلك إعراضُه ليس كإعراض المخلوقين بالصد والالتفات، ومن أعرض عنه اللّٰه فهو في غاية الحرمان.

والعقوبة الرابعة: أن اللّٰه لا يزكيهم، أي: لا يثني عليهم ثناءً يُكسبهم التزكية، ولا يطهرهم من ذنوبهم وأرجاسها، لعدم حصول التوبة والمغفرة التي تكسبهم الزكاة، بل يبقون في دنس الذنوب وتلويثها.

واعلم أن تزكية اللّٰه لعباده الصالحين علىٰ نوعين:

ـ نوع بواسطة الملائكة؛ كقوله سبحانه: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد]، و﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة].

ـ ونوع بلا واسطة، وهو حاصل من اللّٰه لهم في الدنيا والآخرة، فتزكية اللّٰه لهم في الدنيا، وما ذكره في القرآن من طيب أوصافهم والثناء عليهم، كقوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ

ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]... إلىٰ غير ذلك من الآيات الكثيرة.

وأما ثناؤه في الآخرة: فكقوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس]، وكمخاطبته لهم يوم المزيد كما صحت الأخبار بذلك.

وأما العقوبة الخامسة في قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فإنهم لما أفلسوا من كل نصيب حسن ومن كل ذكر حسن، صار حظهم العذاب الأليم الذي يَشْقَون فيه شقاءً سرمديًا، لو لم يكن عليهم من العقوبات إلا أنهم لا خلاق لهم في الآخرة لكفىٰ.

وقد أخرج الشيخان عن عبداللَّه بن مسعود ﷺ، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**مَن حلف علىٰ مالِ امرئ مسلم بغير حقِّه، لقي اللَّهَ وهو عليه غضبان**»، قال عبداللَّه: ثم قرأ علينا رسول اللَّه ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الآية[1].

وفي رواية: «**من حلف علىٰ يمين صبر ليقتطعَ بها مال امرئ مسلم، لقي اللَّه وهو عليه غضبان**»[2]، فأنزل اللَّه تصديق ذلك في هذه الآية، فدخل الأشعث ابن قيس الكندي فقال: ما يحدثكم أبو عبدالرَّحمن؟ قلنا: كذا وكذا، قال: صدق؛ فِيَّ نزلت، كان بيني وبينِ رجل خصومةٌ في بئر، فتخاصمنا إلىٰ رسول اللَّه ﷺ: فقال: «**شاهداك أو يمينه**»، فقلت: إنه إذن يحلف ولا يبالي، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**مَن حلف علىٰ يمين صبرٍ يقتطعُ بها مال امرئ مسلم، وهو فيها فاجر، لقيَ اللَّه وهو عليه غضبان**»، ونزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا .....﴾ الآية، وأخرجه الترمذي وأبو داود بزيادة تسمية ابن الأشعث[3].

وروىٰ البخاري ـ أيضًا ـ عن عبداللَّه بن أبي أوفىٰ: أن رجلًا أقام

---

(١) رواه البخاري (٢٥١٣)، ومسلم (١٩١٠).
(٢) رواه البخاري (٥ ٧ ٤٢)، ومسلم(١٣٨).
(٣) رواه أبو داود (٣٢٤٣)، والترمذي (١٢٦٩، ٢٩٩٦). وفيهما أنه قال: «بيني وبين رجل من اليهود، ولم يذكر اسمه».

سلعةً وهو في السوق، فحلف باللَّه لقد أُعطي فيها ما لم يعطه ليوقع بها رجلًا من المسلمين، فنزلت: ﴿يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ الآية[١].

وقد وردت أحاديث كثيرة أخرىٰ، ولا تنافي بينها ولا تعارض، لأمرين:

١ - أن الرسول ﷺ قد يتلو هذه الآية عند كل حادثة من هذه الحوادث؛ فيظن السامع أنها نزلت فيها، أو أنها السبب في نزولها.

٢ - أن ذلك يدل علىٰ عموم الآية في كل خيانة دينية أو دنيوية، ولا شك أن الخيانات الدنيوية لها مساس في الدين؛ لأنها لا تصدر إلا ممن انعدم شعوره الديني، الذي هو مراقبة اللَّه، وخشيته بالغيب.

📖 **وقوله سبحانه في الآية (٧٨) من السورة:** ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾:

«اللَّيُّ»: هو عطف الشيء وردُّه عن الاستقامة إلىٰ الاعوجاج والالتواء والانحراف؛ يقال: التوىٰ فلان: إذا تغيرت أخلاقه عن الاعتدال، ويقال: لوىٰ لسانه عن كذا إذا انحرف به عن الحقيقة، ولوىٰ رأيه إذا مال عن الصواب.

ومن ذلك قوله سبحانه في سورة النساء عن اليهود الفجرة: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦]، وقوله ﷺ: «ليُّ الواجدِ ظلم»[٢].

وهذه الآية الكريمة ذكر اللَّه فيها نوعًا آخر من جناية أهل الكتاب علىٰ وحيه الكريم، وهو أنهم يستغلون جهل السامعين من عامتهم، ومن العرب الأميين، فيحرفون كتاب اللَّه، بأن ينقصوا منه ما هو حجةٌ

---

(١) رواه البخاري (٢٠٨٨).

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» (٣/١١٨) معلَّقًا بصيغة التمريض، وأخرجه أبو داود (٣٦٢٨)، وابن ماجه (٢٤٢٧).

عليهم من جهة، وفي تكذيبهم لمحمد ﷺ من جهة أخرىٰ، بكتم صفاته وقلبهم لها تشنيعًا، ثم يلوونه ثانيًا بألسنتهم، فيقرؤونه بالترنيم والتنغيم، ليوهموا السامعين أنه من الكتاب، فيجمعون بذلك بين جريمتين: جريمة ليِّه بتحريف المعاني وتبديلها، وجريمة ليِّه بالألسنة غشًّا للسامعين ومكرًا وتضليلًا ليحسبوه من الكتاب، وما هو من الكتاب، بل هو تحريف مما كتبوه بأيديهم ولاكوه بألسنتهم.

ومن رجع إلىٰ التوراة عرف ذلك، وعرف أنها ليست التوراة التي أنزلت علىٰ موسىٰ ﷺ، لما فيها من التناقض في الأخبار والأعداد، ونسبة ما لا يليق إلىٰ اللّٰه سبحانه كالأكل والمصارعة، ونسبة فعل القبائح للأنبياء؛ كالكذب والسكر بالخمر واقتراف الزنا ببناتهم.

ويَلحق باليهود والنصارىٰ كلُّ من يعمل علىٰ تزييف الحقائق الإسلامية بالتأويل والتحريف، كبعض العلماء الذين فسدت ضمائرهم، وحرفوا الكلم عن مواضعه، ليجعلوا الدين الإسلامي موافقًا لما يريده سادتهم أصحاب المبادئ الأرضية والمذاهب الهدامة المادية، فيجعلون الإسلام ديكتاتوريًّا أو ديمقراطيًّا، أو يجعلونه دينًا قوميًّا أو ثوريًّا، ويخلعون هذه الألقاب كلها علىٰ النبي محمد ﷺ!!

فكل هؤلاء الذين يتجاوبون مع إرادة الزعماء والحكام ويلوون نصوص الكتاب والسنة لتوافق مراد أسيادهم، ويحرفون كلام اللّٰه ورسوله ليعطوهم دليلًا شرعيًا علىٰ ما تبنَّوه من كفر وإلحاد وضلال، كل هؤلاء الذين يفعلون ذلك قد سلكوا مسلك المغضوب عليهم والضالين، وصاروا من المفترين علىٰ اللّٰه، الذين اشتروا بآياته ثمنًا قليلًا؛ وهو التزلف للزعماء وكسب شيء من فتاتهم.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فيه إخبار عن خبث ضمائر اليهود والنصارىٰ، وقبح أفعالهم، وشناعة جرأتهم علىٰ اللّٰه، وعدم مبالاتهم بجنابه الكريم، حيث يفترون عليه الكذب علىٰ عمد وعلم وإصرار، وليس عن سهو أو غفلة، وهذا أبلغ في

الجريمة وأشد في العقوبة، ولهذا كرر اللَّه تسجيله عليهم هذا الكفر العظيم وعقب عليه في الآيتين (٧٩، ٨٠) من السورة:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾؛

وذلك ردًّا على النصارى القائلين بألوهية عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ زاعمين أنهم مستندون إلى أوامره، فقد نفى اللَّه افتراءهم هذا نفيًا عامًّا، يشمل عيسى خاصةً وجميع الأنبياء عامةً؛ فمعنى ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ﴾ ـ وما أشبه ذلك ـ: نفي الكونية لهذا الانتحال[1]، والمراد نفي الخبر الذي أشاعوه عن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو على قسمين عند اللغويين:

١ ـ أن يكون الانتفاء عقليًا، ويعبر عنه بالنفي التام، كقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ [النمل: ٦٠]، وكقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

٢ ـ أن يكون النفي على سبيل الانتفاء، ويعبر عنه بالنفي غير التام، كقول أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما كان لابن أبي قحافة أن يتقدم فيصلي بين يدي رسول اللَّه ﷺ».

والذي يدل عليه سياق الكلام في الآية هو القسم الأول ـ الذي هو النفي العام التام ـ لتعبير اللَّه بلفظ البشر في قوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾، وهذا إيذان بعلة الحكم، فإن البشرية منافية لمقام الربوبية التي أسندها النصارى وغيرهم إليها[2]؛ فإنه ليس من شأن نبي يصطفيه اللَّه لرسالته ويكرمه بإنزال وحيه أن يأمر الناس المرسل إليهم

(١) **الانتحال**: النسبة.

(٢) أي: إلى البشرية.

بعبادته من دون اللّه، مدعيًا لنفسه الألوهية، فهذا الأمر مستحيل علىٰ الأنبياء عليهم السلام لعصمة اللّه لهم، والآية هذه من دلائل عصمتهم في أمر التوحيد.

وفي هذه الآية أقوىٰ ضروب الفصاحة، وهو الترقي المتكرر؛ فإنه سبحانه قال فيها: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، فبدأ بالكتاب أولًا ـ وهو العلم ـ، كما قال في خبر تكليم عيسىٰ لشيعة أمه ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [مريم: ٣٠]. ثم ترقىٰ إلىٰ التمكين ـ وهو الفصل بين الناس ـ؛ فقال: ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾، ثم ترقىٰ إلىٰ الرتبة العليا، وهي النبوة التي هي مجمع الخير ومنبع السعادة للنبي وأمته علىٰ الإطلاق. ثم أتىٰ اللّه بلفظ يدل علىٰ المهلة قائلًا: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾؛ ففي هذا تعظيم لهذا القول المنتفي بعد هذه المهلة، ولا شك أن انتفاءه بدونها أولىٰ وأحرىٰ، يعني أن هذا الإيتاء العظيم لا يجامع قول الطواغيت والدجاجلة: «إن الأنبياء أمروهم بعبادتهم»، وإن كان بعد المهلة من هذا الإنعام الكريم العظيم.

ويلحظ هنا فرق كبير بين قوله: ﴿كُونُواْ عِبَادًا﴾، وبين لفظة «عبيد»؛ لأن «العباد»، جمع «عبد»، وكلمة «عبد» متىٰ سِيقت فهي في مضمار الترفيع والطاعة دون أن تقترن بمعنىٰ التحقير وتصغير الشأن. وانظر إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، وقوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وغيرها من الآيات.

وأما لفظة «العبيد» فتستعمل في التحقير، كقول حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه[١]: «وهل أنتم إلا عبيد لأبي»[٢]، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]؛ شفقةٌ وإعلام بقلة انتصارهم ومقدرتهم،

---

(١) وكان قد قال رضي الله عنه هذا لما سكر من الخمر قبل تحريمها.
(٢) رواه البخاري (٢٩٢٥)، ومسلم (١٩٧٩).

وأنه ﷻ ليس بظلام لهم مع ذلك، وهذا رأي ابن عطية، ويؤيده كلام القاضي وغيره.

وقد نزه اللَّه سبحانه أنبياءه من مفتريات المفترين عليهم؛ لأن اللَّه صنعهم علىٰ عينه، وآتاهم فضله من الوحي والحكم والنبوة، ولا يختار سبحانه إلا ذوي النفوس الطاهرة، والأرواح الطيبة ممن هم أعظم الناس معرفةً به، وحبًّا له، وتعظيمًا وخشيةً ومراقبةً لجلاله، ولو فرضنا إمكانية وقوع مثل هذا الذي افتراه النصارىٰ وغيرهم علىٰ أنبياء اللَّه افتراضًا جدليًّا، فكيف يتركهم اللَّه يدَّعون شيئًا من حقوقه، وينتحلون شيئًا من صفاته دون أن يعذبهم؟! والقرآن تضمن آيات الوعيد الشديد النافع[1] لهم من مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء] أي ضاعفنا عليك العذاب في حياتك وبعد مماتك. وكقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة].

هذا؛ وإن دعوتهم الناس إلىٰ تأليههم مبطلةٌ للمعجزات الدالة علىٰ صدقهم، فلو ادعوا شيئًا من ذلك المفترىٰ عليهم لما أظهر اللَّه علىٰ أيديهم المعجزات الدالة علىٰ صدقهم.

وفي الآية - كذلك - بيان صريح لواجب الأنبياء وورثتهم من العلماء الصالحين العاملين بوحي اللَّه، فوظيفتهم المحتمة عليهم طيلة الحياة أن يكونوا ربانيين يقومون بتربية البشرية علىٰ طاعة اللَّه والمحافظة علىٰ دينه، وإقامة حدوده وبذل النفس والنفيس في إعزاز الإسلام ونصرته، ليحققوا بذلك انتسابهم إلىٰ الرب؛ فالربانيون هم المصلحون للناس

---

(١) كذا في المطبوع، ولعلها: «المانع» أو نحو هذا، والعلمُ عند اللَّه تعالىٰ.

بعملهم، ودعوتهم الناس، وتربيتهم علىٰ الإسلام؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾، فهذه هي الوظيفة الحتمية للمرسلين وأتباعهم، فكل من ينتسب إلىٰ نبي ولا يعمل بالكتاب الذي أورثه إياه، ولا يقيم دعوته فهو كافر بنبيه، كاذب في انتسابه إليه.

وقرأ بعضهم: «تُدَرِّسون» بضم التام، وتشديد الراء المكسورة، ورجحوا ذلك لأمرين:

١ ـ أن التعليم يشتمل علىٰ العلم ولا عكس، فكان التعليم أولىٰ.

٢ ـ أن الربانيين لا يكتفون بالعلم حتىٰ يضموا إليه التعليم.

وكلمة «ما» في قوله سبحانه: ﴿بِمَا﴾ مصدرية تعطي معنىٰ: كونوا ربانيين بسبب كونكم عالمين ومعلمين، وبسبب دراستكم للكتاب دراسةً خالصةً لوجه اللَّه ـ لا لشيء آخر ـ.

ومما ورد في سبب نزول الآية: ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «لما قالت اليهود: العزير ابن اللَّه، وقالت النصارىٰ: المسيح ابن اللَّه، نزلت هذه الآية».

وأخرج ابن إسحاق وغيره، عن ابن عباس ـ أيضًا ـ قال: قال أبو رافع القرظي ـ حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارىٰ من أهل نجران عند رسول اللَّه ﷺ ودعاهم إلىٰ الإسلام ـ، فقالوا: أتريد ـ يا محمد ـ أن نعبدك كما تعبد النصارىٰ عيسىٰ ابن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس: أوذاك تريد منا يا محمد؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**معاذ اللَّه أن نعبد غير اللَّه أو نأمر بعبادة غيره، ما بذلك بعثني وما بذلك أمرني**»[1]، فأنزل اللَّه هذه الآية[2].

وفي هذه الرواية مخالفة لما صح من قصة وفد نجران، فإنه ليس

(١) رواه الطبراني (٣/٣٢٥).
(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (٣/٢٢٢).

معهم يهود، فيحتاج فيها إلىٰ إثبات أسباب أخرىٰ جعلت اليهود يشتركون ـ ولو بطريق الصدفة ـ، وإلا فالمعوَّل علىٰ ما جاء في النقول الصحيحة من انحصار القضية في وفد نجران النصارىٰ.

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال: بلغني أن رجلًا قال: يا رسول اللَّه، نسلم عليك كما يسلم بعضنا علىٰ بعض؛ أفلا نسجد لك؟ قال: «**لا، ولكن أكرموا نبيّكم، واعرفوا الحق لأهله، فإنه لا ينبغي أن يُسجد لأحدٍ من دون اللَّه تعالىٰ**». فنزلت هذه الآية[١].

وأخرج بن أبي حاتم قال: كان ناسٌ من يهود يتعبدون الناس من دون ربهم بتحريفهم كتاب اللَّه عن مواضعه، فقال اللَّه تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ...﴾ الآية.

وقد تقدم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من مؤمن ـ ذكر ولا أنثىٰ، حر ولا مملوك ـ، إلا ولِلَّهِ ﷻ عليه حقٌّ أن يتعلم من القرآن، ويتفقَّه في دينه**». ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[٢].

وهذا الحديث صحيح في الهداية والمعنىٰ؛ لأن الأنبياء يأمرون أممهم أن يكونوا ربانيين.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًاۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾، يعني أنه من اختصه اللَّه بِهذه المنزلة الرفيعة الكريمة لا يُتصور منه أن يهبط بنفسه إلىٰ ضد هذا المستوىٰ، فيأمر باتخاذ الملائكة والنبيين أربابًا يؤلَّهون من دون اللَّه بالرغبة والخشية والرجاء، أو اعتقاد الألوهية والربوبية في ذواتهم، كما اعتقده النصارىٰ وغيرهم.

---

(١) انظر: «فتح القدير» للشوكاني (١/٥٣٦).

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (٤/١٢٣).

فوظيفة الرسل الدعوة إلىٰ توحيد اللَّه، وحصرُ جميع الاتجاهات إليه، والتلقي من وحيه فقط، فلا يمكن للرسول أن يأمركم بالكفر بعد أن دعاكم للإسلام وكنتم مسلمين، وقد جاء هذا الإنكار من اللَّه علىٰ افتراءات المفترين علىٰ الأنبياء والمرسلين بصيغة الاستفهام، الذي هو في غاية الإنكار، وقد نَهَىٰ خاتم النبيين ﷺ قريشًا عن عبادة الملائكة، ونَهَىٰ النصارىٰ عن عبادة عيسىٰ وأمه، واليهود عن عبادة العزير، فكيف يأمر بعبادة من هو دون ذلك من البشر؟ بل كيف يدعوهم إلىٰ عبادة نفسه مما هو من طبيعة الطواغيت والفراعنة؟ وكيف ينسجم هذا مع بذل النبي لنفسه في سبيل دعوة الناس إلىٰ اللَّه وصرفهم عن عبادة غيره؟!

ولقد حمىٰ النبي ﷺ التوحيد أشد حمايةٍ، فمنع الحلف بغير اللَّه، بل لما سمع بعض أصحابه يقولون: ما شاء اللَّه وشاء محمدٌ، قال ﷺ: «**أجعلتموني للَّهِ ندًا؟ قولوا: ما شاء اللَّه وحده**»[1].

ونَهَىٰ من يَملك العبيد أن يسميهم بما فيه رفعة نفسه وإذلالهم، فقال ﷺ: «**لا يقولن أحدكم: عبدي وأمتي، ليقل: فتاي وفتاتي، ولا يقل أحدكم: ربي، وليقل: سيدي**»[2].

فهذه الألفاظ ـ وإن كانت تطلق في اللغة ـ؛ إلا أن النبي ﷺ نَهَىٰ عنها تحقيقًا للتوحيد الخالص حتىٰ في الألفاظ.

وإذا كانت هذه دعوة الأنبياء قائمة علىٰ توحيد اللَّه توحيدًا خالصًا من كل شرك، أيصح أن يقال فيهم ما زعمه أهل الكتاب؟ إن هذا من أمحل المحال، ولهذا قال تعالىٰ لهؤلاء المفترين: ﴿أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾؟! أي كيف يأمرونكم بما يُدخِلُكم الكفر ويخرجكم من الإسلام بعد أن أدخلوكم فيه وطهروا قلوبكم به؟ إن قولكم هذا واضح البطلان.

---

(١) رواه أحمد (٣/٤٨٣).

(٢) رواه البخاري (٢٤١٤)، ومسلم (٢٢٤٩).

والخطاب في الآية هذه ليس لصحابة رسول اللَّه ﷺ - كما توهمه بعض المفسرين -، وإنما هو خطاب لأهل الكتاب الذين جاءتهم رسلهم بدين الإسلام فانقادوا لرسلهم في زمانهم، ثم انقلبوا عن الإسلام لما طال عليهم الأمد، وتشعبت فيهم الأهواء والمطامع، إذ كل نبي مرسل من اللَّه بدين الإسلام من نوح عليه السلام إلىٰ محمد ﷺ.

وبنو إسرائيل - الذين هم أهل الكتاب - كانوا مسلمين علىٰ عهد موسىٰ، وعلىٰ عهد يوشع بن نون بعده، ثم اتبعوا خطوات الشيطان وقست قلوبهم فتلبسوا بأنواع الشرك والافتراء علىٰ اللَّه بما سبق بيانه في الآيات السابقة، ثم جاء عيسىٰ عليه السلام مجددًا للإسلام الذي عبث به اليهود وشوهوا وجهه بالمفتريات، فصدقه أصحابه الحواريون، وكانوا علىٰ الإسلام، به يعملون وإليه يدعون، حتىٰ لعبت عليهم الدجاجلة من شياطين الإنس، وادعوا علىٰ عيسىٰ عليه السلام ما لم يقله؛ افتراءً علىٰ اللَّه وغشًّا علىٰ الأمة، وقد برأ اللَّه موسىٰ وعيسىٰ وجميع الرسل عليهم السلام مما افتروه عليهم قائلًا: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ...﴾ الآية.

وقوله سبحانه في الآية (٨١، ٨٢) من السورة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

يبين اللَّه لنا في هاتين الآيتين حقيقة الترابط بين جميع المرسلين ورسالاتهم، وذلك لوحدة دينهم الذي جاؤوا به من عند اللَّه، وتُصوِّرانِ لنا موكب الرسل وأممهم اتصالًا متساندًا متفقًا في الاتجاه علىٰ نحو ما رسمه اللَّه لهم من تحقيق التوحيد الذي تقوم عليه حياتهم، وتتساوىٰ أقدامهم في مدلوله وأحكامه؛ فاللَّهُ سبحان يذكر أهل

الكتاب ـ وجميع البشرية ـ علىٰ لسان خاتم النبيين ﷺ بالعهد العظيم الموثق من اللَّه علىٰ جميع النبيين من أبيهم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ خاتمهم محمد ﷺ، أنه مهما أوتي أحدهم من كتاب وحكمة، ثم جاء بعده رسول من اللَّه، أن يؤمن به ويسانده باتباع ما جاء به من عند اللَّه، وينصره علىٰ مخالفيه؛ لأن كل رسول يأتي مصدقًا للرسول الذي سبقه، مبشرًا بدين الإسلام، فلا يجوزُ له التخلف عن الإيمان به، ومساندته ومناصرته أبدًا، وذلك لاتفاقهم فيما يدعون إليه، وفيما يجاهدون في سبيله.

وتذكير اللَّه بِهذا العهد المأخوذ علىٰ الأنبياء، لأنه يشمل أممهم بطريق الأولىٰ؛ فإن النصرة المأخوذ عليها الميثاق لا يمكن حصولها من شخصية النبي دون قومه، ولهذا اكتفىٰ اللَّه بذكر النبيين عن ذكر قومهم؛ لأن ذكر القوم كتحصيل حاصل؛ ولهذا ذكر بعض المفسرين: أن الميثاق مضاف إلىٰ النبيين إضافة إلىٰ الفاعل، والمعنىٰ: وإذ أخذ اللَّه الميثاق الذي وثَّقه النبيون علىٰ أممهم. وقد ذهب إليه ابن عباس فيما أخرجه ابن المنذر وغيره عن سعيد بن جبير أنه قال: «قلت لابن عباس: إن أصحاب عبداللَّه بن مسعود يقرؤون: «وإذ أخذ اللَّه ميثاق الذين أوتوا الكتاب لما آتيتكم...» الآية، ونحن نقرأ: ﴿مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، فقال ابن عباس: إنما أخذ اللَّه ميثاق النبيين علىٰ قومهم». وأشار بذلك إلىٰ أنه لا تناقض بين القراءتين.

وهكذا ذهب الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ أن المراد أمم النبيين، علىٰ حذف المضاف، ويؤيد قراءةَ ابن مسعود قراءةُ أبيٍّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقد ورد لفظ النبي في آيات كثيرة، والمراد منه أمته، كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ...﴾ [الطلاق: ١].

وروي عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «إن اللَّه تعالىٰ ما بعث آدم، ومن بعده من الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ إلا أخذ عليهم العهد لئن بعث محمدًا ﷺ وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه».

وهذا مما يؤيد القول السابق؛ لأن نصرته له لا تتحقق بدون أمته. وأيضًا فإن ما وجب على الأنبياء فهو واجب على أممهم بطريق الأولى؛ فتوجيهه إلى الأنبياء أقوى في إيجابه على أممهم.

وقد صور اللَّه لنا مشهد الرسل مع أممهم في مجمع واحد، واللَّه العزيز الجبار القهار يخاطبهم بِهذا العهد العظيم جملةً واحدةً قائلًا: ﴿ءَأَقۡرَرۡتُمۡ﴾ بِهذا الميثاق ﴿وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ﴾ أي عهدي الثقيل الواجب الوفاء به؟ وهم يجيبون بالإجماع معترفين به كامل الاعتراف إذ ﴿قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَا﴾؛ ليُشهدهم اللَّه الكبير المتعال على هذا الإقرار، فيَشهد بعضهم على بعض، ويشهد ﷻ بذاته العلية عليهم قائلًا: ﴿فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

فما أعظم هدايةَ القرآن، وإلجامَه أعداء الإسلام بلجام الحجة القاطعة الدامغة! إذ يصور لنا مشهد هذا العهد الرهيب الذي ترتعد له الفرائص، وتوجل القلوب منه وجلًا رهيبًا، حيث يتمثل المشهد بحضرة اللَّه مالك الملك.

و«اللام» في قوله: ﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم﴾ موطِّئة للقسم مكررًا، لأن الميثاق بمعنى الاستحلاف والقسم، و«ما» التي دخلت عليها اللام هي المتضمنة لمعنى الشرط، والمعنى: مهما آتيتكم من كتاب وحكمة. واللام الأخرى في قوله: ﴿لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ﴾ واقعة في جواب القسم، و«تؤمنن» سادٌّ مسدَّ جواب القسم، وجواب الشرط معًا.

وقرأ حمزة: «لِما آتيتكم» بكسر اللام، فتكون تعليلًا، أي أن اللَّه أخذ عليكم الميثاق بالإيمان بمحمد ﷺ؛ لأنكم أوتيتم شيئًا من الكتاب والحكمة، ثم جاءكم محمد ﷺ بالوحى الذي هو مصدق لما معكم.

وقرأ سعيد بن جبير «لمَّا» بالتشديد، فتكون ظرفًا بمعنى «حين» أي حين آتيتكم.

وهذا العهد الذي أخذه اللَّه علىٰ جميع النبيين ليس في عالم الذَّر كالعهد الفِطري قطعًا، وإنما هو عهدٌ حسي، مأخوذ علىٰ كل نبي وأمته فيما أنزل اللَّه عليهم من وحيه، وهو عهد مبني علىٰ الفرض في حق الرسل، وأما في حق أممهم، فعلىٰ سبيل الواقع والحقيقة لا علىٰ سبيل الفرض؛ إلا في الأمم التي أهلكها اللَّه بالكلية. أما الأمم الأخرىٰ ـ التي لا تستأصل بعذاب ـ فإنها مطالبة بالوفاء بِهذا العهد قطعًا، وإن لم تف به فكفرُها غليظ، وإثمها مضاعف، كما نص عليه نبينا محمد ﷺ في الأحاديث التي من أوكدها ما قاله في كتبه إلىٰ ملوك أهل الكتاب والمجوس: «**أسلم تسلم، يؤتك اللَّهُ أجرَك مرَّتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيِّين...**»[1].

ومضاعفة الذنب علىٰ الذين لا يذعنون لما جاء به محمد ﷺ، كانت بسبب نقضهم الميثاق الذي شهد به بعضهم علىٰ بعض، وشهد اللَّه عليهم جميعًا بقوله: ﴿**ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾**﴾.

و«الإصر» ـ بكسر الألف ـ هو العهد المؤكد، الذي يحبس صاحبه ويمنعه من التهاون فيما التزمه، ويُحرَمُ ناقضُه من الخيرات. وهو في اللغة: عقد الشيء وحبسه بقهره، ويقال لمحبس السفينة: مأصر.

📖 **وقوله سبحانه في الآية (٨٣) من السورة: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾:**

لما أوضح اللَّه سبحانه أن الإيمان بمحمد ﷺ أمر مشروع وواجب، محتم علىٰ جميع الأنبياء والمرسلين وأممهم، أخبر سبحانه بلازم ذلك، وهو أن كل من كره ذلك من المنتسبين للرسل، فهو طالب دينًا

---

(١) تقدم تخريجه.

غير دين اللَّه مما تمليه عليه أهواؤه وأنانيته.

وهذا الاستفهام الإنكاري قُدم فيه المفعول، الذي هو «غير دين اللَّه» علىٰ فعله؛ لأنه أعم، من حيث إن الإنكار ـ الذي هو معنىٰ الهمزة ـ متوجه إلىٰ المعبود بالباطل، كما قاله الزمخشري. وعلىٰ كلام الزمخشري ملاحظة؛ وهي: أن الإنكار ـ الذي هو معنىٰ الهمزة ـ لا يتوجه إلىٰ الأفعال التي تتعلق بالذوات، فالذي أُنكر إنما هو الابتغاء الذي متعلقه غير دين اللَّه، وتقديم المفعول هنا من باب الاتساع.

وقد ذكر بعض المفسرين رواية عن الكلبي في سبب نزول هذه الآية، يُستبعد صحتها علىٰ هذا السياق؛ لأنه يبتر المعنىٰ المقصود، وذلك لأن الاستفهام جاء في سبيل الإنكار علىٰ أمم الرسل السابقين، وخصوصًا بني إسرائيل، فيقتضي تعلق الآية بما قبلها؛ فقد نصت الآية أن الذين نقضوا عهد اللَّه وميثاقه ولم يؤمنوا بمحمدٍ ﷺ؛ إنما كانوا طالبين دينًا غير دين اللَّه ومعبودًا سواه. وتمردهم هذا مخالفة للفطرة ومصادرةٌ للواقع؛ لأن كل ما سوىٰ اللَّه منقاد له خاضع لحكمه في طرفي وجوده وعدمه، ثم هو مستسلم طوعًا وكرهًا لأقداره ـ التي لا مفر له منها ـ؛ شأنه في ذلك شأن سائر المخلوقات، ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي له ـ لا لغيره ـ أسلم من في السماوات والأرض، إذ لا توجد إلا بتكوينه، ولا تفنىٰ إلا بإفنائه، فلا سبيل لأحد إلىٰ الامتناع علىٰ اللَّه في مراده، فالكل منقاد إليه ﷻ، مستجيب لأوامره، فمن لم يستجب له طوعًا في الدين، انقاد له كرهًا في أحكامه الكونية من المرض والفقر والموت وسائر الدواهي، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ [الرعد: ١٥].

وفي الآية أقوال أخرىٰ:

منها: أن المسلمين ينقادون للَّه طوعًا برغبة وإيمان، أما الكافرون فلا ينقادون إلا خوفًا من السيف.

وقول آخر عن الكفار: أنهم يسلمون عند معاينة الموت، أو نزول العذاب حين لا ينفعهم ذلك؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥].

وأخرج ابن جرير وغيره عن أبي العالية أنه قال: كل آدمي أقر علىٰ نفسه بأن اللّٰه ربِّي وأنا عبده، فمن أشرك في عبادته، فهذا الذي أسلم كرهًا، ومن أخلص للّٰه تعالىٰ العبودية فهو الذي أسلم طوعًا.

وقال مجاهد: «إسلام الكافر كرهًا: سجوده لغير اللّٰه، وسجود ظله للّٰه»، مستدلًا بقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨].

وفسر بعضهم «إسلام الكَرْه» بالخضوع للسنن الكونية والأقدار الإلهية، التي لا يقدر أحد علىٰ دفعها.

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ إخبار من اللّٰه أنه لا مفر لبني الإنسان منه، فإليه المرجع في الدنيا والآخرة، إليه يرجعون في الدنيا لنفوذ مشيئته فيهم، وأقداره عليهم؛ فهو القاهر فوق عباده، يسلط عليهم ما يشاء من أنواع البلاء والوباء وشتىٰ العقوبات القدرية. ثم يرجعون إليه في الآخرة؛ فيجازيهم علىٰ ما اقترفوا، ويذيقهم صنوف العذاب بما كسبت أيديهم.

وقوله سبحانه في الآية (٨٤) من السورة: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

فيه أمر عظيم من اللّٰه لنبيه محمدٍ ﷺ أن يعلن حقيقة العهد الديني، القاضي بوحدة دين اللّٰه لجميع المرسلين، وهو دين الإسلام كما تنص جميع الكتب المنزلة من اللّٰه علىٰ رسله، لئلا توجد «طائفيةٌ» تُحدث الشقاق في الأرض؛ فنبينا محمد ﷺ يعلن ـ بإذن ربه ـ شمول دين الإسلام لجميع الرسالات قبله، كما يعلن ولاءه لجميع

الرسل وتصديقه بكتبهم.

وهنا فوائد ولطائف:

١ ـ إفراد النبي ﷺ بالخطاب، في قول اللَّه سبحانه له: ﴿قُلْ﴾؛ لأنه تقدم ذكره في أخذ الميثاق في قوله: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾، فعينه اللَّه في هذا التكليف ليعلن صدقه لمن قبله من الأنبياء.

٢ ـ قوله ﴿ءَامَنَّا﴾ بصيغة الجمع: إخبار عن إيمانه ﷺ، وإيمان أمته المستجيبين له، وأنهم مشاركون له في التكليف بالإيمان بجميع المرسلين وما أنزل إليهم، ولهذا جاء ختام الآية بقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

٣ ـ التعدية بـ«علىٰ» بقوله: ﴿عَلَيْنَا﴾ وفي آية البقرة بـ«إلىٰ» في قوله: ﴿إِلَيْنَآ﴾ أحسن ما قاله عنها ابن عطية: أن الإنزال علىٰ نبي الأمة هو إنزال عليها.

٤ ـ تساءل بعض العلماء عن حقيقة الإيمان بالرسل الأقدمين، وقد نسخت شرائعهم، وخيرُ جواب أجابوه: أن نسخ الشريعة لا يقتضي نسخ النبوة، وأقول: إن النسخ كان في فروع الشريعة، لا في أصول التوحيد قطعًا، فإنها محكمة وثابتة لدىٰ كل الرسالات السماوية، وهي التي من أجلها أخذ اللَّه الميثاق علىٰ جميع النبيين.

وقدم اللَّه سبحانه الإيمان به بقوله: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾؛ لأن الإيمان باللَّه هو الأصل، ثم جاء بالمرتبة الثانية الإيمان بما أنزل علينا؛ وذلك لأن كتب الأنبياء جرىٰ فيها [من] التحريف والتبديل ما اللَّه به عليم، ولا سبيل إلىٰ معرفتها إلا بما أنزله اللَّه علينا بواسطة نبينا محمد ﷺ. ثم ذكر اللَّه في المرتبة الثالثة بعض الأنبياء، مخصصًا ذكر الذين يعترف بهم أهل الكتاب، ومجملًا ما عداهم.

وقوله سبحانه في الآية (٨٥) من السورة: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾:

هذا تحديد من اللَّه للدين الذي ارتضاه للبشرية جمعاء، وأوجب عليهم الدخول فيه بصدق وإخلاص، ألا وهو الدين الإسلامي. وللآية ارتباط وثيق بما سبقها من آيات؛ فإنه سبحانه نفىٰ أن يصدر من أنبيائه خيانة للتوحيد الذي أرسلوا به، ثم أثبت العهد الذي أخذه علىٰ أمم المرسلين، أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن يقوموا بنصرته، ثم أوجب علىٰ الأمة المحمدية أن يصرحوا بإيمانهم بجميع الأنبياء السابقين الذين جاؤوا بالإسلام ـ أيضًا ـ، ثم جاءت هذه الآية لتؤكد أن الدين الإسلامي هو الدين الذي ارتضاه اللَّه للناس جميعًا، وأن جميع الأديان غيره باطلة تعود علىٰ صاحبها بأسوأ النتائج، فقال سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾؛ لأن سعيه مردود عليه في الدنيا والآخرة؛ فلا يقبل منه في الدنيا غير الإسلام، أو السيف، أو الجزية مع التزام الصَّغار[1]، فدين اللَّه الوحيد هو الإسلام بجميع معانيه، من الاستسلام لجميع أوامر اللَّه، والانقياد لحكمه في جميع شؤون الحياة. ولا يكون المسلم مسلمًا بمجرد النطق بالشهادتين، ولا تكرارهما حتىٰ يصدق انتسابه ونطقه بالعمل المخلص بمدلولهما، من صدق التأله للَّه بالحب والإجلال والتعظيم والطاعة، والتحكيم لشريعته، والغيرة علىٰ دينه، والغضب لحرماته، وكل من يتلقىٰ من غير طريق رسول اللَّه ﷺ فقد أشرك غيره معه في الرسالة ووجوب الاتباع، ولم يعامله معاملة خاتم النبيين، فلا تنفعه شهادة أن محمدًا رسول اللَّه، كما لا تنفع شهادة ألَّا إله إلا اللَّه من خالف مقتضاها، بموالاة الكفار أو محبة الطواغيت، أو رفض تحكيم الشريعة، أو استباحة ما حرم اللَّه، أو إقامة حكم علماني يفضل فيه الكافر المواطن علىٰ المسلم غير المواطن.

وإنما قضىٰ اللَّه برفض غير دين الإسلام لعدة أمور:

---

(١) الصغار: الذل.

أولها: لأنه افتراء علىٰ اللَّه وعلىٰ رسله، ومن سلك سبيلًا غير سبيل الإسلام فهو من المفترين.

ثانيها: في ابتغاء الناس غير دين الإسلام يحصل تعبيد بعضهم لبعض، واتخاذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون اللَّه يتحكمون في مصيرهم.

ثالثها: أن غير دين الإسلام لا يصلح للبشرية ولا يصلحها، ولا يكون وافيًا بمتطلباتها، ولا رافعًا لرؤوسها، ولا حافظًا لكرامتها، ولا محققًا لسعادتها؛ لأنه من وضع البشر؛ بل من وضع الدجالين والمغرضين.

رابعها: أن هذه الأديان المفتراة لا تصلح أن تحكم أو تسود؛ فضلًا عن صلاحها للقيادة العامة التي يوجبها اللَّه لأهل دينه الصحيح وعليهم، كما أن هذه الأديان غير قادرة علىٰ تحقيق الوحدة والاتفاق بين الناس جميعًا؛ لما يحمله أهلها من البغض والعداوة لغير المتبعين لدياناتهم.

خامسها وسادسها: أن دين اللَّه ﷻ هو الكفيل بتحقيق وحدة الإنسانية وسعادتها وجمع كلمتها؛ لأنه يحرر النفوس من رق العبودية لغير اللَّه، ويجعلها خاضعةً للَّه وحده، ومن ثم لأنه جاء يدعو لكل معاني الخير، فقوَّىٰ روح الجماعة، وحارب النزعة الفردية، ولأنه يضع الناس جميعًا علىٰ قدم المساواة أمام أحكام الإسلام؛ ومن ثم فإن الإسلام دين ودولة، ونصوص ذلك متوافرة في الكتاب والسنة ـ لا مجال لسردها الآن ـ، وكلها تنص أن الإسلام دين ودولة، وليس مقصورًا علىٰ التشريعات التعبدية كما يزعم أعداؤه.

سابعها: أن دين اللَّه الإسلام يزكي الإنسان ويسمو بعقله، ويرتفع بإنسانيته عن مستوىٰ الحيوان، الذي يهبط فيه بالتصورات الجاهلية المنحرفة عن العقل الصريح والعلم الصحيح، ويحميه من الارتكاس في حمأة الرذيلة، وذل العبودية للشهوات، وإذا حُرم الإنسان من حسن التصور الإسلامي، فإنه لابد أن يتنكر لنفسه وطاقاته، ويسدُّ علىٰ نفسه

وسائل المعرفة باللَّه، وهو عائش في فضله، وراتع في ملكوته، ويحصر نفسه في دائرة ضيقة، وهو يملك الانطلاق في العالم الفسيح، الذي هو مسؤول عنه أمام اللَّه، فيقطع صلته بالقوة العظمىٰ، وينعزل كما تنعزل الحشرات والدواب، وهو بقوة صلته باللَّه يملك أن يوسع نفسه وحياته، ويوسِّع صلاته بالكون، ويصنع المعجزات الروحية بالزحف برسالته، ويكون تطوره تطورًا صحيحًا، علىٰ قواعد ثابتة يسير وفقها، ولا يسيِّره أحد.

فالإسلام هو الذي يضبط نوازعه، ويحميه من الارتكاس في الأنانيات المرذولة، والانغماس في شهوات الجسد الملهوفة، التي تدنِّسه وتنحط به إلىٰ أرذل الحالات،؛ لأنه دين صحيح يساير الفطرة، فلا يدعو إلىٰ روح مطلقة مجردة عن المصلحة الدنيوية ولذائذها المباحة، ولا إلىٰ مادية مطلقة ضارية مجردة عن الروح، وليس من أصول الإسلام التجرد عن الدنيا والترهب فيها والانقطاع إلىٰ الآخرة، وإنما شأنه التوفيق والتنسيق بين مطالب الجميع بدون طغيان ولا إسراف، بل يريد الطريق الوسط كما أوضحنا بيانه في عدة مناسبات ـ خصوصًا في تفسير ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ ـ، أما الإيغال بالماديات التي غزتنا بها «أوروبا»، فهو جماح لا يكبحه سوىٰ تعاليم ديننا من التوسط والاعتدال، وأن يرده إلىٰ الإيمان الصحيح باللَّه، إيمانًا يقود إلىٰ الإذعان.

والإسلام يقرن السلب بالإيجاب، لأن السلب بغير إيجاب يوجب الانتفاضة علىٰ أهله من الداخل:

أولًا: كما حصل علىٰ دين الكنيسة ورجال الكهنوت.

وثانيًا: أن السلب يجعل أمة الإسلام منطوية علىٰ نفسها، ومخلة بحمل رسالتها، فتكون مهددة بالغزو الحضاري والثقافة الخارجية؛ كما حصل فعلًا بسبب انكماشها وجمودها، وانحسار مدِّها الذي لا يجوز أن ينحسر؛ لأنها حينئذ لا تقدر علىٰ الاحتفاظ بتماسكها الروحي.

ثامنها: أن الإسلام يجب أن يكون دينًا ودولةً كما رسمه اللَّه لأنبيائه عليهم السلام - عمومًا -، ولخاتمهم محمد ﷺ - خصوصًا -، وكما سار عليه في حياته، وسار عليه خلفاؤه بعد وفاته، فإن «الدين» مشتق من «الإدانة» التي هي الحكم والإخضاع، فمعنىٰ «دان يدين» أي: خضع بالطاعة والولاء والانقياد لأوامر الشريعة ونواهيها، فمبدأ الإسلام - الذي حمله محمد ﷺ بجميع معانيه وأنظمته ومفاهيمه التشريعية والتعبدية -، يجب علىٰ المسلمين أن يدينوا بها جميعًا رضاءً منهم بما ارتضاه لهم بقوله جل جلاله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]؛ دون اقتصار علىٰ شيء دون شيء؛ فإن المقتصر علىٰ بعضها غير راض بما رضيه اللَّه له، وغير راض بإتمام النعمة من اللَّه بدينه الإسلام، الذي يجب أن يؤخذ كله ويُعمل به كله دون تشطير، فالإسلام بمعناه دين يجب أن يدين له المسلمون بجميع مفاهيمه كلها؛ لا مفهوم دون آخر، ولا معنًىٰ دون غيره، فمن عمل ببعضه دون بعض فقد اعتبره اللَّه مؤمنًا بالبعض وكافرًا بالبعض الآخر، كما حكم علىٰ بني إسرائيل من قبلنا، حيث ساروا علىٰ هذا المنوال، وتوعدهم علىٰ ذلك بعذاب الخزي في الدارين، كما نصت عليه الآية (٨٥)، من سورة البقرة. ولقد صدق وعيد اللَّه؛ إذ أصاب المسلمين بخزيٍ كبير وذلةٍ مرذولة، حيث تركوا الحكم بما أنزل اللَّه فكانوا في هذا الواقع المرير والصورة الأليمة.

والأدلة والبراهين علىٰ أن دين اللَّه الإسلام دين ودولة، متوافرة من الكتاب والسنة، ويشهد العقل الصريح بذلك، بل يوجبه ويحتمه:

فمنها: قوله سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة]، أي بتنزيله، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة] المنتقصون لجنابه الكريم، والباخسون لحقه، فالظلم هنا يعطي مدلول الكفر، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة] الخارجون عن طاعته ودينه كما أسلفنا، فالكفر والظلم

والفسق بمعني واحد.

وقيل: إن من لم يحكم بما أنزل اللَّه عن جحود له، أو اعتقاد عدم صلاحيته فهو الكافر، وهذا ليس فيه شك، وأكثر التاركين لتحكيم الشريعة في هذا الزمان هم من هذا القبيل، وتصريحاتهم طافحة بعدم صلاحية الدين وأحكامه لهذا العصر، وأنها وحشية وهمجية لا تناسب الإنسانية في هذا الزمان لقسوتها، وهذا من أفظع أنواع الكفر؛ لأنه كفر تعطيل للَّه أشنع من كفر الشرك ـ كما قدمنا توضيحه ـ.

وأما الذي يترك الحكم بالشريعة لملابسات وضغوط تضطره وهو مؤمن بها، ويستحسنها، ويحترمها، ويرجو القدرة علىٰ تحكيمها، فليس من أهل هذه الأوصاف.

ومنها: قوله سبحانه في الآية (٤٨)، من سورة المائدة: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨]، وفي الآية (٤٩): ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ٤٩﴾ [المائدة]، وفي الآية (٥٠): ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠﴾ [المائدة]، وقوله في الآية (٦٥)، من سورة النساء: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النساء]، وفي الآية (٦٠، ٦١) منها: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١﴾ [النساء]، وقوله في الآية (٥١) من سورة النور: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥١﴾ [النور].

وقد ذكر اللَّه في القرآن قصصًا عديدةً من قصص الأنبياء التي يثبت

فيها أن دينه الإسلام دين ودولة، ودين سياسة وحكم، وتجد ذلك واضحًا في قصة شعيب وموسىٰ ويوشع بن نون وداود وسليمان وغيرهم، وأحاديث السنة متوافرة في ذلك، ويكفي المسلمين سيرة نبيهم ﷺ الواجب عليهم اتباعها اقتداءً به، فهو إمامهم في المحراب للصلاة، وإمامهم في الحكم وتكوين سياسة الدولة؛ لأن دينه أعمق شيء في السياسة، وهو قائد حربي؛ ولأن دينه دين عسكريٍ زحَّاف، وهكذا يجب علىٰ المسلمين أن يولوا عليهم إمامًا يبايعونه علىٰ كتاب اللَّه وسنة نبيه ﷺ يسلك بهم ما سلكه نبيهم في إقامة هذا الدين، وينهج بهم منهجه السياسي والاقتصادي والاجتماعي، ويقيم علم الجهاد خفاقًا لإعلاء كلمة اللَّه، ببسط نفوذ دينه في الأرض، وتحكيم شريعته، وإقامة حدوده، وقمع المفتري عليه، فلقد كان رسول اللَّه ﷺ قائدًا حربيًّا مخططًا للحرب، وكان خيرَ أسوةٍ في الشجاعة المنقطعة النظير وقوة الصبر والثبات، وكان مع هذا سياسيًّا محنكًا، يدير شؤون الأمة الداخلية والخارجية علىٰ أقوم الأسس وأحسن الوجوه، ويبرم المعاهدات بينه وبين اليهود، وبينه وبين المشركين، والمعاهدة التي عقدها مع اليهود بعد الهجرة تعتبر من أروع الوثائق السياسية.

وفي دين اللَّه الإسلام من التشريعات المدنية والسياسية والحربية والسلمية، ما يتضح لكل عاقل أنه دين ودولة، دين عبادة وسيادة وقيادة عالمية، فليس مقصورًا علىٰ التشريعات التعبدية؛ وإنما فيه تشريعات المعاملات الدنيوية من البيع والشراء والخيار، وبيع الأصول والثمار، وأحكام سائر البيوع والربا والصرف، وسائر أحكام المعاملات من الرهن والقرض والكفالة، والضمان والحوالة والوكالة، وأحكام الشركات المتنوعة، والصلح والحَجْر، وأحكام الجوار، والشفعة، والإيجار، والمساقاة، والمزارعة، وأحكام الأرض الموات، وطريقة التملك لها والتصرف بها، وأحكام اللُّقَطة واللقيط والوقف، والهبة، والعطية، والوصايا، وتصرفات المريض، وتفصيل المورايث، والإعتاق،

وأحكام النكاح، والصداق، وعشرة النساء والطلاق والخلع، والعدة، والإنفاق والرجعة، والإيلاء والرضاع، واستبراء الرحم، وأحكام القصاص، والعفو والديات، والجنايات علىٰ النفوس، والأعضاء والعقل، وسائر الأحاسيس، وأحكام الصيال والعدوان وحدود اللَّه في السرقة والتلصص، وقطع الطريق، والإفساد في الأرض، وأحكام الأيمان والنذور، وأحكام القضاء، والدعاوىٰ والبينات، وأحكام الإقرارات المتنوعة، والاستصناع والعقد، والفسخ، والأحكام السياسية، من الحرب والشورىٰ، والسِّلم وعقد الهدنة، والأمان، وعقد الصلح والذمة، وإبرام المعاهدات السياسية، والعقود التجارية، وسائر الأحكام التي اعتنىٰ الإسلام بها، وأوجب فيها الصدق والوفاء، مما يتضح به أن الإسلام دين ودولة، دين عبادة وسياسة، وإلا فما فائدة هذه التشريعات المتنوعة في جميع مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والثقافية؟!!

إن وجود هذه الأحكام الشاملة لجميع نواحي الحياة لدليل قاطع علىٰ أنه دين ودولة، ولا يجوز تجريد الإسلام عن الحكم والدولة؛ فتجريده كفر صريح؛ لأنه انحراف به عن وضعه الصحيح، ومنافٍ لأصله وطبيعته، ولم يعرف القول بفصل الدين عن الدولة وإقصائه عن الحكم إلَّا بعد الثورات الأوربية علىٰ الكنيسة الكهنوتية التي هي من أوضاع اليهود، والثورة عليها من دسائسهم وأحابيلهم، ولا يجوز قياس دين الإسلام علىٰ الأديان المكذوبة علىٰ اللَّه؛ مما فيها من تحجير علىٰ العقل، وحرمان للعلم، وفرض سلطان الكهنوت علىٰ الناس، مما لم ينزل اللَّه به من سلطان، فقياس المتفرنجين للإسلام علىٰ دين الكهنوت قياس فاسد؛ لأن الإسلام ليس فيه رجال دين يتحكمون بالناس، وإنما فيه ربانيُّون لنشر العلم والفضيلة وتحرير العقول وإتاحة الفرصة لكل مخترع ومبدع، كما يشهد بذلك التاريخ، وحتىٰ الألقاب العلمية ليست في الإسلام، كالمفتي الأكبر ونقيب الأشراف وصاحب الفضيلة، ونحو ذلك، فكلها محدثة مبتدعة؛ وإنما

يشار إلىٰ الفقيه باسمه، ويمتاز بوفرة علمه ـ لا بعمامته وألقابه أو وظيفته التي يختارها له الحكام كما في هذا الزمان ـ.

فمن لم يجعل الإسلام دينًا ودولةً، وأقصاه عن الحكم ـ يريد حكمًا علمانيًّا ـ، فهو رافض لألوهية اللّٰه، منتقص لجنابه العظيم، وكفره أشنع من كفر اليهود الذين يسميهم القوميون «صهاينة»، ويجب علىٰ المسؤولين في الإسلام قتله.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٩]: ينكر تعالىٰ علىٰ من خرج عن حكم اللّٰه المشتمل علىٰ كل خير، الناهي عن كل شر، وعَدَل إلىٰ سواه من الأهواء والاصطلاحات، من فعل ذلك يجب قتله حتىٰ يرجع إلىٰ حكم اللّٰه ورسوله. انتهىٰ باختصار. وكذا قال غيره من علماء الإسلام قديمًا وحديثًا.

والإسلام قائم علىٰ العدل والمساواة في الحقوق بين المسلمين وغيرهم من الطوائف، فلا يفرق بينهم وبين المسلمين في الحكم؛ إلا إذا كان في مصلحة الكافر كإهراق الخمر ونحوه، مما هو مباح ومتموَّل في مذهبه، فإن المسلم يضمن ما يتلفه من خمر النصارىٰ ونحوهم، ولا يضمن ما أتلفه من خمر المسلم؛ لأنه لا يجوز له شربه، ولا تملُّكُه، وهذا من عدالة الإسلام ورحمته بمن يحكمهم من الطوائف الأخرىٰ.

وبالجملة: فالحكم من ضروريات الإسلام، وقد ذكرنا أن كل مذهب من المذاهب المادية ليس له قيمة إذا لم يحكم أهله به، ويفرضوا سلطانهم باسمه علىٰ الأمة، فكيف يريدون إقصاء الإسلام عن الحكم، ورفض أحكامه في شؤون الحياة؟!

إن من لم يعترف للإسلام بأنه دين ودولة؛ فإنه قد ابتغىٰ غير اللّٰه حكمًا، ولم يرض باللّٰه ربًّا، ولا بالإسلام دينًا، ولا بمحمد ﷺ رسولًا، وإن اعترف بلسانه بذلك، فإن اعترافه لا يجديه نفعًا، بل اعترافه

كاعتراف المنافقين الذين أخبرنا اللَّه عنهم في الآية (٦١) من سورة النساء حيث قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء]، فالذي لا يرضىٰ ـ كل الرضا ـ بتحكيم دين اللَّه في جميع شؤون الحياة هو منتقصٌ لجناب اللَّه العظيم، ومنددٌ بعلمه وحكمته، وهو من الكفر بمكان فظيع، خصوصًا إذا اعتقد أن دين اللَّه لا يصلح لهذا العصر، وأن شريعته وحدوده قاسية لا تناسب الإنسانية في هذا الزمان، فإن هذا من أكفر الكفر، وهو قرة عيون الكفار من الغربيين والشرقيين، وقرة عين دولة إسرائيل، ولا يكون المنتسبون للإسلام مؤمنين حقًّا حتىٰ يُحكِّموا دين اللَّه في جميع شؤونهم السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية وسائر شؤون الحياة، كما قضىٰ اللَّه بذلك فيما أسلفنا من الآيات. فالمسلم ليس إسلامه مقصورًا علىٰ المسجد فقط، كحال الذين لا يعرفون دينهم إلَّا في الكنيسة يوم الأحد، وما عداه يعبدون أهواءهم، ويجعلون لأنفسهم الخِيَرة، ويحتكمون إلىٰ الأنظمة الطاغوتية، ولكن المسلم مسلمٌ في المسجد والشارع والمصنع والمراكز التجارية، والمؤسسات الحكومية ودور التعليم والثقافة ووسائل الطبع والنشر والمصارف، وغير ذلك، يراقب حكم اللَّه في كل شيء، وينفذه غاية التنفيذ علىٰ نفسه أولًا، ثم علىٰ غيره، وأيضًا كيف يحصل التواصي بالحق والتواصي بالصبر الذي أعلاه الجهاد في سبيل اللَّه لتحقيق الزحف المقدس، وأدناه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ، كيف يحصل ذلك مع إقصاء الدين عن الحكم والحياة؟! إن هٰذا الركن العظيم ينهدم بإقصاء الدين عن الحكم، وجَعْلِه للملاحدة من أفراخ الاستعمار وتلاميذه في الثقافة، وإذا انهدم هذا الركن فماذا يبقىٰ من الإسلام؟!

تاسعها: يتشدق الملاحدة ـ الذين أبرزتهم الثقافة الكافرة والمنخدعون بتلبيساتهم ـ بكلمة عريقة في المكر والتضليل هي

زعمهم «أن الدين علاقة بين العبد وربه فقط لا شأن لها في الحياة»! ومقصودهم واضح، وهو فصل الدين عن الحكم والسياسة، وإبعاده عن واقعيات الحياة، وشبهتهم هذه مدحوضة بالعقل والنقل، وباطلة من الأساس، ومجرد تصورها عقلًا كافٍ في إفسادها، فالذي يتصورها بعقلِه الفطري الصريح يدينهم بنفس مدلولها ويجعلها حجة عليهم، ناقضة لأصولهم الفاسدة وقاصمة لظهورهم، ومرغمة لأنوفهم؛ لأن علاقة العبد بربه ليست مقصورةً علىٰ نوع دون نوع من العبادات، كما يزعمه حملةُ الأفكار الماسونية، ومن انطلت عليه أكاذيبهم من قاصري النظر الجاهلين بالعقيدة، الذين يحسبون أن عبودية اللَّه - التي يطلبها الإسلام من أهله - مقصورةٌ علىٰ صلوات وأذكار في المساجد، أو صوم يؤديه أكثر الصائمين بتوجع وسوء استقبال، أو زكاة يدفعها بعض من يدفعها بلا مراعاة جهاتها وموقعها من الحاجة، أو حجٍّ يرجع منه غالب أهله دون أن يشهدوا منافع لهم، أو أن يقدس البعض طرقًا ومواليد مبتدعة.

كلَّا ثم كلَّا؛ إن عبودية اللَّه - التي يفرضها الإسلام علىٰ أهله - تتعمق إلىٰ جميع نواحي الحياة السياسية والثقافية والاقتصادية، والاجتماعية والحربية وغيرها، ومن قصر في شيء منها فهو مخلٌّ بعبودية رب العالمين بحسب ذلك. وما من معاملةٍ علىٰ وجه الأرض؛ إلا والمسلمون مسؤولون عن اعوجاجها بحسب المستطاع، وما من فساد يظهر في البر والبحر إلا وهم مطالبون بإصلاح ما قدروا علىٰ إصلاحه منه، ليحققوا خيراتهم المتوقف تحقيقها علىٰ الجهاد والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ.

وعبودية اللَّه توجب علىٰ صاحبها أن يعامل الناس بمثل ما يحب أن يعاملوه به، فيلتزم النصح والصدق في الأقوال والأعمال، ولا يمكر

بأحد أو يخادعه، ولا تأخذه الموجدة[1] عليه فيحيك ضده المؤامرات، ولا يلتمس المستور من مساوئ الناس فيحملهم علىٰ التنقيب علىٰ مساوئه، بل الإسلام أعلىٰ من ذلك، فهو دين سياسي عسكري حربي عظيم، فالسياسة من أعظم ركائزه وشرائعه، ولهذا كان الحب في اللَّه والبغض في اللَّه، والموالاة في اللَّه والمعاداة في اللَّه لُبابَ الإيمان، وكان الجهاد ذروة السنام من الدين، فلا يبيح الإسلام لأهله أن يربطوا محبتهم بالعاطفة بتاتًا، ولا موالاتهم ومعاداتهم بالنفعية وسائر الأغراض النفسية، بل تكون علاقاتهم السياسية مرتبطةً بما يحبه اللَّه ويوجبه من نصرة الإسلام وتحقيق مصالحه، وإعزاز أهله في مشارق الأرض ومغاربها، وصيانة عقيدتهم وأخلاقهم، وتوسيع رقعة الإسلام وإذلال أعدائه أو إيقافهم عند حدهم، ويحرم أن تكون علاقاتهم السياسية علىٰ غير هذا السبيل من العمل للمصالح الوطنية والقومية الوثنية، أو الكيان أو الحدود الأرضية ونحو ذلك، من الماديات ورفعة الأشخاص، وإنما تنحصر السياسة في تعزيز الكيان الإسلامي، واحترام حدود اللَّه.

ثم إن الإسلام يوجب الجهاد في سبيل اللَّه لإعلاء كلمته وقمع المفتري عليه، والزحف المقدس لنشر الإسلام وحماية الدعاة إليه والمعتنقين له عن الفتنة التي وصفها اللَّه بأنها أشد من القتل وأكبر، وقد توعد اللَّه المتخلفين عن الجهاد بالذلة التي لا يرفعها عنهم حتىٰ يراجعوا دينهم بالجهاد، وشدد في عقوبة الفرار حين التحام القتال، ورسم لأمةِ الإسلام الطرقَ الحربية، ووصاهم بالصبر والثبات وقوة العزيمة والصدق في المرابطة، وأخذ الحذر من العدو قائلًا: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء]؛ يعني: لا تضعفوا في

---

(١) الموجدة: الغضب.

طلب عدوكم، ولا تخور قواكم عند لقائه ومنازلته؛ بل جدوا في طلبهم، واثبتوا عند لقائهم، واحصروهم، وضيقوا عليهم الخناق، واحرصوا علىٰ إثخانهم بالقتل، ولا تبالوا بما يصيبكم، ولا تتراخوا من شدة الهول، ولا يثقل عليكم عبء الجهاد ومشقته، فتنصرفوا أو تهادنوهم قبل تحقيق أهدافكم، واعلموا أن أعداءكم يألمون كما تألمون، وينالهم مثلما تنالون، ولكن مع الفارق الأكبر، وهو أنكم ترجون من اللَّه وعدًا كريمًا عظيمًا، لا يرجوه أعداؤكم ولا يؤملونه؛ لأنهم مبتورو الصلة باللَّه؛ فأنتم ترجون وعد اللَّه الكريم بالفتح والنصر العزيز، ورفعة الشأن لأحيائكم، والفوز العظيم المنقطع النظير لشهدائكم، والمنازل العالية في جنات عدن للجميع، وإذا كان أعداؤكم لا يحسبون لما ترجونه حسابًا، فاثبتوا واصدقوا في الجهاد مستيقنين بحصول حظوظكم الوافرة، حتىٰ تتحقق. فيا لها من تعاليم إسلامية تركز الروح المعنوية وتبعث الأمل الكامل في النفوس، وتشخص الأهداف ماثلةً أمام أعين المقاتلين!.

ففي مدلول هذه الآية الكريمة تربية عسكرية علىٰ القوة المعنوية، ورباطة الجأش، لم تتوصل إليها أحدث تربية عصرية للجيوش في التعاليم المادية، مما يتضح بذلك أن دين اللَّه الإسلام دين سياسي، عسكري، يلهب الحماس، ويفجر الطاقات، ويقوي الهمم والعزائم، وأنه ليس أفيونًا للشعوب كما يزعمه الملاحدة الشيوعيون، تقليدًا لطاغوتهم اليهودي الماركسي.

وقد وردت النصوص في أن من لم يجاهد، ولم يحدث نفسه بالجهاد يموت ميتةً جاهلية، كما وردت النصوص في تعلُّم الرمي، وجريمة من تركه بعد التعلم، وجاء نص القرآن بوجوب الاستعداد بكل قوة مستطاعة. ومن لم يجاهد في سبيل اللَّه بنفسه أو ماله أو لسانه أو قلمه، فقد قطع علاقته باللَّه، ومن لم يغضب للَّه أشد من غضبه لنفسه، ويغار لحرمات اللَّه أشد من غيرته علىٰ أهله، فقد قطع

علاقته باللَّـه، ومن لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر ـ مع قدرته وعدم إخافته ـ فقد قطع علاقته باللَّـه، ومن لم يحكم بما أنزل اللَّـه فقد قطع علاقته باللَّـه، ومن نصَّب نفسه مشرِّعًا للأنظمة المخالفة للشريعة فقد قطع علاقته باللَّـه، وهكذا علاقة العبد بربه يجب أن تكون شاملةً لجميع نواحي الحياة، خصوصًا الناحية السياسية، فإن الإسلام اعتنىٰ بها غاية الاعتناء لقوة علاقتها بمدلول الألوهية التي هي الأصل الأصيل في دين اللَّـه، ولهذا حرم اللَّـه علىٰ المسلم موالاة الكافر وتوليه؛ لأن الكافر لا يمكن أن يواليَ المسلم بتاتًا إلا علىٰ حساب دينه وعقيدته، فلو التزم المسلم حقيقة دينه لسخط عليه الكافر، ونابذه وابتعد عنه، ولكن إذا أبدىٰ المسلم مودة الكافر علىٰ خلاف مرضاة اللَّـه، وداهنه علىٰ شركه باللَّـه وسكت عن الإنكار عليه إذا سمعه يدَّعي عن المسيح أنه اللَّـه أو ابن اللَّـه، وهضم شتمه لدين الإسلام وإنكاره الوحدانية، وداهنه في الحلف بغير اللَّـه، أو دعاء غير اللَّـه ونحو ذلك، مما يصادم دين الإسلام؛ فإنه يرضىٰ منه بسبب تنازله عن دينه وسكوته عن الإنكار، ورضاه بإباحة ما حرم اللَّـه، وهكذا، فالأصل الأصيل في دين اللَّـه الإسلام هو البراءة من الشرك بجميع أنواعه، سواء تمثل في اليهودية أو النصرانية أو البوذية أو الوثنية ـ أو سائر الملل والنحل ـ، فلابد للمسلم من البراءة من ذلك تحقيقًا لملة إبراهيم عليه السلام؛ كما حكىٰ اللَّـه عنه في الآيات (٢٦ ـ ٢٨)، من سورة الزخرف: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

فالبراءة من الكفار مشروطةٌ في الإسلام، وهي من ضرورياته، ولا عيب عليه في ذلك؛ لأنه ليس بدعًا في هذا التشريع الأصولي، ولأن العقل يقضي به، وكل ملة من الملل الباطلة تعامل الأخرىٰ هذه المعاملة لا يشذ عنها إلا المنحرف المتميع، وبما أن المسلم يوجب عليه الإسلام أن يحب اللَّـه ورسوله محبةً أعلىٰ وأغلىٰ من محبته

لنفسه وولده ووالده وأهله والناس أجمعين، فإن من مقتضيات محبته ولوازمها أن يُبغض أعداءه المفترين عليه ويتبرأ منهم، ومن المعلوم أن من ادعىٰ للَّه ولدًا أو شريكًا فهو عدوٌّ له يجب علىٰ المسلم بغضه ومنابذته والبراءة منه؛ لأنه ليس في الاقتراب منه منفعة للإسلام والمسلمين، بل علىٰ العكس، فلهذا جاءت سياسة الإسلام بالبراءة من أعداء اللَّه، وتحريم موالاتهم، ومنع الوثوق بهما والركون إليهم، حيث قال اللَّه سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الآية (٥١) من سورة المائدة وما بعدها.

وقد نادىٰ اللَّه المؤمنين بالتحذير من الاطمئنان إلىٰ من سواهم أو الميول إليه رغبةً أو طمعًا فيه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران].

وقد فضح اللَّه أحوال أعدائه بأساليب مطردة إلىٰ يوم القيامة، منها، هاتان الآيتان، والآية الثامنة من سورة البقرة إلىٰ الثالثة عشرة، والآية (١٠٩)، إلىٰ (١٢٠) منها، والآية (٢٧)، (٨٩) من سورة النساء، والآية (٨، ١٠) من سورة التوبة: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةًۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةًۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة]، والآية (٧٢) من سورة الأنفال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ

مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنفال]، والآية (٧٣) منها: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال].

وقد حصلت الفتنة في العقيدة والفساد الكبير في الأخلاق، بسبب اختلاط الكفار بالمسلمين، وموالاتهم ومؤاخاتهم باسم الوطنية والجنسية، بدلًا من منابذتهم والنفرة والبراءة منهم، كما أوجب اللَّه ذلك سياسيًّا. وقد تقدم تفسير الآية (٢٨) من هذه السورة، وقال اللَّه في الآية (١٤)، من سورة المجادلة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المجادلة] والآيتين بعدها، وقال في الآية (٢٢)، من السورة نفسها: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وغير ذلك من الآيات التي لا نطيل لها المقام، وإنما نورد ذلك ليتبين للمنصبغين بصبغة الإفرنج أن السياسة في دينهم أعظم سياسة وأقواها، وأنه ليس مقصورًا علىٰ الروحانيات كما خدعهم أعداؤهم بذلك.

ونزيدهم ـ أيضًا ـ أن دينهم يحرم عليهم محبة من شاق اللَّه ورسوله أو موالاتهم ـ ولو كانوا أقرب قريب ـ، كما نصت عليه الآية (٢٢) من سورة المجادلة الآنفة الذكر، وكما قال تعالىٰ في الآية (٢٣) من سورة التوبة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾؛ كما حرم عليهم تفضيل محبة شيء من المحبوبات الشهوانية علىٰ حب اللَّه ورسوله والجهاد في سبيله؛ حيث قال في الآية (٢٤) من نفس السورة: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ

وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ [التوبة].

ولهذا لما نظر طواغيت اليهود والنصارىٰ في السياسة الإسلامية التي ركزها القرآن، علموا أنهم لا يقدرون علىٰ تحطيم كيان المسلمين عامةً والعرب خاصةً، وتمزيق وحدتهم ما داموا متمسكين بالقرآن أو ملتفتين إليه، فعملوا علىٰ إبعادهم منه وإشغالهم عنه، وصرفهم عن توجيهاته وتعاليمه بما جعلهم في هذه الحالة الموبوءة، وقد نجحوا في إغرائهم بالقوميات وإرجاعهم بسببها إلىٰ ضروب من الوثنية الهدامة، المتلوِّنة بشتىٰ الألوان، والمتمثِّلة بصنوف من الطواغيت، تمركزوا في كل ناحية وميدان في العالم، ومن لم يتمركز احتضنه الأغرار المتمركزون بمكر خفي من الماسونية، فأصبحوا في مراكزهم كالواجهات ينفذون ما ينفثه ويرقمه أولئك، وساعد علىٰ ذلك جمود بعض العلماء وتخليهم عن واجبهم، وانزلاق بعضهم في فتنة الشبهات والشهوات، وانصياع بعضهم إلىٰ خدمة محترفي السياسة الماكرين بالأمم والشعوب.

وبالجملة فالعلاقة الدينية التي يريد الملاحدة قصرها في أضيق نطاق هي علاقةٌ عامةٌ عميقة في جميع ميادين الحياة، خصوصًا الحياة السياسية كما أوضحها شمول الدين الإسلامي للجميع، وأن اللَّه لا يرضىٰ من عبده أن يتخلىٰ عن الإصلاح في الأرض، وتطهيرها من الظلم والفساد، ولا يرضىٰ من عبيده أن يسمحوا لأعدائه بافتراء الكذب عليه، أو يقرونهم ويشجعونهم عليه بمؤاخاتهم أو موالاتهم، فإن مؤاخاتهم باسم الوطنية أو الجنسية خروج عن عبادة اللَّه إلىٰ الكفر القبيح كما سردنا بعض النصوص في ذلك، ولا يفعل هذا إلا عبيد السوء المغضِبين للَّه بعدم الانتصار لدينه وشرعه، واللَّه سبحانه لا يرضىٰ لعباده أن يعيشوا بإيمان أعزل أمام إلحاد مسلح؛ فيكونوا محتقرين تملىٰ عليهم الإرادة من كل طاغوت يهزأ بهم، ويسخِّرُهم

فيما يشاء كما هو مقصود من إقصاء الإسلام عن السياسة والحكم، وحصره في المسجد مراقبًا من الملاحدة في الخطبة والمحاضرة، أو يفرضون الخطبة علىٰ المسلمين فيما يريدون، فما فائدة هذه العلاقة المزعومة؟!!.

إن علاقة المحب بمحبوبه والعبد بمربوبه لا تسمح بشيء من هذا أبدًا، ولو حصل منه انبترت علاقتُه بربه ومحبوبه نهائيًّا، بل توجَّب عليه أن يقيم وجهه للدين حنيفًا، وأن يخطط للإسلام أقوىٰ مما يخططه الملاحدة لمبادئهم ومذاهبهم حتىٰ يتمكن من دحر الباطل وإحقاق الحق ورفع مناره وإصلاح الأرض علىٰ ضوئه، ووفق تعاليمه وتطهيرها من كل كفر وظلم وفساد، ليحقق عبوديته لربه ويصدق علاقته به، وإلا فما معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف]؟!

إن الذين يحصرون علاقة المرء بربه في أضيق نطاق لا يرضون من رعاياهم وموظفيهم بِهذه العلاقة كما ذكرته في قصيدتي الميمية؛ فإن الزعيم القومي ونحوه لا يرضىٰ من رعاياه وموظفيه أن يقتصروا في علاقتهم معه ومعاملتهم له علىٰ مجرد احترامه وتعليق صورته والانحناء لعظمته؛ دون أن يتقيدوا بأوامره، وينفذوا تشريعاته؛ بل يعاقبهم بما يراه رادعًا، ويرىٰ ذلك حقًّا من حقوق سلطانه، وعلىٰ هذا فكيف يرضىٰ للَّه ما لا يرضاه لنفسه؟! لقد جعل سلطانه فوق سلطان اللَّه، وحقه أوجب من حقوق اللَّه، كيف يحصر القومي حق اللَّه في المسجد فقط، ويجعل لنفسه جميع الحقوق في سائر الميادين؟! وهذا من أبشع الإلحاد وأكفر الكفر، وهذا هو واقع الدول العلمانية التي أقصت الدين الإسلامي عن الحكم والسياسة قياسًا علىٰ فعل النصارىٰ في تمردهم علىٰ سلطان الكنيسة الظالم، فإن مؤسسي الحكم العلماني قد جعلوا لأنفسهم منزلةً أعظم من اللَّه، وهم ـ بِهذه الخطة ـ قد

انتقصوا اللَّه ورسوله انتقاصًا لم يسبقهم إليه كافرٌ في غابر القرون، حيث قيدوا علاقة المسلمين باللَّه في المسجد ونحوه، وأوجبوا عليهم الانقياد لهم في كل ميدان، والاستسلام لهم في كل ناحية من نواحي الحياة مما هو تأليه لشخصياتهم من دون اللَّه بِهذا العمل الذي يحتوي علىٰ جميع معاني التوحيد، وجعلوا حدود الوطن ومحبة الجنس ـ وما يتبعها من شعارات وطقوس ـ فوق حدود اللَّه، وأعلىٰ من محبته، فهم أشر بكثير من كل جاهلية سبقتهم؛ لأنهم جعلوا للَّه جزءً يسيرًا من الانقياد، وهم لا يرضون إلا بالانقياد الكامل التام لحكمهم، وأغروا الناس علىٰ التمرد علىٰ حكم اللَّه وشريعته، بينما هم يشرعون لهم ما يوافق مصلحة حكمهم، ولا يسمحون لأحد بالإخلال فيما يشرعونه؛ لهذا زاد كفرهم علىٰ كل كفر سبقه.

ومن جملة انتقاصهم لجناب اللَّه واستهانتهم بعزته وتنديدهم بحكمته ورحمته: قولهم: «إن الدين لا يصلح لهذا العصر»، ولو قال لهم أحد: «إن حكمكم لا يصلح لهذا العصر، ولا يناسب إلا عصر «مزدك» في البيئة المجوسية»، لغضبوا عليه، وأنزلوا به أفظع العقوبات؛ لأنهم يرون أن مذاهبهم أزكىٰ وأصلح من دين اللَّه، وهذا أشنعُ أنواع الكفر، ولو كان عندهم ذرةٌ من وجدان وإنصاف لنطقوا بالحقيقة الصريحة، وهو أن دين اللَّه لا يصلح للأهواء الموبوءة، ولا يساير الشهواتِ المسعورةَ، وإنما هو يسيِّر الناس نحو المجد والعزة والسؤدد والرفعة ويزكي نفوسهم، ويرتفع بها عن المستوىٰ البهيمي الذي أركستهم الآن فيه التعاليمُ الماسونية.

ألا وإن الإسلام صالحٌ مصلح لكل عصر كما قدمنا توضيحه، لاحتوائه علىٰ جميع عناصر القوة في الحياة، وفي أصول تشريعاته من الحكمة والمرونة ما يحل جميع المشاكل ويتطور معها، وهو محتفظ بحيويته واستقلاله التام عما سواه، كما شهد بذلك الأعداء، خصوصًا مؤتمر القوانين المنعقد في مدينة «لاهاي»، الذي قرر قرارًا يقطع

علىٰ دعاة فصل الدين عن الدولة، ورميهم الشريعة الإسلامية بالجمود، ويدفعهم علىٰ أم رؤوسهم.

ومن العجب أن يبرز المخدوعون من أبناء الإسلام بعقوقهم(١) له واستهانتهم به، بينما تحتفل «أسبانيا» عام (١٩٢٩) ميلادية بذكرىٰ مرور ألف سنة علىٰ الفتح الإسلامي! وقد كتب كثير من أدباء «فرنسا» في هذا العصر يندبون حظهم، لتراجع المسلمين عن فتح بلادهم، مما أدىٰ ـ حسب رأيهم ـ إلىٰ تأخر المدنية سبعة قرون إلىٰ الوراء، ويصعب علينا الإطالة بذكر كلامهم في هذا الموضع، وعسىٰ أن نذكره في سياق آخر.

وقد أحسن دين اللَّه ـ الإسلام ـ علىٰ جميع الإنسانية، بتحطيم الوثنية والسحر والشعوذة والدجل، وقضىٰ علىٰ سيطرة الكهان، ووجه الإنسانية إلىٰ معبود واحد له الخلق والأمر، وبيده الغفران بلا واسطة أحد من المخلوقات حيًّا أو ميتًا، ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤].

عاشرها: أن الإسلام دين الحرية الصحيحة الكاملة، حرية العقل والروح، فهو الذي حرر ويحرر النفوس من رق العبودية لغير اللَّه، وهو الذي يجعل الإنسان لا يخضع ولا يذل لإنسان مثله حيًّا كان أو مقبورًا، ولا يخاف أحدًا في هذا الكون، ولا يرتاع من كل مدهش أو مخيف؛ بل خضوعه وخوفه من القوة العليا المهيمنة علىٰ كل شيء؛ قوة مالك المُلك وحده لا شريك له، لا يستكين لكاهن، ولا يلجأ إلىٰ غير اللَّه، أو يرجوه أبدًا، ولا يرغب إلىٰ غير اللَّه أو يرهب منه مهما كان، بل يدعو اللَّه ويرجوه رغبًا ورهبًا بلا واسطة أحد ولا تقديس أحد، ولا يخيفه شيء في هذا الكون أبدًا غير ذنوبه التي تجلب عليه سخط اللَّه، فيكون في جميع أحواله منيبًا إلىٰ اللَّه، تائبًا مما حصل

---

(١) في المطبوع: «بعقولهم»! ولعل الأصح ما أثبتُّه.

منه، مكثرًا للاستغفار الجالب رحمة اللَّه، جاعلًا شعاره الذي نصب عينه قول مولاه: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]. وبذلك يتحرر الإنسان من عوامل الذل والخوف، ورجاء غير اللَّه والخضوع له، جازمًا أن النفع والضر بيد اللَّه، وأن جميع العوالم لا تقدر علىٰ نفعه أو ضرره إلا بإذن اللَّه، فيحصل علىٰ طمأنينة القلب المنجية له من أي قلق أو اضطراب؛ لأن الإسلام ينسجم مع الطبيعة الإنسانية، ويهذِّبها، ويضمن اتزانها إذا حصل تطبيقه.

حادي عشرها: بتطبيق دين الإسلام تحصل البشريةُ علىٰ السلام الصحيح، والتعايش السلمي، بمعناهما الحقيقي؛ لا بالمعنىٰ الذي يتبجح به طواغيت الملاحدة من الشرق والغرب، فإن الجاهلية القديمة هي التي تسعِّر نيران الحرب التي لا مبرر لها سوىٰ الطيش والانتهازية، وأما الجاهليات الجديدة فهي أدهىٰ وأفظع في تسعير الحروب التي يذهب ضحيتها عشرات الملايين، خصوصًا مقيمو الثورات منها، فإنهم لا يحسبون للبشرية أدنىٰ حساب إلا بقدر ما تسبِّح بحمدهم وتقدس، وإلا فليس عندهم لها سوىٰ حمامات الدم والمجازر الوحشية، وقد جربت الإنسانية ذلك من جميع الجاهليات، وجربت من الإسلام ما شهد به التاريخ من الأمن والطمأنينة والسلام الصحيح، بحيث إن عدد المقتولين في الفتوحات الإسلامية نزر يسير، لا يعادل ما يجري في وقعة واحدة من وقعات الجاهلية، هذا باستثناء ما أجراه اللَّه عقوبةً علىٰ المسلمين المتساهلين في دم عثمان، وفي حق علي رضي الله عنهما، ولو قام المسلمون بواجبهم، وكانوا هم المعسكر الأول في الأرض لأراحوا البشرية من الفتن الدموية التي يقيمها اليهود المفسدون في الأرض.

ثاني عشرها: أن الإسلام يعصم أهله العاملين به من ولاية عدوهم، ويا ويل من كان وليُّه عدوَّه! فإن اللَّه سلط شياطين الجن والإنس علىٰ من رفض العمل بشريعة الإسلام والاحتكام إليها، حتىٰ ولو كان مسلمًا

بالانتساب وشهادة الميلاد، فإن الشياطين تستهويه وتسيطر علىٰ عقله، وتقوده إلىٰ كل ضلال وانحلال خلقي، وتَهتُّك واستهتار، كما نشاهده اليوم في أغلب المجتمعات التي اجتاحتها شياطين الإنس من اليهود وأعوانهم، بحيث جردوا كثيرًا عن الحياء والعفة، ودعوهم إلىٰ التعري وإظهار المفاتن باسم المدنية والتطور والزينة الحديثة، مما خططته الماسونية اليهودية وحكماء صهيون، وانتدب لخدمتهم ذوو الأقلام والأجهزة الإعلامية الأخرىٰ، فأقاموا حملاتٍ فاجرةً تندد بكل قديم فيه شيء من الحياء والستر والصيانة، ترغب بمسايرة خطط اليهود في القضاء علىٰ الفضيلة، وسحق الدين، وإعادة الإنسانية إلي أبشع صور البهيمية، مما يفعل عن تصميم وقوة دعاية قلبت المفاهيم والتصورات؛ مما لا ينجي منه إلا العودة للتصور الإسلامي وتطبيقه في كل مجالات الحياة؛ فإن الغزو اليهودي بِهذه الجاهلية البهيمية لم يحصل له مجال إلا بعد انحسار الإسلام عن الحكم والقيادة، بتخطيط مقصود يربح منه اليهود ربحًا ماديًّا بما يجلبونه علىٰ أيدي عملائهم من أنواع المسكرات ووسائل الزينة العارية، وأدوات التجميل، ويرجون ربحًا سياسيًّا بالتمهيد لنشر سلطانهم وبسط نفوذهم علىٰ الناس، بسبب تعميم الانحلال والفوضىٰ الخلقية التي لا يمكن معها صمودٌ علىٰ المجابهة.

وهذا الغزو الفكري اليهودي المتنوع لا يمكن للمسلمين التخلص منه حتىٰ يكونوا هم المسيطرين علىٰ جميع شؤون حياتهم السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وأن تكون حلول هذه الشؤون وتسييرها نابعةً من رصيدهم السماوي ومقصورةً عليه، وإلا ذابت شخصيتهم وذبلت مثاليتهم، وانعكس أمرهم من الاستغناء إلىٰ الاستجداء، ومن التصدير للمثل العليا إلىٰ استيراد كل رذيلة كما نشاهده من حالتهم الموبوءة، التي يتفاقم شرها وسوؤُها يومًا بعد يوم، وأن المؤمن باللَّه حقًّا لا يصبر علىٰ هذه الحال، بل يسعىٰ إلىٰ

تغييرها بما أمكنه من تخطيط وبذل وتضحية، ويعتبر الرضوخ لهذه الحالة استسلامًا منه لأعدائه عن عزيمة فكرية ساحقة.

ثالث عشرها: دين اللَّه «الإسلام» دين يلهب المشاعر، ويفجر الطاقات، ويدعو إلىٰ كل عمل مثمر للعقيدة وحام للأخلاق، والمسلم الصادق لا يقبل الضيم، ولا يسكت علىٰ الباطل، ولا يخنع[1] لحكم الكفر، ولا ينشغل بالماديات والشهوات عن العمل لدينه أبدًا، ولا يجبره أي إغراء علىٰ مسايرة الحكم المخالف للإسلام، ولا يفضل شيئًا من المحبوبات علىٰ حب اللَّه ورسوله ﷺ وجهادٍ في سبيله.

رابع عشرها: إنما كان الإسلام دينًا لبني الإنسان كلهم، لا يقبل اللَّه من أحدهم دينًا سواه؛ لأنه دينُ الحرية السياسية والعدالة الاجتماعية والمساواة بين جميع البشرية علىٰ اختلافها في الألوان والأوطان، لا فضل فيه لعربي علىٰ عجمي، ولا لأبيض علىٰ أسود إلا بالتقوىٰ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهو دينُ السمو بالنفس الإنسانية إلىٰ أعلىٰ درجات الكمال، والنهوض بأفراد الأمة علىٰ العموم، وحَفْزِ هممهم علىٰ العمل، والعمل لاستثمار ما سخر اللَّه لهم علىٰ وجه الأرض، أو في جوفها أو أجوائها، من دابة أو مادة وخصوصًا في المجهود الحربي، والاستعداد بجميع المستطاع من القوة، مع القوة المعنوية والروحية، والعمل علىٰ الوحدة والتمسك بها، والقضاء علىٰ مصادر الفُرقة والضرب علىٰ أيدي المخلِّين بها، وتربية جميع الأمة تربيةً حربيةً خشنة، وتحبيب الأمة الاستشهاد في سبيل اللَّه، وتربيتهم تربيةً تقتلعُ الخوف من قلوبهم، بحيث لا يخافون من أي قوة، ولا يرهبون من أي دولة، بل يعتبرون كل قوة دون قوة اللَّه التي يتعلقون بها، فلا يبالون بأي قوة دونها أدنىٰ مبالاة.

---

(١) **الخنوع**: الذل.

خامس عشرها: وعلىٰ هذا فإن دين اللَّه الإسلام ليس كما وصفه طواغيت اليهود وأتباعهم بأنه: «أفيون الشعوب»؛ فإن هذا الوصف إن صدق علىٰ الأديان الباطلة؛ فإنه يصدق بكل حقيقة علىٰ المذاهب الشيوعية الهدامة التي وضعها مؤسسوها علىٰ رفع الشعور عن الضمير بالمسؤولية، والإغراء بالتطاول والبذاء علىٰ ذوي الأقدار، وإضرام نيران الحقد والحسد التي لا يتم شفاؤها إلا بالانتقام في أبشع صورة، وإسكار الشعوب بالمواعيد الجزافية التي لا حقيقة لها، ولا ختام لها إلا بتكرار الكذب بتعليلاتٍ كاذبة، والدعوات الصارخة إلىٰ الهدم والفوضىٰ، بحيث لو هبط علىٰ الأرض نوعٌ من المخلوقات متوحش ومفترس، يحمل أعظم العداء والنقمة لبني الإنسان، لم يعمل أكثر مما يعمله دعاةُ الهدم والتخريب من الشيوعية أعداء الإنسانية.

فدين اللَّه ـ الإسلام ـ يوقظ الضمير، ويبث الشعور بالمسؤولية، ويُلهب الحماس، ويحرك القوىٰ الكامنة، ويعمل علىٰ رفع الظلم والجور، ويحارب الذلة والخنوع، ويغرس العزةَ في النفوس، والتقوىٰ في القلوب، ويربط بين الإنسانية بوشائج القربىٰ للرحمة والحنان، وليس فيه ما يبلِّد النفوس أو يخدرها، ولا ما يقسيها ويضرم فيها نار الحقد والعداوة؛ كالمذاهب الهدامة التي هي ألصق بِهذا الوصف وأليق، بل وحتىٰ الأديان الباطلة ليس فيها من التخدير معشار ما في هذه المذاهب الهدامة التي ترفع عن الضمير شعوره بالمسؤولية، وتغري الجماهير الساذجة علىٰ الحسد والضغينة، وتنتزع منهم الحياء، وتبث فيهم روح الانتقام، واستمراء[1] البذاءِ والتطاولِ علىٰ كل محسود، حتىٰ جعلوا الجماهير كالسكارىٰ، بحيث إنك لا تجد فيهم استعدادًا لفهم ما يروِّجه طواغيتهم من المذهب العلمي، والتفسير المادي للتاريخ، وكثرة الهراء في هذا الشأن، بل لا تجد

(١) في المطبوع: «استمرار»، ولعل الأصح ما أثبتُّه ـ إن شاء اللَّه ـ.

فيهم يقينًا إلا من يعميهم الحسد عن كل فضيلة، وتدفعهم غرائزهم الكلبية إلىٰ فعل كل فتكٍ وقبيح، اندفاع المجانين الذين لا يفكرون في عاقبة ما يفعلون.

علىٰ أن المذهب الماركسي ليس فيه ما يستحق أن يسمىٰ علمًا، ولو كان عنده فلسفة مقنعة لما اختار الدعاة [إليه] تعويلَهم علىٰ الجهلة الدهماء الذين لا يفكرون، ولا يعرفون طرق التفكير، فالعلم الحقيقي لا وجود له، وإن أضفوا عليه لقب العلم تزويرًا وتضليلًا، فإن صلاح العقل مهدد في نظامهم كصلاح الأخلاق، إذ لا يجوز للعقل أن ينطلق إلا من مبادئهم، فالمطلوب عندهم من العلم أن يوافق مبادئهم، وليس المطلوب من مبادئهم أن توافق العلم والمنطق المعترف به بين البشرية، أو تخضع لأي معقول أو معلوم ظاهر.

أما الإسلام فهو دين اللَّه الصالح المصلح للبشرية، والذي في منهاجه ما يحل جميع المشاكل، ويأمر المسلم ألَّا ينسىٰ نصيبه من الدنيا، وأن يكون فيها عاملًا مبدعًا، وزاحفًا بعقيدته لتحرير البشرية من الظلم والطغيان والدجل الجاني علىٰ الأدمغة والعقول، فهو دين العقل الذي يأمر باحترامه، ويعاقب الجاني عليه بالمسكرات أو المفتِّرات، وهو أكبر عدو للطواغيت والدجالين، لا يصح إيمان أهله إلا بالكفر بهم وعداوتهم، فلأجل ذلك ناصبوه العداء أكثر من غيره، وعملوا بكل مكر ودهاء علىٰ إزالة سلطانه الروحي.

سادس عشرها: الدين الإسلامي دينُ رسالةٍ وهدايةٍ سماوية، جاءت مهيمنةً علىٰ ما قبلها من الرسالات والكتب وليس الإسلام ثورةً، ولا يجب أن يسمىٰ بها؛ لأن الثورة لها دوافعُها الخاصة وأنظمتها الخاصة ونكاياتها بخصومها وبمن لا يذعن لها، وكلُّ ثورة يقومُ بها من يحمل شدة الحقد والعداوة الدفينة علىٰ من سواه، ويكون ناقمًا علىٰ الأوضاع لا لفسادها، ولكن لبغض أهلها، أو استطالة حياتهم، أو لفساد عقيدته وسوء تصوراته، أو لمحبة الانتقال من عجلة طاغوت إلىٰ عجلة طاغوت

آخر، أو لحب السيطرة، وافتراس الحكم، ونَهب خيرات البلاد... إلىٰ غير ذلك من المقاصد النفسية التي هي طابع الثورات وأسبابها. والإسلام في جميع أدواره لم يقم علىٰ أي نوع من الثورات بمفهومها التسلطي، ولم يعش علىٰ الانقلابات، بل هو ضدها وينكرها، لأنها تأتي عكس المصلحة العامة والنظام العام، فهي تجلب الفوضىٰ والمجازر الجماعية، وترفع في الغالب رؤوس السفلة والانتهازيين، ويحصل فيها من الهتك والفتك ودمارِ الضمائر والبيوت ما يعرفه كل من اكتوىٰ بنارها واغتر بأوغادها في غابر الزمان. وقد شدد الإسلام بالوفاء بالعهود ـ بيعة الأول فالأول ـ، وأمر بضرب عنق من شاغب صاحب البيعة الأولىٰ، كما ورد في الحديث المشهور عنه ﷺ أنه قال: «**ومَن بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده وثمرةَ قلبه، فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه؛ فاضربوا عنق الآخر**»[(١)].

والأحاديث في هذا المعنىٰ كثيرة، وقد ذكرنا في تفسير ختام «آية البر» حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه المشهور ـ الذي هو أصل من أصول الدين ـ، والذي يقول فيه: «بايعنا رسول اللَّه ﷺ علىٰ السمع والطاعة، في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا، وألَّا ننازع الأمر أهله؛ إلا إذا رأينا كفرًا بواحًا عندنا فيه من اللَّه برهان»[(٢)]. وقد تكلمنا عليه بمناسبة قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ [البقرة: ١٧٧]، وأوضحنا الحكمة من مبايعته ﷺ علىٰ الأثرة، وقد أجمع أهلُ السنة علىٰ تحريم الخروج علىٰ ولاة الأمور في غير كفر واضح، ومنه ترك الصلاة لقوله ﷺ: «**لا؛ ما أقاموا فيكم الصلاة**»[(٣)]. فالخروج علىٰ الولاة هو مذهب الخوارج والمبتدعة، وسيأتي مزيد توضيح لذلك ـ إن شاء اللَّه ـ.

---

(١) رواه مسلم (١٨٤٤).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

سابع عشرها: كما أن رسالة الإسلام خالدة؛ فإن تشريعاته وشرائعه خالدة لا تتغير، ولا يجوز أبدًا إخضاع شيء من العبادات أو المعاملات لأهواء أهل العصر وشهواتهم، إذ هي مناسبة للحكمة والمصلحة في جميع الأحايين، والرسول ﷺ تلقىٰ أمور العبادات والتشريعات الأخرىٰ من لدن حكيم عليم، من رب الناس، ملك الناس، إله الناس، العليم بمصالحهم ومنافعهم، والذي يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر. وقد راعىٰ ﷻ مواقع المشقة فسهلها علىٰ المكلفين؛ كقصر الصلاة في السفر، والمسح علىٰ الخفين وسائر الحوائل، وكمشروعية التيمم لعدم وجود الماء أو المتضرر باستعماله، وكالتخيير بين الصيام والإفطار في السفر والمرض، وللحامل والمرضع، وغير ذلك مما يجد البصير فيه الحكمة والتجديد.

فمثلًا: من لاحظ مشروعية المسح علىٰ الحوائل والصلاة بالأحذية مما تتطلبه الأحوال في هذا العصر لصعوبة نزع الأحذية العصرية والجوارب للوضوء وللصلاة، يلاحظ كأن تشريعات الإسلام جديدة مراعية لهذا العصر، وكذلك من لاحظ قصر الصلاة في سفر الحمير والجمال، يلاحظ أهمية القصر في عصر السرعة وفائدة التخفيف، فيرىٰ جِدَّة الإسلام الصحيحة، ومن لاحظ عدم التفات الشارع إلىٰ العمل والعمال في تنفيذ الصوم المفروض؛ فإنه يلاحظ سعة علم اللَّه الشرع وإحاطته بالكائنات؛ لأنه يعلم في علمه الأزلي أن العمال ستحدَّدُ لهم ساعات العمل وتوفر لهم وسائل الراحة، وأن من طالب بإلغاء الصوم عن العمال زاعمًا أنه ينقص من الإنتاج؛ فهو ملحد كذاب؛ لأن العمال قد أسقط عنهم من ساعات العمل ما يكون أكثر تعويقًا للإنتاج من الصيام الذي يأتي لصاحبه مدد من اللَّه لا تتصوره العقول، واللَّه ﷻ يعلم من أحوال العمال وما يتحملونه مما هو أشق من الصيام في سبيل مصلحتهم المادية، أما العبادات فهي سهلة الأداء قليلة الكلفة عظيمة الثواب والنفع، ولا يستثقلها إلا المنافق، ولا

يشكك في سهولتها وملاءمتها لجميع العصور إلا الملاحدة.

وأشد ما فيها الصيام الذي يجري في شدة البرد والحر، ولكن فيه تربية روحية وعسكرية ورياضية، يتروض بها المسلم علىٰ تقوية الإرادة وصدق العزيمة ورباطة الجأش، لا ينكرها إلا الملاحدة المكابرون، وما يقوم به المسافرون في هذا العصر من أداء الصلاة ـ وقد امتطوا السيارات ـ أسهل بكثير مما يقوم به المسافرون علىٰ الحمير والجمال ونحوها، مما يحتاج إلىٰ ربط وتوثيق، واختيار الأرض الصالحة للمرعىٰ؛ لأن السيارة لا تحتاج إلىٰ مثل هذا، وكما يحتاج المسافر علىٰ الحيوانات إلىٰ الراحة في الصلاة، فإن المسافر علىٰ السيارة أحوج لأخذ الراحة البدنية والروحية، وتنشيط البدن بالوضوء والصلاة، والتزود الروحي من وحي اللَّه، علىٰ أن اللَّه سهل علىٰ المسافر بمشروعية قصر الصلاة وجمعها.

فالاستخفاف بأداء شيء من شرائع الإسلام في السفر، أو في حالة العمل، أو اختلاف الطقس هو استخفاف بشريعة اللَّه، وانتقاص لجنابه الكريم، وإلحاد في أسمائه الحسنىٰ لا يجوز الإصغاء إليه، مع أن الواقع يكذبه، فإن الصيام اليوم من مقوِّمات التربية الحديثة الصحيحة، حتىٰ إن بعض الأطباء يعالج بعض الأمراض بالصوم، كما قدمنا طرفًا من فوائده، وكما طبقه بعض العسكريين في التربية العسكرية، وكما أن تنفيذ الشريعة الإسلامية، وإقامة حدود اللَّه، والتعازير والقصاص، من ضروريات الحياة الطيبة، وحصول الأمن والراحة وصلاح المجتمع وسلامته من الانهيار المعنوي؛ فإن في تنفيذ حدود اللَّه وإقامة شريعته بناءٌ للأخلاق، ووقاية للإنسانية من التهتك والدمار، وتخريب الضمائر والديار؛ فهؤلاء رجال الغرب يصيحون مما أصابهم وهدد مدنيتهم بسبب الفوضىٰ الأخلاقية، وشيوع المسكرات والفساد، علىٰ أن عملاءهم ممن احتسَوا من قيح الماسونية ودمها وصديدها يندِّدون بأحكام الشريعة ويزعمون قسوتها،

وعدم صلاحها للإنسانية! وكلامهم هو المعكوس المحتوي علىٰ الغش للمسلمين ولجميع الناس.

وبالجملة: فالدين الإسلامي الذي اختاره اللّه دينًا للبشرية هو الدين المقوِّم لها، والمصلح لجميع أحوالها، والكافي لحلول مشاكلها، والواقي لها من الانزلاق في مهاوي العطب والانحطاط - إذا حصل تطبيق تعاليمه وإقامة حدوده -، أما إذا حصل التمرد من بعض البشرية أو جميعها علىٰ التعاليم الإسلامية وتولوا عن تنفيذها، فما ذلك إلا سبب من أسباب عقوبات اللّه عليهم، سيتذوقون مرارتها ويكتوون منها بألوان العذاب الحسي والمعنوي ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ۝١٤٤﴾ [البقرة].

وقد قال سبحانه: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ۝٤٩ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة].

ثامن عشرها: لا يجوز تسمية الإسلام بـ«الاشتراكية»، ولا تسمية رسوله ﷺ بـ«الاشتراكي»، فإن هذا تنقيص من قدره، وتلبيس للحق بالباطل، وغش للناس، والتقاء مع اليهود الدعاة للاشتراكية الكاذبة، خداعًا للمسلمين في البلاد الشيوعية؛ فإن الإسلام أعلىٰ وأسمىٰ من كل ما يسند إليه أو يمدح به، وإن كان فيه بعض ما يوافق أهواءهم؛ كأحكام الأرض العادلة التي حوروها نهائيًّا إلىٰ الظلم والجور، فإن الإسلام حرم احتكار الأرض وتحجيرها بدون بناء، أو عمارة بزرع أو غرس، وحدد مدة سنتين أو ثلاثًا لذلك، وإلا تنتزع ممن لم يستثمرها وتعطىٰ لنشيط يعمرها بالبناء أو الزرع أو الغرس، لتنتفع الأيدي العاملة، وتنشط الحركة التجارية باستيراد ما يتطلبه العمل، وتوزيع الإنتاج أو تصديره، وما إلىٰ ذلك من منفعة وسائط النقل وتشغيل ذوي الخبرات، فإن في النظام الإسلامي كل ما يشجع الحركات الزراعية والعمالية والتجارية، مما يغني المجتمع المسلم عن الاستيراد من

غيره والإعجاب به.

وقد حوروا هذا وجعلوا منه مدرجًا لمصادرة الأراضي العامرة وتأميمها، بعد أن تعب عليها أهلها البارعون بالعمارة؛ فتوزعت إلىٰ أيدي العجزة الجاهلين بسوء التصرف وخبيث التطرف، الذي قلب بلاد التصدير العظيم إلىٰ بلاد استيراد، ومع هذا فأهل الأقلام الرخيصة من الانتهازيين وعباد الأشخاص عولوا علىٰ الإسلام بتبريرهم لمظالم الشيوعية وسوء تصرفاتها وتصوراتها اليهودية، فأخذوا يعولون علىٰ الأحاديث التي تأمر بزرع الأرض أو تزريعها أو إعطائها لمن يزرعها، والأحاديث التي تمنع من إيجارها، أو تزريعها بشيء معلوم مضمون، خشية ألَّا تُغِلَّ أكثر منه فيحصل الغبن الكامل، فهذه الأحاديث الكثيرة استغلها أهل الأهواء والأغراض الدنيئة لتلبيس الحق بالباطل، وجعلوا منها حجةً للزنادقة الظلمة الذين عولوا في مصادرة الأموال والأراضي علىٰ مذهب «كارل ماركس» وتعاليمه، لا علىٰ التعاليم الإسلامية.

ولٰكن علماء السوء المخادعين للمسلمين أخذوا ينتحلون تلك الأحاديث ليجعلوا منها دليلًا للذين لم يعوِّلوا عليها، ولم يرفعوا بها رأسًا أو يكن عندهم لها أي اعتبار، بل ولم يعملوا بشيءٍ من أحكام الإسلام، أو يلتفتوا إليه في أي شأن من شؤون الحياة! فما أعظم جريمة من يلجأ للإسلام ليأخذ من نصوصه معاذير لمن لم يرفع به رأسًا في أي تشريع أو تحكيم، ويجعل الإسلام اشتراكيًّا من أجله، ورسوله رسول الاشتراكية! صانه اللَّه ورفعه عما يقولون.

فالدين الإسلامي ـ مع تشريعاته العادلة في أحكام الأرض ـ عنده تشريعات لحسن الاقتصاد؛ كتحريم الربا والغش والتدليس والغبن والكذب في المعاملة، والنجش وإخفاء العيب، وتحريم الميسر والاستسقام بالأزلام، وجميع معاملات الجاهلية؛ من كل ما فيه غرر علىٰ أحد المتعاملين، والإسلام في كل هذا يعمر الضمير بتقوىٰ اللَّه،

فيراقب اللَّه في كل معاملةٍ ليأتي بها علىٰ الوجه المشروع ليسلَمَ من الكسب الحرام، فليس نظرُه مقصورًا علىٰ السلطة التي يقدر علىٰ الاختفاء منها والتهرب عنها، بل يراقب علام الغيوب الذي لا تخفىٰ عليه خافية، وهذا ليس موجودًا في غيره من التربيات المادية، فالفرق بينهما كبير، وقياس كل مذهب علىٰ الإسلام قياس فاسد، ولو أن علماء السوء لاحظوا ذلك، ولاحظوا أن الذين يدافعون عنهم، ويسبغون علىٰ أفعالهم أثواب الإسلام هم علىٰ خلافه في جميع الشؤون؛ لاستحوا من الناس قبل الحياء من اللَّه ـ إن كان معهم ذرة من حياء ـ.

تاسع عشرها: ليس في دين اللَّه الإسلام تواكل، ولا خمود ولا جبرية، كما يرميه أعداؤه، بل هو دين العمل والقوة، وهو دين عسكري زحاف لا يقف عند حد، حتىٰ تكون كلمةُ اللَّه هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلىٰ، وما ورد من النصوص في القضاء والقدر فهي توجب العمل؛ كما قال ﷺ: «**اعملوا؛ فكلٌّ ميسر لما خُلق له**»، ثم تلا قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل][1]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، ولما قال بعض الصحابة رضي الله عنهم للنبي ﷺ: أرأيت رقًىٰ نسترقي بها وأدوية نتداوىٰ بها؛ هل ترد من قدر اللَّه؟ قال ﷺ: «**هي من قَدَر اللَّه**»[2].

والنصوص كثيرة متوافرة علىٰ معالجة أقدار اللَّه بأقدار اللَّه الأخرىٰ، فعنه ﷺ أنه قال: «**احرصْ علىٰ ما ينفعك، واستعِنْ باللَّهِ ولا تعجِزْ، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلتُ كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر اللَّه وما شاء فعل**»[3]، وما جاء من النصوص في القضاء والقدر لها فوائدُ خاصة بها تزيد في الإيمان واليقين، وتغرس الشجاعة ورباطة

(١) رواه البخاري (٤٩٤٥)، ومسلم (٢٦٤٧).
(٢) رواه الترمذي (٢٠٦٥)، وابن ماجه (٣٤٣٧).
(٣) رواه مسلم (٢٦٦٤).

الجأش، فبعضها لتهوين المصيبة وتخفيف الحزن وإزالة الأسىٰ، كقوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]، وقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد].

ومنها ما فيه التحميس والحث علىٰ الجهاد والاستشهاد في سبيل اللّٰه، كقوله تعالىٰ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨]، ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وكقوله للمنافقين في غزوة أحد: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران]. وقد أنزل اللّٰه في حادثة غزوة «أحد» آياتٍ كريمات ليرتفع بهم عن الهزيمة النفسية؛ فتأثروا بها طيلةَ حياتهم.

والإيمان بالقضاء والقدر لا يقضي بالتواكل وترك العمل، بل علىٰ العكس يشجع علىٰ العمل، ويجعل النفوس تطمئن إلىٰ ثمرته، وتتلذذ بنجاحه لأخذها بالأسباب الكونية والشرعية التي رتب اللّٰه عليها النجاح. وإن التواكلية والردود العكسية لعقيدة القضاء والقدر التي يرمي بها أعداء الإسلام ليس لها وجودٌ في القرون الأولىٰ من عصور الإسلام الزاهرة، أما الضعف الذي طرأ علىٰ المسلمين في العصور الوسطىٰ والأخيرة فهو لعوامل سياسية، ومن آثار النصرانية التي سرت بين المسلمين بالتقليد والدس الخبيث الذي صحبه تقديس القبور، والاهتمام بصور العبادات وأشكالها دون أحكامها وأسرارها، وإسناد النفع والضر إلىٰ رؤساء الدين، ونحو ذلك مما لا يعرفه الإسلام بل يحاربه.

العشرون: الإسلام هو الذي يحقق التقدمية الصحيحة، ويحارب الرجعيات التي يغزو الإنسانية بها من يفسدها ويحطمها، والإسلام

هو الذي يرفع من قيمة الإنسان ويقيم له وزنه الصحيح، ولن ينفع العلم بني الإنسان إذا انحرفوا عن العقيدة الإسلامية، ونبذوها ظهريًّا، فالعقيدة الإسلامية هي ركيزة الإنسانية التي تتميز بها وترتفع بها عن سائر الحيوان، فإلغاؤها أو إهمالها هو ارتداد عن خاصية الإنسان ورجوع به إلىٰ الوراء في كل ميدان، ولقد اكتوت الإنسانية بنيران ما يسمىٰ «حضارة ومدنية وتقدمية وطليعة»، وما إليها من الألقاب التي حلت محل الدين، ذلك أنها أنتجت القلق النفسي والروحي الذي يفسد أعصاب الناس، ويحدث في أنفسهم التمزق؛ فإن بني الإنسان في حاجة فطرية إلىٰ خالقهم اللَّه الملك الجبار، وفي حاجة إلىٰ الأمن الاجتماعي والسياسي والحضاري، الذي تأبىٰ الثقافة الشرقية والغربية بمناهجها الماسونية أن تربطهم بالعقيدة باللَّه، إنها تأبىٰ أن يلجأ بنو الإنسان إلىٰ اللَّه في شؤونهم السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية أو الاجتماعية أو في وضع دستور للأخلاق والآداب والسلوك أو سائر ملمات الحياة، فيتمزقون ويضطربون ويقلقون، ويظلون في حيرات معقدة، وإن لسان الحال في منطق الإلحاد الجديد يجدد منطوق الوثنية الأولىٰ المجيب علىٰ مطلب الوحدانية: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص]، إنهم لا يريدون التفات الإنسانية إلىٰ اللَّه إلا في لحظات قصيرة في المعابد، أما في غيرها فلهم آلهة شتىٰ.

وإن الناس حين لا يؤمنون باللَّه الحق، ولا باليوم الآخر فليس في حسهم ولا حسابهم إلا متع الحياة، ينتهبون لذائذها في الفرصة المتاحة لهم، فيتكالبون علىٰ متاع الأرض، ومتاع الجنس، ومتاع الشهوات، ومتاع القوة والسلطان، وتنقلب حياتهم في جحيم من العذاب، عذاب القلق الدائم علىٰ الفرص الفائتة، وعذاب النهمة المسعورة التي لا يشبع صاحبها؛ لأنه دائمًا متلهف علىٰ مطالب نفسه التي لا تنتهي، وبذلك يحصل الهبوط في ميزان الإنسان إلىٰ أحط من مستوىٰ الحيوان؛ لأن الحيوان يملك الضوابط الفطرية التي تقف به دون نقطة الهلاك،

وتصون حياته عن الدمار، ولكن الإنسان بلا عقيدة يرتد إلىٰ حالة أسوأ من حالة كل حيوان؛ لأنه بفقده العقيدة يصبح بلا ضوابط، ولا أهداف صحيحة حقيقية، فالإنسان اليوم في حالة رجعية سحيقة ونكسة خطيرة وسكر معنوي في إفساد فطرته وتخبيط عقله بما يقذف في رُوعه أنه في حالة وعي ومدنية وحضارة وتطور.

يا لها من مدنية وحضارة وتطور! هل تعتبر حرب الإبادة تطورًا وحضارةً ومدنيةً؟! وهل يعتبر الاستعباد المعنوي حضارةً ومدنيةً وتطورًا؟! وهل تعتبر الفوضىٰ الخلقية حضارةً ومدنيةً؟! وهل يعتبر الرصد، والجنون، والانتحار حضارةً ومدنيةً؟! وهل يعتبر تحطيم الأسرة والمجتمع حضارةً ومدنيةً؟! وهل يعتبر الشقاء الكامل حضارةً ومدنيةً؟! هل هذا العلم الذي قدموه للإنسانية في ظل التوجيه الفاسد فيه خير لبني الإنسان، مع النظرة المرتكسة المعكوسة إلىٰ الإنسان؟! وهل يجوز أن يقال عن الفتح العلمي المتواصل: إن ضريبته التدمير للإنسانية وإفساد الأخلاق وإشقاء البشرية؟! لقد قال بعض حكماء علمائهم: «إننا قوم تعساء؛ لأننا ننحط أخلاقيًّا وعقليًّا، وإن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم، هي علىٰ وجه الدقة الأمم والجماعات الآخذة في الضعف، والتي ستكون عودتها إلىٰ البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها»! هذا التدمير في الأسرة والمجتمع والنفوس، وهذه الحيوانية التي يأنف منها الحيوان، وهذا السعار المجنون الذي لا يشبع، كله رجوع بالإنسانية إلىٰ الوراء، فالشر ليس مبعثه الفتح العلمي، وإنما مبعثه الانحراف عن العقيدة المسبِّب للفوضىٰ والفساد في الأخلاق.

إن هذه الرجعية التي يمارسها أهل القرن العشرين الميلادي، والرابع عشر الهجري في عالم العقيدة، هي الرجعية القديمة ذاتها التي جاء الإسلام لمقاومتها وتصحيحها ليرد البشرية منها إلىٰ الصواب، وما زال موقف الإسلام منها هو نفس الموقف في ذاك

الوقت، فقد جاء الإسلام لتخليص البشرية من كل طاغوت، وليسلب منه حق التشريع والحاكمية التي يستعبد بها الناس، ويرد الحاكمية والتشريع إلىٰ اللّٰه الذي لا يحابي أحدًا من البشر، فلا يبقىٰ حاكم يشرع لنفسه أو لطبقته ـ كما هي عادة الجاهلية في هذا الزمان ـ؛ بل يكون الحاكم أمينًا علىٰ شريعة اللّٰه، ومنفذًا لها، فتزول قداسة الحاكمين التي فرضوها علىٰ الشعوب، فالإسلام جاء ليصحح الأوضاع، ويزيل الانحرافات التي هبطت بالإنسانية وغزتها في عقولها؛ فزعمت أنها مرتفعة.

إنه دين جاء من اللّٰه ﷻ ليُقر القيم العليا في ضمائر الناس، ويصحح مفاهيمهم، ويرفع علاقة الجنس عن أن تكون بَهيميةَ جسدٍ مسعور، ويرفعها إلىٰ السكن والمودة والرحمة، ويركز العقيدة ويدعمها، وما مصيبتنا في هذا الزمان إلا مصيبة العقيدة، وقضية النفس الواحدة، وقضية الجنسين، وقضية الإنسان الواحد، تلك القضايا بالذات هي التي حصل فيها الاختلال بمكر وتصميم يهوديين، وتلك بالذات هي التي ينذر اختلالها بتدمير البشرية كما تريده اليهودية العالمية بإبعاد الناس عن العقيدة ومقوماتها، ولا خلاص للبشرية من براثن اليهودية وأحابيلها إلا بالرجوع للإسلام الذي لن يقبل اللّٰه من أحد دينًا سواه، بل ما سواه افتراء علىٰ اللّٰه ودجل يهودي خسيس، واللّٰه طيب لا يقبل إلا طيبًا[١].

فمعاني دين الإسلام بيَّنها اللّٰه في القرآن، فمن اتبعها وتمسك بها كان علىٰ دين اللّٰه الذي يرتضيه، ومن خالفها كان باغيًا غير دين اللّٰه، ولن يقبل اللّٰه منه كل ما اعتقده أو عَمِله، مما يخالف دين اللّٰه الإسلام.

واعلم أنه إذا أُطلق «الإسلام» دخل فيه «الإيمان»؛ وذلك أنه لا يحصل الإسلام المقبول إلا بعد تحقيق الإيمان، أما بدونه فإنه ينقلب

(١) انظر «صحيح مسلم» (١٠١٥).

إلىٰ «جنسية» كما انقلب دين اللَّه في بني إسرائيل إلىٰ «جنسية»، منعتهم وصدتهم عن اتباع الرسول محمد ﷺ الذي جاءهم بدين اللَّه الذي جاء به إخوانه من المرسلين علىٰ ما أوضحه لهم من بيان روح الإسلام. فالإسلام هداية ربانية يجب علىٰ أهله أن يتمسكوا بتعاليمه كلها دون إخلال، وأن يكونوا أمناء عليها، ودعاةً إليها باذلين النفس والنفيس في سبيلها؛ ليسعدوا وينالوا الحياة الطيبة التي وعدهم اللَّه بها إذا سلكوا ما يقبله ويرضاه، فأما من ابتغىٰ غير الإسلام دينًا من أي مبدأ أو نظرية، فلن يقبل اللَّه منه جميع مساعيه في الدنيا، ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ خاسرًا ما عند اللَّه من النعيم المقيم في جوار اللَّه، ومحرومًا من كل وعد طيب من اللَّه.

وأصل الخسران فقدان الربح الذي يجتاح رأس المال رويدًا رويدًا، وقد شبه اللَّه حالة المبتغي غير الإسلام دينًا بالخاسر؛ لتضييع أوقات عمره فيما لا يقبله اللَّه منه ولا يرضاه، وقد ذكر المفسرون أسبابًا لنزول هذه الآية، الصحيح أنها عامة في سلوك ما لا يقبله اللَّه.

وذكر بعض المفسرين أن هذه الآية: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾، ناسخة للآية (٦٢) من سورة البقرة، وللآية المماثلة لها من سورة المائدة (٦٩) ، وقد أسلفنا توضيح معناها في محلها السابق، مما يعرف به ألَّا تعارض بينهما وبين هذه الآية حتىٰ يرجع إلىٰ النسخ.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنها من الآيات التي أشكلت علىٰ بعض الناس». وتكلم عنها بما يكفي.

وعن عكرمة أنه قال: لما أنزل اللَّه هذه الآية: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾، قالت اليهود: قد أسلمنا قبلك ونحن مسلمون، فقال اللَّه له: «حُجَّهم يا محمد»، وأنزل آية الحَج، فحج المسلمون، وقعد الكفار.

قال النحاة: وانتصاب ﴿دِينًا﴾ علىٰ التمييز لقوله: ﴿غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾.

وقوله ﷻ في الآيات (٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩) من السورة: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾:

بعد أن ذكر اللَّه سبحانه أن دينه هو الإسلام، وأن ما سواه غير مقبول، وصاحبه خاسر مضيع لنفسه وأوقاته في مخالفة الدين المقبول؛ ساق[1] لنا هذه الآيات مبتدئًا إياها بسؤال استبعاد وتبعيد: أن تنال هداية اللَّه من شرد عنها عالمًا متعمدًا.

وقد وصف اللَّه أهل الشرود عن الهداية بثلاثة أوصاف:

١ ـ أنهم كفروا بعد إيمانهم باللَّه واستيقانهم ربوبيته وألوهيته.

٢ ـ أنهم شهدوا بصدق رسالة الرسول ﷺ؛ لمعرفتهم إياه من الكتاب الذي فيه ذكره ونعته.

٣ ـ أنه جاءتهم آياتٌ بينات شاهدة علىٰ تلك المعجزات الناطقة، والشاهدة بصدق ما جاء به الرسول ﷺ؛ فإنهم عاينوا من البينات ما يوجب ثباتهم علىٰ الإسلام، ولكنهم مع هذا قد صمموا علىٰ الكفر؛ فلم تُجْدِ معهم تلك الأمور كلها، فحادوا ونكصوا عن الحق بعد وضوحه، واستحبوا الضلال والعمىٰ علىٰ الرشاد والهدىٰ، ولهذا استبعد اللَّه هدايتهم، وختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ مخبرًا بذلك عن إجراء سنته الكونية بعدم هداية الشارد عن سبيله، المنتقص لحق اللَّه في العبودية، المستخف بجناب اللَّه وعزته.

وقد ذكر المفسرون أقوالًا في أسباب نزول الآية، ولكن منطوق الآية يدل علىٰ نزولها في اليهود ومن علىٰ شاكلتهم، فإنهم كفروا

---

(١) في المطبوع: «ثم ساق»، ولعل الأصح حذف «ثم»، لأن هذه الجملة جواب: «بعد أن ذكر اللَّهُ سبحانه...» في السطر السابق، واللَّهُ تعالىٰ أعلم.

بمحمد ﷺ بعد إيمانهم به وإقرارهم بشهادة التوراة له، فأصبحوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم معرفةً لا يتطرق إليها الشك، ولكن العناد والاستكبار والحقد حملهم علىٰ الكفر به.

وقوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٧﴾﴾، اللعن في اللغة: الطرد والإبعاد علىٰ سبيل السخط، فيتضمن حرمان الملعون من رحمة اللَّه الخاصة في الدنيا والآخرة، فلعنة اللَّه علىٰ هذا المعنىٰ.

أما لعنة الملائكة والناس أجمعين: فهي السخط والدعاء عليهم، وقد استشكل بعض المفسرين «لعنة الناس عليهم أجمعين»، والكافر لا يَلعن الكافر.

فقال بعضهم: إن الناس هم المؤمنون باللَّه، وأما الكفار فهم شر الدواب فلا يُطلق عليهم اسم «الناس»، واللَّه وصفهم بِهذا الوصف.

وقال بعضهم: بأن كل الناس يلعنهم إذا عَرف حالهم، فالمعنىٰ إن هذه الحالة التي هم عليها مجلبة للعن.

وصحح الرازي: أن المراد ما يُجري علىٰ ألسنة الناس من لعن الكافر والمبطل.

قلت: والصحيح أن لعنة الناس جميعًا تَحيق بهم، حتىٰ إنهم يلعنون أنفسهم؛ حيث يلعن أحدهم الظالم والفاجر والمبطل.

وقوله سبحانه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في اللعنة، فهي مكتوبة عليهم مدىٰ الحياة في الدنيا، ومدىٰ الحياة الخالدة في الآخرة، لا ينجون من موجبات اللعنة؛ حتىٰ إن بعضهم يلعن بعضًا، كما قال ﷻ: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقوله سبحانه: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾، يعني لا يخفف عنهم العذاب ـ الذي هو من لوازم اللعنة لبقاء علته وسببه ـ؛ وذلك لأن نفوسهم المتكيفة بالظلم، والمتلبسة بخيانة اللَّه هي معهم

لا تفارق أجسامهم، والشيء يدوم بدوام علته، فالعذاب لا يخفف عنهم فيتنفسوا، ولا يؤخر عنهم من وقت إلىٰ وقت إمهالًا لهم وراحة؛ لأن عذابهم دائم لا ينقطع.

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾، يخبر اللَّه عباده عن سعة حلمه وجوده ورحمته، وأنه فاتح لهم باب التوبة لا يغلقه في وجه المنيب إليه من جميع صنوف الضلال، بل هو مفتوح، فما علىٰ المنيب منهم إلا أن يطرق باب الكريم الرحيم ﷻ، ويعمل صالحًا يدلل فيه علىٰ صدق توبته، فيدخل باب رحمته بدون استئذان ولا واسطة.

📖 **وقوله سبحانه في الآية (٩٠) من السورة:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾:

هذا إخبار من اللَّه سبحانه عن نوع من المرتدين لا تُقبل منه التوبة، بعد ما ذكر نوعًا من كُفر الردة، كتب علىٰ أهله لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين، وكتب عليهم أنهم مخلدون في العذاب، إلا أن لهم توبةً ينجون بها إذا حققوها. ولكن هذا النوع الآخر المنصوص في هذه الآية بعدم قبول توبته هذا نوع غليظٌ كفره؛ لأنه يزداد ويزداد زيادة تحيط به فيكون من الضالين.

وقد استشكل المفسرون عدم قبول التوبة؛ مع أن بابها مفتوح إلىٰ أن تطلع الشمس من مغربها.

فاختار الرازي ما قاله القاضي والقفال وابن الأنباري؛ من أن اللَّه لما قدم ذكر من كفر بعد الإيمان واستحقاقه اللعنات إلا أن يتوب، ذكر في هذه الآية أنه لو كفر مرةً أخرىٰ بعد توبته فإنها تصير غير مقبولة حتىٰ كأنها لم تكن.

ويكون التقدير في الآية وما قبلها: إلا الذين تابوا وأصلحوا فإن اللَّه غفور رحيم، فإن كانوا كذلك ثم ازدادوا كفرًا لن تقبل توبتهم.

انتهىٰ كلام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقد استحسنه، وقال: إنه مطرد في الآية؛ سواء حُملت علىٰ المعهود السابق أو الاستغراق.

وأكثر المفسرين حمل عدم قبول توبتهم علىٰ أنهم لا يتوبون إلا إذا عاينوا الموت، واستدلوا بالآية (١٨) من سورة النساء: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ...﴾.

واختار ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الكلام في أهل الكتاب الذين تقدم ذكرهم، وأن المراد بالتوبة التوبة عن الذنوب، فهي لا تنفعهم مع بقائهم علىٰ الكفر بمحمد ﷺ.

وقد روىٰ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الآية عدة روايات، وقال عن هذا الذي اختاره: إنه أولاها بالصواب. وبيَّن ضعف سائر الروايات حتىٰ رواية من قال: إن المراد بذلك التوبة عند الموت، وذلك بعد أن دلل علىٰ صحة رأيه. كما جزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الكافر إذا أسلم قبل موته بطرفة عين؛ فإنه يقبل إيمانه. انتهىٰ كلام ابن جرير.

ولكن ماذا يفعل بحديث: «**إن اللَّه يقبل توبة العبد ما لم يُغرغر**»(١)؟ وماذا يفعل بقول اللَّه تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥]؟

هذا ومع أن كلام ابن جرير من أحسن الأقوال في هذا الشأن إلا أنه ينبغي ملاحظة أمرين:

١ ـ عموم الآية في جميع المرتدين عن الإسلام ردةً صريحةً أو نفاقًا؛ لأن من سنة اللَّه أن يطبع علىٰ قلب المرتد؛ كما قال في المنافقين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾ [المنافقون].

٢ ـ يلاحظ صلب الآية وختامها؛ وهو قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾؛ فإن زيادة الكفر من أقوىٰ الأسباب المانعة عن قبول التوبة، ولهذا ختم اللَّه هذه الآية بقوله: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ بصيغة القصر

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (١٤٢).

والحصر، فحصر اللَّه حالهم في الضلال وقصرها عليهم(١).

وقوله سبحانه في الآية (٩١) من السورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾:

يذكر اللَّه تعالىٰ في هذه الآية النوع الثالث من أنواع الكفار، ويبين سوء مصيرهم:

- فقد ذكر سبحانه النوع الأول الذي يتوب توبةً مقبولةً لإخلاصه وصدقه مع اللَّه.

- ثم ذكر النوع الثاني الذي لا تقبل توبته، إما لنفاقه، وإما لتوبته عن شيء دون شيء، كما أسلفنا تفصيله.

- وهذا النوع الثالث الذي كان شقاؤه محتومًا، وعاقبته أسوأ العواقب، وهو النوع من الكفار الذين يقيمون علىٰ الكفر حتىٰ يوافيهم الموت وهم علىٰ ذلك، فإن مصيرهم السيئ المحتوم نارُ اللَّه التي أعدت للكافرين، ولن ينفعهم أي عمل صالح عملوه في الدنيا، حتىٰ لو تصدقوا بمثل ملء الدنيا ذهبًا؛ لأن الكفر محبط للأعمال؛ كما قال سبحانه في الآية (٢٣) من سورة الفرقان: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾، وقوله سبحانه في الآية (٦٥) من سورة الزمر: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

فالأرواح الخبيثة ـ التي لا ترتقي في الدنيا إلىٰ درجة الإيمان الصحيح الذي تفوز به في الجنة ـ، ليس لها نُزُلٌ ولا مستقر سوىٰ نار وقودها الناس والحجارة، ولا يحصل له الافتداء منها مهما حاول صاحبها ذلك، حتىٰ إنه لو فرض له أن يملك من الذهب ملء الأرض،

(١) في المطبوع: «عليه»، ولعل الأصح ما أثبته.

ويسخو به للافتداء من سوء العذاب فلن يقبل منه؛ كما قال تعالىٰ في الآيتين (٣٦، ٣٧) من سورة المائدة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة].

وقوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي لهم عذاب موجع في غاية الإيلام، ولا يجدون من ينصرهم بدفع العذاب عنهم، بل ولا بتخفيفه فضلًا عن إيصال الخير لهم، فما أبعدهم من ذلك! إنهم لا يجدون وليًّا ولا نصيرًا.

وقوله سبحانه في الآية (٩٢) من السورة: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾:

هذه الآية خطاب عام لأمة الدعوة المحمدية جميعًا(١)، وليس خاصًّا بالمؤمنين كما توهمه بعض المفسرين؛ إذ إن الخطاب مع بني إسرائيل لم ينته هنا؛ بل يمضي إلىٰ نهاية الآية (١١٦).

فبعدما ذكر سبحانه عدم جدوىٰ الإنفاق من الكافر، جاء بِهذه الآية ليبين الإنفاق الذي يتقبله اللَّـه ويرضاه ويجعل صاحبه من الأبرار الأخيار. وقد تضمنت الآية تبكيتَ اليهود، إذ إنهم من أنكد الناس علىٰ الخير وأشحهم بالمال؛ فلا ينفقون إلا الرديء البغيض عندهم. كما تضمنت الآية إرشاد المؤمنين الأوفياء الصادقين إلىٰ المنافسة في الإنفاق كي يصلوا إلىٰ درجات الأبرار، كما قال سبحانه في سورة الإنسان: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾؛ فإن المال له شأن عام في النفوس، وحبه متمكن فيها، لذا فإن الإنسان يغامر

(١) وأمة الدعوة هي الأمة التي أُرسل إليها النبي ﷺ، ومعلومٌ أنه أرسل لدعوة الناس كافةً، فتكون أمةُ الدعوة هم جميعُ الناس ـ علىٰ اختلاف عقائدهم ومللهم ـ، وأما المؤمنون، فهم «أمةُ الإجابة».

ويخاطر في تحصيله.

وفي أنواع المال ما يزيد حبه علىٰ حب غيره من الأنواع الأخرىٰ، وقد يجري التساوي في محبته إذا كان كله نفيسًا، فحصر اللَّه الطريقة الموصلة لنيل البر - والذي هو أشرف درجات الإيمان وأعلىٰ المقامات عند اللَّه - بإنفاق المؤمن ما يحبه من ماله العزيز؛ لأن بذل المال المحبوب دليل علىٰ أن محبة اللَّه سبحانه أحب من هذا المحبوب.

وفي هذا تربيةٌ للمؤمنين علىٰ التضحية في سبيل اللَّه بكل ما يملكون، وقد تأثر المؤمنون بِهذه الآية وما أشبهها من آيات البر؛ فبادروا إلىٰ التنفيذ، وتنافسوا فيه، حتىٰ إن أبا بكر الصديق ﵁ خرج من ماله مرتين حبًّا للَّه ورسوله، وعثمان بن عفان ﵁ جهز جيش العسرة، بما فصله أهل السيرة، حتىٰ قال فيه رسول اللَّه ﷺ: «**ما ضر عثمانَ ما عمل بعد اليوم**»[١]. وفي عام المجاعة أنفق في سبيل اللَّه العِيرَ القادمة من الشام، والتي دفع له التجار خمسة أضعاف ثمنها، فلم ينجحوا في إغرائه علىٰ تفضيل محبوب نفسه من المال، بل أنفقه في سبيل اللَّه.

وقد ذكر المفسرون شيئًا كثيرًا مما فعله الصحابة ﵃ في مجال الإنفاق، وخصوصًا ابن جرير مما رواه بروايته، ومن أهمها وأحلاها وأعمقها تربية ما رواه الشيخان وغيرهما، من أهل السنن عن أنس ﵁ قال: كان أبو طلحة من أكثر الناس نخلًا في المدينة، وكان أحب أمواله إليه «بيرحاء» بستانًا مستقبلًا المسجد، وكان النبي ﷺ يدخله ويشرب من ماء منه طيب، فلما نزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، قال أبو طلحة: يا رسول اللَّه، إن أحب أموالي إليَّ «بيرحاء»، وإنها صدقة للَّه؛ أرجو برها وذخرها عند اللَّه، فضعها - يا رسول اللَّه - حيث أراك اللَّه، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**بخ بخ؛ ذاك**

(١) رواه الترمذي (٣٧٠١).

مالٌ رابح، وقد سمعت ما قلت، وإني أرىٰ أن تجعلها في الأقربين»، قال: أفعل ـ يا رسول اللَّه ـ، فقسمها بين أقاربه وبني عمه[(١)].

وأخرج ابن أبي حاتم وغيره، عن محمد بن المنكدر قال: لما نزلت هذه الآية جاء زيد بن حارثة بفرس يقال لها «سبل»، لم يكن له مالٌ أحب إليه منها فقال: هي صدقة، فقبلها رسول اللَّه ﷺ وحمل عليها ابنه أسامة، فرأىٰ ـ أي رسول اللَّه ﷺ ـ ذلك في وجه زيد، فقال: «**إن اللَّه قبلها منك**»[(٢)].

وفي أمر النبي ﷺ لأبي طلحة رضي الله عنه أن يجعل «بيرحاء» في الأقربين، وإعطائه أسامة فرس أبيه زيد حكمةٌ وسياسة للقلوب، وذلك حتىٰ لا يكون للشيطان عليهما سبيل، بغرس الندم في قلبيهما، إذا نظرا إلىٰ مالهما المحبوب في أيدي الغرباء الأبعدين.

وقد اختلف العلماء في قوله: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، والأولىٰ عندي هو أن تكون الصدقة رفيعةً جيدةً غاليةً محبوبة، وقيل: المحبوب المحتاج إليه، وأرىٰ أنه لا حاجة لهذا الخلاف لقوة ظهور المعنىٰ.

وهذه الآية من جملة الآيات التي تنص علىٰ أن في المال حقًّا سوىٰ الزكاة؛ فإن الزكاة الواجبة لا تخرج من أشرف أموال المزكي وأكرمها، كما في قول النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «**وإياك وكرائمَ أموالهم**»[(٣)]، كما أن الآية هذه غير منسوخة بآية الزكاة، كما نقل الواحدي عن مجاهد والكلبي، وهذا في غاية البعد؛ لأن إيجاب الزكاة كيف ينافي الترغيب في بذل المحبوب لوجه اللَّه ﷻ؟! وقد سبق إيضاحه في الآية (١٧٧) من سورة البقرة.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ يعني: ما تنفقونه

---

(١) رواه البخاري (١٤٦١) ومسلم (٩٩٨).
(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/٣٤٨).
(٣) رواه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩).

من أي شيء ـ محبوب عندكم أو غير محبوب ـ، فإن اللّه عليم بمكانته عندكم، وعليم بدوافع الإنفاق وبواعثه، وعليم بما في نفوسكم من السخاء والبذل والارتياح له، أو عكس ذلك من الاستثقال والتأفف ومن الإخلاص والرياء، فيجازيكم علىٰ حسب ذلك كله.

وقوله سبحانه في الآية (٩٣، ٩٤) من السورة: ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾:

لم يكفَّ اليهود عن مقارعة الدعوة المحمدية، ومقاومتها، وإلصاق التهم بها، وقد سبق أن ذكرنا تسليح اللّه لنبيه بالحجج الدامغة المرغمة لأنوفهم، والقاطعة لألسنتهم، حيث قررت صدق رسالة محمد ﷺ ونبوته.

أما هذه الآيات فهي لدفع شبهات واتهامات باطلة، يريدون التشويش بها علىٰ الدعوة وبلبلة الخواطر، ومنها قولهم: كيف يستحل محمد من الطعام ما هو محرم علىٰ الأنبياء قبله، وهو يدَّعي الإيمان بهم؟ وكيف يزعم أنه كان حلالًا ثم صار حرامًا؟ وكيف يزعم الانتساب إلىٰ إبراهيم وأنه أولىٰ الناس به وهو علىٰ هذه الحال؟.

وهاتان الآيتان تدحضان هذا القول وتكذبانه، وقد أحالهم اللّه في ذلك علىٰ التوراة؛ لأنها لا تخالف القرآن لا في العقائد ولا في أصل التشريعات، فقال سبحانه: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

وفي هذه الآية الكريمة عدة إلزامات مرغمة لليهود:

١ ـ أنهم ينكرون النسخ، وبذلك يطعنون بالشريعة المحمدية، فأتىٰ اللّه بنيانهم من القواعد ونسفه نسفًا، حين أوضح لهم أن كل الطعام

كان حلًّا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل علىٰ نفسه؛ فذلك الذي حرمه علىٰ نفسه كان حلًّالا ثم صار محرمًا، وبذلك أثبت اللَّه النسخ وأبطل قولهم وطعنهم في القرآن.

وقد تحداهم اللَّه أن يأتوا بالتوراة إن كانوا صادقين في زعمهم أن التحريم قديم علىٰ عهد آدم، فإن التوراة ناطقة بأن سبب التحريم هو ما حرمه إسرائيل، ووحي اللَّه حق وصدق لا يتغير ولا يعارض بعضه بعضًا، وإنما تلبيس اليهود هو الذي يحول دون فهم الحقيقة، فلما تحداهم اللَّه بإحضار التوراة نكلوا عن إحضارها، وأسقط في أيديهم، وانقطعت شبهتهم التي يروِّجونها.

٢ ـ أن اليهود غير أمناء علىٰ كتاب اللَّه لإخفائهم كثيرًا مما فيه وتحريفه.

٣ ـ ثبوت المعجزة لسيدنا محمد ﷺ؛ حيث أخبر أهل الكتاب بما في كتابهم وأنىٰ له ذلك ـ وهو الأمي ـ لولا خبر السماء.

٤ ـ ثبوت النسخ، وثبوت إباحة الطعام لإسرائيل وبنيه وأجدادهم من الأنبياء، كإبراهيم عليه السلام، وإبطاله لمحاولة اليهود الفصل بين سيدنا محمد ﷺ، وأبيه إبراهيم عليه السلام، وتكذيبه في أنه أولىٰ الناس بإبراهيم عليه السلام.

هذا وقد حكىٰ أكثر المفسرين روايات في تحريم يعقوب عليه السلام لحوم الإبل وألبانها علىٰ نفسه لمرض أصابه وطال به، أو لأن عرق النساء قد أصابه، وكلها ترويجات من اليهود ليدفعوا عن أنفسهم عار تحريم اللَّه ذلك عليهم، عقوبةً لهم بسبب ظلمهم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ الآية (١٦٠، ١٦١)، من سورة النساء، وقوله سبحانه في الآية (١٤٦، ١٤٧)، من سورة الأنعام: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا

كُلَّ ذِي ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

وقد ورد في السنة أثر طويل رواه ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في الجزء الثاني من تفسيره طبعة دار المعارف، تحقيق «محمود شاكر»، برقم (١٦٠٥)، وقد صحح أسانيده المرحوم «أحمد شاكر» وعزاه إلىٰ مسند الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ من ثلاثة طرق، ونقله ابن كثير في تفسيره، نورد هنا صدره: عن ابن عباس قال: حضرت عصابةٌ من اليهود إلىٰ رسول اللَّه ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي. ثم بعد أن أخذ التعهد عليهم بالإسلام، سألوه عن أربع خلال؛ منها: أي الطعام حرم إسرائيل علىٰ نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ فأجابهم: «**أنه مرض مرضًا شديدًا، فطال، فنذر نذرًا لئن عافاه اللَّه من سقمه ليُحرِّمن أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحمَ الإبل...**» الحديث[1].

ولكن نص الآية يكفي عن الحديث مهما بلغ من الصحة، وينبغي علىٰ المفسر أن يأخذ القرآن المبارك علىٰ وجهه الصحيح، فيثبت ما أثبته من التحريم المبهم الذي حرمه إسرائيل علىٰ نفسه، والذي فسره الحديث، وما صح فيه الحديث لا يعد دسيسةً إسرائيلية؛ خصوصًا إذا كان له في القرآن أصل ولو مبهم. ويكفي أن نقول: إن جميع الطعام كان حلالًا لبني إسرائيل علىٰ أصالته القديمة، ولم يكن شيءٌ محرمًا إلا ما حرمه إسرائيل أبوهم علىٰ نفسه من قبل أن تنزل التوراة، وأما بعد نزول التوراة فقد حرم اللَّه عليهم طيبات قد أحلت سابقًا لهم؛ بسبب ظلمهم وبغيهم وصدهم علىٰ سبيل اللَّه كثيرًا.

---

(١) رواه أحمد (١/٢٧٣).

وليعلم أن التحريم الذي جرىٰ من يعقوب ﷺ علىٰ نفسه كان في شريعته، وهو منسوخ في شريعتنا، لقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ الآية [التحريم: ١]. فمن حرم علىٰ نفسه شيئًا من الحلال في شريعتنا يعتبر قد جاء بزور ومنكر من القول، كما قال تعالىٰ في آية الظهار: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة: ٢].

وقوله ﷻ: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾، بعد أن اتضح كذب اليهود في إنكارهم النسخ وجحودهم الحقائق المخزية لهم، فلم يبق إلا المكابرة والاستمرار علىٰ الظلم بافتراء الكذب للتلبيس علىٰ الناس.

والافتراء: أصله من فَرْي الأديم ـ وهو قَطْعُه ـ، فقيل للكذب افتراء؛ لأن الكاذب يقطع به في القول من غير تحقيق، والفرية هي الكذب والقذف.

ومعنىٰ الآية: فمن كذب علىٰ اللَّه منا أو منكم ـ من بعد وضوح الدليل وقيام والحجة ـ فهو ممن افترىٰ علىٰ اللَّه الكذب، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، لمكابرتهم وعدم إنصافهم من أنفسهم، ولرفضهم البينات وعدم التفاتهم إليها، وهذا هو عين الظلم وأبشعه والذي هو إنقاص حق اللَّه، والاستخفاف بجنابه الشريف، وافتراء الكذب عليه.

وفي هذا تحذير للمؤمنين من الكذب، الذي هو في العقيدة يكون نفاقًا، وفي المعاملات يكون خيانةً، وفي الإخبار فجورًا. والكذب لؤم في الطبيعة، وخديعة في الشريعة، وهو من سجايا اليهود.

وقوله سبحانه في الآية (٩٥) من السورة: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾:

يأمر اللَّه نبيه محمد ﷺ في هذه الآية، أن يقول لليهود: صدق اللَّه فيما أخبرني به من كذبكم، فيما تدَّعون من قدم التحريف في سالف الأنبياء الغابرين، والقول بعدم النسخ، ومن تحريم الطيبات لبعض

جرائمكم، لقد صدق اللَّه، فهو الذي أخبرني بمخازيكم، ولولا وحيه ما علمت وما استطعت أن أرد عليكم أكاذيبكم.

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ وكذبتم، فما لكم إلا الخضوع للحق والانصياع لملة إبراهيم التي جئت بها، وبها أفتيت بحل لحوم الإبل وألبانها.

نعم إن محمدًا ﷺ علىٰ ملة إبراهيم في الفروع والأصول، وإنه يدعوكم أيها اليهود لاتباعه علىٰ ملته الحنيفية التي لا إفراط فيها ولا تفريط، ولا غلو فيها ولا تقصير، بل هي الفطرة القويمة والملة السمحة المبنية علىٰ الإخلاص للَّه، وإسلام الوجه له ﷻ. فإن كنتم أيها اليهود محقين في دعواكم وأنكم علىٰ الدين الذي ارتضاه اللَّه لأنبيائه، فاتبعوا ملة إبراهيم أبي الأنبياء، وإمام الحنفاء، فإن اللَّه ارتضاه له خليلًا، وجعل ملته هي الدين الحق، وهي الأصل لجميع الأنبياء والمرسلين، وبرأه من الشرك وأهله، ونفىٰ عنه الشرك بصيغة الماضي، ليدل علىٰ استغراق النفي لجميع الزمن الماضي، فقال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وقد جاء ما يوهم ذلك في قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ إلىٰ آخره [الأنعام: ٧٦]، ومن ظن ربوبية غير اللَّه فهو مشرك.

والجواب عن هذا من وجوه:

١ ـ أن إبراهيم كان مناظرًا لا ناظرًا، ومقصوده بذلك التسليم الجدلي، لينسلس الخصم(١)، أي: هذا ربي علىٰ زعمكم الباطل؛ والمناظر قد يسلم بالمقدمة الباطلة تسليمًا جدليًّا ليفحم بذلك خصمه، فلو قال لهم إبراهيم بادئ الأمر: إن الكواكب مخلوقة، ولا يمكن أن تكون ربًّا، لقالوا له: كذبت، بل الكواكب رب. ومما يدل علىٰ كونه مناظرًا ـ لا ناظرًا ـ قوله سبحانه: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ [الأنعام: ٨٠].

وما استدل به ابن جرير، علىٰ أنه غير مناظر من قوله تعالىٰ: ﴿لَئِن

---

(١) ينسلس: يلين.

لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الأنعام: ٧٧]، لا دليل فيه على التحقيق، لأن الرسل يقولون مثل ذلك تواضعًا، وإظهارًا لالتجائهم إلىٰ اللَّه؛ كقول إبراهيم: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وقوله: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ [البقرة: ١٢٨] ونحو ذلك.

هذا وقد كفانا اللَّه ابن جرير بابن كثير، فقد رد عليه في تفسيره بآيات وأحاديث تدل علىٰ مقتضىٰ ما قلناه، ومنها حديث: «**كل مولود يولد علىٰ الفطرة**»[1].

٢ ـ ومما يدل علىٰ أن إبراهيم كان مناظرًا أنه قال عند أفول الكوكب: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٦]، وعند أفول الشمس: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام]. وهذا أسلوب حكيم ولطيف للرد علىٰ الخصوم وإسكاتهم، إذ إن الشيء الذي يغيب كيف يعبد؟ وكيف يحصل نفعه إذا غاب؟.

٣ ـ أن الكلام علىٰ حذف همزة الاستفهام، أي: أهذا ربي؟ وقد تقرر في علم النحو جواز حذف همزة الاستفهام إذا دل المقام عليها، سواء مع «أم» أو دونها، وسواء ذكر الجواب أو لم يذكر، والشواهد علىٰ ذلك كثيرة في كلام العرب، نقتصر منها علىٰ قول الكميت فيما خلا من «أم»:

طربتُ وما شوقًا إلىٰ البيضِ أطربُ ... ولا لعبًا مني وذو الشيبِ يلعبُ

يعني: أو ذو الشيب يلعب؟

وعلىٰ قول الخنساء فيما فيه ذكر «أم»:

قذًىٰ بعينك أم بالعين عُوَّارُ ... أم ذرَّفت إذ خلتْ من أهلها الدارُ

يعني: أقذىٰ بعينك.

---

(١) تقدم تخريجه.

وعلىٰ هذه القاعدة اللغوية فإن قرينة الاستفهام المحذوف هي علو مقام إبراهيم عن ظن ربوبية غير اللَّه.

وقوله سبحانه في الآية (٩٦) من السورة: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾:

ساق اللَّه هذه الآية لرد شبهة أخرىٰ من شبهات اليهود، وذلك أنهم طعنوا بنبوة محمد ﷺ لمَّا حوله اللَّه إلىٰ استقبال الكعبة، زاعمين أن بيت المقدس أفضل وأحق بالاستقبال؛ لأنه وضع قبلها، ولأنه أرض المحشر وقبلة الأنبياء جميعًا.

وقد أجاب اللَّه سبحانه عن هذه الشبهة بجواب دافع يشفي صدور المؤمنين حيث قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾؛ فبين أن الكعبة هي أول بيت وضع للناس يعبدون اللَّه فيه، وهو مبارك لما يحصل لعباد اللَّه حوله من مزيد الأجر ومضاعفة الثواب، ويحصل فيه مزيد هداية لقاصده لا تحصل له في غيره، فتحصل له الهداية والاستقامة والاتزان في سلوكه، فلا يتأرجح عندئذ بين شيئين متناقضين.

وفي هذا بيان لفضل الكعبة علىٰ بيت المقدس؛ لأنها أول بيت وضع لعبادة اللَّه، ولأنها القبلة الأولىٰ قبلة إبراهيم التي بناها بأمر اللَّه، كما أن فيها إثباتًا للنسخ الذي ينكره اليهود، فقد نازعوا رسول اللَّه ﷺ فيه كثيرًا، وخصوصًا في مسألة تحويل القبلة.

وقوله سبحانه: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾: يعني للبيت الذي ببكة، و«بكة ومكة» اسمان من أسماء البلد الحرام، وقيل: إن «مكة» اسم البلد المجاور للمسجد الحرام، و«بكة» موضع المسجد.

واشتقاق كلمة «بكة» من «بَكَّهُ» إذا زحمه، وسميت بكةَ لازدحام الناس فيها.

وعن قتادة قال: سميت «بكة»؛ لأن الناس يبك بعضهم بعضًا

رجالهم ونساؤهم؛ فيصلي بعضهم بين يدي بعض، ولا يصلح ذلك إلا بمكة.

وكأنها سميت ببكة للزحمة، وقيل: لأن الأرجل يقع بعضها علىٰ بعض.

وقد ذكر المفسرون والقصاصون أخبارًا عن مدىٰ قدم هذا البيت، حتىٰ روىٰ بعضهم أن مكانه مهيأ قبل خلق السماوات، وبعضهم قال: إن الملائكة بنته قبل خلق آدم. وإذا صح الحديث فلا يجوز إحالته بالعقل، بل يجب التسليم له، ولكن لم يصح منها سوىٰ ما رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد والبيهقي في «شعب الإيمان»، ورواه ابن جرير برقم (٧٤٣٤): حدثنا محمد بن المثنىٰ قال: حدثنا ابن أبي عدي عن شعبة عن سليمان وهو الأعمش، عن إبراهيم التيمي عن أبيه، عن أبيه، عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول اللَّه، أي مسجد وضع أولَ؟ فقال: «**المسجد الحرام**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**المسجد الأقصىٰ**»، قلت: كم بينهما؟ قال «**أربعين سنة**»[(١)].

فهذا الحديث يجب الوقوف عنده، وعدم تخطيه، مع أنه لا يدل علىٰ حصر ولا قصر؛ بل تدل آية البقرة (١٢٧): ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾ علىٰ قواعد قديمة كانت قبلهما، فمشيا عليها بتلقين من اللَّه، والقواعد: جمع قاعدة وهي الأساس، وقد ذكر ابن جرير هناك أقوالًا فيها، إلىٰ أن قال: والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن اللَّه ـ تعالىٰ ذكره ـ أخبر عن إبراهيم خليله أنه وابنه إسماعيل رفعا القواعد من البيت الحرام، وجائز أن يكون ذلك قواعد بيت كان أهبطه مع آدم، فجعله مكان البيت الحرام الذي بمكة، وجائز أن يكون ذلك كان القبة التي ذكرها عطاء، مما أنشأه

---

(١) رواه البخاري (٣٤٢٥)، ومسلم (٥٢٠).

اللَّه من زبد الماء، وجائز أن يكون: كان ياقوتة أو درة أهبطا من السماء، وجائز أن يكون كان آدم بناه ثم انهدم حتىٰ رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل. ولا علم عندنا بأيِّ ذلك كان من أيٍّ؛ لأن حقيقة ذلك لا تدرك إلا بخبر عن اللَّه وعن رسوله ﷺ بالنقل المستفيض، ولا خبر بذلك تقوم به الحجة، فيجب التسليم لها... إلخ.

وهنا آثار عن علي رضي الله عنه لا يقال مثلها بالرأي، فمنها ما رواه ابن جرير برقم (٧٤٢٣) حدثنا محمد بن المثنىٰ قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا شعبة عن سماك قال: سمعت خالد بن عرعرة، قال: سمعت عليًّا وقيل له: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ هو أول بيت كان في الأرض؟ قال: لا، قال فأين كان قوم نوح؟ وأين كان قوم هود؟ قال: ولكنه أول بيت وضع للناس مباركًا وهدىٰ.

وقبله أثر عن علي يقاربه، وهو مختصر من أثر ذكره في الجزء الثالث رقم (٢٠٥٨) وأثرين بعده مختصرين، وقد قوىٰ المرحوم أحمد شاكر أسانيدها كلها، وهذا الكلام من الإمام علي يدل علىٰ تصحيف، إذ قوله: أين كان قوم نوح؟ وأين كان قوم هود؟ يقتضي أنهم ليسوا محرومين من بيت يتجهون إليه في عبادتهم، ويلتقون عنده كسائر المسلمين، فالناقل عن علي رضي الله عنه لم يضبط لنا الحديث، ولم يؤده علىٰ وجهه الصحيح.

وقد ذكر المفسرون في قصة هلاك عاد ـ قوم هود ـ أنهم أرسلوا وفدهم لمكة يستسقون لهم، فانقلب أمرهم إلىٰ العذاب، فلولا أن في مكة بيتًا يدعون اللَّه حوله، لما أرسلوا وفدهم لها. ومن المقطوع به أن الحج من أركان الإسلام لا يتركه إلا كافر، والإسلام دين اللَّه لجمع البشر جاءت به الرسل، فهل ركن الحج ليس قديمًا فيه؟ واللَّه يقول في الآية (٣٤) من سورة الحج ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج: ٣٤]، وفي الآية (٦٧) من نفس السورة: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج: ٦٧]، وإن كان

المقصود بالنسك هنا الذبائح، لكن فيها دلالة علىٰ ما هو أعم منها وأهم، وهنا ما هو أقوىٰ من الحج دليلًا، وهو الصلاة المفروضة علىٰ جميع الأنبياء والمرسلين، ومن تابعهم من الأمم فهؤلاء إلىٰ أي جهة يستقبلون؟ لابد أنهم يستقبلون الكعبة التي هي أول بيت وضع للناس، والتي كانت قبلةً قبل أن يبنيها أو يجدد بناءها إبراهيم عليه السلام.

وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال في خطبته يوم فتح مكة: «**ألا إن اللّٰه حرم مكةَ يوم خلق السماوات والأرض والشمس والقمر**»(١). وتحريم مكة لا يمكن إلا بعد وجودها، قد وردت آثار كثيرة عن الصحابة والتابعين تدل علىٰ أن مكة كانت موجودةً قبل زمان إبراهيم، ولكنها اكتسبت زيادة شرف بما قضاه اللّٰه سبحانه علىٰ يد إبراهيم عليه السلام، من وضع البذرة الطاهرة بها من نسله، والتي تكون آخر الساكنين بها والعامرين لها، ومن أمره سبحانه ببناء البيت، فهو الباني للكعبة مع ابنه المساعد له إسماعيل، وأما بيت المقدس فقد بناه سليمان عليه السلام بعده بمدة.

وفضائل الكعبة ومكة كثيرة جدًّا أفردت بالتأليف، وقد جعلها اللّٰه حرمًا آمنًا يجبىٰ إليه ثمرات كل شيء رزقًا من عنده، كما في الآية (٥٧)، من سورة القصص، وقوله تبارك وتعالى في صدر الآية (٩٧) من السورة: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾.

أما قوله سبحانه: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ﴾ فهذه الآيات هي موضع قدميه الشريفتين اللتين ساختا في الصخرة يوم كان يرتفع عليها حين ارتفاع البناء، وقد كان موضع أصابع أخمصي قدميه واضحتين، نقل ذلك الأوائل عمن رآها، كابن عقيل وغيره، وقال: فما زالت جهلة الأمة تمسحه حتىٰ اخلولق، وقد خشىٰ عليه بعض الحكام خصوصًا بعد تصدع جرىٰ في الصخرة.

---

(١) رواه الطبري (١٦٨/١). وأصله في «الصحيحين» بدون «والشمس والقمر».

وذكر صاحب «الأغلاق النفيسة» أحمد بن عمر بن رسته: أن ذرع المقام ذراع، والمقام مربع، سعة أعلاه أربعة عشرة أصبعًا، في أربعة عشر أصبعًا، ومن أسفله مثل ذلك، وفي طرفيه من أعلاه وأسفله فيما مضىٰ طوقان من ذهب وما بين الطوقين من حجر المقام بارز لا ذهب عليه من نواحيه، كلها تسعة أصابع عرضًا في عشرة أصابع طولًا، وذلك قبل أن يجعل عليه هذا الذهب الذي هو عليه اليوم، من عمل المتوكل علىٰ اللَّه، وعرض حجر المقام من نواحيه إحدىٰ وعشرون أصبعًا، وسطه مربع، والقدمان داخلتان في الحجر سبعة أصابع، ودخولهما منحرفتان، وبين القدمين من الحجر أصبعان، ووسطه قد استدق من التمسح به فيما مضىٰ، والمقام في حوض من ساج مربع، حوله رصاص، وعلىٰ الحوض صفائح رصاص مليَّس بها. انتهىٰ المقصود من نقله.

وقد قاسه من علماء العصر بالحجاز بالمقاس الحديث ـ السنتيمتر ـ الشيخ محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي، الخطاط بالمعارف العامة بمكة، فقد قال في كتابه المسمىٰ «مقام إبراهيم»: وأما حجم المقام الكريم: فهو يشبه المكعب، ارتفاعه عشرون سنتيمترًا، وطول كل ضلع من أضلاعه الثلاثة من جهة سطحه ستة وثلاثون سنتيمترًا، وطول ضلعه الرابع ثمانية وثلاثون سنتيمترًا، فيكون مقدار محيطه من جهة السطح مئة وستة وأربعين سنتيمترًا، وأسفل المقام أوسع بقليل من أعلاه، فيكون مقدار محيطه من جهة القاعدة نحو مئة وخمسين سنتيمترًا، وفي هذا الحجر الشريف غاصت قدما خليل اللَّه تعالىٰ سيدنا إبراهيم مقدارًا كبيرًا إلىٰ نصف ارتفاع الحجر، فعمق إحدىٰ القدمين عشرة سنتيمترات، وعمق الثانية تسعة سنتيمترات، ولم نشاهد أثر أصابع القدمين مطلقًا، فقد انمحىٰ من طول الزمن، ومسح الناس بأيديهم، وأما موضع العقبين فلا يتضح إلا لمن دقق النظر وتأمل.

وحافة القدمين الملبستين بالفضة أوسع من بطنهما، من كثرة مسح الناس بأيديهم، وطول واحدة من القدمين من سطح الحجر والفضة

سبعة وعشرون سنتيمترًا، وعرض كل واحدة منها أربعة عشر سنتيمترًا، أما قياسهما من باطن القدمين، من أسفل الفضة النازلة فيهما، فطول كل واحدة منها اثنان وعشرون سنتيمترًا، وعرض كل واحدة منهما أحد عشر سنتيمترًا، وما بين القدمين فاصل مستدق نحو سنتيمتر واحد، وقد استدق هذا الفاصل من أثر مسح الناس له بأيديهم للتبرك، وكذلك اتسع طول القدمين وعرضهما من أعلاهما، بسبب المسح ـ أيضًا ـ.

ومع أنه قد مر علىٰ حجر المقام أكثر من أربعة آلاف سنة، فإن معالمه وهيئة القدمين واضحة بينة، لم تتغير ولم تتبدل، وتبقىٰ كذلك إلىٰ يوم القيامة مصداقًا لقوله تعالىٰ: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، انتهىٰ المقصود مما نحن بصدده.

وقد اعترف كغيره بانمحاء أكثر الآثار الهامة من المسح، تمسح المخرفين، الذين يُشرِّعُ لهم من الدين ما لم يأذن به اللَّه.

وقد حدثني شيخ سلفي تقي مأمون بخبر مؤسف من أخبار الانتهازيين الماديين المنحرفين، وهو أنه في العهد الذي قبل العهد السعودي، كان بعض المشرفين المتصرفين في المقام وغيره يضع الماء ـ ماء زمزم ـ في موضع القدمين ويبيع «الطاسة الصغيرة الكندي الثقيلة» بريال فضة، فكانت الطاسة تحك بالحجر أحيانًا، وموضع الحك بها قد يشاهده من أمعن النظر فيه. قال: وقد رأيت ذلك الإناء بعيني مربوطًا بسلسة من شباك الحجر واللَّه أعلم بما يصنعون. نعوذ باللَّه من جزم بلا عمل، ولكن الذي يؤسف له هو ضياع أكثر الأثر الثمين، الذي وصفه اللَّه بأنه ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٞ﴾ في سبيل المعتقدات الفاسدة والانتهازات.

وكل هذا من ضعف التوحيد الذي جعلهم يفعلون ما لا يؤمرون؛ ويرجحون مرادات أنفسهم علىٰ مرادات ربهم العزيز الجبار الواحد القهار، ولكنه سبحانه غالب علىٰ أمره، فقد سخَّر الدولة السعودية

الحاكمة لمقدسات الإسلام في هذا العصر علىٰ كشفه وإبرازه لتظهر آيات اللَّه البينات.

فهذه الآية البينة لم تكن لغير آل البيت الحرام، وهي من الشواهد الأثرية علىٰ بناء إبراهيم، ومن بناه فهو أحق بالاستقبال من غيره، وقد ذكرت ضبط مقاساته خدمةً للمسلمين.

وهذا الحجر الأثري كان موقعه ملصقًا بجدار الكعبة عن يمين الباب، فقد روىٰ البيهقي في «سننه» أن المقام في زمن النبي ﷺ وزمن أبي بكر كان ملصقًا بالبيت، حتىٰ أخره عمر بن الخطاب، وذكر ابن حجر العسقلاني في «الفتح» أن المقام كان في عهد إبراهيم عليه السلام لِزْقَ البيت، إلىٰ أن أخره عمر إلىٰ المكان الذي هو فيه الآن.

وذكر ابن كثير في تفسيره قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] ما نصه: وقد كان هذا المقام ملصقًا بجدار الكعبة قديمًا، ومكانه معروف اليوم إلىٰ جانب الباب مما يلي الحِجر ـ بكسر الحاء ـ يَمنةَ الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك، وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه إلىٰ جدار الكعبة، أو أنه انتهىٰ عنده البناء فتركه هناك، ولهذا ـ واللَّه أعلم ـ أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم، حيث انتهىٰ بناء الكعبة فيه، وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب للضرورة، وهو أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين الذين أمرنا باتباعهم، وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول اللَّه ﷺ: **«اقتدوا باللذينِ من بعدي: أبي بكر وعمر»**[1]، ولهذا لم ينكر أحد من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

وقد ذكر في تفسير الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ (٥٨) من سورة النساء، في أخذ رسول اللَّه ﷺ مفتاح الكعبة ودخولها،

---

(١) رواه أحمد (٥/٣٨٢).

وغمس التماثيل أنه أخرج مقام إبراهيم، وكان في الكعبة، فألزقه في حائطها، ثم قال «**أيها الناس هذه القبلة**»[1]... إلىٰ آخر كلامه في تفسير هذه الآية، فليراجعه طالب المزيد، فإني مختصر جدًّا.

قد حصل خلاف هذه السنوات في تحويل المقام عن مكانه إلىٰ ما يعادله من الشرق بسبب الازدحام، وقد أفتىٰ أكثر العلماء بجوازه للضرورة التي هي أشد من الضرورة التي حدت بأمير المؤمنين إلىٰ تحويله، وقد أبدوا تعليلاتٍ كافيةً مقنعةً لكل منصف، ولكن حصلت معارضة في وقت كانت السماء كثيفة بالغيوم، فتوقف التنفيذ إلىٰ تحريك جديد، نرجو من اللَّه تعجيله ما دامت السماء صحوًا.

والمقصود: أن هذا الوحي المبارك أفحم اليهود، ودمغهم بالحقائق التاريخية التي يتجاهلونها، لتشكيك المسلمين، وبلبلة خواطرهم في معركتهم الجدلية الخبيثة الأهداف، والذين جعلوا من تحويل القبلة محورًا لجدلهم يُبدِئُون فيها ويعيدون، زاعمين أنهم ورثة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأن القدس هي قبلة الأنبياء أجمعين، فدحض اللَّه شبهاتهم بأمور لا يجهلونها؛ بل حتىٰ عرب الجاهلية يعرفونها كابرًا عن كابر، وهي القداسة العظيمة والفضل الكبير للكعبة البيت الحرام، التي فيها آيات بينات في غاية الظهور، أحدها: مقام إبراهيم الذي يعرفه حتىٰ الجاهليون، ويحترمونه، حتي إنهم جعلوه داخل الكعبة، ويقول فيه أبو طالب:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبةً ... علىٰ قدميه حافيًا غير ناعلِ

فالقرآن الكريم يُلمِسُ اليهود حقيقة الأمر بطريقة حسية لا تقبل الجدل والمراوغة، ويأمر محمدًا ﷺ أن يصارحهم: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ هذه

---

(١) رواه مسلم (١٣٣٠).

الآيات البينات العظيمة الظاهرة المحسوسة تَدلهم علىٰ حقيقة دين إبراهيم، وأنه الميل عن كل شرك وهوًىٰ، وقد جرىٰ تأكيد هذه الحقيقة مرارًا، وأوضحت هذه الآيات أن الاتجاه إلىٰ الكعبة هو الأصل الأصيل، لكونها أول بيت وضع للناس قبل بيت المقدس، فلم يبق عند اليهود إلا العناد والاستكبار عن الحق، واستبداله بالباطل كما هي عادتهم.

ثم إن لهذا البيت والبلد الأمين فضائل؛ منها:

١ ـ أن اللَّه ﷻ قضىٰ في سابق علمه أن يضع فيه البذرة الطاهرة من ولد إبراهيم عليه السلام؛ ليكون ركيزةً للإسلام إلىٰ يوم القيامة.

٢ ـ أن اللَّه أمر خليله إبراهيم عليه السلام ببناء البيت، ليكون مركز الدائرة للعالم الإسلامي.

٣ ـ أن اللَّه جعله مرزوقًا يجبىٰ إليه ثمرات كل شيء ـ كما مضىٰ ذكره ـ.

٤ ـ أن اللَّه جعل الوحوش والظباء تجتمع فيه لا يؤذي بعضها بعضًا.

٥ ـ أن اللَّه نجىٰ البيت وسكانه علىٰ كفرهم من بطش أصحاب الفيل، وأهلكهم علىٰ قوتهم بما أخبرنا به، وبمشاهدة الأقوام بطير أبابيل، وهذه من المعجزات، ومن كرامات إبراهيم وابنه محمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ ومن بركة دعاء إبراهيم.

٦ ـ أن اللَّه سبحانه جعله في أرض قاحلة، وجبال محرقة لا مياه فيها ولا زهور ولا ثمار، وذلك لحكمة ـ بل لحكم عظيمة ـ منها:

ـ أن تظهر فيها قداسة العبادة وروحانيتها، وتتخلص من مظاهر المادية وفتنتها، فلو كانت جبال مكة ـ شرفها اللَّه ـ وأوديتها كجبال إيطاليا ونحوها لما بقي في القلوب من روحانية العبادة، ولنقصت معاني التأله أو تلاشت.

ـ أن اللَّه تعالىٰ قطع بذلك مطامع الجبابرة الاستعماريين أهل

الاستغلال والانتهازية.

ـ أن اللَّه قطع رجاء أهل حرمه عمن سواه، حتىٰ لا يتكلوا إلا علىٰ اللَّه، ولكن مع الأسف انقلب سكانه إلىٰ الانتهازية.

ـ أن اللَّه جعلها في هذا الموضع، وعلىٰ هذه الحالة من قحط الجبال وسوء منظرها وانعدام الماء فيها؛ حتىٰ لا يقصدها أحد للنزهة ولا للتجارة، بل ينحصر قصدها للعبادة، ولذلك جعل شمسها محرقة، وجوها في غاية الحرارة بالنسبة إلىٰ ما حولها من القرىٰ كالطائف وغيره، إلىٰ غير ذلك من الفوائد التي لا نطيل بها المقام.

٧ ـ ومن فضائل هذا البيت أنه مبارك، والبركة لها معنيان:

أحدهما: النمو والتزايد.

ثانيهما: البقاء والدوام.

وهذا البيت مبارك بجميع المعاني؛ فإن الطاعات يزداد ثوابها فيه ويتضاعف، كما صح الحديث أن الصلاة فيه بمئة ألف صلاة[١]، ويقاس عليها باقي الطاعات ـ وخصوصًا الحج ـ، فقد قال ﷺ: «**مَن حج ولم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه**»[٢]. وقال ـ أيضًا ـ: «**الحجُّ المبرور ليس له ثوابٌ إلا الجنة**»[٣]. هذا علىٰ تفسير البركة بالنماء.

أما علىٰ تفسيرها بالبقاء والدوام: فإن الكعبة لا تخلو من الطائفين والعاكفين والراكعين والساجدين، ومن صفات هذا البيت المبارك أنه «هدًىٰ للعالمين»؛ ففيه هداية لجميع الناس باستقبال المصلين له من كل جهة في مشارق الأرض ومغاربها، إذ كل من استعمل عقله الفطري حين ينظر إلىٰ اتجاه المصلين يستدل بذلك علىٰ وجود اللَّه،

---

(١) رواه ابن ماجه (١٤٠٦).
(٢) رواه البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠).
(٣) رواه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩).

وعلىٰ صدق رسوله ﷺ، هذا زيادة علىٰ النظر في العجائب الأخرىٰ التي سبق ذكرها.

وقد ذكر بعض العلماء أن في هذا البيت المبارك آياتٍ بيناتٍ غير مقام إبراهيم، وأن فيه هدايةً إلىٰ الجنة.

قال عليٌّ رضي الله عنه: «هو أول بيت خص بالبركة».

وقال الحسن: «هو أول مسجد عُبد اللَّه فيه في الأرض».

وقال مُطَرِّفٌ: «هو أول بيت جُعِل قبلةً».

قال الرازي والآلوسي وغيرهما: يجب علىٰ العاقل أن يستحضر في ذهنه أن الكعبة كالنقطة، وليتصور أن صفوف المتوجهين إليها في الصلوات كالدوائر المحيطة بالمركز، وليتأمل كم عدد الصفوف المحيطة بِهذه الدائرة حال اشتغالهم بالصلاة، ولا شك أنه يحصل فيما بين هؤلاء المصلين أشخاص أرواحهم علوية، وقلوبهم قدسية، وأسرارهم نورانية، وضمائرهم ربانية، ثم إن تلك الأرواح الصافية إذا توجهت إلىٰ كعبة المعرفة، وأجسادهم توجهت إلىٰ هذه الكعبة الحسية، فمن كان في المسجد الحرام تتصل أنوار تلك الأرواح الصافية المقدسة بنور روحه؛ فتزداد الأنوار الإلهية في قلبه، وهذا غاية البركة، فهو بحر عظيم ومقام شريف ينبهك علىٰ كونه مباركًا. انتهىٰ كلامهما بتصرف قليل جدًّا في آخره.

وأقول: إن كان المقصود بالأنوار أنوار العبادة الناشئة من حب اللَّه تعالىٰ، والإخلاص له، وما يسري في ذلك من البركة بإذن اللَّه؛ فهو كلام جميل، واللَّه من وراء القصد.

فوائد:

أولها: لمكة أسماء كثيرة مشهورة في كتب التاريخ، خصوصًا ما يختص بمكة فلا نطيل بذكرها.

ثانيها: اشتقاق «مكة» فيه خلاف، فقيل: إنها تَمُكُّ الذنوب، أي

تزيلها وتمتصها.

وقيل: سميت بذلك لاجتلابها الناس من كل جانب من جوانب الأرض، فهي تجتلب الصالحين، كما يَمْتَكُّ الفصيل ما في الضرع من اللبن، وكما يمْتَكُّ الإنسان العظم لاستخراج المخ.

وقيل: لأنها تَمُكُّ الفاجر والكافر، وتستخرجه منها، وفي هذا يقول شاعرهم:

يا مكة الفاجرَ مُكي مَكَّا ولا تمكي مذحجًا وعكَّا

ثالثها: للكعبة المشرفة أسماء كثيرة، فهي البيت الحرام، وسميت «كعبة» لشرفها وارتفاعها، ومن أشهر أسمائها: «البيت العتيق»، وتسميته لأسباب عديدة، منها: أنه أقدم بيوت الأرض، وأن اللَّه أعتقه من الغرق، وأن اللَّه أهلك كل من أراد تخريبه، وأن اللَّه أعتقه من أن يكون ملكًا لأحد من الناس، وأن اللَّه يُعتق من زاره من النار، إذا لم يَفسد شيءٌ من نيته أو أعماله.

وأما قوله ﷻ: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ فإن هذا من آيات اللَّه البينات في هذه البقعة الطاهرة، أن من دخلها حصل علىٰ الأمان مما يهيجه، وهذا إخبار من اللَّه سبحانه عما كان معروفًا في الجاهلية، فقد كان أحدهم يلقىٰ قاتل أبيه أو أخيه في الحرم فلا يهيجه ولا يمسه بسوء، وكان عبداللَّه بن عمر بن الخطاب يقول: «لو وجدت قاتل أبي في الحرم ما قتلته».

وقال بعض أهل المعاني: صورة الآية خبر، ومعناها أمر، فتقديرها: ومن دخله فأمنوه كقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧] أي، لا ترفثوا، ولا تفسقوا، ولا تجادلوا.

فأوجب اللَّه الأمن لمن دخله، وروي ذلك عن جماعة من السلف، منهم ابن عباس.

وقال ابن العربي المالكي: وكل من قال هذا فقد وهم من جهتين:

١ ـ أنه لم يفهم من الآية أنه خبر عما مضىٰ، ولم يقصد بها إثبات حكم مستقبل.

٢ ـ أنه لم يعلم أن ذلك الأمن قد ذهب، وأن القتل قد وقع بعد ذلك فيها، وخبر اللَّه لا يقع بخلاف مَخبَره، فدل ذلك علىٰ أنه كان في الماضي.

وكلامه[1] لا يعول عليه في جميع النواحي؛ فمن خصوصياته وآياته أن جعله اللَّه حرمًا آمنًا منذ عهد إبراهيم، حتىٰ عهد الجاهلية الذي انحرف أهله والناس عن التوحيد وملة إبراهيم.

قال الحسن البصري ـ وغيره ـ: «كان الرجل يقتل فيضع في عنقه صُوفة، فيدخل الحرم، فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه حتىٰ يخرج، وهذا من تكريم اللَّه لهذا الحرم».

وقد قال سبحانه: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش]، وقال ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وفي ذلك آيات أخرىٰ، وهي تقتضي الخبر والأمر، وما جرىٰ من الإخلال بالقتال فهو فسوق وإخلال بأمر اللَّه.

وقد ثبت في «صحيح مسلم» بسنده عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ يوم فتح مكة: **«إن هذا البلدَ حرَّمه اللَّه يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرامٌ بحرمة اللَّه إلىٰ يوم القيامة، وإنه لم يحلَّ القتالُ فيه لأحدٍ قبلي، ولم يحلَّ لي إلا في ساعةٍ من نهار؛ فهو حرامٌ بحرمة اللَّه إلىٰ يوم القيامة، لا يُعضَدُ شوكه، ولا يُنفَّرُ صيدُه، ولا تُلتقط لُقَطتُه إلا لمن عرَّفها، ولا يُختلي خلاه...»**[2]، إلىٰ آخر الحديث الصحيح الذي هو أحق من كلام ابن العربي بالقبول والاتباع.

---

(١) يعني ابن العربي رحمه الله.

(٢) تقدم تخريجه.

ولما أخبر أبو سفيان النبي ﷺ بقول سعد بن عبادة حامل لواء الأنصار: اليوم يوم الملحمة، اليوم يوم تستحل فيه الكعبة، قال ﷺ: «**كذب سعدٌ، اليوم يومٌ تُكسىٰ فيه الكعبة، يوم تعظَّم فيه الكعبة**»(١). وقد أعلن إعلانه المشهور: «**من أغلق عليه بابه فهو آمن، ومَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن**»(٢)، كما هو مذكور في كتب السيرة.

ومن احتج بإباحتها لرسول اللَّه ﷺ علىٰ دوام إباحتها، فهو غالط أو مغالط؛ لأنها أُحلت له ساعة من نهار فقط لتطهيرها من الشرك، ولم تحل لأحد قبله ولا بعده. وقد عقد الإمام ابن القيم فصولًا بديعةً في معاني خطبته ﷺ يوم الفتح، نقتطف المهم منها للاختصار:

قال: منها قوله ﷺ: «**إن مكة حرمها اللَّه ولم يحرمها الناس**»، فهذا تحريم شرعي قدري سبق به قدره يوم خلق هذا العالم، ثم ظهر به علىٰ لسان خليله إبراهيم ومحمد ـ صلوات اللَّه وسلامه عليهما ـ كما في الصحيح عنه قال: «**اللَّهم إن خليلَك حرَّم مكة، وإني أحرِّم المدينة**»(٣)، فهذا إخبار عن ظهور التحريم السابق يوم خلق السماوات والأرض، ومنها قوله عن مكة: «**فلا يحلُّ لأحدٍ أن يسفك بها دمًا**»(٤)، وهذا التحريم لسفك الدم المختص بها، وهو الذي يباح في غيرها، ويحرم فيها لكونها حرمًا، وهذا أنواع:

أحدها ـ وهو الذي ساقه أبو شريح العدوي لأجله ـ: أن الطائفة الممتنعة بها من مبايعة الإمام لا تقاتَل، لا سيما إذا كان لها تأويل، كما امتنع أهل مكة من مبايعة يزيد، وبايعوا ابن الزبير، فلم يكن قتالهم، ونصب المنجنيق عليهم وإحلال حرم اللَّه جائزًا، بل غير

---

(١) رواه البخاري (٤٢٨٠).
(٢) رواه مسلم (١٧٨٠)، وأبو داود (٣٠٢٢).
(٣) رواه أحمد (١/١١٩).
(٤) رواه مسلم (١٣٥٤).

جائز، وإنما خالف عمرو بن سعيد وشيعته وعارض نص رسول اللَّه ﷺ برأيه، لما شطحت به الأهواء السياسية، فقد روىٰ مسلم في «صحيحه» عن أبي شريح العدوي، أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلىٰ مكة: ائذن لي ـ أيها الأمير ـ أن أحدثك حديثًا قال به رسول اللَّه ﷺ الغد من يوم الفتح، سمعته أذني، ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي حين تكلم به، أنه حمد اللَّه، وأثنىٰ عليه، ثم قال: «**إن مكة حرَّمها اللَّه، ولم يحرِّمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن باللَّهِ واليوم الآخر أن يسفكَ بها دمًا، أو يَعضُدَ بها شجرة، فإن أحدٌ ترخَّص بقتال رسول اللَّه ﷺ فيها، فقولوا له: إن اللَّه أذِن لرسوله، ولم يأذن لكم، وإنما أذِن لي ساعة من نهار، وعادت حرمتها اليوم، كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب**»[1]. فقيل لأبي شريح: ما قال لك؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يُعيذ عاصيًا ولا فارًّا بدم، ولا فارًّا بخربة[2]. والخربة: السرقة.

قال ابن القيم: فقد عارض النص النبوي برأيه وهواه، فقال: إن الحرم لا يعيذ عاصيًا، فيقال له[3]: هو لا يعيذ عاصيًا من عذاب اللَّه، ولو لم يعذه من سفك دمه لم يكن حرمًا بالنسبة إلىٰ الآدميين، وكان حرمًا بالنسبة إلىٰ الطير والحيوان البهيم، وهو لم يزل يعيذ العصاة من عهد إبراهيم عليه السلام؛ وقام الإسلام علىٰ ذلك، وإنما لم يعذ طواغيت الكفر «مقيس بن صبابة» «وابن خطل» ومن سمي معهما؛ لأنه ـ في تلك الساعة ـ لم يكن حرمًا، بل حلًّا للحرب المباح لرسول اللَّه ﷺ لتطهير مكة من الشرك، فلما انقضت ساعة الحرب عاد إلىٰ حرمته، كوضعه يوم خلق اللَّه السماوات والأرض.

وقد علم النبي ﷺ أن من الأمة من يزعم التأسي به في استحلال

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) رواه البخاري (١٨٣٢)، ومسلم (١٣٥٤).
(٣) في المطبوع: فقال! وهو تحريف، والتصويب من «زاد المعاد» (٣٨٨/٣).

الحرم، فقطع الإلحاق، فقال لأصحابه: «**فإنْ أحدٌ ترخَّص لقتال رسول اللَّه فيها، فقولوا له: إن اللَّه أذِن لرسوله ولم يأذن لكم**». انتهت مقتطفاتي من كلام ابن القيم.

وأما ما جرىٰ من عامل يزيد ـ قبحه اللَّه ـ فهو من الشذوذ السياسي، وقد عاقبهما اللَّه جميعًا، وأما عمرو بن سعيد فكذلك عاقبه اللَّه بابن عمه عبدالملك الذي فعل من أجله ذلك، وقتله قِتلةَ الذل والعار.

قال صاحب «المنار»: وأما فعل الحجاج ـ أخزاه اللَّه ـ، فقد قال الأستاذ الإمام: إنه من الشذوذ الذي لا ينافي الاتفاق علىٰ احترام البيت وتعظيمه وتأمين من دخله. وهذا الجواب مبني علىٰ أنَّ أمْنَ مَن دخل البيت ليس معناه أن البشر يعجزون عن الايقاع به عجزًا طبيعيًّا علىٰ سبيل خرق العادة، وإنما معناه أنه تعالىٰ ألهمهم احترامه لاعتقادهم نسبته إليه ﷻ، وحرم الإلحاد والاعتداء فيه، ولم يكن الحجاج وجنده يعتقدون حلَّ ما فعلوا من رمي الكعبة بالمنجنيق، ولكنها السياسة تحمل صاحبها علىٰ مخالفة الاعتقاد، وتوقعه في الظلم والإلحاد. وإن ما يفعل الآن في الحرم ـ يعني في عهد الأشراف ـ من الظلم والإلحاد المستمر لم يسبق له نظير في جاهلية ولا إسلام، ولا ضرورةَ ملجئةٌ إليه، وإنما هي السياسة السيئة قضت بتنفير الناس من أمراء مكة وشرفائها، وإبعاد عقلاء المسلمين منها. إلىٰ أن قال: وقد كان الأستاذ الإمام يعتقد اعتقادًا جازمًا فيه أنه إذا حج يلقي بيديه إلىٰ التهلكة، وأنه لا أمان له في الحرم الذي كان الجاهلي فيه يرىٰ قاتلَ أبيه فلا يعرض له بسوء، وإن كاتب هذه السطور ـ محمد رشيد، صاحب «المنار» ـ يعتقد مثل هذا الاعتقاد، فنسأل اللَّه تعالىٰ أن يحقق لنا ثانيةً مضمون قوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ انتهىٰ كلامهما.

فائدة مهمة:

إقامة الحد في الحرم علىٰ نوعين:

أحدهما: مَن عَمِل ما يوجب الحد ـ من قتل أو زنىٰ أو سرقة أو ردة عن الإسلام بسائر أنواعها ـ، فهذا يقام عليه الحد لعدم احترامه للحرم، وعدم مبالاته بحرماته، هذا علىٰ أصح الأقوال عند أكثر جمهور المذاهب.

[**والثاني**]: وأما من أصاب حدًّا خارج الحرم، ثم التجأ إلىٰ الحرم، فبعضهم قال: يقام عليه الحد، وبعضهم قال: لا يقام ما دام فيه، ولكنه يخرج بالمقاطعة العامة، فلا يخاطب ولا يعامل حتىٰ يضطر إلىٰ الخروج.

وروىٰ الإمام أحمد بسنده الصحيح عن ابن عباس، قال: «من سرق أو قتل في الحل، ثم دخل الحرم، فإنه لا يجالس، ولا يكلم، ولا يؤوىٰ حتىٰ يخرج، فيقام عليه الحد، وإن قتل أو سرق في الحرم، أقيم عليه الحد في الحرم»، وقد أمر اللَّه ﷻ بقتل من قاتل في الحرم، فقال ﷻ: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١].

قال ابن القيم: والفرق بين «اللاجئ» و«المنتهك فيه» من عدة وجوه.

أحدها: أن الجاني فيه هاتك لحرمته بإقدامه علىٰ الجناية فيه، بخلاف الجاني خارجه إذا جنىٰ ثم لجأ إليه؛ فهو معظم حرمته مستشعر لها بالتجائه إليه، فقياس أحدهما علىٰ الآخر باطل.

الثاني: أن الجاني فيه بمنزلة المفسد الجاني علىٰ بساط الملك في داره وحرمه، ومن جنىٰ خارجه ثم لجأ إليه فإنه بمنزلة من جنىٰ خارج بساط الملك وحرمه، ثم لجأ إلىٰ حرم الملك مستجيرًا.

الثالث: أنه لو لم تقم الحدود في الحرم علىٰ الجناة، لعم الفساد في حرم اللَّه، فإن أهل الحرم في حاجة إلىٰ صيانة نفوسهم وأموالهم وأعراضهم، ولو لم يُشرع الحد في حق مرتكب الجرائم في الحرم لتعطلت حدود اللَّه، وعم الهول الحرم وأهله. انتهىٰ باختصار وتصرف.

وقوله تعالى في ختام الآية (٩٧) من السورة: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾:

فيها ـ أيضًا ـ دحض لشبهات أهل الكتاب، فإنهم لا يحجون، ولا يعترفون بالحج الذي لم يتركه أحد حتىٰ الكفار في الجاهلية، مما يثبت أنهم أقرب صلةً منهم بإبراهيم علىٰ شركهم الفظيع. وقد ذكر اللَّه الحج بأبلغ ألفاظ الوجوب وأعظمها وأشدها حتميةً، حيث أتىٰ بلام الإلزام، ثم أكده بقوله: ﴿عَلَى﴾ التي هي من أوكد ألفاظ الوجوب عند العرب. وفي هذا بيان لحقه، وتعظيم لحرمته، وتوكيد لفرضيته، فإنه أحد قواعد الإسلام وأركانه.

والحج في أصل اللغة: القصد، سواء بكسر الحاء ـ لغة أهل نجد ـ، أو فتحها ـ لغة الحجاز ـ، وكلاهما لغتان معروفتان للعرب.

قال ابن جرير: ولم نر أحدًا من أهل العربية ادعىٰ فرقًا بينهما في معنًىٰ ولا غيره، إلا ما حدثنا به أبو هشام الرفاعي قال: قال حسين الجعفي: الحج بالفتح اسم، وبالكسر عمل، وهذا قول أراه عند أهل اللغة.

وقوله سبحانه: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾: الاستطاعة: القدرة علىٰ المسير بوجود المؤونة، وتوفر الصحة والأمن، وعدم الخوف، وهذا يختلف باختلاف الناس كل علىٰ حسبه.

وقد وردت آثار كثيرة في أن الاستطاعة: الزاد والراحلة، ولكنها ليست صحيحة، وقد ضعفها ابن جرير، وصحح نحو ما قلناه.

وفي هذا الجزء من الآية مسائل:

١ ـ دلَّ الكتاب والسنة علىٰ أن الحج يجب علىٰ التراخي لا علىٰ الفور، وهذا هو الصحيح من أقوال العلماء؛ لأن الآية نزلت بالمدينة عام أُحُد سنة ثلاث من الهجرة، ولم يحج النبي ﷺ إلا سنة عشر.

٢ ـ وجوب الحج علىٰ جميع الناس إلا مَن لم يشملهم التكليف،

ومن ترك الحج مع القدرة فإنه يموت يهوديًا أو نصرانيًا.

فقد جاء في تفسير ابن جرير رقم (٧٤٨٩) حديث بالسند إلىٰ علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، قال: قال رسول اللّـه ﷺ: «**مَن ملك زادًا وراحلةً، فلم يحج مات يهوديًا أو نصرانيًا**»[1]. وذلك أن اللّـه يقول في كتابه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

٣ ـ أشكل علىٰ بعضهم أن يفسّر الجمعُ ﴿ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ﴾ بمفرد ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾، علىٰ سبيل البدل ـ بدل البعض ـ أو عطف البيان، أو مبتدأ محذوف الخبر، أو خبر محذوف المبتدأ، تقديره: أيْ منها أو أحدُها مقام إبراهيم، كما اختاره الحلبي، وعلىٰ هذا الإعراب لا يبقىٰ مجال للإشكال.

وهناك جواب آخر سديد، وهو أن «مقام إبراهيم» بمنزلة آيات كثيرة، ففيها أثر الأقدام، وليونة جزء من الصخرة دون الجزء الآخر... إلخ، ففي مقام إبراهيم عدة معجزات.

٤ ـ قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ مكان «ومن لم يحج»، وهذا تغليظٌ في حق تارك الحج، ثم ذكر سبحانه استغناءه عن العالمين، وذلك مما يدل علىٰ المقت والسخط والخذلان لتارك الحج، فإن كان اللّـه غنيًا عن كل العالمين، فإنه غني عن ذلك الإنسان وطاعته.

وقوله سبحانه في الآية (٩٨، ٩٩) من السورة: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾:

وجه ارتباط هذه الآيات بما قبلها واضح، وهو أنه سبحانه لما

---

(١) رواه التِّرمذي (٨١٢).

أبطل شبهات اليهود التي أقاموها حول نبوة محمد ﷺ، وحول النسخ، وحول اتباعه ملة إبراهيم، واتجاهه إلىٰ الكعبة؛ قاصدين بذلك التشويش علىٰ الدعوة الإسلامية وأهلها، فقد جاءت هذه الآيات لتبكيتهم وتوبيخهم بعد إقامة الحجة عليهم بما مضىٰ من الآيات والحجج والبراهين الساطعة.

واللَّه سبحانه أمر نبيه محمدًا ﷺ أن يبكِّت أهل الكتاب علىٰ كفرهم وزيادتهم في الضلال، وجمعهم بين الضلال والإضلال، فخاطبهم بخطاب رقيق متبعًا أسلوب الاستفهام، لكنه في غاية التكذيب والتعجيز لهم فكأنه يقول: هاتوا عذركم إن أمكنكم.

وقد خص اللَّه أهل الكتاب من بين سائر الكفرة لعدة أسباب هي:

١ ـ لأنهم أخطر المناوئين للدعوة بعد الهجرة؛ لما يحسنونه من المكر والتلبيس والمراوغة.

٢ ـ لأنهم يعتَبرون مرجعًا لغيرهم من الكفار لما معهم من الكتاب.

٣ ـ أن معرفتهم بآيات اللَّه الدالة علىٰ وحدانيته، وبصفات محمد ﷺ وصدق رسالته أكثر من الوثنيين، لما معهم من الكتاب، لذلك فإن جريمتهم أكبر، وكفرهم أعظم، فاستحقوا أن يخصهم اللَّه بِهذا الخطاب التوبيخي.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾ فيه إخبار بسعة علم اللَّه وإحاطته بكل ما يجري في هذا الكون، وفيه تهديد ووعيد لأهل الكتاب بالعذاب الشديد علىٰ كفرهم وكذبهم.

والمعنىٰ: أن من كان اللَّه مطلعًا علىٰ أعماله ومشاهدًا له في جميع أحواله، فإنه يقبح منه أن يكفر بآيات اللَّه.

وقوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾: هذا النوع الثاني من إنكار اللَّه علىٰ بني إسرائيل وتقريعهم وتوبيخهم؛ كان بسبب جمعهم بين

الضلال والإضلال. في حين كان التقريع في الآية السابقة، بسبب شرودهم عن الحق مع معرفتهم له.

والجمع بين الضلال والإضلال غايةٌ في القبح والسوء والإجرام والإيغال في الشر، والاستخفاف برب العزة والجبروت ﷻ، إذ يهدم الكافر مستقبله ومستقبل من يضله فيبوء بالإثم كله، كما في الحديث الصحيح: «**من سَن سنةً سيئة فعليه وزرها ووزرُ من عمل بها إلىٰ يوم القيامة**»[1].

فسياسةُ الكفر لا تكتفي بالضلال؛ بل تسعىٰ معه إلىٰ الإضلال؛ حتىٰ ولو كان الساعي لا يؤمن بما يدعو إليه وما يسعىٰ إليه، كالذي تسعىٰ إليه الدول العلمانية الكافرة من التبشير بالنصرانية، ونشرها وهم غير مؤمنين بها.

ومعنىٰ: «يصدون عن سبيل اللَّه»: يصرفون الناس عن الهداية بما يلقونه عليهم من الأباطيل، أو باللجوء إلىٰ التهديد والتعذيب والقتل، أو الترغيب والإغراء بالمال والجاه والشهوات.

والمقصود بـ«السبيل»: دين اللَّه، والسبيل، يجوز تذكيره وتأنيثه، ولهذا قال: ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ وتبغونها عائدة علىٰ السبيل، والمعنىٰ تبغون لها عوجًا، فأسقطت اللام؛ كقول القائل: وهبتك درهمًا، أي: وهبت لك درهمًا.

وقيل: إنهم يبغون لها عوجًا من البغي الذي هو التعدي، أي يتعدَّون عليها أو فيها، وعلىٰ هذا المعنىٰ تكون ﴿عِوَجًا﴾ منصوبة علىٰ الحال من الضمير، أي: عوجًا منكم وعدم استقامة، والعِوَج ـ بكسر العين ـ هو الميل المعنوي الذي لا يُحس به كل أحد، وأما العَوَج ـ بفتح العين ـ فهو للعَوَج الحسي الذي يبصره كل أحد؛ كالميل في الحائط والقناة والشجرة ونحوها.

---

(١) رواه مسلم (١٠١٧).

والمراد أنهم يلتمسون الزيف والتحريف لإضلال المغفلين من المؤمنين، وترويج أنواع التلبيس لهذا المقصد الدنيء؛ الذي هو الإضلال عن الحق.

قال الزمخشري: فإن قلت: كيف يبغونها عوجًا وهو محال؟.

قلت: فيه معنيان:

١ ـ أنكم تُلبِّسون علىٰ الناس حتىٰ توهموهم أن فيها عوجًا، بقولكم: إن شريعة موسىٰ لا تنسخ، وبتغييركم صفة رسول اللَّه ﷺ عن وجهها ونحو ذلك.

٢ ـ أنكم تتعبون أنفسكم في إخفاء الحق وابتغاء ما لا يتأتىٰ لكم، من إيجاد العوج فيما هو أقوم من كل مستقيم. انتهىٰ.

وأقول: إنهم يريدون أن يكون السبيل معوجًا في نظر من يؤمن لهم ويغتر بكيدهم، أو يصغي بعض الإصغاء لكلامهم، فيصوِّرون ما عليه هؤلاء من الحق اعوجاجًا وهو بعيد عنه، ويستعملون لذلك شتىٰ أنواع المكر والتحريف؛ كما فعل اليهود وتلاميذهم من السبئية وغيرهم من غلاة الرافضة، الذين تأولوا بعض آيات الكتاب في الإمام علي، وهي إما آيات عامة، وإما أنها في يوم القيامة، وإما أنها تعني نفس القرآن الكريم، مثل قوله تعالىٰ: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾ [النبأ]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ [الزخرف]، ونحو ذلك من الآيات.

وما أكثر الذين يصدون عن سبيل اللَّه في هذا الزمان بشتىٰ أنواع الوسائل والأساليب، ويصورون دين اللَّه المستقيم عوجًا لا يصلح مسيرًا للحياة، ولا أن تسير الحياة علىٰ نَهجه!! وقد تفاقم شرهم وعظم خطرهم؛ لأنهم احتلوا وسيطروا علىٰ وسائل النشر والصحافة والإعلام، واستولوا علىٰ مقاليد الأمور، فأصبحو ينشرون الهدم والتخريب فأراحوا بذلك أساتذتهم اليهود، وتعاونوا مع ملاحدة النصارىٰ، وطواغيت الشيوعية، وكل هذا من الإنتاج اليهودي الهادف.

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾، لها عدة معانٍ كلها مرتبط بعضها ببعض، فلذلك نجمعها:

١ ـ أنكم تشهدون بعقولكم وبمعلوماتكم، أن الذي تصدون عنه هو الحق الذي لا ريب فيه، وأن مقصودكم في تكذيبهم الإضلال المبين.

٢ ـ أنكم شهداء عدول بين أهل دينكم، يثقون بكم، ويستشهدونكم في عظائم الأمور، ومن كان علىٰ هذه الحال فإنه يقبح منه الإصرار علىٰ الباطل، والسعي في إضلال الناس.

٣ ـ قريب من المعنىٰ الأول، أي أنكم شهداء أن المسلمين علىٰ سبيل اللَّه لا يصدهم عنه إلا ضالٌّ مضل.

٤ ـ أنكم شهداء بما تعرفون من بقايا النبوات التي تجعلكم تبادرون إلي والإيمان بمحمد ﷺ، لا أن تعكسوا القضية فتسارعوا في إضلال من آمن به.

وقوله سبحانه في ختام الآية: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فيه تهديد بليغ لهم ولمن سلك مسلكهم إلىٰ الأبد، وهذا التهديد منذر بتعجيل العقوبات القدرية التي لا تحيط بها العقول، عدا عن عذاب اللَّه سبحانه في الآخرة.

وقوله سبحانه في الآية (١٠٠، ١٠١)، من السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾:

بعد توجيه الخطاب من اللَّه لأهل الكتاب بالتوبيخ والتقريع، توجه اللَّه بالخطاب إلىٰ المؤمنين المسلمين مبينًا لهم سوء النتائج، لإصغائهم إلىٰ أقوال غيرهم، وموضحًا لهم خصائصهم الدينية، والقواعد التي يبنون عليها مناهجهم وتصوراتهم لجميع قضايا

الحياة، وأنها مستقلة عما سواها، ولا يجوز أن تلتقي بغيرها فضلًا من أن تستقي منها، وأن أهل الكتاب إن وجدوا طواعيةً وإصغاءً من بعض المسلمين، فإنهم سيستخدمون ذلك في تحقيق غاياتهم من ارتداد المسلمين عن ملة إبراهيم، كما قال تعالىٰ في الآية (١٠٩) من سورة البقرة: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾، وكما أتىٰ بآيات غيرها في معناها، ومن كان هذا شأنهم في الكفر، وهذه غايتهم فيما يدعون إليه لا يجوز الاستماع إليهم، ولا الإصغاء لهم؛ لأنهم دعاة الفتنة، ورواد الكفر.

وها هنا فوائد كثيرة منها:

١ ـ أن اللَّه لما فضح خطط اليهود، قام بتحذير المؤمنين من إغوائهم بطرقهم الملتوية.

٢ ـ أنه سبحانه نادىٰ المسلمين بوصف «الإيمان»؛ إعلانًا لشرف منزلتهم عما سواهم، وإعلامًا بتباين ما بينهم وبين خصومهم اليهود، وأذيالهم من الكفار، وأن الفرق بينهم فرق شاسع.

٣ ـ أنه لم يأت بلفظة «قل» ليكون ذلك خطابًا منه سبحانه لهم، وليكون تأنيسًا مفرحًا لقلوبهم.

٤ ـ أنه سبحانه أبرز نَهيه للمؤمنين عن طواعية الكفار في صورة شرطية؛ لأنهم لم تقع منهم طاعة مقصودة في وقت النزول، والحمد للَّه.

٥ ـ إطلاقه سبحانه للنهي عن الطواعية لتدل علىٰ عموم البدل، يعني لا يصدر منكم طواعية ما في أي شيء كان مما يحاولون به إضلالكم، ولم يقيد الطاعة بقصة الأوس والخزرج التي كانت سببًا في النزول علىٰ ما ذكره بعض المفسرين.

فقد أخرج ابن جرير في التفسير عن زيد بن أسلم قال: مرَّ شاس

ابن قيس ـ وكان شيخًا قد عسا في الجاهلية، عظيم الكفر شديد الضغن علىٰ المسلمين، وشديد الحسد لهم ـ علىٰ نفر من أصحاب رسول اللَّه ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأىٰ من جماعتهم وإلفتهم وصلاح ذات بينهم علىٰ الإسلام، بعد الذي كان منهم في الجاهلية من العداوة، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بِهذه البلاد، واللَّه ما لنا معهم ـ إذ اجتمع ملؤهم بها ـ من قرار، فأمر شابًّا كان معه من اليهود، وقال: اعمد إليهم فاجلس معهم، وذكرهم يوم «بعاث» وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ـ وكان يوم «بعاث» يوم اقتتلت فيه الأوس والخزرج، لما كانوا في قوميتهم الجاهلية، وكان الظفر فيه للأوس علىٰ الخزرج ـ، ففعل ذلك الشاب ما أمر به شاس بن قيس فتكلم القوم عند ذلك، فتنازعوا وتفاخروا حتىٰ تواثب رجلان من الحيين علىٰ الركب، فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم واللَّه رددناها جذعةً، وغضب الفريقان وقالوا: قد فعلنا، السلاح السلاح، موعدكم الظاهرة ـ والظاهرة هي الحرة ـ، فخرجوا إليها، وتحاور الناس؛ فانضمت الأوس بعضها إلىٰ بعض علىٰ دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية، فبلغ ذلك رسول اللَّه ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه، حتىٰ جاءهم فقال: «**يا معشر المسلمين، اللَّه اللَّه، أتدْعون بدعوىٰ الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم اللَّه إلىٰ الإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف بينكم؟! ترجعون إلىٰ ما أنتم عليه كفارًا**». فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول اللَّه ﷺ سامعين مطيعين قد أطفأ اللَّه عنهم كيد عدو اللَّه «شاس بن قيس» وما صنع.

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فأنزل اللَّه في شاس ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ

تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إلىٰ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، وأنزل اللَّه فيما كان من الأوس والخزرج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1].

وأورد الزمخشري الرواية مختصرة، وقال في آخرها: فما كان يوم أقبح أولًا وأحسن آخرًا من ذلك اليوم.

فالحاصل: أن اللَّه سبحانه أطلق النهي عن طواعية أهل الكتاب، ولم يقيدها بِهذه القصة التي لعلها سبب في النهي؛ بل أطلق النهي عن طواعيتهم وموافقتهم ليشمل جميع الأحوال كما أسلفنا ذلك.

٦ ـ قوله تعالىٰ: ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ الرد: هو التصيير، يعني يصيرونكم، ولا يمكن تصييرهم كفارًا علىٰ الحقيقة إلا باستحباب ما يدعونهم إليه، واستحسانه، وذلك لبراعتهم في استدراج المؤمنين شيئًا فشيئًا، حتىٰ يستحسنوا الخطة التي يدعونهم إليها، فيخرجونهم من الإسلام بذلك، وكذلك موافقتهم والالتقاء معهم فيما سلكوا يجر إلىٰ الكفر الحقيقي.

وذلك أن أهل الكتاب قد سلكوا سبل التأويل في كتابهم فحرفوه لموافقة أهوائهم، وخدمة أغراضهم وحكامهم، وانصرفوا عن هدايته إلىٰ تقاليد وضعية وضعوها لأنفسهم، فمن وافقهم في هذا المسلك، فقد كفر بعد إيمانه، كما حكم اللَّه عليه بذلك. ومن باب أولىٰ من أطاعهم في تحوير العقيدة الإسلامية الحنيفية، إلىٰ ما يريدونه من القومية الجنسية مغترًّا بتلبيساتهم المزخرفة، وتهويلاتهم المرجفة؛ فقد كفر بعد إيمانه أفظع كفر وأخطره، فينبغي ألَّا نتميع أمام قوله سبحانه: ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾.

وقد جاء نَهْي اللَّه لنا عن طاعتهم عقب نشر فضائحهم، وبيان قبيح كفرهم، وسوء مكرهم، وتوبيخهم علىٰ الصد عن سبيل اللَّه

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٤/٢٣).

الذي هو الإسلام، وهم يشهدون أنه دين اللَّه، ولكن يأبىٰ عليهم اللؤم والحسد إلا أن يعادوه ليتضح للمسلمين أن من كان هذا شأنهم وهذه طبيعتهم الملعونة لا ينبغي أن يطاعوا، ولا يجوز أن يسمع لهم قول أبدًا مع هذه العداوة الضارية واللؤم القبيح والخطط الخطيرة.

٧ ـ مجيء الاستفهام للإنكار والتعجب؛ لأن وقوع الكفر منهم في غاية الاستبعاد مع وجود هاتين الحالتين، وهما تلاوة الكتاب عليهم، وكينونة الرسول فيهم يعظهم ويوضح لهم المشاكل ويزيل عنهم الشبهات. وهذا الخطاب في الحقيقة لجميع الأمة ليس لمن كان الرسول ﷺ بين أظهرهم؛ لأن آثاره وسنته فيهم وإن لم يشاهدوه. قال ابن عطية: هو في أمته إلىٰ يوم القيامة بأقواله وآثاره.

٨ ـ في هذه الآية أوضح دليل علىٰ وجوب الاستغناء بوحي اللَّه من كتاب وسنة واعتقاد؛ وكفايتهما لحل جميع المشاكل والمعضلات وحصر التلقي للهداية عليهما، وإلا فما قيمة إرسال اللَّه لرسوله وإنزال الكتاب عليه؟ وقد جاءت آيات كثيرة في وجوب متابعة وحي اللَّه؛ كقوله تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ الآيات (٤٣، ٤٤)، من سورة الزخرف، وقال في أول آية من سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾، وقال في أول سورة الأعراف: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

والآيات كثيرة في هذا الشأن، وفي حصر الاحتكام إلىٰ هذا الوحي والتلقي منه، وفي هذا بيان أكبر للعلة والسبب لمنع هذه الأمة من موافقة غيرها وطاعته، أو الالتقاء معه في أي شأن من شؤون الحياة، وهو أن اللَّه سبحانه وهبها القيادة الفكرية الروحية، وأغناها بها، فما قيمتها إذا تسفلت لغيرها تتسول منه رشدًا أو حكمة؟ وما أعظم كفرها

بنعمة ربها إذا فعلت ذلك!.

٩ ـ أمة الإيمان بما جاء به محمد ﷺ لا تحقق شخصيتها، ولا غاية وجودها في الأرض إلا إذا تميزت باستقلالها الروحي المنحصر وجوده واستمداده من وحي اللّه، والذي يبرزها بين الأمم بتصورات ربانية منبثقة من وحي رب العالمين، تترجم تلك التصورات إلىٰ أعمال رائعة في غاية الصلاح والإصلاح، تكون بهما الأسوة الحسنة لجميع الأمم، وإلىٰ أخلاق فاضلة تكسب القلوب، وإلىٰ حركات لتحرير البشرية من عبادة بعضهم البعض وتطهير أدمغتها من رجس التضليل الطاغوتي المتنوع، ومن كان هذا شأنه وهذه وظيفته العظمىٰ المحتمة؛ كيف يتلقىٰ ثقافته ومناهج حياته من غير منهله الأصيل، الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت]؟

١٠ ـ أمة القرآن ـ التي أوجب اللّه عليها القيام بالقيادة ـ يجب أن تكون بضائعها الفكرية سماويةً، وأن تشمخ برأسها عن عار التقليد فلا تتسفل إلىٰ أي نوع منه كما أسلفنا ذلك، فدعواها ليست فيها حلول أو أنصاف حلول، فإما تحقيق الإيمان باللّه، وبما جاء من اللّه بالتنفيذ العملي ورفض ما سواه بتاتًا، وإما الكفر بطاعة الكفار وتقليدهم والاستيراد منهم تفضيلًا لبضاعتهم علىٰ بضاعة السماء؛ وحينئذ تحصل الهزيمة الروحية، وتنهدم العقيدة من الأساس بطاعة أعداء اللّه وسلوك مناهجهم الوثنية والمادية التي تفسد بها التصورات والأخلاق وسائر الحركات.

هذا؛ وإن كل أمة ذات مذهب وهدف لا تقبل التسامح في مذهبها، ولا التنازل عن أهدافها، ولا تقبل الحلول ولا أنصاف الحلول؛ فما بالهم يريدون خديعة المسلم عن واجبه؟ وما بال المسلم ينخدع لهم علىٰ حساب دينه والتخلي عن أهدافه، ثم يزعم الإسلام بعد التخلي عن واجب اللّه؟

١١ ـ لما أوجد اللّه أمة التوحيد الحنيف، وأكرمها بوحيه لتتحمل

قيادة البشرية، قيادةً تصحح بها معتقداتها وأخلاقها وتصوراتها وأنظمتها حسب توجيه اللَّه، وتجعل عقولها تنمو، ووعيها يزدهر بالانفتاحة الروحية الصحيحة؛ كان من ضروريات وجود هذه الأمة وسلامة قيادتها من نزعات السوء: أن تكون تصوراتها منبثقةً من وحي اللَّه فقط حتىٰ لا تضطرب أفكارها، ولا تختل موازينها وتصرفاتها، ولهذا شدد اللَّه نَهيه لها عن موافقة غيرها من سائر أنواع الكفر؛ لأنها حينئذ تفقد معنىٰ القيادة وشرفها؛ لأنها حين تتلقىٰ شيئًا من الجاهلية التي أوجب اللَّه عليها اكتساحها ومحو أفكارها وتصوراتها من الوجود وإرجاعها إلىٰ اللَّه، فقد انتكس أمرها، وخالفت ما أوجبه اللَّه عليها، ولم يبق لوجودها قيمة ولا للدين الذي تعتز به غاية.

١٢ ـ وهو من أخطرها؛ وذلك أن التلقي من أهل الكتاب، واقتباس شيء من مذاهبهم ومناهجهم في الحياة ـ مع كونه ناشئًا من هزيمة نفسية، ومُرَكب نقص ـ فإنه يحمل معنىٰ الشك في كفاية وحي اللَّه للهداية الكاملة في شؤون الحياة، وحلول مشاكلها وأوضاعها، ومن هنا يدب الكفر في النفوس، خصوصًا وعند الكفار من أحابيل التشكيك والتضليل ودعوىٰ التطور، وأن ما يصلح للعصر البدوي عصر الحمير والجمال لا يصلح لعصر الطيارة والصاروخ، فإنهم في هذا الزمان قد استخدموا الفتح العلمي لتركيز الإلحاد وترويجه، وما أحرصهم علىٰ إضلال هذه الأمة، وتحطيم عقيدتها التي هي الصخرة العاتية أمامهم، وهي مصدر القوة الدامغة لهم!.

ولقد روجوا الإشاعات الكثيرة عن عدم كفاية الشريعة لحل المشاكل، وعن وحشية حدود اللَّه وأحكامه، وأنها لا تناسب البشرية في هذا القرن، وانطلت هذه التهريجات علىٰ كثير من الناس حتىٰ من يحمل منهم شهادات عالميةً ماديةً، وهذا غاية الكفر.

١٣ ـ وهو أخطرها وأفظعها تأثيرًا في أغلب المجتمعات الإسلامية، وهو أن الاستجابة لأهل الكتاب قد حصل منها إقصاء دين اللَّه عن

الحكم وعزل وحيه عن التشريع، والعمل علىٰ إقامة دول قومية علمانية تبيح ما حرم اللَّه من المسكرات، وجميع الفواحش، وتُعِزُّ الكافر من جنسيتها علىٰ المسلم الذي من غير جنسيتها، وتجمد الدعوة الإسلامية، وتشجع علىٰ نشر الإلحاد ومفاسد الأخلاق، وطمس الفضيلة وإشاعة كل رذيلة. وقد ذهب أول ضحية لذلك سلطة الأتراك؛ التي هي كوحدة إسلامية صمدت في وجه الغزو الصليبي واليهودي مئات السنين؛ حتىٰ إذا أطاح بها الماسونية اليهودية باستجابة المخدوعين من جندها، ومن رعاياها المسلمين انفتح للاستعمار والإلحاد كل باب، وتوالىٰ بعدها تكوين الحكم المخالف لما أنزل اللَّه، وممالأة أعداء اللَّه من دول الكفر، واحتلال الصدارة ممن لا يرقب في مؤمن إلًّا ولا ذمةً، ولا يعرف حلالًا ولا حرامًا، وصارت الصولة والجولة لليهودية العالمية التي تتولىٰ القيادات الحقيقية، بارزةً تارة في بعض الدول، وقابعة تارةً من وراء «الكواليس» ـ حسب تعبيرهم ـ، وعملت علىٰ تكوين دولة تنطلق في جسم الأمة العربية، التي وجدت فيها مرتعًا خصيبًا للقومية الجاهلية التي هي الحلم الذهبي لليهود، والهدف العالي الذي حققوه، واختفت بذلك القيادة الإسلامية، وصار المتمسك بالإسلام رجعيًّا ووحشيًّا، والدعاية إليه طائفيةً ومدعاةً للتخلف، إلىٰ غير ذلك من أراجيف أهل الكتاب، ولم يكتفوا بذلك ولم يحملوا الولاء لمن أطاعهم وتعاون معهم علىٰ هدم الحكم الإسلامي وإبعاده عن القيادة؛ بل عملوا علىٰ تحطيمهم بتكوين أحزاب متناحرة ليس لأضرارها وشرورها حد ولا غاية، ولعل هذا من بوادر عقوبات اللَّه لهم علىٰ يد من أطاعوه، فإنه ﷻ بالمرصاد.

١٤ ـ في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ بشارة عظيمة بنيل أحسن مقصود للمؤمنين، وهو أن من يلتجئ إلىٰ اللَّه سبحانه في دفع شرور الكفار، ينجيه اللَّه ويقيه من شرورهم، ويهديه

بنور بصيرة، وينقذه من شبهاتهم وأحابيلهم، فمن يعتصم بالله مستمسكًا بوحيه المبارك الذي هو حبله المتين الممدود، ومقتديًا برسوله ﷺ في الثبات، فقد سلك صراطًا لا يضل سالكه ولا يكتنفه شيء من المهالك أبدًا، وقد جاء جواب الشرط بصيغة الماضي المتحقق الوقوع، إشعارًا بأن من يلتجئ إليه ويعتصم بحبله فقد تحققت هدايته، وإذا زدنا على ذلك وَعْدَ اللَّه بالنصر كان نورًا على نور. فابتعد ـ أيها المسلم ـ عن همزات الشياطين.

١٥ ـ شدة حاجة الأمة إلى توعية القرآن وإرشاده، وتحذيره من خصوم المسلمين في العقيدة، وإذا كان الصدر الأول من الأمة في هذه الحاجة التي لا يستغنى عنها، فكيف بالمتأخرين ممن طال عليهم الأمد وزهدوا في القرآن وابتعدوا عن هدايته؟!

١٦ ـ إذا كان الخوف على السلف الصالح من الردة بسبب الإصغاء إلى أقاويل أهل الكتاب وطاعتهم في بعض الأمر، فكيف بالخلف وخلف الخلف إلى يومنا هذا؟ خصوصًا مع تطور مكر أعدائهم بشتى أنواع التلبيس الذي لا يسلم منه إلا من روحه مشبعة بفهم معاني القرآن، وعارف بنواقض الإسلام، ومحاذر منها أشد من معرفته بنواقض الوضوء ومحاذرته منها، فإن كثيرًا من منتسبي الإسلام والمحسوبين عليه لا يدري أن موالاة الكفار كفر، وأن محبة الطواغيت أو موالاتهم كفر، وأن السعي في ركابهم وانشراح الصدر لتنفيذ ما يريدون كفر، وأن إباحة ما حرم اللَّه كفر، وأن اعتقاد عدم صلاحية الشريعة كفر، ولا يعلم أن إقصاء الإسلام عن الحكم والقيادة كفر، ولا يعلم أن دراسة ما يخالف القرآن كفر، إلى أضعاف ذلك عشرات المرات مما عقد له الفقهاء من كل مذهب بابًا مشهورًا سموه: «باب الردة»، فهذا الموضوع المشهور الذي غصَّت به المكاتب يجهله أكثر الناس.

١٧ ـ أن في أهل الكتاب من يدعو إلى الردة وهم يتلون الكتاب،

وإن كان بعضهم يدعو إلىٰ اللَّه، نعوذ باللَّه من مضلات الفتن، وإذا كان الرسول ﷺ قد أخبر أن في هذه الأمة من يسلك مسالك أهل الكتاب بقوله: «**لتركبُن سَنن من كان قبلكم**»[1]، فينبغي أخذ الحذر والحيطة، وعدم تقبل كل ما يصدر عن العلماء خصوصًا الماديون المتزلفون إلىٰ الحكام، والذين يجرهم الطمع إلىٰ اتباع كل ناعق، ومسايرة كل دجال وطاغوت، وألَّا يثق المسلم إلا بأقوال العلماء الأتقياء الربانيين المستغنين بأعمالهم الحرة وقناعتهم عما يبذله الدجاجلة، وإلا فقد شاهدنا من العلماء الماديين من دعا إلىٰ المبادئ القومية، والمذاهب المادية دون مبالاة بحال أهلها، ومناقضتها للإسلام، بل جعلوا في الإسلام أمورًا لم يأت بها ﷺ، وهذا افتراء علىٰ اللَّه، وطاعة للشيطان.

١٨ ـ تصريح اللَّه سبحانه بحصول الردة بعد الإيمان في هذه الآية وفي الآية السادسة بعد المئة: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾، وهذا إفهام عظيم من اللَّه بخطر عاقبة فتنة التضليل والتلبيس.

١٩ ـ إكرام اللَّه لعباده بدعوتهم بلقب الإيمان، لقب التشريف، لطفًا بهم ورفعة لشأنهم، وتربية لقلوبهم، وشموخًا برؤوسهم إلىٰ تحقيق الإيمان[2]، وإبعادًا لهم عن الشعارات الزائفة وتطهيرًا لهم منها، وقد أسلفنا في الفائدة الثانية مزيدًا من ذلك.

٢٠ ـ أن آيات اللَّه لا نظير لها في دفع الشبهات وسد مداخل الشرور، فينبغي للمسلم أن ينهمك في تدبرها، وألَّا يبتغي سواها بديلًا، كما أن رسول اللَّه ﷺ لا نظير له في سائر الأشخاص، لدفع الشبهات والشرور، ولهذا كان يكثر في خطبه من قوله: «**إن أصدق**

---

(١) رواه البخاري (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩)، وهو عندهما بلفظ: «**لتتبعن**»، وعند أحمد والحاكم وغيرهما بلفظ: «**لتركبن**».

(٢) في المطبوع: «الأمان»، ولعل الأصح ما أثبتُّه.

الحديث كتابُ اللَّه، وخير الهدي هديُ محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها»[١]؛ فلا نجاة من مُضلات الفتن إلا من طريق اللَّه ورسوله، فليُرفض علم الكلام من الأساس.

٢١ ـ الرد علىٰ المبتدعة القائلين: بأن القرآن لا يفهم معناه! وكيف ينزل اللَّه كتاب هداية وهو غير مفهوم المعنىٰ ـ وقد وصفه اللَّه بأنه روح من أمره، وأنه نور ورحمة، وموعظة وشفاء لما في الصدور، وهدًىٰ ورحمةٌ للمؤمنين، وأنه نورٌ مبين يهدي به اللَّه من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلىٰ النور بإذنه ـ ويهديهم بشيء من المزاعم الكلامية والنزعات اليهودية ممن يقول: «إن دلالته ظنية» أو «فهمه متعذر»، واللَّه يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]؛ فهو ليست هدايته مقصورةً علىٰ القويم، ولكن علىٰ القويم وعلىٰ التي هي أقوم.

٢٢ ـ أن الاعتصام بحبل اللَّه جامع لِخَيري الدنيا والآخرة، وأنه يجب أن يكون الاعتصام عامًّا في جميع الحالات؛ فلا يكون للمسلم مرجع غير اللَّه أبدًا في جميع الحالات، بل يجب أن يكون المرجع للمسلمين هو اللَّه، في جميع تصوراتهم، وقياداتهم الفكرية والعسكرية، ومعاملاتهم الداخلية والخارجية، واللَّه ينور بصائرهم، ويسدد خطاهم، ويكون لهم المعين والظهير، فالمعتصم باللَّه يضمن له الهداية التامة الكاملة الواقية من إضلال أعدائه بشتىٰ أحابيلهم.

٢٣ ـ هذه الآيات الكريمات والثلاث بعدها من ألطف وأقوىٰ ما أنزل اللَّه علىٰ المسلمين في أمر عقيدتهم التي هي مصدر قوتهم، ومناط عزهم، وخط الدفاع المعنوي لهم، والتي إن احتفظوا به فقد حفظوا كل شيء وصانوه بإذن اللَّه وتوفيقه، وإن أرخصوه فاتهم كل شيء وخسروا كل شيء.

---

(١) رواه النسائي (٣/١٨٨).

وأعداؤهم يعرفون هذا حق المعرفة في القديم والحديث، ويبذلون جميع ما في وسعهم لتحويلهم عن عقيدتهم التي هي حصنهم الحصين وإبدالهم إياها بنظريات مادية وفلسفات وطنية وما إلىٰ ذلك، مما يفقدون به القوة الجبارة الواقية لهم والدافعة، وقد سجل التاريخ لأعداء المسلمين محاربة هذه العقيدة ظاهرًا وباطنًا، والاستعانة بمنافقي الأمة علىٰ تحطيمها بالعمل علىٰ صد المسلمين عنها، وعلىٰ تزيين غيرها من البضائع الأرضية الملتقطة من مزابل الأفكار اليهودية.

إنهم دائمًا يستعينون بالمنافقين وبالمحسوبين علىٰ الإسلام؛ ممن هم مسلمون بشهادة الميلاد لا بالعقيدة الإبراهيمية، وبواسطتهم يعملون مناهج مخالفة للعقيدة، وقيادات محاربة لها، وما أكثر القيادات الفكرية والعسكرية المسخرة ضد هذه العقيدة! ولكن هل هو لصالح العاملين ضدها أو لصالح اليهود؟ فمتىٰ ينتبه المسلوبة عقولهم؟ إن اليهود لما عبثوا بعقيدة المسلمين وعملوا علىٰ إبراز من يمثل الصدارة وهو صِفر اليدين منها، نجحوا في مقاصدهم وربحوا ما يريدونه من أرض المسلمين، ونجحوا نجاحًا آخر في حرمانهم من مدد اللَّه ونصره؛ لأنهم أبعدوهم عن الاعتصام باللَّه، وجعلوا نياتهم لغير اللَّه وبذلهم ليس في سبيل اللَّه، وقتالهم ليس في سبيل إعلاء كلمة اللَّه.

فبزوال عقيدتهم صارت حياتهم ليست للَّه، ومماتهم ليس للَّه إجمالًا وتفصيلًا، فما أعظم ربح اليهود! وما أشد خسارة المستجيب لهم! فجميع ما أصاب المسلمين من النكبات في بلادهم وأموالهم وأولادهم وحكامهم سببه طاعة أهل الكتاب، الذي سببه ضعف العقيدة، والجالبة للهزيمة النفسية أولًا، والتي تجر معها الشكوك في كفاية ما عندها من هداية اللَّه، حتىٰ تستحسن مناهج أعدائها لتكون مستوردةً مكان التصدير، ومَقودةً بدل القيادة ثانيًا، حتىٰ أوقعتهم في

مُركَّب نقص وهزيمة عقلية زيادة علىٰ الهزيمة النفسية.

وقوله سبحانه في الآية (١٠٢، ١٠٣) من السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾:

هذا إرشاد منه سبحانه إلىٰ سبل الوقاية لعباده من إضلال الكفار لهم وانخداعهم بتلبيساتهم، فإنه ﷻ لما حذر المؤمنين في الآيتين السابقتين من مصايد الكفار وأشراكهم الحقيرة، أمرهم في هاتين الآيتين اللاحقتين بمجامع الطاعات، ومعاقد البر التي تصونهم وتقيهم من همزات شياطين الجن والإنس، وقد بنىٰ اللَّه سبحانه أسباب صيانتهم علىٰ أربع قواعد عظيمة ينبثق منها فروع وأسرار خطيرة:

أولها: وصيته للمؤمنين بمبالغتهم بتقواه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، يعني: بالغوا في الأخذ بجميع وسائل التقوىٰ المستطاعة؛ بحيث لا تتركوا منها شيئًا إلا وتسلكوه، فإن أنتم تركتم شيئًا منها مع القدرة عليه فإنكم لم تتقوا اللَّه، فالمعنىٰ: اتقوا اللَّه حق تقاته، بمحبة ما يحب، وبغض ما يكره، فاتقوا اللَّه أولًا ببغض الكفار والنفرة عنهم، وعدم الأخذ منهم وترك الركون إليهم، فإنه لا يجتمع في قلب محبة الضدين، ولا يجوز التقاؤهما في صعيد واحد، فلتحمل قلوبكم البغض والعداوة لهم، والتصميم علىٰ حربهم، حتىٰ لا يحصل تقارب القلوب مع اختلاف العقيدة والمبادئ، واتقوا اللَّه في عدم طاعتهم ورفض مقترحاتهم كلها، وما يبدونه ـ أو يسرونه ـ من الأقوال أو المشورات، واتقوا اللَّه باتباعكم وحيه، والاقتداء بسيرة نبيه وسنته ﷺ، وحصر التلقي للهداية والثقافة علىٰ ذلك.

واتقوا اللَّه بحملكم رسالته، وتوزيعكم هدايته، وأن تكونوا أمناء علىٰ ذلك، فإنه من يشعر أنه حامل رسالة يرفض التبعية لغيره بتاتًا.

واتقوا اللَّه حق تقاته بإقبالكم علىٰ الطاعات والتزامكم لها، ومجانبتكم المعاصي والشهوات، فإن ميلكم للشهوات هو الذي يقربكم من أعدائكم، ويحوجكم إليهم.

واتقوا اللَّه في حصر ارتباطكم به دون ما سواه، وقطعكم كل وسيلة دونه، لا تلتفتون إلىٰ أي هيئة أو منظمة عالمية، فإن وراءها يهود تسيرها، واللَّه أوجب عليكم أن تكونوا أنتم المسيِّرين للناس بالقدوة الحسنة بجميل أفعالكم أولًا وبالدعوة إلىٰ اللَّه وتوزيع هدايته ثانيًا.

وبالجملة: فإن إطلاق اللَّه للتقوىٰ بدون تحديد، يتطلب منا بذل أعظم المساعي والمجهودات لتحقيق جميع معاني التقوىٰ التي هي ركيزة العقيدة، وأعظم دافع وحافز للنفوس علىٰ ابتغاء مرضاة اللَّه ومراقبته دائمًا بغير فتور، ولا لحظة من لحظات العمر.

قال المرحوم سيد قطب: اتقوا اللَّه كما يحق له أن يتقىٰ، وهي هكذا بدون تحديد، تدع القلب مجتهدًا في بلوغها كما يتصورها، وكما يطيقها، وكلما أوغل القلب في هذا الطريق تكشفت له آفاق، وجدَّت له أشواق، وكلما اقترب بتقواه من اللَّه تيقظ شوقه إلىٰ مقام أرفع مما بلغ، وإلىٰ مرتبة وراء ما ارتقىٰ، وتطلع إلىٰ المقام الذي يستيقظ فيه قلبه فلا ينام. انتهىٰ.

قلت: وهذه ثمرة التدبر الصحيح للقرآن التي تجعل المتقين علىٰ حالة عظيمة من الوعي السياسي والاجتماعي في الحياة ـ كما كان عليه الصحابة ـ؛ لا كما عليه دراويش المتصوفة ومن يسمون مطاوعة في هذا الزمان، وهم أتباع كل ناعق، فتقوىٰ اللَّه هي أعلىٰ الوسائل الواقية للمسلم من طاعة الكفار، وتلاميذهم والالتقاء معهم.

ثانيها: الاستقامة والثبات علىٰ دين اللَّـه بعدم التفريط بشيء، أو التساهل ببعض أوامره ونواهيه مما يجعل صاحبه متميعًا في فهمه أو تنفيذه، حتىٰ ينحرف في عقيدته، ويكون غير مسلم ـ وإن صلىٰ، وإن صام ـ؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾، فإن هذا الأمر يتطلب تفكيرًا عميقًا، وذلك أن المؤمن مطالبٌ من اللَّـه ألَّا يموت إلا علىٰ الإسلام، وهو لا يدري في أي لحظة يموت، فالواجب يقضي عليه إذن ألَّا يتساهل في دينه ولا لحظة واحدة، بل يكون شحيحًا في جميع لحظات عمره، ولا يسمح لشياطين الجن والإنس أن يستلبوا منها شيئًا، بل يكرسها كلها للَّـه، ولا يضيع منها شيئًا بالإصغاء إلىٰ ما يبثه الدجاجلة وشياطين الإنس، أعوان الطواغيت، مما هو مفسد للعقيدة والأخلاق، أو غارس محبة من لا تجوز محبته ولا يجب بغضه؛ لأن لهم أساليب في تركيز حب الطواغيت باسم مقاومة الاستعمار، والعمل لصالح الشعب والوطن، ونحو ذلك؛ مما يجعل المسلم يزكيهم بالانتخاب، الذي يحتلون به صدارةً لا يستحقونها، ولا يجوز للمسلم تزليفهم إليها، ومما يجعل المسلم يتبرع فيما يندبونه إليه، ويقاتل في سبيل ما يدعونه إليه، فيكون مقاتلًا في سبيل الجاهلية، وتحت راية عِمِّية والعياذ باللَّـه، وحينئذٍ لا يكون مستسلمًا للَّـه في طاعته، والاحتكام إليه واتباع منهجه، فيكون علىٰ خطر من موافاته الموت علىٰ غير الإسلام.

ولهذا كانت الركيزة الثانية بعد التقوىٰ: صيانة المسلم لدينه، ومحافظته عليه تمامًا، بأن يجعل حياته كلها للَّـه رب العالمين، بالاستسلام لشريعته وحكمه في جميع مناهج الحياة، والاستقامة علىٰ حب ما يحبه اللَّـه من أي شخص أو عمل، وعلىٰ بغض ما يبغضه اللَّـه من أي عمل أو شخص ـ ولو كان أقرب قريب ـ؛ فلا تجرفه الدعايات الحديثة إلىٰ خلاف ما يحبه اللَّـه، لتكون حياته لغير اللَّـه ومماته لغير اللَّـه، شأن أصحاب التربية الاستعمارية الذين أعمالهم لغير اللَّـه،

فإنهم علىٰ خطر عظيم من دينهم كما أسلفنا توضيحه.

ثالثها: الاعتصام بحبل اللَّه جميعًا عن التفرق، وحبل اللَّه هو كتابه، لا سواه من جميع الكتب، والأوضاع والمصطلحات الماسونية، التي أولع بها كثير من الناس في هذا الزمان. فبالاستمساك بوحي اللَّه العزيز تحصل الوحدة الصحيحة المبنية علىٰ أخوة الإيمان، فهذه الركيزة الثالثة هي ركيزة الأخوة في اللَّه، علىٰ منهج اللَّه، لإقامة حكمه وإعلاء كلمته في الأرض، وهي التي يحصل بها التجمع الصحيح، والشعور الصحيح عن محبة ومواساة، وهو تجمع علىٰ التصور الديني لجميع مناهج الحياة، لا تجمع علىٰ شيء سواه من التصورات الجاهلية التي جددتها الماسونية بألقاب. وشعارات خداعة، فإنه لا يمكن أن تتحقق منها الوحدة الكاملة المنشودة مهما تشدقوا بها، بل تنقلب إلىٰ فرقة وشقاق بعيد.

ومهما زعموا أن الخلافات بينهما جانبية فهم كاذبون؛ إذ هي في الحقيقة خلافات جذرية عقائدية تزيد في أحقادهم، وعداوة بعضهم لبعض، بخلاف الأخوة الدينية فإنها راسخة في القلوب، ومهما حصل عليها من مكر الأعداء فإنه لا يغيرها ولا يزيل حقيقتها أبدًا. إنه الحنين الديني لمحبة الأخوَّة في اللَّه في كل مكان وإن المناداة بأخوَّة غيرها خيانة للإسلام والمسلمين، وما أعظم جريمة من ينادي بالأخوة في العروبة أو غيرها من القوميات التي تنشئها الماسونية اليهودية لضرب الدين والمسلمين، وكذلك من يسمي غير المسلمين إخوةً أشقاء، أو يسلك مسلك التلبيس في زعم نجاح ذلك، وهم عند النوائب ينتحلون الآيات القرآنية، ويثيرون العاطفة الدينية خداعًا للمسلمين ليكسبوا العاطفة الدينية الشعبية؛ لأن قوميتهم مفلسة مما ينفعهم نفعًا حقيقيًّا في النوائب، فيضطرون إلىٰ شحذ عواطف المسلمين ليدفعوا عنهم الثمن، وكم دفع المسلمون ثمن التضحيات الغالية اغترارًا بهم، وتكون النتيجة لهم، وهم ليس عندهم سوىٰ المكر والتهريج.

هذا وإن من الجريمة الخطيرة الدعوة إلىٰ الوحدة أو الاتحاد باسم حبل اللَّه مع من نبذوا حبل اللَّه وراء ظهورهم، فإن هذا غش للمسلمين؛ إذ لا يجوز اتحادهم إلا مع المعتصم بحبل اللَّه، فأما غيره فيجب عداوته.

إن كثيرًا من الناس يخدعون أنفسهم ويخدعون غيرهم بالاستدلال بِهذه الآية: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ فيدعون إلىٰ الوحدة مع أي جهة كانت؛ متساهلين بدين اللَّه في سبيل الوحدة مع من يخالفه، أو يعاديه وهذه جناية خطيرة علىٰ وحي اللَّه ودينه، وعلىٰ عباد اللَّه المؤمنين؛ إذ فيها تحريف للكلم عن مواضعه، وفيها جناية علىٰ عقول المسلمين، وتخبيط لأدمغتهم حيث يعتبرون رافض الاتحاد عاصيًا أو كافرًا، فيبغضونه أو يشتمونه؛ استنادًا علىٰ استدلال بعض العلماء بِهذه الآية علىٰ خلاف مدلولها، والآية تنادي بالأخوة الإيمانية، والاتحاد عليها مع الاعتصام بحبل اللَّه الذي هو القرآن أو الإسلام، فأما رافض الحكم بالإسلام أو نابذ تشريعات القرآن وأحكامه؛ فهذا حرب علىٰ الإسلام وأهله، ولا يجوز الاتحاد معه، ولكن ما أشد بلية الإسلام بالطامعين والجاهلين، وما أحوج المسلمين إلىٰ الوعي الديني الذي يخلصهم من الدجل!.

رابعها: تذكار نعمة اللَّه العظيمة بدينه الإسلام الذي أنقذهم من الجهالة، وحرر عقولهم من الخرافات والأوهام، وصانهم من أضرار العداوة والحروب والأنانية المضنية. هذا الإسلام الذي قَلَب العداوة الضارية المفجعة إلىٰ إخاء ودي كامل، ومحبة وحنان لا نظير لهما في تاريخ البشرية.

فتذكار نعمة اللَّه العظيمة بِهذا الدين يحمي أهله من الإصغاء إلىٰ همزات شياطين الإنس من اليهود وأذيالهم المنافقين والمنخدعين بهم. إن يهود ـ قبحها اللَّه ـ هي التي تضرم نيران العداوة بين القبائل والشعوب ليصفو لها المجال في العمل بما تريد؛ فأكرم اللَّه العرب

بالإسلام الذي يحبط مساعيهم ويجمع بين القلوب المتنافرة، ويحول الحقد والعداوة إلىٰ مودة ومحبة وصفاء قلوب وتعاطف وتراحم، فهذا التأليف الذي كوَّنه الإسلام لا يقدر أحد علىٰ تكوينه لو أنفق جميع ما علىٰ وجه الأرض؛ كما قال اللَّـه سبحانه: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنفال].

فالعمل الذي يعمله الإسلام في القلوب لا تعمله الحكام ولا الأموال أبدًا.

هذا؛ وإن وجوب استصحاب ذكر نعمة الإسلام ليس مقصورًا علىٰ الأوس والخزرج الذين كانوا السبب في نزول هذه الآيات، وإنما هو عامُّ الوجوب علىٰ كل مسلم إلىٰ يوم القيامة، ليكون واقيًا له من تبني المبادئ والمذاهب العصرية التي غزتنا بها اليهودية بتخطيها الماسوني العميق. وليعلم علم اليقين أنه لا يُحصَل علىٰ وحدة أو اتحاد بِهذه المبادئ والمذاهب القومية والمادية، ولا يحصل علىٰ الوحدة المبنية علىٰ المودة والحنان؛ إلا بانتهاج الإسلام الصحيح؛ ففي استصحاب المسلمين تذكر لنعمة اللَّـه، وبالإسلام تكون النجاة من الانزلاق في مهاوي تلك المبادئ القومية والمذاهب المادية التي جنَّد اليهود جنودًا هائلةً لترويجها وتحبيبها، والتي يسميها طاغوت العروبة إفكًا وزورًا: «ثالوث من الأحرف» يعني: «عرب» كسفينة النجاة في بحر الحياة ـ علىٰ حد زعمه ـ، كثالوث الأتراك الذي بدلوا به الإسلام.

فانظر مدىٰ إفكهم وتضليلهم وعدم خجلهم من الكذب علىٰ الواقع، وإلا فماذا ربح الأتراك من القومية سوىٰ ضياع مملكتهم الواسعة وتطويق أعدائهم لهم من كل جانب؟ وماذا ربح العرب من قوميتهم سوىٰ الابتلاء بالاستعمار العسكري، ثم الاستعمار الفكري الذي مزقهم شر ممزق، وجنىٰ علىٰ حقيقتهم بالتربية الفاسدة التي

عجزوا بسببها عن مقاومة اليهود، وعن تصفية أجوائهم تصفية حقيقية؟ ولو أنهم أقاموا دين اللَّه في هذا الزمان لتجددت لهم المعجزات التي حصلت لأسلافهم.

والقرآن الكريم إذ يرسم للمؤمنين الركيزة الرابعة، فإنه يعمد بنصه إلىٰ مكمن المشاعر والروابط، التي هي القلوب المسيطرة والمسيرة، فلا يقول اللَّه: «فألف بينكم» ولكن يقول: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾، فإن القلوب هي مكمن الحب والبغض، والصداقة والعداوة، وهي المحركة للأجسام، بحسب ما يحل بها من طيب أو خبث، فيصورها كحزمة مترابطة متآلفة علىٰ دينه وميثاقه، ولا يمكن أن تجمع القلوب إلا الأخوة في اللَّه التي تتلاشىٰ بجانبها الأحقاد والثارات، والأطماع الشخصية، والرايات الجاهلية العنصرية، وسائر ضروب الأنانية، وتجمع الصفوف صفًّا واحدًا تحت لواء اللَّه الإسلامي.

فإذا غفل المسلمون عن هذه الركائز الأربعة وتساهلوا، كانوا عرضة للغزو الفكري الذي يزعزع عقيدتهم، ويذهب بوحدتهم، ويزلزل كيانهم أو يقضي عليه.

وقد جعل اللَّه في هذه الركائز سر بقاء الأمة الإسلامية مع ما يحصل عليها من ضعف وتصدع وتفرق، بحيث تكون انطلاقتها من كبوتها سريعة، وتآلفها قريبًا بإذن اللَّه.

✍ ثم إن هاهنا فوائد:

١ ـ ذكر بعضهم عن قوله تعالىٰ: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾: أنها منسوخة بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وليس بينهما تعارض حتىٰ يصار إلىٰ النسخ، بل معنىٰ الآيتين واحد، ولكن الثانية مفسِّرة للأولىٰ، وقد روىٰ ابن جرير النَّسخ عن قتادة والربيع بن أنس والسدي وابن زيد، وروي عدم نسخها عن ابن عباس وطاوس، وأن ابن عباس فسرها بأن

يجاهدوا في اللَّه حق جهاده ولا تأخذهم في دين اللَّه لومة لائم، ويقوموا للَّه بالقسط ولو علىٰ آبائهم وأبنائهم.

ومعنىٰ كلامه أنها بمعنىٰ الآيات التي تقرر هذه الأمور الثلاثة، وهي مما لم يقل أحد بنسخها.

قال الرازي: وزعم جمهور المحققين أن القول بِهذا النسخ باطل، واحتجوا عليه من وجوه:

الوجه الأول: ما روي عن معاذ أنه ﷺ قال له: «**هل تدري ما حقُّ اللَّه علىٰ العباد؟**» قال: اللَّه ورسوله أعلم، قال: «**هو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا**»[1]. وهذا مما لا يجوز أن ينسخ.

الوجه الثاني: أن معنىٰ قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ أي كما يحق أن يتقىٰ، وذلك بأن تجتنب جميع معاصيه، ومثل هذا لا يجوز أن ينسخ؛ لأنه إباحة لبعض المعاصي.

وإذا كان كذلك صار معنىٰ هذا ومعنىٰ قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، واحدًا؛ لأن من اتقىٰ اللَّه ما استطاع فقد اتقاه حق تقاته، ولا يجوز أن يكون المراد بقوله: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ ما لا يستطاع من التقوىٰ؛ لأن اللَّه سبحانه أخبر أنه لا يكلف نفسًا إلا وسعها، والوسع دون الطاقة. ونظير هذه الآية ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨]. انتهىٰ.

وقال الإمام محمد رشيد صاحب «المنار»: أقول: وإذا كانت الرواية بالنسخ ضعيفة بحسب الصناعة، فهي في اعتقادي موضوعة ممن لم يفهم الآية، ولو كان معناها ما رووا عن ابن مسعود لكانت من تكليف ما لا يطاق وهو ممنوع، ولذا أخذ الأستاذ الإمام في منع النسخ. انتهىٰ.

قلت: ما رووه عن ابن مسعود في تفسير التقوىٰ: «أن يُطاع فلا يُعصىٰ، ويُذكر فلا يُنسىٰ، ويُشكر فلا يُكفر»، ليس فيه شيء من تكليف

---

(١) رواه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

ما لا يطاق، كما توهمه صاحب «المنار» وشيخه، وليس على تفسير ابن مسعود موجب النسخ الذي يجب إنكاره، كما حققاه، بل قال الرازي: إن ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ هو أن يُطاع فلا يعصى، فهذا صحيح، والذي يصدر عن الإنسان على سبيل السهو والنسيان فغير قادح فيه؛ لأن التكليف مرفوع في هذه الأوقات. وكذلك قوله: أن يشكر فلا يكفر؛ لأن ذلك واجب عليه عند خطور نعم اللّه بالبال، فأما عند السهو فلا يجب. وكذلك قوله: أن يذكر فلا ينسى، فإنما هذا يجب عند الدعاء والعبادة، وكل ذلك مما يطاق فلا وجه لما ظنوا أنه منسوخ. انتهى.

٢ ـ لطافة الخطاب من اللّه سبحانه للمؤمنين لتنفتح قلوبهم وتسمو نفوسهم إلى الاستجابة له، والقيام بحمده وشكره بالتزام وصاياه، وأن يتعلموا حسن الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة. وقد جرى من اللّه مثل هذا مع بني إسرائيل في قوله: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] إلى آخر الآيات، لكنهم لم يكونوا كُفْأً لتلقي الخطاب الإلهي والتأثر بلطفه، إنما كُفؤه المؤمنون.

٣ ـ لزوم الإسلام إلى الممات، وذلك بالاحتفاظ بقواعده واجتناب نواقضه، كما أسلفنا من وجوب ملاحظة نواقض الإسلام أشد من ملاحظة نواقض الوضوء، والموت على الإسلام في إمكانهم إذا ثبتوا عليه وصانوه مما يحبطه.

ومن أمعن النظر في حالة المسلمين وتقلباتهم عرف السر في تلك الوصية الإلهية العظيمة: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، إذ ما أكثر الذين ساروا في ركاب تلاميذ الكفرة، وأحبوا الطواغيت الذين يبيحون ما حرم اللّه، ويقصون دينهم عن الحكم والتشريع، فهؤلاء كيف ينالون ثمرة صلاتهم وهم يتمنون بكل تلهف أن يستولي محبوبهم من الطواغيت على الحرمين والبلاد الإسلامية؟ فقد جمع في محبته للطاغوت، وتمنيه الاستيلاء على بلاد الإسلام كفرًا على كفر ـ والعياذ باللّه ـ، وهذا يجري من المسلمين كما يجري من الملاحدة، والسبب

فتنة التضليل كما قدمنا وجوب الانتباه لها.

٤ ـ أن هذه الآية فيها معنىٰ قوله ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»[1]؛ كما هو ظاهر من سبب النزول.

٥ ـ في هذه الآيات بيان كون الإسلام طاعة اللَّه ورسوله، ومعصية الكفار وتلاميذهم المتفرنجين، فلابد للمسلمين من التزام طاعة اللَّه ورسوله، واجتناب الكفر وأهله؛ إذ لا يجتمع هذا وهذا، فمن لم يعص الكفار لا تنفعه طاعة اللَّه ورسوله في بعض الشؤون.

٦ ـ في الأمر بالاعتصام بحبل اللَّه الذي هو القرآن، دليل علىٰ أنه عصمة ونجاة لمن اتبعه، وقد ورد في ذلك أحاديث ينبغي تحفظها.

٧ ـ خوف المسلم من الردة عن الإسلام، وإن كان من الصالحين، فإنه بالخوف يحصل الأمان؛ لأن الخائف يحتاط من سلوكه من مهاوي الردة، ويضبط حركاته من الانزلاق فيها؛ لأن الإسلام محدود بحدود خطيرة ينبغي المحاذرة من تخطيها، ومن أدقها وأكثر الناس تساهلًا فيها ما كان من متعلقات الحكم؛ لأنه يكتنفه التضليل والغموض والدعايات المغرضة والانطباع باتجاه الناس وانسياقهم إليها، وهنالك تحصل محبة ما يبغضه اللَّه من كل مشرك منصرف قلبه عن اللَّه، ومعاكس لدينه، رافض لنهجه، سالك لمناهج الكفر التي خططتها الماسونية، وتحصل ـ أيضًا ـ محبة ما يبغضه اللَّه، من كل مبيح للمحرمات من الخمور والفواحش وغيرها، وتحصل ـ أيضًا ـ محبة ما يبغضه من تبني ما يخالف الإسلام من المبادئ والمذاهب، وإن كان يدعي الإسلام.

وإذا كان المسلم يرتد عن دينه بمحبة ما يبغضه اللَّه بعد بيان الحقيقة، فكيف بمن يسنده ويشجعه بإبرازه بالانتخابات أو بث الدعاية له ترويجًا لشأنه أو إسنادًا له بالقوة أو المال ونحو ذلك؟ فإن

---

(١) رواه البخاري (١٢١)، ومسلم (٦٥).

الأمور السياسية هي أخطر مزالق الردة؛ علىٰ أن في النواحي الثقافية والاجتماعية مزالق أخرىٰ، وكلها لا ينجو منها إلا من خاف علىٰ نفسه من الردة خوفًا صحيحًا، فحاسب نفسه في كل اتجاه.

٨ ـ تذكير اللَّه لعباده نعمته عليهم في إنقاذهم من النار التي كانوا علىٰ خطر عظيم منها، كما قال سبحانه: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾، قال المحققون: الإنقاذ من الشفا أبلغ من الإنقاذ من الحفرة ومن النار؛ لأن الإنقاذ منه يستلزم الإنقاذ من الحفرة ومن النار، والإنقاذ منهما لا يستلزم الإنقاذ من الشفا. وقد مثل اللَّه حياتهم التي يتوقع بعدها الوقوع في النار بالقعود علىٰ جرفها، مشرفين علىٰ الوقوع فيها، إذ حركة سقوطهم فيها متوقعة، فصور اللَّه إنقاذهم بحبله المتين الذي أنقذهم بهدايته وعصمهم منها، وهو تصوير يحرك القلوب ويجعلها واجفةً خائفةً من العودة إلىٰ ذلك؛ فإنهم لو ماتوا علىٰ كفرهم، ولم يدركهم لطف اللَّه بهدايته لوقعوا في النار، وفي هذا التمثيل تنبيه علىٰ تحقير مدة الحياة، فإنه ليس بين الحياة والموت المستلزم الوقوع في الحفرة إلا كما بين طرف ذلك الشيء وبين ذلك الشيء.

٩ ـ بيان أن الفائدة من تعلُّم العلم تذكر المتعلم واهتداؤه، ولهذا ختم اللَّه الآية بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي يوضح لكم الآيات لتكونوا علىٰ علم يؤهلكم للاهتداء الدائم المستمر، فلا تعودوا إلىٰ شيء من أعمال الجاهلية، ولا تتحكم فيكم الأهواء فتضلوا في دينكم؛ لأن هذا الدين مبنيٌّ علىٰ مخالفة الهوىٰ في جميع الشؤون، وعلىٰ متابعة وحي اللَّه فيها، ومن طلب الهداية في غير وحي اللَّه أضله وأعمىٰ بصيرته، فعلىٰ المسلم أن يحرص علىٰ تحصيل العلم من وحي اللَّه معتقدًا فيه الكفاية، وهناك ترجىٰ هدايته. واللَّه الموفق.

وقوله سبحانه في الآية (١٠٤) من السورة: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾:

هذه الآية الكريمة فيها بيان وظيفة أمة الإسلام التي تقوم علىٰ الركائز الأربع المذكورة سابقًا، لتنهض بمهمتها في مرضاة ربها في الحياة؛ فإنه باستكمال هذه الركائز تستطيع القيام بواجبها في تغليب الحق علىٰ الباطل وصيانته من أن يُطغىٰ عليه، فتدعو إلىٰ الخير الذي أفضله أصول الإسلام، وتأمر بالمعروف بالترغيب في فعل ما ينبغي، وتنهىٰ عن المنكر بالترهيب والزجر عن كل رذيلة.

وهاهنا فوائد:

أحدها: قوله سبحانه: ﴿مِّنكُمْ﴾ هنا ليست للتبعيض لدليلين.

ـ أن اللّه أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علىٰ جميع الأمة بنصوص الكتاب والسنة.

ـ أنه لا مكلف إلا وتجب عليه هذه الشعيرة، إما بيده أو لسانه أو بقلبه، ويجب علىٰ كل أحد دفع الضرر عن نفسه.

فمعنىٰ هذه الآية: كونوا أمةً دعاةً إلىٰ الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، وإذن تكون كلمة «من» للتبيين لا للتبعيض، كقوله تعالىٰ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]، ولكنهم قالوا: إنه وإن كان واجبًا علىٰ الكل؛ إلا أنه يسقط عنهم إذا قام به بعضهم، فهو من فروض الكفاية كالجهاد إذا لم يحصل موجب للاستنفار.

وقيل: إن «من» للتبعيض، وإن الوجوب علىٰ العلماء العارفين.

والصحيح أنها ليست للتبعيض، وأن للعلماء مزية اختصاص في الوجوب، وعلىٰ الحكام الذين يستنصر بهم الدعاة والآمرون زيادة إيجاب وتحتيم، فمسؤوليتهم أكبر من غيرهم.

ثانيها: هل الذي يقوم بالخير أفراد الأمة، أو تقوم به سلطة

إسلامية؟ فمنهم من قال: إنه لابد لذلك من سلطة تستعمل القوة علىٰ المعاندين والمغرورين والجبارين الساقطين، الذين لا تؤثر فيهم الحكمة والموعظة الحسنة ولا ينفع معهم إلا الردع والقسر، كما قال عثمان رضي الله عنه: «إن اللَّه ليزعُ بالسلطان ما لا يزع بالقرآن». وقد روي عن عمر رضي الله عنه ما معناه: «واعلم أنه لا قيمة لحق لا نفاذ له». وبعضهم قال: «يجب أن يتعاون أفراد الأمة مع المسؤولين، ولا يتخلف أحد عن واجبه».

وهذا أصوب الأقوال وأشدها نفعًا وتأثيرًا.

وبعضهم قال: يجب علىٰ الأمة المسلمة أن تتماسك وتتعاون في حفظ عقيدتها وأخلاقها، فتقوم بالدعوة إلىٰ الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتتصلب في دينها أمام العصاة والفسقة، وتقيم لها من أنواع الأسواق ما يكفيها لجميع الحاجيات، ويغنيها عن خصومها من الفسقة والعصاة، فتتآخىٰ مع المطيع في اللَّه تعالىٰ علىٰ مرضاته، وتَهجر العصاة والمتمردين وتقاطعهم مقاطعةً كاملةً، كمقاطعة الصحابة الذين خُلفوا حتىٰ ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فلا يكلمونهم ولا يعاملونهم. وإذا حصل ذلك التكاتف والتعاون في الدين نجحوا وأرغموا خصومهم.

وهذا القول صحيح، وجِدٌّ ظاهر لو عملوا به، ولكنه يحتاج إلىٰ صرامة ناشئة عن قوة حب اللَّه وتعظيمه، بحيث لا يبالون بأقرب قريب يتمرد علىٰ الدعوة وعلىٰ الآمرين بالمعروف؛ فإنهم قد يصطدمون بأقاربهم وذويهم.

إن هذه الشعيرة تكليف ليس باليسير الهين، فما أصعبها إذا نظرنا لاصطدامها بطبائع الناس وشهواتهم ونزواتهم، ومصالحهم ومنافعهم، وغرورهم وكبريائهم، وهبوط بعضهم وميوعة بعضهم، إلىٰ غير ذلك مما يحتاج إلىٰ قوة نفس تبغض أقرب قريب وتَهجره وتقاطعه في

ذات اللّه، وقد رأينا من أصحاب المذاهب المادية صلابةً وصرامةً في سبيل مذاهبهم، فينبغي للمسلم أن يكون أصلب وأقوىٰ[1].

ثالثها: ثبتت الأحاديث الصحيحة بالوجوب العام للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مما يوجب أن يكون وجوب ذلك شعبيًّا إذا تخلت السلطة عنه، فيقوم به خيار الشعب، ويخططوا لتقويته وقهر أعدائه، كما ذكرناه في الفائدة الثانية.

رابعها: صحت الأحاديث أن الأمر بالمعروف علىٰ مراتب، ومنها قوله ﷺ: «**مَن رأىٰ منكم منكرًا فليُغيِّرْه بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطعْ فبقلبه، وذلك أضعف الايمان**»[2]. وللعلماء بحث طويل في شرح ذلك.

خامسها: وردت النصوص أنه يبدأ بالأرفق فالأرفق من إزالة المنكر، ثم يترقىٰ إلىٰ الأغلظ فالأغلظ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]، فقدم الإصلاح في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بجميع متطلباته، ثم شرَّع استعمال القوة، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤]؛ أتىٰ بالأمر علىٰ مراحل، وأحوال الناس تختلف في هذا الشأن.

سادسها: لا يشترط في الأمر والنهي أن يكون القائم بهما غير فاسق، وإنما يستحب أن يكون نزيهًا حتىٰ لا يكون مغمورًا، وقد قضىٰ اللّه سبحانه أنه لا نجاة للناس إلا بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر، ولم يشترط في ذلك شرطًا، فيجب علىٰ المسلمين أن يأخذوا النصوص علىٰ إطلاقها، وأن يقوموا بها حسب استطاعتهم ـ أو طاقتهم ـ.

---

(١) وكل هذا لا ينفي أن تكون دعوته بالحُسنىٰ، مصحوبةً بالأدب وحسن الخلق.

(٢) رواه مسلم (٤٩).

وأما قوله تعالىٰ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]؛ فليس معناه ترك الأمر والنهي ممن لم يهذب نفسه، وإنما معناه الحض علىٰ تَهذيبها، وكذلك قول الشاعر:

لا تَنْهَ عن خُلقٍ وتأتي مثلَه ... عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ

ليس مراده نَهْي المتخلق بالخلق السيئ أن يأمر بتركه، بل مراده أنه يجب عليه الجمع من النهي والانتهاء.

وقد قال أبو حامد الغزالي في «الإحياء»: إنه يجب علىٰ من زنىٰ بامرأة أن يأمرها بستر بدنها، أو وجهها؛ وإلا كان مرتكبًا لمعصية زائدة علىٰ معصية الزنىٰ، وهي معصية ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان يقول: يجب علىٰ مدير الكأس أن ينهىٰ الجُلَّاس!.

والعلماء قالوا: يجب علىٰ الفاسق أن يأمر بالمعروف؛ لأنه وجب عليه ترك ذلك المنكر الذي تلبس به، ووجب عليه النهي عن كل منكر، فتارك أحد الواجبين لا يلزمه ترك الواجب الآخر.

وقد شاع في السلف قولهم: «مروا بالخير وإن لم تفعلوا»، وعن الحسن أنه سمع مُطِّرف بن عبدالله يقول: «لا أقول ما لا أفعل، وقال: وأينا يفعل ما يقول؟ ود الشيطان لو أنه ظفر بِهذه الكلمة منكم، فلا يأمر أحد بمعروف ولا ينهىٰ عن منكر».

سابعها: أورد بعض المفسرين حديثًا محذوف الإسناد: «**مَن أمر بالمعروف ونَهَىٰ عن المنكر، كان خليفة الله في أرضه، وخليفة رسوله وخليفة كتابه**»[1]. وهذا الحديث معناه صحيح بغض النظر عن إسناده.

وروي عن علي ﵁ أنه قال: «أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

وقال ـ أيضًا ـ: «من لم يعرف بقلبه معروفًا ولم ينكر منكرًا نُكس،

(١) رواه ابن عدي في «الكامل» (٦/٨٤).

وجعل أعلاه أسفله».

وقد روىٰ الإمام أحمد وعبد بن حميد وابن حبان والدَّارَقُطْني وغيرهم من أصحاب السنن، والترمذي وصححه، والبيهقي كلهم من طريق قيس بن حازم قال: قام أبو بكر خطيبًا، فحمد اللَّه وأثنىٰ عليه، ثم قال: أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإنكم تضعونها في غير موضعها، إني سمعت رسول ﷺ يقول: «**إذا رأىٰ الناس المنكر ولم يغيِّروه، أوشك أن يعمَّهم اللَّه بعقابه**»(١).

ولابن مردويه عن ابن عباس قال: قعد أبو بكر علىٰ منبر رسول اللَّه ﷺ يوم سُمي: خليفةَ رسول اللَّه، فحمد اللَّه وأثنىٰ عليه وصلىٰ علىٰ رسوله ﷺ، ثم مد يده علىٰ المجلس الذي كان النبي ﷺ يجلس عليه من منبره ثم قال: سمعت الحبيب وهو جالس في هذا المجلس، يتأول هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، ثم فسرها فكان تفسيره لها أن قال: «**نعم ليس من قوم يُعمل فيهم بمنكر، ويُفسَدُ فيهم بقبيح، فلم يغيروه ولم ينكروه، إلا حق علىٰ اللَّه أن يعمهم بالعقوبة جميعًا، ثم لا يستجاب لهم**»، ثم أدخل أصبعه في أذنيه فقال: لا أكون سمعته من الحبيب صُمَّتا(٢).

ثامنها: ذكر علماء الناسخ والمنسوخ أن هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠٥] هي الآية الوحيدة في القرآن التي اجتمع فيها ناسخ ومنسوخ، فالناسخ لأولها قوله: ﴿إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾، والاهتداء هنا هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويعني إذا أمرتم ونَهيتم فقد اهتديتم، ولا يضركم ضلال الضالين بعد إقامة الحجة عليهم. وهذه قاعدة عظيمة في دين اللَّه

---

(١) رواه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨)، والنسائي (١١١٥٦)، وابن ماجه (٤٠٠٥).

(٢) انظر الحديث السابق.

تجدها في قصة أصحاب السبت: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ [الأعراف: ١٦٥]، قال ابن المبارك: هو خطاب لجميع المؤمنين كقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، فكأنه قال: ليأمر بعضكم بعضًا، فهو دليل علىٰ وجوب الأمر والنهي، ولا يضركم ضلال الضالين من المشركين والفاسقين، وقيل: هو خطاب لأبناء الذين بحَّروا البحيرة، وسَيَّبُوا السوائب؛ عليكم أنفسكم في الاستقامة ولا يضركم فعل أسلافكم.

تاسعها: جعل اللَّه سبحانه حماية العقيدة وصيانة الفضيلة وعز الأمة المحمدية بِهذه الأشياء الثلاثة: الدعوة إلىٰ الخير الذي هو الإسلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ لأن في ذلك حمايةً للمجتمع الإسلامي من الغزو الفكري وانْهيار الأخلاق، فإن من سنته الكونية أن من لم يَدْعُ لابد أن يُدْعىٰ، ومن لم يزحف بمبادئه زُحِف عليه بكل مبدأ، فاللَّهُ جعل صيانة هذه الأمة في أن يكون أفرادها دعاة مُوَزِّعِينَ للهداية، زاحفين بعقيدتهم التي تُحَرِّرُ النفوس من رق العبودية لغير اللَّه.

عاشرها: بقيام المسلمين بِهذه المهمات الجليلة يحصل لهم الطموح والترفع عن الدنايا، كما يحصل لهم الشعور بأنهم ربانيون يُصلحون الناس، وحينئذ يكونون قدوةً حسنةً بصلاح أنفسهم وحسن استقامتهم مما يجعلهم يحاسبون أنفسهم علىٰ أصغر زلة، وهذه فائدة عظيمة اقتضتها حكمة اللَّه في تَهيئة هذه الأمة للقيادتين الفكرية والعسكرية.

حادي عشرها: الدعوة إلىٰ الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض محتم علىٰ هذه الأمة، كما تدل عليه هذه الآية بظاهرها المتبادر، وغيرها من الآيات كقوله تعالىٰ: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٩]، وكذلك أقوال الرسول ﷺ وأعماله وأعمال أصحابه ﵃. وكون هذا حفاظًا للأمة وحرزًا ظاهرًا، فإن الناس إذا تركوا دعوة الخير وسكت بعضهم عن بعض في ارتكاب المنكرات،

خرجوا عن معنىٰ الأمة، وكانوا أفذاذًا متفرقين لا جامع لهم؛ ولهذا ضرب الرسول ﷺ مثلًا للمداهنين براكبي السفينة التي استهموا عليها فصار بعضهم في أعلاها، وبعضهم في أسفلها، فاختار بعضهم أن يخرق السفينة؛ فإن أخذوا علىٰ أيديهم نجوا، ونجوا جميعًا، وإن تركوهم هلكوا جميعًا[1]. ففشو المنكرات مَهلكةٌ للأمة، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ ﴾ [الأنفال: ٢٥]، فلابد للمسلم في حفظ نفسه ومن معه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لا سيما من كبائر الذنوب.

ثاني عشرها: معنىٰ «الأمة» يعطي معنىٰ القوة والاتحاد، ولا أمة بدون ذلك، وهذه الأمور المناطة بها لا تتم إلا بالقوة والاتحاد، فالأمة المتحدة لا تُغلب ولا تُقهر من الأفراد، ولا تعتذر بالضعف يومًا ما فتترك واجبها الذي إذا تركته تَسَرَّبَ الفساد إلىٰ جميع المسلمين.

وقد كان المسلمون في الصدر الأول علىٰ هذه الطريقة، فالصحابة الذين عاشروا النبي ﷺ ونقلوا عنه متواصلين متكاتفين، يشعر كل منهم بما يشعر به الآخر من الحاجة إلىٰ نشر الإسلام وحفظه ومقاومة كل ما يمس بعقائده وآدابه وأحكامه ومصالح أهله؛ فيجب أن يكون جميع المسلمين علىٰ هذه الحال ليكونوا أمةً بمعنىٰ الكلمة.

وقوله سبحانه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ فيه بشارة بحسن مصيرهم وطيب عاقبتهم في الدنيا والآخرة، وقد تقدم تفسير الفلاح، وأنه الفوز بنيل المطلوب في الدارين، وقد حصر اللَّه حصول الفلاح علىٰ من قام بهذه المهمات الجليلة التي فيها الغيرة للَّه والانتصار لدينه.

📖 **وقوله سبحانه في الآيات (١٠٥، ١٠٦، ١٠٧) من السورة:** ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ

---

(١) رواه البخاري (٢٤٩٣).

فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾:

يبدئ اللَّه ويعيد في نصيحتنا عن مشابهة أهل الكتاب واتباع طرائقهم، فإنه ﷻ لما أخبرنا عن خبث طباعهم، بسعيهم في الضلال والإضلال، أوضح لنا وظيفتنا الربانية التي هي السعي في هداية الناس وإسعادهم، وطلب النفع والخير لهم، ثم حذرنا أبلغ التحذير من انتهاج السبب الذي به ضل أهل الكتاب وأَضَلُّوا، وهو الاختلاف والتفرق؛ فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾.

وقد جاء هذا النهي مصحوبًا بالوعيد الشديد، لفظاعة أمره وسوء نتائجه، إذ النصوص يجب أن تكون جامعةً للناس وموحدةً لصفوفهم، وذلك إذا أُحْسِنَ فهمها وسلمت المقاصد في ذلك، فإنها نصوص سماوية معصومة من التناقض والتعارض، وبعضها يفسر البعض الآخر ويوضحه مع سلامة النية، فأما مع اختلاف النية والانسياق إلىٰ المطامع والشهوات، فإنه يحصل الجناية علىٰ النصوص بالتأويلات الفاسدة المغرضة، ويَدِبُّ فينا داء أهل الكتاب من قبلنا. والنصوص بينات ظاهرة معانيها لمن التمس الحق وسلم من الأغراض النفسية، ونصوص القرآن يفسر بعضها بعضًا، كما أخبر اللَّه عنه بقوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧].

واعلم أن الاختلاف المذموم سيئ النتائج، هو الاختلاف في الأصول، أصول العقائد التي يأتي كل فريق من أهلها بدليل من القرآن يتأوله علىٰ وفق أهوائه، وأما الاختلاف في الفروع فهو من الاجتهادات في الأحكام، وينشأ من أمور فرعية تحوطها سلامة النية، وقد ذكرها الشيخ ابن تيمية في رسالته القيمة «رفع الملام عن الأئمة الأعلام».

وقد اختلف الصحابة اختلافًا كثيرًا في الفروع، وصار لهم فيها

مذاهب مشهورة كمذهب عمر، وابن عمر، والصِّدِّيقِ قبلهما، وعلي، وابن عباس، وابن مسعود، وأبي هريرة، وغيرهم مما هو مُدَوَّنٌ في كتب الفقه، ثم صار بين التابعين لهم بإحسان اختلاف أوسع لم يحصل منه أي ضرر لعدم مساسه بالعقيدة، وقد دونت بعض المذاهب السُّنِّيَّةِ تدوينًا أدىٰ فيما بعد إلىٰ سد باب الاجتهاد؛ وسدُّهُ في الفروع لا يسوغ، وإلىٰ الآن بحمد اللَّه لم يحصل من هذه المذاهب شقاق واختلاف يفرق صفوف الأمة، وأما الشيء الخطير هو الاختلاف في الأصول، كمسألة الجبر وخلق القرآن، والقدر، والصفات، وتقديس بعض الأشخاص تقديسًا يصل إلىٰ الألوهية أو يتجاوزها ـ والعياذ باللَّه ـ، وكذلك الفتنة بالقبور، ومما حصل من آثار الفاطميين وبني بُويْه ومن علىٰ شاكلتهم من المخرفين.

وأول الافتراق بدعة السبئية التي من فروعها الشيعة ثم الخوارج، ثم التَّجَهُّمُ وفروعه من القدرية والمعتزلة وسائر أهل البدع الذين تفاقم شرهم، وبددوا طاقات الأمة وصاروا عونًا لأعدائها، وأخذوا يسعون للتمركز في المراكز السلطانية لينفثوا سمومهم ويستنصروا بالحكام علىٰ أهل السنة، ومن أضرهم المعتزلة، فإنه جرىٰ بسببهم فتنة عظيمة امتحن فيها الأئمة.

وفي أهل البدع من هو أشر منهم، ولكن هؤلاء كسبوا ثلاثة خلفاء من بني العباس.

ومما يدل علىٰ سوء عاقبة البدعة والمبتدعين: إغراء علمائهم لهؤلاء الخلفاء علىٰ قتل الإمام أحمد قائلين لكل واحد منهم: اقتله ودمه في أعناقنا، فلم يمنعهم ما معهم من العلم والعمل عن هذا الإغراء القبيح، وذلك لأن الأهواء تجارت بهم، كما أخبر رسول اللَّه ﷺ، فلا يرون لغيرهم حقًّا في الهداية. وقد أسلفنا فيما سبق أن جميع فرق الضلال وراءها اليهود الذين لما يئسوا من إرجاع المسلمين إلىٰ القومية غزوهم باسم الدين ليفرقوهم شيعًا وأحزابًا، كل فريق يَكْفُرُ

بالآخر، ويرىٰ أن اليهود خير منه ـ والعياذ باللَّه! وقد لعبوا عليهم بِهذا التفرق العقائدي، حتىٰ جعلوهم يتعاونون مع الكفار ضد أهل السنة.

فاللَّهُ العليم الحكيم يحذرنا من مشابهة أهل الكتاب الذين تفرقوا واختلفوا بسبب تحريفهم الكلم عن مواضعه، حتىٰ أصبحوا لا يصلحون للقيادة العالمية، ولكن لا ينتفع بِهذا التحذير المصحوب بالوعيد الشديد إلا من حقق التوحيد بالبراءة من الشرك وأهله، وعداوة جميع الكفار عداوةً لا يحصل معها أي التقاء في أي ميدان من ميادين الحياة، فأما الذي لا يحقق ذلك فإنه يركن إليهم أو ينخدع بأحابيلهم حتىٰ يقع في المصيدة.

هذا وإن شأن الأمة الإسلامية الصحيحة ليس كشأن غيرها من الأمم المادية، ممن لحياتها شباب ونضرة وقوة، ثم فتور وصبوة ثم هرم وشيخوخة، بل إنها علىٰ العكس، إنها أمة ربانية؛ فهي دائمًا جديدة بالقرآن وشابة بالقرآن، لا يعتريها ما يعتري غيرها، ويقرن اللَّه التحذير من الانزلاق في هُوة التفرق والضلال، ببيان العلاج الواقي والدواء الشافي؛ وهو القرآن الذي وصفه بأنه بينات ظاهرة واضحة لا إشكال فيها ولا التباس، فمن طهر قلبه، وسلم ضميره، وأخلص دينه للَّه فإنه يجد الشفاء الكافي والعلاج الواقي في القرآن، أما من انحرفت أحواله عن ذلك، وغلب عليه الهوىٰ وحب الذات، فإنه يسلك مسالك اليهود ـ والعياذ باللَّه ـ، وقد حصل للمسلمين ـ لما نسوا حظًّا مما ذُكِّروا به، وغلب عليهم التمنطق، وركنوا إلىٰ الأطماع والشهوات ـ: أمورٌ شنيعة من الاختلاف والافتراق، تصدَّع بها بنيانهم، وزعزع بها كيانهم، وصاروا مطموعًا بهم لزوال وحدتهم وذهاب سِمتهِم الربانية، حتىٰ ذاقوا أصناف الذلة والعذاب.

إن الجناية علىٰ وحدة الأمة وائتلافها بالبدع والخرافات المفرقة لصفوفهم جناية عظيمة يقرر اللَّه لأهلها الكفر والعذاب العظيم،

ويصور لنا فظاعة مشهدهم الرهيب تصويرًا حقيقيًّا لا لفظيًّا، تصويرًا يوضح لنا المصير المحتوم لكل من المبدِّلين والثابتين علىٰ الإيمان، يصور وجوهًا مسودةً قد علتها الكآبة وشانها الحزن والغم، واللَّه يخاطبها بخطاب التقريع والتوبيخ والتأييس، فيقول سبحانه: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾، هكذا عاقبة استبدالكم الهداية بالضلالة، وعدم قيامكم علىٰ شكر اللَّه علىٰ نعمة الإيمان الذي به أَلَّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا. إن كفركم بنعمة اللَّه جعل عاقبتكم النار، دار البلاء والشقاء السرمدي.

وينبغي ألَّا يُلتفت إلىٰ اصطلاحات الفقهاء في أبواب الردة، ما دام اللَّه قد حكم بكفر أهل التفرق والاختلاف بعد مجيء هذه الآيات الواضحات المعنىٰ، فإن كفرهم يتضح بعدة أمور:

١ ـ أنهم بتحريفهم النصوص وَلَيِّها عن معانيها يكونون قد افتروا علىٰ اللَّه الكذب، وافتراء الكذب علىٰ اللَّه من أفظع أنواع الكفر؛ حتىٰ إنه يكون أشد من جريمة الشرك.

٢ ـ أنهم يُكفِّرون خصومهم؛ سواء كانوا من أهل السنة، أو من أنواع المبتدعة الأخرىٰ، وباعتقادهم كُفر أولئك؛ يتعاونون مع الغزاة الكفرة للنكاية بهم، وهذا زيادة كفر علىٰ كفر.

٣ ـ أن القرآن يعد الخروج من مقاصد الدين الحقيقية بالعمل من الكفر، وقد فهم السلف الصالح أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل، فمن كان عمله لصالح الدين فهو من أهل الإيمان، ومن كان عمله لهدم الدين وتفريق أهله فلا شك في كفره، ولا شك في أن كل مبتدع يعمل علىٰ وفق أصول بدعته لا علىٰ وفق الكتاب والسنة.

وقد حكم اللَّه في غير هذه الآية علىٰ الذين فرقوا دينهم من المشركين، وقضىٰ بتبرئة رسوله ﷺ منهم، فقال في الآيتين الحادية

والثلاثين والثانية والثلاثين من سورة الروم: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾، وقال في الآية (١٥٩) من سورة الأنعام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ...﴾ الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ فالثابتون علىٰ الإيمان، والحافظون لحدود اللَّه في نصوصه واثقون في رحمة اللَّه، ومن الجنة بمساكنها الطيبة، وواثقون في مطعوماتها حيث لهم فيها ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وفي مشروباتها التي فصَّلها القرآن، وفي متعتها من الحور العين، فهم يتقلبون في رحمة اللَّه ورضوانه.

وقوله سبحانه في الآية (١٠٨) من السورة: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾:

بعد ما كشف اللَّه لعباده المؤمنين مُخطط الكفر ضدهم، وأرشدهم للقيام بوظيفتهم الربانية في الحياة، وأمرهم بالاعتصام بوحيه والاتحاد عليه، وحذرهم من الاختلاف، وأوضح لهم سوء عاقبته: أخبر نبيه ﷺ - والإخبار للجميع - أن هذا القرآن آيات اللَّه يتلوها عليك، أي: ينزلها عليك شيئًا بعد شيء، وإسناد التلاوة للمعظِّم ذاته من الفخامة والشرف.

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ إخطار عظيم لنا أن الذي يتلوه رب العالمين علىٰ رسوله، يجب أن نحتفظ بقيمته ونرعاه حق رعايته، وأن نحسن التصرف فيه فنتلوه حق تلاوته، وأن نعتبره المرجع في جميع الشؤون.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾، قال الراغب: الظلم عند أهل اللغة، وكثير من العلماء يعني: وضع الشيء في غير موضعه المختص به إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته ومكانه. فالظلم الذي ينفيه اللَّه عن ذاته العلية في الأحكام: هو ما ينافي

مصلحة العباد وهدايتهم لصلاح الدنيا والآخرة، وفي الخلق هو ما ينافي الحكمة والأحكام.

فاللَّهُ لا يريد ظلمًا للعالمين فيما يأمرهم وينهاهم عنه، وإنما يريد هدايتهم إلىٰ ما تكمل به فطرتُهم، وتتم به سعادتهم، ويصلح به مجتمعهم. فإذا هم فسقوا عن أمره وحلت بهم صنوف العقوبات، فحينئذ يكونون هم الظالمين لأنفسهم بتعرضهم لعقوبات اللَّه.

وقد نزه اللَّه نفسه عن الظلم في آيات كثيرة من القرآن الكريم كقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الزخرف]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس]، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقوله سبحانه في الآية (١٠٩) من السورة: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾:

هذه الآية متممة لما قبلها من تنزيه اللَّه عن الظلم؛ لأن الظلم لا يصدر إلا من محتاج أو صاحب طيش ونقمة.

واللَّهُ سبحانه له ما في السماوات وما في الأرض، فهو مالكها ومدبرها، فهو الغني الذي لا يوصف غناه بغيره، وهو الرَّحمن الرحيم الذي تنزهت ألوهيته عن كل طيش ونقمة، وأنه يجري العقوبات لترتيب الجزاء علىٰ العمل، وإقامة العدل بالقسطاس المستقيم، لا كما يزعمه اليهود الفجرة، أنه لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة.

والمقصود من الآية أنه سبحانه مالك الملك، وإليه يرجع الأمر كله، وأنه المتصرف في شؤون عباده، وفق سنته الكونية التي تنتهي لغاية لا تبديل لها ولا تحويل، فلا يطمع المسيء أن ينال درجة المحسن؛ لأن هذا مستحيل علىٰ اللَّه، كما قال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية].

وقوله سبحانه في الآية (١١٠) من السورة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾:

في هذه الآية الكريمة فائدتان عظيمتان:

١ ـ تعريف هذه الأمة بقيمتها وحقيقتها ومكانتها بين الأمم، وواجبها الثقيل الذي تستحق به قيادة الأمم فكريًّا وعسكريًّا، حتىٰ تخرجهم من الظلمات إلىٰ النور، وتسلك بهم طريق الهداية والرشاد.

٢ ـ خبر من اللَّه وشهادة كريمة بخيرية هذه الأمة علىٰ سائر الأمم.

وأعني بِهذه الأمة من كان منهم مثل محمد ﷺ وأصحابه؛ فإن من اتبعهم اتباعًا صحيحًا أخذ حكمهم علىٰ الحقيقة.

ولا يستحق هذه الخيرية من لم يقم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي أعلاه الدعوة إلىٰ التوحيد، والقتال في سبيله، وأدناه التواصي بالحق والتواصي بالصبر والتعاون بالبر والتقوىٰ.

فلا يجوز التفريط بشهادة اللَّه هذه ـ فضلًا عن استرخاصها والانسلاخ عنها ـ؛ بل يجب علىٰ المسلمين أن يحتفظوا بِهذه الشهادة، ويعتزوا بها، ويتفانوا في تحصيلها.

هذا وقد احتج الأصوليون من أهل السنة بِهذه الآية علىٰ أن إجماع هذه الأمة حجة شرعية. والمقصود بالمقبول إجماعهم: هم الصدر الأول من صحابة رسول اللَّه ﷺ والتابعين لهم بإحسان ممن هم خير القرون المفضلة، وبعضهم قصر حجية الإجماع علىٰ الصحابة فقط، وذلك لصعوبة العلم بإجماع الباقين.

وقوله تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ خطاب عام يشمل الصحابة رضي الله عنهم وغيرهم ممن سار علىٰ نَهجهم، فأنتم خير الأمم المخرجة للناس في جميع الأعصار، أي أنها أظهرت حتىٰ عُرفت وتميزت، وفصل

بينها وبين غيرها حتىٰ صارت أمةً ذات دور خاص، ولها مقام خاص؛ ألا وهو مقام خاص للخير لا للشر.

ولا تكون القيادة لأهل الشر إلا إذا تخلىٰ عنها أهل الخير ورضوا من إيمانهم بإيمان صوري، أو إيمان ناقص لا يلحقهم بِهذه الخيرية، وإنما يعاقبهم بتسليط أهل الشر عليهم، فيحكمونهم بالحكم الدنيوي المرخِّص لأعراضهم، والمهدر لكرامتهم، والمُصَادر لأموالهم.

فالواقع السيئُ للمسلمين واقع لا يرضاه دينهم، واقع مسخط لربهم، فمن أوجب الواجب تغيير هذا الواقع والسعي لإقامة حكم إسلامي يكون منه المنطلق لتكوين القيادة.

وهذا الدور القيادي يتحقق إذا قامت هذه الأمة بواجبها فأمرت بالمعروف ونَهت عن المنكر، وهذا هو علة خيرية هذه الأمة. فإن تركته انتفت عنها الخيرية؛ كما ذكر الأصوليون: أن الحكم المقرون بالوصف المناسب له يدل علىٰ أنه مُعلل بذلك الوصف، فيدور الحكم مع الوصف وجودًا أو عدمًا.

وقد يتساءل المتسائلون عن تخصيص هذه الأمة بالخيرية؛ مع أنها سُبقت بأمم تؤمن باللَّه، وتأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر.

وأجاب القفال رَحِمَهُ اللَّهُ بأن تفضيلهم علىٰ الأمم من قبلهم إنما حصل لأجل أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بآكد الوجوه وهو القتال، وهو أعلىٰ درجات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الأمر والنهي قد يكونان بالقلب وباللسان وباليد، وأقواهما أن يكون بالقتال؛ لأنه إلقاء للنفس في خطر القتل، وأعرف المعروفات هو الدين الحق، والإيمان بالتوحيد والنبوة، وأنكر المنكرات الكفر باللَّه، فكان الجهاد في الدين محمِّلًا لأعظم المضار لغرض إيصال الغير إلىٰ أعظم المنافع، وتخليصه من أعظم المضار، فوجب أن يكون الجهاد أعظم العبادات.

ولما كان أمر الجهاد في شرعنا أقوىٰ منه في سائر الشرائع؛ لا جرم صار ذلك موجبًا لفضل هذه الأمة علىٰ سائر الأمم، وهذا معنىٰ ما روي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية أنه قال: «قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ تأمرونهم أن يشهدوا أن لا إله إلا اللَّه، ويقروا بما أنزل اللَّه، وتقاتلونهم عليه، ولا إله إلا اللَّه هي أعظم المعروف وتكذيبها أنكر المنكر».

ثم قال القفال: فائدة القتال علىٰ الدين لا ينكره منصف، وذلك لأن أكثر الناس يحبون أديانهم بسبب الإلف والعادة، ولا يتأملون في الدلائل التي تورد عليهم، فإذا أكره علىٰ الدخول بالتخويف بالقتل دخل فيه، ثم لا يزال يضعف ما في قلبه من حب الدين الباطل، ولا يزال يقوىٰ في قلبه حب الدين الحق، إلىٰ أن ينتقل من الباطل إلىٰ الحق، ومن استحقاق العذاب الدائم إلىٰ استحقاق الثواب الدائم. انتهىٰ كلام القفال، وعليه ملاحظات:

١ ـ أن أهل الكتاب أشد من المسلمين في حروبهم الدينية، وورد عنهم في الإكراه علىٰ الدين ما لم يرد مثله عن المسلمين.

٢ ـ أن الحرب في الإسلام ليست للإكراه علىٰ الدين كما توهمه القفال، وإنما لإعلاء كلمة اللَّه بإخضاع الأمم لها ورفض كلمة الطاغوت ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

ولو قيل: لم قدم اللَّه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علىٰ الإيمان به في الآية، مع أن الإيمان لابد وأن يكون مقدمًا علىٰ سائر الطاعات؟

أجابوا: إن الإيمان باللَّه أمر مشترك بين جميع الأمم المُحقة، ثم فضل اللَّه هذه الأمة علىٰ سائر الأمم المحقة بكونها أقوىٰ حالًا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من سائر الأمم، وأما الإيمان فهو شرط لتأثير هذا المؤثر في هذا الحكم؛ لأنه ما لم يوجد الإيمان لم يصر شيء من الطاعات مؤثرًا في صفة الخيرية.

وأقول: إن هذا الجواب فيه ما فيه؛ فإن الشرط يجب تقديمه، والأولىٰ أن يقال: إن الحكمة في تقديم الأمر والنهي هو كونه محمودًا في عرف جميع الناس ـ مؤمنهم وكافرهم ـ يعترف للقائم بذلك في الفضل، ولما كان الكلام في خيرية هذه الأمة علىٰ غيرها، قدم الوصف المتفق علىٰ حسنه عند المؤمنين والكافرين في ذلك الزمان؛ لا في زماننا الذي صار مستهجنًا عند أكثر المسلمين الذين نسوا حظًّا مما ذُكِّروا به.

وفيه حكمة أخرىٰ: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سياج الإيمان وحِفاظُه.

ولعل في تقديمه الأمرَ والنهي تعريض بأهل الكتاب الذين كانوا في مجموعهم لا يتناهون عن منكر فعلوه، فقدَّم ذكر الأمر والنهي؛ لأنه لا مجال لهم في دعوىٰ مشاركة المؤمنين فيهما، وأخَّر ذكر الإيمان الذي يدَّعونه ليترتب عليه بيان عدم صحة إيمانهم؛ لأنه لم يأت بثماره من الأمر والنهي، ولعل هذا هو أحسن الأجوبة، واللَّه أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾، هذه عودة لأهل الكتاب، يصنفهم اللَّه فيها وينصفهم، فلا يبخس لهما حقًّا؛ فيقول: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ـ عامَّتُهم ـ الإيمان الإذعاني الذي يصحبه الإخلاص، ويثمر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ مما يَدَّعونه من الإيمان التقليدي الذي لا يزعهم، ولا يردعهم عن الشرور والمفاسد. وعلق كينونة الإيمان خيرًا لهم علىٰ تقدير حصوله، توبيخًا لهم مقرونًا بالنصح من اللَّه تعالىٰ في أنهم لو آمنوا لأنجوا أنفسهم من سخط اللَّه في الدنيا، وعقوبته في الآخرة.

ثم إن اللَّه سبحانه يصنف حالهم، ولا يبخس الصالحين من حقهم فيقول: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وهم الذين دخلوا الإسلام عن رغبة

ومحبة صادقة؛ كعبداللَّه بن سلَام، وكعب بن مالك، وأسد بن عبيد، وشعبة بن ثعلبة.

ثم بين أن الكثرة الكاثرة منهم كفار فقال: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾، فقد كفروا بدين اللَّه حين لم يفوا بميثاقه مع النبيين، ولم يؤمنوا بمحمد ﷺ ولم ينصروه.

وقوله سبحانه في الآية (١١١) من السورة: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾:

يخبر اللَّه في هذه الآية بأمرين مغيبين وهما:

١ - أنهم لا يضرون المسلمين أي ضرر كان إلا ما كان أذًىٰ، وهو الكلام الرخيص الذي ينبغي عدم الالتفات إليه.

٢ - أنهم إن قاتلوهم فحظهم الهزيمة الساحقة أمام المسلمين، فلا تثبت لهم قدم، ولا يرتفع لهم لواء.

والآية وردت في اليهود، وقد انتصر الصحابة الكرام علىٰ النصارىٰ، بحيث لم تثبت لهم قدم، وما جرىٰ من انتصارهم في الحروب الصليبية فالحرب سجال، وقد صار لهم النصر حتىٰ هيأ اللَّه قيادةً صالحةً علىٰ أيدي الأيوبيين، فهزمتهم شر هزيمة.

ثم إن الاستثناء في الآية متصل مفرَّغ من المصدر المحذوف، تقديره: لن يضروكم ضررًا إلا ضررًا يسيرًا لا نكاية فيه، ولا إجحاف عليكم به، وهذا هو الصحيح.

والتعبير بـ«لن» يفيد الاستقبال علىٰ الدوام والتأبيد، كما هو الظاهر، وفي ذلك بشارة من اللَّه للمسلمين أن اليهود لن يضروهم أبدًا في كل عصر إلا بالأذىٰ الذي لا يلتفت إليه العاقل، ولا يتأثر به.

فهم مهزومون أمام المسلمين بالقتال، وهذا إذا حقق المسلمون إيمانهم، والتزموا بإسلامهم، ولم يتشبهوا باليهود في شيء من سوء التصرف بالقرآن كما أساؤوا التصرف بالتوراة.

وقوله سبحانه في الآية (١١٢) من السورة: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾:

قال الراغب: الذُّل ـ بضم الذال ـ ما كان عن قهر، والذِّل ـ بكسرها ـ ما كان بعد تعصب وشِماس[1]، ومنه تذليل الدواب.

وضرب الذلة على اليهود عبارة عن إلصاقها بهم، وظهور أثرها فيهم، أو إحاطتها بهم، كإحاطة الخيمة المضروبة بمن فيها.

وقال بعضهم: إن الذلة هي ما يحدث في النفس من فقد السلطة والنفوذ.

وقد تقدم تفسير الذلة مستوفًى عند الكلام عن الآية (٦١) من سورة البقرة.

وقوله: ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾، يعني: أينما وُجدوا في جميع الأمكنة، فالذلة مضروبة عليهم في كل زمان ومكان، وقد كانت المجوس تفرض عليهم الإتاوة الثقيلة، كجزية وإهانة وإذلال لهم.

وقوله: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ لأن الناس يرتبطون به، كما يقعُ الارتباط الحسي بالحبل، ولهذا قال أبو الهيثم للنبي ﷺ حين أتته الأنصار في العقبة: يا أيها الرجل إنا قاطعون فيك حبالًا بيننا وبين الناس.

ويسمى السبب في اللغة: حبلًا، والحبلُ: سببًا، والمعنى: أنه لا ترتفع عنهم الذلة إلا بعهدٍ أو سبب يأمنون به في البلاد، فإن رجعوا إلى اللَّه ﷻ، وعملوا بالتوراة حصل لهم الحبل من اللَّه، وهذا نادر في حياتهم، ولكنهم كثيرًا ما يحصلون على حبل من الناس، إما حبل

(١) الشِّماس: النفور.

يؤمِّنهم كعهد المسلمين، أو حبل يُعزهم كما يحصلونه من المجوس ضد النصارىٰ، فإنهم يتفننون في المكر والتدبير، ويغتنمون كل حرب بين المجوس والنصارىٰ، فينحازون للمجوس، ويتجسسون لهم، ويُسْدُون إليهم خدمات حربية، فيستنصرونهم علىٰ فتح القدس، وقد حصل ذلك مرارًا من ملوك فارس المجوسية كما هو معروف في تاريخ حروبهم.

ولهم خداع آخر مع ملوك النصارىٰ بواسطة اليهوديات السريات اللاتي يتزوجونَهن من غير أن يشعروا، وبواسطة القُسُس الذين يتقمصون النصرانية وهم يهود. وقد استطاعوا بِهذا وهذا تبديل الأناجيل، وتغيير الدين المسيحي مرارًا، واللعب علىٰ ملوكهم وحكامهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾، البَواء: الاستحقاق، يقال: باء فلان بدم فلان، إذا كان مستحقًّا عليه، وكان حقيقًا أن يقتل به. والمعنىٰ: استحقوا غضب اللَّه، أو أنهم أقاموا في الغضب ـ من المُباءة ـ أي حلوا متبوَّأً.

وأما المسكنة: فليست الفقر كما فسرها البعض ـ عفا اللَّه عنهم ـ؛ فإن اليهود ليسوا أهل فقر، وإنما هم أغنىٰ الناس بمهارتهم في فنون الاقتصاد وأخذهم الربا، وسبقُهم في ميدان التجارة أمرٌ معروف، وهو من أخطر مخططاتهم ضد البشرية. وإنما المسكنة استكانة عن ضعف وحاجة وخنوع.

ثم بين اللَّه العلة لما استحقوا؛ فقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾، وقد تقدم تفسير ذلك في سورة البقرة، وقد جاء ذكر الأنبياء هنا تعبيرًا بجمع التكسير، وفي البقرة بجمع السلامة. وأيضًا جاء هنا: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ نكرة، وفي البقرة: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١] معرفة، وهذا من البلاغة في الكلام، والتنويع في الأسلوب.

وقد تكرر ذكر السبب لضرب الذلة عليهم، والغضب الإلهي والمسكنة لتكرار التشنيع، ولتحذيرنا من التشبه بهم. والسبب هو كفرهم بآيات ربهم بتركهم العمل بها، وقتلُهم الأنبياء بغير حق ثابت في الشريعة.

وقد نسب اللَّه إلىٰ متأخريهم عمل متقدميهم؛ لرضائهم بفعل أسلافهم، وعدم براءتهم منهم علىٰ هذه الأعمال الشنيعة، ولأن الأمة متكافلة، فيُنسب إلىٰ مجموعها ما فشا فيهم، وإن ظهر بعض آثاره في زمن دون زمن. وقد أسلفنا توضيح ذلك في سورة البقرة.

وقد ذكر اللَّه في سورة آل عمران: أن الذين يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس كالذين يقتلون الأنبياء في استحقاق العذاب الأليم. فقاتِلو العلماء من الحكام لمجرد قيامهم بالتوعية الدينية جريمتهم كجريمة قاتلي الأنبياء، مهما ادعوا من المعاذير، ومهما حاكموا الدعاة الإسلاميين محاكمةً صوريةً، يضطرونهم فيها إلىٰ الاعتراف ببعض الأمور نتيجة التعذيب، وفقدان الشعور ومهما جمعوا من فتاوىٰ يستصدرونها من العلماء المنحرفين، فإن كل ذلك لا يغير من الحكم الشرعي شيئًا.

والسر في قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾ بعد ذكر الكفر ـ والكفر أعظم من المعصية ـ هو بيان من اللَّه لعلة العلة، وذلك أنه لما كانت علة الذلة والغضب والمسكنة هي الكفر وقتل الأنبياء، كانت علة الكفر هي المعصية، فقد توغلوا في المعاصي والذنوب؛ فتزايدت ظلماتها شيئًا فشيئًا، وانحسر أمامها نور الإيمان شيئًا فشيئًا، حتىٰ انتهىٰ نور الإيمان، وغشيتهم ظلمات الكفر.

وقد أشار اللَّه إلىٰ هذا بقوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين]، وبقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الروم]؛ فكان هذا إشارة من اللَّه إلىٰ علة العلة.

وقد قال أرباب المعرفة: «من ابتلي بترك الآداب وقع في ترك السنن، ومن ابتُلي بترك السنن وقع في ترك الفريضة، ومن ابتلي بترك الفريضة وقع في استحقار[1] الشريعة، ومن ابتلي بذلك وقع في الكفر».

وقوله سبحانه في الآية (١١٣، ١١٤، ١١٥) من السورة: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾:

هذا من إنصاف اللَّه لهم، فقد ذكرت سابقًا أن اللَّه سبحانه أنصفهم وصنفهم، فلم يبخس لهم حقًّا، وحاشا من هو قائم بالقسط أن يجور علىٰ أحد.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾ كلام تام ينبغي الوقوف عليه، وقوله تعالىٰ: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ جملة مستأنفة علىٰ الأصح.

والمعنىٰ عدم التسوية، أي أنهم ليسوا متساوين، بل فيهم ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾، يعني: موجودة مستقيمة علىٰ دين اللَّه وطاعته، ثابتة علىٰ العمل بالحق المنزل من عند اللَّه. وهؤلاء هم الفريق الذين آمنوا بموسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام، فإن إيمانهم بهما هو الذي هداهم إلىٰ الإيمان بمحمد ﷺ؛ لاستيقانهم أن دين الجميع هو الإسلام الذي لا يقبل دينًا سواه.

وقد اضطرب بعض المفسرين رحمهم الله؛ فزعموا: أنهم الذين أسلموا من أهل الكتاب، كعبداللَّه بن سلام وأضرابه، وهذه غفلة منهم عن الحقيقة الملموسة، فإن المسلمين لا يمدحهم اللَّه بوصفه أنهم أهل الكتاب قطعًا، وإنما يمدحهم بوصف الإيمان، ولا داعي للمفسرين أن

---

(١) في المطبوع: استحقاق! ولا أدري لها وجهًا، ولعل الأصح ما أثبتُّه.واللَّهُ تعالىٰ أعلم.

يدخلوا المسلمين في أهل الكتاب عند إطلاقهم، فإن هذا مخالفة لعرف القرآن، ومن ثم فإن المسلمين في غاية الاستغناء عن هذا الإدخال، فقد شرفهم اللَّه تعالىٰ وكرمهم بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

هذا وإن استقامة بعض أهل الكتاب علىٰ الحق لا ينافي ما أوضحناه في أول السورة من إتلاف بعض كتبهم، وتحريف بعضهم لبعض ما بقي منها؛ فإن من يعرف من المسلمين بعض السنة، ويحفظ مجموعةً من الأحاديث النبوية، ويعمل بها مخلصًا للَّه باستمساكه بها، يقال عنه: إنه قائم بالسنة النبوية، ولو فاته الكثير منها، أو جهل الصحيح من الضعيف؛ فإنه يوصف بالسنية علىٰ حسب حاله. وكذلك المجتهدون من أهل الكتاب والمحافظون علىٰ التزام ما بلغهم منه.

واعلم أن اللَّه سبحانه مدح الأمة المذكورة المسلمة من بني إسرائيل بصفات ثمان هي:

١ ـ أنها «قائمة»، وفي تفسيرها وجوه، أصحها: أنها ثابتة علىٰ التمسك بالدين الصحيح، ملازمة له، غير مضطربة في التمسك به، كما أسلفنا ذلك.

٢ ـ قوله تعالىٰ: ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾، والتلاوة: القراءة، وإنما سميت تلاوة لإتباع قراءة الألفاظ بالأعمال، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١]، وقد تقدم تفسيرها بأنهم الذين يُحلون حلاله ويحرمون حرامه، وينفذون وصايا اللَّه وتشريعاته فيه.

وقوله: ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني وحيه المنزل منه، وقوله: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ الآناء في أصل اللغة: الأوقات والساعات.

قال القفال رَحِمَهُ اللَّهُ: كأن التأني مأخوذ منه؛ لأنه انتظار الساعات

والأوقات، وفي حديث المتأخرين في الجمعة: «**آذيتَ وآنيت**»[١]، أي دافعت الأوقات.

٣ ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾، وقد ذكر المفسرون لها وجوهًا، أصحها عندي ـ واللَّه أعلم ـ أنهم يصلون، فإن الصلاة تسمىٰ: سجودًا، وسجدةً، وركوعًا، وركعةً، وتسبيحًا، وتسبيحة.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ حالًا من التلاوة، كأنهم يقرؤون القرآن في السجدة مبالغةً في الخشوع والخضوع.

وقد روىٰ القفال في «تفسيره» حديثًا بمنع هذا، وهو قوله ﷺ: «**ألا إني نُهيت أن أقرأ القرآن راكعًا أو ساجدًا**»[٢].

وقد فاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن شريعة نبينا غير شريعتهم، فيجوز أن تكون القراءة عندهم في السجود غير ممنوعة، واللَّه أعلم.

٤ ـ قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، وهذه أعظم الصفات وأشرفها، فإن الإيمان باللَّه يشمخ بصاحبه نحو العزة والكرامة، ويُعرفه بعلاقته باللَّه، وبوظيفة الخلافة في الأرض، كما أن الإيمان باللَّه يحمل علىٰ الإيمان بالغيب الذي هو مصدر الكمال، ومنبع كل خير وفضيلة؛ لأنه يجعل من ضمير الإنسان رقيبًا باطنيًّا يراقبه في كل عمل، ويخوِّفه من عقوبات اللَّه العاجلة والآجلة.

وأما الإيمان باليوم الآخر فإنه الرِّفد الثاني، والدِّعامة الثانية للإيمان بالغيب، وهو يستلزم الحذر من المعاصي واجتنابها خوفًا من سوء المصير يوم القيامة.

٥، ٦ ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، وقد قدمنا أنهما من الضروري لصيانة العقيدة، وحماية الأخلاق، وبدونهما يختل المجتمع فتضطرب عقيدته، وتفسد أخلاقه، ويكون مطموعًا به،

---

(١) رواه ابن ماجه (١١٠٠).
(٢) رواه مسلم (٤٧٩).

واعلم أن الغاية القصوىٰ في الكمال أن يكون المرء أو المجتمع تامًّا وفوق التمام.

والإنسان لا يكون تامًّا إلا في كمال قوته النظرية وقوته العملية، وكونه فوق التمام يوجب عليه أن يسعىٰ في تكميل الناقصين، وذلك بطريقتين:

- إما بإرشادهم إلىٰ فعل الواجب والقيام بحقوق اللَّه، وذلك هو الأمر بالمعروف.

- وإما بمنعهم عن فعل الحرام والمكروه والمستقبح، وهذا هو النهي عن المنكر.

٧ ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾، ومسارعتهم فيها ناشئة عن فرط رغبتهم فيها؛ لأن من رغب في شيء سارع إلىٰ فعله والقيام به، وفضَّل الفور علىٰ التراخي.

فقد وصف اللَّه تلك الأمة المستقيمة بأنهم إذا دُعوا إلىٰ فعل الخير، من نصر مظلوم، وإغاثة مكروب، وبذل في سبيل الخير، ونشاط في العبادة بادروا إلىٰ فعل ذلك. وبالجملة فقد وصفهم اللَّه بصفات مخالفة لصفات اليهود.

٨ ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وهذه إشارة إلىٰ أن من جمع هذه الصفات السبع التي فصلناها، فإنه من الصالحين الذين صلحت أحوالهم عند اللَّه.

فالأمة القائمة الموصوفة بالأوصاف السابقة: هي من جملة الصالحين الذين صلحت أحوالهم عند اللَّه، ورضيها منهم لصلاحهم وإصلاحهم في الدنيا.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ١١٥﴾، هذه الآية الكريمة فيها وعد صادق للأمة القائمة المستقيمة أنهم لن يُبخسُوا حقًّا ولا أجرًا، وأن ما يفعلونه يجدون ثوابه عند اللَّه

مضاعفًا؛ لأن اللَّه شكور لا يضيع أجر العاملين.

وقد قيل في سبب نزول هذه الآية: أن جهال اليهود لما قالوا لعبداللَّه بن سلام وأصحابه رضي الله عنهم: إنكم خسرتم بسبب هذا الإيمان، أخبرهم عن فوزهم بالدرجات العظمىٰ تقديرًا لهم، وليزول عن قلوبهم أثر كلام أولئك الجهال. ولكن الآية علىٰ عمومها تشمل جميع مؤمني أهل الكتاب ومؤمني غيرهم، فإن اللَّه عليم بهم يثيبهم علىٰ أعمالهم ويضاعفها لهم.

وقوله سبحانه في الآية (١١٦) من السورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾:

ذكر اللَّه في هذه الآية سوء مصير الكافرين علىٰ الإطلاق، فهي عامة في جميع أصنافهم وأجناسهم. وقد ذكرهم اللَّه بعد تصنيف بني إسرائيل، ووصف المؤمنين منهم بالصفات الحسنة السابقة، وتأكيد شكر اللَّه علىٰ أعمالهم ليجزيهم عليها الجزاء الأوفىٰ، وذلك ليتضح الفرق بين القبيلين، وأنه فرق عظيم لا يساويه شيء من الفوارق.

وما أبعد الفرق بين من وُعد بالحسنىٰ، ومن حق عليه الوعيد بإهدار عمله؛ لأنه صادر عن غير توحيد وإخلاص! فقد قطع اللَّه أماني الكافرين، وهدم اعتزازهم بما كانوا يعتزون به من الأموال والأولاد، فإنهم كانوا يعيرون الرسول ﷺ وأصحابه بالفقر، حتىٰ جعلوه شبهةً من شبهاتهم للصد عن الإسلام، والتنديد بالرسالة، فالكافر لا ينتفع بأمواله الكثيرة الفاخرة ولا بعصبة أولاده القوية في الآخرة، وإذا كان لا ينتفع بِهؤلاء، فلن ينتفع بغيرها من الأشياء بطريق الأولىٰ.

وقد قال سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء]، وقال عمن أوتي كتابه بشماله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ

عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة] وهكـذا لا ينفع في الآخرة إلا الإيمان والعمل الصالح.

وقوله سبحانه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: يفيد الحصر، ويثبت أن الخلود في النار لجميع الكافرين فقط ليس لسواهم، فالمذنب من المسلمين أهل الصلاة ليس من المخلدين في النار، وإنما يطهره اللَّه بها من ذنوبه مع عدم المكفرات لها، ثم يدخله الجنة.

وقوله سبحانه في الآية (١١٧) من السورة: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾:

لما كان الكفار دائمًا يفخرون بأموالهم وسخائهم، وما ينفقونه ويطعمونه الوحوش في الجبال، والحُجَّاج أيام الحج، وما يسقونه من ماء زمزم المنقع بالزبيب، وغير ذلك من أفعال الخير التي لا يريدون وجه اللَّه بها، وإنما يريدون بها الثناء والتفاخر، كالذي يفعلونه من بناء الأربطة، وتصليح الطرق وإقامة الموائد والمبالغة في إكرام الضيوف ورِفد المنكوب، وإغاثة الملهوف ونحو ذلك، فإنهم لا ينتفعون بها كما ينتفع المؤمنون بصالح أعمالهم التي قال اللَّه عنها: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾.

فقد شبه اللَّه كفرهم في إهلاك ثواب أعمالهم بالريح المهلكة للحرث، وهو تشبيه بديع لفظاعة آثار الكفر ونتائجه السيئة التي لا تبقي ولا تذر.

قال ابن عطية: معناه المثل القائم في النفس من إنفاقهم الذي يعدونه قربةً وحسنةً وتحنثًا، ـ أي: عبادة ـ ومن حبطه يوم القيامة، وجعله هباءً منثورًا وذهابه كالمثل القائم في النفس من زَرع قوم نبت واخضرَّ، وقوي الأمل فيه، فهبت عليه ريح صرٌّ محرقٌ فأهلكته. اهـ.

وقال الراغب: ومنهم من قال: ﴿مَا يُنفِقُونَ﴾ عبارة عن أعمالهم

كلها، لكنه خص الإنفاق لكونه أظهر وأكثر. اهـ.

وقد أفرد الريح هنا؛ لأن الريح بالإفراد أكثر ما تأتي بالعذاب، وأما الرياح بالجمع فهي تأتي بالرحمة، كقوله تعالىٰ بالإفراد: ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [فصلت: ١٦]، وبالجمع: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: ٤٦]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وأما الصِّرُّ إذا أضيف إلىٰ الريح فهو البرد الشديد المحبقُ[1]، ويقال لها: صرصرٌ.

وأما الصَّرُّ ـ بفتح الصاد ـ إذا أضيف إلىٰ الآدمي فهو الضحك، أو جمع الوفد.

وقوله سبحانه: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾: ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾: جملة في موضع الصفة لـ﴿قَوْمٍ﴾، وظاهره أنهم ظلموا أنفسهم بمعاصيهم، فكان الإهلاك لحرثهم أشد في عقوبتهم وأنكىٰ.

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلىٰ أن جميع مصائب الدنيا تحصل بمعاصي العباد، ويستنبطون ذلك من نصوص في القرآن غير هذه الآية، فيستقيم علىٰ ذلك أن كل حرث تحرقه الريح فإنما هو من ظلم صاحبه لنفسه بارتكاب المعاصي، أو الإلحاد في دين اللَّه، أو إيذاء عباد اللَّه الصالحين.

فالحاصل أن اللَّه ﷻ لم يظلم الكفار بعدم قبول نفقاتهم وإحباط أعمالهم، ولكن ظلموا أنفسهم حيث أتوا بها مقرونةً بأسباب وملابسات مانعة من القبول، و﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وقوله سبحانه في الآية (١١٨، ١١٩) من السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ

(١) كذا في المطبوع، ولم أتبينها.

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾:

فقوله ﷻ: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً﴾ نكرة في سياق النفي، تفيد عموم النهي عن كل بطانة كافرة.

والبِطانة: هم خاصة الإنسان وأصدقاؤه الذين اختارهم؛ ليفضي إليهم بأسراره وأخباره.

وأصل البِطانة: الثوب الداخلي الملاصق لجلد الإنسان وبَطنه، فاستعير هذا المعنىٰ لكل صَديق يطلع علىٰ سريرة الآخر.

﴿مِّن دُونِكُمْ﴾: أي من غير جنسكم في الدين، وبمعنىٰ آخر: من غير ملتكم، والجملة هذه إما أن تكون متعلقةً بقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾ أي لا تتخذوا من دونكم بطانة، وإما أن تكون متعلقةً بـ﴿بِطَانَةً﴾، فتكون وصفًا لها، والتقدير: بطانةً كائنةً من دونكم.

فإن قيل: إن هذه الآية تقتضي المنع من مصادقة الكفار علىٰ الإطلاق، في حين أن هناك آيات أخرىٰ تخالف هذا المفهوم، مثل قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

قلنا: هذا شغب يقوم به بعض الملاحدة الجهلة الذين يلحدون في دين اللّه. فلو قرؤوا الآيات السبع السابقة لهذه الآية من سورة الممتحنة لوجدوا أنها صريحة في النهي القاطع عن موالاة الكفار، والإدلاء إليهم بالمودة، وفيها الأمر بالبراءة منهم، وإعلان بغضهم وعداوتهم اقتداء بإبراهيم ﵇، واتباعًا لملته.

وليس في هذه الآية ما يدل علىٰ جواز موالاة الكفار، ولا مودتهم، ولا مصادقتهم، وإنما فيها رخصة بِمبرتهم والعدل فيهم؛ ما داموا لم يقاتلونا في الدين، ولم يظاهروا علينا أحدًا من أعدائنا.

وقد جاء في أسباب نزول هذه الآية أنها نزلت في إحدىٰ والدات المؤمنات وأقاربِهن الذين ما زالوا علىٰ الكفر ـ كما هو مذكور في موضعه ـ، وكذلك آيات آل عمران هذه تضمنت النهي القاطع الصريح المدعم بالعلل الواقعية عن اتخاذ الغريب عن الملة بطانةً لمن يقوم بأمر الملة، وإن كانت له صلة نسبة، فإن مخالفته في الدين تجعله غريبًا، والغريب عن الدولة لا يجوز اتخاذه بطانة لرجال الدولة.

واعلم أن اللَّه سبحانه لما منع المؤمنين من اتخاذ الكافرين بطانة لهم علل هذا النهي بمجموعة علل، وهي:

١ ـ قوله: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾: يعني: لا يقصرون في إيذائكم، وإنزال الضرر بكم، يقال: ألَىٰ في الأمر ويألو: إذا قصر فيه، ثم استعمل معدًّىٰ إلىٰ مفعولين كقولهم: لا آلوك نصحًا، ولا آلوك جهدًا، ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ [النور: ٢٢].

والخبال: هو الفساد الذي يؤثر في اختلال المخ، والمقصود تأثيرهم علىٰ العقول، بإفساد تصوراتها بما يقذفونه من الغش والتلبيس، كما جرىٰ للمستعصم ـ آخر خلفاء العباسيين ـ حين استوزر «ابن العلقمي» الرافضي، ركيزة التتار، حتىٰ خدعه، وصار فريسةً لهم، فكانت نكبةً علىٰ المسلمين.

ومُجْمل القول أن هذه البطانة لا تدع جهدًا، ولا تدخر وسعًا في مضرتكم، وفساد أمركم، وإيقاع شتىٰ أنواع الضرر بكم، والذي يساعدهم علىٰ ذلك استبطانكم إياهم، واحتضانكم لهم، فيتمكنوا من الاطلاع علىٰ أسراركم ومخططاتكم، فيخبرون أعداءكم بذلك؛ لأن صلتهم العقائدية بهم أقوىٰ من صلتهم بكم، فشأن العقيدة شأن كبير، ولهذا قال سبحانه: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾.

٢ ـ قوله سبحانه: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ يعني: يحبون إعناتكم، والعنت: هو شدة الضرر والمشقة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، وتقدير الآية: أحبُّوا أن يضروكم في دينكم أشد الضرر، و«ما»

مصدرية، كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾ [الشمس]، وبربط قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ بقوله: ﴿وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾، يصير المعنىٰ: أنهم لا يقصرون في إفساد أموركم وتصوراتكم وإيقاع الضرر بكم، فإن لم يحصل لهم ذلك لمانع خارجي، فحُبُّ ذلك مستقر في نفوسهم ومتمكِّن من قلوبهم.

٣ ـ قوله سبحانه: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾، والبغضاء: شدة البغض ومثله الضر والضراء.

بعد أن ساقت الآية فعل هؤلاء القلبي ﴿وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾، ساقت فعلهم البدني ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾، فهم لشدة كرههم وحقدهم وبغضهم للمؤمنين لابد أن يُظهروا هذا علىٰ ألسنتهم، وفي ثنايا أحاديثهم، مهما حاولوا كبته وضبطه.

٤ ـ قوله سبحانه: ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ أي أنه مهما ظهر من أعداء الإسلام من حقد وكره للمسلمين، فإنه لا يساوي شيئًا بجانب ما أخفته صدورهم، فما يخفونه من البغضاء أكبر بكثير مما يظهرونه.

فهم جادُّون في إضرار المسلمين بكل وسيلة، يبيتون لهم الشر ويضمرون لهم السوء لشدة ما في قلوبهم من الغيظ.

ولا يزال بعض المسلمين مخدوعًا بهم يفضون إليهم بالمودة، ويجعلونهم موضع ثقتهم، ويتخذونهم بطانةً وأصدقاء يأمنونهم علىٰ أسرار المسلمين، وهم يرونهم رأي العين أنهم من عملاء الكفر فيغترون بهم، لأنهم يحسنون صنعة النفاق وضروبه، حتىٰ أنسوهم تحذير اللَّه منهم، ونَهيه عن مصادقتهم والركون إليهم.

وقد خُتمت الآية بقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي إن كنتم تعقلون العقل الذي يميز به صاحبه بين الضار والنافع، ويفرق به بين الولي والعدو.

وقال ابن جرير: معناه: إن كنتم تعقلون عن اللَّه أمره ونَهيه.

وقيل: إن كنتم تعقلون فلا تصافوهم، بل عاملوهم معاملةَ الأعداء إن كنتم تعقلون الفرق بين معاملة الأعداء ومعاملة الأصدقاء في الدين.

وليس في قوله تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ غمز لهم بعدم العقل ونقصه، حاشا وكلَّا، وإنما علق حصول الفائدة من هذا النهي علىٰ شرط العقل ليحرك نفوسهم ويحمسها، ويشجعها علىٰ العمل بمقتضىٰ الآية. كقول القائل لمن يشجعه ويدفعه علىٰ العمل: إن كنت رجلًا فافعل كذا.

وهذه الآيات التي مرت بنا تدل علىٰ وجوب الإخلاص في الدين، وحماية العقيدة من موالاة الكفار والتقرب منهم والالتقاء معهم في أي ميدان من ميادين الحياة، وقد قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال].

٥ ـ قوله تعالىٰ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾، ولفظ «ها»: للتنبيه، و«أنتم»: مبتدأ، وجملة ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ خبر، و﴿أُو۟لَآءِ﴾ منادىٰ منصوب علىٰ الاختصاص، والأصح قول البصريين: إنها في محل نصب علىٰ الحال، أي: ها أنت ذا قائلًا، والحال هنا لازمة.

والمعنىٰ: ها أنتم أولاء الخاطئون في موالاة غير المؤمنين إذ تحبونهم ولا يحبونكم.

والمحبة هنا: هي الميل بالطبع لوضع القرابة أو الرضاع أو الحلف كما قال ابن عباس، أو لأجل إظهار الإيمان والإحسان للمؤمنين، كما قاله أبو العالية.

وإذا كان المنع من محبة الكفار والمنافقين رغم وجود هذه العلائق؛ فكيف بمن يواليهم ويستبطنهم من دونها؟ فلا تربطه بهم إلا ما يسمىٰ برابطة القومية أو الوطنية أو الانتماء لمذهب مادي أو نحو ذلك، فإن هذا مخرجٌ صاحبه عن الإسلام؛ لأن المحبة يجب أن ترتبط بحب اللَّه ورسوله، وأن تكون متبادلةً علىٰ أساس من التقوىٰ والإيمان.

٦ ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾، في الآية إضمار تقديره: وتؤمنون بالكتاب كله، وهم لا يؤمنون، ويحسن الحذف هنا؛ لأن الضدين يُعلمان معًا، فكان ذكر أحدهما مغنيًا عن ذكر الآخر.

وقد أفرد اللّٰه سبحانه ذكر الكتاب هنا؛ لأنه ذهب به مَذهب الجنس كقولهم: كثر الدرهم بأيدي الناس، ولأن المصدر لا يجمع إلا علىٰ التأويل.

والمعنىٰ: أنكم تؤمنون بجميع ما أنزل اللّٰه من كتاب حتىٰ الكتاب المنزل إليهم، وهم مع ذلك يبغضونكم، ولا يؤمنون بشيء من كتابكم، وفي هذا توبيخ للمؤمنين المتورطين بِهذه الخصلة، لكون الكفار أصلب منهم في عقيدتهم فلم يقابلوا مودة المؤمنين إلا بالبغض، ولا تقربهم إلا بالنفرة، ولا إيمانهم بكتبهم إلا بكفرهم بالقرآن، فكيف يكون أهل الباطل أصلب في باطلهم من أهل الحق في حقهم؟ وكيف يكسب أهل الباطل محبة أهل الحق بدون مقابل؟.

٧ ـ قوله تعالي: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، أي أنهم إذا لقوا المؤمنين أظهروا إيمانهم مكرًا بالمسلمين وخديعةً؛ ليكسبوا مودتهم، ويحصلوا علىٰ شيء من أخبارهم وخططهم. وهم في حقيقة الأمر يبطنون الكفر، ويصرون عليه، ويكرهون الإسلام وأهله، ويخططون سرًّا وعلانيةً للقضاء علىٰ المسلمين وإبادتهم، يدفعهم إلىٰ ذلك الغيظ الذي لا حدود له، حتىٰ إنهم من فرط غيظهم يعضون أناملهم، حيث لا يستطيعون إيقاع الأذىٰ بالمسلمين.

وعض الأنامل يفعله المغضَب الذي فاته ما لا يقدر عليه، أو نزل به ما لا يقدر علىٰ دفعه أو تغييره.

والعض هذا يكون بالأسنان، كعض اليد علىٰ فائت قريب الفوات، وكقرع السن النادمة، إلىٰ غير ذلك.

و«الأنامل» جمع أنملة، وهي أطراف الأصابع. وعضهم للأنامل ـ كما

قدمنا ـ هو من شدة الغيظ مع عدم القدرة علىٰ إنفاذ ما يريدون.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ﴾ هو أمر من اللَّه لنبيه محمد ﷺ، ولكل مؤمن أن يدعوَ عليهم بِهذا الدعاء، أي الدعاء عليهم أن يزداد غيظهم حتىٰ يهلكهم، وذلك بازدياد موجبات الغيظ من قوة الإسلام، وعزة أهله، فإن هذا يذلهم ويخزيهم حتىٰ يموتوا كمدًا وغيظًا.

وليس المقصود أمرهم بالبقاء علىٰ الغيظ الذي منشؤه الاستدامة علىٰ الكفر، لأن الأمر بالإقامة علىٰ الكفر غير جائز.

قال في «البحر»: قال بعض شيوخنا عن قوله تعالىٰ: ﴿مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ﴾: هذا ليس بأمر جازم، لأنه لو كان كذلك لماتوا من فورهم، كما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾ [البقرة: ٢٤٣] وليس بدعاء؛ لأنه لو أمره بالدعاء عليهم لماتوا جميعهم علىٰ هذه الصفة؛ فإن دعوته ﷺ لا ترد، وقد آمن منهم بعد هذه الآية كثير، وليس خبرًا؛ لأنه لو كان خبرًا لوقع علىٰ حكم ما أخبر به ولم يؤمن أحد منهم بعد ذلك، ولكنه قد آمن.

وإنما هو أمر معناه التوبيخ والتقريع كقوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، و«**إذا لم تستح فاصنع ما شئت**»[١]. اهـ.

وقيل: يجوز أن تكون أمرًا يطيب نفوس المؤمنين، ويقوي رجاءهم، ويحصل لهم به الاستبشار بوعد اللَّه أن يهلك أعداءهم غيظًا، بإعزاز الإسلام وإذلالهم به.

📖 **قوله في الآية (١٢٠) من السورة:** ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾:

وصف لأعداء اللَّه وأعداء المؤمنين من الكافرين والمنافقين أنهم

---

(١) رواه البخاري (٣٤٨٣).

يستاؤون إذا أصاب المؤمنين خير، وإن كان هذا الخير يسيرًا لا يزيد علىٰ ما يمس باليد، فالتعبير عن الحسنة بالمس لأجل الإشعار بالقلة.

والمراد بالحسنة كل ما فيه منفعة دنيوية كصحة الأبدان، وحصول خصب، وانتصار علىٰ أعداء، وفوز بغنيمة، وحصول مودة وألفة بين المؤمنين.

كما أنهم يفرحون بنزول السيئة بالمؤمنين مهما كان نوعها كالمرض، والفقر، والهزيمة، وحقوق التباغض والتدابر بين المؤمنين.

قال ابن عطية: ذكر اللَّه المس في الحسنة ليبين أن المساءة تقع بنفوس هؤلاء المبغضين بأدنىٰ طروء الحسنة، ثم عادل ذلك في السيئة بلفظ الإصابة، وهي تفيد التمكن؛ لأن الشيء المصيب لشيء آخر متمكن منه أو فيه، فدل هذا النوع البليغ علىٰ شدة العداوة؛ إذ هو حقد لا يذهب عند نزول الشدائد والفرحة بها. اهـ.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾.

الكيد: هو احتيال الإنسان ليوقع غيره في مكروه.

والصبر: هو حبس النفس علىٰ المكروه، وتحمل الأذىٰ، وانتظار الفرج.

والتقوىٰ: هي اتخاذ الوقاية من عذاب اللَّه بالتزام أوامره وتنفيذها برضاء وإخلاص، واجتناب نواهيه، وحفظ حدوده.

وقد حذف اللَّه متعلَّق الصبر، ومتعلَّق التقوىٰ من الآية؛ ليفهم من ذلك عموم معاني الصبر والتقوىٰ وأنواعهما.

وفي هذا بشارة للمؤمنين، وتثبيت لأنفسهم، وإرشاد لهم إلىٰ الوقاية من أذىٰ المشركين وكيدهم بالصبر والتقوىٰ، فإن من وفىٰ بعهد العبودية للَّه فاللَّهُ أكرم بالوفاء له بما وعده من الحفظ والرعاية: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق].

هذا؛ وقد ذكر اللَّه تعالىٰ هذه العلل العظيمة للنهي عن موالاة

الكافرين واستبطانهم، والثقة بهم، موضحًا أنهم لا يصلحون لشيء من ذلك: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقد قال الشاعر:

كلُّ العداوات قد ترجىٰ إزالتها ... إلا عداوة من عاداك في الدِّين

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: «لا تستعملوا أهل الكتاب؛ فإنهم يستحلون الرشا، واستعينوا علىٰ أموركم وعلىٰ رعيتكم بالذين يخشون اللَّه».

وقيل له: «إن هاهنا نصرانيًّا من أهل الحيرة، لا أحد أكتب منه، ولا أخطَّ بقلم، أفلا يكتب عنك؟ فقال: لا أتخذ بطانةً من دون المؤمنين».

وروي أن أبا موسىٰ الأشعري استكتب ذميًّا[١]، فكتب إليه عمر يعنفه، وتلا عليه هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ الآية، وانتهره لما حضر، وقال له: «لا تُدْنِهم وقد أقصاهم اللَّه، ولا تكرمهم وقد أهانهم اللَّه، ولا تأمنهم وقد خوَّنهم اللَّه».

قال القرطبي: وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب كتبةً وأمناء، وتسودوا بذلك عند الجهلة الأغبياء من الولاة والأمراء.

وروىٰ البخاري عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما بعث اللَّه من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان، بطانةٌ تأمره بالمعروف وتحضُّه عليه، وبطانةٌ تأمره بالشر وتحضُّه عليه، فالمعصوم من عصم اللَّه تعالىٰ**»[٢].

وروىٰ أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تستضيئوا بنار المشركين، ولا تنقشوا في خواتيمكم عربيًّا**»[٣]. فسره الحسن بن أبي الحسن قال: أراد ﷺ: لا تستشيروا المشركين في أمر من أموركم، ولا تنقشوا في خواتيمكم محمدًا. قال الحسن: تصديق ذلك في كتاب

---

(١) أي: جعله كاتبًا.
(٢) رواه البخاري (٦٦١١).
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧٩/٤).

اللَّه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾.

قلت: وتفسير ابن أبي الحسن لنقش الخواتيم في النفس منه شيء، ولعله يرىٰ ما لم أره، واللَّه أعلم.

وقوله: ﴿ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، وقُرِئَ «تعملون» بالتاء الفوقية، وعلىٰ القراءة الأولىٰ يكون المراد أهل الكتاب، والمنافقون الذين اتخذهم المؤمنون بطانةً، وكذا غيرهم، فإن علم اللَّه محيط بما يعملون من معاداتكم والكيد لكم، ومقتضىٰ علمه بذلك أن يجازيهم عليها في الدنيا والآخرة.

أما علىٰ قراءة «تعملون» ـ علىٰ سبيل المخاطبة ـ فيكون الخطاب موجهًا للمؤمنين، والمعنىٰ: أنه محيط علمه بجميع ما يصدر منكم ـ أيها المؤمنون ـ ومن خصومكم الكفار، ومجازيكم علىٰ مخالفة إرشاده وتحذيره لكم من اتخاذكم أولياء أو بطانةً، كما أنه سيجازيهم علىٰ كيدهم ومكرهم.

وتجدر الإشارة هنا إلىٰ أن الإحاطة في جميع آي القرآن الكريم معناها إحاطة العلم والقدرة، لا الإحاطة الحسية.

وقوله سبحانه: في الآية (١٢١، ١٢٢) من السورة: ﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾:

«غدا الرجل»: خرج غدوةً أي في أول النهار.

و﴿تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: تختار لهم المنازل الصالحة للقتال تنزلهم بها.

و«الهم»: دون العزم، يقول العربي: هممت ولم أفعل.

و«الفشل»: يكون في البدن، وهو الإعياء من التعب، وفي الحرب وهو الجبن والخور، وفي الرأي العجز والفساد.

و«التوكل»: تفويض الأمر إلىٰ الغير ثقةً به، وفي حق اللَّه يأتي له مزيد تفصيل.

ومناسبة هذه الآيات وما بعدها لما قبلها: أن اللَّه سبحانه لما نَهَىٰ المؤمنين عن اتخاذ بطانة من الكفار، ووعدهم أنهم إن صبروا واتقوا لا يضرهم كيد عدوهم، ذكرهم بِهذه الآيات حالاتٍ سلِموا فيها من الركون إلىٰ الكفار، وأخلصوا مقاصدهم للَّه، فنصرهم اللَّه وفازوا بالنجاح، وحالات أخرىٰ حصل فيها طواعية واتباع لبعض المنافقين، وطمع في الدنيا، فحصل لهم التأديب من اللَّه والتربية الحسنة ـ كما سيأتي تفصيلها إن شاء اللَّه ـ.

والمعنىٰ: واذكر ـ يا محمد، عليك الصلاة والسلام ـ إذ ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي تُهيئُ لهم ﴿مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ منازل صالحة له.

وهذه الآية وما بعدها إلىٰ قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ نهاية الآية (١٧٥) ـ وإن تخللها سبع آيات في تحريم الربا، والأمر بطاعة الرسول والمسارعة إلىٰ الخير، وذكر أوصاف المتقين الذين يستحقونها ـ نزلت في وقعة أُحُد.

وقد وهم من قال: إنها نزلت في غزوة الخندق أو غزوة بدر، بل إنها في غزوة أحد، ومن الدلائل علىٰ ذلك قوله سبحانه: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ وهذه في يوم أحد لا في غيره، وكان المشركون قد قصدوا المدينة في ثلاثة آلاف رجل ليأخذوا بثأرهم عن نكبة بدر، فنزلوا عند جبل أحد علىٰ شفير الوادي مقابل المدينة، فأقاموا بذلك يوم الأربعاء والخميس الثالث عشر من شوال سنة ثلاث من الهجرة، فرأىٰ النبي ﷺ في منامه أن في سيفه ثُلمةً، وأن بقرًا تذبح، وأنه أدخل يده في درع حصينة، فتأولها بأن نفرًا من أصحابه يقتلون، وأن رجلًا من أهل بيته يصاب، وأن الدرع الحصينة هي المدينة[1] أخرجه الإمام مسلم، فجرىٰ كل ذلك كما هو مذكور في كتب السيرة.

وروىٰ البيهقي عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**رأيت كأني مردفٌ**

---

(١) رواه مسلم بمعناه (٢٢٧٢).

كبشًا، وكأن ضبَّة سيفي انكسرت، فأوَّلتُ أني أقتل كبش القوم، وأن رجلًا من عِترتي يُقتل»[١]. فكان حمزة، وقَتل رسولُ اللَّه ﷺ طلحة صاحب اللواء، وقيل: قتله صاحب لواء المهاجرين.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ هما بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، كانا جناحي المعسكرين يوم أحد، ومعنىٰ ﴿أَن تَفْشَلَا﴾: أن تجبنا، فتكون عاقبتهما الفشل.

وفي البخاري[٢] عن جابر قال: فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ قال: نحن الطائفتان ـ بنو حارثة وبنو سليم ـ، وما نحب أنها لم تنزل لقول اللَّه ﷻ: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾، والهمَّ من الطائفتين كان بعد الخروج، لما رجع عبداللَّه بن أُبيٍّ بمن معه من المنافقين، فحفظ اللَّه قلوبهم، فلم يرجعوا، فذلك قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ يعني حافظ قلوبِهما عن تحقيق هذا الهمِّ.

وقيل: كان هذا حديث نفس منهم، خطر ببالهم، فأطلع اللَّه نبيه عليه فازدادوا بصيرة، ولم يكن ذلك الخور مكتسبًا لهم، فعصمهم اللَّه، وذم بعضهم بعضًا فنهضوا مع النبي ﷺ.

فمضىٰ الرسول حتىٰ أقبل علىٰ المشركين، وكان خروجه في المدينة في ألف، فرجع عنه عبداللَّه بن أُبي بن سلول بثلاثمئة مغضبًا، إذ خولف رأيه حين أشار بالقعود والقتال في المدينة إذ نَهض إليهم العدو، وكان رأيه موافقًا رأي النبي ﷺ، وأبىٰ ذلك أكثر الأنصار ـ كما سيأتي ـ.

وفي قوله سبحانه: ﴿طَّآئِفَتَانِ﴾ إشارة لطيفة إلىٰ الكناية عمن يقع منه ما لا يناسب، والستر عليه إذ لم يعين الطائفتين بأنفسهما، ولا صرح من هما من القبائل سترًا عليهما، وهذا من تعليمات القرآن

---

(١) رواه الحاكم (٣/٢١٩).
(٢) (٤٥٥٨).

السياسية. وقال ابن عباس: «أضمروا أن يرجعوا، فعزم اللَّه لهم علىٰ الرشد فثبتوا».

وهذا الهم غير مؤاخذين به؛ إذ هو ليس بعزيمة، وإنما هو حديث نفس من غير عزم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ معنىٰ الولاية هنا: التثبيت والنصر، وأن يجعلهما من أوليائه المتقين المثابرين علىٰ طاعته؛ ليكونوا من حزبه المنصورين المفلحين، واللَّهُ يجزي عباده علىٰ الإخلاص والاستقامة، جزاءً يعزهم به في الدنيا وينصرهم ويجعلهم في جواره في الفردوس الأعلىٰ يوم القيامة، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: من كان وليًّا للَّه فلا يفوض أمره إلا إليه، ولا يتوكل إلا عليه.

وقدم المجرور للاعتناء بمن يتوكل عليه، أو للاختصاص علىٰ مذهب من يرىٰ ذلك. اهـ.

وقد جاء لفظ التوكل عامًّا في الآية لتندرج الطائفتان الهامتان وغيرهما في هذا الأمر العظيم، وجعل متعلَّقه من قام بالإيمان علىٰ العموم.

واعلم أن التوكل لا يعني ترك الأسباب والركون إلىٰ مُسبِّبها، كما زعمه بعض الواهمين ممن لا يعرف حقيقة التوحيد، ومن قال بذلك فقد طعن في سنة المصطفي ﷺ؛ لأن اللَّه سبحانه يقول له: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩]، والغنيمة اكتساب، ويقول جل شأنه: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]. وهذا عمل، وفي الحديث: «**إن اللَّه يحبُّ العبد المحترف**»[١].

فالتوكل علىٰ اللَّه: الثقة به، والإيقان بنفوذ قضائه، واتباع سنة نبيه ﷺ في السعي والأخذ بالأسباب من مطعم ومشرب، وتحرز من

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «إصلاح المال» (٢٠٤).

عدو، وإعداد العدة، واستعمال ما تقتضيه سنة اللَّه الكونية المعتادة، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١﴾ [النساء]. فالتوكل يوجب النشاط في العمل، والبطولة في المقاومة، والاستعداد بكل المستطاع من حول وقوة دون الاعتماد عليها، بل يكون الاعتماد علىٰ اللَّه وحده.

فمن اعتمد علىٰ الوسائل والأسباب أو علىٰ حوله أو قوته؛ فقد انسلخ من التوكل، ومن عطل الوسائل والأسباب، ولم يأخذ بها فليس بمتوكل، ولا موحد للَّه؛ لأن حقيقة التوحيد لا تتم إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها اللَّه مقتضِيات لمسبباتها قدرًا وشرعًا.

وقوله سبحانه في الآية (١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧) من السورة: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢٣ إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ١٢٤ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦ لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ١٢٧﴾:

لما أمر اللَّه سبحانه المؤمنين بالتوكل، ذكَّرهم بما يوجب التوكل عليه، وأبان لهم نتائجه الطيبة، وهي ما مَنَّ عليهم ويسره لهم من النصر العزيز والفتح المبين يوم وقعة «بدر»، التي صفت بها نياتهم وكملت بها طواعيتهم للَّه ولرسوله، ولم يستبطنوا أحدًا من الكفار أو يصغوا إلىٰ أقوالهم، بل حققوا جميع ما يطلبه اللَّه منهم، وتوكلوا عليه حق التوكل، فنصرهم ذلك النصر المبين ـ علىٰ قلتهم وضعفهم ـ.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ﴾ يعني في أعين غيركم وإلا فهم أعزة بالإيمان وطاعة الرَّحمن، وأعزة في أنفسهم لما تلبسوا بحقيقة الإيمان والتوكل علىٰ اللَّه، ولكنهم كانوا بالنسبة إلىٰ عدوهم، وإلىٰ جميع

الكفار ليسوا بشيء، ولكن اللَّه رفع شأنهم بِهذه الوقعة المباركة التي أمدهم فيها بالملائكة الكرام، وقد جالدهم أعداؤهم وتبارزوا معهم، وكانوا أقوىٰ منهم في العدد والعُدَّة والخيول، مع أن اللَّه قد قللهم في أعين أعدائهم زيادةً علىٰ قلتهم، ليقضي اللَّه أمرًا كان مفعولًا، وليعلمهم أن النصر بيد اللَّه وليس للكثرة، ولا للقوة والشوكة، وإنما يكتبه اللَّه ويحققه لمن أخلص له، وصدق معه، وتوكل عليه، وحصر قصده في القتال لإعلاء كلمة اللَّه، وقمع المفتري عليه، لا لمقاصد نفسية أو نفعية، ولهذا نصرهم اللَّه في «بدر» وهم في حساب جميع الناس مغلوبون، ولكن النظرة المادية غير النظرة الروحية، ولهذا قال ﷻ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وقال ﷺ: «**اللَّهم إن تَهلِك هذه الطائفةُ؛ فلن تعبد في الأرض**»[1]. وسيأتي تفصيل عددهم، وكمال قصتهم في سورة الأنفال ـ إن شاء اللَّه تعالىٰ ـ.

وموقعة «بدر» من أقوىٰ الدلائل علىٰ أن العاقل لا يتوصل إلىٰ تحصيل مطلوبه وأغراضه إلا بالتوكل علىٰ اللَّه والاستعانة به، مع الأخذ بالأسباب اللازمة ـ كما أسلفنا ـ.

والمقصود من ذكر اللَّه لنصره للمسلمين يوم «بدر»، هو تأكيد قوله سبحانه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، وتأكيد قوله في شأن الطائفتين اللتين همتا بالفشل: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾، يعني من كان اللَّه ناصره ومعينه لا يصدر منه الفشل، ثم أتىٰ بقصة أهل «بدر»، فإنهم كانوا علىٰ غاية من الضعف والقلة أمام عيون أعدائهم وعيون الناس أجمعين، ولكن لما كان اللَّه ناصرًا لهم لم يضرهم ضعفهم الحسي؛ بل أمدهم اللَّه بروح معنوية من عنده وبجنود من ملائكته، فنالوا النصر، وفازوا بقهر خصومهم، حتىٰ صاروا مثلًا أعلىٰ بين الناس بإذن اللَّه.

وقوله ﷻ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، يأمر اللَّه عباده بالتقوىٰ؛

---

(١) رواه مسلم (١٧٦٣).

لأنه ملاك الأمر كله، فمن اتقىٰ اللَّه بحفظ حدوده، والاستقامة علىٰ طاعته، والصدق في محبته، والإخلاص في معاملته، والغيرة لحرماته؛ كان جديرًا بالقيام بشكره، والفوز بنصره، وبنيل وعده سبحانه، وهكذا يوجه اللَّه عباده لما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

وقوله سبحانه لنبيه الكريم ﷺ: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ دخلت أداة الاستفهام علىٰ حرف النفي علىٰ سبيل الإنكار، كأن الكفاية منتفية عندهم بِهذا العدد من الملائكة، وكأن حرف النفي «لن» ـ الذي هو أبلغ في الاستقبال من «لا» ـ مشعر بأنهم كانوا لقلتهم وضعفهم وكثرة عدوهم وقوة شوكته كالآيسين من النصر. وقوله: ﴿بَلَىٰٓ﴾ إيجاب لما بعد «لن»، يعني يكفيكم الإمداد بهم، وفي مصحف أُبي «ألا يكفيكم».

وقال ابن عطية: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ تقرير علىٰ اعتقادهم الكفايةَ في هذا العدد من الملائكة، من حيث كان الأمر واضحًا في نفسه أنه للملائكة. فبادر اللَّه سبحانه إلىٰ الجواب ليبني ما يستأنف من قوله عليه، فقال: ﴿بَلَىٰٓ﴾ وهي جواب المقرين، وهذا يحسن في الأمور المبينة التي لا محيد عن جوابها نحو قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩]. انتهىٰ كلامه بتصرف قليل.

وقال محمد بن أبي الفضل: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ جواب للصحابة حين قالوا: هلَّا أعلمتنا للقتال للتأهب؟ فقال لهما النبي ﷺ: «ألن يكفيكم؟»؛ وذلك لأنهم خرجوا في طلب العير، ولم يخرجوا لقتال صناديد قريش.

والكفاية هي مقدار سد الخلَّة، والإمداد: إعطاء الشيء حالًا، والفور: له عدة معان.

فقال ابن عباس ﴿مِّن فَوْرِهِمْ﴾: من سفرهم أو من وجههم، وقال

بعضهم: من نَهضتهم، والصحيح أنه من ساعتهم؛ لأن معناه يقتضي السرعة. وإسناد الإمداد إلىٰ لفظ ﴿رَبُّكُم﴾ دون غيره من أسماء اللَّه، فيه إشعار بحسن النظر لهم، والعطف بهم، وقوله: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ بفتح الواو وكسرها اشتقاقه من السومة وهي العلامة. وقيل: إن اللَّه سوَّمهم، أي جعلهم يجولون ويجرون للقتال، وفي وصفهم بذلك إشارة إلىٰ أنهم من أشرف الملائكة.

وقد ورد أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ سأل النبي ﷺ فقال: ما تعدون من شهد بدرًا؟ فقال: «**نعده من أفضلنا**»، فقال جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة»[1].

وأحسن ما قيل في علامتهم أنهم علىٰ خيل بُلق، وأن عليهم عمائم بيضًا، إلا جبريل فعمامته صفراء.

وعند العلماء خلاف وإشكال في هذه الآيات؛ حيث قال بعضهم: إنها نزلت في غزوة أحد، وإن الإمداد بالملائكة كان مربوطًا بالصبر والتقوىٰ، وذلك لم يحصل من أهله، فتوقف الإمداد.

وقال بعضهم: إن هذه الآيات نزلت في أهل «بدر»، وأنها معترضة هنا في قصة أهل «أحد»، وهذا هو الصحيح الذي لا مرية فيه، ولكن وقع لبعضهم إشكال في ذلك، ووجه الاستشكال هو أن اللَّه سبحانه ذكر في هذه السورة عدد الملائكة من ثلاثة آلاف إلىٰ خمسة آلاف، وقد ذكرها في سورة الأنفال ألفًا من الملائكة فقط، وهذا الإشكال يزول بحمد اللَّه من وجهين:

١ ـ أن اللَّه وعدهم أولًا بألف، ثم زادهم إلىٰ ثلاثة، ثم صارت خمسة، كما في هذه الآيات.

٢ ـ أن آية الأنفال ليس فيها ما يدل علىٰ قَصْرهم علىٰ الألف، بل فيها ما يفيد زيادتهم بكل جلاء ووضوح؛ وذلك أن سبحانه قال:

---

(١) رواه البخاري (٣٩٩٢).

﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، خصوصًا علىٰ قراءة نافع بفتح الدال، وقراءة نافع اختارها الإمام أحمد وأكثر العلماء، و«مردَفين» بفتح الدال ـ بصيغة «اسم المفعول» ـ أوضح بكثير؛ لأن معنىٰ «مردفين»: متبوعين بغيرهم، وهذا هو الحق يعني يتبع بعضهم بعضًا، وحتىٰ علىٰ القراءة بالكسر، قال فيه أبو حيان: فلا يخلو المكسور الدال أن يكون بمعنىٰ متبعين، أو متبَعين؛ فإن كان بمعنىٰ متبِعين، فلا يخلو أن يكون بمعنىٰ متبعين بعضهم بعضًا، أو متبعين بعضهم لبعض، أو متبعين إياهم المؤمنين، أي يتقدمونهم فيتبعون أنفسهم، أو متبعين لهم يشيعونهم ويقدمونهم بين أيديهم، وهم علىٰ ساقتهم[1]؛ ليكونوا علىٰ أعينهم وحفظهم، أو بمعنىٰ متبعين أنفسهم ملائكةً آخرين، أو متبعين غيرهم من الملائكة. ويعضد هذا الوجه قوله تعالىٰ في سورة آل عمران: ﴿بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾، ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾. انتهي نقله عن ابن عطية.

قال أبو حيان: وهذا تكثير في الكلام، وملخصه أن «اتَّبع» مشددًا يتعدىٰ إلىٰ واحد، و«أتبع» مخففًا يتعدىٰ إلي اثنين، وأردف أتىٰ بمعناهما. وقد فنَّد قوله: «أو متبعين إياهم المؤمنين»، ولسنا بحاجة إلىٰ نقل الخلاف اللغوي، ما دام المعنىٰ مستقيمًا؛ فإن ما في الأنفال، وما في آل عمران، يعضد بعضه بعضًا، ويفسر بعضه بعضًا، بدون تعارض ولا إشكال بحمد اللَّه سبحانه.

وعن علي بن أبي طالب ﵁ أنه خطب الناس فقال: بينا أنا أفتح من قليب «بدر» جاءت ريح شديدة لم أر مثلها قط، ثم ذهبت، ثم جاءت ريح شديدة لم أر مثلها قط، إلا التي كانت قبلها، قال: وأظنه ذكر، ثم جاءت ريح شديدة فكانت الريح الأولىٰ جبريل؛ نزل في ألف من الملائكة مع رسول اللَّه ﷺ، وكانت الريح الثانية ميكائيل؛ نزل

---

(١) **الساقة**: مؤخرة الجيش.

في ألف ثانية عن يمين رسول اللَّه، وكان أبو بكر عن يمينه، وكانت الريح الثالثة إسرافيل؛ نزل في ألف من الملائكة عن ميسرة رسول اللَّه ﷺ وأنا في الميسرة»[١].

وعن سهل بن حنيف قال: «رأيتنا يوم «بدر»، وإن أحدنا يشير بسيفه إلىٰ رأس المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه»[٢].

وعن الربيع بن أنس قال: «كان الناس يوم «بدر» يعرفون قتلىٰ الملائكة ممن قتلوهم بضرب فوق الأعناق وعلىٰ البنان، مثل سمة النار قد أحرق به». ذكر البيهقي جميع ذلك.

وقال أبو جهل لابن مسعود: «أنت قتلتني؟ إنما قتلني الذي لم يصل سناني إلىٰ سُنبك فرسه وإن اجتهدت».

ومما يدل علىٰ نزول الملائكة المذكورين في هذه السورة، وفي سورة الأنفال، قوله سبحانه في حق المؤمنين: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾، وهذا في وقعة «بدر» يعني ما جعل اللَّه هذا الإمداد إلا لتستبشر قلوبكم بالنصر فتنشطوا، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ أي لتسكن قلوبكم بالإمداد، ويذهب عنكم الروع؛ فلا تجبنوا عن القتال.

وقد أتىٰ اللَّه باللام في قوله: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ هو دون قوله: ﴿بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾؛ لأن فاعل البشرىٰ هو اللَّه، وفاعل «تطمئن» هو القلوب، واطمئنان القلوب يذهب الجزع والهلع، ويحل السكينة، والقوة المعنوية.

وقد ثبت الإمداد بالملائكة يوم «بدر» فقط، ولم يثبت في غيره بخبر صحيح يعتمد عليه إلا في غزوة الأحزاب، فقد أمدهم اللَّه بالريح وبجنود لم يروها ولم يعلمها إلا اللَّه، كما جاء في الآية (٩) من سورة الأحزاب، وقد أوضح اللَّه أن النصر ليس بإنزال الملائكة،

---

(١) رواه الحاكم (٤٤٨٨).
(٢) رواه الحاكم (٣/٤٦٣).

ولا بكثرة العدد والعدة، ولا بتدبير المكر، وإنما هو من اللَّه قضاء يقضيه حسب علمه وحكمته، ولهذا قال: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾، فحصر حصول النصر وكينونته في جهته سبحانه، فإنه لا يكون من كثرة المقاتلة ولا بإمداد الملائكة، وإنما الإمداد بهم تقويةٌ لرجاء النصر وتثبيتٌ لقلوب المؤمنين، وقد ذكر اللَّه وصفه بالعزة، وهو الوصف الدال علىٰ كمال القهر والغلبة، ووصفه بالحكمة، وهو الوصف الدال علىٰ وضعه سبحانه الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها اللائقة بها، من نصر وخذلان وغير ذلك.

وقد أنكر أبو بكر الأصم الإمداد بالملائكة، زاعمًا أن الملك الواحد يكفي لتدمير بلاد وإهلاك أمم، سالكًا مسلك القياس الفاسد الكائن مع وجود الفارق، وهو إهلاك قوم لوط، ولا يليق إنكار ما نص عليه وحي اللَّه ﷻ في غزوة «بدر»، وقد عارضه العلماء، وممن عارضه صاحب «روح المعاني»، فإنه قال: ولا يخفىٰ أن هذه الشبهة لا يليق إيرادها بقوانين الشريعة، ولا ممن يعترف أنه سبحانه قادر علىٰ ما يشاء، فعال لما يريد، فلا يليق بالأصم إلا أن يكون أخرس عن ذلك، إذ نَصّ القرآن ناطق بالإمداد، فكأن الأصم أصم عن سماعه، وأعمىٰ عن رؤية باعه.

وقد روىٰ عبد بن عمير قال: لما رجعت قريش من «أحد» جعلوا يتحدثون في أنديتهم بما ظفروا ويقولون: لم نر الخيل البُلق، ولا الرجال البيض الذين كنا نراهم يوم «بدر».

والتحقيق في هذا المقام ـ كما قاله بعض المحققين ـ أن التكليف ينافي الإلجاء، وأنه تعالىٰ شأنه وإن كان قادرًا علىٰ إهلاك جميع الكفار في لحظة واحدة بمَلَك واحد، بل بأدنىٰ من ذلك، بل بلا سبب، وهو قادر علىٰ أن يجبرهم علىٰ الإسلام ويقسرهم، لكنه سبحانه أراد إظهار هذا الدين علىٰ مَهَل وتدريج وبواسطة الدعوة وبطريق التكليف، فلا جرم أجرىٰ الأمور علىٰ ما أجرىٰ فله الحمد

علىٰ ما أولىٰ، وله الحمد في الآخرة والأولىٰ، وبِهذا يندفع كثير من الشبه.

وإهلاك قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ كان بعد انقضاء تكليفهم، وهو حين نزول البأس، فلا جرم أظهر اللّٰه القدرة، وجعل عاليها سافلها، وفي غزوة أحد كان زمان تكليف، فلا جرم أظهر الحكمة ليتبين الموافق من المنافق، والثابت من المضطرب، ولو أجرىٰ الأمور فيها كما أجرىٰ في «بدر» أشبه أن يفضي الأمر إلىٰ حد الإلجاء، ونافىٰ التكليف ونوط[1] الثواب والعقاب، ثم لا يخفىٰ أن الملائكة إما أجسام لطيفة نورانية، وإما أرواح شريفة نفسية، وعلىٰ التقديرين لهم الظهور في صور بني آدم من غير انقلاب العين وتبدل الماهية، كما قال ذلك العارفون من المحققين في ظهور جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ في صورة دحية الكلبي، ومثل هذا من وجه - وللّٰه المثل الأعلىٰ - ما صح من تجلي اللّٰه لأهل الموقف بصورة فيقول لهم: «**أنا ربكم**»؛ فينكرونه[2]، فإن الحكم في تلك القضية صادق، مع أن اللّٰه تعالىٰ وتقدس وراء ذلك، وهو سبحانه في ذلك التجلي باقٍ علىٰ إطلاقه حتىٰ عن قيد الإطلاق، ومن سلم بِهذا - ولا يسلمه إلا ذو قلب سليم - لم يشكل عليه الإمداد بالملائكة وظهورهم علىٰ خيول غيبية ثابتين عليها حسبما تقتضيه الحكمة الإلهية، ولا يلزم من هذا رؤية كل ذي بصر لهم لجواز إحداث أمر مانع عنها، إما في الرائي أو في المرئي، ولا مانع أنهم يُرون أحيانًا ويخفون أحيانًا، ويرىٰ البعض ويخفىٰ البعض، وزمام ذلك بيد العليم الحكيم، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، والشيء متىٰ أمكن وورد به النص عن الصادق المصدوق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجب قبوله، ومجرد الاستبعاد لا يجدي نفعًا، ولو ساغ التأويل لذلك لزم تأويل أكثر هذه الشريعة - بل الشرائع بأسرها -، وربما أفضىٰ ذلك إلىٰ أمر

---

(١) **نَوط**: تعليق.

(٢) رواه البخاري (٦٥٧٣).

عظيم، فالواجب تسليم كل ممكن جاء به النبي ﷺ، وتفويض تفصيل ذلك وكيفيته إلىٰ اللَّه تعالىٰ، انتهىٰ.

وأقول: لا ينبغي لأبي بكر الأصم أن ينكر إنزال الآلاف من الملائكة مستندًا علىٰ قوم لوط الذين أهلكهم ملكٌ واحد؛ لعدة أمور منها:

١ ـ أن اللَّه جعل لكل أمة أجلًا كما قال سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف]، وكما قال: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾ [الحجر]، فقوم لوط ممن انتهىٰ أجلهم، وحاق بهم الهلاك، فلا يجوز القياس عليهم.

٢ ـ أن اللَّه قد رفع عن أمة محمد ﷺ عذاب الاستئصال؛ لأن إرساله كان رحمةً للعالمين جميعًا، فلا يُهلك اللَّه من كفر من أمته بعذاب يستأصلهم، ولٰكنه شرع الجهاد تنكيلًا لهم علىٰ صدودهم عن اللَّه وتحكيمهم سواه في شؤون حياتهم، وجعل الحرب سجالًا بين المؤمنين والكافرين ليميز الخبيث من الطيب، ويظهر المنافقون نفاقهم، وقد اقتضت حكمته ورحمته ﷻ إمداد المؤمنين في واقعة «بدر» لقلتهم وعدم استعدادهم للقتال، ولكون أعدائهم خرجوا إليهم بطرًا وخيلاء ويراؤون الناس، ومعهم قوةٌ لا قِبَل لهم بها، فشفىٰ اللَّه صدورهم بِهذا الإمداد، وأخبرهم أن النصر منه سبحانه ليس من الملائكة، ولا من أي سبب مادي، ولكنه بالأسباب الروحية من طاعة اللَّه ورسوله، والشغف بذكر اللَّه والتعلق به، وعدم مخالفة ما رسمه لهم الرسول، ونحو ذلك من موجبات النصر التي لما لم يقوموا بها يوم «أحد»، حصلت عليهم الهزيمةُ تأديبًا من اللَّه، ولو لم يجعل الحرب سجالًا، ويقطع مدد الملائكة لاختلط الحابل بالنابل ولم يتميز المؤمن من المنافق، والخبيث من الطيب.

٣ ـ قد أبان اللَّه لنا أنه لو شاء انتصر من الكفار، ولكنه يريد امتحاننا؛ كما قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد]،

فأخبر عن مشروعية الجهاد أنه للامتحان وشحذ الهمم والتربية علىٰ الاستبسال، كما أسلفنا توضيحه في عدة مناسبات.

٤ ـ قال القرطبي: «نزول الملائكة سبب من أسباب النصر لا يحتاج إليه الرب؛ وإنما يحتاج إليه المخلوق، فليتعلق القلب باللّٰه وليثق به، فإنه الناصر بسبب أو بغير سبب: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس]، لٰكن أخبر بذلك لِيمتثل الخلق ما أمرهم به من الأسباب التي قد خلت من قبل، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣]، ولا يقدح ذلك في التوكل». انتهىٰ المقصود نقله.

وقد روىٰ حديث خارجة بن إبراهيم عن أبيه قال: قال رسول اللّٰه ﷺ لجبريل: **«مَن القائل يوم بدرٍ من الملائكة: «أقدم حيزوم»؟ فقال جبريل: يا محمد ما كلَّ أهل السماء أعْرف»**[1].

هذا وقد قطع اللّٰه كلام كل من يتساءل عن عدم الإمداد بالملائكة في غير يوم «بدر» بتأكيده أن النصر من عنده، لا بسبب الملائكة ولا غيرهم.

وقد يُمد اللّٰه المضطر والمكروب بملك أو ملائكة أو بما شاء من جنده علىٰ حسب قوة الإيمان والضراعة إليه بكلمات التوحيد النافعة، كما قال في شأن ذي النون: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾ [الأنبياء]، ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يونس]، وقد حصلت إغاثة اللّٰه لأفراد وجماعات كثيرة يصعب ذكرها هنا. وأما قول الآلوسي عن تجلي اللّٰه لعباده يوم القيامة، فنقول في ذلك: آمنا باللّٰه وبما جاء من اللّٰه علىٰ مراد اللّٰه دون خوض أو تفصيل.

٥ ـ أن اللّٰه جلت حكمته لما شرع جهاد الكفار وعدوانهم، وحرم علىٰ المسلمين أن يستبطنوا منهم أحدًا، ويجعلوه محل ثقة في أي

---

(١) انظر: «صحيح مسلم» (١٧٦٣).

شأن من شؤون الحياة؛ لم يحرضهم علىٰ مقابلة الغل والحقد من الكفار بمثله، بل أمرهم بالتقوىٰ التي تحملهم علىٰ التسامح والمعاملة بالعدل والإحسان، وأن يقوموا بالقسط، ولا تحملهم عداوة أحد علىٰ ترك العدل كما قال تعالىٰ في الآية (٨) من سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة]، وهذا هو الوحي الحق؛ لا ما هو في الأناجيل المحرفة، من حصر العدل علىٰ القريب فقط.

٦ ـ أن ما قاله أبو بكر الأصم من الشبهات حول نزول الملائكة لا يليق صدوره إلا ممن ينكر القرآن والنبوة، وأما المؤمن بذلك فلا يجوز أن يصدر منه مثل هذه الشبهة، وهو ـ بحمد اللّٰه ـ مؤمن بالقرآن والنبوة، ولكن شطح به رأيه، واللّٰه يغفر له.

وقوله سبحانه: في الآية (١٢٧): ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾: الطرف هو الجانب، أو القطعة وما أشبه ذلك.

والكبت في اللغة هو: صرع الإنسان علىٰ وجهه؛ لأنه يورث إما الهلاك أو الخزي والإذلال والهزيمة.

وأما الخيبة: فهي إفلاس الرجل مما يؤمله بانقطاع أمله.

واللام هنا في قوله: ﴿لِيَقْطَعَ﴾ هي لامُ «كي»، متعلقة بمحذوف تقديره: نصركم اللّٰه ليقطع طرفًا، ويدل عليه ما قبله من قوله: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، والأولىٰ أن تكون متعلقةً بأقرب مذكور، وهو ما تعلق به الخبر في قوله سبحانه: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ففي هذه الآية وما قبلها تعليلان:

١ ـ بالبشارة، والاطمئنان، وتقوية رباطة الجأش؛ وذلك في الإمداد بالملائكة.

٢ ـ تعليل النصر الذي يقدره اللّٰه بأنه لقطع الأطراف وهلاكها،

وقطع أطراف الشيء يوصل إلىٰ توهينه وإزالته، وذلك لأن الطرف هو أقرب العدو إلىٰ المؤمنين، وهم شجعان المحاربين وأشرافهم، فإن قالوا: الأطراف منازل الأشراف، فالمعنىٰ: ليُهلك صناديد الذين كفروا ورؤساءهم المتقدمين فيهم بالقتل والأسر والتنكيل والخزي والخذلان.

هذا؛ وإن «النصر» ـ المحلىٰ بالألف واللام ـ ليس للعهد في نصر مخصوص، بل هو للعموم، ومعنىٰ الآية: أن كل نصر من اللَّه للمؤمنين لا يكون إلا لأحد أمرين.

١ ـ قتل أطرافهم، المتبادرين لقتال المسلمين.

٢ ـ كبتهم بالخزي والإذلال والإهانة، حتىٰ ينقلبوا عائدين بالفشل قد انقطعت آمالهم وتقطعت بهم الأسباب.

والفرق بين الخيبة واليأس: هو أن الخيبة لا تكون إلا بعد الأمل، واليأس يكون قبله وبعده، ونقيض الخيبة: الظفر، ونقيض اليأس: الرجاء.

وفي بعض القراءات «يَكبِدهم»، ومعنىٰ «كَبَدَه»، أي أصاب كبده.

قال الراغب: الكبت الرد بعنف وتذليل، وقال غيره: هو شدة غيظ يقع في القلب علىٰ انقلاب المقصود. وقوله سبحانه: ﴿أَوْ﴾ للتنويع، لا للترديد، فالمعنىٰ أنه يقطع طرفًا وطائفةً، ويكبت طائفةً أخرىٰ، ويتوب علىٰ طائفة ويعذب طائفةً، كما تنص عليه الآية القادمة. وفي هذه الآية إيناس للمؤمنين وتقوية لرجائهم، وبعث لآمالهم، وتحقيق لها.

وقوله سبحانه في الآية (١٢٨) من السورة: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾:

هذه الآية الكريمة فيها التوقيف علىٰ أن جميع الأمور بيد اللَّه، ليس لأحد من خلقه فيها شيء ـ حتىٰ الأنبياء الدعاة إلىٰ صراطه ـ؛ فيدخل فيها إبقاء من يشاء علىٰ شركهم، وهداية من يشاء والتوبة

عليهم، مهما فعلوا من الشرك وإيذاء الرسول والمؤمنين. وقد ذكر بعض المفسرين أنها نزلت في دعائه ﷺ علىٰ من شَجُّوا رأسه وكسروا رَباعيتَه في غزوة «أحد». وقال بعضهم: إنها نزلت في دعائه علىٰ الذين قَتلوا القراء في بئر معونة. ويجوز أنها نزلت في كلتا الواقعتين، فقد علق البخاري في «صحيحه» عن أنس، ووصله الإمام أحمد والترمذي والنسائي عن حميد عن أنس، ووصله الإمام مسلم عن ثابت عن أنس قال: «شُجَّ النبي ﷺ يوم «أحد» وكُسِرت رباعيته فقال: «**كيف يُفلح قومًا شجُّوا نبيهم؟**»[(١)]، فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، وقد قام يدعو عليهم كأنه يئس من فلاحهم، ومال إلىٰ أن يستأصلهم اللَّه ويريحه منهم، فنزلت هذه الآية إعلامًا له بأنه كسائر البشر ليس له من الأمر شيء، وأن رسالته لا تجعل له ميزةً علىٰ غيره فيما يتعلق بأمر اللَّه وإرادته ومشيئته، وأن عواقب الأمور كلها بيد اللَّه، فهو سبحانه مالك أمرهم، إما أن يُهلكهم، أو يهزمهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن استمروا علىٰ الشرك وأصروا عليه، فليس لك من أمرهم شيء يا محمد؛ إلا أن يتوب اللَّه عليهم بالإسلام، فتقر عينك وتظل مسرورًا بهداهم، أو يعذبهم اللَّه بالقتل والأسر والذلة والهوان في الدنيا، فتستشفي بذلك وتستريح، فليس لك من الأمر شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم، من دعوتهم وقتالهم، وقد تاب اللَّه عليهم، فأسلموا وحسن إسلامهم.

وفي هذا كله معنىٰ شهادة أن لا إله إلا اللَّه الذي له الأمر كله، يهدي من يشاء بفضله ورحمته، ويضل من يشاء بعدله وحكمته، فإذا كان نبي اللَّه وخيرته من خلقه ليس له من الأمر شيء، إلا ما أمره اللَّه به من دعوة الناس إلىٰ إخلاص العبادة للَّه الذي له الأمر كله، فالمسلمون ـ أيضًا ـ ليس لهم من الأمر إلا ما أمرهم اللَّه به من تبليغ

---

(١) رواه مسلم (١٧٩١).

الدعوة والإخلاص في ذلك.

وفي هذا من الحجج والبراهين ما يبين بطلان معتقد عُبَّاد القبور فيما يسمونهم بـ«الأولياء الصالحين» من أنهم ينفعون مَن دعاهم، ويمنعون من لاذ بهم، وأن لهم جاهًا ومقامًا، فهل هم أفضل من نبيه محمد ﷺ، وأعظم جاهًا وأشرف مقامًا؟ هذا محمد لما دعا علىٰ أعدىٰ أعدائه الذين أغاظوه، قال له اللَّه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.

ولهذا نجد اللَّه سبحانه من بداية هذه الآيات وهو يبين للمؤمنين أن النصر من عنده، وأنه تعالىٰ هو مُسبِّب الأسباب لحصول النصر إذ يقول: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾، وهذا لتركيز العقيدة.

إن الذي نصرهم هو اللَّه لحكمةٍ نص عليها، وهي أن يقطع طرفًا من الذين كفروا، أو يكبتهم فينقلبوا خاسرين، فينبغي للمسلمين المؤمنين أن يستيقنوا أنه لا ناصر لهم من أنفسهم ولا من سواهم، وأنهم مهما استعدوا بالقوة المادية، وحالفهم بعض دول الكفر لمقاصد سياسية فيهم، أو في خصمهم، أو فيمن يُسند خصمهم، فإن كل هذا ليس إلا أسبابًا يقدرها اللَّه سبحانه، والسبب لا تأثير له في حصول المقصود[١]، وإنما النصر والخذلان بيد اللَّه، يقدرهما كيف يشاء؛ فعليهم أن يتدرعوا بتقوىٰ اللَّه وخشيته، ويقوموا بشكره شكرًا عمليًّا باستعمال نعمه في طاعته، فهو الذي يملك النصر، وهو الذي له القوة جميعًا والسلطان، فإذا ما حصلوا علىٰ تقوىٰ اللَّه وشكره فالنصر حليفهم بإذنه ﷻ؛ فمَردُّ الأمر كله إليه، والفاعلية كلها منه.

ولهذا لم يعتمد رسوله ﷺ يوم «بدر» علىٰ البشرىٰ بإمداد الملائكة،

---

(١) بل السبب له تأثير، والمقصود أنه لا يستقل بالتأثير، ولا يؤثر إلا بتقدير اللَّه وجعله مؤثِّرًا.

بل أكثر الضراعة إلىٰ اللَّه بالدعاء، ليُنجز له ما وعده من إحدىٰ الطائفتين، فوعد اللَّه له لم يُزِلْ تعلُّقَه به، وهذا تعليم منه لأمته كي لا يَعلقَ في تصورهم ما يشوب تلك القاعدة الأصيلة، قاعدة رد الأمر كله إلىٰ مشيئة اللَّه وإرادته التي لا يحول دونها شيء، وهذه الآيات كلها تركز هذه القاعدة العظمىٰ، وتنحي جميع الأسباب والوسائل أن يكون لها تأثير في حصول النصر أو الهزيمة ليكون المسلم مرتبطًا باللَّه وحده، لا يستمد القوة من دولة كافرة، ولا ترهبه أي قوة من دول الكفر ما دام يعتقد أن القوة للَّه جميعًا، وأن النصر بيده، بل تبقىٰ الصلة المباشرة بينه وبين اللَّه.

وبهذه التوجيهات القرآنية انتفع سلف الأمة حيث رسخ ذلك في أخلاقهم، فقاتلوا أكبر دول العالم في وقت واحد؛ دون أن يستعينوا بواحد منها علىٰ حرب الآخر، بل قصروا استعانتهم علىٰ اللَّه وحده.

وقوله سبحانه في الآية (١٢٩) من السورة: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾:

الآية تؤكد قوله سبحانه قبلها: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، فالأمر إنما يكون لمن له الملك، والملك كله للَّه، والأمر فيه للَّه وحده.

وناسَبَ البراءة بالغفران والإرداف بالعذاب ما تقدم في الآية السابقة من قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾، ولم يشترط في الغفران التوبة؛ لأن الغفران يكون للذنوب لا للشرك؛ فإن القاعدة مستقرة علىٰ أن اللَّه ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وما ذكره الزمخشري عن الحسن أنه لا يغفر إلا للتائبين، فإنه لا يصح بتاتًا لمخالفته النصوص المعتمدة عند أهل السنة.

والزمخشري إنما تعلق به لموافقة مذهب «الاعتزال»، ولكن للذنوب مكفِّرات غير التوبة؛ كإقامة الحدود، وحصول الأمراض والبلايا، ودعاء الأقارب، وعمل الحسنات الماحية من الصدقات الجارية... إلخ.

قال ابن جرير في تفسير هذه الآية: يعني بذلك ـ تعالىٰ ذكره ـ: ليس لك ـ يا محمد ـ من الأمر شيء، ولله جميع ما بين أقطار السماوات والأرض من مشرق الشمس إلىٰ مغربها، دونك ودونهم؛ يحكم فيهم بما شاء، ويقضي فيهم ما أحب، فيتوب علىٰ من أحب من خلقه العاصين أمره ونَهيه، ثم يغفر له، ويعاقب من شاء منهم علىٰ جرمه فينتقم منه.

«الغفور» الذي يستر ذنوب من أحب أن يستر ذنوبه من خلقه بفضله عليهم بالعفو والصفح، «الرحيم» بهم في تركه عقوبتهم عاجلًا علىٰ عظيم ما يأتون من المآثم. اهـ.

وقوله سبحانه في الآيتين (١٣٠، ١٣١) من السورة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾:

اعلم أن مناسبة اعتراض النهي عن أكل الربا أثناء قصة «أحد» هي أن الله سبحانه لما نَهَىٰ المؤمنين عن اتخاذ بطانة من غيرهم، واستطرد لقصة «أحد»، وقد كانت أكثر معاملات الكفار مع أمثالهم ومع المؤمنين هي الربا، وهذه المعاملة مؤدية إلىٰ مخالطة الكفار، لذا نَهَىٰ الله المؤمنين عن أكل الربا لعدة أمور:

١ ـ حتىٰ لا يخالطوا الكفار بسبب تلك المعاملة، لا سيما والمسلمون أول الإسلام ذوو إعسار، والكفار من اليهود والمشركين ذوو يسار.

٢ ـ لبيان أن أكل الربا والمال الحرام من المعاصي الكبيرة التي تحول دون النصر.

٣ ـ ولبيان أن أكل الحرام سبب في عدم قبول الأعمال الصالحة، وفي عدم استجابة الدعاء.

وقد قيل: إن وجه المناسبة أنه سبحانه لما قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وأوضح أن ما فيها ملك للّٰه، لا يجوز لأحد أن يتصرف في شيء إلا بإذنه، وعلىٰ الوجه الذي شرعه، وآكل الربا متصرف في مال اللّٰه بغير الوجه الذي أمر به، فنبه اللّٰه سبحانه علىٰ ذلك، ونَهَىٰ المسلمين عما كانوا في الإسلام مستمرين عليه من أعمال الجاهلية.

والأضعاف: جمع ضِعف، وضعف الشيء مِثله، وضعفاه مِثلاه.

فإذا قال: [له] ضعف العشرة، لزم أن يجعلها عشرين بلا خلاف. ولو قال: له عليَّ ضِعف درهم، لزمه درهمان.

قال ابن جرير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ﴾ أي في إسلامكم، بعد أن هداكم اللّٰه عما[1] كنتم تأكلونه في جاهليتكم، وكان أكلهم في جاهليتهم أن الرجل منهم يكون له علىٰ الرجل مالٌ إلىٰ أجل، فإذا حل الأجل وطلبه من صاحبه، يقول له الذي عليه المال: أخِّر عليَّ دينك وأزيدك علىٰ مالك، فيفعلان ذلك، فذلك هو الربا أضعافًا مضاعفةً، فنهاهم اللّٰه في إسلامهم عنه.

ثم ذكر الروايات في ذلك، ومن أمثلها: ما رواه عن ابن زيد قال: كان أبي ـ أبو زيد العالم الصحابي الجليل ـ يقول: إنما كان الربا في الجاهلية في التضعيف وفي السن، يكون للرجل فضل فيأتيه إذا حل الأجل فيقول: تقضي أو تزيدني؟ فإذا كان عنده شيء يقضيه قضاه، وإلا حوله إلىٰ السن الذي فوق ذلك، إن كانت ابنةَ مخاض ـ في السنة الأولىٰ ـ يجعلها ابنةَ لبُون ـ في السنة الثالثة ـ، ثم حِقَّةً، ثم جَذَعةً، ثم رَباعيًّا، ثم هكذا إلىٰ فوق.

وفي العين «النقود» يأتيه فإن لم يكن عنده أضعفه في العام القابل، فإن لم يكن عنده أضعفه ـ أيضًا ـ، فتكون مئةٌ فيجعلها مئتين إلىٰ قابل، فإن لم يكن عنده جعله أربَعَمِئة يضعفها له في كل سنة أو يقضيه، قال: فهذا قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ﴾.

---

(١) في المطبوع: «كما»! والظاهر أنها تحريف، واللّٰهُ تعالىٰ أعلم.

فكلام ابن زيد هو في الربا الفاحش المعروف في هذا الزمان بالمُرَكَّبِ.

وذكر ابن حجر المكي في «الزواجر»: أن الربا في الجاهلية كان الإنساءُ فيه بالشهور؛ فإنه قال بعد ذكره لأنواع الربا: وربا النسيئة هو الذي كان مشهورًا في الجاهلية؛ لأن الواحد منهم كان يدفع ماله لغيره إلىٰ أجل علىٰ أن يأخذ منه كل شهر قدرًا معينًا، ورأس المال باقٍ بحاله، فإذا حلَّ طالَبه، وإن تعذر عليه الأداء زاده في الحق والأجل. وتسمية هذا نسيئة ـ مع أنه يصدق عليه ربا الفضل أيضًا ـ؛ لأن النسيئة هي المقصودة منه بالذات، وهذا النوع مشهور الآن وواقع بكثرة. انتهىٰ المقصود نقله.

وليس في الربا نوع تعبدي لا يعقل معناه، كما قاله بعض الفقهاء، والصواب ما قاله ابن القيم في «الأعلام»: الربا نوعٌ جليٌّ وخفي، فالجلي حرُم لما فيه من الضرر العظيم، والخفي حرم لأنه ذريعة إلىٰ الجلي، فتحريم الأول قصد، وتحريم الثاني وسيلة.

فأما الجلي فربا النسيئة، وهو الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية مثل: أن يؤخِّر دَينه ويزيده في المال، وكلما أخره زاده في المال، حتىٰ تصير المئة آلافًا مؤلفةً، وفي الغالب لا يفعل ذلك إلا معدم محتاج، فإذا رأىٰ المستحق يؤخر مطالبته، ويصبر عليه بزيادة يبذلها له، تكلف بذلها ليفتدي من أسر المطالبة والحبس، ويدافع من وقت إلىٰ وقت، فيشتد ضرره وتعظم مصيبته، ويعلوه الدَّيْنُ حتىٰ يستغرق جميع موجوده، فيربو المال علىٰ المحتاج من غير نفع يحصل له، ويزيد مال المرابي من غير نفع يحصل منه لأخيه، فيأكل مال أخيه بالباطل، ويحصل أخوه علىٰ غاية الضرر.

فمن رحمة اللَّه أرحم الراحمين وحكمته وإحسانه إلىٰ خلقه أن حرم الربا، ولعن آكله ومُوكِلَه وكاتبه وشاهديه، وآذن من لم يدعه بحربه وحرب رسوله، ولم يجيء مثل هذا الوعيد في كبيرة غيره،

ولهذا كان من أكبر الكبائر. اهـ.

وقوله سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، هذه وصية من اللَّه لعباده المؤمنين، أن يتقوا اللَّه في المحتاجين من أهل البؤس، فلا يحمِّلونهم أثقال الدَّين بالربا، بل يرحمونهم بالقرض الحسن والإمهال إلىٰ الإيسار من غير تضعيف الدين. فاتقاؤهم اللَّه في إخوانهم المسلمين يحصل به وقاية أنفسهم من غضب اللَّه، وعقوباته العاجلة والآجلة.

ثم فسر اللَّه حقيقة ما يتقي منه المتقون فقال: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ قساة القلوب فاسدي الضمائر؛ فقد توعد اللَّه أكلة الربا بالنار التي أعدت للكافرين؛ لأن جريمتهم أشد من جرائم العصاة الذين يستحقون نار العصاة؛ ذلك أن النار سبع طبقات أعلاها نار جهنم للعصاة، والخمس التي تحتها للكفار بجميع أنواعهم، وسابعها الدرك الأسفل للمنافقين، فأكلة الربا يعذبون بنار الكافرين لا بنار العصاة.

وفي هذا أكبر تهديد من اللَّه للمؤمنين، وأعظم تخويف لهم، والعذاب هذا في حالة عدم استحلال الربا، فأما الذي يستحله فهو كافر تجري عليه أحكام المرتدين في الدنيا، وقد يكون عذابه في الآخرة عذاب المنافقين في الدرك الأسفل من النار.

وكان أبو حنيفة يقول: هي أخوف آية في القرآن، أوعد اللَّه المؤمنين بالنار المعَدَّة للكافرين إن لم يتقوه باجتناب محارمه.

📖 **وقوله سبحانه في الآية (١٣٢) من السورة:** ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾:

فيه الأمر الصريح من اللَّه لعباده بطاعته وامتثال جميع أوامره، فإن الأمر بطاعته يقتضي الأمر بفعل المأمور، واجتناب المحظور.

والأمر بطاعة رسوله تبعًا لطاعته فإنه المبلِّغ عنه، وطاعته طاعة

للَّـه، كما قال سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر].

وقوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾، أي تنالون رحمة اللَّـه التي كتبها للمؤمنين المتبعين لما جاء به النبي الكريم؛ فإنَّ حرف «لعل» للترجي، فلا يؤتىٰ بها إلا مع إتيان الأسباب التي يرجىٰ بها حصول ما ينفع.

وقوله سبحانه في الآية (١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦) من السورة: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾:

يحض اللَّـه سبحانه عباده المؤمنين في هذه الآيات علىٰ الأعمال الصالحة النافعة التي ينالون بها حظوظهم العالية عنده ﷻ، ويطلب منهم المسارعة إليها.

والمسارعة: المبادرة إلىٰ فعل أسباب المغفرة ودخول الجنة، وما يعده الإنسان لنيلهما من التوبة النصوح.

وقدم اللَّـه ذكر المغفرة علىٰ الجنة؛ لأنها السبب الموصل إليها، وتشبيه اللَّـه عرض الجنة بعرض السماوات والأرض تشبيه حقيقي؛ لأنهما أوسع ما علمه الناس من مخلوقاته. وخص اللَّـه العرض بالذِّكر؛ لأنه في العادة أدنىٰ من الطول، ولأن ذكر العرض يدل علىٰ ضخامة الطول، بخلاف ذكر الطول، فإنه لا يدل علىٰ ضخامة العرض، إذ قد يكون العرض قليلًا جدًّا.

وقوله سبحانه: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: هُيِّئَتْ، وفي هذا دليل علىٰ أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان خلافًا للمعتزلة.

وقد وصف اللَّه المتقين بصفات خمس رئيسية، وكلها نفسانية ومن أعمال القلوب التي لها أعظم الأثر في حياة العبد، وفي موازينه يوم القيامة، وهذه الصفات الخمس هي:

١ ـ ﴿يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾، يعني ينفقون في العسر واليسر والرخاء والفرح والترح[1]. ولما كان المال أعز شيء علىٰ النفوس، كان إنفاقه أشق شيء علىٰ النفس، وأكبر دليل علىٰ الإخلاص، وتمكن التقوىٰ في القلوب؛ لا سيما وأن المتقين ينفقونه في حال الشدة والرخاء ابتغاء مرضاة اللَّه، فلم تُبْطرهم السراء فتلهيهم عن القيام بالواجب، ولم تُضْجرهم الضراء فتقنِّطهم وتنسيهم الواجب، ولكن شعورهم مرهف يقظ في كل حال، فهم متحررون من الحرص والشح لقوة تقواهم ومراقبتهم للَّه.

٢ ـ ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾: الممسكين لما في أنفسهم من الغيظ بالصبر والتحمل، فلا يظهر لهم أثر لا بقول ولا بفعل.

والغيظ: أصل الغضب، وكثيرًا ما يتلازمان، لكن الغيظ فعل نفساني لا يظهر علىٰ الجوارح، والغضب يظهر علىٰ الجوارح، ولذلك أسند الغضب إلىٰ اللَّه؛ إذ هو من أفعاله في المغضوب عليهم، ولا يسند الغيظ إليه سبحانه.

قال المبرد: تأويل الغيظ: أنه كتمٌ علىٰ امتلاء منه، يقال: كظمت السقاء إذا ملأته، وسددت عليه.

وقال الراغب: الغيظ أشد الغضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من حرارة قلبه. اهـ.

والغيظ يعتري الإنسان إذا هُضم حقٌّ من حقوقه المادية كالمال، أو

---

(١) الترح: الحزن.

المعنوية كالشرف، فتنزعج لذٰلك نفسه، فيدفعها إلىٰ التشفي والانتقام. ومن اندفع في الغيظ لم يقف عند حد الاعتدال، بل يتجاوزه إلىٰ البغي، ولذلك كان كظمه من التقوىٰ.

وقد وردت فيه أحاديث كثيرة:

منها قوله ﷺ: «**ما من جُرعةٍ يتجرعها العبد خيرًا وأعظم أجرًا من جرعة غيظ في اللّٰه**»(١).

وقوله: «**من كظم غيظًا وهو يقدر علىٰ إنفاذه؛ ملأه اللّٰه أمنًا وإيمانًا**»(٢).

وقد أخرج الإمام أحمد عن أنس مرفوعًا: «**من كظم غيظًا ـ وهو قادر علىٰ أن ينفذه ـ، دعاه اللّٰه علىٰ رؤوس الخلائق حتىٰ يخيره من أي الحور شاء**»(٣).

والغيظ: انفعال نفسي قوي لا يندفع ولا يكظم إلا بقوة روحية من التقوىٰ المسيطرة علىٰ النفوس.

وينبغي أن يُعلم أن كظم الغيظ الممدوح هنا هو فيما يتعلق بأمور الدنيا فقط، أما فيما يتعلق بالدين والعقيدة وانتهاك محارم اللّٰه، فلا يجوز كظم الغيظ فيه، بل يجب الغضب عند ذلك، وهو من أوجب الواجبات الذي تبذل فيه النفوس والأموال، وقد كان النبي ﷺ لا يغضب إلا إذا انتهكت حرمات اللّٰه ﷻ(٤)، أو حصل من أصحابه ما يمس العقيدة، كقراءة عمر بن الخطاب لأوراق من التوراة(٥)؛ حرصًا منه ﷺ علىٰ حصر مَنهَل المسلمين علىٰ القرآن حتىٰ لا تختلط عليهم السبل.

---

(١) رواه أحمد (١/٣٢٧).
(٢) رواه أبو داود (٤٧٧٨).
(٣) رواه أبو داود (٤٧٧٧)، والترمذي (٢٠٢١)، وابن ماجه (٤١٨٦).
(٤) رواه مسلم (٧٩).
(٥) رواه أحمد (٣/٣٨٧).

٣ ـ العفو في قوله: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾، فالعفو عن الجُناة والمسيئين من أعظم ضروب الخير إذا لم يكن فيه إخلال بالدين وانتهاك لحرمات اللَّه وحدوده.

وفي ذكر اللَّه العفو عن الناس بعد كظم الغيظ، إشارةٌ عامة إلىٰ أن كظم الغيظ لا يكفي لنظافة القلوب من الإحَن[1] والأحقاد؛ بل لابد أن يستتبع ذلك بالعفو؛ ليحصل التسامح الذي يطهر القلب وينقيه من الحقد.

وقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: الألف واللام للجنس، فيعم كل محسن ويكون المتصفون بِهذه الأوصاف من أهل الإحسان المحبوبين إلىٰ اللَّه بطريق الأولىٰ. وأفضل أنواع الإحسان هو الإحسان إلىٰ المسيء، وقد ورد في الأثر: «**الفضل أن تصلَ من قطعك، وتعطيَ من حرمك، وتعفوَ عمن ظلمك**»[2].

واعلم أن الإحسان إلىٰ الغير: إما أن يكون بإيصال النفع إليه، ويتمثل بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾. وإما أن يكون بدفع الضرر عن الغير، ويتمثل بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾.

٤، ٥ ـ بعد أن ذكر اللَّه الصفات الثلاثة للمتقين الأبرار الذين هم من الدرجة الأولىٰ في كمال التقوىٰ وحسن الطاعة، وأعقبها بذكر صفتين لمن هم دونهم ممن قارف المعاصي وأقلع وتاب عنها، فقبل اللَّه توبتهم ورفعهم إلىٰ مرتبة المتقين؛ قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾، والفاحشة تطلق علىٰ كل معصية كبيرة، وشاع استعمالها في الزنا.

---

(١) **الإحن**: الضغائن.

(٢) رواه البيهقي (١٠/٢٣٥).

وقد وردت في التوبة أحاديث كثيرة صحيحة نقتصر منها علىٰ ما يلي:

ما رواه البخاري ومسلم عن أبي حمزة أنس بن مالك رضي الله عنه - خادم رسول اللَّه ﷺ - قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لَلَّهُ أفرحُ بتوبة عبده من أحدكم سقط علىٰ بعيره وقد أضله في أرض فلاة**»[1].

وفي «صحيح مسلم» عن عبداللَّه بن قيس الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إن اللَّه يبسُط يده بالليل ليتوب مسيءُ النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيءُ الليل حتىٰ تطلع الشمس من مغربها**»[2].

وفي البخاري عن أبي هريرة قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**واللَّهِ إني لأستغفر اللَّه وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[3].

وفي رواية مسلم: «**يا أيها الناس توبوا إلىٰ اللَّه؛ فإني أتوب في اليوم إليه مئة مرة**»[4].

والاستغفار: طلب المغفرة من اللَّه باللسان مع حضور القلب، فأما مجرد النطق دون حضور القلب وتأثره، فهو كالاستخفاف والاستهزاء باللَّه.

وكل دعاء فيه معنىٰ الاستغفار فهو استغفار، إلا أنه صح أن سيد الاستغفار قوله ﷺ: «**اللَّهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتَني وأنا عبدُك، وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذُ بك من شر ما صنعت، أبوءُ لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي؛ إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها من النهار موقنًا بها فمات من يومه قبل أن يُمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح فهو**

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٧).
(٢) رواه مسلم (٢٧٥٩).
(٣) رواه البخاري (٦٣٠٧).
(٤) رواه مسلم (٢٧٠٢).

من أهل الجنة»[1]. رواه البخاري.

وقوله: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ استفهام إنكاري؛ يعني: لا أحد يغفر الذنوب، ويعفو عنها إلا اللَّه ﷻ، فلا ملجأ ولا ملتجأ من اللَّه إلا إليه، فهو الذي يلطف بعبده وينتشله من شركات الشرور.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، الإصرار: العزم بالقلب علىٰ الأمر وترك الإقلاع عنه.

وفي الأثر: «لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار»[2].

قال سهل بن عبداللَّه: «الجاهل ميت، والناسي نائم، والعاصي سكران، والمصرُّ هالك، والإصرار هو التسويف، والتسويف أن يقول: غدًا أتوب، وهذا دعوىٰ النفس كيف يتوب غدًا وغدًا لا يملكه؟!».

والصحيح أن الإصرار هو نية عدم التوبة، فمن نوىٰ التوبة النصوح خرج من الإصرار، ولكن قول سهل هو الأحوط.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا توبة مع إصرار**»[3].

فالإصرار علىٰ المعصية الصغيرة يجعلها كبيرة، وبالتالي فإن نفس المصر تأنس المعاصي، وتزول منها هيبة اللَّه فتجرؤ علىٰ فعل الكبائر.

وقوله ﷻ: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، أي أن المتقين لا يصرون علىٰ ما فعلوه من ذنب وهم يعلمون قبحه والنهي عنه والوعيد عليه، ويعلمون أن لهم ربًّا يغفر الذنوب، فلا يمكن أن يحصل منهم الإصرار أبدًا مع العلم بذلك، وقد أخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يحكيه عن ربه ﷻ قال: «**أذنب عبدٌ ذنبًا فقال: اللَّهم اغفر لي ذنبي، فقال اللَّه ﷻ: أذنب عبدي ذنبًا، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب،**

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٦).
(٢) رواه القضاعي في «مسند الشهاب» (٨٥٣).
(٣) انظر السابق.

ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي ربي فاغفر لي»، فذكر مثله مرتين، وفي آخره: «**اعمل ما شئت فقد غفرت لك**»[1]، وآخر الحديث أمر بمعنىٰ الإكرام في أحد الأقوال كقوله تعالىٰ: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ [الحجر: ٤٦].

ومن هذه الآيات يتبين بشكل قاطع أن المؤمنين علىٰ ثلاث طبقات: متقون، وتائبون، ومصرون.

وأن الجنة عظيمة العرض للمتقين والتائبين منهم دون المصرين، ومن خالف هذا كان من المكابرين، إلا أن المصرين إذا لم يكن إصرارهم علىٰ الكبائر، ولم يكن إصرارهم مانعًا لهم من الأعمال الصالحة الأخرىٰ التي يرجىٰ فيها محو السيئات؛ فهم ليسوا من أهل الخلود في النار.

وقد يشغِّب بعض الجهال والملاحدة ـ بصورةٍ خاصة ـ في قضية عرض الجنة، فيقولون: إذا كانت الجنة عرضها السماوات والأرض؛ فأين موضع النار؟ وهذا من الجهل والحماقة والغرور، وذلك أن ما عند اللَّه من سعة الأكوان لا تكون الأرض والسماوات فيهما إلا كحلقةٍ ملقاة في فلاة من الأرض كما أوضحنا ذلك في تفسير آية الكرسي، وللَّه الحمد والمنة، وفي حديث أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**ما السماوات السبع والأَرَضون السبع في الكرسي إلا كدراهمَ أُلقيت في فلاة من الأرض، وما الكرسيُّ في العرش إلا كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض**»[2]. فهذه مخلوقات أعظم بكثير جدًّا من السماوات والأرض، وقدرة اللَّه أعظم من ذلك كله.

وفي الصحيح: «**إن أدنىٰ أهل الجنة منزلةً من يتمنىٰ ويتمنىٰ؛ حتىٰ إذا انقطعت به الأمانيُّ قال اللَّه تعالىٰ له: لك ذلك وعشرةُ أمثاله**»[3].

---

(١) رواه مسلم (٢٧٥٨).
(٢) رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٥١٠).
(٣) رواه البخاري (٨٠٦).

وقال يعلىٰ بن مرة: لقيت التَّنوخي رسول هرقل إلىٰ النبي ﷺ بحمص شيخًا كبيرًا، قال: قدمت علىٰ رسول اللَّه ﷺ بكتاب هرقل، فتناول الصحيفة رجل عن يساره، قال: قلت: من صاحبكم الذي يقرأ؟ قالوا: معاوية، فإذا كتاب صاحبي: إنك كنت تدعو إلىٰ جنة عرضها السماوات والأرض فأين النار؟ قال رسول اللَّه ﷺ: «**سبحان اللَّه! فأين الليل إذا جاء النهار**»[1]؛ وبمثل هذه الحجة استدل عمر بن الخطاب علىٰ اليهود حين قالوا له بمثل سؤال هرقل، فقالوا له: لقد نزعت بما في التوراة.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا كانت السماوات السبع، والأرضون السبع بالنسبة إلىٰ الكرسي كدراهم ألقيت في فلاة الأرض، والكرسي بالنسبة إلىٰ العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة، فالجنة الآن علىٰ ما هي عليه في الآخرة، عرضها كعرض السماوات والأرض، إذ العرش سقفها ـ حسبما ورد في صحيح مسلم ـ، ومعلوم أن السقف يحتوي علىٰ ما تحته ويزيد، إذا كانت المخلوقات كلها بالنسبة إليه كالحلقة، فمَن ذا الذي يقدره ويعلم طوله وعرضه إلا اللَّه خالقه الذي لا نهاية لقدرته، ولا غاية لسعة مملكته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟! اهـ.

قلت: وبِهذا يسقط سؤال العارضين من الجهال والملحدين؛ لأنه إذا كانت جميع العوالم والمخلوقات بالنسبة لسعة ما عند اللَّه من المُلك كالذرة الصغرىٰ في يد أحدنا ـ واللَّه أعلىٰ وأجل ـ؛ فإن عنده من سعة الملك ما يجعل فيه النار وأضعافها.

والذنوب التي يُتاب منها إما كفر أو معاصي، فالتوبة من الكفر الدخول في الإسلام، ومجانبة الكفار ومعاداتهم، والبراء منهم وجهادهم تحت القيادة الإسلامية.

وأما المعاصي:

---

(١) رواه أحمد (٣/٤٤١).

ـ فنوعٌ منها يتعلق بحقوق اللّه، فالتوبة منه الإقلاع عنه مع الندم، ومحوه بالأعمال الصالحة، وأداء ما يترتب عليه من الكفارة.

ـ ومنها ما يتعلق بالمخلوقين، فالتوبة منه إيصاله إلىٰ مستحقيه، فإن لم يوجدوا فليتصدق عنهم، والمعسر عن ذلك أمره إلىٰ اللّه.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلىٰ الصنفين الماضية صفاتهم، فإن اللّه سبحانه كتب علىٰ نفسه ـ تفضلًا منه ـ أمانهم من العقاب وحصولهم علىٰ الثواب.

فأمانهم من العقاب ما أشار إليه بقوله: ﴿مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾.

وأما حصول الثواب ففي قوله: ﴿وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

وقد اطردت الآيات في وصف الجنة بأنها تجري من تحتها الأنهار لكمال اللذة والبهجة والسرور.

ثم إنه سبحانه ذكر الخلود في الجنة لتمام النعمة وكمال السرور، والخلود: دوام البقاء علىٰ حياتهم في الجنة بدون موت يعتريهم، فيحرمهم من حياتها.

ثم ذكر سبحانه سبب حصولهم علىٰ هذا الجزاء الكريم، بأنه الأعمال الصالحة، فقال: ﴿وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾، ولا يتنافىٰ هذا مع قوله ﷺ: «**لن يَدخل الجنةَ أحدٌ بعمله**»[1]؛ لأن المنافي هو المعاوضة لا السبب.

وقد توافرت الأدلة علىٰ أن سبب دخول الجنة هو الأعمال.

وعن شهر ابن حوشب: «طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء الشفاعة ممن لا يطاع حمق وجهالة».

---

(١) رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

وعن الحسن: «يقول اللَّه يوم القيامة: جوزوا الصراط بعفوي، وادخلوا الجنة برحمتي، واقتسموها بأعمالكم».

وروي أن اللَّه أوحىٰ لموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ما أقلَّ حياء من يطمع في جنتي بغير عمل! كيف أجود برحمتي علىٰ من يبخل بطاعتي؟!».

📖 **وقوله سبحانه في الآية (١٣٧، ١٣٨) من السورة:** ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾:

بعد أن حض اللَّه عباده علىٰ تحصيل الجنان، عَرَّج بهم علىٰ قصة أهل «أحد» ليربطهم بمن قبلهم من الأمم، فيفهمهم أنهم ليسوا بدْعًا من البشر، وأنه ليس لهم نظام خاص غير ما لعباده المؤمنين في كل زمان ومكان، ويشير سبحانه في هذه الآيات إلىٰ سننه الجارية في المكذِّبين علىٰ مدار التاريخ.

والمقصود بـ«السنن» في هذه الآية هي الأمم، قال الشاعر:

ما عاين الناسُ من فضلٍ كفضلهمو ... ولا رأوا مثلهم في سالفِ السُّننِ

و«السنن» جمع «سنة»، وهي الطريق المستقيم، وفلان علىٰ السنة: أي علىٰ طريق الاستواء لا يميل إلىٰ شيء من الأهواء.

قال الهذلي:

.... **فأوَّلُ راضٍ سُنةً من يسيرُها**

والسنة: الإمام المُتبع يقال: سَن فلان سنةً.

قال لبيد:

.... **ولكل قوم سنةٌ وإمامها**

والمعنىٰ: أنه إن ظهر عليكم الكفار يوم «أحد» فإن حسن العاقبة للمتقين وإن أديل الكفار، فالعاقبة للمؤمنين، وكذلك كفاركم هؤلاء عاقبتهم الهلاك مثل قوم عاد وثمود وقوم فرعون وغيرهم، والخطاب

هنا للمؤمنين.

وقال النقاش: إن الخطاب للكفار؛ لقوله بعد ذلك: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ يقصد بذلك المؤمنين، والمعنىٰ: تقدمت ومضت، والسير في الأرض للنظر في عواقب الأمم المكذبة مندوب إليه نصًّا، ولذا قال سبحانه: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي إيضاح لسوء عاقبة المكذبين، وفي هذه الآية إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾؛ كما قال ابن إسحاق وابن جرير، وهي إشارة خاصة، وإلا فالإشارة العامة إلىٰ القرآن، فإن فيه البيان الكافي لما يحتاج إليه الناس من أمور دينهم ودنياهم.

ولفظ «الناس» يفيد العموم؛ وخصوصًا المكذبين منهم عليهم أن ينظروا في عاقبة أسلافهم ليعتبروا بذلك.

وأما قوله: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فالهدىٰ: بيان طريق الرشد، وتمييزه من طريق الغي والهلاك، وبالتالي سلوك طريق الرشد وترك طريق الغي المُهلك.

وأما الموعظة: فهي ما يحصل بها تليينُ القلب وترقيقه، فتدعوه إلىٰ التمسك بأداء الأوامر، وتزجره عن فعل النواهي.

ولما كانت الموعظة والهدىٰ لا يكونان إلا للمتدرع بالتقوىٰ خص اللَّه المتقين بذلك، وأضاف الموعظة والهدىٰ للمتقين دون سواهم.

قوله سبحانه في الآية (١٣٩) من السورة: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩)﴾:

إن اللَّه سبحانه لما ربط المسلمين بسالف البشرية، وأيقظهم إلىٰ سوء عاقبة المكذبين في الآية السابقة؛ ليعلموا أن ما أصاب الأسلاف سيصيب الأخلاف، ويحتملوا المشقات من كل ناحية وخصوصًا في الحروب، أعقب ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾، والوهن هو: الضعف في العمل أو في الرأي، أو في الأمر، وأما الحزن: [فهو] ألمٌ إذا فقدت النفس ما تحبه، أو أصابها ما تكرهه، والمعنىٰ: لا تضعفوا

عن القتال ولا عن مستلزماته من الرباط والاستعداد، والعزم علىٰ مواصلة المواجهة لما أصابكم من تسلط أعدائكم وتفوقهم عليكم وإثخانهم لكم بالجراح وسلاطة اللسان، ولا تحزنوا لما أصابكم من القَرْح في الهزيمة وقتل الأقران ـ يعني الذين استشهدوا من إخوانهم وذلك في غزوة «أحد» ـ؛ لأنه لما قتل اللَّه أشراف قريش وصناديدها في وقعة «بدر»، وأصيبوا بمصيبة لم يصابوا بمثلها طيلة حياتهم، ترأس فيهم أبو سفيان بن صخر بن حرب لذهاب أكابرهم، وجاء إلىٰ أطراف المدينة في غزوة السويق، ولم ينل ما في نفسه، أخذ يؤلِّب علىٰ رسول اللَّه ﷺ وأصحابه، فجمع قريبًا من ثلاثة آلاف من قريش وحلفائها والأحابيش، وجاءوا بنسائهم لئلا يفروا بل يحاموا عنهن، ثم أقبل نحو المدينة ونزل قريبًا من «أحد» بمكان يقال له: «عينين»، وحينئذ استشار النبي ﷺ أصحابه: أيخرج إليهم أم يمكثُ في المدينة؟.

وكان الرأي أن لا يخرجوا، وأن يتحصنوا بها، ووافقه علىٰ هذا الرأي عبداللَّه بن أُبي ابن سلول رئيس المنافقين، ولكن بادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاتهم الخروج يوم «بدر»، وأشاروا عليه بالخروج بكل إلحاح، فلم يكن النبي ﷺ يستشيرهم ليعصيهم؛ بل نزل علىٰ رغبتهم، وإن كانت مخالفة للصواب، فنهض ودخل بيته، ولبس لأمَته للحرب، وقد انثنىٰ عزم أولئك، وقالوا: أكرَهْنا رسول اللَّه ﷺ علىٰ الخروج، فقالوا له حينئذ: إن أحببت أن تمكث في المدينة فافعل، فقال: «**ما ينبغي لنبيٍّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتىٰ يحكم اللَّه بينه وبين عدوه**».

فخرج في ألف رجل من الصحابة، فلما صار بالشوط بين المدينة وأحد، انعزل عبداللَّه بن سلول بنحو ثلث الجيش وقال: تخالفني وتسمع من غيري؟ فأخذ يعذل به عبداللَّه بن حرام والد جابر، ويقول: تعالوا قاتلوا في سبيل اللَّه أو ادفعوا، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون

لم نرجع، فرجع عنهم وشتمهم، وسأل قوم من الأنصار الرسول أن يستعينوا بحلفائهم من يهود، فأبىٰ وسلك بهم حَرَّة بني حارثة، وطلب من يسلك الطريق الأخضر والأخفىٰ علىٰ العدو، فخرج به بعض الأنصار، حتىٰ سلك في حائط لبعض المنافقين، وكان أعمىٰ، فقام يحثو التراب في وجوه المسلمين ويقول: لا أحل لك أن تدخل في حائطي إن كنت رسول اللَّه، فابتدره القوم ليقتلوه فقال ﷺ: **«لا تقتلوه، هذا أعمىٰ القلب أعمىٰ البصر»**[١].

ونفذ رسول اللَّه ﷺ؛ حتىٰ نزل الشِّعب من «أحد» في عروة الوادي، وجعل ظهره إلىٰ «أحد» ونَهَىٰ الناس عن القتال حتىٰ يأمرهم.

فلما أصبح يوم السبت تعبأ للقتال وهو في سبعمئة، فيهم خمسون فارسًا، واستعمل علىٰ الرماة عبداللَّه بن جبير، وأمره وأصحابه أن يلزموا مركزهم ولا يفارقوه ولو رأوا الطير تتخطف العسكر، وكانوا خلف الجيش، وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنبل لئلَّا يأتوا المسلمين من ورائهم.

وظاهر رسول اللَّه ﷺ بين درعين، وأعطىٰ الراية مصعب بن عمير، وجعل علىٰ إحدىٰ المجنبتين الزبير بن العوام، وعلىٰ الأخرىٰ المنذر بن عمرو، واستعرض الشبان يومئذٍ؛ فردَّ من استصغره عن القتال، كعبداللَّه بن عمرو وأسامة بن زيد وأسيد بن ظهير والبراء بن عازب ونحوهم، ممن لا طاقة له في القتال، وإن كان بالغًا، وتعبأت قريش للقتال بعددهم الضخم وفيهم مئتا فارس، علىٰ ميمنتهم خالد بن الوليد، وعلىٰ الميسرة عكرمة بن أبي جهل، ودفع رسول اللَّه ﷺ سيفه إلىٰ أبي دجانة سماك ابن خرشة لبطولته، واحتياله في الحرب.

وكان أول من بدر من المشركين أبو عامر الفاسق، رأس الأوس في الجاهلية الذي شرق بالإسلام وهرب إلىٰ قريش، وأخذ يؤلبهم ويعدهم

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٣/٥٧)، (٤/١١).

بمساعدة قومه، وقد تعرف علىٰ قومه فقالوا: لا أنعم اللَّه بك عينًا يا فاسق، فخيبوا ظنه، ثم قاتل المسلمات قتالًا شديدًا، وكان شعارهم يومئذ، «أمت أمت»(١)، وأبلىٰ يومئذ أبو دجاجة، وطلحة بن عبداللَّه، وحمزة أسد اللَّه ورسوله، وعلي بن أبي طالب، وأنس بن النضر، وسعد بن الربيع بلاءً حسنًا.

وكان النصر أول النهار للمسلمين علىٰ الكفار، فانهزم عدو اللَّه، وولىٰ مع قومه مدبرين حتىٰ انتهوا إلىٰ نسائهم، فلما رأىٰ الرماةُ هزيمتهم تركوا مركزهم الذي أمرهم النبي ﷺ بحفظه، وعدم مفارقته مهما كلف الأمر، وهذه هي المعصية التي عاقبهم اللَّه عليها بقوله: ﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وذلك طمعًا منهم بالغنيمة، فذكَّرهم أميرهم عهد رسول اللَّه ﷺ فلم يسمعوا، وظنوا أن المشركين لا يرجعون، فذهبوا للغنيمة، وأخلوا الثغر، فاستبقه فرسان المشركين حتىٰ أحاطوا بالمسلمين، فأكرم اللَّه سبعين من المسلمين بالشهادة، وانهزموا، وخلص المشركون إلىٰ رسول اللَّه ﷺ، فجرحوا وجهه وكسروا رباعيته، وهشموا البيضة علىٰ رأسه، ورموه بالحجارة حتىٰ وقع لشقه ﷺ، فأخذ عليٌّ بيده واحتضنه طلحة ابن عبيد اللَّه، وكان الذي تولىٰ أذاه عمرو بن قمئة وعتبة بن أبي وقاص.

وقُتل مصعب بن عمير بين يديه، فدفع اللواء إلىٰ علي، ونشبت حلقتان من حلق المغفر في وجهه، فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح، وعضَّ عليهما حتىٰ سقطت ثنيتاه من شدة غوصهما في وجهه، وامتص مالك بن سِنان ـ والد أبي سعيد الخدري ـ الدم من وجنته، وأدركه المشركون يريدون ما اللَّه حائل بينهم وبينه، فحال دونه نفر من المسلمين نحو عشرة، حتىٰ قتلوا، وجالدهم طلحة حتىٰ أجهضهم

(١) رواه أبو داود (٢٥٩٦).

عنه، وترَّس أبو دجاجة بظهره، والنبل يرشُقُه ولا يتحرك، وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان، فردها عليه رسول اللَّه ﷺ بيده، فكانت أصح عينيه وأحسنهما.

وصرخ الشيطان بأعلىٰ صوته: إن محمدًا قد قتل، ووقع ذلك في قلوب كثير من المسلمين ففروا، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، ومر أنس ابن النضر بقوم قد ألقوا بأيديهم، فقال لهم: ما تنتظرون؟ فقالوا: قتل رسول اللَّه ﷺ! فقال: ما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا علىٰ ما مات عليه. ثم استقبل الناس، ولقي سعد بن معاذ، فقال: يا سعد، إني لأجد ريح الجنة من دون أُحُد. فقاتل حتىٰ قُتل، ووجد به سبعون ضربةً، وجُرح يومئذ عبدالرَّحمن ابن عوف عشرين جرحةً، وأقبل رسول اللَّه ﷺ نحو المسلمين، وكان أول من عرفه تحت المغفر كعب بن مالك رضي الله عنه، فصاح بأعلىٰ صوته: يا معشر المسلمين، هذا رسول اللَّه، أبشروا. فأشار بيده أن اسكت.

واجتمع إليه المسلمون، ونَهضوا معه إلىٰ الشعب الذي نزل فيه، وفيهم أبو بكر وعمر وعلي والحارث بن الصِّمة الأنصاري، وغيرهم، فلما استندوا إلىٰ الجبل أدرك رسولُ اللَّه ﷺ أبيَّ بن خلف علىٰ جواد له يقال له «العود» زعم أنه يقتل عليه الرسول ﷺ، فلما اقترب منه تناول رسول اللَّه ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة، فطعنه بها، فجاءت في ترقوته، فكرَّ عدو اللَّه راجعًا فقال له المشركون: واللَّه ما بك من بأس! فقال: واللَّه لو كان ما بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعين[1]! فمات في رجوعه لمكة. وحمل حنظلة علىٰ أبي سفيان ليقتله، فقتله دونه شداد بن أوس، فأخبر الرسول ﷺ أصحابه أن الملائكة تغسله، وقال: «**سلوا أهله عن شأنه**»، فقالوا: إنه سمع الصيحة، فقام وهو جُنُب[2].

---

(١) رواه عبد الرازق (٩٧٣١)، والحاكم (٢/٣٥٧).

(٢) انظر السيرة النبوية (٤/٢٣).

وقَتل المسلمون حامل لواء المشركين، فرفعته لهم امرأة فاجتمعوا عليه.

وأسلم حينئذ عمرو بن ثابت، المعروف بالأصيرم من بني عبد الأشهل، وقاتل لصالح الإسلام حتىٰ قُتل، وشهد له الرسول ﷺ بالجنة، ولما انقضت الحرب نادىٰ أبو سفيان المسلمين قائلًا: أفيكم محمد؟ أفيكم ابن أبي قحافة؟ أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه، ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم. قال: أما هؤلاء فقد كفيتم، فلم يملك عمر نفسه أن قال: يا عدو اللَّه، إن الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقىٰ اللَّه لك ما يسوؤك. ثم قال أبو سفيان: أُعْلُ هبل، فقال النبي ﷺ: «**ألا تجيبونه؟**» قالوا: فما نقول؟ قال: «**قولوا: اللَّه أعلىٰ وأجل**». ثم قال: لنا العزىٰ ولا عزىٰ لكم. قال: «**ألا تجيبونه؟**» قالوا: فما نقول: قال: «**قولوا: اللَّه مولانا ولا مولىٰ لكم**». فأمرهم بجوابه عند افتخاره بآلهته الشركية، تعظيمًا للتوحيد وإعلانًا بعزة من عَبَدَهُ المسلمون، وقوة جانبه، وأنه لا يغلب من هو حزبه ﷻ، ولم يأمرهم بإجابته حين سأل عن الثلاثة الأشخاص، بل قد روي أنه نهاهم حتىٰ اشتد غضب عمر، فأجابه بجواب فيه من الإذلال له ولقومه، ومن الشجاعة وعدم الجبن للمسلمين، فإن في التعرف إلىٰ العدو في تلك الحال ما يؤذيه ببسالتهم، وأنهم لم يهنوا ولم يضعفوا، وأنه وقومه جديرون بعدم الخوف منهم، وأن اللَّه أبقىٰ لهم ما يسوؤهم منهم؛ فإن في ترك إجابته أولًا حين سأل عنهم إهانةً له وتصغيرًا لشأنه، فلما منَّته نفسه قتلهم وظن أنهم ماتوا، وحصل له من الكبر والأشر ما حصل، كان في جوابه صدمةٌ له وصفعةٌ معنويةٌ وإذلالٌ له، فلا أحسن من ترك إجابته أولًا ولا أحسن من إجابته ثانيًا.

ثم قال أبو سفيان: «يوم بيوم بدر والحرب سجال»، فقال له عمر: لا سواء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار[1].

---

(١) رواه البخاري (٣٠٣٩).

وفي «الصحيحين» عن سعد بن أبي وقاص، قال: «رأيت رسول اللَّه ﷺ يوم أُحد ومعه رجلان يقاتلان، عليهما ثياب بيض، كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد»(١).

وقد اشتملت غزوة أُحُد علىٰ فوائد عظيمة من الفقه والحكم والأحكام؛ منها:

١ ـ أن الجهاد يلزم بالشروع فيه؛ فمن لبس ملابس الحرب، وشرع في أسبابه، وتأهب للخروج إليه، ليس له أن يرجع حتىٰ يقاتل، وقيل: إن هذا خاص بالنبي؛ لقوله ﷺ المتقدم: «**ما كان لنبيٍّ إذا لبس لأْمَتَه أن يرجع**».

٢ ـ أنه لا يجب علىٰ المسلمين إذا طرقهم عدوهم في ديارهم أن يخرجوا له، بل يتحصنوا فيها، ويقاتلوه خير من بروزهم له، كما حصل في المشورة.

٣ ـ جواز سلوك الإمام بالعسكر في بعض أملاك رعيته، إذا كان أقصر للطريق أو أقصد للسير، وإن لم يرض المالك.

٤ ـ أنه لا يؤذن للصبيان غير البالغين في القتال، وكذلك من لم يطقه من البالغين.

٥ ـ جواز الغزو بالنساء والاستعانة بِهن.

٦ ـ جواز الانغماس في العدو والتعمق في صفوفه، كما فعل أنس بن النضر وغيره.

٧ ـ منع الاستعانة بالكفار، كما منع الرسول ﷺ بعض الأنصار أن يستعينوا بحلفائهم من يهود.

٨ ـ جواز دعاء الرجل أن يقتل في سبيل اللَّه، وليس هذا من تمني الموت الممنوع؛ لقول عبداللَّه بن جحش: «اللَّهم لقِّني رجلًا من

---

(١) رواه البخاري (٤٠٥٤)، ومسلم (٢٣٠٦).

المشركين عظيمًا كفره، شديدًا حرده ـ أي غيظه ـ فأقاتله، فيقتلني فيك، ثم يجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك قلت: يا عبد، فيم جدعت؟ قلت: جدعت فيك يا رب»[١].

٩ ـ أن المسلم إذا قتل نفسه فهو من أهل النار، لقوله ﷺ في «قزمان» الذي أبلىٰ يوم أحد بلاء شديدًا، فلما اشتد به الجراح نحر نفسه فقال ﷺ: **«هو من أهل النار»**[٢].

١٠ ـ أن الشهيد لا يغسل ولا يكفن ولا يصلىٰ عليه، بل يدفن في ثيابه وجروحه.

١١ ـ أنه إذا كان جنبًا يغسَّل كما غسلت الملائكة حنظلة بن أبي عامر.

١٢ ـ دفن الشهداء في مصارعهم فلا ينقلون إلىٰ غيرها؛ لأن قومًا من الصحابه نقلوا قتلاهم إلىٰ المدينة، فنادىٰ منادي رسول اللَّه ﷺ بردِّهم إلىٰ مصارعهم.

١٣ ـ جواز دفن الرجلين أو الثلاثة في قبر واحد، وتقديم أقرأهم للقرآن، ودفن المتحابين في اللَّه جميعًا، كما دُفن عبداللَّه بن حرام وعمرو بن الجموح رضي الله عنهما في قبر واحد، لما بينهما من المحبة.

١٤ ـ أن المسلمين إذا قتلوا واحدًا منهم يحسبونه كافرًا فعلىٰ الإمام دفع ديته من بيت المال؛ لأن النبي ﷺ أراد أن يدفع دية اليمان أبي حذيفة رضي الله عنه حين قتله المسلمون غلطًا، فامتنع حذيفة من أخذها وتصدق بها علىٰ المسلمين.

١٥ ـ وقد جعل اللَّه سبحانه في هذه الواقعة من الحكم والفوائد السياسية والروحانية، والغايات المحمودة ما انتفع وينتفع به المسلمون المؤمنون إلىٰ يوم القيامة، وقد أشار اللَّه إليها فيما يقرب من خمسين

---

(١) رواه الحاكم (٢/٨٦).
(٢) رواه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١١٢).

آية من هذه السورة المباركة:

- فمنها: تربية المسلمين تربيةً روحانيةً لا تشوبها المادة أبدًا، حيث أذاقهم سوء عاقبة المعصية، وشُؤم ارتكاب النهي لما وقع من ترك الرماة موقعهم الذي أمرهم النبي ﷺ ألَّا يغادروه مهما كانت الحالة، فغادروه طمعًا في المادة.

- ومنها: أن من أعلام الرسل أن تبتلىٰ، وتكون لها العاقبة، كما قال ملك الروم لأبي سفيان في تساؤله معه عن محمد ﷺ: «هل قاتلتموه؟ قال: نعم، قال: كيف الحرب بينكم وبينه؟ قال: سجال تدال عليه ويدال علينا الأخرىٰ، قال الملك: كذلك الرسل تبتلىٰ ثم تكون لها العاقبة».

- ومنها: أن في تأخير النصر في بعض الوقائع هضمًا للنفس وكسرًا لشماختها، فلما ابتلي المؤمنون بذلك صبروا وجزع المنافقون.

- ومنها: أن اللَّه ﷻ هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته، لا تبلغها أعمالهم، فقيض لهم أسباب الابتلاء والمحن ليصلوا إليها.

- ومنها: أن الشهادة من أعلىٰ مراتب الأولياء، فاقتضت حكمته أن يتخذ منهم شهداء، وساقها إليهم ليكونوا من خواصه المقربين من عباده، وليس بعد درجة الصديقية إلا الشهادة التي يراق بها دماء أوليائه في محبته ومرضاته لإيثارهم ذلك علىٰ محبة نفوسهم، ولا سبيل إلىٰ هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها، من تسليط الأعداء وقد حصل ذلك.

- ومنها: أن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنىٰ طغيانًا وركونًا إلىٰ الدنيا، وهذا مرض يعوقها عن الجد في سيرها إلىٰ اللَّه والدار الآخرة، فإذا أراد اللَّه أن يرحمها قيض من الابتلاء والامتحان ما يكون دواءً لهذا المرض العائق عن السير الحثيث إليه.

- ومنها: استخراج اللَّه عبودية أوليائه في السراء والضراء، وتربيتهم

علىٰ ذلك فيما يحبون وفيما يكرهون من الأحوال، في حال ظفرهم وانكسارهم، فإذا ثبتوا علىٰ الطاعة والعبودية في جميع أحوالهم، كانوا عبيده حقًّا، وليسوا ممَّن يعبداللَّه علىٰ حرف واحد من السراء، فإن أصابته مصيبة انقلب علىٰ وجهه والعياذ باللَّه.

١٦ - ومن الفوائد السياسية: أن المسلمين لو انتصروا دائمًا لدخل فيهم من ليس منهم من المنافقين والانتهازيين ونحوهم، ولم يتميز الصادق من الكاذب؛ لأن حقيقة ما في الضمائر لا يعلمها إلا اللَّه، ولو كان الخذلان حظ المسلمين دائمًا لما حصل المقصود من الرسالة ونشر الدين؛ فاقتضت حكمة اللَّه أن يجمع لهم بين الأمرين ليتميز من يتبعهم لما جاؤوا به من الحق والهدىٰ ممن يتبعهم علىٰ الغلبة والظهور خاصة، وبهذا يُعلم المؤمن الصادق من المنافق الكاذب.

فإن المسلمين لما أظهرهم اللَّه علىٰ عدوهم يوم «بدر» وطار لهم الصيت، دخل معهم في الإسلام ظاهرًا من ليس منهم في الحقيقة، بل يبطن الكفر، وهذا من الصعب معرفته، فاقتضت حكمة اللَّه أن سبَّب لعباده محنةً ميزت بين المؤمن والمنافق لتنكشف الحقيقة للمؤمنين، فأطلع المنافقون رؤوسهم في هذه الغزوة وتكلموا بما كانوا يكتمونه من قبل، وأظهر اللَّه مخبآت ضمائرهم، وعاد تلويحهم تصريحًا، وانقسم الناس إلىٰ مؤمن وكافر ومنافق واضح لا شبهة فيه، وعرف المؤمنون أن لهم عدوًّا في دورهم لا يفارقهم، فاستعدوا لهم وتحروا عنهم، قال سبحانه: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. يعني ما كان اللَّه ليذركم علىٰ ما أنتم عليه من الالتباس، التباس المؤمن بالمنافق حتىٰ يميز أهل الإيمان من أهل النفاق، كما ميزهم بالمحنة يوم «أحد» تمييزًا انكشفت به الحقائق، وما كان اللَّه ليطلعكم علىٰ الغيب الذي يميز به هؤلاء وهؤلاء، فإنهم متميزون في علمه وغيبه؛ لأنه سبحانه لا تخفىٰ عليه خافية، ولكنه يريد أن يميزهم

تمييزًا مشهودًا ليجعل معلومه الغيبي شهادةً واضحةً بين الناس.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ استدراك لما نفاه من اطلاع خلقه على الغيب، كما قال سبحانه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن]، فحظكم أنتم وسعادتكم في الإيمان بالغيب الذي يطلع عليه رسله، فإن آمنتم به واتقيتم كان لكم أعظم الأجر والكرامة.

فهذه نبذة من قصة «أحد» - تلك الواقعة العظيمة الشأن - ذكرتها ليعلم حقيقتها المنصبغون بأكاذيب القوميين الذين يخدعون الناس بدعاياتهم، ويقيسون هزائمهم أمام اليهود بدون قتال ولا نصر مبدئي وتسليمهم الأرض غنيمةً باردةً لليهود على وقعة «أحد»، وإنه قياس فاسد لوجود الفوارق الكثيرة، إذ إن المسلمين يوم «أحد» جاهدوا الأعداء حتى هزموهم كما هو واضح، ولم تجر عليهما النكبة إلا بسبب إخلاء الرماة للثغر الذي وصاهم رسول اللّه ﷺ بالثبات فيه وعدم مفارقته مهما كانت الحالة، ومع هذا فقد حصلت مقاومتهم للعدو؛ حيث تراجع بعضهم وثبتت القيادة، وعلى رأسها الرسول ﷺ حتى جرى عليه ما جرى، بخلاف القوميين الذين لم يحضر رؤساؤهم ساعة الوغى، وقادتهم أسرع منهم في الهزيمة، فشتان ما بين الوقعتين، ولكنه الدجل والتضليل الذي جعل بعض الأعاجم ينخدع به.

وقد أنزل اللّه سبحانه في هذه الوقعة بِهذه السورة ما يقرب من خمسين آية، أو ستين آية، كلها للارتفاع بالمؤمنين عن الهزيمة النفسية، وأولها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾، يعني: لا تضعفوا - معشر المسلمين وأصحاب محمد - بالذي نالكم من عدوكم يوم «أحد» بالقتل والجراح، ولا تأسوا فتجزعوا على ما أصابكم من المصيبة يومئذ، فإنكم الأعلون، أي الظاهرون المتفوقون عليهم دائمًا بإذن اللّه، فإن لكم العاقبة الحسنة في النصر والظفر؛ إن استقمتم على الإيمان واستيقنتم صدق ما

توعدون به، فواصلتم جهاد عدوكم في سبيل اللَّه.

وساق ابن جرير حديثًا بإسناده عن الزهري قال: كثر في أصحاب محمد ﷺ القتل والجرح، حتىٰ خلص البأس إلىٰ كل رجل منهم، فأنزل اللَّه ﷻ القرآن، فآسىٰ فيه المؤمنين بأحسن ما آسىٰ به قومًا كانوا قبلهم من الأمم الماضية، فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحۡزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾، إلىٰ قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٥﴾ [آل عمران].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾: أي الغالبون بعد وقعة «أحد»، فلم يخرجوا بعد ذلك إلا ظفروا في كل عسكر كان في عهده ﷺ، وفي كل عسكر كان بعده، ولو لم يكن فيه إلا واحد من الصحابة كان الظفر لهم، وهذه البلدان إنما فتحت علىٰ عهد أصحاب رسول اللَّه ﷺ ثم بعد انقراضهم ما افتتحت بلدة كما كانوا يفتتحون.

وفي هذه الآية دليل علىٰ فضل هذه الأمة؛ لأن اللَّه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه، إذ قال لموسىٰ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [طه: ٦٨]، وقال لهذه الأمة: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾، وهذه اللفظة مشتقة من اسمه الأعلىٰ، فهو العلي الأعلىٰ، وقال للمؤمنين: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ اهـ.

ولقد صدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ وَوفّق للصواب؛ فإن المسلمين الآمنين لم تنهزم لهم راية، ولم تكسر لهم شوكة بعد وقعة «أحد»، لا في حياة النبي ﷺ ولا بعد وفاته، إلا ما كان في وقعة الجسر حين خالف قائدهم وصاية عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، ألّا يعبر بالمسلمين الجسور.

وما حصل للمسلمين في ضواحي «باريس» حين خالفوا وصية قائدهم «عبدالرَّحمن الغافقي الأزدي» بألّا يلتفتوا إلىٰ جمع الغنائم عند انتصارهم علىٰ عدوهم.

وقوله سبحانه في الآية (١٤٠، ١٤١) من السورة: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾:

في هذه الآيات هداية ثانية وثالثة ورابعة تقيهم من الهزيمة النفسية والفكرية، واللتان هما أعظم وأفظع وأخطر من كل هزيمة عسكرية؛ ذلك أن الهزيمة العسكرية وحدها تدمي قلوب الرجال، وتذكي فيهم روح النقمة، وتكشف لهم ما في صفوفهم من خليط النفاق ومرض الجبن والإرجاء؛ إذا سلمت نفوسهم من سكرة الشهوة والهوىٰ، وسلمت عقولهم من مؤثرات الإيهام والتضليل، وقلب الحقائق وفساد التصور الناشئ عن الغزو الفكري.

وقد أرشد اللَّه ﷻ المسلمين بعدما رباهم في وقعة «أحد» إلىٰ أسباب الهزيمة وعوامل النصر، ووجههم إلىٰ ما يصونهم ويرفعهم عن الهزيمة النفسية؛ وذلك [في] الآيات من (١٣٧) وحتىٰ الآية (١٨٧) من هذه السورة؛ تلك الآيات التي ينبغي للمسلم المؤمن أن يثيرها ويقف عند كل آية منها، مستحضرًا أقوال المفسرين فيها قديمًا وحديثًا.

والمتدبر لهذه الآيات يجد فوائد كثيرةً، منها:

١ ـ أن اللَّه سبحانه يرفع معنويات المؤمنين، ويشمخ برؤوسهم عن الهزيمة النفسية بقوله لهم: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾.

٢ ـ أن اللَّه سبحانه يواسي المؤمنين، ويخفف من آلامهم عندما يذكرهم بفوزهم الذي لا مثيل له في «بدر» وفي أول الأمر بغزوة «أحد»؛ حيث يقول لهم: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾.

٣ ـ أن اللَّه ﷻ أراهم شؤم المعصية وسوء عاقبتها؛ حيث خالفوا أمر رسول اللَّه ﷺ؛ إذ أمر الرماة منهم ألَّا يتركوا أمكنتهم عند هزيمة

المشركين. والمعصية هذه وإن كانت من بعض المسلمين فإن عقوبة اللَّه تعم الجميع؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥].

٤ ـ أن اللَّه سبحانه أظهر للمؤمنين علمه الغيبي، بواسطة هذه الغزوة، حيث تبين المؤمنون الصادقون منهم من المنافقين الانتهازيين، فإن اللَّه يعلم الصنفين، ولكن الناس لا يعلمونهم، فلا تنكشف الحقيقة إلا بالشدة بعد الرخاء؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

٥ ـ مداولة الأيام، بحيث لا يدوم الرخاء ويتوالىٰ النصر دون شدة وانتكاسة تضع الناس علىٰ المحك الصادق للاختبار علىٰ الصبر والثبات علىٰ الإيمان، فكم من أناس يجولون ويصولون في الرخاء، ولكنهم يختفون في الشدة، أو تتزلزل أقدامهم! وكم من أناس لا يصلحون إلا في الشدائد، أما الرخاء فيميعهم ويحللهم، فالمؤمنون حقًّا هم الصابرون في السراء والضراء.

٦ ـ أن اللَّه سبحانه يمحق الكافرين، والمحق في اللغة: النقصان، وقد يستعمل للاستئصال، كمحق الربا. ويكون المحق تارة حسيًّا، كمحق الكفار المقاتلين لرسول اللَّه وللمؤمنين علىٰ مر الزمان، وذلك بالقتل والسبي وأخذ المال، وتارة يكون المحق للكافرين معنويًّا، بأن يمحق اللَّه العزة والشهامة فيهم.

٧ ـ تكمن الفائدة السابعة ـ مع عدة فوائد أخرىٰ ـ في قوله سبحانه في الآية (١٤٢) من السورة:

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾:

قال أبو مسلم في قوله: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ﴾: إنه نَهْي وقع بحرف

الاستفهام الذي يأتي للتبكيت، تلخيصه: لا تحسبوا أن تدخلوا الجنة ولم يقع منكم الجهاد. اهـ.

وهذه الآية وما بعدها تضمنت العتاب الشديد لمن وقعت منهم الهفوات يوم أحد. والاستفهام في الآية علىٰ سبيل الإنكار أن يظن أحد منهم ظنون أهل الغرور، فيحسبوا أنهم يدخلون الجنة ولم يقوموا بالجهاد في سبيل اللَّه حق القيام، ولم تتدرع نفوسهم بالصبر، بل أخلُّوا بما افترض اللَّه عليهم من ذلك، والجنة لا تنال إلا بهما، ولا سبيل إلىٰ دخولها إلا بهما.

ونفي العلم نفي لظهوره بين الناس علانيةً، كما أسلفنا أنه سبحانه يريد إظهار علمه الغيبي لمن سبقت له الحسنىٰ بين الناس علانية.

وحاصل الكلام: أن إيثار حب الدنيا علىٰ ما عند اللَّه في الآخرة، سبب شقاء الإنسان في الدنيا والآخرة، فلا يدرك سعادة الآخرة مَن فضل دنياه علىٰ آخرته. وليس ذلك مجرد دعوىٰ؛ بل لابد من الابتلاء والبلاء، فإن بقي حب اللَّه سبحانه وحب الآخرة مسيطرًا علىٰ حب الدنيا كان ذلك علامة الصدق والإخلاص والثبات علىٰ الحق، الذي يدخل صاحبه الجنة، وقد ورد في الحديث: «**إن الجنة تحت ظلالِ السيوف**»[1]؛ فإن من ضروريات الإيمان محاربة الكافرين لأجل تحقيق منهج اللَّه علىٰ أرض اللَّه في خلقه. ولا يطيق ذلك ولا يصبر عليه إلا من صبر علىٰ تكاليف الدعوة، وما يصيبه في سبيلها من أذىٰ، قد يزيد الصبر عليها علىٰ الصبر في الحرب الدامية، فهناك صبر علىٰ الغزو الفكري المتنوع، وصبر علىٰ مطاردة الدجاجلة والطواغيت لرجال الدعوة، وصبر علىٰ أراجيف الحساد والفاسقين، وصبر علىٰ الضعف الذي يعتري النفس من ذلك، وصبر علىٰ الضغوط الجاهلية التي يصطدم بها، وصبر علىٰ أذىٰ الجهلة والمتمردين الذين يرمونه

(١) رواه البخاري (٢٨١٨)، ومسلم (١٧٤٢).

بشتىٰ أنواع التهم والألقاب، وصبر علىٰ طول الطريق ومشقته، وصبر علىٰ الفترات التي يجول فيها الباطل ويتسلط علىٰ أهل الحق، إلىٰ غير ذلك من أنواع الصبر الذي ينبغي أن يتحمله الداعية إلىٰ اللَّه في سبيل تحقيق منهج اللَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في الأرض.

٨ ـ تتمثل الفائدة الثامنة في قوله تعالىٰ في الآية (١٤٣) من السورة:

﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾:

فهذا خطاب للمؤمنين، وهو من العموم الذي أريد به الخصوص، وذلك أن جماعةً من المؤمنين لم يحضروا وقعة بدر؛ لأن رسول اللَّه ﷺ لم يخرج لحرب قريش، وإنما خرج لاختطاف العير، ففاز من خرج معه بالكرامة في الدنيا والآخرة.

فهؤلاء الذين لم يشهدوا بدرًا تمنوا لقاء العدو ليكون لهم يوم كيوم بدر، وهم الذين أشاروا علىٰ النبي ﷺ بالخروج وحرضوه عليه، فلما كان في يوم أحد ما كان من كَرة قريش بعد هزيمتهم، لما رأوا الرماة قد تخلوا عن الثغر، وقتل عبداللَّه بن قمئة مصعب بن عمير، يظنه رسول اللَّه ﷺ فصاح: إني قتلته، وصرخ صارخ بذلك، فانهزم من المسلمين من انهزم فرارًا بنفسه، وناداهم رسول اللَّه ﷺ: «**إليَّ عباد اللَّه**»، فانحاز إليه طائفة واعتذرت قائلة: إنا سمعنا خبر قتلك فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين، فنزلت هذه الآية تلومهم علىٰ ما صدر منهم مع ما كانوا قرروه علىٰ أنفسهم، من تمني الموت الذي هو عبارة عن ملاقاة الرجال، ومجالدتهم بالحديد للموت، إذ لا يتمنىٰ ملاقاة الرجال إلا من طابت نفسه بالموت.

فاللَّهُ سبحانه يطالبهم في هذه الآية بتحقيق ما كانوا يتمنونه من الموت من قبل أن يلقوه لاشتياقهم إلىٰ القتل ورغبتهم في الجنة،

ولكن لا تجدي الأماني شيئًا دون الصدق في التضحية، وحمل النفس علىٰ المكروه، إذ بذلك يتحقق الجهاد والصبر فيه، فاللَّهُ سبحانه يربيهم علىٰ ألَّا يطلقوا الأماني جزافًا، ولا يندفعوا بألسنتهم دون حساب لما يقدرون علىٰ تطبيقه فعليًّا، فيعلمهم أن يحسبوا لكل كلمة تطلقها ألسنتهم حسابها، وذلك بالنظر في حقيقة صمودهم للأحداث ومحاسبة أنفسهم علىٰ ذلك، ليعرفوا قيمة الكلمة التي يطلقونها والأمنية التي يتمنونها، فلا يصدر منهم قولٌ لا يقدرون علىٰ تطبيقه والوفاء به، ولا يتمنون أماني سطحية تخالفها أفعالهم، ولهذا يقول اللَّه لهم: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾، يعني تمنون مجالدة العدو من قبل أن تشاهدوا شدائده ومضايقته؛ فقد رأيتموه بأبصار ليس بها علة، فلم انهزمتم وشردتم عما كنتم تمنونه؟ فتأملوا قبح أفعالكم!.

وهذه الآية وإن كانت بصيغة الخبر فمعناها العتب والإنكار علىٰ المنهزمين، خصوصًا الذين كانوا يتمنون اللقاء والشهادة، وقد حملوا رسول اللَّه ﷺ علىٰ الخروج، وفي معناها أن الصادق في تمني الموت لا يترك الثغر الذي وصاه رسول اللَّه ﷺ بالمرابطة فيه، جانحًا إلىٰ الطمع في الغنيمة الذي هو مخالف لما تمناه، ثم لا ينهزم طامعًا في الحياة الذليلة ناسيًا أن عدوه لا يتركه علىٰ فراره، بل سيلحقه حتىٰ يرغم أنفه في التراب.

ولولا انحياز فريق من المؤمنين للقتال لمَّا سمعوا نداء النبي ﷺ لهم للاحقهم الكفار، ولكن ذلك الانحياز كان مرغِمًا للكفار علىٰ التوقف عن القتال لما رأوا نخوة المسلمين، فاكتفوا بما نالوا ورجعوا مفتخرين به، وخائفين من عودة الهزيمة إليهم لما رأوا من استبسال المؤمنين في القتال، أمثال أنس بن النضر الذي لما رأىٰ انكشاف المسلمين قال: اللَّهم إني أعوذ بك مما فعل هؤلاء - يعني

المشركين ـ، وأبرأ إليك مما فعل هؤلاء ـ يعني المسلمين ـ، وكر علىٰ الكفار وباشر القتال مشجعًا كل من رآه بقوله: «إني لأجد ريح الجنة دون أحد»[١]، وقاتل قتالًا شديدًا حتىٰ استشهد، فما عرفوه إلا ببنانه؛ ووجدوا فيه بضعًا وثمانين جراحةً. ففيه وفي أمثاله نزلت هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، كما ظنها بعضهم.

وليست القضية قضية نصر مميع، إنما هي تربية للمؤمنين الموكول إليهم قيادة البشرية وهدايتها وتقويمها من جميع نزواتها وتصوراتها الجاهلية، وحكمها بحكم اللَّه الذي يصلحها ويقيها من ذلك.

وهذه الطائفة المؤمنة يريد اللَّه تربيتها لتقوم بمهمتها العامة، وقد قامت بها خير قيام لما انتفعت وتأثرت بتربية القرآن من اللَّه، وقد تجلت بعض آثار هذه التربية أحسن التجلي في غزوة «حمراء الأسد»، لما حظر النبي ﷺ عليهم ألَّا يلحق بالمشركين إلا من شهد القتال بأحد، فامتثلوا الأمر بكل طمأنينة وقوة واستبسال.

هذا؛ وإن مشيئة اللَّه في خلقه إنما تنفذ علىٰ أُسسٍ حكيمة، يسببها اللَّه لإنفاذ قضائه وحكمته، فمن سار علىٰ وفق الأسباب نجح وانتصر، ومن عطل الأسباب أو عاكسها خسر وانهزم، وعلىٰ هذا كانت هزيمة أحد، ونال المشركون من رسول اللَّه ﷺ ما نالوه؛ تعليمًا للطائفة المؤمنة التي عطلت الثغر الجبلي وجعلته شاغرًا للكفار، فمن عطل الأسباب وتهاون بها فلا يلومنَّ إلا نفسه. ومن أعظم الأسباب: قرن القوة الروحية إلىٰ القوة المادية كما أسلفناه في تفسير آيات القتال.

هذا وليعلم أن متمني الشهادة التي هي الموت بالقتال في سبيل اللَّه ليس متمنيًا لمجرد الموت، ولا متمنيًا لغلبة الكفار علىٰ

---

(١) رواه البخاري (٤٠٤٨)، ومسلم (١٩٠٣).

المسلمين؛ لأن هذا كفر والعياذ باللَّه، ولكنه متمنٍّ لكرامة اللَّه في جواره، والفوز بلقائه علىٰ تقوىٰ منه ورضوان.

وهذه الآية فيها إشعار لكل مؤمن إلىٰ اتقاء الغرور بحديث النفس والتمني والتشهي، وتهديه إلىٰ امتحان نفسه بالأعمال الشاقة، وعدم الثقة بما دون الجهاد والصبر علىٰ المكاره.

٩ ـ توصية اللَّه لهم بالصمود علىٰ المبدأ والثبات علىٰ الإيمان؛ مهما تأزمت الحالة وتحرج الموقف، حتىٰ لو مات قائدهم أو قُتل؛ مهما كانت شخصية ذلك القائد من رسول أو تابع له، وذلك في قوله سبحانه في الآية (١٤٤) من السورة:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾:

ويعني بِهذا ـ جل ذكره ـ أنه ما محمد إلا رسول كبعض رسل اللَّه الذين أرسلهم إلىٰ خلقه داعيًا إلىٰ توحيد اللَّه وطاعته، ومتىٰ انقضت آجالهم قبضهم اللَّه إليه فماتوا، فحال محمد ﷺ كحال غيره من الرسل الذين مضوا قبله؛ متىٰ انقضىٰ أجله قبضه اللَّه إليه.

واللَّه سبحانه يوجه الخطاب والعتاب لأصحابه علىٰ ما حصل منهم يوم أُحد من الهلع والجزع؛ حين قيل لهم: إن محمدًا قد قتل، مقبحًا صنيعهم في انصراف من انصرف منهم عن عدوهم وانهزامه قائلًا لهم: أفإن مات محمد أو قتله عدوه لانقضاء أجله ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾، يعني: ارتددتم عن دينكم الذي بعثه اللَّه بالدعاء إليه، ورجعتم بعده كفارًا بعد الإيمان باللَّه، وبعدما وضحت لكم صحة ما دعاكم إليه، وحقيقة ما جاء به من عند ربكم.

وفي هذا استمرار في معاتبة اللَّه لهم، وتذكير لهم بأن محمدًا رسول كمن مضىٰ من قبله من الرسل مبلغًا عن اللَّه كما بلغوا، وليس

بقاء الرسل شرطًا في بقاء شرائعهم، بل إنهم يموتون وتبقىٰ شرائعهم ثابتةً يلتزمها أتباعهم، فكما مضت الرسل وانقضوا، فحكمهم في ذلك واحد وما محمد إلا مثلهم، حكمه كحكمهم؛ بل حكمه أعظم منهم؛ لأنه ﷺ خاتم النبيين، وتكاليف أمته من بعده تكاليف عظيمة.

﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ يعني: يرتد منكم عن دينه ويرجع كافرًا بعد إيمانه ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾، يعني: لا ينتقص من عزته ولا ملكه ولا سلطانه شيئًا، بل يضر نفسه بردته وينقصها، بل ويحرمها حظوظها العالية في الدنيا والآخرة. وقد ورد في الحديث الصحيح القدسي الذي يرويه ﷺ عن ربه: «**يا عبادي، لو أن أوَّلكم وآخرَكم وإنسكم وجنَّكم كانوا علىٰ أتقىٰ قلب رجل منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا. ولو أن أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا علىٰ أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا. ولو أن أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم قاموا كلهم فسألوني، فأعطيت كل واحد منهم مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر...**»[1] إلىٰ آخر الحديث الذي تركنا أوله وآخره اختصارًا، وهو حديث أبي ذر المشهور الذي شرحه ابن رجب والشيخ ابن تيمية رَحِمَهُمَاٱللَّهُ فلا حاجة إلىٰ التطويل فيه.

وقد تضمنت هذه الآية الكريمة تأنيب المؤمنين علىٰ الهلع الذي أصابهم من ظنهم موت رسول اللَّه ﷺ؛ لأن رسوله من الرسل السابقين لا يبقىٰ مخلدًا، فالموت محتم له مثلهم، ولا يجوز لأتباعه الارتداد من بعده بالنكوص عن مجاهدة الكفار التي هي من لوازم الإيمان، بل ينبغي أن يزداد غيظهم وحماسهم انتقامًا من أعدائه، وأخذًا بثأره، وثباتًا علىٰ تعاليمه ﷺ، فإن الإيمان لا يتمثل خارج القلوب في أشخاص تموت ـ كما هي عقيدة العصريين في الأشخاص التي تتمثل

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

بها قوميتهم؛ ممن يحتكرون لهم الإخلاص والتعظيم - وإنما تبرهن الأعمال الخارجية على صدق وطهارة الضمائر الداخلية، وقد ذكرهم اللّٰه بصالحي الأمم قبلهم في الآية التي تلي هذه الآية؛ فمحمد ﷺ كغيره من رسل اللّٰه يموتون، ولكن العقيدة باقية ما بقيت السماوات والأرض؛ لأنها مرتبطة باللّٰه لا يتخلىٰ عنها إلا الذي قطع صلته به، ولا يفضل عليها راحته أو حياته أو ماله إلا ضعيف الإيمان قليل الحب للّٰه؛ لأن النبوة لا تدرأ الموت، والأديان لا تزول بموت الأنبياء.

وقد ورد: أنه لما حصلت الصرخة بأن محمدًا ﷺ قد قتل، تزلزلت أقدام المؤمنين ورعبت قلوبهم، ومضوا في الفرار، وكانوا ثلاث فرق:

- فرقة قالت: ما نصنع بالحياة بعد رسول اللّٰه ﷺ؟ ولكن قاتِلوا علىٰ ما قتل عليه، فقاتلوا حتىٰ قتل منهم من اختاره اللّٰه للشهادة، كأنس بن النضر الذي سبقت قصته.

- وفرقة قالت: نلقي إليهم بأيدينا، فإنهم قومنا وبنو عمنا.

- وفرقة أظهرت النفاق المكتوم في قلوبها، وقالت: ارجعوا إلىٰ دينكم الأول، فلو كان محمد نبيًّا ما قتل، ولهذا قال سبحانه: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾، وأقوياء الإيمان قالوا: إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد حي لا يموت، فموتوا علىٰ ما مات عليه نبيُّكم، وقاتلوا عن دينكم.

وقد قرر اللّٰه حقائق التصور الإسلامي في هذه المعركة بأحسن تقرير لتربية الأمة الإسلامية بالحالة التي أذهلتهم وأرعبت قلوبهم من سماعهم صوت الكافر الزاعم قتلَ محمد ﷺ، واتخذ منها القرآن مادةً عظيمةً للتوجيه، وهي أن محمدًا وإن لم يمت، فسيموت كما مات قبله إخوانه المرسلون، ولكن اللّٰه حي لا يموت، وهو الذي أرسله برسالة خالدة لا تموت، وبكلمات باقية خالدة لا تموت، فما ينبغي لأتباعه المخلصين الصادقين أن ينذعروا لسماع موته انذعارًا

يحملهم علىٰ الارتداد عن دينه، ويغفلوا عن هذه الحقيقة؛ لأن محمدًا ﷺ جاء مبلغًا عن اللَّه بعقيدة تربط المسلمين باللَّه لا بشخصيته، وتوجب عليهم التزام منهج اللَّه لا منهجه هو، فهو بشر مثلهم يلتزم المنهج الذي أمرهم بالتزامه ما دام حيًّا، فإن مات وجب عليهم الاقتداء به وامتثال الأوامر التي جاءهم بها من اللَّه الحي الذي لا يموت، والذي ترنو إليه جباه المسلمين لاعتقادهم ربوبيته وألوهيته وملوكيته التي لا يماثلها شيء.

فعقيدتهم باللَّه أكبر من الداعية إليه؛ لأن الدعاة يموتون، ولكن لا تموت العقيدة التي جاؤوا بها؛ فهي باقية مدىٰ الدنيا، يقوم بها أتباع الدعاة ويتفانون في سبيلها، ويجعلون أموالهم وأرواحهم فداءً لها ووقايةً لها، كما يجب عليهم أن يجعلوها فداءً ووفاءً للدعوة التي جاؤوا بها في حياتهم لواجب محبتهم، وجعل الأولوية لهم خصوصًا محمد ﷺ، وقد تجلىٰ ذلك في عمل المؤمنين المخلصين كأبي دجانة وأصحابه الذين جعلوا أنفسهم وقاءً له ﷺ حتىٰ قتلوا.

قال المرحوم سيد قطب في بعض تعليقاته علىٰ هذه الآية وهذه الحادثة: وكأنما أراد اللَّه بِهذه الحادثة وبِهذه الآية أن يفطم المسلمين عن تعلقهم الشديد بشخص النبي ﷺ وهو حي بينهم، وأن يصلهم مباشرةً بالنبع، النبع الذي لم يُفجره محمد ﷺ، ولكن جاء فقط ليومئَ إليه، ويدعو البشر إلىٰ فيضه المتدفق، كما أومأ إليه مَن قبله من الرسل، ودعوة القافلة إلىٰ الارتواء منه. وكأنما أراد اللَّه سبحانه أن يأخذ بأيديهم فيصلها مباشرةً بالعروة الوثقىٰ التي لم يعقدها محمد ﷺ، إنما جاء ليعقد بها أيدي البشر، ثم يدعهم عليها، ويمضي وهم بها مستمسكون.

وكأنما أراد اللَّه سبحانه أن يجعل ارتباط المسلمين بالإسلام مباشرةً، وأن يجعل عهدهم مع اللَّه مباشرةً، وأن يجعل مسؤوليتهم في هذا العهد أمام اللَّه بلا وسيط؛ حتىٰ يستشعروا تبِعتهم المباشرة،

حتىٰ لا يخليهم منها أن يموت الرسول ﷺ أو يُقتل، فهم إنما بايعوا اللَّه، وهم أمام اللَّه مسؤولون، وكأنما كان اللَّه يعد الجماعة المسلمة لتلقِّي هذه الصدمة الكبرىٰ حين تقع، وهو ـ سبحانه ـ يعلم أن وقعها عليهم يكاد يتجاوز طاقتهم، فشاء أن يدربهم هذا التدريب، وأن يصلهم به هو وبدعوته الباقية قبل أن يستبد بهم الدهش والذهول، وقد أصيبوا حين وقعت بالفعل بالدهش والذهول، حتىٰ لقد وقف عمر رضي الله عنه شاهرًا سيفه يهدد به من يقول: «إن محمدًا قد مات»، ولم يثبت إلا أبو بكر الموصول القلب بصاحبه، وبقدر اللَّه فيه الاتصال الوثيق. وكانت هذه الآيات التي ذكرها وذكر بها المدهوشين؛ هي النداء الإلهي المسموع، فإذا هم يثوبون ويرجعون. اهـ.

قال القرطبي رحمه الله: وهذه الآية أدل دليل علىٰ شجاعة الصديق وجراءته، فإن الشجاعة والجرأة حدهما ثبوت القلب عند حلول المصاب، ولا مصيبة أعظم من موت رسول اللَّه ﷺ، وكما تقدم بيانه في البقرة، فظهرت عنده شجاعته وعلمه. قال الناس: لم يمت رسول اللَّه ﷺ منهم عمر، وخرس عثمان، واستخفىٰ علي، واضطرب الأمر، فكشفه الصديق بِهذه الآية حين قدومه من مسكنه بالسُّنح ـ موضع بعوالي المدينة ـ... الحديث كما رواه البخاري[1].

قال ابن القيم: إن توبيخ الذين ارتدوا علىٰ أعقابهم بِهذه الآية قد ظهر أثره يوم وفاة النبي ﷺ، فقد ارتد من ارتد، وثبت الصادقون حتىٰ كانت لهم العاقبة.

هذا وإن في هذه الآية الكريمة تقريرًا للتوحيد وتخليصًا له مما يشوبه من كل تصور واعتقاد، ببيان أن الأنبياء والمرسلين ليس لهم ميزة في أمر الموت عن سائر البشر، وإنما هم فيه كغيرهم خاضعون لسنة اللَّه.

---

(١) رواه البخاري (٣٦٦٧).

ولتركيز التوحيد في قلوب المسلمين جاء هذا التعبير الإلهي عن محمد ﷺ أنه رسول كإخوانه السابقين من الرسل؛ حتىٰ لا يتعلقوا بشخصه، بل يتعلقوا بما جاء به من وحي اللَّه، فيستمسكوا به ليكون تعلقهم بالعروة الوثقىٰ وبجناب اللَّه العلي العظيم المحيط بكل شيء علمًا، ويكفينا عن تفصيل ذلك ما نقلناه عن المرحوم قطب.

ومن فوائد هذه الآية الكريمة وإرشادات اللَّه في ضمنها: أنه لا يجوز للمجاهدين أن يتنصلوا من الجهاد، أو يفروا منه، أو يستكينوا لعدوهم إذا قُتل قائدهم أو مات؛ لأن استمرار الحرب وعدمه لا يكون معلقًا بوجود القائد؛ بحيث لو قتل فإنهم ينهزمون أو يستسلمون ـ والعياذ باللَّه ـ؛ فهذا شيء مخالف للمنقول والمعقول، بل هو مصادم للعقيدة من الأساس، ولا يرضىٰ به الكافر الخالي من العقيدة، والمقاتل للطمع وأخذ الثأر، فكيف يرضىٰ به أهل العقيدة الموصولون باللَّه؟!.

إن الذي ينهزم أو يستكين لعدوه إذا قتل قائده؛ قد قطع صلته باللَّه وقطع رجاءه من اللَّه، وأثبت أنه مبتور الصلة بخالقه، ومرتبط موصول بمخلوق مثله، إذا قتل انقطع أمله وخاب رجاؤه ـ والعياذ باللَّه ـ؛ ولهذا جاء التوبيخ الصارخ من اللَّه لمن أُسقط في يديه وانهزم لما سمع الصيحة الكاذبة بموت نبيه ﷺ غير حاسب لربه الذي أرسله أي حساب، ثم جاء التعليم الحكيم من النبي الكريم محمد ﷺ حين إرساله السرية إلىٰ «مؤتة» حين قال لجيشها: «**أميركم زيد بن حارثة، فإن قتل فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل فعبداللَّه بن رواحة، فإن قتل فأمِّروا من شئتم**»[1]. ولما قتلوا كلهم واحدًا بعد واحد وبعد البلاء الحسن المنقطع النظير اتفقوا علىٰ تأمير خالد بن الوليد، الذي أظهر من حنكته في القيادة ما سلم السرية من تطويق العدو الهائل الكثرة،

---

(١) رواه المقدسي في «الأحاديث المختارة» (١٣٩).

ومن الهزيمة، بل أجبر العدو علىٰ التراجع سائمًا من القتال والمرابطة أمام أسود المسلمين.

فهكذا تعاليم اللَّه سبحانه وتعاليم نبيه ﷺ بإذنه لجيوش المسلمين أن لا يهنوا ولا يحزنوا لموت قائد أو قتله، بل ينظروا إلىٰ هدفهم الأسمىٰ من الجهاد وهو إعلاء كلمة اللَّه سبحانه، فالعامل لذلك يعوض القائد بغيره، وتزيد شجاعته في نكاية العدو القاتل قائده، والحريص علىٰ إذلاله بفقد القائد، ليقطع خطة العدو ويجعل كيده في نحره، ويعمل لمرضاة ربه بالوفاء ببيعته، فإن اللَّه يقول لنبيه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح].

وقوله ﷻ: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾، هو اتصال وعد بوعيد، فإنه لما قال: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ - بل يعود ضرره علىٰ نفسه - أتبع هذا الوعيد بالوعد الجزيل، أنه سبحانه سيجزي الشاكرين لنعمته شكرًا عمليًّا، بثباتهم في الجهاد وصبرهم عن[1] هذه المعصية، وطاعتهم للَّه ولرسوله وقوة وعيهم، وفدائهم لرسول اللَّه ﷺ بأنفسهم الغالية التي استرخصوها في سبيل اللَّه وطلب مرضاته، ولم تقع في قلوبهم شبهات بسبب تلوث الهزيمة، ولم يهنوا وينكثوا عن الجهاد حين سمعوا الصرخة الكاذبة بموت رسول اللَّه ﷺ، بل اشتدت شجاعتهم لقوة تمسكهم بالإيمان، فسماهم اللَّه شاكرين، ووعدهم علىٰ شكرهم الجزاء الأوفىٰ الذي لا حد له، فهنيئًا لهم بمدح اللَّه لهم حيث سماهم شاكرين، وهنيئًا لهم بما وعدهم اللَّه به بما لا يصفه الواصفون.

---

(١) في المطبوع: «علىٰ»، ولعل الأصح ما أثبتُّه، أو تكون الجملة: «وصبرهم علىٰ هذه المصيبة»، وهي موت الرسول ﷺ - إن صحت ووقعت -، والعلمُ عند اللَّه تعالىٰ.

قوله تعالى في الآية (١٤٥) من السورة: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾:

١٠ ـ في هذه الآية الكريمة التعليم العاشر للوقاية من الهزيمة النفسية، إذ فيها اقتلاع اللّه من نفوس المؤمنين الخوف من الموت بإبعاد عوامل الجزع والفزع عنهم، ومعالجة مكمن الخوف من ذلك؛ بتقريره أن لكل نفس أجلًا ولن تموت حتىٰ تستوفيه، ليستيقنوا أن الأعداء مهما تضخمت قوتهم وعظمت شوكتهم وتطور فتك أسلحتهم، فإنها لا تقتل أبدًا إلا من دنا أجله وانقطعت لقمته من الدنيا، وإن الجبن والفرار لا يزيدان في الأجل، ولا يدفعان الموت لحظةً واحدةً، وإن الشجاعة والصمود لا ينقصان من الأجل ولا يقربانه، فما أمامهم إلا اختيار أحد الحياتين: حياة الدنيا البهيمية، تحت إذلال الأعداء وإرهاقهم، وضنك المعيشة في الحرب الباردة والكاوية مع الماديين من أشكالهم، أو الحياة الطيبة التي يحصل صاحبها علىٰ إحدىٰ الحسنيين، نصر من اللّه وفتح قريب، أو نيل الشهادة التي ينعم بسببها في الدار الآخرة.

فوجه تعلق الآية بما قبلها: أنه لا تموت نفس إلا بإذن اللّه وقضائه وقدره، فكان قتله مثل موته في أنه لا يكون إلا في الوقت المقدر بقضاء اللّه، وليس لبطش العدو وقوة سلاحه أي تأثير في حصول الموت، فكما أنه لو مات في داره لم يدل ذلك علىٰ فساد دينه، فكذلك إذا قتل وجب أن لا يؤثر ذلك في اعتقاد فساد دينه، بل دينه صحيح في كلا الأمرين.

والمقصود من ذلك: إبطال قول المنافقين لضعفة المؤمنين: إنه لما قتل محمد فارجعوا إلىٰ ما كنتم عليه من الأديان. وفي هذه الآية تحريض للمسلمين علىٰ الجهاد بإعلامهم أن الحذر لا يدفع القدر،

وأنه لا يموت أحد قبل أجله، وإذا جاء الأجل فلا يندفع الموت بشيء، لا يدفعه فرار ولا غيره فلا فائدة في الخوف والجبن. فوقعة أحد لم يبق فيها سبب من أسباب الهلاك إلا وقد حصل فيها، ولكن لما كان أجل المصطفىٰ ﷺ لم يحن لم يمت، مع حرص الأعداء علىٰ هلاكه وتكالبهم عليه، ولكن لما كان الأجل مندفعًا لم يضره كيدهم، واللَّه ناصره وحافظه مع تقصير بعض أصحابه في الذب عنه، ولكن لا يموت ما دام أجله مندفعًا، فليس في إرجاف من أرجف بموت النبي ﷺ ما يحقق ذلك، أو يعين في تقوية الكفر، بل يبقيه اللَّه إلىٰ أن يظهر دينه علىٰ الدين كله، ويجعل من بين يديه ومن خلفه رصدًا، فلا تنكروا بعد ذلك في غزواتكم بأن يرجف بكم مرجف أن محمدًا قد قتل.

ودلت الآية أن المقتول ميت بأجله، وأن تغيير الآجال مستحيل قطعًا، كما في الحديث أيضًا: «**لن تموت نفس حتىٰ تستكمل رزقها وأجلها**»[1]، وفي حديث ابن مسعود المشهور عن الجنين: «**أن الملَك يكتب رزقه وأجله، وهل هو شقي أو سعيد**»[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿**وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا**﴾، تعريض بالذين فضلوا الغنائم يوم «أحد» علىٰ طاعة اللَّه ورسوله بالتزام الثغر، وسلطوا المشركين علىٰ المؤمنين بتركهم الثغر شاغرًا، والذين ثبتوا علىٰ القتال فيه ولم يشغلهم شيء عن نصرة الدين. وهذا التقسيم يقتضي اختصاص كل من الفريقين بما أراد؛ لأن من كانت نيته مقصورة علىٰ طلب دنياه لا نصيب له في الآخرة، لكن من كانت نيته مقصورةً علىٰ الآخرة؛ فاللَّه يؤتيه نصيبه من الدنيا زيادةَ ثواب علىٰ حسن قصده، وذلك لأن العبرة ليست في صورة العمل

(١) رواه الحاكم (٥/٢).

(٢) رواه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

وإنما هي في البواعث علىٰ العمل، فمن عَفَّر وجهه بالتراب ساجدًا للَّه مقابل الشمس إذا كانت بإزاء الكعبة؛ فهو عابد للَّه علىٰ قصده الحسن، وإذا كان بجانبه ساجدٌ ينوي سجوده للشمس، فهو كافر مشرك معاقَب من اللَّه، وكلاهما واحد في صورة العمل، ولكن البواعث مختلفة، فنية هذا غير نية ذاك.

وهكذا الفرق بين المخلص والمرائي وصورة عملهما واحدة، فإن لثواب الدنيا سننًا، ولثواب الآخرة سننًا، فمن سار علىٰ سَنن واحدة منهما حصل عليها؛ فالمشركون ساروا لطلب الدنيا، والتزموا سننها بالنهوض إلىٰ الثغر وظاهر القيادة، فنجحوا في نيل ما طلبوه، وأما المسلمون فقد طلبوا الآخرة ولكن بعضهم اختلفت نيته وعصىٰ القيادة، وأراد الدنيا مع مخالفة لسننها، وعصيانه للَّه فخسر مطلبه، والسبب فساد القصد، والتنكر عن السنن، والأصل الأصيل في كل قول وعمل هو النية، ولهذا ورد في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**إنما الأعمالُ بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوىٰ، فمن كانت هجرتُه إلىٰ اللَّه ورسوله، فهجرتُه إلىٰ اللَّه ورسوله، ومن كانت هجرتُه إلىٰ دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرتُه إلىٰ ما هاجر إليه**»[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وعد من اللَّه تعالىٰ لمن شكر نعمته باستعمالها في طاعة اللَّه ﷻ ـ كما أسلفنا ـ، فقصر همته ونيته علىٰ طلب الآخرة، راغبًا فيما عند اللَّه، فاللَّه يؤتيه ثواب الدنيا والآخرة.

١١ ـ من معالجة اللَّه للهزيمة النفسية لوقاية عباده منها: تصويره لهزيمتهم بالارتداد الحسي، لأن الذي ساورهم من الإحساس بعدم جدوىٰ القتال حين ظنوا موت الرسول ﷺ يعتبر ارتدادًا نفسيًّا، لظنهم انهدام الدين بموته، وهذا مخالف للعقيدة، فلا جرم أن عبر عنه

---

(١) تقدم تخريجه.

بالارتداد علىٰ الأعقاب عن الدين.

١٢ ـ تعليم اللَّـه لهم ضراعة الأبرار وصدقهم وإخلاصهم مع أنبيائهم في الجهاد، واستبسالهم في المجاهدة والقتال، ليُعلم المسلمين أنهم ليسوا وحدهم المكلفين بطاعة الرسول ﷺ والجهاد معه في سبيل اللَّـه، بل قبلهم ممَّن مضىٰ من الأمم صدقوا رسلهم، وقاموا بنصرتهم، والذب عنهم وعن العقيدة في ميادين القتال، وصمدوا أمام عدوهم، دون مبالاة بكثرته ولا ضخامة عدته، ولم يخافوا غير ذنوبهم التي يجسمونها أمام أعينهم من شدة خشيتهم للَّهِ، فيعدونها إسرافًا، ويستمطرون مدد اللَّه ﷻ وعونه وحياطته بالاستغفار والدعاء الدائمين، لجوءً إلىٰ القوة الغيبية، وعدم اغترار منهم بما عندهم، بل انحصرت حالتهم ومهمتهم بوصف اللَّـه لهم في الآيات (١٤٦، ١٤٧، ١٤٨) من السورة:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾:

فما أبعد الفرق بينهم وبين العصريين القوميين الماديين في حربهم مع اليهود عام وقعة «حزيران» وغيرها! حيث لم يسمع منهم سوىٰ الإقسام بعواصمهم وشخصيات زعمائهم الماركسيين: إنهم لمنتصرون، فلم يذكروا اللَّـه طرفة عين؛ حتىٰ جاءهم بأسه علىٰ أيدي أراذل خلقه ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١].

إن اللَّـه سبحانه وصف لنا طريقة الرِّبِّيين من أتباع الرسل السابقين، والربيون هم: الأتقياء البررة، ورسم لنا صورتهم الظاهرية والباطنية، فصورتهم الباطنية رسمها لنا في أربع صفات وهي قوله: ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾، يعني: ما وهنوا أمام البلايا

والكروب الحربية وشدة النزال والإثخان في القتل، فلم يحصل منهم خور ولا لين في مقابلة عدوهم، ولم يضعفوا فتنحل عزيمتهم، ويقصر يقينهم، ولم تلن قناتهم عن الاستمرار في القتال، مع فظاعة ما يصيب أنبياءهم، ولم يستكينوا لعدوهم فيستسلموا له طلبًا للراحة وسكون الحال. كل هذا لم يجر منهم أبدًا؛ بل ثبتوا ثبات الجبال الرواسي لقوة صبرهم ومصابرتهم. ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾. والصفة الرابعة مضمرة في السياق وهي الصبر، فهم قد مثلوا الصورة الحقيقية للذي يحارب إعزازًا للعقيدة والهدف السماوي ودفعًا بهما إلىٰ الإمام.

ثم أوضح لنا صورتهم الظاهرية في صدق مشاعرهم وأدبهم مع اللَّه وعدم ذهولهم عنه في أحرج المواقف وأشد أنواع الهول، بل عظموا جانبه، وانحصر طلبهم في نيل مرضاته؛ فكانت ضراعتهم إليه طلب المغفرة ـ بادئ ذي بدء ـ لا طلب النصرة، فهم أولًا سألوه غفران الذنوب؛ لأن المؤمن المخلص الواعي لحقيقة دينه أخوفُ ما يخاف ذنوبه المبعدة له من اللَّه، والجالبة لسخطه، فالمؤمنون لا يخافون عدوهم أكثر مما يخافون من المعاصي والزلات، ولا يخيفهم عدوهم أكثر ما تخيفهم ذنوبهم التي تحجب عنهم استجابة اللَّه ومدده ونصره؛ فلذلك قالوا: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾، فقدموا الاستغفار علىٰ تثبيت الأقدام والنصر لقوة ما في قلوبهم من زكاة وطهارة، ولكون الاستغفار حريًّا بالإجابة.

وقولهم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ علىٰ سبيل التوكيد، والذنوب هي الخطايا، والإسراف هو التفريط، وقيل: هو الانغماس في النعمة التي تُغفلهم عن اللَّه، وما نزلت مصيبة إلا بسبب الذنوب والتفريط. فلذلك قدموا سؤال المغفرة بعد صدقهم مع اللَّه في الصبر والمصابرة علىٰ الجهاد، وما لاقوه من الأذىٰ وقهر الرجال، وذلك كله من الأفعال النفسانية التي يظهر أثرها علىٰ الجوارح، ثم سألوا اللَّه التثبيت ليربط علىٰ قلوبهم، ويلهمهم الصبر؛ فإن تثبيت الأقدام في

مواطئ الحرب ولقاء الحرب يمنعها من التزلزل، ويكسب أهلها الصمود.

ثم كان النصر آخر دعواهم، وهذا هو المثل الأعلىٰ لطهارة القلوب وإخلاصها، واللَّه يطلب من عباده أن يكونوا علىٰ هاتين الصورتين باطنًا وظاهرًا. ولكن التربية الماسونية اليهودية للقوميين أبعدتهم عن ذلك حتىٰ صاروا من كسبها ـ والعياذ باللَّه ـ.

وقد نال الربيون ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، نالوا النصر والتمكين في الأرض؛ فوق ما نالهم من الدرجات العلىٰ في جنان الخلد من اللَّه الذي أعطاهم أفضل ما يتمناه السائلون؛ حيث لم يطلبوا لأنفسهم شيئًا بسبب صدقهم في العمل وإحسانهم في الأدب، فحتىٰ النصر لا يطلبونه لخاصة العواقب، فشهد لهم بالإحسان وأعلن محبته لهم.

فيا لها من مفخرة عظيمة وربح غير محدود، وفي هذا دليل علىٰ مشروعية الدعاء عند لقاء العدو، وأن يكون بِهذا الدعاء المعين، وقد ورد في القرآن أدعية أعقبها اللَّه بالإجابة كما حصل لأولئك الربانيين عابدي الرب الجليل ﷻ، لما تقدم في دعائهم مما يتضمن الإجابة فيه بالثوابين.

فقولهم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾، يتضمن ثواب الآخرة، وقولهم: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يتضمن ثواب الدنيا من إقرار عيونهم بالنصر العزيز وتمكينهم في الأرض، وقهر عدوهم وإذلاله، وفي هذا تعليم للمؤمنين الذي أصابهم الوهن يوم «أحد»، والانكسار عند الإرجاف كما مضىٰ بيانه.

وفي هذه الآيات حجة دامغة علىٰ الغالين في الزهد.

وقد أفادت هذه الآيات فوائد جليلة منها:

أولها: أنه سبحانه ذكر في الآية (١٤٥): ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ

مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، فذكر لفظة «من» الدالة علىٰ التبعيض، وأما الآية التي في حق الربانيين فقال فيها: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ﴾ ولم يذكر كلمة «من»، والفرق في ذلك أنَّ الذين يريدون ثواب الآخرة إنما اشتغلوا بالعبودية لطلب الثواب، فكانت مرتبتهم في العبودية نازلة. وأما المذكورون في الآية المتعلقة بالربانيين الرِّبيين؛ فإنهم لم يذكروا في أنفسهم إلا الذنب والتقصير في حق اللَّه، وهو المراد من قولهم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ وهذا لتعلقهم باللَّه، من صدقهم في محبته سبحانه ومحبة رسله المكرمين، فلذلك كان منطقهم وضراعتهم، ولم يروا التدبير والنصر والعون إلا من عند ربهم، وهو المراد بقوله: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فكان مقامهم في عبودية اللَّه في غاية الكمال، فلذلك فازوا بجميع الثواب؛ لأنهم أرادوا خدمة مولاهم، ولم يريدوا الثواب: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ﴾ لا ببعضه، بخلاف النوع الأول الذي قصد الثواب مع قصور المحبة المنقص من كمال التضحية، فكان لهم بعض الثواب. هذا وليعلم أن كل من أقبل علىٰ خدمة اللَّه بصدق وإخلاص ومتابعة للنبي ﷺ، أقبل علىٰ خدمته كلُّ ما سوىٰ اللَّه.

ثانيًا: تخصيص ثواب الآخرة بالحسن تنبيهًا لعظمة ثواب الربيين الربانيين وجلالته، وذلك لأن ثواب الدار الآخرة كله في غاية الحسن مما خصه اللَّه بأنه حسن من هذا الجنس، فانظر كيف يكون حسنه؟ ولم يصف ثواب الدنيا بذلك؛ لأن لذاتها ممزوجة بالمصائب، ولأن مصيرها إلىٰ الانقطاع والزوال.

ثالثها: في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لطيفة دقيقة ذكرها الرازي؛ وهي أن هؤلاء الربيين اعترفوا بأنهم مسيئون؛ إذ قالوا: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ فلما اعترفوا بذنبهم سماهم اللَّه محسنين لحسن مراقبتهم له، فكأن اللَّه ﷻ يقول لهم: إذ اعترفتم بألسنتكم بتقصيركم

وعجزكم، فأنا أصفكم بالإحسان الذي هو كمال الدين وغايته، وأجعلكم أحبائي لنفسي حتىٰ تعلموا أنتم ويعلم غيركم ـ أيضًا ـ أنه لا سبيل للعباد إلىٰ الوصول إلىٰ حضرتي إلا بإظهار الذلة والمسكنة والعجز والاعتراف بالتقصير كما فعلتم. وأيضًا فإنهم لما أرادوا الإقدام علىٰ الجهاد سألوا اللَّه تثبيت أقدامهم في دينه ونصرتهم علىٰ العدو، فسماهم المحسنين.

قال القاضي: وهذا تأديب من اللَّه تعالىٰ في كيفية الطلب بالأدعية عند النوائب والمحن؛ سواء كان في الجهاد أو في غيره.

وقال ابن القيم: لما علم القوم أن العدو إنما يُدال[1] عليهم بذنوبهم وأن الشيطان إنما يستزلهم ويهزمهم بها، وأنها نوعان: تقصير في حق، وتجاوز حد، وأن النصر منوط[2] بالطاعة ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا﴾، ثم علموا أن ربهم ﷻ إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم لن يقدروا علىٰ تثبيت أقدامهم بأنفسهم: سألوه ما يعلمون أنه بيده، وأنه إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم لم يثبتوا ولم ينتصروا، فوفوا المقامين حقهما: مقام المقتضي، وهو التوحيد والالتجاء إليه سبحانه، ومقام إزالة المانع من النصرة، وهو الذنوب والإسراف[3]. اهـ.

قلت: وكذلك الصفوة من قوم طالوت وغيرهم، وقد أخرج البخاري في كتاب الجهاد بابًا: «كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار، أخر القتال حتىٰ تزول الشمس»، ونصه: عن سالم أبي النضر مولىٰ عمر بن عبيداللَّه ـ وكان كاتبًا له ـ قال: كتب إليه عبداللَّه بن أبي أوفىٰ رضي الله عنهما فقرأته: أن رسول اللَّه ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها، انتظر حتىٰ مالت الشمس ثم قام في الناس فقال: «**أيها الناس، لا تتمنَّوا لقاء العدو،**

(١) **يُدال**: ينصر.
(٢) **منوط**: معلَّق.
(٣) رواه البخاري (٢٩٦٦).

وسلُوا اللّه العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف». ثم قال: «**اللَّهم مُنزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب؛ اهزمهم وانصرنا عليهم**»[1]. وهذا تعليم من النبي ﷺ مرتكز علىٰ تعاليم اللّه في هذه الآيات.

هذا؛ وقد تكلمنا في فوائد الصيام علىٰ التربية، وعلىٰ قوة الإرادة واعتناء الإسلام بها في تربيته الروحية علىٰ العموم؛ لأن الإسلام دين عسكري سياسي عظيم، ولذلك اهتم بتقوية الإرادة، وصدق العزيمة، وباقتلاع الهزيمة النفسية وتطهير مكامن الخوف من صدور المسلمين، كما أطال اللّه البحث في قصة «أُحد»؛ لأن الإرادة علىٰ حسب ضعفها وقوتها تكبِّر الصغير، وتصغر الكبير، وترفع الوضيع، وتضع الرفيع، وبها تتسع دائرة وجود الشخص حتىٰ تحيط بأكبر المعمورة أو تزيد، بما يحصل عليه من كمال السؤدد والكرامة، وإتباع الأسباب بالأسباب للقيام بالزحف المقدس الذي لا يقف عند حد في سبيل إعلاء كلمة اللّه، كما أخبرنا التاريخ عن مخاطبة أحد أسلافنا لبحر «المانش» قائلًا له: «لو نعلم أن وراءك أناسًا لعبرناك إليهم».

وإذا كان الشخص يريد بجهاده دار البقاء، فإن وجوده يكون كبيرًا بحسب كبر إرادته، ويكون واسعًا علىٰ حسب سعة مقصده، وبذلك تعلو نفسه علىٰ نفوس من أخلدوا إلىٰ الأرض واتبعوا الشهوات، وكان حظهم من عملهم وحياتهم كحظ الحيوانات. فما أبعد الفرق بين تربية اللَّه في وحيه المبارك للمتمسكين به، وبين التربية الماسونية التي اختارتها القيادات في هذا الزمان! ألا إنها تربية حيوانية، ومهما اتسعت دائرتها أو قويت فلا تعدو وطن الرجل ومَربضه الحيواني.

أما تربية اللّه فهي تربية روحية كونية واسعة النطاق، تربية تربط المسلم بجناب اللَّه، وتجعله متكيفًا بأسمائه وصفاته، ومترفعًا عن

---

(١) انظر السابق.

دنس الدنيا. واللَّه قد جعل عطاء الناس معلقًا بإرادتهم، ومن فَقِه ما قُلته، فقه المصحف في قوله تعالىٰ: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

هذا وإن قوله تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن﴾ بمعنىٰ «كم»، و«الربيون» جمع ربِّي، وهو عابد الرب المتقي المخلص.

١٣ ـ مما يريد اللَّه به الارتفاع بعباده عن الهزيمة النفسية: تحذيره لعباده المؤمنين من طاعة الكافرين وأذيالهم المنافقين المتسترين تحذيرًا عامًّا في كل زمان ومكان، وذلك بقوله في الآيتين (١٤٩، ١٥٠) من السورة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾:

وقد جدد اللَّه التحذير بِهذه المناسبة؛ لأن كارثة «أحد» صارت مجالًا لدسائس الكفار وأذيالهم لتثبيط عزائم المؤمنين، وتخويفهم من عاقبة الثبات وتصوير مخاوف الجهاد، وتهويل شأنه ليزعزعوا نفوسهم، فلذلك شدد اللَّه في تحذيرهم ليرفع معنوياتهم، ويصونهم من الهزيمة النفسية والفكرية، ويوضح سوء عاقبة الإصغاء لأقوال الكفار وأذيالهم، وهي مشاركتهم في الكفر والخسران، وحرمانهم مما ناله ـ ويناله ـ النبيون من ربهم، وذلك لأن المصغي إلىٰ أقوال ضده في الدين، والواثق برأيهم يصبح متنازلًا عن عقيدته في أول وهلة، ولا يبقىٰ معه إلا مجرد الاسم وهيكل الصورة؛ إذ تذوب عقيدته، وتزول حقيقته إذا تبلورت حقيقته بدجل أعدائه وهمساتهم المسمومة، فيبقىٰ في هزيمة روحية أخطر من نكبته الحسية، ويظل في انهيار طيلة حياته؛ كما خططت الماسونية لضعفاء العقيدة أو فاقديها من الماديين الذين جعلتهم يُصغون إلىٰ أقوال الكفار ثقةً بهم من جهة، وخوفًا منهم من جهة أخرىٰ، فتضيع ثمرة كفاحهم، ويرفضون

النصر؛ فلا ينتفعون بنتائجه كما هو واقعهم الآن، ولهذا يقوي اللَّه سبحانه عزائم عباده المؤمنين فيذكرهم أنه هو مولاهم ومؤيدهم قائلًا: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ ليس لهم مولىٰ راحمٌ سواه، ولا نصيرٌ جابرٌ لكسرهم غيره، فلا يجيز لهم الاعتماد علىٰ غيره، ولا التلقي من غير طريق رسول اللَّه ﷺ.

فالمؤمن الصادق يستغني بمورد عقيدته الصافي من اللَّه، ويتكيف به دون التفات لما سواه، حتىٰ لا يختلط عقله بزُبالات الغش من أعدائه، فاللَّه ينهىٰ المؤمنين - أشد النهي - عن طاعة الكفار واستنصاحهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ بجحودهم نبوة محمد ﷺ ووحي اللَّه إليه فيما يأمرونكم به أو ينهونكم عنه، أو تقبلوا النصح منهم، فإنهم يحملونكم علىٰ الردة عن الإسلام والكفر باللَّه وما نزل من الحق، فترجعوا عن دينكم الذي هداكم اللَّه إليه ورفع رؤوسكم به، فتنقلبوا علىٰ أعقابكم وتكونوا خاسرين، تخسروا العزة وتكسبوا الذلة، وتخسروا الكرامة الحقيقية وتعودوا إلىٰ مستوىٰ البهائم، فتخسروا أنفسكم وتذهب دنياكم بآخرتكم.

فالمؤمنون ممنوعون من اللَّه ﷻ عن طاعة الكفار جميعًا علىٰ اختلاف أنواعهم ونزعاتهم؛ فإنهم لا يريدون بالمسلم المؤمن خيرًا؛ بل يحرصون علىٰ ضلاله وإضلاله، وعلىٰ هوانه وخسرانه وإذلاله مهما قدروا، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥]. وقال: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩].

وفي قوله تعالىٰ: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ تصوير بشع فظيع لسوء عاقبة طاعتهم، وتقبُّل ما يصدر منهم ليكون غايةً في

التحرز منهم والمجانبة لهم، فلا يطاعون في شيء، ولا يؤخذ رأيهم في شيء؛ لأن ذلك يجر إلىٰ موافقتهم والثقة بهم، وهذا محرم ومصادر للعقيدة، ومفسد للتصور وجالب للنقص والهزيمة؛ خصوصًا وأن سبب تخلي الرماة يوم «أحد» عن الجبل ـ المأمورين بعدم مفارقته ـ هو إشاعة الكافرين البارزين والمنافقين أنه قد اختفت بعض الغنائم يوم بدر، فقبولهم لهذه الإشاعة الفاجرة من المصادر الكافرة هو الذي جر عليهم الهزيمة حين عصوا رسول اللّه ﷺ لهذا السبب، ثم إنهم بعد هزيمة أُحُد نشطوا في إلقاء الشبهات والتشكيك بنبوة محمد ﷺ وبما جاء به من الهدىٰ ودين الحق؛ زاعمين أنه لو كان صادقًا لم يهزم ولم ينل منه أعداؤه ما نالوا، وقد أشبعنا الكلام علىٰ قوله سبحانه في الآية (١١٨): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ﴾ وما بعدها، وأنه ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وفي إطلاق اللّه سبحانه للخسران بقوله: ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ دليل علىٰ خسرانهم في الدنيا والآخرة، وأنَّ خسرانهم علىٰ سبيل العموم من كل وجه ـ والعياذ باللّه ـ: أما خسران الدنيا فهو وقوعهم في مصائد الأعداء مع انقيادهم لهم والتذلل لهم أمامهم وإظهار الحاجة إليهم، وكونهم يخسرون الصفقة في الحرب لعصيانهم القائد من رسول أو خليفته أو أي قيادة إسلامية، وإن كانت طاعة الكفار من قيادة خاملة أو فاسقة خسر الجنود المسلمون معركتهم، وكانت نتيجة قتالهم وبذلهم وتضحياتهم لأعدائهم كما هو الواقع قديمًا وحديثًا، ففي كلتا الحالتين هم واقعون في خسران الحياة الدنيا، زيادة علىٰ ما يستقبلهم من الخسران في الحياة الآخرة، ذلك الخسران الذي ليس له تعويض ولا إقالة؛ بل هو الثواب المقيم، والوقوع في العذاب الأليم.

وفي حكم اللّه عليهم بالارتداد علىٰ الأعقاب إن هم أطاعوا الكفار أو أخذوا من رأيهم، تعليم حسي حتمي، وتصوير واضح لحقيقة

مصيرهم، وذلك أن المؤمن يجب عليه أن يعتز بعقيدته غاية الاعتزاز، ويعادي مخالفها، ويصمم علىٰ مواصلة حربه، ويكون ليثًا صائلًا للذب عن دينه، لا يتميع أمام أعدائه أو يثق برأيهم ومسالمتهم، فإن لم يحاربهم ويقصهم حاربوه لا محالة، ولا يمكن أن يتركوه حتىٰ يطمئنوا من ارتداده عن دينه، وإلا فسيحشدون جميع قواهم من الغزو الفكري حتىٰ العسكري إلىٰ أن يحطموا المسلمين نهائيًّا.

ولا يمكن للمسلمين أن يقفوا علىٰ الحياد بعد الهزيمة مسالمين الغالب دون أن يفتنهم، ولا يمكنهم الاحتفاظ بدينهم وعقيدتهم وكيانهم مع طاعة الكفار وموافقتهم قطعًا. هذا شيء حتمي، وقد أوضحت مرارًا أن من لم يغز لابد أن يغزىٰ، وأن الذي لا يزحف بعقيدته إلىٰ الأمام لابد له من الرجوع إلىٰ الوراء، فالذي لا يكافح الضلال والباطل والطغيان سيتراجع عن كثير من عقيدته ودينه في تخاذله وتقهقره، حتىٰ يرتد علىٰ عقبيه راجعًا إلىٰ حالته الأولىٰ.

وها نحن نرىٰ المطيعين للكفار من العرب الذين هم أشبال أسود التوحيد يقولون: «نحن عرب قبل أن نكون مسلمين»، متقبلين هذا الإفك العظيم من النصارىٰ الذين جعلوهم إخوانًا لهم في العروبة من دون المسلمين، هاضمين هذه الإهانة الشنيعة والسبة الفظيعة التي تجعلهم مبتورين من اللَّه ومفلسين من كل هدي ورسالة من أصلهم، وأن الوثنية أصيلة فيهم والإسلام دخيل عليهم، والدخيل معروف حكمه عندهم وعند غيرهم ـ والعياذ باللَّه ـ.

فهذه الكلمة لها مغزاها الخبيث من الماسونية مع كونها أكبر شتيمة للعرب، ولٰكن هزيمتهم النفسية جعلتهم يقبلونها، ويتبجحون بها كأنها مفخرة، وهي أكبر مسبة لفساد تصورهم الناشئ من هزيمتهم النفسية والعقلية والروحية جميعًا، وإلا فالمسلم المؤمن يجد في عقيدته غناء عن الالتفات إلىٰ أعدائه في الطاعة والمشورة، ويجد قوةً عن التخاذل أمامهم إذا اعتصم باللَّه، ولهذا يقول اللَّه للمسلمين المؤمنين:

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠﴾ لأن بواعث الميل إلىٰ الكفار هي طلب النصرة والحماية، وهذا وهم ناشئ من تخذيل الشيطان وتوهينه.

ولا يطلب النصر من عدوه إلا المنحرف عن دينه، فاقد الاستقلال العقلي، فاللَّه سبحانه هو ولي المؤمنين الصادقين الثابتين، ينصرهم علىٰ عدوهم حتىٰ بغير قتال؛ مثل إلقائه الرعب في قلوب الكفار - كما سيأتي -، وحرف «بل» للإضراب الذي هو ترك الكلام الأول من غير إبطال له، ولكن لصرف الحكم عن الكلام الذي قبله إلىٰ ما بعده. والمعنىٰ أنكم إنما تطيعون الكفار طمعًا في نصرتهم إياكم وإعانتكم علىٰ مطالبكم، وهذا جهل فظيع، بل الناصر لكم هو اللَّه؛ الذي إن دخلتم في ولايته بالثبات علىٰ الإيمان - الذي لا يكون إلا بالجهاد - فاللَّهُ هو مولاكم القادر علىٰ نصرتكم حقيقةً، والعالم بضراعتكم وحاجتكم إليه، والرحيم بكم رحمةً نافعةً لكم وقاهرةً لأعدائكم، فلا تعتمدوا إلا عليه، ولا تتعلقوا بغيره، بل احصروا اتجاهكم إليه وتوكلكم عليه، فهو مولاكم الذي ليس لكم مولًىٰ سواه أيها المؤمنون، وكل ما سواه باطل يتلاشىٰ ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾، فهو سبحانه خير ناصر لا يحتاج عباده المنتصرون به إلىٰ نصرة غيره أبدًا، لا في مدد، ولا في بيع سلاح، ولا في تغطية جوية من بعض الكفار، كما يزعمه العصريون الذين بدلوا قولًا غير الذي قيل لهم، وخبطوا أدمغة المغفلين من المسلمين - وما أكثرهم! -، فأصبحوا يلتمسون المعاذير لهم في تخاذلهم أمام اليهود الأخساء الجبناء.

وفي هذه الآية وما أشبهها دليل - بل أقوىٰ دليل - علىٰ أن المجاهد بقصد إعلاء كلمة اللَّه وتحكيم شريعته لا يغلبه غالب أبدًا؛ لأن اللَّه حينئذٍ يكون مولاه وناصره؛ كما قال: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٨﴾ [محمد]، وقد أسلفنا بيان المعاني الستة للتعاسة، فالعدو يكفيه واحد منها.

وقد أردف اللَّه هذا التأكيد للولاية والنصر بقوله ﷻ: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾، وقد أسلفنا بيانه، وسنزيد توضيحه قريبًا - إن شاء اللَّه تعالىٰ -.

والحاصل: أن طاعة المسلم للكافر تجر عليه الويلات الكثيرة المتنوعة، بما تفسده من سيرته وتصوراته، وتجعله مدخولًا قليل الانتفاع بعقله، كما نرىٰ المعاصرين لنا من القوميين، يلوكون كلمات يتشدقون بها كأنها مفخرة وهي في الحقيقة انتكاس عقلي أحدث فيهم مُركب نَقص وهزيمة نفسية عميقة، فمنها قولهم: «نحن نساير الرَّكب البشري أو الركب المتحضر»، وهذا منطق لا يتفوه به من يحمل عقلًا استقلاليًّا ويحترم نفسه؛ إذ ما قيمة الإمَّعات التابعين لغيرهم؟!

والعجب أنهم يدعون لأنفسهم الوعي والترقي والتمدن والتحرر، ويزعمون أنهم الجيل الصاعد، ويضفون علىٰ أنفسهم الألقاب الجليلة، ثم يتبجحون بالتبعية لغيرهم! ومن زادت ثقافته منهم فمبلغه من العلم والفهم هو الإعجاب بالغربيين، والدعوة الصارخة لاقتفاء آثارهم. فحالتهم منافية لدعاويهم ومعاكسة لألقابهم؛ لأن منطقهم يعلن أنهم صِفر اليدين، وأنهم شاردون عن دينهم، ونافضون أيديهم من كل هدىٰ ورسالة، ومن كل المقومات النابعة منهما؛ لأن المساير لغيره كافر بجميع ذلك الذي رفضه، وغير واثق به ولا مقتنع، بل يفتخر بمتابعة الغير ويعتز بها، وهذا شيء لا يقبله الكافر الأصلي المرزوق عقلًا فطريًّا، بل يقتدي بأسلافه ولا يرضىٰ بمتابعة غيرهم، فكيف كان مصير أولاد المسلمين هكذا؟!.

إنها نتيجة طاعة الكفار وإن الهوىٰ يعمي ويصم، وإلا فلو عرفوا واجبهم أمام اللَّه وقيمتهم التي اختارها اللَّه لهم بين الأمم، وهيأها لهم في وحيه المبارك؛ وهي كونهم مُسيِّرين للعالم لهداية اللَّه، والسلوك لهم صراط اللَّه، والعمل علىٰ إصلاح ما أفسدوه، لا متابعتهم علىٰ الفساد إعجابًا بفسادهم، فإن فسادهم كثير لفساد تصوراته، وما كان

عندهم من صلاح فعند المسلمين أضعافه بل جميع ما شرفنا اللَّه به صلاح كامل دائم.

فهؤلاء الذين يتبجحون بمسايرة الركب؛ ألَا يعلمون أنهم قد تنازلوا عن حقيقتهم وعن شخصياتهم ورجولتهم؛ بل عن معاني الإنسانية الحقة، وصاروا كالمعتوه الذي يدخل رأسه في ربقة حبل النخاسة ليقوده النخاسون عبدًا ذليلًا؟!.

إن اللَّه أوجب عليهم أن يكونوا قادةً لا مقودين، وأن يسيِّروا الناس ولا يسايروا أحدًا من الناس قطعًا، وما قيمة المساير عند من يسايره ويترسم خطاه؟ إنه يعتبره مكسوبًا له ويفرح بنجاحه في تضليله وكسبه، وما مثل المساير إلا كالحيوان المقطور بذنب حيوان آخر، هذا أحسن مثل له، ويجوز تمثيله بثور المدار أو حماره، فأين معنىٰ التحرر والوعي والترقي والحضارة والصعود؟!.

ومن النتائج السيئة لطاعة الكفار والانخداع بغزوهم الفكري: قول هؤلاء المنخدعين: «نحن نتمشىٰ مع الواقع، وفلان متحرر يمشي مع الواقع»، وهذه انهزامية شنيعة منهم. ويلزم الكفر بآيات اللَّه ورسالته، كالتي قبلها من مسايرة الركب، فإن اللَّه أوجب علىٰ ورثة محمد ﷺ إصلاح الواقع، وتغيير كل منكر، وكلِّ شيء مخالف لما أنزل اللَّه.

فهذه الكلمة تستلزم إبطال الرسالات الإلهية جميعًا؛ لأنه لو صح التمشي مع الواقع أو مسايرة ركب الحياة ـ كما يزعمون ـ، لما صح إرسال الأنبياء والمرسلين؛ إذ لا فائدة من النبوات والرسالات إذا صح عذر المتمرد عليها والمخالف لها بأنه يتمشىٰ مع الواقع، ولو قال هذه الكلمة أبو جهل ونحوه لأنزل اللَّه فيه من الوحي ما يجعله أضحوكةَ الساخرين. فليحمد هؤلاء اللَّه علىٰ انقطاع الوحي الذي سلموا به من الخزي الذي لا يقدرون علىٰ ستره كما يسترون الهزائم

والخيانات بأنواع الإفك والتضليل، فتعسًا للتمدن والتحضر الذي هذه عاقبته!.

فهذا ـ ويا للأسف ـ مبلغهم من الثقافة والوعي والتحرر والصعود، وهذه بضاعة «الجيل الصاعد» و«الركب المتحرر» ـ ونحوه من مزاعمهم ـ؛ أن يكونوا مسايرين لركب الحضارة المادي الوثني، ومتمشين مع الواقع الذي هو من آثار الغزو الفكري.

ومن النتاج السيئة لطاعة الكفار والاقتداء بهم: إباحتهم لما حرم اللَّه من الخمور والفواحش، وتشريعهم القوانين الديوثية الحامية للفساق من إقامة حدود اللَّه. وإذا ناقشهم مناقش عن هذا العمل الكفري الشنيع، قالوا: «إن بلادنا سياحية»!! فهل رب العزة سبحانه اختار العرب ليكونوا جباةً لمال السحت الحرام، أو اختارهم دعاةً لدينه وتوزيع هدايته؟ يا لها من انتكاسة قبيحة وتفضيل للدناءة والتقليد الفردي علىٰ شرف القيادة ورفعتها، فهل هذه نتيجة التقدمية؟! ومن النتائج السيئة لطاعة الكفار وتقليدهم حصر الأعمال والبذل وكل تضحية في سبيل الوطن لا في سبيل اللَّه، وصيامهم من أجله لا للَّه مما يعتبر شركًا فظيعًا، وتفضيلهم الكافر الوطني علىٰ المسلم الخارجي وهذا مناقض لعقيدة الإسلام.

ومن النتائج السيئة الخطيرة: دعوتهم الصارخة إلىٰ السلم، ورفضهم الجهاد المحتم عليهم للزحف المقدس بالرسالة، وفرض حكم اللَّه علىٰ المتمردين عليه والمتطاولين علىٰ سلطانه في الأرض، وإعلانهم علىٰ رؤوس الأشهاد أن ليس لهم عدوٌّ إلا الصهاينة، وأن اليهود وغيرهم من الكفار إخوان لهم، ولم يعادوا ما يسمونهم بالصهاينة إلا لإقامتهم حكمًا دينيًّا، ولو رفضوا الدين كما رفضوه لاعتبروهم إخوانًا، وهذه مناقضة لدين الإسلام.

وقد تقمصوا كثيرًا من عقائد الكفر وأخلاقهم بسبب طاعتهم للكفار، وقبولهم لمذاهبهم وأفكارهم السيئة التي يظنون بها في اللَّه

الظنون الفاسدة حتىٰ إنهم لم يجعلوا اللَّه وليًّا ولا نصيرًا، ولذا لا يحبون القتال ولا يريدونه، ولا يذكرونه إلا لمجرد التهديد الكاذب، ويخدعون شعوبهم بعدم رغبتهم بالجهاد وعدم صدقهم فيه بأن الدول الكبار لا تعطيهم سلاحًا، كما تعطي عدوهم؛ وذلك لعدم توكلهم علىٰ اللَّه ﷻ وتصديقهم بوعده ووحيه العزيز القائل في حق أعداء المؤمنين: ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩]، وأنه خير الناصرين ينصر عباده ولو بغير قتال ـ كما سنذكره ـ.

وقال في هذه الآية: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ أي هو مولاكم، فيجب عليكم أن تنقادوا له بالطاعة تمام الانقياد، ولا تطيعوا جهة من جهات الكفر تستنصرون بها بطلب مدد أو سلاح؛ فإن اللَّه مولاكم ـ أي وليكم ـ إذا أطعتموه، وناصركم علىٰ أعدائكم مهما كانوا، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ لا من توجهتم إليه من أعدائه وأعدائكم، طامعين بهم طمع الأحمق، فاعتصموا باللَّهِ، واستنصروا به دون من سواه؛ إن كنتم عقلاء راشدين.

واعلم أن اللَّه لم يقتصر في كتابه العزيز علىٰ مطلق النصر الذي معناه في اللغة إغاثة المظلوم، بل صرح بأن ذلك النصر هو نصر غلبة؛ كما قال سبحانه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة]، ومعنىٰ الغلبة في القرآن ظاهر مشهور، وقد صرح ﷻ بأن ما وعده رسله لا يمكن تبديله؛ وذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام]، ولا شك أن قوله تعالىٰ: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١] من كلماته التي لا مبدل لها، وأن هذا عام في غلبة الرسل ونصرهم مع الصادقين المؤمنين من أتباعهم إلىٰ يوم القيامة؛ كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح].

وقد أسلفنا أنه لم يُقتل نبي في جهاد، وقد قرر العلماء أن من قتله

أعداؤه من الأنبياء وأتباعهم فإن اللَّه ينصرهم بعد الموت والانتقام من أعدائهم بما شاءه اللَّه سبحانه من العقوبات، ولو بتسليط بعضهم علىٰ بعض، كما هو المشاهد حتىٰ الآن؛ فإن أعداء الإسلام يفني بعضهم بعضًا بالمؤامرات حتىٰ تأكلهم الثورات الناجحة والفاشلة.

وقد نفي ﷻ عن المنصور أن يكون مغلوبًا نفيًا قاطعًا بقوله: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وقد ذكر بعض المفسرين أن بعض الناس قالوا عن فارس والروم: لا يغلبهم النبي ﷺ وأصحابه لكثرتهم وقوتهم، فأنزل اللَّه هذه الآية: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، وفيها دليل علىٰ أن الغلبة المذكورة هي بالسيف والإخضاع، وأن أمة النبي مقصودة معه كما قدمنا، وقد حصل لأمة محمد ﷺ الغلبة التامة بنصر اللَّه لهم علىٰ فارس والروم وما وراءهم من البلاد ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: ٤٧].

١٤ ـ مما يرفع اللَّه به عباده عن الهزيمة النفسية: تجديد وعده الصادق بإلقاء الرعب في قلوب أعدائه، وذلك تقوية لمعنوية المتقين وتثبيتًا، كما قال اللَّه تعالىٰ في الآية (١٥١) من السورة:

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)﴾:

والمعنىٰ: سيُلقي اللَّه في قلوب أعدائكم الكافرين باللَّه والجاحدين نبوة محمد ﷺ ممن حاربوكم يوم «أحد»، وممن يحاربونكم بعدهم إلىٰ آخر الدهر، وقد أتىٰ بالسين القريبة للاستقبال في قوله: ﴿سَنُلْقِي﴾ والإلقاء حقيقة في الإجرام، واستعمل للجَعل استعارةً، ونظيره ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ [النور: ٤]، والرعب هو الذعر والهلع، وفي هذا تثبيت للمسلمين وتفريح لهم، وغرس للآمال في قلوبهم أنه يهزمهم عنهم بالرعب، وذلك بسبب إشراكهم باللَّه وعبادتهم أهواءَهم من الأصنام وغيرها مما لم ينزل اللَّه به عليهم سلطانًا ـ أي حجة ـ، وليس المعنىٰ

أن هنالك سلطانًا لما ينزله اللّه، وإنما المعنىٰ نفي السلطان، يعني آلهة لا سلطان في إشراكها فينزل.

فالمراد نفي السلطان والنزول معًا، ولهذا شواهد شعرية في كلام العرب، وقد كان الإشراك باللّه سببًا لإلقاء الرعب وتأثيره العظيم؛ لأن المشركين يكرهون الموت ويؤثرون الحياة، إذ لم تتعلق آمالهم في الآخرة، ولا يؤمنون بثوابها ولا عقابها، وهذا معنىٰ ما أسلفناه من قوله تعالىٰ: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، فاعتقادهم ذلك هو المؤثر في رغبتهم في الحياة الدنيا وفي زلزالهم بالرعب.

وفي قول تعالىٰ: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ دليل علىٰ إبطال التقليد في أصل العقيدة، إذ لا دليل مع المقلد. والأعظم منه قوله تعالىٰ: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾، فإن إسناده إلىٰ المتكلم بنون العظمة مشعر بعظم ما يُلقىٰ من الرعب؛ لأن اللّه أسنده إلىٰ عظمته.

وفي هذه الآية وعد كريم من اللّه لأصحاب محمد ﷺ وأتباعهم إلىٰ يوم القيامة بالنصر علىٰ أعدائهم - ولو بغير قتال - إذا استقاموا علىٰ عهده وتمسكوا بطاعته، كي لا يظنوا أن لأعدائهم عاقبة نصر أو ظهور عليهم إذا حققوا طاعة اللّه ورسوله ولم يخالفوا شرائع دينه أو يتنكبوا عن سنة اللّه؛ لأن النصر لا يتحقق إلا بحصول ذلك.

وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «**وإياك والمعصية؛ فإن بالمعصية حَلَّ سخط اللّه**»[١].

وقد بشر اللّه المؤمنين بنصرهم بعد وقعة «أحد» بالرعب الذي يلقيه في قلوب الكفار، فينذعروا من المؤمنين، وأفادهم أن السبب في إلقاء الرعب عليهم هو إشراكهم باللّه، وعلىٰ قدر الشرك يكون الرعب، ومن فضل المادة علىٰ طاعة اللّه ورسوله ففيه شيء من الشرك.

---

(١) رواه أحمد (٥/٢٣٨).

وفي هذه الآية إشعار بأسباب الخذلان ليحذر المؤمنين من مواقعته.

قال القاشاني: جعل إلقاء الرعب مُسببًا عن شركهم؛ لأن الشجاعة وسائر الفضائل عنده آلات في قوىٰ النفس لتنورها بنور التوحيد، فلا تكون تامةً إلا للموحد الموقن في توحيده، أما المشرك فلأنه محجوب عن منبع القدرة بما أشرك باللَّه من الوجود المشوب بالعدم الذي لم يكن له بحسب نفسه قوة، ولم ينزل اللَّه وجوده حجة، فليس له إلا العجز والجبن وجميع الرذائل. اهـ.

قلت: وهذا إذا قابله أهل الإيمان المحققين لطاعة اللَّه علىٰ التمام، فإن الكفار يخافون عند ملاقاة أهل الإيمان بما قذف اللَّه في قلوبهم من الرعب، فوعد اللَّه حقٌّ يكفل للمؤمنين النصر إذا وجدت حقيقة الإيمان في ضمائرهم، ووجد شعورهم بولاية اللَّه وثقتهم الكاملة بها، ولم يخالجهم أي شك في حصول الغلبة لجند اللَّه، وأن القوة للَّه جميعًا، وأن الكفار لا يُعجزون اللَّه، وليس أحد بمعجزه في الأرض ولا في السماء؛ فهم مغلوبون مرعوبون مقهورون؛ إذا قابلهم المؤمنون الصادقون، الذين ذكر اللَّه أوصافهم في القرآن في أوائل سورة الأنفال والمؤمنون، وأواخر سورة الفرقان، وأواسط سورتي السجدة والحجرات، فإن صلتهم باللَّه وقوة يقينهم بوعده الذي يعتبرونه أصدق مما تشاهده العيون وتلمسه الأيدي، تجعلهم يقدمون علىٰ نيران العدو بدون مبالاة، وأما الكفار فلخواء قلوبهم من الروحانية قد فقدوا السند الإلهي؛ لأنهم يستندون إلىٰ ذي القوة المتين ﷻ، بسبب إشراكهم به وتعلقهم بغيره، فإنهم يعبدون ما لا ينفعهم قطعًا ولا يجلب لهم نصرًا، ففعلهم ظلم عظيم كما وصفه اللَّه تعالىٰ، وذلك لإعطائهم غير اللَّه خصائص الألوهية من العبادة والتشريع للناس علىٰ خلاف شرع اللَّه، وإباحتهم ما حرم اللَّه واستعلائهم علىٰ عباد اللَّه بإلزامهم قبول التشريعات الباطلة الديوثية.

فالشرك معناه عميق، يدخل فيه الناطق بالشهادتين إذا سلك شيئًا من هذه المسالك، حتىٰ تفضيل حب المادة علىٰ حب اللَّه ورسوله ﷺ، ولهذا عاقب اللَّه المنصرفين إلىٰ الغنائم يوم «أحد» تاركين ثغر الإسلام مكشوفًا، وأحل بهم العقوبة جميعًا؛ لأن عقوبته لا تختص بالظالمين؛ بل تعم المرافقين لهم تأديبًا من اللَّه وتربية، فإنه سبحانه خلق الثقلين خاصةً لينتسبوا إليه بالعبودية وحده بدون شريك من أي محبوب، ويذعنوا لأوامره ويتلقونها بالقبول بكل رضاء وتشرف، ولا يجعلون لأنفسهم الخيرة فيما قضاه اللَّه واختاره؛ كما قال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [القصص].

ولقد تحقق حصول الرعب للكفار كلما قابلهم المؤمنون الصادقون في كل زمان ومكان، بحيث لم تجر عليهم كارثة بعد يوم «أحد».

وقد ثبت في «الصحيحين» عن جابر بن عبداللَّه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**نُصرت بالرعب مسيرةَ شهر**»(١)، وهذا طرف من حديثه الذي ذكر فيه ﷺ ما أعطاه اللَّه من الأمور الخمسة العظيمة. وهذا الرعب ليس خاصًّا به، بل حظيت به أمته الصادقة مع اللَّه، المخلصة مقاصدها للَّه كما قصه التاريخ وشاهدناه عيانًا مما حصل للقائمين بأمر الإسلام، وكم من مرة انهزم فيها الباطل علىٰ كثرته وقوة سلاحه أمام الحق الأعزل من ذلك، وهذا بسبب ما يلقيه اللَّه من الرعب في قلوب أهله إذا قام المسلمون بنصرة اللَّه.

قال القفال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كأنه قيل: إنه وإن وقعت لكم هذه الواقعة في يوم أُحد، إلا أن اللَّه سيلقي الرعب منكم بعد ذلك في قلوب الكافرين، حتىٰ يقهر الكفار، ويظهر دينه علىٰ سائر الأديان، وقد فعل اللَّه ذلك حتىٰ صار دين الإسلام قاهرًا لجميع الأديان والملل. اهـ.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢٣).

وقد أخرج ابن جرير عن السدي: أنه لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم «أحد» إلىٰ مكة، وبلغوا بعض الطريق ندموا، وقالوا: بئسما صنعتم، قتلتموهم حتىٰ لم يبق إلا الشريد فتركمتوهم، ارجعوا فاستأصلوهم[(١)]، فقذف اللّٰه في قلوبهم الرعب فانهزموا، فلقوا أعرابيًّا، فجعلوا له جعلًا علىٰ إخبار النبي ﷺ وأصحابه بأنهم قد جمعوا لهم، فأخبر الأعرابي الرسول، فطلبهم حتىٰ بلغ حمراء الأسد[(٢)]، فأنزل اللّٰه تعالىٰ هذه الآية يذكر فيها أمر أبي سفيان وأصحابه، وأثنىٰ اللّٰه علىٰ المستجيبين له ولرسوله حين طلبهم في الآية (١٧١، ١٧٤) من هذه السورة المباركة.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ تبيانًا لقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾، بذكر بعض أنواع نصره للمؤمنين الصادقين المخلصين من إلقاء الرعب في قلوب الكفار، فتكون مضطربةً تستولي عليها الوساوس والأوهام، فيذعروا ويشتد خوفهم ويأسهم، وكذلك من قلدهم في بعض العقائد والأخلاق، وإباحة الحرام والعمل للطين لا للدين، فإن اللّٰه يعاقبهم بالرعب الذي يخيفهم من الكفار.

وكحالة المحسوبين علىٰ الإسلام، والمدعين له في هذا الزمان ممن يعملون ويبذلون ويقاتلون في سبيل القومية والوطنية ويحكمون بغير ما أنزل اللّٰه تقليدًا للكفار، فإن اللّٰه يحجب نصره عنهم، ويسلط عليهم الكفار الذين ساروا في ركابهم بحجة التمشي مع الواقع ومسايرة الركب الوثني المتحرر المتحضر بزعمهم؛ لأنهم أشركوا باللّٰه شرك تعطيل أفظع من شرك الكفار الأوائل كما أسلفنا.

إن هذا إعراض عن اللّٰه، وتعطيل للنبوات، وهجران للوحي، واطراح لدين اللّٰه، فلا يجوز لأحد أن يحتج علىٰ القرآن بحالة أدعياء

---

(١) رواه النسائي في «الكبرىٰ» (١١٠٨٣).

(٢) انظر السابق.

الإسلام اليوم، ويقول: أين نصر اللَّه لهم بالرعب، وهم المرعبون المطبوعون بقوة الكفار ولو كان عندهم قوة، فإنهم شابَهوا الكفار في كثير من أنواع شركهم وعطلوا رسالات اللَّه، ولم يقاتلوا في سبيله، بل اشتركوا مع الكفار بالقتال في سبيل الطاغوت، فيكون لهم من الرعب نصيب، ولا يلقي اللَّه في قلوب أعدائهم شيئًا من الرعب ما داموا علىٰ هذه الحال؛ لأن رعب الكفار المشركين مرتبط بصدق إيمان المؤمنين، وما يكون له من الآثار. فالقرآن باقٍ علىٰ وعده للمؤمنين الذين ذكر اللَّه أوصافهم فيه ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ١٤٧].

فالمشركون به حظهم الرعب في الدنيا إذا قابلهم المؤمنون، وحظهم في الآخرة النار الموقدة التي تطلع علىٰ الأفئدة، فهم في الدنيا مرعوبون وفي الدار الآخرة معذبون، كما ختم اللَّه الآية بقوله: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، فقد بالغ اللَّه ﷻ في ذم مثواهم، وجعل النار مثواهم، أي مكانهم الذي يأوون إليه، زيادةً علىٰ ما يصيبهم في الدنيا من الخزي والخذلان، وحكم عليهم بالثواء فيها، وهو الإقامة التي لا خلاص لهم منها، بسبب ظلمهم لأنفسهم، ومجاوزتهم حدود اللَّه بالإشراك به، ومعاداتهم للمؤمنين، فهذا مصيرهم، وهكذا خَلَفُهم من الماديين أصحاب النزعات القومية والمذاهب الوطنية والماركسية، ممن اتخذوها وأربابها أصنامًا ناطقةً يعملون من أجلها، ويقاتلون في سبيلها.

١٥ ـ من النصوص التي يقي بها اللَّه عباده من الهزيمة النفسية قوله تعالىٰ في الآية: (١٥٢) من السورة:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾:

فقوله: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ يعني تقتلونهم؛ لأن القتل فيه ذهاب الإحساس أي تذهبون حسهم، وفي هذا تذكير من اللَّه لهم، بصدقه لوعده لهم، حيث أجرىٰ لهم النصر بادئ الأمر لما كانوا جميعًا علىٰ مقصد واحد هو إرادة وجه اللَّه، فاستحر القتل بالمشركين حتىٰ أدبروا وتركوا رحالهم غنيمةً، وهم لم يقتلوا منهم سوىٰ اثنين وعشرين رجلًا، ولكن اللَّه ﷻ ألقىٰ في قلوبهم الرعب الذي هو من أنواع نصر اللَّه للمؤمنين، ولكن بعد ما اختلت مقاصد بعضهم، وفضلوا المسابقة إلىٰ الغنائم علىٰ طاعة الرسول ﷺ بالتزام الجبل، ابتلاهم اللَّه بمكروه الهزيمة بعد فرح النصر تأديبًا لهم، وتربية في المستقبل.

وقد قيل: إن هذه الآية نزلت جوابًا لمن رجع من المؤمنين إلىٰ المدينة، متسائلين عن وعد اللَّه بالنصر الذي فقدوه لما خالفوا أمر الرسول بالثبات في الثغر مهما صار الأمر، فأخبرهم اللَّه أن السبب في انتكاسة النصر هو من فعلهم الشنيع، الذي هو عصيان الرسول، الناشئ من تفضيل المادة علىٰ الثبات والمصابرة، وذلك بسبب اختلال نياتهم في إيثارهم الدنيا علىٰ ما عند اللَّه في الآخرة، والنصر المحبوب لهم والإمداد السماوي مشروط بالصبر والتقوىٰ، وقد ذكرهم اللَّه بنصره لهم بادئ الأمر قبل أن تختلف نياتهم.

وقد احتوت هذه الآية وما بعدها علىٰ مخاطبة الجميع دون تعيين، وذلك لستر اللَّه علىٰ المخالفين بأشخاصهم، وتوجيه الخطاب علىٰ سبيل الإطلاق لهذا الغرض، وأنهم لما تركوا الشرط الذي هو الصبر والتقوىٰ فاتهم المشروط الذي هو النصر والتأييد، وقد قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال]. والتنازع والفشل الذي سبَّب الهزيمة علىٰ المسلمين: هو ما صدر من الرماة الذين وصاهم النبي ﷺ بلزوم الثغر وإن انهزم المشركون، وقال لهم: «**إنا لا نزال غالبين ما ثبتم مكانكم**»،

ووعدهم بالنصر إن هم أطاعوه وثبتوا علىٰ أمره.

فلما انهزم المشركون تنازع الرماة في الاستمرار علىٰ الطاعة والثبات أو إخلاء الثغر والتسابق إلىٰ الغنيمة، حتىٰ أدىٰ بهم التنازع إلىٰ إخلاء الثغر الذي استغله المشركون بعدهم، وكما حصل التنازع منهم فقد حصل من المسلمين بسببهم حين صاح شيطان من شياطين الجن أو الإنس أن الرسول محمدًا قد قتل، فحصل التنازع الذي أورثهم الفشل. والفشل هو الضعف والجبن؛ لأن التنازع ـ الذي هو التجاذب في الأمر ـ يزلزل الروح المعنوية حتىٰ تزل الأقدام بعد ثبوتها، فما جرىٰ من آثار صيحة الشيطان بعد عصيان الرماة من التنازع المورث للفشل وذهاب الريح، هو السبب في انقطاع نصر اللَّه بعد تحصيله، حتىٰ حصل علىٰ المسلمين الانكسار نتيجة ذلك، وقد خصص اللَّه ما عممه بقوله تعالىٰ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾، كالذين ثبتوا من الرماة حتىٰ قتلوا، وكالذين فدوا بأرواحهم رسول اللَّه ولم يتأثروا بصيحة الشيطان.

وقد نبه اللَّه المؤمنين علىٰ عظم المعصية وشؤمها اللَّه بقوله سبحانه: ﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾؛ لأنهم لما شاهدوا إكرام اللَّه لهم بالنصر الذي هو إنجاز لوعده، وجب عليهم الثبات علىٰ الطاعة وعدم الإقدام علىٰ المعصية، فلما أقدموا عليها سلب اللَّه منهم إكرامه، وأذاقهم وبال أمرهم تربية لهم، ليستقيموا علىٰ الجهاد للَّه لأنهم أمة الجهاد.

وفي هذه الآية معجزة لنبينا ﷺ حيث أخبرهم عن مكنونات ضمائرهم مما أسروه في هذه الحادثة وما أعلنوه، حيث جاءه الوحي راسمًا مشهد المعركة، ومتناولًا ما حصل للصحابة من النصر والهزيمة، وموضحًا أسبابها وجميع حركاتهم وخواطر نفوسهم، وما خالجهم من قنوط أو قوة رجاء وشدة بأس، ومصورًا اختلافهم وتفرق وحدتهم وأهدافهم وانعكاس أحوالهم، بحصول الرعب لهم لا

لأعدائهم، وتغير إخلاصهم الذي يوجب عليهم التجرد للَّه من كل طمع مزعزع لإيمانهم.

كل هذا صوره القرآن تصويرًا يكون معجزةً لمحمد ﷺ، وتصديقًا لما جاء به من عند اللَّه، وذلك لتركيز العقيدة وتقويتها في قلوبهم؛ لأن معركتهم معركة عقيدة، ومعركة العقيدة ليست كغيرها من المعارك المادية والعصبية، فهي معركة توجب علىٰ أهلها أن تكون أهدافهم سماويةً لا أرضيةً، ومن كانت أهدافه سماويةً ربانيةً فلابد له من الانتصار الداخلي في معركته النفسية، معركة الضمير، فمن غلبته نفسه وصرعته أهواؤه المادية، فإنه يكون محرومًا من الانتصار الخارجي علىٰ عدوه، كما أسلفنا توضيح ذلك في قصة قوم طالوت.

إن جهاد المسلمين يجب أن يكون خالصًا للَّه من كل شائبة، فمتىٰ حُقق الإخلاص في حمل راية اللَّه ظفر بالنصر الذي وعده اللَّه به، ولهذا جرت سنة اللَّه بتمحيص قلوب عباده وتمييز الطيب من الخبيث، كما حصل لقوم طالوت في الأولين، ولصحابة محمد ﷺ وأتباعهم في الآخرين.

فلا يستنكر أحد انتصار الكفار علىٰ من لم يخلص نيته وأهدافه للَّه، فإن نصر اللَّه لا يأتي إلا بعد التمحيص، واللَّه سبحانه يعاقب عباده بالكفار ليطهر دينه ممن ينتسب إليه وهو كاذب، فلهذا ينصح القرآن لأصحاب العقيدة أن يخلصوها من جميع الشوائب المادية، كي لا يشتركوا مع أعدائهم في الأهداف المادية، فيكونوا عصاةً يستحقون التأديب علىٰ أيدي أعدائهم. فيا لها من تربية روحية عظيمة تبرز فيها حكمة اللَّه وراء ما يجري من قهر الهزيمة، وآلامها!.

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾، أي يمتحن صبركم علىٰ المصائب وثباتكم علىٰ الإيمان عند ذلك، فإن وراء ذلك قدر اللَّه وحكمته ليبتلي عباده بشدة الخوف، وقرح الهزيمة، حتىٰ

تنكشف مكنونات الصدور، فيحصل تمحيصها لتمييز صفوف المسلمين من دَخَل النفاق.

ثم أخبرهم اللَّه عن عفوه عنهم لهذه الزلة العظيمة؛ لأنه ذو فضل على المؤمنين، أصحاب العقيدة المنقادين له بتنفيذ أوامره وتشريعاته دون أن يجعلوا لهم الخيرة في تشريع شيء مخالف لشريعته، فإنه ذو فضل على عباده المؤمنين، وهكذا يعفو عنهم ما حصل من التنازع واختلاف الهدف الذي أدى بهم إلى معصية الرسول ﷺ، بالتخلي عن الثغر وعما حصل من الفشل والفرار؛ لأن جميع ذلك لم يصدر عن سوء نية أو فساد عقيدة، وإنما صدر عن حسن نية وغرور ثم ندموا، وأيضًا فإنهم لم يصروا على شيء من ذلك حتى يكونوا محرومين من العفو، ولا شك أن ذنبهم كبير، لو أصروا عليه لكانوا على خطر عظيم.

وفي هذا دليل على صحة مذهب أهل السنة والجماعة، أن الذنب لا يخرج صاحبه من الإيمان حتى يتمادى في فعل الكبائر، مصرًّا عليها، فإنه يخرج من الإيمان، ويبقى في دائرة الإسلام حتى تجره ذنوبه إلى الاستجابة لها، أو التكذيب بآيات اللَّه أو الاستهزاء بها ونحو ذلك من أنواع الردة، والعياذ باللَّه.

فاللَّهُ ذو فضل عظيم على من استمسك بحبله المتين، ووقف عند حدوده، وحصر التلقي على وحيه في جميع شؤون الحياة، وقد سهل اللَّه ﷻ طريق الوصول بالتوبة النصوح والاستغفار الصادق، وهذا من جملة فضله على المؤمنين.

١٦ ـ من أنواع وقاية اللَّه لعباده من الهزيمة النفسية: تربيته لهم بأن أصابهم بغم يملأ صدورهم لغايتين:

الأولى: جزاءً لهم على ما أنزلوا في نفس رسوله ﷺ من الغم بفرارهم عنه؛ ليستشعروا شؤم فعلهم، فيستصغروا ما حصل لهم من

أذىً وفوات غنيمة بقوله ﷻ: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾.

والثانية: غرس النقمة والغيظ السرمدي على الكفار للأخذ بالثأر، عكس تربية الماديين الذين يصورون أعظم النكبات نكسةً يصورونها نصرًا، زاعمين أن العدو ليس مقصده الأرض ولا الغنيمة، وإنما يقصد أشخاص الزعماء، وقد فشل حيث سلموا! وهذا شيء مضحك يسخر منه كل عاقل.

وقد أوضح اللَّه تلك الفائدة في الآية (١٥٣) من السورة:

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾؛

والإصعاد هو السير في الأرض والإبعاد فيها، يقال: صعد في الجبل، وأصعد في الأرض، ويستعمل في كل شيء له أسفل وأعلى، والصعيد وجه الأرض.

قال الشاعر:

قد كنت تبكيني على الإصعاد ... فاليوم سرحت وصاح الحادي

وقوله: ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ أي: لا تلتفتون إلى أحد من شدة الهرب، يقال: لوى عليه، أي رجع إليه، أو كر عليه، وفي هذا لون من المبالغة، وقوله: ﴿تَلْوُۥنَ﴾ مأخوذ من لَيِّ العنق؛ لأن من عرج على شيء يلوي عنقه، أو عنق دابته إليه، والمقصود في ﴿أَحَدٍ﴾ العموم، وقيل: المراد النبي ﷺ على سبيل التورية، تعظيمًا له وصونًا لاسمه أن يذكر عند ذهاب الناس عنه، قال ابن عباس والكلبي: «وقرأ حميد ابن قيس «على أُحُد» بضم الهمزة والحاء. وضعفه ابن عطية قائلًا: إن الرسول لم يكن على الجبل إلا حين فرار الناس عنه، وهذه الحال من

إصعادهم إنما كانت وهو يدعوهم. اهـ.

وقوله ﷻ: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾: يعني ينادي ساقتكم ومتأخريكم؛ لأنهم الأقرب إليه من المقدمة، ودعاؤه إياهم لتطمينهم علىٰ حياته بعد ما صاح بهم الصائح بقتله فتزلزلت أقدامهم.

وقد اختلف المفسرون في صيغة دعائه لهم، ولم يقطعوا بصحة شيء منها؛ لأنها كلمات جاءت في وقت شدة النزال والذهول، بحيث يجوز أن كثيرًا منهم لم يعرفوا صوته، ولم يميزوه، ولذلك عفا اللّٰه عنهم.

قال القرطبي: وكان دعاؤه ﷺ تغييرًا للمنكر، ومحال أن يرىٰ المنكر وهو الانهزام ثم لا ينهىٰ عنه. اهـ.

وفي دعائه ﷺ لهم في مؤخرتهم دليل عظيم علىٰ شجاعته، فإن الوقوف علىٰ أعقاب الشجعان وهم فرار، والثبات بعدهم إنما هو للأبطال والأمجاد، وكان رسول اللّٰه ﷺ أشجع الناس كما قال سلمة رضي الله عنه: «كنا إذا اشتد البأس اتقينا برسول اللّٰه ﷺ».

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾ قال الفراء: والثواب هنا بمعنىٰ المغالبة، والثواب كثيرًا ما يستعمل في الخير، واستعماله في الشر استعارة، وسُمي الغم «ثوابًا» علىٰ معنىٰ أنه قائم في هذه النازلة مقام الثواب الذي كان يحصل لولا الفرار؛ فهو نظير قول الشاعر:

تحية فيهم بضرب موجع[(١)]

والغم هو الكرب، وأكثر منشئه من قهر الرجال بغير حق، وأحسن مزيل له هو الصدق في الجهاد، ولهذا أصيب به من لم يصدقوا في جهادهم.

---

(١) يروىٰ للشاعر عمرو بن معدي كرب:

وخيلٌ قد دلفت لها بخيل ... تحية بينهم ضربٌ وجيعُ

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾ يعني أصابكم غمًّا بما أذقتم الرسول غمًّا بسبب عصيانكم له، ذلك العصيان الذي جلب الشرور من الانهزام وقتل الأحباب، فإنه ﷺ اغتم علىٰ عصيانهم ربهم لطلب الغنيمة، ولحرمانهم منها وانقلاب الأمر إلىٰ هزيمتهم وفرارهم. فالغموم كانت هناك كثيرة:

١ ـ غمهم بما نالهم من الضرر في الأنفس والأموال.

٢ ـ غمهم بما لحق باقي المؤمنين من ذلك.

٣ ـ غمهم بما لحق الرسول من ذلك، وما حصل عليه من الشجة وكسر الرباعية.

٤ ـ بما أرجفوا به من الصيحة بقتل الرسول.

٥ ـ بما وقع من معصيتهم وخوفهم عقابها.

٦ ـ غمهم علىٰ صعوبة العودة إلىٰ المحاربة لتتم توبتهم من العصيان؛ لأنهم لو أُمروا بالمعاودة، فإما أن يجازفوا بأرواحهم مجازفة المنتحر، أو يخالفوا فيكفروا، أو يجمع اللَّه لهم عذاب الدنيا والآخرة.

٧ ـ غمهم علىٰ فوات الغنيمة التي عصوا اللَّه ورسوله من أجلها.

والحكمة في إصابة اللَّه لهم بِهذه الغموم، هي أن لا يبقىٰ في قلوبهم التفات إلىٰ الدنيا، فلا يفرحوا بإقبالها، ولا يحزنوا علىٰ إدبارها؛ لأنهم حملة رسالة، ودعاة إلىٰ الهداية والسعادة، لا جباة أموال.

وقد علل اللَّه حصول الغم بقوله: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ [الحديد: ٢٣]، فإن من بعض علاج المصيبة أن يعلم صاحبها علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فإن اللَّه يعالج عباده بأدويةِ المصائب والمحن، ولولا ذلك لطغوا وبغوا وعتوا.

والله سبحانه إذا أراد بعبده خيرًا سقاه من دواء الابتلاء والمحن على حسب ما يصفي ضميره ويصقله، لينظفه من الأدواء المهلكة حتى إذا هذبه ونقاه، فحينئذ يؤهله لأشرف مراتب الدنيا وهي العبودية، ولأشرف مراتب الآخرة وهي رؤية الله وقربه في أحسن مستقر وأحسن جوار.

وقد اختلفوا في تفسير تعليم الله لإصابتهم بغم على غم؛ حيث قال: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ فجعلها الزمخشري للعموم قائلًا: لكيلا تحزنوا لتتمرنوا على تجرع الغموم وتصبروا باحتمال الشدائد، فلا تحزنوا فيما بعدُ على فائت من المنافع، ولا على مصيب من المضار. ويقصد بذلك فيما بعد هذه الواقعة على الإطلاق.

وقال ابن عطية: المعنى: لتعلموا أن ما دفع بكم إنما هو بجنايتكم فأنتم آذيتم أنفسكم. ويقصد بذلك أن سبب حزنهم هو ظنهم البراءة من الذنب، ولهذا تساءلوا عن سبب العقوبة كما سيأتي في الآية (١٦٤، ١٦٥) فأخبرهم الله أن ما جرى عليهم هو بسبب ذنبهم.

ومنهم من ذهب إلى أن قوله ﷻ: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟﴾ متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ وهو تعليل قوي لولا طول الفصل الذي يجعله بعيدًا عن الاحتمال.

وعلى كل حال فإن هذه الآية فيها تربية لهم؛ لما احتوت على تبكيتهم وزجرهم عن العودة لمثل هذه الخطيئة.

قول تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيه زجر لهم وتهديد، وقد خص الله علمه بالعمل هنا، وإن كانْ ـ سبحانه ـ خبيرًا بجميع الأحوال والأعمال والأقوال والنيات الخفية وغير ذلك، تنبيهًا لهم على أعمالهم، من تولية الأدبار والمبالغة في الفرار بعد عصيان بعضهم أمْرَ الرسول ﷺ بالتزام الثغر وعدم تخليته في كل حالة،

وهذه أعمال تخشىٰ عاقبتها وعقوبتها، فلهذا ختم اللَّه هذه الآية بِهذا التعبير، والإفصاح عن إحاطة علمه بجميع أعمالهم ومقاصدهم ودوافعهم، ولم يخف عليه منها شيء، والعالم بها علىٰ الإطلاق قادر علىٰ مجازاتهم عليها، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، وذلك من أعظم الزواجر للمؤمنين عن تكرار هذه المعصية أو الإقدام علىٰ غيرها.

وهنا فصل مفيد في علاج المصائب وتوطين النفس عليها، وقد أسلفنا القول علىٰ الآية (١٥٥، ١٥٦) من سورة البقرة: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾. وورد في «مسند الإمام أحمد» عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من أحدٍ تصيبُه مصيبةٌ فيقول: إنا للَّهِ وإنا إليه راجعون، اللَّهم أجِرْني في مصيبتي وأخلِفْ علي خيرًا منها، إلا جبره اللَّه في مصيبته وأخلف عليه خيرًا منها**»[1]، وهذا الدعاء من أبلغ علاج المصاب وأنفعه في عاجلته وآجلته؛ لأنه حوىٰ أصلين عظيمين من تحقق بهما تسلىٰ عن مصيبته:

أحدهما: أن العبد وأهله وماله ملك للَّه وقد جعله عنده عارية، فإذا أخذه منه فهو كالمعير يأخذ ملكه من المستعير.

وأيضًا فإنه ليس موجدًا ما فقده من العدم، وليس له تأثير في وجوده، بل اللَّه هو الموجد له ولما فقده من ولد أو مال أو نصر أو إذلال، فكل شيء من اللَّه وتدبيره.

ثانيهما: أن مصير العبد ومرجعه إلىٰ اللَّه، ولابد أن يخلف الدنيا وراء ظهره ويجيء ربَّه فردًا، كما خلقه أول مرة ليس معه شيء سوىٰ حسناته أو سيئاته. ومن علم أن بدايته ونهايته هكذا، فكيف يفرح بموجود أو يحزن علىٰ مفقود؟ ففكره في مبدئه ومعاده من أعظم علاجه لمصيبته، فهذا خير علاج.

---

(١) رواه مسلم (٩١٨).

ومن **علاجها**: أن يعلم علم اليقين ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

ومن **علاجها**: المقارنة بين السراء والضراء؛ ليرىٰ أن إكرام اللَّه وألطافه أكثر من مصائبه.

ومن **علاج المصائب**: أن يطفئ نار مصيبته ببرد التأسي بغيره من المصابين، فإنه إن نظر فيهم وجد من هو مصابٌ بأعظم من مصيبته. قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لكل فرحة ترحة، وما مُلئ بيت فرحًا إلا ملئ ترحًا».

ومن **علاجها**: أن يعلم أن الجزع لا يرد المصيبة؛ بل يزيدها أضعافًا مضاعفةً، وأن يعلم أن ما يفوته من ثواب الصبر والتسليم أعظم من المصيبة في الحقيقة؛ لأن الصابرين عليهم صلوات من ربهم ورحمة وهداية ضمنها اللَّه لهم في الآية (١٥٧) من سورة البقرة.

ومن **علاجها**: أن يستشعر أن الجزع يُشمت به عدوه، ويسوء صديقه، ويغضب ربه، ويسر شيطانه ويحبط أجره، ويضعف نفسه بتسلط الشيطان عليه، وإذا صبر واحتسب أسخط شيطانه وأخسأه وأقصاه، وأرضىٰ ربه، وسر صديقه، وساء عدوه، فهذا هو الثبات والكمال الأعظم.

ومن **علاجها**: أن يعلم أن ما يعقبه الصبر والاحتساب من اللذة والمسرة خير بأضعاف ما يورثه الحزن والأسىٰ، ويكفيه من ذلك «بيتُ الحمد» الذي يبنىٰ له في الجنة جزاء صبره وحمده لربه واسترجاعه[1]، وأن الجزع ودوام الحزن يحرمانه ذلك البيت.

ومن **علاجها**: أن يعلم أن حظه من المصيبة ما تحدثه له نفسه عندها، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط، كما ورد هذا في حديث أخرجه الترمذي وحسَّنه عن النبي ﷺ[2]، فليختر المصاب لنفسه خير

---

(١) رواه التِّرمذي (١٠٢١).

(٢) رواه التِّرمذي (٢٣٩٦).

الحظوظ أو شرها:

ـ فإن أحدثت له سخطًا وكفرًا كُتب في ديوان الهالكين.

ـ وإن أحدثت له جزعًا وتفريطًا في ترك واجب أو فعل محرم كتب في ديوان المفرطين.

ـ وإن أحدثت له شكايةً وعدم صبر كتب في ديوان المغبونين.

ـ وإن أحدثت له اعتراضًا علىٰ اللَّه وقدحًا في حكمته، فهو علىٰ خطر من الردة عن الإسلام.

ـ وأن أحدثت له صبرًا وثباتًا وحمدًا للَّه علىٰ قضائه، كتب في ديوان الصابرين.

ـ وإن أحدثت له الرضا عن اللَّه، كتب في ديوان الراضين.

ـ وإن أحدثت حمدًا وشكرًا للَّه، كتب في ديوان الشاكرين، وكان تحت لواء الحمد.

ـ وإن أحدثت له محبة واشتياقًا إلىٰ اللَّه كتب في ديوان المحبين، وهكذا نتيجته.

ومن علاج المصيبة: أن يتذكر المصاب أنه مهما بالغ في الجزع فإن عاقبته تؤول إلىٰ الصبر الاضطراري الذي لا يُحمد عليه ولا يثاب، فحمد الناس وثواب اللَّه لا يحصل إلا بالصبر الاختياري الذي هو عند الصدمة الأولىٰ، ومن لم يصبر صبر الكرام سلا سُلُوَّ البهائم.

ومن علاجها: أن يعلم المصاب أن خير الحالات له موافقة ربه فيما يحبه ويقضيه، وأن حقيقة المحبة وسرها موافقة المحبوب، فمن ادعىٰ محبة اللَّه وهو ساخط علىٰ أقداره ومبغض لما يحبه، فدعوىٰ محبته له دعوىٰ كاذبة.

ومن علاج المصيبة: أن يوازن بين أعظم المتعتين وأدومهما: التمتع بما أصيب به، والتمتع بثواب اللَّه تعالىٰ، فإن ظهر له رجحان ثواب

اللَّـه فلا يبالي بالمصيبة ولا يوليها شيئًا من همه، بل يحمد اللَّـه علىٰ قضائه وقدره وعلىٰ توفيقه لمعرفة الصواب، وإن ظهر له رجحان المصيبة فليعلم أنه مصاب في عقله وقلبه ودينه أعظم من مصيبته التي أصيب بها في دنياه.

ومن علاج المصيبة: أن يعلم أن ربه أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين، لم يصبه بالبلاء ليهلكه ولا ليعذبه أو ينقصه، وإنما أصابه ليمتحن صبره ورضاه عنه وقوة إيمانه، وليسمع دعاءه وتضرعه والتجاءه إليه.

ومن علاج المصيبة: أن يعلم المصاب أنه بين كبيرين، كبير الدنيا وكبير جهنم، فيقدر نعمة اللَّـه عليه إذا سبكه وطهره بكبير الدنيا، ويشكره علىٰ ذلك فتهون عليه المصائب، وأن يعلم المصاب أنه لولا مصائب الدنيا ومحنها لأصاب العبدَ من أدواء الكبر والعجب وقسوة القلب والفرعنة ما هو سبب لهلاكه في الدنيا أو الآخرة، ولكن رحمة اللَّـه وحكمته قضتا بتفقد عباده، ودوائهم بأدوية المصائب؛ تربيةً لهم، وحفظًا لعبوديتهم، واستقامة إيمانهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورىٰ: ٢٧].

ومن علاجها: أن يستشعر المصاب قول الرسول ﷺ: «**حُفَّت النار بالشهوات، وحُفت الجنة بالمكاره**»[1]، فيعرف أن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، وحلاوة الدنيا مرارتها، كما أجراه اللَّـه في سنته، فيصبر علىٰ المرارة المنتقلة إلىٰ حلاوة خالدة. وفي هذا المقام تفاوتت عقول الرجال؛ حتىٰ تفاوت إيمانهم، وتتفاوت شجاعتهم وزهدهم في الحياة الفانية لتحقيق الوفاء ببيعة اللَّـه، فيصبرون علىٰ مرارة ساعة للحلاوة الأبدية، وعلىٰ شدة ساعة وهولها للسعادة الأبدية.

ومن أحسن علاج المصائب: الإكثار من الاسترجاع وهو قول المصاب:

---

(١) رواه البخاري (٦٤٨٧) ومسلم (٢٨٢٢).

«إنا للَّه وإنا إليه راجعون»، ففيها يكمل معنىٰ أول علاج ذكرناه، وقد روي عن ابن عباس مرفوعًا: «**من كثُرت همومه وغمومه، فليكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا باللَّهِ**»(١). وقد ثبت في «الصحيحين» أنهما كنزٌ من كنوز الجنة(٢)، وروىٰ الترمذي أنهما باب من أبواب الجنة(٣).

ومما يزيل الهموم والأحزان: الصلاة، كما كان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلىٰ الصلاة، منفذًا قول اللَّه: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وكذلك الجهاد، فقد ورد في السنن: «**عليكم بالجهاد؛ فإنه بابٌ من أبواب الجنة يدفع اللَّه به عن النفوس الهمَّ والغم**»(٤)، ومصداقه من قوله سبحانه: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤﴾ [التوبة].

فهذه اثنتا عشرة فائدة لعلاج الهم والغم؛ ذكرناها خدمة للمسلمين المؤمنين، وقد ذكرنا بعضها وما يشبهها في تفسير قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي...﴾ [البقرة: ١٨٦].

١٧ ـ من وقاية اللَّه لعباده من الهزيمة النفسية: إنزاله سكينةً في نفوس المؤمنين، بإلقاء نعاس يغشاهم فيكسبهم أمنةً من اللَّه، تعالج أحاسيسهم وجوارحهم؛ بخلاف الذين تزعزع إيمانهم، فقد أهمتهم أنفسهم، وظلوا في قلق وفزع كشأن من لم يرتبط بعقيدة صحيحة يعرف طريقه علىٰ ضوئها، بخلاف المرتبط باللَّه الواثق بقضائه، وقد صورت الآية (١٥٤) حال الفريقين بقوله ﷻ:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٦/٣٣٣).

(٢) رواه البخاري (٤٢٠٥)، ومسلم (٢٧٠٤).

(٣) رواه التِّرمذي (٣٥٨١).

(٤) رواه أحمد (٥/٣١٩). ولم أقف عليه في «السنن».

لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾:

والأمنة: هي الأمن، وقيل: إن الأمنة تكون مع بقاء أسباب الخوف، والأمن يكون مع زوال أسبابه، ومعنىٰ الآية امتنان اللَّه عليهم بأمنهم بعد الخوف والغم، بحيث صاروا من الأمن ينامون، وذلك أن الشديد الخوف والغم لا يكاد ينام، والذين غشيهم النعاس هم المؤمنون الذين علىٰ البصيرة في إيمانهم، وفي النوم سر لطيف، وله مفعول عجيب، فإنه يكسب المرهقين المفزعين طمأنينةً، ويردهم خلقًا جديدًا، أو يمنحهم الراحة بطريقة لا يعلم كنهها إلا اللَّه، وفي وقوعه فوائد:

أحدها: أنه وقع علىٰ جميع المؤمنين فقط، لا علىٰ المنافقين الذين يظنون باللَّه الظنون، وكان ذلك معجزة لنبينا ﷺ، حين شاهدها المؤمنون ازدادوا إيمانًا مع إيمانهم، فقويت شجاعتهم في محاربة العدو؛ لوثوقهم بوعد اللَّه الذي سينجزه.

ثانيها: أن السهر والأرق يُحدثان الضعف والكلل، والنوم يعيد القوة والنشاط واشتداد القدرة وصحة العزيمة.

ثالثها: أن في إلقاء النوم عليهم حَجْبًا لهم عن مشاهدة الكفار المنكلين بإخوانهم؛ كيلا يشتد الخوف والجبن في قلوبهم.

رابعها: أن أعداءهم كانوا علىٰ غاية الحرص علىٰ قتلهم، فكان بقاؤهم علىٰ النوم في تلك المعركة من أقوىٰ الدلائل علىٰ حفظ اللَّه وعصمته لهم، وهذا مما يزيل الخوف عن قلوبهم، ويزيدهم الثقة بوعد اللَّه.

وقد روىٰ الترمذي والنسائي والحاكم، من طريق حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس، عن أبي طلحة قال: رفعت رأسي يوم «أحد»،

وجعلت أنظر وما منهم يومئذ أَحدٌ إلا يميد تحت حَجَفته[١] من النعاس[٢].

وروىٰ البخاري عن أنس أن أبا طلحة قال: «غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم «أُحد»، فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط وآخذه»[٣].

والصحيح الموافق لنص الآية: أن النعاس جاءهم بعد ارتحال قريش والمؤمنون لا يزالون في مصافهم، فقد قال رسول اللَّه ﷺ لعلي رضي الله عنه: «**اذهب فانظر إلىٰ القوم، فإن كانوا جنبوا الخيل فهم ناهضون إلىٰ مكة، وإن كانوا علىٰ خيلهم فهم عائدون إلىٰ المدينة، فاتقوا اللَّهَ واصبروا**»، ووطَّنهم علىٰ القتال. فمضىٰ علي ثم رجع فقال: إنهم جنبوا الخيل وقعدوا علىٰ أثقالهم عجالًا[٤].

فأمن المؤمنون المصدقون الرسول ﷺ وألقىٰ اللَّه عليهم النعاس، وبقي المنافقون الذين في قلوبهم مرض لا يصدقون، بل كان ظنهم أن أبا سفيان يؤم المدينة، فلم يقع علىٰ أحد منهم نوم، وإنما كان همهم بأحوالهم الدنيوية. هذا؛ وإن قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم﴾ هو من العام المخصوص؛ لأن النعاس لم ينزل إلا علىٰ بعضهم.

وقد أخبرنا اللَّه سبحانه في هذه الآية أنهم صنفان:

ـ صنف مؤمنون مصدقون بوعد اللَّه، وهم الذين أنزل اللَّه عليهم النعاس ليأمنوا.

ـ وقسم منافقون ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي حملتهم علىٰ الهم، والهم هو لما يهم به الرجال، والأمر المهم هو الشديد، والعرب تطلق

---

(١) **الحَجفة**: التُّرس.

(٢) رواه التِّرمذي (٣٠٠٧).

(٣) رواه البخاري (٤٥٦٢).

(٤) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٤٣).

من أهمته نفسه علىٰ الخائف الذي شغله هم نفسه عن غيره. وهؤلاء المنافقون قد أوقعهم نفاقهم في الهم، فلم يهتموا إلا بأنفسهم دون رسول اللَّه ﷺ ومن معه، بل نفوسهم المريضة وظنونهم السيئة قد جلبت إليهم الرعب والخوف من القتل، ولذلك طار النوم عنهم ولم يصبهم النعاس.

ولا شك أن الإنسان إذا اشتد اشتغاله بالشيء واستغراقه فيه كان غافلًا عما سواه، ولما كان أحب الأشياء إلىٰ الإنسان المادي الانتهازي نفسه، فعند الخوف يكون ذاهلًا عما سواها، وهكذا حالة المنافقين، قد انحصر همهم في أنفسهم وصاروا ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾، يعني يظنون باللَّه غير ظن الحق الذي يجب أن يظن به ﷻ، وهذا شأن أهل الريب والشك، يكون ظنهم علىٰ خلاف ظن المؤمنين، فالمنافقون يظنون باللَّه غير الحق ﴿ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ المبتورين الصلة باللَّه، وهذا الظن هو أنهم يقولون في أنفسهم: «لو كان محمد محقًّا في دعواه لتواصل النصر عليه، وما هزمه قومه»، فقد جعلوا من انتصار المشركين مجالًا للتشكيك والإيهام؛ لما في قلوبهم من النفاق الذي نما وانكشف في هذه الحادثة، ولولا النفاق والأغراض الدنيئة التي أعمت بصائرهم لنظروا إلىٰ الملابسات التي احتفت بالوقعة من الخطيئة الدينية والعسكرية التي هي إخلاء الثغر، وحصول التنازع والتفرق الذي كان سببًا في الكارثة، كما نص اللَّه عليه في الآية المقبلة (١٥٥)، ولكن المرض الذي في قلوبهم جعلهم ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾، أي ظن أهل الجاهلية عُبَّاد الأصنام الصامتة والناطقة، من الأشجار والأحجار والطواغيت المختلفة، فإنهم جميعًا قد ظنوا باللَّه الظنون السيئة، ولولا هذه الظنون لما أصروا علىٰ ما هم عليه من الشرك والإلحاد، وكذلك الزنادقة وملاحدة هذا الزمان ـ كما سنوضحه إن شاء اللَّه ـ.

وهذا الظن السيئ الموافق لظنون الجاهلية، هو ظن المنافقين بأن

اللَّـه لا ينصر رسوله، ولا يظهر دينه علىٰ الدين كله، وبعضهم ينكر الرسالة مستدلًّا بِهذه الهزيمة، ويعتقدون أنها ليست بقدر اللَّه وقضائه، وليس له فيها حكمة، وهذا الظن لا يليق بجلاله، ولا يتفق مع معاني أسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا، فلذلك صار ظن الجاهلية أكبر من كل جاهلية سابقة أو لاحقة.

فكل من ظن أن اللَّـه لا ينصر رسله ولا يتم أمره، أو لا يظهر دينه أو ينصر الشرك علىٰ التوحيد، فقد ظن باللَّه ظن السوء ظن الجاهلية؛ لأن عزته سبحانه وحكمته وألوهيته وملوكيته تأبىٰ ذلك، وتستلزم نصر رسله وجنده المؤمنين الذين حققوا متابعة الرسول ﷺ، وكذلك منكرو القضاء والقدر الزاعمون أنه يجري في ملك اللَّـه ما لم يقدِّره وما لم يعلمه، وكذلك منكرو الحكمة ممن يزعم أن أفعاله وتشريعاته لا حكمة فيها، فإن مزاعمهم مخالفة للحق، وموافقة لمذاهب الجاهلية، وكذلك من جوز عليه أن يعذب خلقه بدون خطيئة، أو أنه يسوي بين المسلمين والمجرمين، أو أنه خلق الخلق عبثًا، أو أنكر المعاد والثواب، أو أنه يضيع أعمال عباده الصالحة؛ فقد ظن باللَّـه ظن الجاهلية، وكذلك من أنكر معجزات الرسل التي تثبت صدقهم، أو زعم أن اللَّـه يمد الكافرين بالمعجزات، أو يمد بعض الطواغيت بالمعجزات، أو يعتبر أن ما يحصل لهم من الظهور معجزة، فظنه ظن السوء الجاهلي.

وكذلك من ظن باللَّـه خلاف ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ، أو عطل حقائق صفاته وجنىٰ عليها بالتأويل والتحريف خضوعًا للبدع المنبثقة من منطق اليونان الذي سلطوه علىٰ وحي اللَّـه، أو اعتقد أن ظواهر نصوص الصفات تقتضي التشبيه والتجسيم، فظنه من ظنون الجاهلية، وكذلك من زعم أن له شفعاء يشفعون له عند اللَّه من أصنام وأصحاب قبور، أو أنه سبحانه بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه ويدعونهم، فقد ظن باللَّـه ظن الجاهلية لقياسه علىٰ

حكام الدنيا العاجزين عن الإحاطة بأعمال الرعايا، والمحتاجين إلىٰ من يبلِّغهم ذلك، والذين يعفون عن المذنب الذي يجد شفيعًا، ويعاقبون من لا يجد شفيعًا.

فهذا قياس للخالق علىٰ المخلوق وتشبيه له به، وقد حكم اللَّه علىٰ أهله بالشرك والكفر لانتقاصهم جنابه الكريم بقياسه علىٰ الحاكم المخلوق الجاهل الظالم، وقد وصفهم اللَّه بأنهم يعدلون به غيره فقال: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

وكذلك من اعتقد أن له شفيعًا من دون إذن اللَّه من رسول أو ولي، فإنه قد ظن باللَّه ظن الجاهلية، واللَّه يقول: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤]، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦۚ﴾ [يونس: ٣]، ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]، فمن ادعىٰ المأذونية طولب بالدليل.

ومن ظن أن اللَّه قد سلط المنافقين علىٰ رسوله في حياته وابتلاه بهم بلاءً دائمًا في حياته لا يفارقونه، ثم بعد وفاته استبدوا بالأمر دون وصيته وظلموا عترته، وأن اللَّه أعزهم عليه في كلتا الحياتين، فقد ظن باللَّه ظن السوء ظن الجاهلية، كما يزعمه كثير من المبتدعة الذي ينتحلون حب أهل البيت، كالرافضة والنصيرية وغيرهم.

وكذلك أفراخ الماسونية اليهودية، وتلاميذ الاستعمار الذين يصرحون بأن الدين طائفية ومدعاة للشقاق والفرقة، أو أنه لا يصلح لهذا العصر، وأنه لا يساير التطور، وأن شريعته جامدة، وأن أحكامه وحدوده قاسية لا تناسب الإنسانية المتمدنة، ونحو ذلك من أقاويلهم الكافرة، فإنهم بكل قول منها قد ظنوا باللَّه غير الحق ظن الجاهلية.

وهكذا إباحتهم ما حرم اللَّه من المسكرات والفواحش، وتصريحهم بولاء الكافر العربي من أي ملة، وتفضيله علىٰ المسلم غير العربي، وهكذا كل مظلوم أو مقهور أو محروم أو مغبون أو محكوم عليه،

ونحو ذلك من يرىٰ أنه مبخوس الحق، وأنه أولىٰ من قبيله، فقد تجره أوهامه إلىٰ أن يظن باللَّه الظنون.

فليحذر المؤمن من هذه المزالق، وليظن بنفسه الأمارة السوء، ويكون حامدًا وشاكرًا للَّه أحكم الحاكمين في السراء والضراء والشدة والرخاء، حتىٰ لا يشترك مع أهل الجاهلية في أي ظن من الظنون، وليحاسب نفسه؛ ليرىٰ أنه لم تأته مصيبة إلا من نفسه.

وقد ذكر اللَّه بعض ظنونهم وهو قولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖ﴾؟ وهذا استفهام منهم عن موقفهم من التولي والفرار عن رسول اللَّه ﷺ؛ متسائلين عن النصر والهزيمة، هل لهم شيءٌ من الأمر في ثباتهم وهروبهم أو نصرهم وهزيمتهم؟ لأنهم اعتقدوا من نصرهم في «بدر» أن النصر دائمًا محقق لأهل الدين، ولم يعرفوا حكمة اللَّه في جعل الحرب سجالًا والعاقبة للمتقين، فأجابهم اللَّه بقوله لرسوله ﷺ: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾، يعني أن تصاريف الكون وما يجري في الوجود كله للَّه لا لغيره، ليس أمر النصر وحده بل جميع الأمور، فكل أمر يجري بقضائه وقدره علىٰ وفق سنته التي بها ربط الأسباب بالمسببات، فالنصر والغلبة لجند اللَّه المؤمنين، كما قال سبحانه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾ [المجادلة]، وتساؤلهم هذا يكمن فيه معنىٰ السوء وظن الجاهلية.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ليس المقصود من قولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖ﴾، وقولهم: ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا﴾ إثبات القدر، ورد الأمر كله إلىٰ اللَّه، ولو كان ذلك مقصودهم بالكلمة الأولىٰ لما ذُموا عليه، ولما حسن الرد عليهم بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾، ولا كان مصدر هذا الكلام ظن الجاهلية، ولهذا قال غير واحد من المفسرين: إن ظنهم الباطل هاهنا هو التكذيب بالقدر، وظنهم أن الأمر لو كان إليهم وكان رسول اللَّه ﷺ وأصحابه تبعًا لهم ويسمعون منهم، لما أصابهم القتل، ويكون النصر والظفر لهم، فأكذبهم اللَّه

في ذلك الظن الباطل الذي هو ظن الجاهلية، وهو الظن المنسوب إلىٰ أهل الجهل، الذين يزعمون ـ بعد نفاذ القضاء والقدر الذي لم يكن بدٌّ من نفاذه ـ أنهم كانوا قادرين علىٰ دفعه، وأن الأمر لو كان إليهم لما نفذ القضاء، فأكذبهم اللَّه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾، فلا يكون إلا ما سبق به قضاؤه وقدره، وجرىٰ به علمه وكتابه السابق، وما شاء اللَّه كان ولابد ـ سواء شاء الناس أو أبوا ـ، وما لم يشأ لم يكن ـ شاء الناس أم لم يشاؤوا ـ، وما جرىٰ عليكم من الهزيمة والقتل فبأمره الكوني الذي لا سبيل إلىٰ دفعه، وسواء أكان لكم من الأمر شيء أم لم يكن، وأنكم لو كنتم في بيوتكم وقد كتب القتل علىٰ بعضكم؛ لخرج الذين كتب عليهم القتل من بيوتهم إلىٰ مضاجعهم ولابد من ذلك، سواء كان لكم من الأمر شيء أم لم يكن.

وهذه من أظهر الأشياء إبطالًا لقول القدرية النفاة الذين يجوِّزون أن يقع ما لا يشاؤه اللَّه وأن يشاء ما لا يقع. اهـ.

وقوله تعالىٰ: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾، أي: يُخفون في أنفسهم الذي لا يقدرون علىٰ إظهار شيء منه أكثر من هذه النزعات التي تبدو منهم لك يا محمد، كغيض من فيض، ومما يخفونه قولهم: لو كان الأمر كما قال محمد ـ أن الأمر للَّه ولأوليائه وأنهم الغالبون ـ لما غُلبنا قط، ولما قتل من المسلمين من قتل، وإننا لسنا علىٰ حق في اتباعه، وهذا يدل علىٰ أن ابن سلول لم يرجع إلىٰ المدينة بجميع أصحابه، بل تخلف بعضهم عنه لحضور القتال بإذنه أو بغير إذنه طمعًا منهم في الغنيمة التي نالها بعضهم يوم بدر. ولما رجع إليه في المدينة مَن سلم من القتل، أخذ يُظهر بعض الشيء من مكنونات كفره، ومما يشهد لذلك قول الزبير بن العوام: واللَّه لكأني أسمع قول معتِّب بن قشير ـ أخي بني عمرو بن عوف ـ والنعاس يغشاني ما أسمعه إلا كالحلم، حين قال: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا

هاهنا[١].

ومعتب هذا مغموص بالنفاق، وقد شهد بدرًا، ثم أخبر اللَّه نبيه عن ما يُبدونه مما أخفوه فقال له: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾، وهذا المسموع من أفواههم شيء يسير مما يخفونه، والمعنىٰ: لو كان لنا من الأمر شيءٌ لمكثنا في المدينة، ولم يجر علينا من الغلبة والقتل ما جرىٰ علينا هاهنا ـ أي في «أُحُد» موضع المعركة الذي خرجنا إليه ـ. فهم يلوكون هذا الكلام اعتباطًا منهم بدون روية، غافلين عن تحديد أعمارهم في الأزل وكتابتها وهم في أرحام أمهاتهم.

وقد ذكر الرازي قاعدةً عقليةً، فذكر في «تفسيره»: وأيضًا فظاهر هذه الآية مطابق للبرهان العقلي، وذلك لأن الموجود إما واجب لذاته، أو ممكن لذاته، والممكن لذاته لا يترجح وجوده علىٰ عدمه إلا عند الانتهاء إلىٰ الواجب لذاته، فثبت أن كل ما سوىٰ اللَّه تعالىٰ مستندٌ إلىٰ إيجاده وتكوينه. وهذه القاعدة لا اختصاص لها بمحدَث دون محدَث، أو ممكن دون ممكن، فتدخل فيه أفعال العباد وحركاتهم وسكناتهم؛ وذلك هو المراد بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾، وهذا كلام في غاية الظهور لمن وفقه اللَّه للإنصاف. اهـ.

١٨ ـ من وقاية اللَّه لعباده من الهزيمة النفسية: قوله تعالىٰ في جواب المنافقين الذين يبثونها بقولهم الذي يقتضي إنكار القدر: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾، فقال اللَّه لنبيه مجاوبًا لهم: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾، وقد جعل اللَّه جوابهم من ثلاثة وجوه:

أحدها ـ ويسمىٰ «الاحتجاج النظري» ـ: وهو أن يستدل علىٰ المعنىٰ بضروب من المعقول، كما اتضح من قوله سبحانه في هذا الجواب: إنه لو كنتم ـ أيها المنافقون ـ في بيوتكم مستقرين؛ فإن الذين كتب

(١) رواه البزار (٩٧٣).

اللَّه عليهم القتل ـ أي قدَّره عليهم في اللوح المحفوظ مما قضاه اللَّه وكتبه الملَك وهم أجنةٌ في بطون أمهاتهم ـ، لابد لهم من الخروج لنفاذ قدر اللَّه فيهم حسب انقضاء أجلهم، فإن الحذر لا يدفع القدر، والتدبير لا يقاوم التقدير، فالذين كتب اللَّه عليهم القتل لابد أن يُقتلوا علىٰ جميع التقديرات، فالجبن لا يدفع مِن أَجَلهم ولا بعض دقيقة، والشجاعة والبطولة في الإقدام علىٰ العدو، لا تعجل شيئًا أو تنقص شيئًا من أجلهم.

فتعليلكم ـ أيها المنافقون ـ تعليل باطل مرتكز علىٰ عدم الإيمان بالقضاء والقدر، ولا يصدر هذا التعليل الباطل إلا من هزيمة نفسية لعدم الإيمان أو ضعفه في القلوب.

فأما أهل الإيمان الصحيح فلا يلتفتون إلىٰ الأقوال الانهزامية والتعليلات الكفرية، بل يعلمون أن الشجاعة والصدق في الجهاد خير لهم؛ لأنهم إما أن يَهزموا عدوهم ويتشفوا منه، وإما أن يثخنوه بالقتل والجراح، فيأخذوا ثمنًا لأنفسهم من أرواح وأجساد أعدائهم قبل أن يستشهدوا، أو يجبروا عدوهم علىٰ التوقف والتراجع، فهذه فائدة شجاعة المؤمنين التي يأمرهم اللَّه بالتدرع بها، عكس سجية المنافقين من الانهزام والإرجاف.

هذا؛ وإن في رد اللَّه علىٰ مقالتهم مبالغةً، حيث لم يقتصر علىٰ تحقيق نفس القتل؛ بل عين مكانه ـ أيضًا ـ بقوله: ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾، التي علم اللَّه وقَدر أنهم يُصرعون فيها، وفي التعبير بمضاجعهم عن مصارعهم أدب كبير.

والوجه الثاني من أجوبة اللَّه للمنافقين علاجًا للهزيمة النفسية: قوله تعالىٰ: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾، أي ليعاملكم معاملة الممتحن ليستخرج ما في صدوركم من الإخلاص والنفاق باديًا بالمؤمنين، ليتميز الصادق الموافق من الكاذب المنافق، فيكون هذا حجةً عليكم،

وتنكشف حقيقتكم للمؤمنين، ويُظهر اللَّه علمه الغيبي عنكم علانيةً ظاهرةً لا تستطيعون سترها، فالمؤمن يزداد إيمانًا وتسليمًا، والمنافق يظهر ما في قلبه مما تبديه جوارحه ولسانه، فهذا من بعض العلل التي أجراها اللَّه مصلحةً للمؤمنين لا لعدم العناية بهم، وفي المثل المشهور: «لا تكرهوا الفتن؛ فإنها حصاد المنافقين».

هذا؛ وإن متعلَّق الابتلاء هو ما انطوت عليه القلوب، ومتعلَّق التمحيص هو التصفية والتطهير لما فيها، وكشف المستور فيها، حتىٰ لا ينخدع المؤمنون بعدو يظهر في زيِّ صديق، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فيُطهرها من الشبهات والوساوس، ويظهر ما انطوت عليه من العقائد والمقاصد، ويكون ما جرىٰ تكفيرًا لذنوبكم ـ أيها المؤمنون ـ، زيادةً علىٰ انكشاف الحقائق لكم من المنافقين.

كما أن فيما أجراه اللَّه تدريبًا للمؤمنين علىٰ الشدائد؛ لأنهم جند اللَّه الذين تكون لهم العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة، فلهذا يحرضهم علىٰ الجهاد ويرغبهم في الشهادة؛ لأن حرصهم عليها يكون أعظم دافع لهم علىٰ الجهاد والاستبسال فيه، وتمحيص القول هو الوجه الثالث.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، يعني أنه عليم بما انطوت عليه الصدور، وما أضمرت من العقائد والنيات، وسميت «ذاتَ الصدور» لحلولها فيها ومصاحبتها لها. وختام هذه الآية يحتوي علىٰ الإنذار والتهديد علىٰ الاستهانة بعلم اللَّه، فإنه سبحانه يعلم خفايا الصدور، ويجازي عليها في الدنيا والآخرة.

١٩ ـ من أنواع وقاية اللَّه للمؤمنين عن الهزيمة النفسية: بشارته لهم بالعفو عما صدر منهم؛ وذلك لأن الذنوب لها أسوأ الضرر في القلوب، وهي تسهل السبيل للشيطان في وسوسته وإغوائه، ويحصل ـ أيضًا ـ بالذنوب تثبيط للهمم والعزائم، فإعلان اللَّه للمؤمنين بالعفو عنهم يحصل به انتعاش لقلوبهم ونشاط في أبدانهم، وقوة ثقة

بربهم وزيادة ارتباط به، وإقبال علىٰ طاعته، وتشوق للقائه يحفزهم علىٰ الصدق في الجهاد، حرصًا علىٰ طلب الشهادة التي ينالون بها رضوانه والفوز بجواره، فإن النفس حين تكسب الخطيئة تفقد قوتها المعنوية، أو تفقد ثقتها بقوتها، كما يضعف - أيضًا - ارتباطها باللَّه، وحينئذ يختل توازنها فلا تقدر علىٰ دفع وساوس الشيطان الإبليسي، ولا علىٰ الصمود أمام إرجاف شياطين الإنس، وبِهذه الحالة يتسلط كلٌّ من شياطين الجن والإنس عليها حتىٰ يستزلوها عن مرضاة الرَّحمن الرحيم؛ فلهذا جاءت رحمته بالعفو عن زلات المؤمنين لينتشلهم من أولئك، ويسمو بهم إلىٰ أشرف الحالات، ويرتفع بنفوسهم من الوهن والخوف إلىٰ الشجاعة والبطولة، ولهذا قال في الآية (١٥٥) من السورة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾:

وهذا خطاب يخص المؤمنين الذين انهزموا يوم «أحد»، حين التقىٰ الجمعان جمع المشركين بجمع المؤمنين، سواءٌ من الرماة أهل الثغر الذين أهملوه، أو من الذين تخلوا عن رسول اللَّه ﷺ وولوا مصعدين لم يُفد بهم نداؤه، فكلهم دعاهم الشيطان إلىٰ سبيل الزلل بوسوسته وتخويفه، والشيطان إنما أزلهم لأنهم اكتسبوا ذنوبًا حرمتهم النصر، وجعلت للشيطان عليهم سلطانًا، فحصل منهم التولي بعد سوابق الذنوب؛ لأن الذنب يجر إلىٰ الذنب. قال الحسن: «استزلهم بقبول ما زين لهم من الهزيمة».

وفي قوله تعالىٰ: ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾ إشعار بأن لهم ذنوبًا أخرىٰ غير التي تسلط عليهم الشيطان بها، فيجوز أن تكون ليست من الكبائر المضرة، ويجوز أن تكون ليست مما يتعلق بالحرب، وهذا قد يكون أولىٰ بالصواب، ولا شك أن الذنوب لها أسوأ التأثير وأقبح النتائج. ويجوز أن يكون استزلال الشيطان ببعض ذنوبهم، والبعض الآخر ممن

عفا اللَّه عنه؛ كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾ [الشورىٰ].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾، هذا إخبار منه عن فضله علىٰ المؤمنين، ومعنىٰ «العفو» هنا: هو حط التبعات في الدنيا والآخرة، كما تأوله عثمان بن عفان في محاورة جرت بينه وبين عبدالرَّحمن بن عوف حين قال له: «قد كنت توليت مع من تولىٰ في وقعة أُحد. فقال له عثمان: لقد قال اللَّه سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾، فكنتُ فيمن عفا اللَّه عنهم».

وقد روىٰ البخاري في «صحيحه» قال: حدثنا عبدان: أخبرنا أبو حمزة، عن عثمان بن موهب قال: جاء رجل حج البيت، فرأىٰ قومًا جلوسًا فقال: من هؤلاء؟ فقالوا: هؤلاء قريش، فقال: من الشيخ؟ فقالوا: ابن عمر، فأتاه وقال له: إني سائلك عن شيء أتحدثني؟ قال: أنشدك بحرمة ذا البيت أتعلم أن عثمان بن عفان هرب يوم «أحد»؟، قال: نعم، قال: تغيب عن بدر فلم يشهدها؟ قال: نعم، قال: فتعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم، قال: فكبَّر، فقال ابن عمر: تعال لأخبرك وأبين لك عما سألتني عنه، أما فراره يوم «أُحد» فأشهد أن اللَّه قد عفا عنه، وأما تغيبه عن «بدر» فإنه كان تحته بنت رسول اللَّه ﷺ وكانت مريضةً، فقال له النبي: «**إن لك أجرَ من شهد بدرًا وسَهْمَه**». وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فإن لو كان أحد أعزَّ ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعث عثمان، فكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلىٰ مكة، فقال النبي ﷺ بيده اليمنىٰ: «**هذه يد عثمان**»، فضرب بها علىٰ يده اليسرىٰ، فقال: «**هذه لعثمان؛ اذهب بها الآن معك**»[1]. يعني اذهب بِهذه الأجوبة التي أجبتك بها ليزول عنك ما كنت تعتقده من عيب عثمان.

---

(١) رواه البخاري (٣٦٩٨).

وكان هذا الرجل عراقيًا، ولقد كانت محاورة عبدالرَّحمن بن عوف مع عثمان علىٰ هذا الشكل بالتمام، وعين السخط تنظر إلىٰ خلاف الحقيقة، وهذا من ترويج الأحزاب الظالمة المغرضة، وإلا فتخلفه عن «بدر» معروف سببه، ويكفيه إسهام النبي ﷺ له وعذره، كذلك بيعة الرضوان، كيف يلام علىٰ عدم حضورها وقد أرسله النبي ﷺ؟ ولم تجر بيعة الرضوان إلا بعد أن استبطؤوا رجوعه، وشاع أنه مقتول، فدعا الرسول ﷺ أصحابه إلىٰ البيعة، وجلس تحت الشجرة، فبايعوه علىٰ الموت وعدم الفرار، فكيف يعاب علىٰ عثمان عدم حضوره بيعة الرضوان، وهي لم تجر إلا بسببه، لما أشيع من خبر قتله؟ ولا شك أن يمينه وشماله ﷺ خير من يمين عثمان، ولكن الدسائس اليهودية لتفريق المسلمين عملت عملها الخبيث.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾، يعني غفور واسع المغفرة يعفو عن سيئات عباده، وحليم لا يعاجلهم بالغضب والعقوبة؛ بل يمهل لهم ليتوبوا ويستغفروا، وفي صدور العفو دليل علىٰ أن معصيتهم كانت كبيرةً، وأنها من الذنوب الكبائر التي لم تصل إلىٰ حد الكفر والشرك الذي لا يغفره اللَّه.

قال الزجاج: إنهم لم يتولوا علىٰ جهة المعاندة ولا علىٰ جهة الفرار من الزحف رغبةً في الدنيا، وإنما ذكرهم الشيطان ذنوبًا كانت لهم، فكرهوا لقاء اللَّه إلا علىٰ حال يرضونها، وإلا بعد الإخلاص في التوبة؛ فهذا خاطر خطر ببالهم وكانوا مخطئين فيه. اهـ.

وبما أن الذنوب قاطعة عن اللَّه ـ كما أوضحنا أول البحث ـ، فقد حض اللَّه عباده علىٰ الاستغفار، بل علىٰ الإكثار منه، وصح عنه ﷺ أنه قال: «**يا أيها الناس، توبوا إلىٰ اللَّه؛ فإني أتوب إليه في اليوم مئة مرة**»[١]. وقال ـ أيضًا ـ: «**إنه ليُغانُ علىٰ قلبي حتىٰ أستغفر اللَّه سبعين**

(١) تقدم تخريجه.

مرةً»[(١)]. وقال ـ أيضًا ـ: «من لزم الاستغفار، جَعَل اللَّه له من كل همٍّ فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب»[(٢)]. ففي الاستغفار مَطْردة للشياطين، وانصقال للقلوب من رين الذنوب[(٣)]، ومجلبةٌ لرضوان اللَّه والقرب من حماه.

٢ ـ من أنواع وقاية اللَّه لعباده من الهزيمة النفسية: نَهْيُ اللَّه للمؤمنين وتحذيره إياهم عن مشابهة الكفار المنافقين، الذين يحكمون علىٰ ما ظهر لهم من الملابسات. إنها علل وأسباب للموت والقتل والهزيمة كما في الآية (١٥٦) من السورة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾:

فقولهم: ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ قول باطل، ناشئ عن اعتقاد فاسد كقولهم السابق: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾، فهم لعدم عقيدتهم وتصوراتهم الفاسدة وجهلهم بحقيقة الحياة وأحداثها يظلون في تطير وتشاؤم، ويرون أن من سافر في تجارة أو نحوها فمات، أو قاتل فقتل: أنه لو قعد في بيته لعاش، ولم يمت في ذلك الوقت الذي عرض نفسه للسفر والقتال، وهم في قولهم هذا قد وافقوا مذهب المعتزلة والقدرية في القول بالأجلين، ولظنونهم ومعتقداتهم الفاسدة يجعل اللَّه ذلك حسرةً في قلوبهم، ولو تدبروا لعلموا أن من دنا أجله لابد له من الموت؛ سواء أكان في سفر أو جهاد، أو في بيته، لا تتأخر منيته لحظةً واحدةً بعد انقضاء أجله المحتوم، فيسلموا من غشهم لأنفسهم ولغيرهم؛ لو أنهم استيقنوا

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢).
(٢) رواه أبو داود (١٥١٨)، وابن ماجه (٣٨١٩).
(٣) الرَّين: السواد المتراكم.

هذه الحقيقة التي لا مفر منها.

أما المؤمن فهو مطمئن بعقيدته إلىٰ ما يجريه اللَّه من الأحداث؛ لاستيقانه أن لن يصيبه إلا ما كتب اللَّه له أو عليه، فلا يجزع حالة الضراء ويتطير، ولا يزهو حالة السراء ويفخر، ولا يخيفه شيء سوىٰ ذنوبه التي تحُول دون رحمة اللَّه ومدده، فيؤكد اللَّه للمؤمنين أن الموت لا يقدمه الخروج للعدو ولا البروز للقتال، وأنه لا يأتي قبل الأجل الذي حدده اللَّه بقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾.

فالمؤمن لا يتحسر علىٰ ما فعله إذا اصطدم بأقدار اللَّه، ولا علىٰ ما لم يفعله إذا فاته شيء من عدم الفعل، بل يحرص علىٰ فعل ما ينفعه في جميع مجالات الحياة، مستعينًا باللَّه دون عجز أو فتور، وعلىٰ الأخص الإقدام علىٰ الجهاد والاستبسال فيه، موقنًا بقضاء اللَّه وقدره، ومتلقيًا له بالرضا والتسليم، فلا يكون للحسرات عليه سلطان أبدًا، علىٰ خلاف الكافرين الذين يعتقدون وينطقون بما يكون عليهم حسراتٍ مترادفةً؛ كما قال تعالىٰ: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾، أي أنهم قالوا ذلك القول واعتقدوه ﴿لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾؛ ليكون حسرةً في قلوبهم، فاللام لام العاقبة، أي عاقبة أمرهم من هذا المعتقد الباطل والمنطق السيئ، الذي يريدون به تثبيط إخوانهم الباقين عن الغزو وعن الضرب في الأرض الذي هو السفر، إيهامًا لهم أن يصيبهم مثل ما أصاب إخوانهم الآخرين الذين سبق موتُهم في السفر وقتلُهم في الغزو، وما أجهلهم في هذا المعتقد والمنطق! وأين هم من عقل أبي ذؤيب القائل:

ولو أنني استودعته الشمسَ لارتقت إليه المنايا عينُها ورسولها

وقد أخبرهم اللَّه سبحانه بأنه هو المؤثر في الحياة والموت، وأنه لا دخل للسفر والإقامة فيها؛ حيث قال: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، فأمر ذلك

بيده، بل جميع الأمور بيده ﷻ، وكثيرًا ما يحيي اللَّه المسافر والغازي مع اقتحامهما لموارد الهلاك، وكثيرًا ما يميت المقيمين في ديارهم والملازمين بيوتهم مع حيازتهم أسباب السلامة، وحرصهم علىٰ الحياة بتعاطي الأدوية ومراجعة كل طبيب، وقد مات أشجع الشجعان خالد بن الوليد علىٰ فراشه وهو يقول: «ما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربةٌ أو طعنة، وها أنا أموت كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء».

وهذه الآية الكريمة فيها المطالبة بحفظ الاعتقاد المصحح للتصورات من فسادها، وحفظ المنطق مما يوقع في إضلال الناس بشتىٰ الشبهات والتلبيسات في شأن الموت الذي لا يجري إلا بقضاء اللَّه الأزلي، كما أخبر أنه من كتب له البقاء في الجهاد، ومن قدر له الموت حصل عليه مهما تحصن منه، وإذا كان لابد من الموت، فموته في الجهاد من كمال حظه وسعادته، فليحرص عليه.

وقد عقد الإمام ابن القيم في «زاد المعاد» فصلًا عجيبًا في هديه ﷺ في حفظ النطق، أحببت نقل بعضه لإتمام الفائدة بِهذه المناسبة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان ﷺ يتحرىٰ في خطابه، ويختار لأمته أحسن الألفاظ، وأجملها وألطفها، وأبعدها من ألفاظ أهل الجفاء والغلظة والفحش، ومن ذلك نَهيه ﷺ عن قول القائل بعد فوات الأمر: «**لو أني فعلت كذا لكان كذا**». وقال: «**إن لو تفتح عمل الشيطان**»، وأرشده إلىٰ ما هو أنفع له من هذه الكلمة، وهو أن يقول: «**قدر اللَّه وما شاء فعل**»[(١)]، وذلك لأن قوله: «لو كنت فعلت كذا وكذا لم يفتني ما فاتني»، أو «لم أقع فيما وقعت فيه» من كلام لا يجدي عليه فائدة بتاتًا، فإنه غير مستقبل لما استدبر من أمره، وغير مستقيل عثرته بـ«لو» ادعاءً أن الأمر لو كان كما قدره في نفسه لكان غير ما قضاه اللَّه وقدره وشاءه، فإن ما وقع

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).

مما يتمنىٰ خلافه إنما وقع بقضاء اللَّه وقدره ومشيئته، فإذا قال: «لو أني فعلت كذا لكان خلاف ما وقع» فهو محال، إذ خلاف القدر المقضيِّ محال، فقد تضمن كلامه كذبًا وجهلًا ومحالًا.

وإن سلم من التكذيب بالقدر لم يسلم من معارضته بقوله: لو أني فعلت كذا لدفعتُ ما قُدر عليَّ.

فإن قيل: ليس في هذا رد للقدر ولا جحدانه؛ إذ تلك الأسباب التي تمناها من القدر، فهو يقول: «لو وفقت لهذا القدر لاندفع به عني ذلك القدر»، فإن القدر يُدفع بعضه ببعض كما يُدفع قدر المرض بالدواء، وقدر الذنوب بالتوبة، وقدر العدو بالجهاد؛ فكلاهما من القدر.

قيل: هذا حق، ولكن هذا ينفع قبل وقوع القدر المكروه، وأما إذا وقع فلا سبيل إلىٰ دفعه، وإن كان له سبيل إلىٰ دفعه أو تخفيفه بقدر آخر فهو أولىٰ به من قوله: لو كنت فعلت، بل وظيفته في هذه الحالة أن يستقبل فعله الذي يدفع به أو يخفف، ولا يتمنىٰ ما لا مطمع في وقوعه، فإنه عجز محض، واللَّه يلوم علىٰ العجز، ويحب الكيس ويأمر به.

والكيس: هو مباشرة الأسباب التي ربط اللَّه بها مسبباتها النافعة للعبد في معاشه ومعاده، فهذه تفتح عمل الخير. وأما العجز فإنه يفتح عمل الشيطان، فإنه إذا عجز عما ينفعه وصار إلىٰ الأماني الباطلة بقوله: «لو أني فعلت كذا لكان كذا» صار يفتح عمل الشيطان؛ فإنه باب العجز والكسل، ولهذا استعاذ النبي ﷺ منهما؛ فهما مفتاح كل شر، ويصدر عنهما الهم والحزن والبخل، وضلع الدين وغلبة الرجال، فمصدرها كلها من العجز والكسل وعنوانها «لو»، فلذلك قال النبي ﷺ: **«فإن «لو» تفتح عمل الشيطان»**[١].

---

(١) انظر السابق.

فالمتمني من أعجز الناس وأفلسهم، فإن الأماني رؤوس أموال المفاليس، والعجز مفتاح كل شر، وأصل المعاصي كلها هو العجز، فإن العبد يعجز عن أسباب أعمال الطاعات وعن الأسباب التي تعوضه عن المعاصي وتحول بينها وبينه، فيقع في المعاصي. فجمع في هذا الحديث الشريف في استعاذته ﷺ أصول الشر وفروعه ومبادئه وغاياته وموارده ومصادره، وهو مشتمل على ثمان خصال، كل خصلتين منها قرينتان؛ فقال: «**اللَّهم أعوذ بك من الهم والحَزَن**»[1]، وهما قرينتان؛ فإن المكروه الوارد على القلب ينقسم باعتبار سببه إلى قسمين:

- فإنه إما أن يكون سببه أمرًا ماضيًا فيحدث الحزن.
- وإما أن يكون متوقعًا في المستقبل فيُحدث الهم.

وكلاهما من العجز؛ فإن ما مضى لا يُدفع بالحزن؛ بل بالرضا والحمد والصبر والإيمان بالقدر، وقول العبد: «قدر اللَّه وما شاء فعل». وما يستقبل لا يدفع بالهم، بل إما أن يكون له حيلة في دفعه فلا يعجز عنه، وإما ألَّا تكون له حيلة في دفعه فلا يجزع منه، بل يلبس له لباسه، ويأخذ له عدته، ويتأهب له أهبته اللائقة، ويستجن بجُنة حصينة من التوحيد والتوكل والانطراح بين يدي الرب تعالى والاستسلام له والرضا به ربًّا في كل حالة، لا أن يرضى به ربًّا فيما يحب دون ما يكره، فإذا كان هكذا فإنه لم يرض به ربًّا على الإطلاق؛ فلا يرضاه الرب له عبدًا على الإطلاق.

فالهم والحزن لا ينفعان العبد بتاتًا، بل مضرتهما أكثر من نفعهما، فإنهما يضعفان العزم ويوهنان القلب، ويحولان بين العبد وبين الاجتهاد فيما ينفعه، ويقطعان عليه طريق السير أو ينكسانه إلى الوراء، أو يعوقانه، أو يحجبانه عن علم الإيمان الذي كلما رآه شمَّر

---

(١) رواه البخاري (٢٨٩٣).

إليه وجدَّ في سيره، فهما حملٌ ثقيل علىٰ ظهر السائر، بل إن عاقه الهم والحزن عن شهواته وإرادته التي تضره في معاشه ومعاده انتفع بهما من هذا الوجه، وهذا من حكمة العزيز الحكيم أن سلط هذين الجنديين علىٰ القلوب المعرضة عنه الفارغة من محبته وخوفه ورجائه، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والأنس به، والفرار إليه، والانقطاع إليه؛ ليردها بما يبتليها به من الهموم والغموم والأحزان والآلام القلبية عن كثير من شهواتها المردية. انتهىٰ ما أردت نقله بتصرف بسيط لحاجة الإفصاح.

وهنا فوائد:

١ ـ أن المنافقين يعتقدون أن السفر البعيد أو الغزو سبب لحصول الموت، فجعلوا من اعتقادهم سببًا لتنفير الناس عن الجهاد؛ لأن في الطباع محبة الحياة والنفرة من الموت أو القتل، وهذا من بعض شؤم النفاق عليهم، وإلا فكيف ينسون ما في الأسفار البعيدة من الأرباح العظيمة لقلة من يغامر في الأسفار إليها، وما في الجهاد من المغانم والنصر الذي يحصل به الاستعلاء والقيادة، ومن كانت هذه عقيدته فيجب عليه ألَّا يتحرك إلىٰ عمل؛ لأن كل عمل من الأعمال فيه خطر علىٰ الحياة أو علىٰ بعض الأعضاء.

٢ ـ زعم بعضهم إشكالًا في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ أنه يدل علىٰ الماضي، وقوله: ﴿إِذَا ضَرَبُوا۟﴾ يدل علىٰ المستقبل، والحقيقة ألَّا إشكال في ذلك؛ لأن الشيء الذي يكون لازم الحصول في المستقبل قد يعبر عنه بصيغة الماضي بأنه حدث أو هو حادث؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]؛ وذلك للمبالغة، ولما كان المنافقون مجتهدين في تقرير شبهتهم، أتىٰ اللَّه بالإخبار عن جدهم في ذلك بصيغة الماضي للمبالغة في التحذير منهم، وأيضًا فإن ذلك خرج علىٰ سبيل الحكاية عن معتقد المنافقين ومكرهم في ترويجه.

٣ ـ في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، قال الراغب: علق

اللَّـه ذلك بالبصر لا بالسمع، وإن كان الصادر منهم قولًا مسموعًا لا فعلًا مرئيًّا، وذلك لأنه لما كان ذلك القول من الكفار قصدًا منهم إلىٰ عمل يحاولونه، فخص البصر دون السمع، كقولك لمن يقول شيئًا، وهو يقصد فعلًا يحاوله: «أنا أرىٰ ما تفعله».

وقرأ ابن كثير ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بالياء علىٰ الغيبة، وهو وعيد للمنافقين، وقرأ الباقون بالتاء، علىٰ أنه خطاب للمؤمنين، كما قال سبحانه في أول الآية: ﴿لَا تَكُونُوا﴾ فهو تأكيد للنهي، ويكمن فيه الوعيد لمن خالف أمر اللَّـه وطاوع المنافقين، أو اقتدىٰ بهم، كما يكمن فيه الوعد الحسن لمن امتثل أمر اللَّـه وخالفهم، واعلم أن مخالفة الكافرين والمنافقين فيما يقولونه ويعتقدونه يحصل عنها ما يغيظهم.

٤ ـ في تنوع الحسرات علىٰ المنافقين الذين يروجون شبهتهم علىٰ إخوانهم وعلىٰ المؤمنين، فإنه يصيبهم حسرات عديدة في الدنيا والآخرة غير ما ذكرناه من حسرتهم سابقًا، فإنه زيادة علىٰ الحسرة التي يجعلها اللَّـه عليهم كعاقبة سيئة لصنيعهم، وذلك أنهم إذا ألقوا إلىٰ إخوانهم هذه الشبهة، فثبطوا علىٰ الجهاد وتخلفوا، وسبقهم المؤمنون إليه، فنالوا الغنائم العظيمة والاستيلاء علىٰ أرض العدو، حصل المنافقون المتخلفون علىٰ مزيد من الحسرة والندامة، وكذلك يحصلون علىٰ مزيد من الحسرة إذا علموا فساد مذهبهم وبطلان شبهتهم، وكذلك تزداد حسرتهم علىٰ بذلهم المجهود في تضليل غيرهم إذا عاقبهم اللَّـه بعمىٰ البصيرة، فوقعوا في الخيبة والحيرة وضيق الصدر، كما تزيد حسرتهم إذا رأوا صدود المؤمنين عنهم، وعدم تأثرهم بما يقولون، وهذا غير حسرتهم يوم القيامة.

٢١ ـ من أنواع وقاية اللَّـه لعباده من الهزيمة النفسية: تبشيره لهم بحسن عاقبتهم ومصيرهم إن ماتوا أو قتلوا في سبيل اللَّـه، فإن الحياة

الدنيا ليست هي غاية ما يمنحه اللَّه لهم، ولا هي ما يمنحه، وإنما وراءها الفوز العظيم والرضوان في جنات النعيم، فيكرر اللَّه لهم وعده الصادق وبشارته العظمىٰ المؤكدة بالقسم في قوله سبحانه في الآية (١٥٧) من السورة:

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾:

فإنه سبحانه بعد نَهيه لهم أن يقولوا كمقالة الكفار المسببة للتخاذل عن الغزو، أخبرهم أنه إن تم ما يحذرونه من القتل أو الموت في سبيل اللَّه، فما يحصل لهم من مغفرة اللَّه لذنوبهم ورحمته لهم بإدخالهم جنة الخلد خير مما يجمعون من حطام الدنيا ومنافعها، لو أبقىٰ اللَّه حياتهم، وقد أجرىٰ تأكيده بالقسم؛ لأن اللام في: ﴿وَلَئِن﴾ هي الموطئة للقسم، وجواب القسم هو قوله: ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾، وفي كونها نكرةً إشارةٌ إلىٰ أن أيسر جزء من المغفرة والرحمة خير من الدنيا وما فيها، وأن فيه كفايةً تامةً لفوز المؤمنين، كما روي عن ابن عباس في قوله: ﴿خَيْرٌ﴾: أي: خير من طلاع الأرض ذهبة حمراء[1].

وإذن فالموت أو القتل في سبيل اللَّه خير من جميع ما في الحياة الدنيا، بل خير من الدنيا بأجمعها، واللَّه سبحانه لا يختارهم لشيء أفضل مما عنده، ولا يختار الجزاء الدنيوي فقط مهما عظم وضخم؛ لأنه لا يساوي شيئًا مما في الآخرة، وبموته أو قتله يتخلص من عدوه، ويلحق بمحبوبه الرب العظيم فكان جزاؤه منه سبحانه المغفرة والرحمة التي لا تعدلها الدنيا ثمنًا، وأما من جلس في بيته خائفًا من الموت، حريصًا علىٰ جمع الدنيا فإنه سيموت، ولكنه عند الموت يتحسر علىٰ ما يتركه من الأموال ميراثًا لغيره، وتزداد حسرته علىٰ حسب كثرتها، ثم في الآخرة يكون محجوبًا عن ربه ومحرومًا من

(١) «خير من طلاع الأرض» أي ملؤها. و«الذهبة» القطعة من الذهب.

النعيم إذا لم يكن من العازمين على الجهاد، على أن المال قد لا يبقى إلى الموت، بل يُنكب به، وينال ذل الفقر وحسرة الحرمان، فكيف يحترز العاقل ويتهرب مما فيه عزه وسعادته في الدنيا والآخرة؟! ثم إن طلب المال فيه من المشقة وتعب القلب ما يورث الهموم والغموم أعظم مما في الجهاد، وقد يُحدث لصاحبها من الأمراض ما ينغص حياته ويعجل له الشقاوة.

٢٢ ـ مما يقي اللَّه به عباده من الهزيمة النفسية، ترغيبهم وترهيبهم بالحشر إليه وحده ومجازاتهم بما يستحقونه من أعلى الدرجات أو أسفل الدرجات وذلك في قوله سبحانه في الآية (١٥٨) من السورة:

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ١٥٨﴾:

فيكمن فيها معنى الترغيب الذي ورد في الآية قبلها، إلا أنها تضمنت تحقير أمر الدنيا والتحريض على الشهادة في سبيل اللَّه، وأن مصير الثقلين كلهم إلى اللَّه سبحانه، فموافاته على الشهادة أليق له وأولى به ليحرز ثوابها كاملًا عند الحشر.

قال الرازي: فانظر في ترتيب هذه الآيات؛ فإنه قال في الآية الأولى: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهو إشارة إلى من يعبده خوفًا من عقابه، ثم قال: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾، وهو إشارة إلى من يعبده طلبًا لثوابه، كما قال في خاتمة الآية: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾، وهو إشارة إلى من يعبد اللَّه لمجرد الربوبية والعبودية، وهذا أعلى المقامات وأبعد النهايات في العبودية في علو الدرجة، ألا ترى أنه لما شرف الملائكة قال: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء: ١٩]، وقال للمقربين من أهل الثواب ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥]، فبين أن هؤلاء الذين بذلوا أنفسهم وأبدانهم في طاعته ومجاهدة عدوه يكون حشرهم إليه واستئناسهم بكرمه، وتمتعهم بشروق نور ربوبيته، وهذا مقام إطناب، والمستبصر يرشده القدر الذي أوردناه. اهـ.

وكأن اللَّه يقول لعباده في هذه الآية: إنكم إن تركتم الجهاد واحترزتم عن القتل والموت، بقيتم أيامًا قليلًة في الدنيا مع تلك اللذات البهيمية المنقطعة ثم تتركونها حتمًا، فتصير لذاتها لغيركم، وحسابها عليكم. أما لو أرخصتم لذات الدنيا، وفضلتم الآخرة، فبذلتم النفس والمال للَّه ـ الذي يكون حشركم إليه ووقوفكم علىٰ عتبة رحمته، وتلذذكم بذكره ـ؛ لحزتم أشرف المنازل وأعلىٰ الدرجات، وشتان ما بين المنزلتين.

✍ ثم إن هاهنا فوائد:

١ ـ أنه لم يقل: «تحشرون إلىٰ اللَّه»، بل قال: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ وهذا يفيد الحصر؛ فمعناه: إلىٰ اللَّه يحشر الثقلان لا إلىٰ غيره، وهذا يدل علىٰ أنه لا ملك ولا حاكم في ذلك اليوم، ولا نافع ولا ضار إلا اللَّه سبحانه، كما قال: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

٢ ـ أنه ذكر من أسماء اللَّه هذا الاسم الذي هو لفظ الجلالة، وهذا أعظم الأسماء، وهو دال علىٰ كمال الرحمة والقهر، وبدلالته علىٰ كمال الرحمة يكون أعظم أنواع الوعد، وبدلالته علىٰ القهر، يكون أشد أنواع الوعيد.

٣ ـ إدخال لام التوكيد علىٰ اسم اللَّه، حيث قال: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ﴾، وهذا ينبه المسلمين علىٰ أن الألوهية تقتضي هذا الحشر والنشور، إذ لا يليق بجلال اللَّه أن يترك خلقه سُدًىٰ، وعدم تركهم سدًىٰ يستلزم حشرهم إليه واختصاصه بالحكم فيما بينهم، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [طـه]، و﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

٤ ـ أن قوله تَعَالَىٰ: ﴿تُحْشَرُونَ﴾ فعل ما لم يسم فاعله، مع أن فاعله اللَّه، ولكن ترك التصريح باسمه في هذا الموضع أدل علىٰ العظمة.

٥ ـ أنه أضاف حشرهم مع غيرهم لينبه العقل إلىٰ أن جميع

الخلائق في قبضة قدرة اللَّه ﷻ ونفاذ مشيئته، وأنهم لا يخرجون عن قهر الربوبية؛ سواء أكانوا أحياءً أم أمواتًا.

٦ ـ أن قوله: ﴿تُحْشَرُونَ﴾ خطاب للجميع؛ يدل علىٰ أن جميع العالمين يحشرون ويوقفون في عرصات القيامة عند الحكم العدل سبحانه الذي ينصف المظلوم من الظالم من جميع الأصناف، ويضع الموازين التي لا تجور بإذنه ﷻ.

ومن غاص في بحار التأمل لوحي اللَّه؛ فإنه يجني فوائد كثيرةً من هذه الآية، ويتضح له أن اللَّه اشترىٰ من عباده حياةً قصيرةً منغصةً بالمصائب والآلام، بحياة خالدة لا تنقطع لذائذها، ولا يحصل عليهم شيء من المنغصات، واشترىٰ منهم مالًا قليلًا فانيًا بملك لا يحصىٰ ولا يبيد، فهنيئًا لمن صدق مع اللَّه.

وهنا ملاحظة دقيقة، وهي أن اللَّه قدم الموت مرتين علىٰ القتل في هذه الآيات؛ لأنها آيات وعظ بالآخرة والحشر، وتزهيد في الدنيا الفانية المنغصة كما قدم القتل علىٰ الموت في الآية الوسطىٰ تحريضًا علىٰ الجهاد؛ فقدم الأهم والأشرف، وأما تقديمه الموت في غيرها فلأنه الأغلب، وحكمة اللَّه في مدلول هذه الآيات كلها هو أن تطمئن القلوب لما جرىٰ من ابتلاء في هذه الغزوة، فلا يساورها أي شك مما يثبط عن الجهاد، أو يشككها في صحة عقيدتها وحقيقة مستقبلها، وألَّا تصغي إلىٰ كلام أعدائها من الكافرين والمنافقين، وأن تعتبر وعد اللَّه الغيبي كالملموس بالأيدي إذا صدقت مع اللَّه وأخلصت له ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧].

٢٣ ـ من وقاية اللَّه لعباده من الهزيمة النفسية: تعليم اللَّه لنبيه ﷺ ـ الذي رباه علىٰ اللين والسماحة ـ أن يعفو عن المخالفين لأمره، والواهين عن نصرته، وأن يستغفر لهم ائتلافًا وجبرًا وتدعيمًا لمحبته في نفوسهم، كما جاء في الآية (١٥٩) من السورة:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) ﴾:

وقد اختلفوا في متعلق الرحمة: هل متعلقها المؤمنون، أو الرسول ﷺ؟ فإن كان متعلقها المؤمنين فالمعنىٰ: فبرحمة من اللَّه عليهم لنت لهم، فتكون الرحمة مما امتن اللَّه بها عليهم، أي دمثت أخلاقك ولان جانبك لهم بعدما خالفوا أمرك وعصوك في هذه الغزوة، وذلك برحمة اللَّه إياهم.

وإن كان متعلَّق الرحمة هو المخاطب ﷺ؛ فالمعنىٰ: برحمة اللَّه إياك جعلك لين الجانب، موطأ الأكناف، فرحمتهم ولنت لهما، ولم تؤاخذهم علىٰ عصيانهم لك وفرارهم منك وتركهم إياك وحيدًا في المعركة. فيكون الامتنان من اللَّه عليك بأن جعلك علىٰ خلق عظيم، وبعثك لإتمام محاسن الأخلاق.

ويحتمل أن يكون متعلقها الجميع، والمفهوم من ظاهر هذه الآية أن متعلقها النبي ﷺ، وحرف «ما» صلة بمعنىٰ التوكيد، والرحمة هي لين القلب ودماثته وتحننه علىٰ المرحوم.

ولما جعل اللَّه نبيه علىٰ هذه الحالة من الرحمة، لم يحصل منه تغليظ في القول علىٰ أصحابه، ولا خشونة في الكلام علىٰ عظيم جنايتهم، وذلك من حكمة اللَّه ورحمته ليزدادوا إيمانًا، ويعلموا أن هذا لا يمكن حصوله إلا بتأييد رباني، وقد رباه اللَّه علىٰ أحسن خلق بقوله: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) ﴾ [الشعراء]، وبقوله: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ (١٩٩) ﴾ [الأعراف].

وقد وصف اللَّه نبيه بأنه ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فبسبب الرحمة العظيمة التي أنزلها اللَّه علىٰ قلبه وخصه بها، كان علىٰ جانب عظيم من اللطف واللين بصحابته؛ بحيث لم يروا منه

توبيخًا ولا تعنيفًا، بل تجد حقيقةَ الرحمة الإلهية المتمثلة في أخلاق رسوله بحيث عمت جميع المؤمنين، ولا شك أن اللَّه منحه رحمةً عظيمةً بجانب ما حصل منهم، ومنشأ هذه الرحمة أن اللَّه العليم الحكيم ـ الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ـ هو الذي أعلمه بسلامة صدورهم، وأن ما حصل منهم ليس عن خيانة لدينه ورسوله، وإنما حصل بسبب ملابسات شيطانية، منها الغرور بالانتصار بادئ الأمر، مما حدا ببعضهم إلىٰ الطمع في الغنيمة وهم أهل الثغر، ثم صيحة الشيطان بقتل الرسول ﷺ وما حصل عليهم من الإرجاف من جهة المنافقين.

وفي معاملته ﷺ لهم تعليمٌ للقيادة الإسلامية أن تعامل جنودها بالرحمة والتسامح عما جرىٰ من أخطائهم التي ليس لها جذورُ خيانةٍ عسكرية، لتنغرس المحبة ويحصل الوئام بين القائد والمقود، خلافًا للأنظمة الحربية المادية.

ومن رحمة اللَّه في حق نبيه ﷺ أنه أفهمه مفاسد الغلظة والفظاظة، فقال سبحانه له: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾، والفظاظة هي الجفوة بالقول أو الفعل، وغلظ القلب صلابته وشدته بحيث لا يلين، والانفضاض هو التفرق.

وفي هذا بيان من اللَّه أن ثمرة الدين هي المحبة والاجتماع عليه، وأن خلافها من الجفوة والخشونة يؤدي إلىٰ التفرق، فالمعنىٰ: أنك يا محمد لو قابلتهم بالملامة والتأنيب علىٰ ما صدر منهم من المخالفة والفرار، لتفرقوا من حولك هيبةً منك وحياءً، فكان ذلك سببًا لتفرق كلمة الإسلام، وضعف مادته وإطماع العدو في أهله، بخلاف اللين والرفق.

هذا؛ وإن مشروعية اللين والرفق فيما لم يُفْضِ إلىٰ إهمال حق من حقوق اللَّه، فقد قال جَلَّ جَلَالُهُ في حق الكفار: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩]، ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، وفي وصفه ﷺ في الكتب السماوية

الأولىٰ: أنه ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، وذلك أن المقصود من البعثة هو أن يبلغ الرسول تكاليف اللَّه إلىٰ الأمة، وهذا المقصود لا يتم إلا إذا مالت قلوبهم إليه وسكنت نفوسهم له، ولا يتم هذا إلا إذا كان رحيمًا كريمًا يتجاوز عن ذنبهم ويعفو عن إساءتهم، ويخصهم بوجوه البر والمكرمة والشفقة، فلهذا جبل اللَّه نبيه ﷺ علىٰ مكارم الأخلاق.

ثم إن اللَّه سبحانه أمر نبيه ﷺ فيما يتعلق بأمته بثلاثة أمور مهمة؛ فقال: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾:

فأمره أولًا: أن يعفو عنهم فيما يتعلق بحقه ﷺ، فيعلن عفوه التام عن جميع ما صدر منهم من مخالفتهم أمره، والفرار عنه، وقبولِهم لإرجاف المنافقين.

وأمره ثانيًا: أن يستغفر لهم فيما يتعلق بحق اللَّه ﷻ من معصية رسوله، وتركهم المصابرةَ في الثغر، والصبرَ علىٰ البأس في الجهاد، وتركهم الثبات الواجب عليهم وحصول الفرار المحرم عليهم، وتقبلهم همزات شياطين الإنس من المنافقين، فكل هذه الأمور مغضبة للَّه، ولكن يمحوها استغفار النبي ﷺ لهم بعد إذنه بتوبتهم وقبولها منهم، وللَّه الحمد والمنة أولًا وآخرًا.

وأما أمره الثالث: فهو مشاورتهم في مهمات الأمور؛ لكمال صفحه عما جرىٰ منهم، ولفتحه صفحةً جديدةً في معاملتهم.

وفي استشارتهم عدة فوائد؛ قضاها العليم الحكيم الحليم الرحيم جل شأنه، وهي:

تطييب نفوسهم، والارتفاع بمعنويتهم، ورفع مقامهم بصفاء قلبه لهم، حيث اصطفاهم للمشاورة، وجعلهم من خواصه الأقربين بعدما صدر منهم، فيستيقنوا أنه لم يبق في قلبه شيء من المَوجدة[1] عليهم

---

(١) الموجدة: الغضب.

قطعًا، وأنه كريم ذو وفاء معهم، وإخلاص لهم، وأن محبتهم تزداد في قلبه، فيخلصون له، ويتفانون في محبته وتقديره وإجلاله وتعظيمه، كما حصل ذلك منهم، وأشاد به عروة بن مسعود يوم صلح الحديبية.

ومن فوائد الاستشارة لهم: استظهار رأيهم فيما لم ينزل به وحي من اللَّه، فقد يكون عندهم من الخبرة ما ينتفع به.

ومن فوائدها: اختبار عقولهم، ومعرفة عمق التفكير فيهم؛ فينزل كل واحد منهم منزلته.

ومنها: حصول اجتهادهم فيما فيه وجه الصلاح.

ومنها: أن هذا جارٍ علىٰ عادة العرب في الاستشارة وعدم الاستبداد، وإذا لم يشاور أحدًا منهم حصل في نفسه شيء، ثم إن في مشورته لهم تشريعًا لمن ولي بعده شيئًا من أمور المسلمين أن يسلك مسلكه في الاستشارة التي أمره اللَّه بها، فإن أمره بها أمر لأمته عمومًا، ولقادتهم خصوصًا، وقد أطلق اللَّه حكم الاستشارة لتعم أمر السلم والحرب وسائر شؤون الحياة.

ويظهر من أفعاله ﷺ أنه مأمورٌ بها قبل حادثة «أحد» لأنه استشار أصحابه في أسارىٰ بدر، كما قبل المشورة في اختيار المنزل الحربي في «بدر» من الحباب بن المنذر.

وقد حصل في أوامر اللَّه تدريج بليغ، وحكمة في تقديم بعضها علىٰ بعض:

فقد أمره اللَّه أولًا بالعفو عما صدر منهم؛ إذ عفوه عنهم مسقط لحقه، ودالٌّ علىٰ رضاه عنهم، وعدم مؤاخذتهم بشيء، ولما سقط حقه ﷺ بعفوه أمره اللَّه أن يستغفر لهم ليكمل لهم صفحه وصفح اللَّه عنهم، ويحصل لهم رضاه ورضا اللَّه، ولما زالت عنهم التبعات من الجانبين شاورهم في الأمر إعلامًا بأنهم أهل المحبة الصادقة والود الخالص؛ إذ لا يستشير الإنسان إلا من يعتقد فيه المحبة والنصح

والعقل والتجربة.

وقد جدد اللَّه علىٰ رسوله الأمر بالمشورة بعدما شاورهم للخروج إلىٰ «أحد»، وعمل بمشورتِهم المخالفة لرأيه ـ كما أسلفنا ـ.

وقد ورد في السنة أحاديث في الاستشارة:

منها: ما روي عنه ﷺ أنه قال: «**ما ندم مَن استشار، ولا خاب من استخار**»(١).

وما روىٰ سهل بن سعد الساعدي عنه أنه قال: «**ما شقي قطُّ عبدٌ بمشورة، وما سعد باستغناء رأي**»(٢).

قال البخاري: وكانت الأئمة بعد رسول اللَّه ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها.

وقد أخرج الإمام أحمد عن عبدالرَّحمن بن غنم: أن رسول اللَّه ﷺ قال لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: «**لو اجتمعتما في مشورةٍ ما خالفتكما**»(٣).

وقد أخرج ابن جرير عن قتادة أنه قال: «أمر اللَّه نبيه ﷺ أن يشاور أصحابه في الأمور ـ وهو يأتيه الوحي من السماء ـ، لأنه أطيب لنفوس القوم، أو أن تكون سنةً بعده لأمته».

وليس المراد مشورة الجميع؛ بل مشورة أهل الحل والعقد ممن كان من أهل الفضل والتقوىٰ، وأهل التدبير والرأي، ويؤيد ذلك ما أخرجه الحاكم ـ وصححه ـ، والبيهقي في «سننه» عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالىٰ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾: «يعني أبو بكر وعمر». ومن طريق الكلبي عن أبي صالح عن حبر الأمة: «أن الآية نزلت فيهما»(٤).

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٦٧٢٧).

(٢) رواه القضاعي في «مسند الشهاب» (٧٧٢) بنحوه.

(٣) رواه أحمد (٤/٢٢٧).

(٤) حتىٰ لو ثبت هذا ـ وفيه نظر؛ إذ هو من طريق الكلبي ـ، فليس معناه أن الآية قاصرةٌ علىٰ مشورتِهما رضي الله عنهما، لأن العبرة ـ كما هو معلوم ـ بعموم اللفظ.

والمقصود ـ واللَّه أعلم ـ هو أن يختار الوالي نخبةً من عقلاء المسلمين المفكرين لمشورته ممن يثقُ بدينهم وأمانتهم صونًا للرأي عن الفوضىٰ.

قال ابن عطية: «إن الشورىٰ من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، هذا ما لا خلاف له، والمستشار في الدين عالم دين، وقلما يكون ذلك إلا في عاقل، قال الحسن: «ما كمل دين امرئ لم يكمل عقله». وفي الأمور الدنيوية أن يكون عاقلًا مجرِّبًا مراد في المستشير. انتهىٰ كلامه ملخصًا.

ونقل القرطبي عن الشافعي أن الشورىٰ جائزة أو مندوبة لا واجبة، وقال: هي كقوله ﷺ: «**البكر تستأمر**»[1]؛ تطييبًا لنفسها لا أنه واجب[2]. اهـ.

وقال الحسن: «واللَّه ما تشاور قوم بينهم إلا هداهم اللَّه لأفضل ما يحضر بهم».

ولقد أحسن الشاعر القائل:

شاور صديقك في الخفيِّ المشكل ... واقبل نصيحة ناصح متفضل

فاللَّهُ قد أوصىٰ بذاك نبيه ... في قوله: شاورهم وتوكلِ

والشورىٰ مبنية علىٰ اختلاف الآراء، فالمستشير ينظر في ذلك الاختلاف وينظر أقربها إلىٰ الكتاب والسنة إن أمكنه، فإذا أرشده اللَّه إلىٰ ما شاء منه عزم عليه وأنفذه متوكلًا علىٰ اللَّه، وقال الشاعر:

إذا كنت في حاجةٍ مرسلًا ... فأرسل حكيمًا ولا توصه

وإن بابُ أمر عليك التوىٰ ... فشاور لبيبًا ولا تعصه

---

(١) رواه البخاري (٦٩٤٦).

(٢) بل الأصح أن رأي البكر واجب، وأن وليَّها إذا زوجها دون رضاها، فالنكاح باطل.

واعلم أن الشورىٰ في الأمور الدنيوية مما تتطلبه السياسة السليمة، أو الحربية من خطط أو تنظيم، فأما الأمور الدينية فمرجعها وحي اللَّه وليس للرأي فيها مجال، ولذا كان الصحابة يسألون رسول اللَّه ﷺ، وإذا أرادوا تنبيهه لشيء: هل فعله بوحي من اللَّه؛ فلا رأي لهم فيه، أو فعله من تلقاء نفسه كمنزله يوم «بدر» ونحوه، فيُدلون برأيهم؛ وذلك لعلمهم أن الدين لا رأي فيه.

هذا وإنه ﷺ لم يجعل للشورىٰ قاعدةً معينةً، وذلك لعلمه من اللَّه باختلاف السياسة والأوضاع، وأن ما يصلح لعصره لا يصلح لغيره، خصوصًا مع توسع رقعة الإسلام، وهذا من رحمة اللَّه بأمته، إذ لو جعل للشورىٰ قاعدةً لاعتبرها شعيرةً دينيةً لا يجوز الخروج عنها، ولكنه أطلق أمر الشورىٰ، كما أطلقها اللَّه لتكون علىٰ حسب مقتضيات الحال، وقد سبق البيان بأن الطريقة الغربية المبنية علىٰ تصويت جميع الشعب أو الأمة واعتبار الأكثرية، عمل جاهلي، وفيه مرتع خصيب للماسونية اليهودية التي تشتري الأصوات وتتلاعب بها، وأن المرجع في الشورىٰ إلىٰ أهل الحل والعقد من ذوي التقوىٰ والنزاهة؛ ليقطعوا الطريق علىٰ أعدائهم بوسيلةٍ مبنيةٍ علىٰ تقوىٰ من اللَّه ورضوان.

وقد جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم طعنه الشورىٰ في ستة أشخاص من فضلاء الأمة؛ حتىٰ لا تحصل الفوضىٰ والارتباك بدخول ذوي الأغراض النفسية، وقد قرر علماء النفس أن الجماهير لا عقل لها، ولهذا كانت لعبةً للدجاجلة والطواغيت.

وإننا نرىٰ اللَّه يقول في كتابه العزيز: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ [سبأ: ١٤٦]؛ فالجماهير يذهب بأصواتها كل من يرشح نفسه من الانتهازيين.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾، يعني: إذا عقدت قلبك ـ بعد الاستشارة ـ علىٰ أمر، فاجعل تفويض أمرك

إلىٰ اللَّه، غير معتمد علىٰ ما وقعت عليه الإشارة، بل اعتمد علىٰ توفيق اللَّه وإعانته وتسديده وعصمته، فإنه العالم بالأصلح لك والأرشد لأمرك، وهو أعلم بذلك ممن أشار عليك، فكن واثقًا بمعونة اللَّه وتأييده لك فيه، ولا تتكل علىٰ حولك وقوتك، بل اعلم أن وراء ما أتيته وما أوتيته قوةً أعلىٰ وأكمل؛ يجب أن يكون المعول عليها.

✍ ففي هذه الآية عدة فوائد:

١ ـ المشاورة وتخمير الرأي وتنقيحه والفكر فيه؛ فإن ذلك مطلوب شرعًا.

٢ ـ أنه ليس معنىٰ التوكل أن يهمل الإنسان نفسه كما يفعله بعض الجهال، وإلا لكان الأمر بالمشاورة منافيًا للتوكل، بل التوكل هو مراعاة الإنسان للأسباب الظاهرة بدون أن يعول عليها بقلبه، بل يعول علىٰ اللَّه الذي يعصمه من الشرور، ومن مكر الماكرين.

وقد أسلفنا في بحث التوكل قول المحققين من العلماء: إنه لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها اللَّه مقتضيات لمسبباتها قدرًا وشرعًا، وإن تعطيلها يقدح في نفس التوكل، كما يقدح في الأمر والحكمة، ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوىٰ في التوكل، فإن تركها عجزًا ينافي التوكل ـ الذي حقيقته اعتماد القلب علىٰ اللَّه في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه ـ، ولابد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطلًا للحكمة والشرع، فلا يجوز أن يجعل العبد عجزه توكلًا ولا توكله عجزًا، وجميع تشريعات اللَّه تدل علىٰ وجوب الأخذ بالأسباب مع التوكل الذي هو الاعتماد علىٰ اللَّه، فإن التوكل واعتقاد القضاء لا يمنعان من النشاط في العمل والأخذ بالأسباب.

وقد أمر اللَّه في هذه الآية بالمشورة، ثم بالعزم علىٰ ما ظهر لعبده من الأمر مع التوكل والعزم هو الأمر المروَّىٰ المنقح، أي الحاصل

بعد التروي والتأكد من صلاحيته، وليس ركوب الرأي من دون التروي عزمًا. وأفصح ما قيل في معنىٰ «العزم»: إنه قصد الإمضاء، وليس العزم هو الحزم؛ لأن معنىٰ الحزم جودة النظر وتنقيحه، والحذر من الغلط فيه.

وأما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾، ففيه حث علىٰ التوكل بأن اللّٰه يحب من توكل عليه واثقًا بتسديده وتأييده، ومصدر هذا الحث هو الإنسان يسعىٰ فيما يحصل به علىٰ محبة اللّٰه، ففي هذه الجملة ترغيب للمكلفين في الرجوع إلىٰ اللّٰه سبحانه، والإعراض عما سواه.

وفي تحقيق التوكل علىٰ اللّٰه مع الأخذ بالأسباب منافع عظيمة وأجر كريم، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**لو أنكم تتوكلون علىٰ اللّٰه حقَّ التوكل؛ لرزقكم كما يرزق الطير؛ تغدو خماصًا وتروح بطانا**»[(١)]؛ فلا يرزقها في أوكارها وهي قادرة علىٰ الانطلاق، ولكن يرزقها بالسعي.

٢٤ ـ مما يقي اللّٰه به عباده من الهزيمة النفسية: هو أمر اللّٰه لنبيه ﷺ بمشاورتهم مع كونه يتولاه ويُعلِّمه ما لا يَعلمُه، ولكنه تطييب لنفوسهم، وارتفاع بمعنوياتهم، وتقرير عام لمبدأ الشورىٰ في دين اللّٰه عن الاستبداد الكامل، وقد أوضحنا هذا وأدرجناه في المادة السابعة والعشرين.

٢٥ ـ تثبيت اللّٰه لقلوب المؤمنين، وحصر اتجاههم إليه بالقوة في الأخذ بالأسباب والقذف بها وعدم الاعتماد عليها؛ بل يتوكلون علىٰ اللّٰه، فإن المقصود من الشورىٰ هو النظر في الآراء واختيار المناسب منها، فإذا تقرر الاختيار انتهىٰ أمر الشورىٰ، وجاء دور التنفيذ لما عزم عليه من الآراء، فهاهنا ينبغي التنفيذ بكل عزم منوط بالتوكل علىٰ اللّٰه كما مضىٰ بيانه، فإن صدق التوكل علىٰ اللّٰه ـ مع الأخذ بالأسباب ـ يبعث القوة في النفوس، والحزم في العقول، ويقيها من

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤).

جميع شوائب الهزيمة النفسية.

٢٦ ـ مما يقي اللَّه به عباده من الهزيمة النفسية: وهي قوة تعلقهم باللَّهِ، واتجاههم إليه، وثقتهم بجنابه الكريم، والبراءة من الحول والقوة، واعتقاد ألَّا ناصر لهم سواه، وأن نصره منوط بالصبر والتقوىٰ وتحقيق طاعته بالأخذ بوسائل القوة المادية المستطاعة مع القوىٰ الروحية التي هي أخذ القرآن بقوة، وتنفيذ ما يريده اللَّه من فعل وترك، وحينئذ فليتوكلوا عليه وحده سبحانه، وهو لن يضيع شيئًا من مساعيهم وصدق نياتهم.

٢٧ ـ توضيح اللَّه لهم نتيجة المعركة التي لا تفتر بينهم وبين الكفر من نصر وخذلان، وأن مردها إلىٰ قضاء اللَّه وقدره ومشيئته النافذة في خلقه، فلا يبطرون إذا حازوا علىٰ الكثرة والقوة، ولا يقنطون إذا نالتهم هزيمة بسبب ضعفهم المادي أو الروحي؛ بل يأخذون بالأسباب، متوكلين علىٰ اللَّه الذي بيده الأمر كله، ولا ناصر لهم سواه، ولا غالب لهم أبدًا مع نصر اللَّه، ولهذا جاءت التسلية من اللَّه للمؤمنين ببيان هذه النتيجة، وذلك في الآية (١٦٠) من السورة:

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾:

وهذه الآية فيها التفات، لأنها خروج من الغيبة إلىٰ الخطاب، فبعد ما أمر اللَّه رسوله ﷺ بمشاورتهم والتوكل عليه، أوضح أن نتيجة معارك المؤمنين مع أعدائهم إنما هي راجعة لمشيئته وحكمه الكوني في خلقه من نصر وخذلان، وأنه متىٰ نصرهم فلا يمكن أن يغلبهم أحد مهما كانت قوته، ومتىٰ خذلهم فلا ناصر لهم أبدًا مهما كانت صولته، وهذا كيومي بدر وأُحد؛ فإنه لا رادَّ لما قضىٰ اللَّه لكم أو عليكم، وفي هذا تسلية لهم عما وقع لهم من المعصية والفرار.

وقد تضمنت هذه الآية ـ زيادةً علىٰ التسلية ـ ترغيبهم في الطاعة،

وتحذيرهم عن المعصية، لأن اللَّه ﷻ أوضح فيما سبق أن من اتقىٰ معاصيه حاز علىٰ النصر المبين، ثم حقق في هذه الآية أن من نصره اللَّه فلا غالب له قطعًا، فيحصل من هاتين المقدمتين أن من اتقىٰ اللَّه فاز بسعادة الدارين، ونال سعادة لا شقاوة معها، وعزًّا لا ذل معه؛ إذ يصير غالبًا لا يغلبه أحد، وأن من اقترف المعاصي فاللَّهُ يخذله، ولن يجد له من دون اللَّه نصيرًا ولا ملتحدًا[1]، فيشقىٰ شقاوةً لا يذوق معها سعادة، ويذل ذلًّا ليس معه عز.

وفي إتيان اللَّه ببيان النصر والخذلان بطريقة الاستفهام، تلطف بالمؤمنين حتىٰ لا يصرح لهم بأنه لا ناصر لهم، بل صاغه بصورة الاستفهام الذي يقتضي السؤال عن النصر ليعرفوا جوابه في قرارة نفوسهم، وإن كان المعنىٰ يتضمن نفي النصر، لكنه سبحانه لم يُجْرِ المؤمنين مجرىٰ الكافرين الذين صرح بعدم نصرهم بقوله: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣]، وظاهر النصرة أنها في لقاء العدو والفتك به والاستيلاء عليه، ثم أمرهم بالتوكل، وأناط الأمر بالمؤمنين في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، فنبه علىٰ الوصف المناسب للتوكل، وهو الإيمان؛ لأن المؤمن مصدق بأن اللَّه هو الفاعل المختار بيده النصر والخذلان، والأمر كله بيده، وأنه لا رادَّ لقضائه، ولا دافع لحكمه، فوجب ألَّا يتوكل المؤمنون إلا عليه.

والتوكل علىٰ اللَّه من فروض الإيمان، ولكنه يقترن بالجد والتشمير في الطاعة والحزم بغاية الجد، وتعاطي أسباب التحرز، وليس التوكل الإلقاء باليد والإهمال لما يجب مراعاته، وإنما هو ـ كما أسلفنا ـ يستوجب الأخذ بالأسباب كما قال ﷺ: «**قيّد واتكِل**»[2].

وعلىٰ المسلمين أن يستيقنوا أنه لا ناصر لهم سوىٰ اللَّه مهما بلغت

---

(١) **الملتحد**: الملجأ.

(٢) رواه الترمذي (٢١٧٥) بلفظ: «**اعقِلْها وتوكل**».

قوتهم، فليتوكلوا عليه وحده، ويصدقوا معه المعاملة، ويخلصوا له، ويتضرَّعوا إليه، فإنه لا يعطي النصر إلا لمن يستحقه، ولا يهزم إلا من يستحق الهزيمة. وقد ينصر اللَّه الكافر نكايةً بكافر مثله، أو لتأديب عصاة المسلمين، أو نكايةً بالمنافقين المسيطرين عليهم، وبمن سار في ركابهم، ثم يقلب نصره للكافر عقوبةً عليه إذا استيقظ المغلوب، ورجع إلىٰ اللَّه بصدق وإخلاص.

وينبغي أن يُعلم تمام العلم: أن حكمه الكوني في النصر والخذلان لا يتغير أبدًا باختلاف العصور والدول، فهو الناصر لمن يشاء والخاذل من يشاء حسب حكمته ورحمته وسابق علمه، فلا يجوز لمن يحسب نفسه علىٰ الإسلام أن يعتمد علىٰ أي دولة، أو يحتمي بها مبتغيًا منها العزة، أو المدافعة مهما تضخمت قوتها وارتفع شأنها، فإن القوة للَّه والنصر بيده وحده، ولا يجوز له موالاة دولة أو توليها علىٰ حساب دين اللَّه، أو طمعًا في نصرتها؛ فإن العزة للَّه جميعًا، ولن تنفع دولة واحدة وقت الضيق إلا بانضمام غيرها، مراغمةً لأعداء آخرين، كما جربه العرب في العدوان الثلاثي علىٰ «السويس»[1] وكما جربوه في وقائع بعدها كانت جميع الدول ضليعة اليهود، ولم يحصل من الكتلة الشيوعية سوىٰ الكلام الفارغ[2].

أما شراء السلاح فيجوز أن يتملقوا كل دولة لتحصيله إذا لم يكن

---

(١) نقصد بذلك الإنذار الروسي لبريطانيا وفي العدوان بالانسحاب؛ فإن كثيرا من الناس يحسبونه المؤثر وحده في الانسحاب وما علموا أن المؤثر شيء آخر معه قضاء اللَّه وهو خذلان أمريكا لبريطانيا إذ لو أنها قابلت الإنذار بإنذار مثله لما صار له قيمة أبدا كما حصل بعد سنة ونصف في حوادث «لبنان» حيث قابلت أمريكا الإنذار الروسي بإنذار مثله فكان أضحوكة.

(٢) نقصد حرب حزيران وأكتوبر؛ حيث لم تساعد روسيا العرب بأكثر من الكلام؛ بل عملت علىٰ شل حركتهم ولم تساعدهم بعد الهزيمة بالمفاوضات أمام عناد عدوهم؛ بل توسطت أمريكا في الموضوع كله وكان لصالح العدو.

مشروطًا بشيء يخل بالعقيدة، أو يشل الحركة ضد العدو ـ كما تشترطه بعض الدول الكبار ـ، ثم مع شراء السلاح يجب ألَّا يعتمد المسلمون عليهم، ولا يقبلوا نصحهم، أو يَصغوا إلىٰ كلامهم أو تهديداتهم لإيقاف القتال؛ بل يحسنون علاقاتهم مع اللَّه بالتزام طاعته وتنفيذ شريعته وحدوده وصدق نياتهم في القتال من أجله، واللَّه ناصرهم إن أخلصوا له وصدقوا معه، ولن يجدوا من دون اللَّه وليًّا ولا نصيرًا، ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

إنه من المستحيل أن ينصرنا أحد من دون اللَّه، حتىٰ لو أخلص معنا وبذل أقصىٰ ما يملكه، ما دام اللَّه ﷻ قد قضىٰ خذلاننا في حكمه الكوني الذي لا مبدل له، وإن قضىٰ بنصرنا فلا غالب لنا أبدًا؛ ولو اجتمعت علينا جميع الدول من أقطارها، فما علينا إلا صدق العودة إلىٰ اللَّه بمتابعة رسوله ﷺ وتنفيذ شريعته، وحصر مقاصدنا في الجهاد من أجله، ولإعلاء كلمته، لا للأرض، ولا لعصبة الجنس، أو رفعة الشخصيات، وغير ذلك من المقاصد الجاهلية الجديدة أو المادية اليهودية ونحوها.

فإلىٰ العروة الوثقىٰ أيها المسلمون، واعلموا أن من يتوقف عن قتال اليهود بحجة أنه لا يحصل علىٰ السلاح الكافي والمكافئ لسلاحهم، فهو عديم الإيمان، صفر اليدين من السلاح الروحي، وغير واثق بنصر اللَّه الذي ينصر الصادق المخلص بما شاء من أنواع نصره ولا يعجزه شيء.

٢٨ ـ من وقاية اللَّه لعباده من الهزيمة النفسية: تأكيده لهم أن الغلول لا يمكن أن يقع من نبي أبدًا، وجاء التأكيد هذا عندما أشاع المنافقون اختفاء بعض غنائم بدر ـ كعادتهم في دس الكذب ـ، فسمىٰ اللَّه ذلك غلولًا، وبرأ منه أنبياءه بقوله سبحانه في الآية (١٦١)، من السورة:

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١)﴾:

والغل والغلول: الكتمان من الغنيمة، وسمي بذلك؛ لأنه يورث الغل الذي هو حقد الصدور.

والمعنىٰ: أنه لا يمكن حصول الغلول من أي نبي كان؛ لأنه معصية وخيانة، وإذا انتفىٰ حصوله من الأنبياء، فبراءة نبينا محمد ﷺ بطريق الأولىٰ، لأنه معصوم من المعاصي. فلا يجوز لأحد أن يخوِّن الرسول في الغنائم، وهي وإن كانت معصية في كل زمان إلا أنها في حضرة الرسول أفظع وأشنع.

وعقوبة الغال إذا اطلع عليه في الدنيا إحراق جميع رحله إلا المصحف والسلاح والحيوان، وعقوبته في الآخرة ما نصه اللَّه في هذه الآية: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، وقد جاء في تفسير هذا عن النبي ﷺ فيما رواه البخاري وغيره قال: «**لا أُلفين أحدكم يجيء يوم القيامة علىٰ رقبته بعير له رُغاء، فيقول: يا رسول اللَّه، أغثني، فأقول: لا أملك لك من اللَّه شيئًا، قد أبلغتك**» إلىٰ آخر الحديث(١).

وكذلك جاء في حديث ابن اللتبية قوله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يأخذ أحدٌ منها شيئًا إلا جاء به يوم القيامة يحملُه علىٰ رقبته، إن كان بعيرًا له رغاء، أو بقرةً لها خُوار، أو شاةً تيعر**»(٢).

وفي حديث مدعم: «**أن الشملة التي غلها لتشتعل عليه نارًا**»(٣)؛ هذا مع كونه استشهد في المعركة، ولكن جريمة الغلول لا تكفرها الشهادة في سبيل اللَّه، وفي الحديث: «**لا إغلال ولا إسلال**»(٤)، أي لا خيانة

---

(١) رواه البخاري (١٤٠٢)، ومسلم (١٨٣١).
(٢) رواه البخاري (٢٥٩٧)، ومسلم (١٨٣٢).
(٣) رواه البخاري (٤٢٣٨)، ومسلم (١١٥).
(٤) رواه البيهقي (٩/٢٢٢).

ولا رشوة.

وروىٰ أبو داود عن سمرة بن جندب: أن النبي ﷺ إذا أصاب غنيمةً أمر بلالًا أن ينادي بالناس، فيجيئون بغنائمهم، فيخمسه ويقسمه، فجاء رجل يومًا بعد النداء بزمام من شعر، فقال: يا رسول اللّٰه، هذا كان فيما أصبناه، فقال: «**سمعت بلالًا ينادي ثلاثًا**»؟ قال: نعم، قال: «**فما منعك أن تجيء به**»؟ فاعتذر إليه، قال: «**كن أنت تجيء به يوم القيامة، فلن أقبله منك**»(١).

وقد ورد أن هدايا الأمراء والعمال غلول، فقد روىٰ مسلم في «صحيحه» عن أبي حميد الساعدي قال: استعمل رسول اللّٰه ﷺ رجلًا من الأزد يقال له «ابن اللتبية» علىٰ الصدقة، فلما جاء قال: هذا لكم، وهذا أُهدي إليَّ، فقام النبي ﷺ علىٰ المنبر، فحمد اللّٰه وأثنىٰ عليه وقال: «**ما بالُ العامل نبعثُه فيجيء فيقول: هذا لكم، وهذا أُهدي إليَّ؟ ألَا جلس في بيت أمه أو أبيه، فينظر يهدىٰ إليه أم لا؟ لا يأتي أحدكم بشيءٍ من ذلك إلا جاء به يوم القيامة، إن كان بعيرًا فله رغاء، وإن كانت بقرةً فلها خوار، أو شاةً تيعر**»، ثم رفع يديه حتىٰ رأينا عُفرتي إبطيه - بياضهما -، ثم قال: «**اللّٰهم هل بلغت، اللّٰهم هل بلغت**»(٢).

وروىٰ أبو داود عن بريدة عن النبي ﷺ أنه قال: «**من استعملناه علىٰ عمل فرزقناه رزقًا، فما أخذ بعد ذلك فهو غلول**»(٣).

وقال - أيضًا -: «**إن أناسًا يتخوَّضون في مال اللّٰه بغير حق؛ فلهم النار يوم القيامة**»(٤).

وينبغي للمسلم أن يلاحظ أن مجيء الغال بالبعير الذي سرقه أو

---

(١) رواه أبو داود (٢٧١٠).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه مسلم (١٨٣٣).

(٤) رواه البخاري (٣١١٨).

البقرة، وكيف أقدره اللَّه علىٰ حمل ما خانه في وظيفته، ليعلم أن الذي يختلس سيارة أو ثمنها يجيء بها يوم القيامة وهذه لزيادة فضيحته.

ويفهم من نصوص الأحاديث أن سارق الذهب والفضة بأي نوع من الاختلاس سيجيء به يحمله يوم القيامة، وأن الأوراق النقدية سيحيلها اللَّه إلىٰ أصلها من ذهب أو فضة ليحملها الموظف الذي سرقها فتزداد فضيحته بين الأمم، وهذا من إقامة الحجة علىٰ الإنسان بما كسبت يداه، وقد يجيء الموظف المختلس يحمل ما هو أثقل وأثقل، واللَّه عليم حكيم يعامل الخائن معاملةً مناسبةً لخيانته، فليحذر الموظفون في الدولة الإسلامية من مغبة الاختلاس، ويستيقنوا أن عماراتهم الشاهقة ستزيد في حسراتهم عند الموت، ويفضحهم اللَّه بها علىٰ رؤوس الخلائق، وقد قال ﷺ: «**أدوا الخيط؛ فإن الغلول عار ونار وشنار يوم القيامة**»[(١)].

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ إخبار منه سبحانه عن كمال عدله في خلقه، وأن هناك بعد الوفاة يومًا تعطىٰ فيه كل نفس مكلفة جزاءها علىٰ ما عملت من خير أو شر، تستوفي جزاءها استيفاءً كاملًا بلا نقص ولا هضم.

واعلم أن في تعليق التوفية بكل مكسوب ـ مع أن الآية خاصة في حكم الغال وبيان جزائه يوم القيامة ـ دلالةً واضحةً علىٰ فخامة شأن ذلك اليوم، والمبالغة في بيان فظاعة حكم الغال، فإنه إذا كانت كل نفس تجازىٰ بما عملت مهما كان حقيرًا، فكيف بجزاء الغال؟! بل صار الغال مذكورًا مرتين مرةً بخصوصه، ومرةً باندراجه في العموم؛ ليعلم أنه غير متخلص من تبعة جريمته هذه، ومن تبعة ما كسبت يداه من غير الغلول.

ولا يخفىٰ أنه إذا كان كل عامل مجزيًّا بما عمله ـ وإن كان حقيرًا ـ،

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٨٥٠).

فذنب الغلول أعظم ممَّا يتوقعه المتوقعون.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقص من حق المطيع شيئًا ولو مثقال ذرة، ولا يزاد علىٰ ذنب العاصي ولا ذرة، بل كل منهم يوفىٰ حقه في الجزاء، وفي ذلك تنزيه للَّه عن الظلم، وإبطال لمذهب من يقول بعقوبة اللَّه لغير المجرمين.

وفي هذه الآية الكريمة ونحوها تربية للمسلمين علىٰ التمسك بالأمانة ورعايتها حق رعايتها، والقيام بحسن أدائها إلىٰ من هي له ـ كائنًا من كان ـ، والتورع عن جميع أسباب الخيانة ـ وخصوصًا الغلول من الغنيمة ـ؛ لأنها يشترك في ملكها جميع الغزاة، فالذي يختلس منها شيئًا يكون مسيئًا إلىٰ جماعة كبيرة مقاتلة في سبيل اللَّه.

وبِهذه التربية ضرب المسلمون أروع الأمثلة للعالم في الأمانة والنزاهة لما يستيقنون أن ضمائرهم أغلىٰ من المال ومن كل شيء، وأن أحدهم يعتقد أنه إذا لقي اللَّه بقلب سليم وضمير آمن نزيه خير له من الدنيا وما فيها، وهذه الأمانة والنزاهة التي سببها حب اللَّه وتعظيمه، ذلك الحب والتعظيم الذي غمر قلوبهم حتىٰ جعلهم لا يحبون ما لا يحبه اللَّه؛ بل يبغضونه وينفرون منه ولا يقربون شيئًا من نواهي اللَّه، وإن كانت عزيزةً علىٰ النفوس صدقًا مع اللَّه في محبته، وحسن معاملته وإخلاصًا للَّه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه حتىٰ صاروا مثلًا أعلىٰ في تنفيذ أوامر اللَّه، وأسوة حسنة في النزاهة ومكارم الأخلاق.

ولقد دهش الخليفة عمر بن الخطاب حين جاؤوه ببساط كسرىٰ وتاجه، ذٰلك البساط الذي يبسط له إذا أجدبت الأرض، وقد زرع له فيه من جميع أصناف الجواهر واللؤلؤ والمرجان والمواقيت وكل ذي منظر بَهيج، وذلك حين تفقده عمر فلم يجد به نقصًا، فقال رضي الله عنه: «إن الذي أدىٰ هذا لأمين»، ولكن أجابه أبو الدرداء بجواب سديد له أثره

في القلوب حيث قال له: «يا عمر، إنك أديت الأمانة فأدي إليك، ولو رتعت لرتعوا»، وهذا الجواب له وخزة قلبية في الصميم لضمائر السادة والقادة، أن يحترموا أنفسهم أولًا، ويعمروا ضمائرهم بالأمانة والنزاهة؛ ليكونوا أسوةً حسنةً لرعاياهم في هذا الشأن، ولا يكونوا كالمعلمين لهم والمجرِّئين لهم علىٰ التهاون بالأمانة والرُّتوع والتخوض في مال اللَّه بغير حق، ومن حسنت سريرته أصلح اللَّه له كل شيء.

٢٩ ـ مما يقي اللَّه عباده من الهزيمة النفسية: تمثيله لهم في وحيه المبارك البليغ تمثيلًا فيه استعارة بديعة، وهي جعل ما شرعه اللَّه لهم كالدليل الذي يتبعه من يهتدي به، وجعل العاصي كالشخص المأمور باتباع شيء فنكص عن اتباعه، ورجع مصحوبًا بما يخالف الاتباع، فنبههم إلىٰ مصير الفريق الأول الذي اتبع دليله وسار علىٰ ضوئه، حتىٰ بلغ رضوانه وظفر بجواره في جنة الفردوس، ومصير الفريق الآخر الذي انحرف عن طريق اللَّه وسلك ما يسخط اللَّه من أهواء النفوس وأطماعها، حتىٰ قادته إلىٰ غضب اللَّه في جهنم، وذلك في الآيتين (١٦٢، ١٦٣) من السورة:

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾:

فيبين اللَّه لهم في هاتين الآيتين ما هو أعظم من الغنائم وجميع حظوظ الدنيا المادية، وهي القيم الدينية التي فيها صفاء الضمائر، وطيب الصدور، وطهارة الجوارح وعفة النفوس، وصحة القلوب، مما يحصل لهم به خيري الدنيا والآخرة لما يبلغون به رضوان اللَّه، ومن حصل علىٰ رضوان اللَّه فاز بالسعادة والعز والنصر والتمكين ورفعة الشأن في الدنيا والآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر].

فليست قيمة المؤمنين مغانم يأخذونها، ولا أموالًا يكسبونها فيَشقَون بجمعها في الدنيا ويحاسبون عليها في الآخرة، وإنما قيمتهم رضوان اللَّه الذي ينالونه بالقيم الروحية الآنفة الذكر، والتي بتحصيلها يكسبون الدنيا والآخرة، وقد أثبتت التجارب أن المسلمين متىٰ أخلدوا في الأرض وطمعوا في المادة خسروا الدنيا والآخرة، ومتىٰ سلكوا طريق الربانيين ربحوا الدنيا والآخرة كما أوضحناه مرارًا.

فقوله سبحانه: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ استفهام إنكاري معناه النفي، أي ليس من اتبع رضوان اللَّه ـ فامتثل أوامره واجتنب نواهيه ـ كمن عصاه فباء بسخطه، فالفرق عظيم بين من سلك ما يوصله إلىٰ رضوان اللَّه فيحظىٰ من اللَّه بكل كرامة، وبين من لم يسلك مسالك الرضوان بل سلك مسالك السخط، فكان من المغضوب عليهم والعياذ باللَّه.

فالهزيمة النفسية تُعمي أصحابها وتُصمُّهم عن طريق الحق والرضوان؛ لأن بها يحصل فساد التصور، واليأس والقنوط، وانقطاع الأمل، وقلة اليقين وعدم الثقة بالنفس ـ فضلًا عن الثقة بوعد اللَّه ـ، فيحصل منها ما يدخل صاحبها في سخط اللَّه، ويحرمه من رضوانه، وحيث أن الفرق عظيم بين الصنفين جاء جواب الاستفهام بقوله: ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾، يعني ليسوا سواء؛ بل هم درجات عند اللَّه علىٰ حسب أعمالهم.

والظاهر من قوله تعالىٰ: ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ﴾ أن الضمير عائد علىٰ الجميع، فهم متفاوتون في الثواب والعقاب، وقد جاء التفاوت في الثواب كما جاء التفاوت في العقاب، والدرجات هي ما يتوصل بها إلىٰ المكان العالي، وهي مخصوصة بالجنة؛ لأن منازل النار دركات من أسفل إلىٰ أسفل بخلاف الجنة؛ فإنها درجات عالية من أعلىٰ إلىٰ أعلىٰ إلىٰ عليين في الفردوس ـ نسأل اللَّه من فضله ـ.

وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ يعني يبصر جميع ما يعملون، ولا يغيب عنه شيء منها، وما لها من الآثار في تزكية نفوسهم التي يترتب عليها الفلاح في ارتقاء الدرجات أو العكس في الهبوط، فهو الذي أحاط بكل شيء علمًا، فلا يخفىٰ عليه أثر من آثار الأعمال في النفس، ولا عاطفة من عواطف الإيمان في القلب، ولا يعزب عنه شيء من تفاوت الناس في ذلك.

٣٠ـ مما يقي اللَّه به عباده من الهزيمة النفسية: تذكير اللَّه لهم ومنته عليهم بأعظم منة وأشرف مكرمة؛ وهي مبعث نبي فيهم من أنفسهم خاصةً، يهديهم من الضلال، ويرتفع بمستواهم الذي هبطت به الوثنية، ويشمخ برؤوسهم التي أخضعتها طواغيتها، فهي نعمة لا يعدلها جميع ما في الدنيا؛ فكونه ﷺ منهم يزيد في شرفهم، ويجعلهم أول المهتدين به؛ لأنهم أعرف الناس به وأسرعهم فهمًا لدعوته، فهو ﷺ رحمة خاصة بهم، ورحمة عامة لجميع المؤمنين، وهو دعوة أبيهم إبراهيم كما مرت بنا في الآية (١٢٩) من سورة البقرة، فعليهم أن يرعَوا هذه النعمة حق رعايتها بصدق متابعة هذا الرسول ﷺ، وأن يكون أحب إليهم وأغلىٰ عليهم من أنفسهم، فيجعلونها فداءً له ووقاءً هي وأموالهم في حياته، ولسنته والقيام بدعوته بعد وفاته، فقد قال تعالىٰ في الآية (١٦٤) من السورة:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾:

ومعنىٰ ﴿مَنَّ﴾ تطول وتفضل، وتخصيص المؤمنين لأنهم هم المنتفعون ببعثته ﷺ، وقيل: المراد بالمؤمنين العرب؛ لأنه ليس حي من أحياء العرب إلا له فيهم نسب من قبيل أمهاته إلا بني تغلب؛ لأنهم نصارىٰ، فصارت بعثته في العرب شرفًا لهم علىٰ جميع الأمم.

ومناسبة ذكره عدة أمور:

أحدها: أنه لما نسبه بعضهم إلىٰ الغلول وراجت هذه الإشاعة فبين اللَّه خطأهم في الآيات السابقة، أكد ذلك بِهذه الآية؛ لأنه ولد في بلدهم، ونشأ بينهم، ولم يظهر منه طول عمره إلا الصدق والأمانة والدعوة إلىٰ اللَّه والإعراض عن الدنيا، فكيف تليق الخيانة بمن هذه حالته؛ مع زيادة كونه عريقًا في النسب والشرف.

فوجوده فيكم ـ أيها العرب ـ من أعظم نعم اللَّه عليكم، فإنه يزكي نفوسكم بالتوحيد عن الإشراك، ويعلمكم الكتاب والحكمة التي تنتفعون بها، فكيف يليق بكم تُهمته، وأنتم أرباب الخمول والدناءة قبل أن ترتفعوا ببعثته؟ فإن اللَّه لمَّا شرفه وخصه بمزايا الفضل والإحسان حصل لكم شرف عام بسبب كونه فيكم، فما أقبح تُهمتكم له بالغلول وهو في هذه المنزلة الرفعية، التي ارتفعتم بسببها عما سواكم! فالواجب عليكم تعظيمه وإعزازه والقيام بنصرته ومحاربة أعدائه بجميع الوسائل، بدلًا من خذلانه أو تُهمته.

ثانيًا: أنه ﷻ لما ذكر الفريقين في الآيات السابقة، الفريق المتبع رضوان اللَّه والمتبع سخطه، وأنهم درجات عند اللَّه بطريقة مجملة، أبان أحوالهم، وبدأ بالمؤمنين وما امتن به عليهم من بعثة الرسول ﷺ إليهم، وكونه من أنفسهم معروفًا نسبه وأمانته وصدقه، وليسهل التعليم منه لموافقة اللسان، ومع أن بعثة الرسول إحسان إلىٰ جميع العالمين لكونه داعيًا لهم إلىٰ ما يخلصهم من عذاب اللَّه ويوصلهم إلىٰ ثوابه، ولكونه مرسلًا إلىٰ العموم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]؛ إلا أنه لما لم ينتفع بِهذا الإنعام إلا المؤمنون من أهل الإسلام فلذلك خصهم بالامتنان، وبعثة النبي ﷺ علىٰ أمرين:

- المنافع الحاصلة من أصل البعثة.
- المنافع الحاصلة بسبب ما فيه من الخصال التي ما كانت موجودةً في غيره.

فوجه امتنان اللَّه عليهم ببعثة محمد ﷺ هو أن بني الإنسان جبلوا علىٰ النقصان وقلة الفهم وعدم الدراية، وهو ﷺ أورد عليهم وجوه الدلائل ونقحها، وكلما خطر ببالهم شك أو شبهة أزالها وأجاب عنها، وأيضًا فإنهم لابد لهم من معرفة مولاهم جَلَّ وَعَلَا، والقيام بعبوديته علىٰ الوجه الذي يرضاه، فيحتاجون إلىٰ التعريف بذلك ليسعدوا بمعرفة ربهم وعبادته، ولا تلعب عليهم شياطين الإنس والجن، فيصرفوهم إلىٰ عبادة ما يضرهم ولا ينفعهم من الأصنام الصامتة أو الناطقة.

واعلم أن وجوه الانتفاع برسالته والركون إليه والاطمئنان به ﷺ من عدة أمور:

١ ـ أنه ولد في بلدهم ونشأ بينهم، وكانوا مطلعين علىٰ أحواله وحسن سيرته، ويعرفونه حق المعرفة بالصدق والأمانة، حتىٰ إنهم كانوا يسمونه بـ«الأمين»، فكان ذلك أقرب إلىٰ تصديقه والوثوق به، ولم تجر معاندة المعاندين له إلا لأسباب سياسية زالت بفتح مكة؛ لأن الأمور السياسية ليست لها جذور كالأمور العقائدية.

٢ ـ أنهم كانوا يعرفونه أميًّا لم يتتلمذ علىٰ معلم، ولم يقرأ كتابًا ولم يخطه، ولم يمارس درسًا، ولم ينطق بحديث النبوة والرسالة قبل نزول الوحي عليه بعد تمام الأربعين سنة، كما أمره اللَّه أن يقول لهم: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس].

٣ ـ أنه بعد بعثته ظهر علىٰ لسانه من العلوم ما لم يظهر من قبل، وأخذ يقص من أخبار الأمم وأحوال الأنبياء معها ما لم يكن يعلمُه مِن قبلُ ولا قومُه، وهذه معجزة له.

٤ ـ أنه بعد ادعائه النبوة عرضوا عليه الملك والأموال الكثيرة والأزواج ليترك ما يدعيه من الرسالة، فرفضها بكل إصرار قائلًا: **«واللَّهِ لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي لا أترك هذا الأمر**

حتىٰ ينفذه اللَّه أو أهلك دونه»[1]، فلو كان كاذبًا لما رفض المادة الكثيرة والجاه العظيم والشهوة المطلوبة التي يكذب الدجالون من أجل تحصيل بعضها، وهو ﷺ يرفضها قانعًا بالفقر والصبر علىٰ المشقة، ثم إنه لما علا شأنه وفتح البلاد وغنم المغانم الكثيرة، لم يتغير عن حالته في العزوف عن الدنيا والرضا بالفقر والجوع؛ ملتزمًا رسالة اللَّه. فما أبعد الفرق بين طريقة المرسلين وطريقة الدجالين!.

٥ ـ أن الكتاب الذي أوحاه اللَّه إليه مشتمل علىٰ تقرير التوحيد والنبوة، وإثبات المعاد، وتقرير الطاعات، وتوضيح العبادات، والأمر بالعدل والإحسان، ومكارم الأخلاق، وليس فيه ما ينافي ذلك، وهذه طريقة المرسلين في تعريف الحق والحض علىٰ الخير الذي به كمال الإنسان، ويعرف به صدق النبوة.

٦ ـ أنه قبل مجيئه كان العرب علىٰ أرذل الأديان من عبادة الأوثان، وأرذل الأخلاق من التقاتل وأكل الأطعمة الرديئة، وكانوا مطوقين بالاستعمار الفارسي والروماني من كل ناحية، فلما بعث فيهم هذا النبي الكريم جعلهم يحملون دين اللَّه الحنيف، ويتخلقون بأشرف الأخلاق، ويطردون الاستعمار، ويحتلون بلاد المستعمرين، ويعلمون الشعوب حقوقها، وفتحوا أكثر المعمورة في أقل من ربع قرن، وصار لهم القول الفصل، والقيادة العالمية، وفتحوا القلوب بأنوار الهداية، حتىٰ صاروا معجزة الدهر ومفخرة التاريخ، كل هذا ببركة مبعث هذا النبي الكريم ﷺ.

فما أعظم هذه الرحمةَ التي جعلت الأمة الأمية دولةَ القيادة والسيادة والعلم والتوجيه، لما آتاهم من الكتاب الذي صار به للعرب عزًّا وشرفًا منقطع النظير، والذي فيه من المحاسن والأسرار والمنافع ما لا يوجد في غيره.

---

(١) رواه ابن هشام في «السيرة» (٢/١٠١).

وقرأت فاطمة وعائشة والضحاك وأبو الجوزاء: «من أنفَسهم» بفتح الفاء من النفاسة والشيء النفيس، وروي عن أنس رضي الله عنه أنه سمع هذه القراءة من الرسول ﷺ. والمعنىٰ: من أشرفهم.

وروي عن علي رضي الله عنه: «**أنا من أنفسكم حسبًا ونسبًا وصهرًا، وما في آبائي من آدم إلىٰ يوم ولدت سفاح، كلها نكاح والحمد للَّهِ**»[1].

وقال ابن عباس: «ما خلق اللَّه نفسًا هي أكرم علىٰ اللَّه من محمد ﷺ، وما أقسم بحياة غيره؛ فقد قال: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ [الحجر: ٧٢]».

ومما يزيد في نعمة اللَّه علىٰ العرب ومنته أنهم: ﴿كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، يعني في حيرة واضحة عامة في جميع شؤون حياتهم، فتصوراتهم كلها ضلال، وأعمالهم نابعة من الضلال، وليس فيهم من خصال الخير إلا ما كان موروثًا من ملة إبراهيم عليه السلام، كمحبة الصدق، والنفرة من الكذب، وإكرام الضيف، واحترام المناسك، ونحو ذلك.

وليس عند العرب ما يفخرون به سوىٰ أبيهم إبراهيم الذي كان الافتخار به مشتركًا بينهم وبين أهل الكتاب، فاليهود يفخرون عليهم بموسىٰ وما خلفه لهم من العلم والتوراة، كما يفخر النصارىٰ بعيسىٰ والأناجيل، وليس عند العرب ما يفخرون به سوىٰ الكعبة التي قد لوثوها بعبادة الأصنام وملؤوها من الأصنام حتىٰ أكرمهم اللَّه بِهذا النبي الذي هو من خيارهم.

فيجب علىٰ كل من يعتز بعروبته أن يجعل منها أكبر حافز علىٰ حمل الرسالة المحمدية، وأخذ القرآن بقوة، والصدق مع اللَّه في حسن متابعة هذا الرسول الكريم ﷺ، وبذل الروح والمال في هذا السبيل، وألَّا يسترخص نفسه بقبول الدعوات الماسونية المتمثلة في القوميات والوطنيات والمذاهب المادية، وألَّا يندمج في شيء من ذلك، فإن من تبنىٰ شيئًا من القوميات ونحوها من سائر المذاهب

---

(١) رواه البيهقي في «الكبرىٰ» (١٤٠٧٦) بنحوه.

والمبادئ فهو غير شاكر للَّه علىٰ نعمة الإسلام والرسالة، ولا قابلٍ لهما؛ بل هو رافض لنعمة اللَّه ومنتقص لها، ومحتقر لشأنها، ومثل هذا يصدق عليه أنه لم يرض باللَّه ربًّا، ولا بمحمد ﷺ نبيًّا، ولا بالإسلام دينًا، وإن اعترف بذلك لفظيًّا فهو رافض لجميع ذلك رسميًّا.

وقد يصرِّح بمعنىٰ الرفض بقوله: «إن الدين ليس له شأن في أمور الحياة، ولا يساير التطور، وإن أحكامه قاسية»، وغير ذلك من التصريحات التي تدل علىٰ رفض ألوهية اللَّه ودينه ورسوله ﷺ.

إن اللَّه العليم الحكيم يعلم أنه لا يصلح البشر عامة ولا العرب خاصة انتقالهم من قومية إلىٰ قومية أخرىٰ، ولا من دولة إلىٰ دولة أخرىٰ، ولا من مملكة إلىٰ مملكة أخرىٰ، ولا من إمبراطورية إلىٰ إمبراطورية أخرىٰ، فلا يُصلح الكون تبديل دولة الرومان بدولة الفرس، ولا العكس، ولا تبديل القومية الفارسية أو الرومانية بقومية عربية ونحو ذلك، فالبشرية لا يصلحها إلا الدين الصحيح الذي يُخضع أهله لرب واحد وملك واحد بقيادة ربانية واحدة، تحمل رسالة السماء فقط، وتكفر بما سواها وتعاديه وتحاربه، هكذا قضت سنة اللَّه، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ۝٦٢﴾ [الأحزاب]، ولذلك أرسل رسله تترًا، وأهلك جميع المكذبين برسله بعقوبات مناسبة، كما قال في الآية (٤٠) من سورة العنكبوت: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٤٠﴾ [العنكبوت].

فهؤلاء الذين أصيبوا بعذاب الاستئصال، وقد مسخ اللَّه بعض الأمم قردةً وخنازير، وسلط اللَّه علىٰ بعضهم سيف النكال، كما هو معروف في التفاسير والتواريخ من تفاصيل عقوبات بني إسرائيل، إلىٰ أن أرسل اللَّه نبينا ﷺ رحمةً للعالمين، سلموا بها من عذاب الاستئصال، فمنة اللَّه عليهم بإرساله منة عظيمة، وعلىٰ الأخص العرب الذين

يجب علىٰ كل مسلم مؤمن منهم أن يجعل من حياته امتدادًا لحياة هذا النبي الأمين؛ بحمل رسالته وتوزيع هدايته وبذل النفس والنفيس في ذلك بدون كسل ولا فتور، وألَّا يبدلوا قولًا غير الذي قيل لهم بتبني قومية أو وطنية أو غير ذلك من المذاهب المادية المقبوحة؛ فإن اللَّه العليم الحكيم الخبير بعث نبيه ﷺ فيهم وهم علىٰ أبشع حالة من الاختلاف والتفكك، فلو أمر نبيه ﷺ أن يدعوهم إلىٰ قومية يتجمعون عليها ويتَّحِدون باسمها لأجابوا دعوته إذا دعاهم إلىٰ ذلك، ولم يحصل منهم تعنت ولا إيذاء، وكذلك لو دعاهم إلىٰ وطنية يتفقون عليها ويحاربون الاستعمار باسمها لوافقوه ولم يعصوه ولم يؤذوه ـ وإن كانت هذه الدعوات فاشلةً لا تجديهم نفعًا أمام المجاورين ـ. وكذلك لو دعاهم إلىٰ مذهب مادي تنتعش به حالتهم في المزاعم الظاهرة لآمنوا به وحملوه علىٰ الأكتاف، وذلك لسوء حالتهم الاقتصادية من جراء الاستعمار الذي احتل بلادهم ذات الخيرات، ولم يترك لهم سوىٰ الأرض الجرداء، ولكن اللَّه يعلم أن هذا وهذا وهذا ليس صالحًا لهم ولا لجميع الكون، فبعث اللَّه نبيه ﷺ بدينه الحنيف الذي يرفع رؤوسهم بين الأمم، ويجعلهم قادةً لها وسادةً لها كما حصل فعلًا، وللَّه الحمد والمنة.

فمنة اللَّه علىٰ المؤمنين بِهذه البعثة المحمدية منةٌ في محلها؛ لأن من تمسك بها عرف هدفه الصحيح، وسلم من الهزيمة النفسية، وعلىٰ العكس: من احتقرها وتبني سواها وقع في الهزيمة النفسية، وفي مركب النقص وغيره من أنواع العار.

وتتضح فائدة امتنان اللَّه عليهم بمبعث هذا النبي الكريم من وجهين:

أحدهما: أن العرب كانوا علىٰ أسوإ حالةٍ في النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، ففي النواحي السياسية كانوا مطمعًا للاستعمار الفارسي والروماني، بحيث لم يترك لهم سوىٰ الأرض

القاحلة التي يخسر منها ولا يربح، والتي صور معيشتها الشاعر الأموي بقوله:

فما العيشُ إلَّا الضب يحرشه الفتىٰ وورد بمستنِّ اليرابيع أكدرُ

وفي النواحي الثقافية في ظلام دامس، وجهل ذميم، يشنون الغارات فيما بينهم ليأكل بعضهم بعضًا، وينهب بعضهم بعضًا، وتقوم الحروب الطويلة بينهم من أجل شيء تافه كحرب داحس والغبراء، وحرب البسوس التي دامت أربعين سنة أريقت فيها دماء كثيرة. وكان القوي يأكل الضعيف، فهكذا حالتهم السياسية والاقتصادية والثقافية بحيث يعبدون الأصنام الحجرية وغيرها؛ بل بعضهم يعمل الصنم من تمر فإذا جاع أكله، فهذا مبلغهم من العلم والثقافة.

وأما حالتهم الاجتماعية فقد كانت في هبوط سيئ، فكانت نظرتهم إلىٰ المرأة أخس من نظرتهم إلىٰ الشيطان، فكانوا يعدونها كالمتاع الموروث، ويضغطون عليها، وأكثرهم لا يعاملها بالمعروف، وكانوا يدفنون البنات وهن أحياء خشية العار، وكان أسوأ ما يبشر به هو البنت؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ [النحل]، وكانوا يبيحون السفاح بأن يتصل النفر بالمرأة ما حول العشرة، ثم إذا حملت من زناهم تُلحق الولد بمن تشاء منهم، أو تلحقه القافةُ، فلا يقدر علىٰ رفضه، وكان أحدهم يرسل زوجته إلىٰ الرجل الشجاع ليواقعها كي تلد منه شجاعًا، فلا تقدر المرأة علىٰ الرفض، فكيف يتصور حالتها وذلها وإرخاص عفتها حيث جُعلت كالحيوان الذي يختار له الفحل؟.

فهم في أرجاس مختلفة في أعراضهم ووثنيتهم الهابطة بعقولهم إلىٰ درجة أن المسافر منهم يختار أربعة أحجار، فيضع منها ثلاثة أثافي للطبخ والرابعة يعبدها.

وبالجملة فهم علىٰ غاية من الهبوط وفساد التصور في كل شيء.

والآن لما عاد الناس إلىٰ الجاهلية، ورفضوا التعاليم الإسلامية، أخذوا يعبدون الأصنام الناطقة من طواغيت المبادئ الأرضية والمذاهب المادية ودجاجلة الأفكار الغربية ودعاة الانحلال، وأخذوا يئدون الأولاد جميعًا بالإجهاض والحبوب القاطعة لمادة التناسل وتبادل الأزواج والزوجات بشكل يندىٰ له الجبين، وبهذا يعرف العاقل منة اللَّه.

الوجه الثاني: هو رفع رؤوس العرب وتصحيح أفكارهم وتصوراتهم ببعثة هذا النبي الكريم ﷺ؛ الذي به نقل القيادة من بني إسرائيل الخبثاء إلىٰ بني إسماعيل الحنفاء، وجعلهم أمةً وسطًا بجميع المعاني، كما أوضحنا بعضه في تفسير الآية (١٤٤) من سورة البقرة، وكتب اللَّه لهم العزة والحياة الطيبة إذا استقاموا علىٰ الإيمان بصدق مع اللَّه والإخلاص له، فلا يخذلهم اللَّه إذا تابعوا هذا النبي ﷺ، ولا تصيبهم هزيمةٌ حسية أو نفسية بإذن اللَّه.

٣١ ـ من أساليب وقاية اللَّه لعباده من الهزيمة النفسية، هو تكرير المواساة لهم علىٰ ما أصابهم، وتذكيرهم بما نالوا أضعافه من النصر، وتوضيحه لسبب النكبة بقوله سبحانه في الآية (١٦٥) من السورة:

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾:

والهمزة للاستفهام الإنكاري، والمعنىٰ أن اللَّه يذكرهم بما أنعم عليهم من قهرهم لعدوهم، وبأنهم قد أصابوا منه أضعاف ما أصاب منهم، فإنهم هزموهم يوم «بدر» بإذن اللَّه، وقتلوا منهم سبعين صنديدًا، وأسروا سبعين، ثم نصرهم اللَّه عليهم يوم «أحد» في أول المعركة، وقتلوا منهم اثنين وعشرين رجلًا حتىٰ ولوا مدبرين، فكان لا مناسبة بين فوزهم وفوز العدو، ولكن من طبيعة العدو تجسيم الحقير من المكاسب وتغطية أعظم الخسائر.

فاللَّهُ سبحانه يذكر المؤمنين ليزنوا مكاسبهم وخسارتهم بالميزان الصحيح، ويحاسبوا أنفسهم علىٰ النقص ـ كما أسلفنا ـ ليعرفوا حقيقة كسبهم ومقدار نصرهم، وأنهم المتفوقون في الحقيقة؛ فلا يجزعنهم تهويل العدو وتبجحه، وهذا التذكير من اللَّه أبلغ في تنبيههم وتسليتهم، وأدعىٰ إلىٰ أن يذكروا نعمة اللَّه السابغة عليهم، وأن يتناسوا ما جرىٰ يوم «أحد» أو يستصغروه، فلهذا يصحح اللَّه تعالىٰ مفاهيمهم التي خبطها المنافقون بالإرجاف أو التهريج؛ إذ يتساءلون عن مصيبة قد أحلوا أضعافها بأعدائهم المشركين، فيقولون: من أين أصابنا هذا ونحن مسلمون وهم مشركون، وفينا رسول اللَّه ﷺ الذي يأتيه الوحي من السماء وعدونا مشرك كافر؟!.

هكذا تساؤلاتهم التي يمليها المنافقون؛ فاللَّهُ جل شأنه يذكرهم أولًا بما أحرزوه من مكاسب تفوق ما حصل عليهم من خسارة، ثم يخبرهم علىٰ لسان رسوله ﷺ بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾، أي الذي أصابكم هو من عند أنفسكم لا من عند غيركم، بل أنتم السبب في حصوله بخلافكم أمري، وترككم طاعتي؛ فإن مخالفة رسولي مخالفة لي، وترك طاعته ترك لطاعتي، فأنتم الذين حملتموه علىٰ الخروج واستكرهتموه، ثم خالفتم أمره بمفارقة الثغر الذي أمركم بالمرابطة فيه.

وهذه الآية شبيهة بالآية السابقة: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، أي: تقتلونهم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]؛ فأنتم الذين حرمتم أنفسكم من نصر اللَّه الذي شاهدتموه بمعصيتكم له، فإن بعثة هذا الرسول ـ الذي امتن اللَّه عليكم ببعثته ـ تستمطر لكم النصر إذا أطعتموه، وما أصابكم ليس بشيء بالنسبة إلىٰ ما أصبتموه من عدوكم، وإذا استقمتم علىٰ طاعة هذا الرسول ونصحتم له حيًّا وميتًا، ظفرتم بنصر اللَّه وتأييده، فلن يخذل أتباع هذا النبي

إذا أطاعوه ونصحوا له، بتقديم أرواحهم وأموالهم فداءً له في حياته، وفداءً ووقاءً لما جاء به بعد وفاته من الدين والهدىٰ؛ بل ينصرهم نصرًا عزيزًا ـ كما حصل ـ، فنصر اللَّه مؤكد الحصول بشرط طاعته ومتابعة رسوله.

فالذين منَّ اللَّه عليهم بِهذا الرسول لم يمتثلوا أوامره ولم يقتدوا برسوله كيف يطمعون بنصره؟ وإن للمنافقين ورثةً في هذا الزمان عطلوا حكم اللَّه، ورموه بالقسوة، وزعموا أن دينه مدعاةٌ للتخلف والشقاق والفرقة، وسموه «طائفية»، ورفضوا تسمية اللَّه لهم بالمسلمين وتبنوا العروبة، ومع هذا يتساءلون: كيف تنتصر «إسرائيل» دولة اليهود الظالمة؟ وينسون أنها لم تنتصر ولن تنتصر أبدًا علىٰ جند اللَّه المتابعين لرسوله في كل ورد وصدر، وإنما انتصرت علىٰ أشكال هؤلاء وتوسعت علىٰ حسابهم.

هذا؛ وقد نقل أكثر المفسرين آثارًا عن نكبة «أحد» أنها عقوبة علىٰ أخذ الفداء من أسارىٰ «بدر» وعدم قتلهم، وقد نقلوا رواية عن علي أن جبريل جاء إلىٰ النبي ﷺ يأمره أن يخير قومه من بين قتل الأسارىٰ أو أخذ الفداء؛ علىٰ أن يقتل منهم سبعون بعدد ما افتدوا من الأسارىٰ، وهذه الروايات لا تصح من وجهين:

ـ مخالفتها لنص القرآن بعفو اللَّه عنهم؛ حيث قال: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال].

ـ وأن أخذ الفداء كان من رأي رسول اللَّه ﷺ وأبي بكر، وحاشا للَّه أن يرضيا بأخذ مال يعاقَبون عليه.

وقد صح أن النبي ﷺ قال لعمر لما أشار بقتل الأسارىٰ: **«إنك ـ يا عمر ـ كمثل نوح إذ يقول.** ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، **وأنت ـ يا أبا بكر ـ كإبراهيم إذ يقول:** ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى

﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]»(١).

ففداء الأسارىٰ ليس بتخيير المسلمين كما جاءت به الآثار، وإنما هو رأي النبي ﷺ وصاحبه أبي بكر، فعلىٰ هذا لا يعتمد علىٰ هذه الآثار المخالفة لواقع الأمر ونص القرآن، فلذا أحببت الإشارة إليها لقصد إبطالها.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعني قادر علىٰ نصركم إذا سلكتم سبيل النصر، وعلىٰ خذلانكم أو تأديبكم إذا عصيتم معصيةً تستوجب ذلك، ولا يعجزه شيء من تنفيذ سنته في المحسن والمسيء، فتعجُّبُكم مما أصابكم مع وجود النبي ﷺ فيكم تعجب في غير محله؛ لأن معصيتكم إياه في وجوده، وتخاذلَكم عن نصرته أعظم من معصيتكم له وهو غير موجود، فوجوده لا يقيكم من تأديب اللَّه، وما أصابكم من الخذلان فسببه ضعف دينكم لا ضعف في قدرة اللَّه، فإنه قادر علىٰ كل شيء، وما أصابكم فبتقديره وقدرته، فعليكم أن تتمسكوا بحبله المتين، وألَّا يصيبكم شيء من الوهن والحزن ما دمتم من أتباع محمد ﷺ وملتزمين الاقتداء به.

٣٢ ـ مما يقي اللَّه عباده من الهزيمة النفسية، تسلية اللَّه لهم بأن ما أصابهم من الهزيمة والنكبة صادر بإرادته الكونية التي لا مبدل لها، والتي هي من ربط الأسباب بمسبباتها قدرًا وشرعًا، فإن عقوباته القدرية كالشرعية مترتبة علىٰ أسبابها كما مضىٰ تفصيله، ولذا قال سبحانه في الآية (١٦٦) من السورة:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾﴾:

والجمعان هما: جيش المسلمين الخارج من المدينة، وجيش المشركين الغازي لهم من مكة، فاللَّهُ يخبر عباده: أن الذي أصابهم من النكبة آخر يوم «أحد»، هو بحكم اللَّه الكوني فيهم وعقوبته

---

(١) رواه أحمد (١/٣٨٣).

القدرية عليهم، وأنه ليس جزافًا ولا صدفة، ولكنه بتدبير عليم حكيم خلق فيهم القدرة علىٰ الطاعة والتدبير الحسن الموافق لسنته التي يحصل بها الخير، وخلق فيهم القدرة علىٰ المعصية وسوء التدبير الذي يحصل لهم به الشر وفق سنته في حصول الخير والشر، وجعل الإنسان يتعرض لهذه السنن بحركاته الاختيارية ليلقىٰ جزاءه العاجل أو الآجل، أو الجزاءَ في الجميع علىٰ حسب البواعث للفعل. وقد سبق إخبار اللَّه لعباده بأن ما أصابهم من تلك الكارثة من عند أنفسهم، وأنهم هم السبب في حصوله، وهنا يكرر لهم أنه بقضائه المحتوم الجاري من وراء الأسباب، ليحسبوا حسابها وتطمئن أنفسهم، ويثقوا أنهم إذا سلكوا مسالك النصر حصلوا عليه بإذن اللَّه، أما إذا ما عصوا وعمِلوا ما يغضب اللَّه، حلت بهم سنته التي لا مبدل لها حتىٰ يعودوا إلىٰ رشدهم فيَصدُقَهم اللَّه وعده.

وفي هذه الآية يسليهم اللَّه ويطمئن قلوبهم بأن ما أصابهم ليس مجرد عقوبة وتنكيل، وإنما وراء ذلك حكمةٌ ينتفعون بها في دينهم ودنياهم ليختبر إيمانهم، وليُظهر علمه الغيبي المخفي عنهم علانيةً في صفوفهم، ليعرفوا بها المؤمن المخلص الصادق، من الكافر المنافق الذي يلعب علىٰ الحبلين، ويحسبوا لقدر اللَّه حسبانه، فيقبلوا علىٰ ما يحصلون به علىٰ لطف اللَّه في أقداره فيعملوا؛ لاستيقانهم أنهم إذا استسلموا لأوامر اللَّه وانقادوا لحكمه، فإنه يعينهم ويوفقهم ويرعاهم ويتجاوز عن سيئاتهم ويحقق لهم ما يريدون.

وبِهذا الاعتقاد والتصور الإسلامي تزول عنهم الهزيمة النفسية، ولا يبقىٰ لها أثر في تصرفاتهم المقبلة، بل ينهضون ويتشجعون ويزداد أملهم في اللَّه سبحانه.

وقوله سبحانه في الآيتين (١٦٧، ١٦٨) من السورة:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾:

٣٣ - ومن أنواع وقاية اللَّه لعباده من الهزيمة النفسية في هاتين الآيتين: إخباره للمؤمنين عن المنافقين بأوصافهم لا بأسمائهم، فهداية القرآن اقتضت ذلك؛ لأن الأوصاف تطَّردُ في كل مناسبة على مر الأزمان، وأنهم هم الذين قيل لهم: ﴿تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾، وهم الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ﴾ والمعنى: أن اللَّه أجرى هذه المصيبة ليظهر للرسول ﷺ وأصحابه علمه الغيبي بالمنافقين، فيكشف حالهم حتى يتميز المؤمنون من المنافقين، فيَحذَرهم المؤمنون.

وقد كشفهم اللَّه بأوصافهم المطَّردة في كل زمان ومكان دون أسمائهم؛ لأن الأسماء تزول وتنقرض، وأما الأوصاف فتبقى وتتجدد في كل زمان ومكان، فقد كشفهم اللَّه بسوء صنيعهم، وأخبر أنهم هم الذين قيل لهم: ﴿قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ﴾، يعني: إن كان في قلوبكم حب للَّه ورسوله ﷺ ولدينه فقاتلوا في سبيل اللَّه، وإن لم تكونوا كذلك، فقاتلوا دفاعًا عن أنفسكم وأموالكم، إذ لابد لكم أن تكونوا من رجال الدين أو الدنيا، فالقتال لابد لكم منه، إما على هذه الحال أو تلك.

ويجوز أن يكون المعنى: قاتلوا مهاجمين أو مدافعين، والقائل لهم هذا الكلام إما رسول اللَّه ﷺ أو بعض أصحابه، فكان جوابهم مطابقًا لما في قلوبهم من النفاق؛ وهو قولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ﴾، فهم بِهذا قد نفَوا حصول الجهاد أو جدواه، وكلا الأمرين إرجاف؛ لأن

معنىٰ كل واحد منهما باطل؛ لأنهم إن قصدوا عدم توقع القتال فهم كاذبون؛ لأن قرب العدو من المدينة أكبر دليل علىٰ حصول القتال، وإن قصدوا عدم جدوىٰ القتال، وأنه إلقاء للنفس في التهلكة فهم كاذبون؛ لأن اللَّه ﷻ وعد المؤمنين بالنصر والإعانة علىٰ العدو إن صبروا وثبتوا وأطاعوا اللَّه ورسوله ﷺ، وعلىٰ هذه الحال يجب الخروج والبروز ثقةً بوعد اللَّه واستمطارًا لنصره.

ولكن جوابهم علىٰ غاية الخزي والنفاق؛ ولهذا يقول اللَّه عنهم: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾؛ لأنهم قبل هذه الوقعة يُظهرون الإيمان، ولم تظهر منهم أمارة واحدة تدل علىٰ كفرهم، ولما رجعوا عن جيش المؤمنين ورفضوا معاونتهم تباعدوا عن الإيمان، فأعطوا دليلًا علىٰ أنفسهم أنهم ليسوا من المسلمين؛ لأن موقفهم المشين يدل إما علىٰ السخرية وإما علىٰ عدم الوثوق بوعد اللَّه؛ وكلاهما كفر، بل موقفهم أخرجهم من الإيمان ومن الشهامة الإنسانية؛ لأن الإنسان إما أن يقاتل في سبيل الدين، أو للدفاع عن الحوزة وحمىٰ الذمار، كما قال «قزمان»: «واللَّهِ ما قاتلت إلا عن أحساب قومي»[(١)]، ولكن هؤلاء أضاعوا المشيتين، وأنكروا ما هو واجب الوقوع لما كانوا عليه من النفاق والدغل وبغض المسلمين وحب النكاية بهم، فهم أقرب نصرةً للكافرين من نصرتهم للمؤمنين، لأن تقليلهم سواد المسلمين بالانعزال يجر إلىٰ تقوية الكفر، فتخليهم عن المؤمنين جعلهم أنصارًا للمشركين، قال الحسن: «إذا قال اللَّه: ﴿أَقْرَبُ﴾ فهو اليقين بأنهم مشركون»، وكقوله تعالىٰ: ﴿مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧] فالزيادة لا شك فيها والمكلف لا ينفك من الكفر والإيمان، فلما دلت علىٰ الأقربية من الكفر لزم حصول الكفر.

وقال أبو منصور الماتريدي: «وأقرب إلىٰ الكفر، أي ألزم علىٰ

---

(١) تقدم تخريجه.

الكفر وأقبل له، مع وجود الكفر منهم حقيقةً لا على القرب إليه قبل الوقوع والوجود، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]. أي: هي لهم لا على القرب قبل الوجود، لكنهم لما كانوا أهل نفاق، والكفر لم يفارق قلوبهم، وما كان من إيمانهم كان بظاهر اللسان، وقد يفارقهم في أكثر أوقاتهم: وصفوا به، ويحتمل أن يحمل على القرب من حيث كانوا شاكين في الأمر، والشاك في أمر الكفر والإيمان تارك للإيمان، فهو أقرب للكفرة». انتهى باختصار.

وقوله سبحانه: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾، هذا تعليل منه للحكم بكفرهم ونفاقهم؛ ولأنهم يظهرون من الإسلام ما يحقنون به دماءهم ويحفظون أهليهم من السبي وأموالهم من الأخذ، وليس ما يظهرون هو ما تنطوي عليه ضمائرهم؛ بل هو لا يتجاوز أفواههم ولم تع قلوبهم منه شيئًا، وفي ذكر اللَّهِ أفواهَهم مع قلوبهم تصوير لنفاقهم الحقيقي، وأن الإيمان لا وجود له خارج الأفواه ومخارج الحروف منها، وهو معدوم في قلوبهم، بخلاف المؤمنين حقيقةً؛ فإن ما تنطق به أفواه المؤمنين ترجمة صادقة لما في قلوبهم من صحيح الإيمان وصريح التوحيد.

أما هؤلاء المنافقون أتباع ابن سلول الذي عادى الرسول ودين الحق لما كانت هجرة الرسول ﷺ حارمةً له من الرئاسة المرشح لها، فإنهم يظهرون من دعوى الإيمان خلاف ما يبطنونه من الكفر، فهم كاذبون في دعواهم الإيمان، وهم كاذبون ـ أيضًا ـ في قولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾؛ فإنهم عالمون بالقتال ومصرون على الانسحاب وخذلان المؤمنين، ولذا قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ أي من الكفر وعداوة الدين وأهله.

وقوله: ﴿أَعْلَمُ﴾؛ لأن علمه سبحانه محيط بهم إحاطة تفصيل بما يكتمونه وكيفياته، علمًا لا يحيط بتفاصيله سواه، وفي هذه الجملة وعيد شديد لهم بمعاقبته إياهم على حسب علمه التفصيلي بأحوالهم.

هذا وإن المؤمنين يستفيدون من وصف اللَّه للمنافقين معرفة ورثتهم إلىٰ يوم القيامة؛ من تخاذلهم عن حرب دولة اليهود بزعم تفوقها في السلاح، وأن الدول الكبار لا تسلحهم كما تسلحها، وأن وراءها من يسندها ويحميها، إلىٰ غير ذلك من بث الهزيمة النفسية في قلوب شعوبهم وجنودهم، فأهل الإيمان يعرفون منطق المنافقين من أوصاف اللَّه في القرآن، ويعرفون أنهم لم يفكروا في حرب دولة اليهود حربًا تقضي عليها، ولكنهم يخدعون الشعوب بدعوىٰ حربها والقذف بها في البحر؛ ليكسبوا تشجيعهم ومحبتهم وتبرعاتهم، ثم يتعللون أخيرًا بعدم القدرة؛ لأنها ليست وحدها وأنهم يخافون ممن وراءها، ويجدون من عُبَّاد الأشخاص وأصحاب العواطف والتصفيق من يتقبل معاذيرهم الكاذبة، وتعليلاتهم الزائفة، ويعتذرون عنهم، وهم في الحقيقة ورثة لرؤوس المنافقين الأوائل، إلا أنهم أخطر علىٰ الأمة في هذا الزمان من أولئك؛ لأن الماسونية اليهودية قفَّزتهم إلىٰ احتلال الصدارة واستلام القيادة الفكرية والعسكرية، لتكون دولتهم في مأمن من غوائلهم.

أما المؤمنون ـ الذين يرجعون إلىٰ سياسة القرآن، ويعتبرون بما نص عليه من أوصاف المنافقين المطردة في كل زمان ومكان ـ فهم يقيسون اللاحق علىٰ السابق بالميزان الصحيح، وينظرون في مغزىٰ كلامهم، وأنه تركيز للهزيمة النفسية، وأن الذي يقول عن دولة اليهود: «إنها ليست وحدها، بل هي ومن وراءها»، هو من ورثة رئيس المنافقين عبداللَّه بن أبي بن سلول؛ لأن المؤمن الصادق المخلص لا يمكن أن يتفوه بِهذه الكلمة الانهزامية، بل يقول: إن كانت دولة اليهود وراءها من يسندها، فقد خابت هي ومسندها؛ لأن وراءنا اللَّه الذي هو مولانا، والذي يبكت الكفار ويخسئهم بقوله: ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩]، ويقوي عزائم المسلمين من الجنود وغيرهم في تفسير هذه الآية، بأن جميع الفئات المناصرة لليهود ـ وغيرهم من أعداء المسلمين ـ لا تنفعهم مهما كثرت أو قويت؛ لأن

اللَّه تعالىٰ مع المؤمنين بالنصر والتأييد، ومن كان اللَّه معه فهو المنصور وعدوه المقهور، ولأن اللَّه غالب علىٰ أمره، ولن يعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض، ولكن هذا منطق القيادات الإسلامية الصحيحة، لا القيادات المادية المرتكزة علىٰ المفاهيم الماسونية، أو التي هي من ركائزها، فاللَّهُ عليم بهم، ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾.

وقوله سبحانه في فضيحته للمنافقين: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾ وهذا شبيه بقوله عنهم: ﴿لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ يخبرنا اللَّه عن قول المنافقين الذين قعدوا عن القتال لإخوانهم الذين ساروا مع المسلمين فقُتلوا: إنهم لو قعدوا مثلنا ما قُتلوا، أي: «لو أطاعونا فقعدوا مثلنا عن القتال ما قُتلوا، ولكنهم قتلوا لمعصيتهم إيانا وعدم قعودهم معنا، فإننا لم نقتل حيث قعدنا ولم نلق بأنفسنا إلىٰ التهلكة والقتل». وهذا منطق شيطاني انهزامي ينبئ عن سوء عقيدة صاحبه وضعف عقليته ودينه، ولهذا قدم ذكر القول علىٰ القعود؛ لأن قولهم أقبح من فعلهم، ولأن فيه تضليلًا يتعدىٰ إلىٰ غيرهم؛ لأن فيه تثبيطًا عن الجهاد، فهذا القول دليل علىٰ إصرارهم علىٰ النفاق وتَهكمهم بالمجاهدين الصادقين.

وقد دحض اللَّه تعالىٰ شبهتهم الفاسدة بقوله: ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ والدرء هو الدفع، وقد مضىٰ تفسيره في سورة البقرة من قصة أصحاب البقرة، والمعنىٰ أن القتل نوع من أنواع الموت، فإن كان لكم سبيل إلىٰ دفعه عن أنفسكم بفعل اختياري فادفعوا عنها الموت، وإن لم يكن ذلك ممكنًا لكم ـ ولن يكون ـ ظهر أنكم مبطلون في دعواكم، ففي ذلك التحدي من اللَّه لهم إن كانوا صادقين في أن التحيز والتحرز ينجي من الموت، فليبذلوا جهدهم في دفع الموت، وهب أنهم دفعوه علىٰ زعمهم بالقعود، فإنهم لا يقدرون علىٰ دفع سائر أسبابه ولا يمكن ذلك لهم بتاتًا.

وقال صاحب «الكشاف» رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإن قلت: قد كانوا صادقين في أنهم دفعوا القتل عن أنفسهم بالقعود، فما معنىٰ قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؟ قلت: معناه أن النجاة من القتل يجوز أن يكون سببها القعود عن القتال وأن يكون غيره، لأن أسباب النجاة كثيرة، وقد يكون قتال الرجل سبب نجاته ولو لم يقاتل لقتل، فما يدريكم أن سبب نجاتكم القعود؟ ووجه آخر: إن كنتم صادقين في قولكم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ يعني أنهم لو أطاعوكم وقعدوا لقتلوا قاعدين كما قتلوا مقاتلين. وقوله: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾، استهزاء بهم؛ أي إن كنتم رجالًا دفاعين لأسباب الموت، فادرؤوا جميع أسبابه حتىٰ لا تموتوا». انتهىٰ كلامه باختصار.

ومما يصلح لهم جوابًا قوله سبحانه في الآية (١٥٣): ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ علىٰ كل حال، فدعواكم ساقطة لا تنطلي إلا علىٰ الذين لا يؤمنون بالقدر من مجوس هذه الأمة، ويجوز أن يكون القائلون لهذه المقالة علىٰ شاكلتهم.

فأما المسلمون المؤمنون بالقضاء والقدر فجوابهم لهم واضح، وهو أن الذين خرجوا ولم يقعدوا مع القاعدين؛ لم يقتلوا إلا عند انقضاء أعمارهم المكتوبة، وأن مَنيَّتهم هي التي أخرجتهم ليُقتَلُوا فيموتوا كما نص اللَّه في هذه الآية: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾.

فالخروج للجهاد، وإن كان سببًا من أسباب الموت إلا أنه ليس المؤثر في حصوله، فالموت لا يأتي إلا عند انقضاء الأجل، وجميع الوسائل الحربية المعدة لإزهاق الروح لا تقتل إلا من دنا أجله وأحاطت به منيته، وكم من شجاع مغامر بالقتال يبادر إلىٰ الطلائع، ويسبق إلىٰ المقدمة حرصًا علىٰ الموت ثم لا يموت إلا علىٰ فراشه! فقول المنافقين: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ كذب صريح مقبوح يكذبه الواقع أكثر مما تكذبه النصوص؛ لأنهم حكموا حكمًا جازمًا بأن علمهم قد

أحاط بأسباب الموت في هذه الواقعة، وإذا جاز هذا فيها جاز في غيرها من الغزوات، فيجب أن لا يخرجوا ولا ينفروا إذا استنفروا دفاعًا لأنفسهم عن الموت، فلذلك طالبهم اللَّه به، وجعله حجةً عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾.

وقد يقال: إن هناك فرقًا بين التوقي من القتل بالابتعاد عن أسبابه، وبين دفع الموت بالكلية، فإن الموت محتم عند انقضاء الأجل وإن طال، والقتل ليس كذلك، فكيف احتج عليهم اللَّه بطلب دفع الموت عن أنفسهم؟.

فالجواب: إن احتجاج اللَّه عليهم وتحديه لهم مناسب لقولهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾، فإنهم أصدروا حكمهم بالقتل على من خرج للقتال ولم يقعد معهم، ثم إن هذا الاعتراض لا يصدر إلا من قصور النظر؛ لأن الكل يعلم - وخصوصًا المحاربين - أنه ما كل من حارب يُقتل، وقد عرف بالتجارب أن كثيرًا من المثخنين بالجراح لا يموتون، وأن كثيرًا من المحاربين يخرجون من المعمعة سالمين فيموتون في بيوتهم حتف أنوفهم، كما يموت كثير من القاعدين عن القتال، فما كل مقاتل يموت، ولا كل قاعد يسلم، وبِهذا يسقط قولهم ويظهر بطلانه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكان من الحكمة: تقديرُه تعالىٰ في الواقعة تكلُّمَ المنافقين بما في نفوسهم، فسمعه المسلمون، وسمعوا رد اللَّه عليهم وجوابه لهم، وعرفوا مؤدىٰ النفاق وما يؤول إليه، وكيف يُحرم صاحبه سعادة الدنيا والآخرة، فيعود عليه بفساد الدنيا والآخرة، فلله كم من حكمة في ضمن هذه القصة بالغة! ونعمة علىٰ المؤمنين سابغة! وكم فيها من تحذير أو تخويف وإرشاد وتنبيه وتعريف بأسباب الخير والشر ومآلهما وعاقبتهما» اهـ.

وكان من حكمة اللَّه ورحمته بالمؤمنين - الذين هم حملة رسالته والأمناء علىٰ وحيه المبارك - أن أذاقهم في هذه الغزوة مرارة النكبة،

وأوضح لهم أنها من بعض شؤم المعصية؛ ليصونوا وجودهم الإنساني ووجودهم السياسي من غوائل النكبات، وذلك بحسن تصرفهم برسالات اللَّه التي يجاهدون في سبيلها للدفع بها إلي الأمام؛ ويعدُّهم للزحف المقدس الذي يجب عليهم الوفاء به رعايةً لعهد اللَّه وبيعته الكبرىٰ في الآية (١١٢) من سورة «التوبة»؛ فقد رباهم اللَّه تعالىٰ في هذه الآيات المنزلة بسبب هذه الوقعة تربيةً عسكريةً وسياسيةً، ظهرت عليهم آثارها الطيبة الكاملة في تصرفاتهم مدىٰ الحياة، لقوة إيمانهم وصدقهم مع اللَّه وحصل فيهم التوازن المرضي للَّه.

٣٤ ـ مما يقي اللَّه عباده من الهزيمة النفسية، ويجعلهم يحرصون علىٰ الموت: إخباره عن حسن المصير والحياة الطيبة عنده للشهداء الذين قتلوا في سبيل اللَّه؛ لإخلاص قصدهم في إعلاء كلمته وقمع المفتري عليه، وأن حياتهم لا تنقطع بالموت الحسي من قتل وغيره، كما تنقطع حياة الجبناء والمنافقين الباخلين علىٰ اللَّه إذا ماتوا علىٰ الفراش كالحيوان في مَرْبَضِه، بل الجزاء من جنس العمل، فالذين وهبوا أنفسهم للَّه أبدلهم اللَّه بحياة لا يعلم مدىٰ حالها وطيبها إلا هو.

كما قال في الآية (١٦٩، ١٧٠، ١٧١) من السورة:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾:

فهم في حياة جديدة كريمة ورزق عظيم عند ربهم لا يقدر أحد قدره، وفرحٍ بما نالوه من الثواب وحسن الجزاء الذي وعدهم اللَّه لا يتصوره المتصورون أبدًا.

وسبب نزول هذه الآية ـ علىٰ الصحيح الموافق لنظمها ـ: قول الذين استشهدوا ودخلوا الجنة وأكلوا من ثمارها: «هل من يبلِّغ

إخواننا أنَّا في الجنة نرزق حتىٰ لا يزهدوا في الجهاد؟ فقال اللَّه: أنا أبلغ عنكم، فأنزلها علىٰ رسوله ﷺ»[١]. ثم إن الشهداء التي هذه منزلتهم، هم جميع من استُشهد في سبيل اللَّه ممن قتل في المعركة أو قتل صبرًا مثل «خبيب»، ولا يجوز قصرها علىٰ أهل غزوة أو واقعة مع عموم اللفظ هنا وفي الآية (١٥٤) من سورة البقرة: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة].

واختلفوا هل الحياة لأبدانهم وأرواحهم جميعًا، أو لأرواحهم فقط؟ والذي جاءت به الأحاديث هو أن اللَّه جعل أرواحهم في أجواف طير خضر تأكل من ثمار الجنة وتشرب من أنهارها، ومذهب أهل السنة أن الروح لا تفنىٰ، وأن اللَّه يذيقها العذاب أو النعيم في البرزخ، كما نص القرآن عن آل فرعون أنهم يعرضون علىٰ النار غدوًّا وعشيًّا، ويجوز أن اللَّه يجمع أعضاء جسد الشهيد ليذيقه النعيم ـ كما قاله بعض المحققين ـ، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾، ويجزي المجاهدين في سبيل اللَّه المخلصين الصادقين معه بالجزاء الأوفىٰ الذي لا تعلمه الأنفس ولا تحيط به العقول؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة].

فنعم الشهداء لا تحيط بها العقول، ويكفي ظاهر الآية: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ يكفيهم العندية الجليلة بجوار ربهم، والرزق الكريم عنده، وأن أرواحهم تأوي إلىٰ قناديل من ذهب معلقة تحت العرش بعدما تأكل من ثمار الجنة وتشرب من أنهارها، كما جاء الحديث بذلك فيما رواه مسلم وأبو داود وغيرهما[٢]، وهذا جزاء أهل اللَّه.

هذا؛ وينبغي ألَّا يُنسىٰ أن الشهيد الذي هذا جزاؤه عند اللَّه، هو من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا، وهو بخلاف من قاتل حميةً أو

---

(١) رواه أبو داود (٢٥٢٠).

(٢) رواه مسلم (١٨٨٧).

عصبيةً قوميةً أو وطنية، فإن جميع أهل هذه المقاصد قد نص رسول اللَّه ﷺ أنهم من جُثىٰ جهنم[١]، وأنهم لا ينتفعون بأعمالهم.

وقد يقول قائل: كيف لا أكون شهيدًا إذا قاتلت دون وطني، أو في سبيل استرجاعه من الكافر المغتصب؟

والجواب: أن من قاتل دون وطنه الذي فيه حرَمُه دفاعًا عن شرفه وعرضه فهو شهيد، ولكن من قاتل تحت رايةٍ عِمِّيةٍ لاسترجاع وطنه المغتصب لينقله من حكم علماني يهودي إلىٰ حكم علماني عربي أو تركي ونحوه، فهذا قتاله في سبيل الطاغوت، وإن قُتل فيه فليس شهيدًا. أما المقاتل لاسترجاع وطنه تحت راية إسلامية تقيم حكم اللَّه في البلاد إذا استرجعَتْها، فذلك هو الشهيد الصحيح، وما عداه مما يسمىٰ في المصطلحات القومية شهيدًا؛ فإنه علىٰ العكس ليس بشهيد، وخصوصًا من تعاونوا مع الدول الكافرة في الحرب العالمية الأولىٰ عداوةً للأتراك، ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر].

وقد ورد النص أن الشهادة تكفر جميع الذنوب إلا الدَّين[٢]، كما وردت أحاديث كثيرة في فضل الشهادة وما أعد اللَّه لأهلها من الكرامة المنقطعة النظير، وبِهذا الأمل العظيم قويت معنوية المؤمنين، واشتدت رغبتهم في الجهاد، حتىٰ توسعت فتوحاتهم؛ بخلاف المذهب القومي والبعثي الذي يربي الجنود علىٰ خدمة عَلَم لوطن يحكم فيه بغير ما أنزل اللَّه، ويتبجح البعثيون بأنهم يخلقون عربيًّا لا يؤمن باللَّه ورسله ونعيمه أو ناره ـ والعياذ باللَّه ـ؛ ليكون ذرةً تدور مع دوران الأرض، فلأي شيء يموت الجندي ما دام لا يؤمن بالجنة ولا يرجوها أبدًا؟ أيضحي بنفسه في سبيل أدعياء العروبة والاشتراكية ليكون ذرةً في التاريخ كما زعموه؟ لا يمكن صدقه في الفداء ليكون ذرةً تائهة، ولا

---

(١) رواه التِّرمذي (٢٨٦٣).
(٢) رواه مسلم (١٨٨٥).

يمكن أن يعمل كما عمل عمرو بن الحُمام يوم «بدر» حين قال لهم النبي ﷺ: «**هلمُّوا إلىٰ جَنةٍ عرضُها كعرض السماوات والأرض**»[١].

فالطريقة الروحية التي رسمها اللَّه لعباده أنفع لهم وأنجح، وهي التي تهدي للتي هي أقوم، وما عداها فهو غش وباطل ينقطع بصاحبه مهما نعق به من يحمل الأسماء العربية والإسلامية، ودماغه متبلور بما اجتره من حشائش الأباطيل، ولا يجلب لوطنه ومبادئه سوىٰ الشر والخذلان، فإن الذين يزعمون أنهم سيجعلون الإيمان ومشتقاته في متاحف التاريخ، ذهبت ثغورهم واستحكاماتهم في متاحف التاريخ لأراذل العالم وأعدائه.

وقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ يدل علىٰ أن القرب من اللَّه والزلفىٰ عنده أشرف من الرزق، وإن ذكر الرزق لتأكيد الحياة، وقد صحح أكثر المحققين من العلماء المعوَّل علىٰ أقوالهم، أن حياة الشهداء حياةٌ حقيقية برزخية لا مجازية، وأنه لا يجوز تأويل النصوص بما يخالف الحياة الحقيقية بتاتًا، لأنه لو صح شيء من التأويلات لم يبق لنفي الشعور فائدة.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ يدل علىٰ حياةٍ حقيقيةٍ لا يشعر بها أحد، فنحن نراهم علىٰ صفة الأموات وهم أحياء، كما نرىٰ النائم علىٰ هيئته، وهو يرىٰ في منامه ما ينعم به أو يتألم به.

وجميع العلماء مجمعون علىٰ أنهم في الجنة لما صح من الأحاديث التي فيها قوله ﷺ لأم حارثة: «**إنهم في الفردوس**»[٢]، وقد ذكرنا مذهب أهل السنة أن الأرواح لا تفنىٰ، وأنها باقية بعد خروجها من البدن، وأن أرواح أهل السعادة منعَّمةٌ إلىٰ يوم القيامة، وأرواح أهل الشقاوة معذبة كذلك.

---

(١) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (٢/٢٥٥).

(٢) رواه البخاري (٦٥٦٧).

وهنا يجري التساؤل عن الفرق بين الشهيد وغيره، والجواب أن اللَّه فضَّل الشهداء برزق وفَضْلٍ لا يحصل عليه غيرهم، وهو كونهم عند ربهم يرزقون من ثمار الجنة، بأن جعل اللَّه أرواحهم في حواصل طير تسرح في الجنة، وتأوي إلىٰ قناديل معلقة تحت العرش في الفردوس الأعلىٰ، ولا يجوز تأويل العندية ولا الحياة البرزخية، بل يجب أن نؤمن بما جاء من اللَّه علىٰ مراد اللَّه، وبما جاء عن رسوله ﷺ كذلك، ولا نؤولها خضوعًا لقواعد أهل الكلام، كما ينبغي أن ننتهي عند نَهْي اللَّه؛ فلا نقول للمقتولين في سبيل اللَّه أموات، كما نهانا اللَّه عن ذلك، دفعًا لإيهام مساواتهم بغيرهم في البرزخ، وصيانةً لهم عن النطق بكلمة قالها أعداء الدين والمنافقون في شأن الشهداء الكرام، قاصدين أنهم حُرموا من النعيم، فإنهم يقولون: إن أصحاب محمد يقتلون أنفسهم ويخرجون من الدنيا بلا فائدة ويضيعون أعمارهم بدون لذة! فكذَّبهم اللَّه، وأثبت أنهم في حياة طيبة أعظم مِن لو كانت الحياة الدنيا دائمةً لهم، وهو سبحانه يخبرهم بِهذا الخبر أن القتل الذي يَحذرونه ويحذِّرون منه ليس مما يحذر، بل هو من أحسن ما يطلب ويحرص عليه، فهو من أشرف المطالب التي يتنافس فيها المتنافسون؛ فلا توجد حياةٌ أعظم وأشرف من هذه الحياة المتضمنة للقرب من اللَّه، وتمتعهم برزقه البدني من المأكولات والمشروبات اللذيذة الفائقة في اللذة علىٰ كل شيء، مع الرزق الروحي وهو الفرح والاستبشار وزوال كل خوف وحزن، فهذه حياة أكمل من كل حياة.

وفي هذه الآيات أعظم حث وتحضيض علىٰ الجهاد وملازمة الصبر، فلو شعر العباد بما للشهداء في سبيل اللَّه من الكرامة ومزيد الثواب، لم يتخلف أحد منهم عن الجهاد، ولكن تغفيل الشيطان هو الذي فتَّر العزائم وفوتهم الأجور العظيمة والحياة الدائمة السعيدة، وإلا فلو كان للمؤمن ألف نفس فذهبت في سبيل اللَّه نفسًا نفسًا لكانت بسيطةً بجانب هذا الثواب، والمقامِ الحميد الذي يفوز به من

صدق مع اللَّه في البيعة علىٰ النفس والمال، ولهذا لا يتمنىٰ الشهداء ـ بعدما يعاينون هذه المكرمة الجليلة الجزيلة ـ إلَّا أن يعادوا إلىٰ الدنيا ليقتلوا في سبيل اللَّه مرةً أخرىٰ أو مرات أخر.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب «الروح»: «وقد أخبر سبحانه عن الشهداء أنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وهذه حياةُ أرواحهم ورزقها دارٌّ، وإلا فالأبدان قد تمزقت.

وقد فسر النبي ﷺ هذه الحياة: بأن أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقةٌ بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلىٰ تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: «**هل تشتهون شيئًا؟**» فقالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل بهم ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: ربنا، نريد أن تُردَّ أرواحنا إلىٰ أجسادنا حتىٰ نقتل مرةً أخرىٰ في سبيلك[(١)]. وصح عنه ﷺ: «**أن أرواح الشهداء في جوف طيرٍ خُضرٍ تعلُقُ من شجر الجنة**»[(٢)]، أي تأكل العلقة، وهذا صريح في أكلها وشربها وحركتها وانتقالها وكلامها» انتهىٰ.

وما ذكره من سؤال اللَّه لهم ورد مرفوعًا من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وغيره، قال الطيبي: قوله ﷺ: «**أرواحُهم في جوف طير خُضر**» أي: يخلق لأرواحهم بعد فراقها أبدانهم هياكل علىٰ تلك الهيئة تكون خلفًا من أبدانهم، فيتوسلون بها[(٣)] إلىٰ نيل ما يشتهون من اللذات الحسية.

وقال ابن القيم ـ أيضًا ـ: «إن اللَّه سبحانه جعل الدور ثلاثة: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، وجعل لكل دار أحكامًا تختص بها، وركَّب هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام دار الدنيا علىٰ

(١) رواه مسلم (١٨٨٧).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أي: يجعلونَها وسيلةً.

الأبدان والأرواح تبعًا لها، ولهذا جعل أحكامه الشرعيةَ مرتبةً علىٰ ما يظهر من حركات اللسان والجوارح ـ وإن أضمرت النفوسُ خلافه ـ، وجعل أحكام البرزخ علىٰ الأرواح والأبدان تبعًا لها، فكما تبعت الأرواح الأبدان في أحكام الدنيا فتألمت بألمها والتذَّت براحتها؛ وكانت هي التي باشرت أسباب النعيم والعذاب، تبعت هذه الأبدان الأرواح في نعيمها وعذابها.

فالأرواح حينئذٍ هي التي تباشر العذاب والنعيم، فالأبدان هنا ظاهرة والأرواح خفية، والأبدان كالقبور لها، والأرواح هناك ظاهرة والأبدان خفية في قبورها، فتجري أحكام البرزخ علىٰ الأرواح، فتسري إلىٰ أبدانها نعيمًا وعذابًا، أو كما جرت أحكام الدنيا علىٰ الأبدان، فتسري إلىٰ أرواحها نعيمًا وعذابًا، فأحِط بِهذا الموضع علمًا، واعرفه كما ينبغي، يزل عنك كل إشكال يورد عليك من داخل ومن خارج.

وقد أرانا اللَّه سبحانه بلطفه ورحمته وهدايته من ذلك أنموذجًا في الدنيا من حال النائم، فإن ما يعذَّب به أو ينعم به في نومه يجري علىٰ روحه أصلًا والبدن تابع له، وقد يقوىٰ حتىٰ يؤثر في البدن تأثيرًا مشاهدًا، فيرىٰ النائم أنه في نومه ضُرب، فيصبح وآثار الضرب في جسمه، ويرىٰ أنه قد أكل وشرب فيستيقظ وهو يجد آثار الطعام والشراب في فمه ويذهب عنه الجوع والظمأ.

وأعجب من ذلك أنك ترىٰ النائم يقوم من نومه ويَضرب ويبطش ويدافع كأنه يقظان، وهو نائم لا شعور له بشيء من ذلك؛ لأن الحكم لما جرىٰ علىٰ الروح استعانت بالبدن من خارجه، ولو دخلت فيه لاستيقظ وأحس.

فإذا كانت الروح تتنعم وتتألم، ويصل ذلك إلىٰ بدنها بطريق الاستتباع، فهكذا في البرزخ، بل هو أعظم، فإنَّ تجرُّد الروح هناك أكمل وأقوىٰ، وهي متعلقة ببدنها لم تنقطع عنه كل الانقطاع، فإذا

كان يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم، صار الحكم والنعيم والعذاب علىٰ الأرواح والأجساد ظاهرًا باديًا. ومتىٰ أَعطيتَ هذا الموضع حقه، تبين لك أن ما أخبر به الرسول ﷺ من عذاب القبر ونعيمه، وضيقه وسعته، وضمه وكونه حفرةً من حفر النار أو روضةً من رياض الجنة مطابق للعقل، وأنه حق لا مرية فيه، وأن من أشكل عليه ذلك فمن سوء فهمه وقلة علمه» انتهىٰ.

وقال أبو السعود: «وفي الآية دلالة علىٰ أن روح الإنسان جسم لطيف لا يفنىٰ بخراب البدن، ولا يتوقف عليه إدراكه وتألمه والتذاذه، ومن قال بتجدُّد النفوس البشرية، يقول: والمراد أن نفوس الشهداء تتمثل طيورًا خضرًا أو تتعلق بها فتلتذ بما ذكره» انتهىٰ.

وقال البيضاوي: «الآية تدل علىٰ أن الإنسان غير الهيكل المحسوس، بل هو جوهر مدرك بذاته لا يفنىٰ بخراب البدن، ولا يتوقف عليه إدراكه وتألمه والتذاذه، ويؤكد ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ﴾ [غافر: ٤٦]، وحديث: «**أرواحُ الشهداء في أجواف طير...**» إلىٰ آخره.

وفسر ذلك الشهاب بقوله: ليس الإنسان مجرد البدن بدون النفس المجردة، بل هو في الحقيقة النفس المجردة. فإطلاقه علىٰ البدن لشدة التعلق بها، وهي جوهر مدرك بذاته أي من غير احتياج إلىٰ هذا البدن، لوصفه بعد مفارقته بالتنعم» انتهىٰ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكأن الشهداء أقسام: منهم من تسرح أرواحهم في الجنة، ومنهم من يكون علىٰ هذا النهر بباب الجنة، وقد يحتمل أن يكون منتهىٰ سيرهم إلىٰ هذا النهر فيجتمعون هناك، ويُغدَىٰ عليهم برزقهم هناك ويراح، واللَّه أعلم.

ثم قال: وقد رُوِّينا في مسند الإمام أحمد حديثًا فيه البشارة لكل مؤمن، بأنَّ روحه تكون في الجنة تسرح - أيضًا - فيها، وتأكل من

ثمارها، وترىٰ ما فيها من النضرة والسرور، وتشاهد ما أعدَّه اللَّه لها من الكرامة، وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم اجتمع فيه ثلاثةٌ من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة، فإن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ رواه عن محمد بن إدريس الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ، عن مالك بن أنس الأصبَحيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ عن الزهري، عن عبدالرَّحمن بن كعب بن مالك عن أبيه، عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**إنما نَسَمةُ المؤمن طائر يعلُقُ في شجر الجنة حتىٰ يُرجعَه اللَّه إلىٰ جسده يوم يبعثه**»[1]، قوله: «**يعلق**» أي يأكل.

وفي هذا الحديث نرىٰ أن روح المؤمن تكون علىٰ شكل طائر في الجنة، وأما أرواح الشهداء فكما تقدم في حواصل طير خضر، فهي كالكواكب بالنسبة إلىٰ أرواح عموم المؤمنين، فإنها تطيرُ بأنفسها، فنسأل اللَّه الكريم المنان أن يميتنا علىٰ الإسلام» انتهىٰ.

وللشهداء مزيةٌ أخرىٰ وهي كونهم عند ربهم يرزقون كما قدمنا ذلك، فحياتهم ليست كحياة غيرهم، ولهذا جاء الخطاب من اللَّه بنقيض ما حسبه إخوانُهم من الموت، كما جاء سابقًا منعُ المؤمنين من تسمية الشهداء أمواتًا، فكأن اللَّه سبحانه ينفي عن المجاهد منال المكروه من كل وجه، حتىٰ في أن يقال عنه: «إنه ميت» لاعتلاق أنفسهم بجميل الذكر، وقد كتب الألوسي رأيًا له عن حياة الشهداء، لا سند له، فأعرضنا عنه.

وقوله تَعَالَىٰ عن الشهداء الحقيقيين: ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾، يعني مسرورين بما أعطاهم اللَّه من قربه في جنته ورزقهم فيها إلىٰ سائر ما أكرمهم اللَّه به من المزيد من فضله، فإنه سبحانه أعطاهم زيادةً علىٰ ما يستحقونه بعملهم، فإن الفضل هو ما كان في غير مقابلة؛ كما قال تعالىٰ في الآية (٣٠) من سورة فاطر: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠ ﴾.

---

(١) رواه أحمد (٣/٤٥٥)، والنسائي (٤/ ١٠٨)، وابن ماجه (٤٢٧١).

ولا تعارض بين قوله: ﴿فَرِحِينَ﴾ وبين قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] في قصة قارون؛ لأن ذلك باللذائذ الدنيوية، وهؤلاء باللذائذ الأخروية[١]، ولذلك جاء قوله سبحانه عن القرآن: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس]، وجاء في قوله: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، وحرف ﴿مِنْ﴾ هذا، يحتمل أن يكون للتبعيض، فيكون في موضع الحال من الضمير المحذوف العائد على «ما» أي: بما آتاهم اللَّه كائنًا من فضله، ويحتمل أن تكون للسبب ـ وهو الأولىٰ ـ، أي ما آتاهم اللَّه متسبب عن فضله، فيكون تعلق الباء ب﴿ءَاتَىٰهُمُ﴾ ويجوز أن يكون لابتداء الغاية.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يعني كما أنهم فرحون بما حصل لهم من الزلفىٰ والنعيم، فهم مستبشرون بما يحصل لإخوانهم المؤمنين، الذين يستشهدون من بعدهم ممَّن تركوهم يجاهدون، فهم يستبشرون بانتفاء الخوف والحزن عن إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، ولكنهم سيلحقون بهم إذا استشهدوا في الجهاد، فهم قد فرحوا لأنفسهم ولمن يلحق بهم من الشهداء؛ إذ يصيرون إلىٰ ما صاروا إليه من كرامة اللَّه.

ونصب «أن لا» بمعنىٰ يستبشرون بأنه: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والخوف هو التألم من مكروه يُتوقع حصوله، والحزن هو التألم مما وقع، والمعنىٰ أنه لا خوف عليهم فيما يُقدِمون عليه؛ لأن اللَّه قد محص ذنوبهم ومحاها بالشهادة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ علىٰ مفارقة الدنيا وما لهم فيها؛ لفرحهم بالآخرة بما أجزل اللَّه لهم من العوض، فهما لا يخافون وقوع مكروه من الأهوال، ولا هم يحزنون من فوات محبوب؛ ولأنهم قدِموا علىٰ ما هو أحب منه، فالشهداء في فرح

---

(١) الأدق أن يقال: إن فرح قارون كان فرح تجبُّر وتكبُّر، مقرون بنسيان صاحب الفضل عليه، ولذلك ادعىٰ أن كل ما عنده من كنوز إنما حصَّله بفكره ودهائه في جمع المال، ونسي المنعم عليه به ﷻ. واللَّهُ أعلم.

عظيم لما لاقوه عند ربهم من الرضوان والجزاء الحسن، ويستبشرون بمن خلفوه[١] من إخوانهم أن يلحق بهم ويشاركهم في هذه الكرامة الجليلة.

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: «ويعني بذلك ـ تعالىٰ ذكره ـ: يفرحون بمن لم يلحق بهم من إخوانهم، الذين فارقوهم وهم أحياء في الدنيا علىٰ منهاجهم من جهاد أعداء اللَّه مع رسوله ﷺ؛ لعلمهم بأنهم إن استشهدوا فلحقوا بهم صاروا من كرامة اللَّه تعالىٰ إلىٰ مثل الذي صاروا إليه، فهم لذلك مستبشرون بهم، فرحون بأنهم إذا صاروا كذلك: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يعني بذلك لا خوف عليهم؛ لأنهم قد أمنوا عقاب اللَّه، وأيقنوا برضاه عنهم، فقد أمنوا الخوف الذي كانوا يخافونه من ذلك في الدنيا، ولا هم يحزنون علىٰ ما خلفوا وراءهم من أسباب الدنيا ونكد عيشها» انتهىٰ باختصار.

وفي ذكر اللَّه لحال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم، بعثٌ وتنشيط لمن بعدهم علىٰ الازدياد في الطاعة، والجد وبذل الوسع في الجهاد، والرغبة في نيل منازل الشهداء وإصابة فضلهم، وبشرىٰ للمؤمنين بالفوز في الدار الآخرة، وإحماد لمن يرىٰ نفسه في خير وفضل، فيتمنىٰ أن ينال إخوانه مثل ما ناله، وبهذه البشارة للمؤمنين تشجعوا علىٰ الجهاد، وأرخصوا الجهاد والزحف المقدس برسالات اللَّه، وتوزيع هدايته، وتعميم الحكم بشريعته في الأرض، فنال الأحياء وعد اللَّه من العز والتمكين والاستخلاف في الأرض، ونال الشهداء درجاتهم العالية عنده ﷻ: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧]، ولم يفتح السلف أكثر المعمورة إلا بسبب هذا الوعد العظيم.

وقوله ﷻ: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ تكرار الاستئناف ليس للتأكيد في ظاهر الأمر، لاختلاف منطق

---

(١) أي: تركوه.

الفعلين، بل هو استئناف؛ لأنه تعلق بهم أنفسهم؛ لا بالذين لم يلحقوا بهم فالمستبشَر به هو لهم، وهو نعمة اللَّه عليهم وفضله. وفي التنكير دلالة علىٰ تعظيم ذلك وتنبيه علىٰ صعوبة إدراكه، إذ لا تُنال هذه النعمة والفضل إلا بالشهادة، فالتنكير أفاد الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية، ووجود العطف يفيد التباين للنعمة والفضل، ويناسب شرحه قوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فالنعمة هي الجزاء، والفضل والدرجات فهو علىٰ قدر الأعمال، وقيل: إن النعمة هي قدر الكفاية، والفضل المضاعف عليها مع مضاعفة السرور واللذة، وقيل: إن الفضل داخل في النعمة للدلالة علىٰ اتساعها، وأنها ليست كنعم الدنيا، وأما تكرار الاستبشار فقيل: إن استبشارهم الأول هو بدفع المضارِّ عنهم، وإن استبشارهم الثاني هو بحصول المسرات لهم.

ومنصوص الآية يدل دلالةً واضحةً علىٰ أن استبشارهم الثاني غير الأول، وأنهم يستبشرون بما نالوه من النعمة والفضل العظيم، فهم يستبشرون بأن اللَّه ما أضاع أجورهم حتىٰ اختصهم بالشهادة، واختارهم لها، ومنحهم أعظم النعمة وأكملها. وختم لهم بالنجاة والفوز، وقد كانوا يخشون علىٰ إيمانهم، ويخافون سوء الخاتمة المحبطة للأعمال، فلما رأوا ما للمؤمنين عند اللَّه من الفوز بالسعادة وحسن الخاتمة المحقِّقة للأجور ومضاعفة الأعمال استبشروا؛ لأن قلوبهم وجلة، كما أخبر اللَّه عن صفاتهم.

وفي هذه الآية دليل علىٰ أن غير المؤمنين أعمالهم مضاعة، لا ينتفعون بها؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان]. فالإيمان هو مناط السعادة وبه تُنال المراتب العليا.

قال ابن القيم: «إن اللَّه عزَّىٰ نبيَّه وأولياءه عمن قتل منهم في سبيله أحسن تعزية وألطفها، وأدعاها إلىٰ الرضا بما قضاه لهم بقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ...﴾ إلىٰ آخر الآيات، فجمع لهم إلىٰ الحياة الدائمة منزلةَ القرب منه وأنهم عنده، وجريانَ الرزق الممتد عليهم، وفرحَهم

بما آتاهم من فضله، وهو فوق الرضا بل كمال الرضا، واستبشارهم بإخوانهم الذين باجتماعهم بهم يتم سرورهم ونعيمهم واستبشارهم كل وقت بما يجدد لهم من نعمته وكرامته، وذكَّرهم سبحانه بأعظم مِنَنِه ونعمه عليهم، والتي لو قابلوا بها كل محنة وبلية تنالهم لتلاشت، وهي منته عليهم بإرسال رسول من أنفسهم يتلو عليهم آياته، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وينقذهم من الضلال الذي كانوا فيه قبل إرساله ومن الشقاء إلىٰ الفلاح، ومن الظلمة إلىٰ النور، ومن الجهل إلىٰ العلم، فكل محنة وبلية تصيب العبد بعد حصول هذا الخير العام له، فهو يسير جدًّا بجانبه، كما ينال الناسَ من أذىٰ المطر بجانب ما يحصل لهم من الخير.

ثم أعلمهم اللَّه تعالىٰ أن سبب المصيبة من عند أنفسهم؛ ليحذروا، وأنها بقضائه وقدره، ليوحدوه ويتكلوا عليه، ولا يخافوا غيره، وأخبرهم بما فيها من الحكم ليرضوا بقضائه ويحمدوه عليه، وسلَّاهم بما أعطاهم مما هو أجل قدرًا وأعظم حظًّا مما فاتهم، وعزَّاهم عن قتلاهم بما نالوه من ثوابه وكرامته ليتنافسوا فيه، ولا يحزنوا عليهم، فلله الحمد كما هو أهله، وكما ينبغي لكريم وجهه وعز جلاله» انتهىٰ بتصرف قليل.

✍ **وهاهنا فوائد:**

١ ـ أن الشهيد لا يُغسل ولا يكفن ولا يصلىٰ عليه، وينبغي إبقاء دمه عليه ودفنه في ثيابه، كما فعل رسول اللَّه ﷺ بقتلىٰ «أحد»، ولا يلتفت إلىٰ من علل ذلك بضيق الوقت، فهو[1] غنيٌّ عن دعاء الأحياء له بما يلقاه من الفوز العظيم، وكذلك من فاجأه الأعداء علىٰ غِرَّةٍ فقتلوه، فإنه كقتيل المعترك وكذلك المقتول ظلمًا علىٰ أيدي البغاة قطاع الطريق، أو الخوارج أو نحوهم من المبتدعة الذين يقتلون

---

(١) يعني الشهيد.

غِيلةً[١]، وكذلك قتلىٰ الفوضويين من أصحاب الثورات والشيوعيين ونحوهم.

٢ ـ منزلة الشهادة منزلة عظيمة يكفر اللَّه بها الذنوب إلا الدين، كما صح عن النبي ﷺ أنه قال أن جبريل عليه السلام أنبأه بذلك[٢].

٣ ـ إذا كان الشهيد المَدين مطالب بدينه، أو مُعلَّقةً روحه بدينه كسائر المؤمنين المدينين الذين أخبر عنهم النبي ﷺ بقوله: «**نفسُ المؤمن معلَّقةٌ بدينه**»[٣]، فكيف يدخل الجنة شهيد مدين؟

والجواب: أن فضل اللَّه واسع، فقد يَقضي اللَّه عنه دينه بما شاء من أنواع رحمته عليه أو علىٰ غريمه، وقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «**أرواحُ الشهداء علىٰ نهر بباب الجنة يقال له: «بارق»، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرةً وعشيًّا**»[٤]؛ فلعلهم هؤلاء، وأن الشهداء درجات من هؤلاء، ومنهم من تكون أرواحهم في جوف طير خضر ـ كما مضىٰ ذكرهم ـ، فيكون درجات. ويُسهِّلُ مشكلة الدين صحةُ سببه كما في الفائدة الرابعة:

٤ ـ وهو أن الدين الذي يُحبَس به صاحبه عن الجنة ـ واللَّه أعلم ـ هو الذي ترك له وفاءً ولم يوص به، أو قدَر علىٰ الأداء ولكنه ماطل غريمه، فكان مفرطًا ظالمًا لنفسه، وكذلك من استدان لسرفٍ أو سفاهة، وأما الذي يستدين في حق واجب لإعسار وفاقة، أو غرامةِ كفالة ونحوها، فهذا وفاؤه علىٰ اللَّه إذا مات معسرًا، وقد أوجب اللَّه علىٰ ولي أمور المسلمين الوفاءَ عن المعسر ـ خصوصًا إذا مات ـ من جملةِ الصدقات، أو من سهم الغارمين، أو من الغنائم، أو من بيت المال علىٰ الإطلاق، فإن ولي أمر المسلمين هو الذي يسد خلتهم.

---

(١) **الغِيلة**: الغدر.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) رواه التِّرمذي (١٠٧٨)، وابن ماجه (٢٤١٣).
(٤) رواه أحمد (١/٢٦٦).

٥ ـ صحت الأخبار عن النبي ﷺ في أن المبطون شهيد، والحريق، والغريق والمتردي بدون تعمد، وميت الهدم، والملدوغ، والكسير، وساقط الدابة، والميت بحوادث الصدم بوسائل النقل البرية والبحرية، وحوادث الطائرات، والمصاب بالطاعون، والميتة بالطلق، والمقتول دون ماله أو عرضه، والمجابه لحاكم ظالم يصدع عنده بكلمة حق فيقتله، فهذا من سادات الشهداء، وكذلك المقتول في سبيل الدعوة إلىٰ اللّه، أو العمل علىٰ إقامة حكم اللّه[١]، وقد يُجري اللّه للمصلحين من المؤمنين أجر شهيد، وخصوصًا في فساد الزمان كما جاء به الحديث[٢].

وقد دل قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، علىٰ أن فساق أهل الصلاة يدخلون الجنة، إما بأحد مكفرات الذنوب، أو بتطهيرهم منها في النار علىٰ حسب ذنوبهم، ثم يدخلون الجنة بما يستحقونه من الحسنات التي لا يضيعها اللّه؛ كما قال: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

هذا وقد ذكر الرازي في «تفسيره» جميع الشبهات حول حياة الشهيد، وفندها بالمنقول والمعقول؛ حتىٰ رجح مذهب أهل السنة الصحيح، من أن حياتهم منذ قتلهم في عالم البرزخ ليس بعد البعث العام، فليراجعه من أراد الاطلاع.

٣٥ ـ مما يقي اللّه به عباده من الهزيمة النفسية: إخباره تعالىٰ عن صفة المؤمنين الذين يحب الشهداء أن تقر أعينهم بلحوقهم بهم، والذين لم تزلزلهم كارثة الهزيمة ومحنة الحرب، ولم تُقعِدهم الجراحات عن مواصلة الجهاد، والتصميم علىٰ النكاية بالعدو، ولم يرهبهم تجمعه، ولم يتأثروا بإرجاف المنخذلين بقوله سبحانه في

---

(١) راجع في أكثر ما مضىٰ كتاب: «أحكام الجنائز» للشيخ الألباني رحمه الله.
(٢) تقدم تخريجه.

الآية (١٧٢، ١٧٣، ١٧٤) من السورة:

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾:

يعني أن اللَّه لا يضيع أجر المؤمنين المستجيبين للَّه ورسوله من بعد ما أصابتهم الجراح المؤلمة، ويعني اللَّه: الذين اتبعوا رسوله في طلب أعدائه ليرهبهم، وذٰلك أن أبا سفيان وقومه المشركين لما انصرفوا من «أحد» أذَّن مؤذن رسول اللَّه ﷺ يستنفر أصحابه في طلبهم، وقال: «**لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر معنا بالأمس**»، فسار معه مِئتا رجل بعضهم متألم من الجراح، ولكن تجلدوا لصدقهم في متابعة رسول اللَّه ﷺ، وألَّا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، وكان فيهم من يحمل أخاه عَقِبَه بسبب الجروح، ويمشي عقبه حتىٰ بلغوا «حمراء الأسد»[1] علىٰ بعد ثمانية أميال من المدينة، فأقاموا ثلاثة أيام، وإنما فعل ذلك رسول اللَّه ﷺ لخطةٍ عسكرية عظيمة، وهي إرهاب العدو ليَظن به قوةً، وذلك من بعض التعاليم العسكرية النبوية التي لها قيمتها في الميادين والسياسة العسكرية، لإيهام العدو وتخذيله والقذف في رُوعه أن به قوة، وأن أصحابه لم يَهِنوا، وأن وراءهم قوةً احتياطيةً لم تحضر الكارثة، وهكذا حصل الإرجافُ لقيادة المشركين خصوصًا بما قاله معبد الخزاعي من التهويل، حيث قال: إن محمدًا وأصحابه قد تبعوكم بجمع كثير يتحرقون عليكم تحرقًا، فقال أبو سفيان: لقد أجمَعْنا الكرَّةَ عليهم لنستأصلهم، فنهاه معبدٌ عن ذلك، وقال: إني رأيت معهم قوةً حملتني علىٰ إنشاد شعر، فطلب منه إسماعه، فقال:

(١) تقدم تخريجه.

كادت تُهدُّ من الأصوات راحلتي إذ سالت الأرضُ بالجردِ الأبابيلِ

تردىٰ بأسدٍ كرام لا تَنابلةٍ عند اللقاء ولا خُرقٍ معازيلِ

فقلت: ويل «ابن حرب» من لقائكمو إذا تغطمطت البطحاءُ بالخيلِ

إلىٰ آخر الأبيات التي أرجفت به، فانثنىٰ عن مقصوده، ولكنه ـ أيضًا ـ عمل علىٰ الإرجاف بالمسلمين، فأعطىٰ جُعْلًا لركب من عبد قيس ـ وهو حمل زبيب ـ لنقل كلامه للمسلمين بإجماع المسير إليهم، فلما جاءهم الركب وبلغوهم ما قاله أبو سفيان قالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، فلم يبالوا بإرجافه لقوة إيمانهم ويقينهم باللَّهِ تعالىٰ، وذلك لاستهانتهم بجميع الآلام، واسترخاصهم أنفسهم في حب اللَّه ورسوله وطاعتهما، فكان تطلعهم إلىٰ الشهادة أوقر في نفوسهم من حب المال والحياة، فربط اللَّه علىٰ قلوبهم، وحفهم بحصانته من أعدائهم بفضله ورحمته، حتىٰ انقلبوا ولم يمسسهم شيء. فما أبعد الفرق بينهم وبين قومنا الذين لم يفكروا في إعادة الكرة علىٰ اليهود لما مكروا بهم، بل قصروا خطتهم علىٰ الشكاوىٰ عند «مجلس الأمن» الذي تحركه دول كافرة ترعىٰ مصالحها أولًا، وتسيِّرها اليهود ثانيًا، فلم يرضوا باللَّه مولىٰ ولا نصيرًا، بل رضوا بالطاغوتية الدولية مولىٰ ونصيرًا!.

واللَّهِ إنه فرق عظيم بين التربية العسكرية المحمدية التي رباها محمد ﷺ أصحابه في مسجده الذي هو أشرف المدارس والمعسكرات، وبين الذين تربوا في المدارس المادية علىٰ أفكار الماسونية وخططها من رجس اليهود، فالمحمديون لم تتأثر أحاسيسهم بهول النكبة، ولم يُزعزع التهديد ثقتهم باللَّه الذي هو نعم المولىٰ ونعم النصير؛ لأن ثقتهم بوعد اللَّه تعدل ـ أو تزيد ـ علىٰ ما يلمسونه بأيديهم، فلذلك انصرف عنهم عدوهم وخلىٰ لهم الطريق.

أما تربية الماسونية من الكثرة الكاثرة، والذين لا يبلغ عدوهم

المغتصب لفلسطين وما حولها ربع معشارهم؛ فإنهم لم يقابلوه إلا بالصيحات الفارغة، حتىٰ استفحل شره، وسيستفحل شره ما داموا قد فسحوا له المجال حتىٰ يتفاقم خطره، وذلك لضعف يقينهم بالله وعدم اعتمادهم عليه؛ لأن فيهم من يسخر بالحوقلة والحسبلة، ويهزأ بالقدر، ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾ [النساء: ٣٨].

وقد جمع الله بين استجابة المؤمنين له ولرسوله ﷺ؛ لأن الاستجابة لله لا تكمل إلا بالاستجابة للرسول ﷺ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولا يصح تفريق من فرق بينهما بقوله: «إن الاستجابة لله بالتوحيد والعبادة، والاستجابة للرسول بالتلقي للرسالة منه والنصيحة له»! فالحق أنها استجابة واحدة؛ لأنه المبلِّغ الوحيد عن الله ﷻ، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠]، فاستجابتهم له هنا هي حين ندبهم لإتباع[1] أعدائهم المشركين، واستجابتهم له تعتبر استجابة لله سبحانه، كما قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٤]، والحياة الصحيحة هي في الجهاد، وكما قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ [آل عمران: ٣١].

أما الإحسان، فهو وصف زائد علىٰ الإيمان من الاتصاف بما يستحب، مع الاتصاف بما يجب، وهو أعلىٰ مراتب الدين؛ لأن صاحبه يتدرع دائمًا بمراقبة الله، ولهذا فسره المصطفىٰ ﷺ: «**بأن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ﴾: كلمة ﴿مِنۡهُمۡ﴾ لبيان الجنس لا للتبعيض. وفي تنويه الله بالاستجابة لرسوله، وترتيب الأجر العظيم عليها دليل علىٰ وجوب الاستجابة ولزومها مهما بلغ الأمر بالمؤمنين من الجراحات إذا تمكنوا من النهوض بما يجب عليهم.

---

(١) **الإتباع**: الملاحقة.
(٢) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩، ١٠).

وقوله ﷻ إشادة بعباده المؤمنين الشجعان الصادقين المخلصين: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾، المراد بـ«الناس» القائلين أُناس مخصوصون، إما واحد وهو نُعيم بن مسعود الأشجعي، كما قيل: إنه جعل له عشرًا من الإبل على تخذيل المؤمنين، أو جماعة قليلة مخصوصة، وهم نفر من عبد قيس جعل لهم المشركون جُعلًا على تخويف المسلمين وتخذيلهم كما سبق ذكره.

أما المراد بـ«الناس» الآخرين المخبر عنهم فهم المشركون الذين قذف اللَّه في قلوبهم الرعب بعد عملهم في واقعة «أحد»، وتخصيص عموم الناس القائلين هو من باب التخصيص بالسياق، كما ذكره الأصوليون؛ لأن السياق يدل على أن الناس المخبرين عن الناس هم عدد مخصوص، وكذلك المخبَر عنهم، ليسوا جميع الناس ولا أكثر الناس، فيكونون من العموم المخبر عنه، وإنما هم بعض الناس أو فئات من الناس، فالسياق يدل على أنه من العام المخصوص، أو العام الذي أريد به الخصوص.

وقد تلقى المؤمنون تخذيل المرجفين بالرفض والاستهانة، ومشوا مع رسول اللَّه ﷺ إلى «حمراء الأسد»، فانقلبوا برحمة من اللَّه لم يمسسهم سوء، ونالوا رضوان اللَّه، وكذلك ساروا معه إلى «بدر الصغرى» من العام القابل حسب موعد قيادة المشركين، فكانوا يَسألون من يلقونه من الكفار عن قريش، فيقولون: «إنهم قد جمعوا لكم»، فيجيبونهم بِهذه الكلمة العظيمة المحبوبة لرب العالمين: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، فانقلبوا ـ أيضًا ـ برحمة من اللَّه وفضل لم يمسسهم سوء، وكانت «بدر الصغرى» موسم تجارة للعرب ثمانية أيام، فأقام المسلمون بها طيلةَ موسمها ينتظرون المشركين حسب موعدهم بكل طمأنينة ورباطة جأش، وقد قذف اللَّه الرعب في قلوب أعدائهم، فانصرفوا من «مِجنَّة» بعد ما خرجوا من مكة، ورجعوا إليها

فسماهم أهل مكة «جيش السويق» وقالوا: إنما خرجتم لتشربوا السويق[١].

أما الصحابة ـ الذين هم جيش محمد ﷺ، والذين استجابوا له وحضروا الموعد ـ، فقد كان عندهم تجارات ونفقات ينتفعون بها في الموسم، حيث تاجروا وتضاعفت أرباحهم، فحصلوا علىٰ خيري الدنيا والآخرة، ونالوا رضوان اللَّه الذي هو أعلىٰ وأغلىٰ من كل شيء، وقد حسبها الرسول ﷺ لهم غزوةً، وظفر باثنين من المشركين فقتلهما، وهما معاوية بن المغيرة بن العاص، وأبو عزة الجمحي الذي كان أسيرًا يوم «بدر»، وعاهد النبي ﷺ ألَّا يخرج مع من يحاربه، واسترحم النبيَّ ﷺ بالعفو عنه لأنه صاحب عَيلة، فعفا عنه، ثم لما خان عهده أعاد الاسترحام، فقال له النبي ﷺ: «**واللَّهِ لا أدعك تمسحُ عارضَيك بمكة؛ تقول: قد خدعتُ محمدًا مرتين**»[٢]. وأمر بقتله، وفي ذلك تعليمٌ من النبيِّ ﷺ لأمته بالتزام الحزم والحيطة، وألَّا يستمروا في الانخداع، ولعل هذا تنفيذ لقوله ﷺ: «**لا يُلدغ مؤمنٌ من جُحر مرتين**»، وفي بعض الروايات: «**من جُحرٍ واحدٍ مرتين**»[٣]. وقد تكون تلك الزيادة من تفسير الراوي، واللَّه أعلم.

وقوله سبحانه: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾، يعني أن عاقبة التخويف من شياطين الإنس عملاء الكفار أنتجت للمؤمنين زيادةً في إيمانهم باللَّه وثقةً به، فازدادوا ثباتًا وطمأنينةً، واستعدادًا للقاء العدو، فلم يَرهبوا كثرته، ولم يتأثروا بالإرجاف والتخذيل لقوة ثقتهم باللَّه.

وفي هذه الجملة من الآية الكريمة دليل علىٰ زيادة الإيمان بالأعمال الصالحة، أعمال الجوارح، من امتثال المأمور واجتناب المحظور

---

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (٤/١٦٦).
(٢) رواه البيهقي في «السنن» (٩/٦٥).
(٣) رواه البخاري (٦١٣٣)، ومسلم (٢٩٩٨).

والبذل والتضحية له سبحانه بجميع مقتضياتها الباعثة، من إخلاص التوحيد للَّه والصدق معه في المقاصد، والتضحية له سبحانه بجميع مقتضياتها الباعثة علىٰ الغضب لدينه، والغيرة لحرماته، وقصر الرجاء عليه، والخشية منه، والوجل من ذكره، واطمئنان القلب به، ونحو ذلك من أعمال القلب والجوارح التي يزيد بها الإيمانُ وينقص بأضدادها من أعمال المعاصي، وعدم صدق القلب وإخلاصه، وكونه يخاف غير اللَّه أو يرجوه، إلي غير ذلك، وهذا هو مذهب أهل السنة وأئمتهم المقتدىٰ بهم، وقد نُسب إلىٰ أبي حنيفة القول بعدم زيادة الإيمان ونقصه، ولكن المروي عنه خلاف ذلك.

وأما قولهم: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، فهو مطابق لما وقر في قلوبهم من زيادة الإيمان والاعتماد علىٰ اللَّه، ولذلك قالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي كافينا شر أعدائنا، وكل ما يتطلبه واقع حياتنا، فنحن مطمئنون إلىٰ إنجاز وعده بكل صدق ويقين، وهو نعم الوكيل: الكافي لنا في كل مهمة، وقيل: الوكيل هو الكفيل، والأصح أنه الحسيب الكافي؛ لأن حرف «نِعم» ينبغي أن يكون الذي بعدها موافقًا لما قبلها، فيقال: كفانا اللَّه ونعم الكافي، ورزقنا اللَّه ونعم الرازق، واختلاف العبارة بمعنىٰ أن الكافي يكون الأمر موكولًا إليه.

هذا وإن وقعة «أحد» فيها من الدلالات علىٰ أن قضاء اللَّه وقدره أعظم مما في غيرها وأكثر اعتبارًا، وذلك أن المسلمين انهزموا من المشركين فيها، والعادةُ جاريةٌ بأن الغالب يزداد قوةً وشدةً، وأن قلب المغلوب ينكسر ويضعف ويحزن، ولكن اللَّه سبحانه قلب القضية رأسًا علىٰ عقب؛ فأودع الخوف والرعب قلوب الغالبين الذين هم الكفار المشركون، وأودع قلوب المغلوبين القوة والحمية والصلابة والبسالة المنقطعة النظير، وهذا يدل علىٰ أن البواعث والصوارف من اللَّه، وأنه مقلب القلوب، وقد أخرج البخاري في الأسماء والصفات عن ابن عباس ﵄ أن آخر قول إبراهيم ﷺ لما ألقي في النار:

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[١]، فهي كلمة عظيمة ينبغي النطق بها في الشدائد والمهمات، ولذا قالها الصحابة ﷺ لما ألجأهم عدوهم بضرب الموعد لهم، وجاءهم الإرجافُ والتخذيل، فقابلوه بالإيمان والصمود، ونفعهم اللَّه بِهذه الكلمة التي هي من ثمرات الإيمان.

وقد أخرج أبو نعيم عن شداد بن أوس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**حسبي اللَّه ونعم الوكيل، أمانُ كلِّ خائف**»[٢].

والوكيل صفة من صفات ذاته سبحانه كالجبار، والقهار ونحوهما، وفسرها بعضهم بمعنىٰ الولي والحفيظ، وذلك لا يعدو معنىٰ الحسيب الكافي.

وفي هذه الكلمة العظيمة «حسبنا اللَّه ونعم الوكيل» من براعة الاستهلال، وبراعة الختام، وبديع البلاغة ما ليس في غيرها، كما أن في معناها مطابقة لواقع المؤمنين في موقفهم من عدوهم وعلاقتهم بربهم؛ لأنهم عاكسوا قول المخذلين المخوِّفين بما يرغم أنوفهم وأنوف من خدموهم من كفار قريش وذلك:

١ ـ بزيادة الإيمان المعاكس لخشية العدو في تجمعه، فقد حصلت لهم طمأنينة في القلب تقابل الخشية.

٢ ـ قوة ارتباطهم باللَّهِ، وقوة يقينهم بوعده ومدده وحصانته، وذلك بإعلانهم أنه كافيهم شرَّ الناس بقولهم: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾.

٣ ـ ثناؤهم عليه سبحانه بقولهم: ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

فقولهم: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾، يدل دلالةً واضحةً علىٰ مبالغتهم في التوكل علىٰ اللَّه وربط أمورهم به، ووجه البلاغة في هذا والبراعة: هو مقابلة قولٍ بقول، ومتعلَّقِ قلبٍ بمتعلَّقِ قلب، فإنهم لم يبالوا بقول المرجفين المخذلين ولم يقيموا له وزنًا، بل زادهم ذلك إيمانًا وثباتًا علىٰ

---

(١) رواه البخاري (٤٥٦٣).

(٢) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٢/١٣٤).

دينهم، وتصميمًا علىٰ نصرة نبيهم ﷺ، مستيقنين أن اللَّه سبحانه هو كافيهم ومتولي أمورهم، والحفيظ الحافظ لهم من كل شر. وقد صدقهم فيما حفظهم فيه من شر أعدائهم؛ حيث قال سبحانه: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ يعني أنهم رجعوا مما ذهبوا إليه بنعمة النجاة، ورفعة الشأن من اللَّه تعالىٰ، وفضل من مرابح الدنيا في ذلك الموسم، وحفظهم اللَّه من بأس عدوهم فلم يمسسهم سوء مما أرادوا بهم، بل شلَّ اللَّه حركتهم، وقذف في قلوبهم الرعب، وعكس مقاصدهم عليهم لطفًا بعباده المؤمنين، ونصرًا لهم؛ لأنهم اتبعوا رضوان اللَّه بطاعة رسوله ونصرته بالمسير معه حيث سار.

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾، قد تفضَّل عليهم بالإيمان بنبيهم ومتابعته ليجعل منهم بتوفيقه وفضله ركيزةً للتوحيد والعقيدة، يتعاونون في سبيلها حتىٰ يكونوا قادة الأرض إليها، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]، ولا فضل أعظم من هذا أبدًا.

وفي تنويه اللَّه بحسن عاقبتهم إلقاءُ الحسرة في قلوب المخلَّفين عنهم ممن يستمع إلىٰ الدجل، وإظهار خطأ رأيهم، حيث حرموا أنفسهم مما ناله أهل الإيمان واليقين.

وفي هذه الخطة النبوية العسكرية محوٌ لما في ضمائر أصحابه من الشعور بالهزيمة، وإنعاش لها بالنصر الحسي والمعنوي، وعلاج روحي عظيم نافع لآلام جراحاتهم، وقذفٌ في رُوعهم أن ما أصابهم هو امتحان وتجربة، وأنه ليس نهاية المطاف، وإشعار لهم بضعف أعدائهم حتىٰ تتجدد فيهم القوة والروح المعنوية، ويعلموا أن ما أصابهم لا يعود؛ لأنهم سيكونون هم المنصورين دائمًا بإذن اللَّه وعونه وتوفيقه إذا حققوا مقتضيات الإيمان بدون قصور أو خلل؛ مع بذل طاقاتهم في سبيل الدعوة والجهاد، وحملهم راية التوحيد إلىٰ كل مكان، وأنهم

إن عاقبهم اللَّه ﷻ علىٰ أخطائهم؛ فإن عقوبته تكون خيرًا وبركة، بسبب صدق مقاصدهم للَّه وسلامة صدورهم من الغش والإصرار، فتصير نتائجها دروسًا لتنقية عقيدتهم، وتصفيتها، وتطهير صفوفهم، ومددًا لروحهم المعنوية، يفجر طاقاتهم لمواصلة الجهاد، واحتقار ما يعترضهم من عقبات.

وأيضًا ففي هذه الخطة العسكرية المحمدية الربانية تخبيط لأدمغة الأعداء، وكسر لشوكتهم، وردع لهم من أن يصلوا إلىٰ مكة وهم يحملون خيلاء النصر وانتفاخة الغرور؛ لأن لحوقه إياهم وتعقُّبهم بجيشه الذي ثابر معه في المعركة، يشعرهم أنهم لم ينالوا من المسلمين ما يريدونه من إضعافهم وإرهاصهم، وأن قناتهم لم تلن - فضلًا عن أن تنكسر -، بل إنهم باقون علىٰ قوتهم، وقادرون علىٰ ملاحقتهم ومطاردتهم وملاقاتهم بحمد اللَّه الذي رباهم علىٰ ذلك بتعاليم نبيه العسكرية، فإنه ﷺ لا ينطق عن الهوىٰ.

وفي عمله هذا - أيضًا - إشعار للمسلمين في جميع الأمم أن هذا الجهاد القائم ليس لإرغام قريش وحدها، وليس لأطماع وأغراض نفسية، وإنما هو لبناء العقيدة السماوية في قلوب أهلها الغزاة، لأجل تركيزها في قلوب جميع الناس لتحررهم من رق العبودية لغير اللَّه، وتسعىٰ دائمًا لإعلاء دين اللَّه وكلمته في الأرض، وإقامة حكم اللَّه المصلح لضمائر البشرية ولجوارحهم، والحافظ لعقولهم وأموالهم وأعراضهم ودمائهم وكراماتهم، فليس لهم من غاية في الحياة سواها، وليس لهم في الدنيا مطلب غيرها؛ بل يعيشون لها فقط، ويتفانون في سبيلها طلبًا لمرضاة اللَّه، فحياتهم ومماتهم وجميع مدخراتهم لها، ولا شيء أدل علىٰ صدقهم في عملهم لها من استجابتهم للَّه والرسول من بعد ما أصابهم القرح دون مبالاةٍ بما حصل عليهم، وما يستقبلهم في خروجهم، علىٰ الرغم من حصول الإرجاف الذي يعتبر محله بالنظرة المادية لولا وجود هذه العقيدة الروحية التي لا يبالي أهلها

بكل إرجاف وتهويل، بل ضربوا أروع الأمثال علىٰ صدقهم مع اللَّه وإخلاصهم له حتىٰ أرضوا اللَّه بفعلهم فشكرهم بتعظيم أجورهم، وإنزال وحي يتلىٰ في مدحهم إلىٰ يوم القيامة.

٣٦ ـ من وقاية اللَّه لعباده من الهزيمة النفسية توضيحه لأسباب الخوف كي يعرفها المؤمنون الحقيقيون، فيبتعدوا منه غاية البعد؛ وذلك بإبانة اللَّه سبحانه أن مصدر الخوف هو الشيطان من كل مبتعد عن اللَّه وحكمه من أي جنس كان، وبأي اسم تسمىٰ، فإنه يبعد قلوب أوليائه وأتباعه من كل صلة باللَّه، ويطمسها ويحشوها بمحبته هو ومحبة كل طاغوت، حتىٰ لا تتقبل التوجيه ممن سواهم، فيكونون علىٰ ما تريده شياطين الإنس والجن من الحرص علىٰ الحياة الدنيا وزينتها، فإن لإبليس وذريته جنودًا من الإنس تزيد فتنتهم علىٰ فتنته وإغواؤهم علىٰ إغوائه، وهم منافقو كل أمة إسلامية في كل عصر وبلاد، ولهذا قال تعالىٰ في الآية (١٧٥) من السورة:

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾:

فبعدما أشاد اللَّه بعباده المخلصين الذين اتبعوا رضوانه، فأتحفهم بما يسرُّهم في الدنيا والآخرة، وأخبرهم عن سبب الخوف، وعلة الهلع والفزع والجبن، وأن الشيطان هو الذي يجند أولياءه من الإنس من رئيس ومرؤوس للتخذيل والإرجاف، وإثارة الرعب تارةً، وصبه في قالب فلسفات وخطط وهمية تارةً أخرىٰ بالإقناع المزور، والغرض من هذا كله هو التخويف من الكفار والمنافقين، بتضخيم شأنهم، وإلباسهم لباس القوة في العدد والعدة والحماية من ورائهم، وأنهم يستطيعون ما لا يستطيعه محاربهم، إلىٰ غير ذلك من أنواع التخويف والإرهاب؛ لأن له ولأوليائه مصلحةً في تضخم الشرور وصَولةِ الباطل؛ لأن هذا هو قرةُ عينه وغاية أمانيِّه من إيذاء أهل الحق.

فاللَّهُ ﷻ ينهىٰ أولياءه المؤمنين من أن يساورهم شيء من الخوف من أولياء الشيطان لمصلحة أوليائهم الذين يريدون إقامة دولة أو دول للباطل؛ يكون المعروف فيها منكرًا والمنكر معروفًا، وينشرون فيها الفساد والإفساد، ويسلطون أصوات الباطل علىٰ الحق، ويجعلون بعضهم البعض آلهةً في الاحتكام والتشريع، ليُحلوا ما حرم اللَّه ويتسلطوا علىٰ عباده ويخرسوا ألسنة الحق، ويشلوا أقلامه، فالذي يعرف اللَّه ويخاف أولئك الشياطين ليس بمؤمن، ولذا قال اللَّه سبحانه: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فالخوف منهم منافٍ للإيمان؛ لأنه يقتضي إيثار خوف اللَّه علىٰ الخوف من الناس أجمعين، فيجب علىٰ المؤمنين ألَّا يخافوا الكفار المشركين، وألَّا يعظم أمرهم عندهم مهما بلغوا من الكثرة والقوة، فإن القوة للَّه، فليطيعوا اللَّه حق الطاعة، ولا يرهبوا أعداء اللَّه ما داموا هم مستقيمين علىٰ طاعته، فإنه سبحانه متكفل لهم بالنصر والظفر، فليكن خوفهم منه بألَّا يعصوه ولا يسلكوا ما يغضبه، فيحل عليهم نقمه، ويسلط عليهم أعداءه.

فمن حقق طاعته وسعىٰ في مراضيه، واجتنب مساخطه، فليثق بنصره إذا أخلص المقاصد له في الجهاد، ولا يخاف من أعدائه الكفرة مهما كانوا، فإنهم أحقر من أن يخافهم مؤمن مرتبط باللَّه، ومعتمد عليه، فإنه الركن الشديد الذي من استند إليه لا يذل ولا يخزىٰ؛ لأنه سبحانه هو القوة الوحيدة العظمىٰ التي يجب أن يرهبها المؤمنون، ولا يرهبوا سواها أبدًا مهما كلف الأمر؛ لأنه لا يخشىٰ قوة الكافرين إلا المنافقون، والذين في قلوبهم مرض قد أفسد إيمانهم.

ولهذا نجد اللَّه في هذه الآية قد قوَّىٰ نفوس المؤمنين فنهاهم عن خوف أولياء الشيطان، وأمرهم بخوفه سبحانه فقط، وعلق ذلك علىٰ الإيمان الذي بوجوده حقًّا ينعدم الخوف بالكلية، كما نجده سبحانه قد حصر الخوف بِهذه الآية علىٰ أولياء الشيطان، وأن تخويفه لا يتعداهم؛ فلا يصل إلىٰ المؤمنين الحقيقيين أبدًا، فجمع اللَّه في هذه

الآية الإخبار بعدم وصول تخويف الشيطان للمؤمنين، ونَهيَهم عنه.

وإننا حتىٰ في هذا العصر نجد إخبار اللَّه عن خوف المنافقين والذين في قلوبهم مرض شيئًا واضحًا ملموسًا ومنحصرًا فيهم، حتىٰ لو حصل لهم شيء من النصر علىٰ يد المسلمين المنخدعين بمتابعتهم وتنفيذ أوامرهم في القتال، فإنهم يتوقفون عن القتال في حالة الانتصار أو توقعه جنوحًا إلىٰ تخويف شياطين الإنس، وانطباعًا بتخذيلهم كما حصل في حربهم مع اليهود الجبناء من توقيف القتال والمفاوضة علىٰ استرجاع بعض الأرض مما لم يقع له مثيل في الحروب الإسلامية مع الكفار، ولا شك أن القوميين علىٰ اختلاف مبادئهم قد برهنوا علىٰ حرصهم علىٰ الحياة الدنيا وزينتها، وعدم ثقتهم باللَّه، وعدم رغبتهم فيما عنده، وأثبتوا أنهم لا يؤمنون إلا بالمحسوس، بل لم يقتنعوا بالنصر المحسوس، وعادوا إلىٰ بث التخذيل بنشرهم ما يتلقاه العدو من الأسلحة وحرمانهم منها، وعدم تعويلهم علىٰ السلاح الروحي الذي هو عدة المؤمنين، وإذا كان ذوو التخذيل جديرين بالطرد عن الصفوف، فكيف تكون الحالة إذا كانت لهم القيادة والتوجيه؟ ولهذا أوجب اللَّه علىٰ المؤمنين تصفية صفوفهم، واختيار قيادتهم، وأن يتميزوا بشخصيتهم المؤمنة، ويرفضوا جميع التحذيرات وأهلها؛ لأن مصدرها الشيطان الذي يكسب له أولياء من الإنس يقومون بما يريد، والمؤمن يجب عليه ألَّا يخالجه الخوف أبدًا؛ لارتباطه باللَّه ورجائه لما عنده، والمتطلع إلىٰ ما عند اللَّه لا تغريه فتنة الدنيا أبدًا، بل يحرص علىٰ الموت، واللَّه يهب له الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة.

وقد أطلت الكلام بعض الشيء علىٰ المدلولات المعنوية لواقعة «أحد»، والتربية العسكرية من اللَّه فيها للمؤمنين حتىٰ صارت نتائجها حسنةً لهم دون أعدائهم، وحتىٰ نالوا من رفعة الدرجات في الدنيا والآخرة ما اللَّه من به عليهم.

تلك الحادثة العظيمة التي ربىٰ اللَّه بها عباده المؤمنين تربيةً

جليلةَ القدر، والتي يشبِّه المنهزمون من العرب القوميين هزائمهم بها؛ تضليلًا لشعوبهم وتغطيةً مفضوحةً لعارهم.

ومن نظر فيما أوجزناه تبين له قبح إفكهم خصوصًا مع مخالفتهم لصفات المؤمنين، وإصرارهم بعد النكبة علىٰ معاصي اللَّه تعالىٰ واستباحتهم محارمه وتحكيم غير شريعته، وغير ذلك مما هو تطاول علىٰ ألوهيته ودينه في الأرض مع الافتتان بتقليد أعدائه في جميع شؤون الحياة.

وهناك فوراق حسية ومعنوية تفسد قياس هزائم العصريين في زمننا علىٰ ما جرىٰ للصحابة في غزوة «أحد» وملابستها؛ منها:

أن الصحابة لم ينهزموا أمام أراذل البشرية بل أمام عرب كرام أشاوس، تربطهم بهم وشائج القربىٰ والشرف الذي قضىٰ عليه الدين، فالتكافؤ موجود بينهم وبين عدوهم.

وأن الحرب معهم سجال، وقد أنزلوا بأعدائهم المشركين أضعاف ما حصل عليهم منهم.

وتفوقهم في الكثرة والخيول والقوة علىٰ الصحابة، بخلاف القوم في زماننا، فقد هزمهم ربع معشارها ممن ليسوا لهم أكفاء، حسيًّا ولا معنويًّا، بحيث لو أعدمهم العرب إعدامًا أو قذفوا بهم في البحر كما يتشدقون، لم يجز لهم الافتخار بِهذه الحالة.

وأن المشركين علىٰ تفوقهم في الكثرة والقوة علىٰ الصحابة، لم يحتلوا شبرًا واحدًا من أرض المسلمين؛ لأنهم جالوا جولةً مؤقتةً، فجابهوا بها هذا الصمود، فولوا الأدبار، ولم يتمركزوا في أي موقع «استراتيجي»؛ بخلاف قومنا فإنهم - علىٰ كثرتهم وجعجعتهم بقوتهم - سمحوا لعدوهم القليل الخسيس باحتلال الأجزاء الغالية والثغور المهمة والاستحكامات المحصنة والمواقع الشاسعة من أراضيهم، وأن يفرض عليهم الحصار في أعظم الممرات والمضائق المائية؛ مما لا

يمحو عاره إلا الرجوع إلىٰ العقيدة والإيمان، ليحصلوا علىٰ حصانة اللَّه ومدده الذي لا يغلبه غالب.

إن الصحابة المغلوبين في «أحد»، قد استجابوا للَّه والرسول؛ فلحقوا بأعدائهم المشركين حتىٰ أرهبوهم، ولم يمنعهم من ذلك ما أصابهم من القرح والجراحات الثخينة التي جعلت بعضهم يحمل بعضًا علىٰ كتفه، ليستريح ثم يعقبه، وهكذا حتىٰ بلغت بهم المواساة والقوة في ذات اللَّه. أما قومنا ـ وفقهم اللَّه لما يحبه ويرضاه ـ فقد عرضت عليهم بعضُ الدول الإسلامية السلاح والمتطوعين بكل حماس وكثرة، ليعيدوا الكرة علىٰ العدو، فرفضوا ذلك، ولو قبلوه لنجحوا نجاحًا باهرًا بإعادتهم لحرب دينية لا طاقة لليهود بها، ولكنهم اقتصروا علىٰ الشكاية الدولية ـ كما أسلفنا ـ؛ وذلك لأن هزيمتهم مركَّبة من الهزيمة الحسية والمعنوية والفعلية التي رفع اللَّه عباده يوم «أحد» عنها لخلاص قلوبهم مما سواه، فنرجو اللَّه أن يخلص قلوب أمتنا، ويسلك بهم سبيل الرشاد، إنه علىٰ كل شيء قدير.

هذا، وإن تخذيلات الشياطين وأراجيفهم وتمويهاتهم لا يسلم منها أبدًا إلا أصحابُ العقيدة الحنيفية الذين يحملون البضاعة السماوية ويرفضون ما عداها من البضائع الأرضية المادية، خصوصًا وأن التخذيلات والأراجيف تفاقم شرها في هذا الزمان؛ لأنها ألبست لبوسًا علميًّا ينطبع به السامع ويتبلور عقله، وأخذ يتولىٰ بثَّها قياداتٌ فكرية وعسكرية مادية خالية من كل روحانية تتذرع بنقصان الأسلحة العربية علىٰ أسلحة دفاعية لا هجومية، ثم يتعللون بالحاجة إلىٰ إنشاء مصانع حربية يتمكنون بها من التفوق علىٰ العدو، ونحو ذلك من البهارج الخداعة، كأن العدو لا يجاريهم في المصانع أو يزيد.

والشيء المعروف الذي لا يماري فيه عاقل: هو أنهم مهما حصلوا علىٰ السلاح العصري بشراء أو هبة أو تصنيع؛ فإن عدوهم يحصل

علىٰ أكثر وأكثر لسبقه في مضمار العلم والدهاء، ولقوة تأثيره علىٰ الدول الكافرة التي أصبح هو مسيَّرًا لها، ولكنهم سمموا الأفكار، وحوروا العقيدة ببهارجهم، ومن جملة جنايتهم علىٰ العقيدة والعقول تكرار قراءة هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[1] [الأنفال: ٦٠]، فهل ليس في القرآن من التعاليم الدينية سوىٰ هذه الآية؟ أو أنهم لا يريدون العمل بغيرها إن هم صدقوا في العمل بها؟!.

إن في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فهل حققوا هذه الاستجابة الواجبة؟ وإن في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال]، فهل كانوا أمناء علىٰ التكاليف الدينية والتشريعات السماوية، أو علىٰ التوجيهات الماسونية للمذاهب المادية؟ إن أعمالهم تدل علىٰ أنهم أمناء علىٰ المذاهب المادية اليهودية الماسونية.

وإن في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال]، فهل هم لازموا ذكر اللّٰه في الحرب، أو ذكر الغواني التي وزعت عليهم تصاويرها كما تتبجح الإذاعة بذلك؟! وهل هم اتفقوا واتحدت صفوفهم، أو علىٰ العكس: هذا تقدمي، وهذا رجعي، وهذا يميني، وهذا يساري، والشتائم بينهم متبادلة؟!.

وهل لا يعرفون من القرآن إلا قوله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وإن في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة]، فهل عملوا بذلك وجعلوا ديدن جيوشهم الصلاة، وربوهم علىٰ الصبر؟ أو لا يعرفون من القرآن إلا آية القوة فقط؟!.

---

(١) فهم يقصدون منها: أنهم ما أعدُّوا بعدُ القوة اللازمة لمواجهة الأعداء!.

وإن في القرآن أكثر من عشرين آيةً تنهىٰ عن موالاة الكفار من النصارىٰ وغيرهم، وتنهىٰ عن طاعتهم، فهل عملوا بشيء منها، أو عاكسوا أمر اللَّه فيها وتقبلوا القومية المنبثقة من تعاليمهم ووالوا النصارىٰ باسمها؟!.

وإن في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾ [التوبة]، وقوله: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة]، فهل رفعوا راية الجهاد لقتالهم كما فعل الصحابة ـ الذين لا يملكون ربع معشار ما ملكوا ـ؟ أم علىٰ العكس سالموهم وأصبحوا مثلهم لا يحرمون ما حرم اللَّه؟!.

وإن في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾ [البقرة]، وآيات كثيرة في معناها، فهل هم من أهل الذكر والشكر أو لا؟!.

وإن في القرآن آياتٍ كثيرةً تنص علىٰ الأحكام والحدود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتنفي الإيمان عن من لم يحتكم إلىٰ شرع اللَّه، وآيات كثيرة في شرائع الإسلام وتشريعاته، لا نطيل بها المقام، فهل عملوا بها أم جعلوها وراء ظهورهم؟!.

إنه يجب علىٰ من يعرف القرآن ألَّا ينتحل بعضه للجدال، بل يعمل به جميعًا ليكون مؤمنًا باللَّه حقًّا، أما من يعمل ببعضه، أو يحتج ببعضه مما يوافق أغراضه ويترك الباقي؛ فإنه يعتبر كافرًا بالجميع مشابِهًا لليهود الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

فيجب علىٰ المسلمين ألَّا ينخدعوا في تخذيلهم، وأن يطالبوهم بالعمل بجميع وحي اللَّه من كتاب أو سنة، وإذا سمعوا من يغررهم

بقراءة هذه الآية: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] فليطالبوه بقراءة غيرها والعمل به، وأن يستيقنوا أنه لا يجبر نقص قوتنا المادية إلا القوةُ الروحية، كما قال عمر بن الخطاب في وصيته لجيوشه: «إنكم لا تقاتلون عدوكم بكثرة عدد ولا عدة، وإنما تقاتلونه بطاعة اللَّه، فإذا استويتم معهم في معصية اللَّه غلبوكم؛ لأنهم أكثر منكم وأقوىٰ». هذا معنىٰ كلامه رضي الله عنه، واللَّه يقول: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ١٢٠﴾ [الأنعام]، فأصحاب المعاصي محرومون من نصر اللَّه ومدده، فكيف بالمشركين باللَّه المعطلين لأحكامه؟! وما أجمل قول ابن القيم رحمه الله:

هــذا وإن قــتال حــزب اللَّــه ... بالأعمال لا بكـتائبِ الـشجعانِ

واللَّــهِ مـا فـتحوا الـبلاد بكثـرةٍ ... أنــىٰ وأعــداهُم بــلا حــسبانِ

والمقصود أن المسلمين المؤمنين يجب عليهم أن يأخذوا درسًا وعبرةً يعملون بها من الخطة العسكرية المحمدية في غزوة «أحد»، وما أعقبها من الدهاء العسكري المحمدي، وأن يقتدوا به وبمن معه من الصحابة الكرام الذين استجابوا له مع شدة ما أصابهم من البأساء والضراء؛ دون أن ينتظروا المزيد من قوة أو كثرة، مع ضعفهم المادي أمام أعدائهم، بل رفض ﷺ أن يتبعه اليوم من لم يشاركه بالأمس اكتفاءً بالقلة الصابرة المحتسبة التي يقول قائلها:

وعَدَنا أبا سفيان وعدًا فلم نجد ... لمـيعاده صـدقًا ومـا كـان وافـيا

فأُقــسمُ لــو وافيتــنا فلقيتــنا ... لأُبْتَ ذميمًا وافـتقدت المواليا

وخشيةً أن يصاحبهم من هو متأثر بالتخذيل.

وكذلك يجب الاقتداء به ﷺ في مواصلة العزوات والسرايا دون أن تلين له قناة، أو يتأثر هو وأصحابه بما جرىٰ عليهم من النكبة الفظيعة، بل لم يكتف بدعوة كفار العرب وغزوهم حتىٰ راسل عظماء

الملوك للدول الكبيرة، وتشبث بدولة الروم الكبيرة بإرساله السرية التي جالدت قواتها في «مؤتة»، ثم غزاهم بنفسه وعسكر في «تبوك» عدة أسابيع لاستفزازهم، فتركوه لما رأوا من فعل سريته المباركة، ولدهاء ملكهم الذي يعرف حقيقة النبوة.

كل هذا عمله ﷺ قبل أن تدين له العرب، وقبل فتح مكة، سوىٰ غزوة «تبوك» فإنها بعد الفتح، فكيف يخاطب أعاظم الملوك بمنطق التهديد «**أسلم تسلم**»[1]، دون انتظاره المزيد من القوة والكثرة أو الوحدة العربية، كما يزعمه الماديون الذين نسوا حظًّا مما ذكروا به؟! هكذا يجب علىٰ المسلمين أن يحصروا اقتداءهم به ﷺ ولا ينطلي عليهم تخذيل المرجفين أو المنخدعين بهم ممن جعلوا من آية: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ أداة تثبيط عن الجهاد وإقامة الجهاد، حتىٰ تستكمل القوة المكافئة لقوة العدو، فإن هذا قد يكون مستحيلًا كما هو الواقع، وإنما تعني الاستعداد بالمستطاع وعدم التفريط.

واعلم أن زيادة الإيمان الثابتة عند أهل السنة إنما تحصل بقوة الإذعان للَّه، والثقة بوعده، وقوة استشعار مشاهد يوم القيامة، فإن المؤمن يندفع بِهذا إلىٰ المسارعة بالطاعات، والمنافسة في التضحية والجهاد طلبًا لرضوان اللَّه، وينزجر عن جميع المعاصي خوفًا من اللَّه واتقاءً لسخطه.

وإذا ازداد الإيمان في قلب المؤمن، لم يعُد يستحضر في قلبه إلا الخوف من اللَّه، وإذا عرضت له أسباب الخوف لم تجد إلىٰ قلبه سبيلًا. ومن هنا فإن المؤمن القوي الإيمان يستهين بكل قوة تعترض سبيله إلىٰ إرضاء اللَّه ﷻ، فلا يكون جبانًا إلا في نادر الأحوال؛ لأن الشجاعة وصف ثابت للمؤمنين، وإذا شاركهم فيها غيرهم فإنه لا يبلغ مداهم ولا يدرك شأوهم.

---

(١) رواه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

والباحث في علل الأشياء يجد أن علة الجبن هو الخوف من الموت والحرص علىٰ الحياة، وكل منهما لا يتسع لهما قلب المؤمن كقلب غيره من الكفرة، قال سبحانه في الكلام عن اليهود: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ [البقرة: ٩٦]. ولا تزال الدنيا تشهد والتاريخ يسطر بطولات الجيوش الإسلامية علىٰ صحائف من نور.

وقوله سبحانه في الآية (١٧٦) من السورة:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْـًٔا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾:

فيه تسلية ومواساة لرسوله وصحابته، وتطمين لقلبه ﷺ مما يساوره من الحزن والأسىٰ علىٰ ضلال من يريد هدايتهم، وشقاء من يريد سعادتهم، خصوصًا المنافقين الساعين غاية جهدهم في العمل علىٰ ردة من استطاعوا ردته من المسلمين، والمتمنين خذلان المسلمين.

وجميع الكفار والمنافقين يسارعون في الكفر بالعمل علىٰ نصرته وإيذاء المسلمين، وصدهم عن سبيل اللَّه.

والآية عامة في جميع أنواع الكافرين والمنافقين، فاللَّهُ ينهىٰ رسوله وأتباعه عن الحزن علىٰ ما يفعلونه من المسارعة إلىٰ الكفر؛ لأنه لا يتوقع حصول الحزن والضرر منهم، فكل مخططاتهم ودسائسهم فاشلة سيحبطها اللَّه ﷻ. ولكن الرسول ﷺ ـ لشفقته عليهم ـ كان يحب أن يسلموا حتىٰ تعمهم الرحمة والهداية، وكان يأسف لعنادهم وإصرارهم علىٰ الكفر، ومناصبة الإسلام بالعداوة، فهذا مثار حزنه ﷺ الذي نهاه اللَّه عنه في هذه الآية وغيرها من الآيات كقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْـًٔا﴾ يعني أن ما يقومون به من محاربتك وأتباعك المسلمين هو في الحقيقة محاربة للَّه، وهم

أضعف وأحقر وأعجز من أن يحاربوا اللَّه الذي لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض، فنياتُهم السيئة بالمؤمنين، ومخططاتهم ضد الرسالة المحمدية تعود عليهم بالضرر والوبال، وينعكس مقصودهم عليهم، ويعود كيدهم في نحورهم؛ فإن تعليق نفي الضرر باللَّه ﷻ إعلام صريح بأن مضارة المؤمنين بمنزلة مضارة اللَّه سبحانه. وهذا مزيد تسلية وتفريح وإيناس للمؤمنين.

قال المهايمي في هذا المعنىٰ: «أي: لن يضروا أولياء اللَّه؛ لأنهم يحميهم اللَّه، فلو أضروهم لأضروا اللَّه بتعجيزه عن حمايتهم، ولا يمكنهم أن يعجزوه شيئًا، بل يريد اللَّه أن يضرهم الضرر الكلي» اهـ باختصار.

وقوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: هو كالبيان لكونهم لا يضرون اللَّه شيئًا، بل يضرون أنفسهم في تماديهم بالباطل، فهم علىٰ حالة من فساد الفطرة تحرمهم من جميع حظوظ الآخرة، والحظ هو النصيب.

فأوضحت الآية هذه أن مسارعتهم في الكفر هي من إمداد اللَّه لهم في الضلالة التي اختاروها واشتروها وتعوضوها بدلًا من الهداية، فقضت إرادة اللَّه بِهذه الحال ألَّا يهديهم إلىٰ الإيمان حتىٰ لا يكون لهم نصيب في الآخرة.

وقوله سبحانه في الآية (١٧٧) من السورة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾:

فيه تكرار وتأكيد لما مضىٰ، وتعميم لما يُظَنُّ فيه التخصيص في الآية السابقة التي فيها حكم المسارعين في الكفر. والآية عامة فيمن اشتروا الكفر بالإيمان، أي اختاروه ورضوا به بديلًا من الإيمان.

في كلتا الآيتين السابقتين ذكر لعدم إضرار المشركين بالنبي ﷺ

والمؤمنين الإضرارَ المانع لهم من السير قدمًا في الزحف المقدس لتبليغ الرسالة، أما الأضرار البسيطة التي لا تعرقل مسيرتهم فقد تكون كما قال سبحانه: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾ [آل عمران: ١١١].

وقوله سبحانه في الآية (١٧٨) من السورة:

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾:

يقول اللَّه سبحانه لنبيه ﷺ: لا يحسبن الذين أصروا علىٰ الكفر أن إمهالنا لهم، وإفساحنا في أعمارهم لإرادة الخير بهم، بل إن هذا الإمهال في العمر والإفساح في الرزق ليزدادوا إثمًا علىٰ إثم، فتزداد عقوبتهم في الدنيا والآخرة، فيكون عذابهم شديدًا هنا وهناك.

وفي بيان أن هذا الإمهال شر للكافرين فيه تسلية للمؤمنين - أيضًا -، وتفهيم لهم حتىٰ لا يغتروا بما عند المشركين من النعيم والرفاهية والقوة التي يتسلطون بها علىٰ المسلمين، فيتضح لهم أن هذا كله استدراج وامتحان، ليزدادوا بذلك إثمًا فيزدادوا عقوبةً وإهانة، ولذا قال سبحانه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي عذاب ذو إهانة لهم مقابلةً لما يفترون به من الباطل.

و قوله سبحانه في الآية (١٧٩) من السورة:

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾:

يوضح اللَّه عنايته بالعقيدة الإسلامية، وصيانتها من الغش والدجل، وإبراز أهلها الذين طيبتهم بالصدق والإخلاص، وتمييزهم عن أعدائهم المنافقين الذين خبثت نفوسهم بالشرك والكفر الدفين، حتىٰ لا يظلوا يخدعون المؤمنين باسم الدين؛ لأن الاستواء في الأعمال أوقات

الرخاء والنصر يكون مدعاةً للاشتباه والالتباس، ولهذا يقول سبحانه: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ﴾ أي ليدع المؤمنين علىٰ ما هم عليه من اختلاطهم بالمنافقين، وأن يترك أمر المنافقين مشكلًا، بحيث يكون مجراهم مجرىٰ المؤمنين، بل لابد أن يكشف اللَّه المؤمن من المنافق بما اقتضت حكمته من الحوادث والوقائع المميِّزة لهؤلاء من هؤلاء، سواء أكان المقصود في ﴿أَنتُمْ﴾ المؤمنين أم الكافرين.

وقال قتادة والسدي وابن عباس وجمع من المفسرين: إن المقصود في قوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ يعني الكفار المنافقين. فيكون المعنىٰ ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيها الكفار من اختلاطكم بالمؤمنين. وظاهر الآية يقتضيه، أي لابد أن يكشف هذا من هذا بتكليفكم أصعب التكاليف، وإحداث الوقائع والهزائم المؤلمة التي لا يصبر عليها إلا المخلصون للَّه والصادقون معه في بذل الأموال والأرواح في سبيله؛ ليكون هذا معيارًا حقيقيًّا للصدق في العقيدة والنقاء في الضمائر، فيعلم بعضكم ما في قلب بعض من الغش أو النصح بما يبدو من أقواله وأفعاله، لا من جهة معرفة ما في الصدور، فإن هذا مما استأثر اللَّه بعلمه، ولكن الأعمال والأقوال شاهدة علىٰ ما في الضمائر من حسن العقيدة أو خبثها، وبِهذا يتميز الخبيث من الطيب؛ فإن المصدقين بما جاء به محمد ﷺ قد اختلط مخلصُهم بمنافقهم، ومن الضروري لمصلحة الإسلام والمسلمين كشف الحقائق، ومن أجل ذلك أجرىٰ سبحانه هذا الامتحان والابتلاء، كالذي حصل في غزوة «أحد» فكشف اللَّه به المنافقين، وميز به المؤمنين المخلصين الذين صدقوا ما عاهدوا اللَّه عليه؛ فإن اللَّه سبحانه أجرىٰ في هذه الحادثة فوائد عظيمة ـ مضىٰ ذكرها ـ، وختمها بِهذه الآية الكريمة موضحًا سنته القويمة في عباده المؤمنين، وأنه لا يتركهم علىٰ ما هم عليه قبل حدوث الكارثة من اختلاط مؤمنهم بمنافقهم، بل يحدث فيهم ما يميز خبيثهم من طيبهم، فتنكشف الحقائق بالرزايا والنوائب، وهذا من

حسن تربيته لهم، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾؛ لأن إطلاع البشر علىٰ الغيب يُبطل حكمة الإيمان والتكاليف، ويجعلها متساويةً في الهدف والأفعال.

ولو اطلع الناس علىٰ الغيب لما استطاعوا عمل شيء أبدًا، ولتحطم كيانهم، وانقطعت آمالهم، فلم يحصل منهم إعمار للأرض، ولا خلافة لهم فيها، وبالتالي تتعطل دار الجزاء والعقاب.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي يختار ويصطفي من رسله من يشاء، فيمتحن عباده علىٰ أيديهم بتكاليف الإسلام ومشقة الجهاد، ليتميز المخلص من المنافق بالصدق في التضحية وبذل المجهود، ويطلع ـ أيضًا ـ مَن اختاره مِن رُسله علىٰ نفاق المنافقين، وغش المبطلين، وضعف قلوب الضعفاء، ونحو ذلك من معجزات النبوة.

ولا يمكن أن يطلع اللَّه جميع المؤمنين علىٰ معرفة ما في صفوفهم من الدخيل، فيستغنون بذلك عن نبيهم، وتدب فيهم الفوضىٰ بين مؤيد ومعاند، فسبحان اللَّه وما أعظم حكمته! ولهذا قال: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، يعني: صدقوهم بما جاؤوكم به من عند اللَّه، وبما أخبروكم من المغيبات التي لا يمكنهم معرفتها إلا بوحي اللَّه؛ تصديقًا لا تستريبون فيه. وقد جمع اللَّه رسله بِهذا الأمر دون تخصيص نبينا ﷺ، تنبيهًا علىٰ أن نبوات جميع الأنبياء واحدة.

وقوله تعالي: ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فيه تقييد اللَّه للأجر العظيم، الذي أوله النصر والسيادة في الدنيا، ثم الفوز العظيم في الآخرة، تقييده بالإيمان الذي ذكرنا تفصيله مرارًا، وبالتقوىٰ التي هي اتقاء ما يسخطه ويجلب عقوبته، وكثيرًا ما يقرن اللَّه الإيمان بالتقوىٰ لاستلزام كل منهما للآخر، ولكون التقوىٰ من ضروريات صحة الإيمان.

وقوله سبحانه في الآية (١٨٠) من السورة:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٨٠﴾:

فيه مناسبة بديعة لما تقدم، وذلك أن اللَّه سبحانه حث بأكمل وجوه التحضيض علىٰ بذل الأرواح في سبيل اللَّه في الآيات السابقة، ثم أعقبها بِهذه الآية حضًا علىٰ بذل الأموال في سبيله، وبين الوعيد الشديد للذين يبخلون بما رزقهم اللَّه من فضله العظيم في المال والعلم.

قد فسروا البخل الشرعي بمنع البذل الواجب من الرزق أو المعرفة.

وقد ذكر المفسرون أنواعًا متفاوتةً من البخل، والصحيح أن الوعيد الشديد يشمل جميع أنواع البخل.

ولما نفىٰ اللَّه الخير عن البخلاء والمبخول به، قرر حصول أفظع أنواع الشر فقال ﷻ: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، أي سيلزمهم عقاب بخلهم، وهو أن يطوقهم اللَّه في أعناقهم ما بخلوا به، وذلك يوم القيامة أو في البرزخ ـ أيضًا ـ، ثم في يوم القيامة، وهذا جزاء مناسب لبخلهم في بذل ما أوجب اللَّه عليهم.

وهذا الطوق سبب لعذابهم؛ سواء أكان من نار أو من حيات، كما جاء النص بِهذا وهذا، فإنهم سيلزمون ما بخلوا به لزوم الطوق، وهو طوق من نار أو طوق من حيات؛ فقد قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٤ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ۝٣٥﴾ [التوبة].

وروىٰ البخاري في باب مانع الزكاة في «صحيحه» عن النبي ﷺ: **«من آتاه اللَّه مالًا فلم يؤد زكاته؛ مُثِّل له يوم القيامة شجاعًا أقرع له**

زَبيبتان، يطوِّقُه يوم القيامة ثم يأخذ بلِهْزِمَتَيهِ ـ أي شِدقيه ـ، ثم يقول: أنا مالُك، أنا كنزك». ثم تلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[1].

وروىٰ الإمام أحمد والنسائي عن ابن عمر مثله مرفوعًا.

كما روىٰ ـ أيضًا ـ هو والترمذي والنسائي وابن ماجه، عن عبداللَّه بن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يمنعُ عبدٌ زكاةَ ماله، إلا جُعل له شجاعٌ أقرع يتبعه، يفرُّ منه، وهو يتبعه، فيقول: أنا كنزك**». ثم قرأ عبداللَّه مصداقه في كتاب اللَّه: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾. قال الترمذي: حسن صحيح[2].

ووردت أحاديث غير هذا في هذا المعنىٰ.

والشجاع: الحية، أو الحيات، أو الدقيق من الحيات الذي هو أجرؤها؛ كما في «القاموس» وشرحه.

وقد فسر العلماء البخل الذي جاء وعيده هنا بأنه منع الواجب من الإنفاق علىٰ نفسه وعلي عياله؛ إنفاق المطعم والكسوة، وعلىٰ أقاربه الذين تلزمه مؤونتهم، وعلىٰ البخل بأنواع الزكاة المذكورة أبوابها، وعلىٰ البخل بدفع ما يحتاجه المسلمون لدفع عدوهم.

ولما كان البخل قرينًا للجبن والخوف صارت عقوبته غليظةً وصاحبه مذمومًا، وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ: «**شرُّ ما أُوتي العبد شُحٌّ هالع أو جُبنٌ خالع**»[3].

ثم أخبر اللَّه سبحانه أن جميع المخلوقات مِلكه، وترجع إليه، وهذا مما هو معلومٌ بالضرورة، فقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي أن له جميع ما يتوارثه الناس من كل مملوك، وهو

---

(١) رواه البخاري (١٤٠٣).
(٢) رواه التِّرمذي (٣٠١٢)، والنسائي (٢٤٤١).
(٣) رواه أبو داود (٢٥١١).

المتصرف فيه حسب سنته الكونية وعلمه الأزلي، فهو الذي يجعله لا يستقر بيد المالك، كأن يَنكبُه به فيعود مفلسًا، وإما أن ينقله ميراثًا لغيره بإهلاكه، وإهلاك من يرثه، ويجعله ميراثًا لأعدائه.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ لا يخفىٰ عليه شيء من دقائق الأعمال، ولا ما تبطنه الصدور من الأهواء في جمع المال والتصرف به، وهو المجازي علىٰ ذلك.

وقوله سبحانه في الآيتين (١٨١، ١٨٢) من السورة:

﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾:

لما انتهىٰ الاستعراضُ القرآني في الستين آيةً الماضية معركةَ أحد وملابساتها، عاد إلىٰ يهود، أمة الفساد والإفساد، وبيان سوء مواقفهم وقلة أدبهم.

ويروىٰ في سبب نزول الآيات أن أبا بكر دخل بيت المِدراس، فوجد فيه أناسًا كثيرين من اليهود قد اجتمعوا علىٰ طاغية من علمائهم يقال له: «فنحاص» ومعه حبر يقال له: «أشيع»، فقال له أبو بكر: ويحك ـ يا فنحاص! اتق اللَّه، وأسلم، فواللَّه إنك لتعلم أن محمدًا رسول من عند اللَّه، وقد جاءكم بالحق من عنده؛ تجدونه عندكم مكتوبًا في التوراة والإنجيل. فقال فنحاص: واللَّه ـ يا أبا بكر ـ ما بنا إلىٰ اللَّه من حاجة أو فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنيًّا ما استقرض منكم كما يزعم صاحبكم، ينهانا عن الربا ويعطينا! ولو كان غنيًّا ما أعطانا الربا.

فغضب أبو بكر غضبةً للَّه فضربه علىٰ وجهه ضربًا شديدًا وقال: والذي نفسي بيده لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك ـ يا

عدو اللَّه ـ؛ فكذِّبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين.

فذهب فنحاص إلىٰ النبي ﷺ وقال: يا محمد، أبصر ما صنع صاحبك فقال الرسول ﷺ: «**ما حملك علىٰ ما صنعتَ يا أبا بكر؟**»، قال: يا رسول اللَّه، إنَّ عدو اللَّه قال قولًا عظيمًا، زعم أن اللَّه فقير وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبتُ للَّه مما قال، فضربت وجهه. فجحد فنحاص، وقال: ما قلت ذلك. فأنزل اللَّه فيما قال فنحاص هذه الآية ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾.

ولما كان مثل هذا القول في غاية البشاعة والشناعة، سواء أكان صدوره عن اعتقاد أو استهزاء بالرسول أو القرآن، أشار اللَّه إلىٰ وعيده الشديد لمن يقول هذا القول، فقال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾، أي: سنكتب ما قالوه في صحائف الحفظة. والمقصود من الكتابة أن كلامهم لا يلغىٰ، ولا يزول عنهم إثمه؛ لأن فيه طعنًا باللَّه، وطعنًا برسالاته، فيكتب قولهم في الصحائف التي تكتب بها أعمالهم، لينشر خزيهم يوم القيامة، فيعلم الخلائق شدة تعنتهم، وفرط غرورهم، وقبح مقابلتهم لنعم اللَّه عليهم.

وجاء ذكر الكتابة بلفظ الاستقبال دون لفظ الماضي(١)، لتضمنه معنىٰ المجازاة علىٰ ما قالوا. كما أنه جاء بصيغة الجمع للإشعار بأن هذا القول قول لجميع اليهود، أو لبعضهم، وليس لفرد واحد كما ورد الأثر السابق عن فنحاص، بل هو للجميع أو لمجموعة منهم كانوا يعتقدونه، أو يرضون به، ويقرونه، وكذلك الأمر في قوله سبحانه: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ جاء التعبير باسم الجميع، وإن كان مِن فعل آبائهم؛ وذلك لأن اللاحق راضٍ بفعل السابق، ولم يتبرأ من فعله.

وقد ذكر اللَّه قتلهم الأنبياء ليجمع بين شنيع قولهم وفعلهم، ويبين

---

(١) أي: قال: «سنكتب»، ولم يقل: «كتبنا» أو «كُتب».

لنا أن من اجترأ علىٰ قتل الأنبياء لا يتورع عن هذا القول البشع، وقولهم هذا شبيه بقولهم ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]. ولا شك أن هذه الأقوال الشنيعة إذا ضمت إلىٰ أفعالهم الشنيعة؛ فإنهم لا يستحقون إلا أشنع العذاب، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ المحرق لأجسامهم إحراقًا متجددًا، كلما احترقت أبدلهم اللَّه غيرها لتحترق.

وهذا القول يقال لهم عند الموت وفي المحشر جزاء لهم علىٰ ما فعلوا وما قالوا، وما أذاقوا المؤمنين من صنوف العنت.

وقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢﴾، أو تنبيه إلىٰ سبب العقوبة التي توعدهم بها وهو ما قدمته أيديهم من الإجرام القولي والفعلي من قتلهم الأنبياء، وانتقاصهم للَّه بالافتراء عليه، ونسبة ما لا يليق لجلاله مما لا يرضاه بعض المخلوقين.

ونسب اللَّه الجرائم إلىٰ أيديهم علىٰ سبيل التغليب؛ لأن الأيدي تزاول أكثر الأعمال والجرائم، فنسب اللَّه كل عمل إليها، وأجرىٰ توبيخه لهم، ووعيده بعذابهم علىٰ ما قدمته أيديهم، وفي هذا تمهيد لفظي ومعنوي لنفي اللَّه الظلم عن نفسه؛ لأنه غير محتاج إلىٰ ظلم عبيده، بل هو الغني المغني.

وإنما يكون من مقتضىٰ عدله معاقبة المذنبين لجرأتهم عليه، وانتقاصهم لشأنه، ولا يليق بجلاله تركهم يتساوون مع المحسنين.

وقد جاء نفيه سبحانه للظلم عن نفسه بصيغة الكثرة، ليدل بالضرورة علىٰ نفي القليل، وذلك بقوله: ﴿لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾؛ فالذي يظلم لا يظلم إلا للانتفاع بالظلم، فإذا ترك الظلم الكبير مع زيادة نفعه، فتركه للقليل أولىٰ.

وهذا في حق من يجوز عليه النفع والضرر من المخلوقين، فكيف برب العالمين الذي لا تنفعه طاعة الطائعين ولا معصية العاصين والبطش

بهم؟.

📖 **وقوله سبحانه في الآية (١٨٣) من السورة:** ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣﴾:

في هذه الآية الكريمة بيان لتكذيب اليهود أنفسهم بأنفسهم، لما زعموه من القول الوقح علىٰ اللَّه بأنه فقير وهم عنه أغنياء، فقد وصل بهم تعنتهم إلىٰ أن أظهروا حقيقةً خفيت عندهم، لا يعلمها المسلمون، فقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ﴾، أي: أوصانا ﴿أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾.

فاعترافهم هذا يناقض قولهم القبيح في حق اللَّه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾؛ لأن الفقير لا يسلط النار لتأكل القربان المقرب إليه، ولا يسلطها علىٰ الغنائم الحربية العظيمة لتأكلها.

ولقد كان أكل النار للقربان في ذلك الزمان دليلًا علىٰ قبول اللَّه له، ودليلًا علىٰ صدق من قرَّبه في نزاعه وخصومته.

فقال اليهود: إن جئتنا - يا محمد - بمثل هذا صدقناك وآمنا بك، وهذا من بعض مغالطتهم وتحدياتهم، ولكن اللَّه أعمىٰ بصيرتهم، فطلبوا ذلك ليكون تكذيبًا منهم لأنفسهم.

واعلم أن العهد أخص من الأمر؛ لأنه - أي العهد - يراد به كل ما تطاول زمنه وبقي في غابر الزمان.

والقربان: ما يتقرب به إلىٰ اللَّه من ذبح الحيوان المباح أكله، وقد كان أكل النار للقربان من معجزات الأنبياء السابقين.

واقتراحهم هذا علىٰ النبي ﷺ كان من باب التعجيز والمعاندة، ولهذا أخبرنا سبحانه أنه لو نزل عليهم ما اقترحوه؛ لما آمنوا.

وقد رد اللَّه سبحانه عليهم وأكذبهم في اقتراحهم، وكشف تزييفهم

بأنهم قد جاءتهم رسلهم بالبينات، وبالذي اقترحوه من القربان الذي تأكله النار، فلم يؤمنوا بهم، ولم يكتفوا بتكذيبهم، بل أوقعوا بهم شر الفعال حتىٰ قتلوهم.

والمعنىٰ أن هذا الاقتراح منكم ـ معشر اليهود ـ تعلل وتعنت، ولو جاءكم بما اقترحتموه لتعللتم بغيره، فقال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾. ولما كان الاقتراح لا غاية له عند المقترحين سوىٰ العناد والمماطلة اقتضت حكمة اللَّه ألَّا يجيب المقترحين إلَّا إذا أراد إهلاكهم كقوم صالح أو نحوهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يعني: في دعواكم أن الإيمان يلزم بإتيان البيان والقربان؛ أو إن كنتم صادقين أن اللَّه عهد إليكم أنكم لا تؤمنون بي؛ لأني لم آمركم بإحراق القرابين.

وهم قد سلكوا طريق الإفك والمكابرة؛ لأن الذي اقترحوه مقصور في التوراة علىٰ ما قبل عيسىٰ ومحمد عليهما السلام، فإن اللَّه أوجب عليهم الإيمان بهما بدون ذلك.

وقد أنكر بعض المفسرين ما في التوراة، وزعم أنه من خرافاتهم وأباطيلهم، ولكن لا وجه للإنكار؛ لأن القرآن ذكره بقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾.

واليهود ـ عليهم لعائن اللَّه ـ قد رفضوا مكرمة اللَّه باقتراحهم ما أبطله، وإباحة أكل القرابين والغنائم، ولأنهما من خصائص هذه الأمة التي أعطاها اللَّه لنبيها، كما ورد في الحديث الصحيح: «**أُعطيتُ خمسًا لم يُعطَهُنَّ أحدٌ من قبلي...**»[(١)]، فذكر منها حل الغنائم والتي كانت محرمة علىٰ من قبله، فكانت تأتيها نار من السماء تأكلها، فإن انتقصت هذه الغنائم بالغلول لم تأتها النار، وكان أكل النار لها علامةً علىٰ الإخلاص والوفاء.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

وكانت هذه السنة في قبول الغنائم بأكل النار لها، حتىٰ لا يجاهدوا طمعًا في المغنم، بل تنفيذًا لأمر اللَّه.

وقوله سبحانه في الآية: (١٨٤) من السورة: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾:

هذا خطاب من اللَّه لنبيه ﷺ وهو علىٰ سبيل التسلية عما اتضح من كذب اليهود وتعنتهم ومكابرتهم في تحريف الكلم عن مواضعه، فلذلك أخبر اللَّه نبيه ﷺ بأن هذا دأب الكفار في غابر القرون، وهذه هي معاملتهم لأنبيائهم بأنواع الجحود، وقد جاؤوهم بما يوجب الإيمان من البينات التي هي دلائل واضحة وشاهدة علىٰ صدقهم بأنهم رسل اللَّه إليهم.

﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ جمع زبور، وهو الكتاب، يقال: زبرت أي كتبت.

وقيل: إن اشتقاق الزبور من الزَّبْرة، وهي قطعة الحديد التي تركت علىٰ حالها، ولعل هذا بعض معانيها.

والأصح تسمية الكتاب زبورًا لكونه زاجزًا لمن أتاه. فاشتقاقه من زبره، أي: زجره. وقد سمي كتاب داود عَلَيْهِ السَّلَامُ «زبورًا» لكثرة زواجره ومواعظه.

وقد أتىٰ اللَّه تعالىٰ بذكر الكتاب بعد الزبور - وهو الكتاب - للتأكيد، أو لاختلاف الجنس، كما يدل علىٰ ذلك وصفه: ﴿ٱلْمُنِيرِ﴾، أي: الواضح المعاني، ولعل الكتاب المنير هو أشرف الكتب، وأحسن الزبر، فلذلك حسن عطفه علىٰ الزبر، ووجه زيادة الشرف فيه لكونه مشتملًا علىٰ جميع أحكام الشريعة، وقيل: بل لبقائه مدىٰ الدهر، واللَّه أعلم.

والمقصود تسلية النبي ﷺ بإخباره أن هذا التكذيب من اليهود ليس مختصًا به من بين إخوانه الأنبياء، بل إنهم سلكوا هذا المسلك مع كل الأنبياء، فصبروا علىٰ تكذيبهم، واحتملوا ما نالهم من إيذاء

في سبيل تأدية الرسالة، فكن ـ يا محمد ـ متأسيًا بهم سالكًا طريقتهم. ومثيل هذه الآية كثير في القرآن الكريم.

وقوله سبحانه في الآية (١٨٥) من السورة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾:

الزحزحة: التنحية والإبعاد، فتكرار الزح يعني الجذب بعمله، ويقال للمكان البعيد: زحزح.

والفوز: النجاة من المحذور، والظفر بالمأمول.

والغرور: كل ما لا يثبت عند الامتحان، ولا يصح التعويل عليه في العواقب، بل يغر صاحبه بشتىٰ المغريات الخادعة الزائلة من مال أو جاه أو شهوة أو شيطان، وهو رأس الغرور. وسميت الدنيا متاع الغرور؛ لأنها زائلة، وهي حقيقة ركزها اللَّه في نفوس المؤمنين.

فالحياة محدودة وزائلة مهما طال فيها الأمد، وكثر فيها المال، وعظم الجاه، وكل نفس فيها ذائقة الموت، وستتجرعه سواء بالقتال أو المجازفات، أو كان ذلك علىٰ الفرش في القصور وأواسط اللذات والحبور، فالموت مصير كل حي، وهو أول عدل الآخرة، عدل قضت به رحمة اللَّه، بحيث لا يبقىٰ رفيع ولا وضيع، ولا زعيم ولا سوقي، ولا رئيس ولا مرؤوس، كما فصلت ذلك في تفسير: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

وإذ يقرر اللَّه هذه الحقيقة في الآية هذه، يعلم عباده بمصيرهم المحتوم الذي لا مندوحة عنه ولا مفر منه، وهو الموت الذي يعقبه إما فوز عظيم بروضات الجنان وتنحية ونجاة من النيران، وإما حرمانهم من جنات الخلد والنعيم فيها، وقذفهم في نار وقودها الناس والحجارة.

هذه هي القيم التي ينبغي أن يجعلها المسلم نصب عينيه، ليستصغر كل شيء عندها، ويستهين بكل شيء في سبيلها، ولا يغره عنها أي

نوع من أنواع الغرور، فهو لا يدري متىٰ يوافيه الأجل، فليحرص علىٰ تحصيل ما ينجيه بعده من الأهوال التي لا طاقة له بها: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. فتوفية الأجور النهائية التي لا تتخلف، ولا ينقص منها أو يزاد فيها مثقال ذرة يكون يوم القيامة: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر].

هذا؛ وإن التوفية لجزاء الأعمال تقتضي التكميل؛ لأن ما يجريه اللَّه من جزاء المطيعين، وعقوبة العاصين في الدنيا، وفي البرزخ هو شيء ناقص ومنقطع. أما الجزاء الذي يكون يوم القيامة، فهو جزاء كامل ودائم ومحكوم عليه بالخلود.

ويوم القيامة هو اليوم الذي يحصل فيه توفية الأجور، وتوفية العقوبات، ولكن خص اللَّه الأجور بالذكر لشرفها، كما قال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ.

وحيث إنه لا مقصود للإنسان وراء هذين الأمرين إلا الخلاص من عذاب النار، وتحصيل نعيم الجنة، قال اللَّه سبحانه: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾، يعني من حصل له التنحية والإبعاد عن النار دار الشقاء السرمدي، وحَظِي بدخول الجنة، فقد حصل علىٰ الفوز الذي هو نيل حظوظه من الخيرات، وسلامته من الشرور. والتعبير بالزحزحة يفيد أن من لم يبعد عن النار وأُدخلها لتطهيره من ذنوب اقترفها لم يحصل علىٰ الفوز كذلك.

والآية الكريمة تشعرنا بحقارة الدنيا، وأنها لا تساوي شيئًا بالنسبة لأدنىٰ نعيم الآخرة كما قال النبي ﷺ: «**لَموضعُ سَوطِ أحدكم في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها**»[1]، ولهذا ختم اللَّه الآية بقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

والمتاع: ما يستمتع به من الآلات والأموال والشهوات الزائله.

---

(١) رواه البخاري (٢٨٩٢)، ومسلم (١٨٨٠) ـ مختصرًا ـ.

وفسرها الحسن وعكرمة بخضرة النبات، ولعب البنات، يلمع كالسراب ويمر كالسحاب.

وقال ابن عرفة: الغرور ما ظاهره حسن، وباطنه مجهول أو مكروه.

وبعض العلماء شبه الغرور بالتدليس الذي يحصل من البائع للمشتري حتىٰ يخدعه بما لا ينفعه نفعًا يساوي ما دفعه.

وعلىٰ هذا يكون المعنىٰ: ما نفع الحياة الدنيا إلا نفع الغرور الذي يورث الغفلة عن التأهب للآخرة، فيحرم صاحبه من حظوظه الصحيحة، وفوزه العظيم.

وقوله سبحانه في الآية (١٨٦) من السورة: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾:

هذه تسلية أخرىٰ للمؤمنين، وتوطين لهم علىٰ تحمل الشدائد بإخبارهم عما سيقع من أنواع الابتلاء والامتحان بالمصائب، ليستعدوا لما يقع عليهم منها فيصبروا ويثبتوا؛ لأن من استعد لشيء فإنه يوطن نفسه علىٰ وقوعه، بخلاف من تفاجئه المصائب والنوائب.

وقد جاء تقديم البلوىٰ في الأموال علىٰ البلوىٰ في النفوس علىٰ سبيل الترقي؛ لأن النفوس أغلىٰ وأشرف، أو علىٰ سبيل الكثرة؛ لأن أكثر الرزايا تكون في الأموال.

وفائدة الابتلاء صقل النفوس وتربيتها علىٰ الثبات، واستسهال الصعاب لتقوم بالزحف المقدس في هذه العقيدة التي تغلو وتعلو قيمتها عند أهلها بقدر ضخامة الفتنة والبلوىٰ والتضحيات في سبيلها.

وبقدر ضخامة الفتنة والبلوىٰ ـ أيضًا ـ تعلو نفوس أصحاب العقيدة ويزداد إيمانهم، ويعرفون حقيقة وجودهم وشرف رسالتهم،

ويدركون مدىٰ اصطدام دعوتهم بالشهوات الداخلية والخارجية، فيزداد صمودهم وينقلب أعداؤهم مسلمين أو مسالمين.

وهذه سنة اللَّه في تربية عباده؛ كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة]، وقوله تعالىٰ: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد].

ولا يزال المسلمون يتعرضون لأشد أنواع البلوىٰ علىٰ أيدي الطغاة من الكفرة وأذنابهم الذين يصبون جام غضبهم علىٰ دعاة الإسلام المخلصين بقصد محو الإسلام من الوجود. فقد أرشد اللَّه المسلمين بهذه الحالة إلىٰ الصبر مع التزام التقوىٰ بعدم مداهنة هؤلاء الحاقدين، وعدم الركون إليهم؛ فقد مزج الصبر بالتقوىٰ حتىٰ لا يجر الصبر إلىٰ ما يمس العقيدة من التساهل علىٰ حسابها.

والمقصود من الصبر هو الحلم والأناة اللذان فيهما تأليف للدخول في الدين من الغفران الذي يكسب المودة، ويجعل الكريم الغالط يراجع عقله فيتراجع عما اندفع فيه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤]، فليس كل مؤذٍ لئيمًا، فإن الكريم قد يندفع إلىٰ الإيذاء بغرور وانخداع أو بتعصب تقليدي، فإذا قوبل بالرفق والحسنىٰ تأثرت نفسه الطيبة فاستحسن الإسلام أو سالم أهله.

وقوله سبحانه: ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾: فالعزم: الإمضاء للأمر بعد التروي والتنقيح. وعزم الأمور: ما يجب العزم عليه من الأمور التي يتروىٰ فيها؛ لأنه يكون أحسنها وأشدها، ومن أقوىٰ معزومات الأمور ما يحصل بعد الاستخارة والمشاورة، أي استخارة اللَّه ومشاورة الأقران المسلمين.

وقد غلط من زعم أن العزم والحزم بمعنىٰ واحد، لأن الحزم: هو جودة النظر في الأمر والحذر من عواقبه، وأما العزم: فهو قوة الإمضاء والتنفيذ.

يقول ﷻ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، فالمشاورة وما في معناها هي الحزم، وأما التنفيذ لما استقر عليه الرأي ـ بعد التأمل والمشاورة ـ فهو العزم.

واعلم أن الصبر ليس صفةً سلبية، يتكون منها الاستسلام والاستكانة، والتعلل بالقدر مع ترقب زوال المحن بدون عمل ومعالجة وجهاد كما يراه العجزة والجهال، الذين لا يعرفون حقيقة شرع اللّٰه ودينه.

وإنما الصبر صفة إيجابية أساسها الثبات في مقاومة الصعاب مع رباطة الجأش، واتخاذ الوسائل الملائمة للكفاح، فهو عدة الجهاد القوية التي تتحطم علىٰ صخرتها جميع قوىٰ البغي والظلم والضلال والانحراف.

هذا وإن لسيد قطب كلامًا جميلًا في تفسير هذه الآية ألفت الأنظار إلىٰ قراءته، فإني لا أريد الإطالة بنقله، ولا الجناية عليه باختصاره.

واعلم ـ أيضًا ـ أنه لا صحة للقول بأن هذه الآية منسوخة بآية السيف؛ لأن الآية هذه نزلت بعد وقعة أُحد، والتي هي بعد الإذن بالقتال، كما أنه لا تعارض أبدًا بين الأمر بالصبر علىٰ العموم والأمر بالقتال.

📖 **وقوله سبحانه في الآية (١٨٧) من السورة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾:**

لما ذكر اللّٰه سبحانه تكذيب أهل الكتاب لما جاء به محمد ﷺ من الهدىٰ ودين الحق، مع أعمالهم القبيحة وسوء أدبهم مع اللّٰه وإيذائهم لرسوله ﷺ، أخبر سبحانه عن أخذه العهد عليهم ببيان الكتاب وتوضيحه للناس توضيحًا تنكشف به المعاني؛ ليكون الكتاب

في غاية البيان فيفهمه عوام الناس، وتخشع قلوبهم لما نزل من الحق، وتزول عنها القسوة الناشئة عن الجهل والظلم.

ولكن لؤم طباع هؤلاء المشركين، وشدة حبهم للمادة، وتكالبهم عليها جعلهم يتنكرون لعهد اللّٰه ويطرحونه وراء ظهورهم ظهريًّا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾.

وهذا التعبير للمبالغة في طرحه وتركه وعدم الاهتمام به، عكس من كان فرحًا ومعتبرًا به، ومهتمًا بأمره، فإنه يجعله نصب عينيه، كما فعل السلف الصالح بالقرآن الكريم.

وأهل الكتاب نبذوا عهد اللّٰه؛ حيث لم يبينوا حقيقة دين الإسلام الذي جاء به موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام، وكتموا ما أخبرا به من أوصاف محمد ﷺ حسدًا من عند أنفسهم، وطمعًا فيما يحصلون عليه من المال جزاء هذا التحريف والكتمان، ولهذا قال اللّٰه تعالىٰ: ﴿وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾.

وقد تقدم ذكر الثمن القليل، وأنه قليل لحقارته بجانب وحي اللّٰه والثمرة العظيمة للعمل به والسير علىٰ نَهجه، وإن كان كثيرًا في كميته. ولهذا حكم اللّٰه بقلته في جميع المواضع من القرآن، وقال: ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ مبالغة في ذم ما اختاروه لأنفسهم وما باعوا به وجدانهم وضمائرهم، وما أخذوه ثمنًا خسيسًا لكتمان الوحي.

هذا وإن من أوجب الواجبات علىٰ علماء المسلمين ألَّا يوقفوا سير الإسلام بالتوقف عن مواصلة الدعوة، والإخلاد إلىٰ الراحة وترك بيان وحي اللّٰه للناس جميعًا ـ الكافر منهم بدعوته إلىٰ الإسلام، والمؤمن بإرشاده وهدايته ـ؛ وذلك علىٰ نهج الكتاب والسنة من فهم دقائق القرآن علىٰ ضوء السنة، والاعتناء بأصول العقيدة، وعدم الاضطراب في فهم معانيه؛ فإن الاختلاف مدعاة للتفرق والميوعة.

واعلم أنه لم يصب المسلمين ما أصابهم إلا بسبب سوء تصرفهم

برسالة السماء، وتفضيلهم للقواعد الكلامية والعبارات المذهبية علىٰ نصوص الوحي، وابتعادهم عن هدايته وزهدهم في معرفته، حتىٰ وصل هذا الداء إلىٰ علماء المسلمين.

قال صاحب «المنار» عن شيخه: وانظر في حال المسلمين الذين اتبعوا سنن من قبلهم، واعتبر بحال أهل الأزهر منهم، ترىٰ بعينيك كما رأينا، وتسمع بأذنيك كما سمعنا، وتفهم سر ما قصه اللَّه من أنباء أهل الكتاب علينا.

قال: ومما سمعه هو ـ وهو من العجب العجاب ـ قول شيخ من أكبر الشيوخ سنًّا وشهرةً في العلم في مجلس إدارة الأزهر علىٰ مسمع من العلماء: «ومن قال: إني أعمل بالكتاب والسنة فهو زنديق»، يعني أنه لا يجوز العمل إلا بكتب الفقهاء. فقال له الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من قال: إنني أعمل في ديني بغير الكتاب والسنة فهو الزنديق».

ثم قال: «واعلم أنه لا مفسدة أضر علىٰ الدين وأبعث علىٰ إضاعة الكتاب ونبذه وراء الظهر، واشتراء ثمن قليل به؛ من جعل أرزاق العلماء ورتبهم في أيدي الأمراء والحكام. فيجب أن يكونوا مستقلين تمام الاستقلال دون الحكام لا سيما المستبدين منهم، وإنني لا أعقل معنىٰ لحمل الرتب العلمية ومعايش العلماء في أيدي السلاطين والأمراء؛ إلا جعل هذه السلاسل الذهبية أغلالًا في أعناقهم، يقودونهم بها حيث شاؤوا من غش العامة باسم الدين، ولو فقهت العامة لما وثقت بقول، ولا فتوىٰ من عالم رسمي يطوق بتلك السلاسل» انتهىٰ باختصار.

وقوله سبحانه في الآية (١٨٨) من السورة: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾:

يخبرنا اللَّه في هذه الآية عن نماذج من النفاق يتلبس بها أهل

الكتاب، والمنافقون الذين يظهرون أنفسهم بمظهر الصدق والشجاعة والتعقل والحزم، وهم جبناء كاذبون، وخونة لعهد اللَّه وميثاقه.

إذا كتموا ما أنزل اللَّه من شأن رسوله خاتم النبيين محمد ﷺ فرحوا بما عملوا كأنهم ناجحون في خطتهم، وكأنه لا رب يحيط بأسرارهم وإعلانهم يُنزل علىٰ رسوله من الوحي ما يفضحهم ويكشف خبثهم. وإذا تخلفوا عن الجهاد جبنًا وخورًا بقصد التربص بالمسلمين الدوائر، صار لهم موقفان:

- فإذا انتصر المسلمون قالوا: إنا معكم، وحماة لكم من ورائكم.
- وإذا لم ينتصروا جعلوا لهم يدًا مع الكافرين.

فهم يريدون المحمدة وحسن السمعة بالتلبيس؛ لا بالأعمال الطيبة التي تحقق لهم ذلك، وهذا الصنيع من قبيح فعلهم وخسة أنفسهم.

وروىٰ البخاري في سبب نزول هذه الآية: أن رجالًا من المنافقين كانوا إذا خرج رسول اللَّه ﷺ إلىٰ الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول اللَّه ﷺ، فإذا قدم اعتذروا إليه، وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت هذه الآية[١].

وروىٰ البخاري - أيضًا - بسنده إلىٰ ابن عباس: قالوا له: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يُحمد بما لم يعمل معذبًا، لنعذَّبَنَّ أجمعون! فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه؟ إنما دعا النبي ﷺ يهود، فسألهم عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، إلىٰ قوله: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾[٢].

وقد أجاب القرطبي بأن الآية نزلت في كلا الفريقين جمعًا بين

(١) رواه البخاري (٤٥٦٧)، ومسلم (٢٧٧٧).
(٢) رواه البخاري (٤٥٦٨)، ومسلم (٢٧٧٨).

الأخبار، كما أجاب غيره بذلك.

وهذه الآية وإن كان لها ارتباط بما قبلها، إلا أنها عامة، ولا عبرة بخصوص السبب كما حققه الأصوليون.

فالآية عامة مهما تشعب المفسرون في ذكر الأسباب، فقد ذكر أبو حيان تسعة أقوال في سبب نزولها، وكلها صالحة علىٰ العموم دون تخصيص شيء منها.

كما أن الوعيد في الآية محتم لكل من أعجب بفعل السوء وفرح به، ولكل من يفخر بما كان يعمل، بل يدعي أنه فعل وفعل وسيفعل، وهو لم يفعل ولن يفعل، وإنما يدخل علىٰ الناس بالدعاوىٰ العريضة الكاذبة، ليحمده الناس، ويكسب مودتهم وثقتهم.

فقد أخبر اللَّه عن الموصوفين بِهذين الوصفين أنهم لا نجاة لهم من عذابه حيث قال: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾، أي لا تحسبونهم قد حصلوا علىٰ الفوز بالنجاة من العذاب، أو أنهم في مكان بعيد من العذاب؛ لأن المفازة هي المكان البعيد.

وبعد أن نفىٰ اللَّه عنهم الفوز أثبت لهم العذاب الأليم الذي يستحقونه بعدله تعالىٰ؛ فقال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، جزاء لكذبهم وادعائهم ما ليس لهم، وهي صفة يمقتها اللَّه تعالىٰ ويبغضها، ويعاقب صاحبها بالعذاب الأليم، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف].

وصح عنه ﷺ أنه قال: «**المتشبِّعُ بما ليس فيه كلابس ثوبَيْ زُور**»[1].

📖 **وقوله سبحانه في الآية (١٨٩) من السورة:** ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾:

فيه إخبار من اللَّه عن هؤلاء المتنكبين عن سبيله بأنهم من جملة

---

(١) رواه البخاري (٥٢١٩)، ومسلم (٢١٢٩).

خلقه الذين هم داخلون في ملكه وتحت قهره وهيمنته، فهو مالكهم وقادر عليهم؛ لأنه سبحانه علىٰ كل شيء قدير، فليس هؤلاء وغيرهم من الكفار والعصاة بناجين من عذابه.

كما أن في الآية تطمينًا للمؤمنين وتثبيتًا لقلوبهم، بأن اللَّه قادر علىٰ نصرهم علىٰ أعدائهم الذين يوقعون الأذىٰ بهم، وذلك إن تدرعوا بطاعته واستقاموا علىٰ شرعته.

وقوله سبحانه في الآيات (١٩٠، ١٩١، ١٩٢) من السورة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾:

الآيات: العلامات الدالة علىٰ وجود اللَّه وقدرته وحكمته، ولا يظهر ذلك إلا لذوي العقول والألباب، الذين ينظرون في خلق اللَّه نظر التفكر والاستدلال؛ فإن الذي ينظر نظرةً إنسانيةً صحيحةً في إيجاد السماوات والأرض، علىٰ ما هما عليه من الأمور المدهشة للعقول، والمحيرة لذوي الألباب يعرف قدرة اللَّه، وعظمته، ويخضع لجبروته، ويستجيب لندائه.

فالسماء المرفوعة علىٰ اتساعها وعظمتها، وما فيها من الكواكب والمجرات، والأرض المسطوحة، وما فيها من جبال منصوبة وبحار وأنهار مختلفة الألوان والطعوم والروائح، والحيوانات، والمعادن مختلفة المنافع والخواص، كلها تشير إلىٰ مبدعها وخالقها، وهو اللَّه ﷻ، الذي خلق كل شيء وصوره فأحسن صورته، وجعل كل مخلوق من المخلوقات متناسق الخلق والنظام مع المخلوقات الأخرىٰ؛ حتىٰ إن الناظر في الكون لا يجد فيه خللًا ولا عيبًا، كما قال تعالىٰ في سورة الملك: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن

فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ [الملك].

هذا وإن المتفكر في مقادير الليل والنهار يجدها علىٰ غاية المصلحة والحكمة، وأن مقدار الليل والنهار لو زاد علىٰ ما قدر عليه، أو نقص لفاتت المصلحة، واختلت الحكمة بذلك، بل جعل قدرهما أربعًا وعشرين ساعة، وجعلهما يتعارضان الزيادة والنقصان، فهذا يأخذ من هذا إلىٰ سدس ذلك المقدار ثم يسترده الآخر منه، فيبلغ ليل الشتاء أربع عشرة ساعة، ويقصر نهاره إلىٰ عشر ساعات فقط، والصيف يبلغ عكس ذلك في أكثر الأقاليم، وهي المعتدلة، وكل موضع لا تطلع عليه الشمس لا يعيش فيه حيوان، ولا نبات، لفرط يبوسته وبرده، وكل موضع لا تغيب عنه الشمس يكون كذلك لفرط حره ويبوسته، أما المواضع التي يعيش فيها النبات والحيوان فهي التي تطلع الشمس عليها وتغيب، وأعدلها ما تتعاقب عليها الفصول الأربعة.

وقد جعل اللَّه في الليل من أضواء القمر والكواكب ما تنتفع به الحيوانات والزروع، ويحصل به بعض الحركات، وجعل هذه الأضواء مقصورةً علىٰ بعض دون بعض، كما أنها ـ أيضًا ـ مقصورة عن الشمس لئلا يستوي ضياء الليل والنهار، فتفوت حكمة الاختلاف بينهما والتي هي آية عظيمة من آيات اللَّه ندب إلىٰ التفكير فيها.

وينبغي للمتفكر في اختلاف الليل والنهار، أن يتأمل حكمة اللَّه في جعله الشمس تطلع علىٰ العالم كله في أوقات متفاوتة؛ لئلا يكون بعض أهل الأرض محرومًا من النهار فيكون عليه الليل سرمدًا، فقد جعلها تطلع أول النهار من المشرق فتشرق علىٰ ما قبلها من الأفق الغربي، ولا تزال تجري لتغشىٰ جهات الأرض، حتىٰ تنتهي إلىٰ المغرب فتشرق علىٰ ما استتر عنها من الأرض في أول النهار.

ويتأمل في أحوال الشمس في انخفاضها وارتفاعها لإقامة الفصول السنوية التي بانضباطها ودوامها أعظم المصالح للخليقة، بحيث تتوقف

حياتها عليها لأسباب كثيرة فصلها العلماء فلا أرىٰ حاجة للإطالة بذكرها، ولكن المتأمل في ارتفاع الشمس وقت الظهيرة واستوائها وانخفاضها، يفهم أن الجريان لها لا للأرض، وأن منكر جريان الشمس مكذب للقرآن وبائع عقله علىٰ أهل البهتان، وأما القول بدورة الأرض فأمره خفيف؛ لأن القرآن لم يثبته ولما ينفِه نفيًا صريحًا، وإنما الواجب اعتقاد جريان الشمس، وعدم الانهزام العقلي بقبول القول بثبوتها، فإن من استعمل عقله جزم بجريانها خصوصًا علىٰ طريقة الجدليين «من فمك أدينك»، وذلك أن أهل الهيئة والطبيعة يقولون: إن الشمس أكبر من جرم الأرض مليونًا وعشر المليون تقريبًا، فإذا كانت علىٰ قولهم: إنها تدور بتلك السرعة التي يزعمونها والشمس ثابتة، فلنفرض قطعةً من نور تبلغ مساحتها مليون سنتيمتر مربع وتحتها «خرزة» سمكها سنتيمتر واحد، وفي ثقبها محور تدور به تحت قطعة الضياء الثابتة البالغة مليون سنتيمتر، فهل يبقىٰ في تلك الخرزة جزء مظلم؟ طبعًا لا يكون فيه شيء مظلم، فهكذا علىٰ قولهم بثبوت الشمس ودوران الأرض علىٰ صغر حجمها الضئيل جدًّا أمام ضخامة الشمس، لا يكون في الأرض شيء مظلم، فينعدم الليل وتكون أوقاتها كلها نهارًا، فالقول بثبوت الشمس ودوران الأرض يقتضي ويستلزم أن يكون النهار سرمدًا علىٰ جميع الخلائق الأرضية حسب التفكير الصحيح لهذا التمثيل الحسي، وهذا اللزوم والاقتضاء محال باطل، وإذا بطل اللازم بطل الملزوم، كما هو مقرر في القواعد.

وإني لست بصدد إبطال ما قاله الجغرافيون ونحوهم؛ لأن الذي لا تقنعه النصوص لا تقنعه المعقولات إذا صدرت من غير أساتذته المطبوع بهم، فلننتظر معه التقارير العلمية المقبلة، التي تكذب ما سبقها فتزيد في حيرته أو يرجع إلىٰ نصوص الوحي كما رجع إليها في إنكار السماوات السبع، واعتقاده أنها الأفلاك السبعة «زحل» و«عطارد» و«المريخ» و«زهرة» ونحوها مما قرره أساتذته المنهزمون

وانخدع بهم المرحوم طنطاوي جوهري وأشكاله ممن حاولوا المطابقة بين وحي اللَّه وأقوال المفترين أدعياء العقول الكاسدة المنكرين للمعجزات، ولتأثير اللَّه في الأرض والسماوات، والذي انتشر ـ لو كانوا أحياء ـ بعدما رجع أساتذتهم عما قرروه بالاكتشافات الجديدة، فعلىٰ المسلم ألَّا يعدل بوحي اللَّه شيئًا، فضلًا من أن يقدم غيره عليه مما غاية أهله إسقاط الاعتبار بآيات اللَّه ومخلوقاته العظيمة.

ثم إن القائلين بدورة الأرض، هل يقولون بارتفاعها وانخفاضها فيكون ارتفاع الشمس بسبب انخفاض الأرض، وانخفاض الشمس بسبب ارتفاع الأرض؟ أو لا يقولون قولًا لم يقرره أساتذتهم، وإن ورد علىٰ قولهم إيرادات؟ ولا شك أن ارتفاع الشمس وانخفاضها، وقيامها واستواءها دليل علىٰ جريانها لا علىٰ حركة الأرض، ولكنهم عندما يفحمهم الخصم يعترفون بأن كل شيء متحرك ليقنعوه وهم سائرون علىٰ تقليدهم.

ثم إن المتأمل في خلق السماوات والأرض يتفكر في حكمة اللَّه سبحانه بهذه النجوم، وكثرتها، وعجيب خلقها، وكونها زينةً للسماء، ومصلحةً لبني آدم يهتدون بها في ظلمات البر والبحر، وسخرها منقادةً بأمره حسب حكمته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [النحل: ١٢]، وقال في الآية (٩٧) من سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام]، وقد شاءت حكمة اللَّه أن يخلط الليل بشيء من الأنوار ولا يجعله ظلمةً داجيةً بلا ضوء، وذلك ليتمكن الحيوان فيه من التحركات التي يضطر إليها في الليل زيادة علىٰ النهار.

وعلىٰ المتأمل أن ينظر في سير الكواكب وعجائبها حيث أن بعضها لا يسير إلا مع رفقته ولا ينفرد عنهم، وبعضها يسير مطلقًا بلا رفيق، وإذا اتفق له مصاحبته في منزل فارقه إلىٰ غيره، ومع هذا فتناسقها عجيب، بحيث لا يصطدم بعضها ببعض، ولا يؤثر بعضها علىٰ سير بعض.

ثم ليتفكر الإنسان في خلق اللَّه للأرض، وجعلها واقفة ساكنة لتكون مهادًا ومستقرًّا للساكنين عليها، ليتمكنوا من السعي في مصالحهم واستثمار ما ينفعهم، ولو كانت رجراجةً منكفئةً، لم يقر لهم قرار، ولم ينتفعوا بها في حياتهم، بل تنعكس أحوالهم في كل ناحية من نواحي الحياة.

وليعتبر المتفكر بالزلازل - على قلة مكثها -؛ كيف تذهب بأمن الناس وراحتهم، فيهربون من منازلهم! ولهذا امتن اللَّه علي بني الإنسان بتثبيته للأرض؛ حيث قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [غافر: ٦٤]، وقال سبحانه: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ] وليعتبر - أيضًا - في ليونة الأرض وسهولتها مع يبسها، وإكرام أهلها بالحديد لتذليلها، بشق الطرق وحفر الآبار وغير ذلك، وكذلك في تنويع تربتها كي يسهل التصرف فيها وتكثر المنافع من موادها.

وقد أخرج الترمذي وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لما خَلق اللَّهُ الأرضَ جَعلت تميد، فخَلق الجبالَ عليها فاستقرَّت، فعجبتِ الملائكةُ من شدة الجبال، فقالوا: يا رب، هل من خَلْقِك شيءٌ أشدُّ من الجبال؟ قال: نعم، الحديد. قالوا: يا رب، هل من خلقك شيءٌ أشد من الحديد؟ قال: نعم، النار. قالوا: يا رب، هل من خلقك شيءٌ أشدُّ من النار؟ قال: نعم، الماء. قالوا: يا رب، فهل من خلقك شيء أشد من الماء؟ قال: نعم، الريح. قالوا: فهل من خلقك شيءٌ أشد من الريح؟ قال: نعم، ابن آدم يتصدق صدقةً بيمينه فيخفيها عن شماله**»[1].

هذا؛ وإن في الجبال حكمًا عظيمةً، ومنافع كبيرة، لا نطيل بها المقام لشهرتها، وقد أشرنا إلى ذكر منافع الهواء الذي هو من رحمة اللَّه وعجيب صنعه ومدده للحياة مما ينبغي التفكر في نعمة اللَّه به،

---

(١) رواه التِّرمذي (٣٣٦٩).

كما ينبغي التفكر فيما بثه اللَّه في هذه الأرض علىٰ وجهها، أو في بطنها من دابةٍ ومادة، وما جعل فيها من أنواع المعادن والألماس والذهب والفضة والجواهر واليواقيت والنفط ومشتقاته، وسائر أنواع الحديد وغيره.

وينبغي التفكر في رحمة اللَّه ولطفه بخلقه، في إخراج الأقوات الغذائية من جميع أنواع الحبوب، والفواكه والثمار، بفصول مختلفةٍ مناسبةٍ لحياة الإنسان وغذاء البهائم، وقد قال ﷻ في سورة عبس: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس].

وقد تكلم العلماء علىٰ ذلك بكلام نفيس، وعلىٰ ما في سورة الأنعام وغيرها من قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام].

ومما ينبغي التفكر فيه تلك الحكمة البالغة في إنزال اللَّه للمطر من الأجواء العالية علىٰ الأرض ليعم بسقيه المرتفعات والمنخفضات، لو كان اللَّه يسقيها من ناحية واحدة لما أتىٰ الماء علىٰ الناحية المرتفعة، حتىٰ تفيض المنخفضات وتتضرر، فاقتضت حكمة اللَّه أن يسقي الأرض من فوقها، فينزله علىٰ حسب الحاجة بالقدر الذي يقتضيه علمه ـ جَلَّ وَعَلَا ـ.

وقد ذكر المحققون أنواعًا كثيرة من حكمة اللَّه وبديع صنعه في النبات والأشجار في جذورها وأغصانها وأوراقها مما يدهش القارئ، ومن أحب الاطلاع عليها، فليقرأ ما كتبوه وأقربها تناولًا كتاب «مفتاح دار السعادة»، لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، فإنه تكلم عليها وعلىٰ خلق الحيوانات وآلات البطش فيها، وما فيها من بديع الخلق إلىٰ غير ذلك مما لا

أريد الإطالة بنقله بل أحيل عليه.

وها أنا أنقل مناقشته للملاحدة فقط، فإنه قال: «فسل الزنادقة والمعطلة: أي طبيعة اقتضت هذا وأي فلك أوجبه؟ وهلا كانت كلها راتبةً أو متنقلةً؟ أو على مقدار واحد، وشكل واحد، وحركة واحدة، وجريان واحد؟ وهل هذا إلا صُنع من بهرت العقولَ حكمتُه وشهدت مصنوعاته ومبتدعاته بأنه الخالق البارئ المصور الذي ليس كمثله شيء؟ أحسن كل شيء خلقه، وأتقن كل ما صنعه، وأنه العليم الحكيم الذي خلق فسوىٰ وقدر فهدىٰ، وأن هذه إحدىٰ آياته الدالة عليه، وعجائب مصنوعاته الموصلة للأفكار إذا سافرت فيها إليه، وأنه خلق مسخر مربوب مدبر: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف].

فإن قلت: فما الحكمة في كون بعض النجوم راتبًا وبعضه متنقلًا؟ قيل: إنها لو كانت كلها راتبةً لبطلت الدلالة والحِكم التي نشأت من تنقلها في منازلها وسيرها في بروجها، ولو كانت كلها متنقلةً لم يكن لمسيرها منازل تعرف بها، ولا رسم يقاس عليها؛ لأنه إنما يقاس مسير المتنقلة منها بالراتب، كما يقاس مسير السائرين علىٰ الأرض بالمنازل التي يمرون عليها، فلو كانت كلها بحال واحدة لاختلط نظامها ولبطلت الحكم والفوائد والدلالات التي في اختلافها، ولتشبث المعطل بذلك، وقال: لو كان فاعلها ومبدعها مختارًا لم تكن علىٰ وجه واحد، وأمر واحد، وقدر واحد، فهذا الترتيب والنظام الذي هي عليه من أدل الدلائل علىٰ وجود الخالق وقدرته وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته».

إلىٰ أن قال: «فسل المعطل الجاحد: ما تقول في دولاب دائر علىٰ نهر قد أحكمت آلاته، وأحكم تركيبه، وقدرت أدواته أحسن تقدير وأبلغه، بحيث لا يرىٰ الناظر فيه خللًا في مادته، ولا في صورته، وقد

جعل على حديقة عظيمة فيها من كل أنواع الثمار والزروع، يسقيها حاجتها، وفي تلك الحديقة من يلم شعثها، ويحسن مراعاتها وتعهدها والقيام بجميع مصالحها، فلا يختل منها شيء ولا تتلف ثمارها، ثم يقسم قيمتها عند الحصاد على سائر المخارج بحسب حاجتهم وضروراتهم، فيقسم لكل صنف منهم ما يليق به ويقسمه هكذا على الدوام؛ أترى هذا اتفاقًا بلا صانع ولا مختار ولا مدبر؟ أفترى ما يقول لك عقلك في ذلك ـ لو كان ـ؟ وما الذي يفتيك به؟ وما الذي يرشدك إليه؟ ولكن من حكمة اللَّه العزيز الحكيم أن خلق قلوبًا عميًا لا بصائر لها، فلا ترى هذه الآيات الباهرة، إلا رؤية الحيوانات البهيمية، كما خلق أعينًا لا أبصار لها، والشمس والنجوم والقمر مسخرات بأمره، وهي لا تراها، فما ذنبها إن أنكرتها وجحدتها؟ فهل تقول في ضوء النهار: هذا ليل؟ ولكن أصحاب العيون لا يعرفون شيئًا، ولقد أحسن القائل:

وهَبْنِي قُلتُ: هذا الصبحُ ليلٌ أيعمىٰ العالِمونَ عن الضياءِ؟».

انتهى كلامه في مناقشته القصيرة.

وساق البخاري حديثًا عن ابن عباس تحت باب: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية، قال: بت عند خالتي ميمونة، فتحدث رسول اللَّه ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾. ثم قام فتوضأ واستن، فصلى إحدى عشرة ركعة، ثم أذن بلال، فصلى ركعتين، ثم خرج فصلى الصبح[(١)].

وقد تظاهرت الآثار أن النبي ﷺ كان يقرأ هذه الآياتِ العشرَ ـ أواخر سورة آل عمران ـ عند قيامه آخر الليل.

وهذه الآيات ينتفع بها المتفكر في بديع صنع اللَّه على قدر علمه

(١) رواه البخاري (٤٥٦٩)، ومسلم (٧٦٣).

وذكائه وجودة فكره، ويسلمه هذا إلىٰ الاهتداء إلىٰ توحيد اللَّه الخلاق العظيم؛ توحيدًا يحمله علىٰ حبه وإجلاله، وامتثال أوامره وابتغاء مرضاته، ومن هنا جاء توجيه النبي ﷺ لقوم كانوا يفكرون في اللَّه فقال: «**تفكَّروا في الخلق، ولا تفكروا في الخالق**»، وعنه ـ أيضًا ـ قال: «**تفكروا في مخلوقات اللَّه، ولا تفكروا في ذات اللَّه**»[(١)].

وقال بعض المحققين: «إن المتفكر في ذات اللَّه كالناظر في عين الشمس».

وفي بعض الآثار: «لا عبادة كالتفكير».

ويروي ابن عباس: «وتفكر ساعة خير من عبادة سنة».

وللعلماء أقوال كثيرة في هذا المقام لا نطيل بذكرها لشهرتها.

قد خص اللَّه أولي الألباب بالذكر مع أن كل الناس لهم ألباب؛ لأن بعض الناس قد فسد لبه كما يفسد لبُّ الثمار بعوارض أو آفات زراعية، وكذٰلك العقول والألباب، فإنها تفسد بالعوارض والآفات الفكرية الفاسدة التي يركزها شياطين الجن والإنس في غزوهم الفكري المتنوع.

وقد جاء ختام هذه الآية بقوله: ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وفي سورة البقرة ختمت بعض آياتها بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وذلك لأن العقل له ظاهر وله لب، ففي أول الأمر يكون عقلًا، وفي ختام التفكير والتبصير يكون لبًّا.

وقال الرازي ما معناه: إن السالك إلىٰ اللَّه يكون في بادئ الأمر طالبًا لتكثير الدلائل، فإذا استنار قلبه كان طالبًا لتقليلها، حتىٰ إذا زالت الظلمة المتولدة من اشتغال القلب بغير اللَّه، كمل فيه تجلي أنوار معرفة اللَّه. انتهىٰ.

واعلم أنما يستفيد من عقله وتفكيره من وصفهم اللَّه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ

---

(١) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥).

﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وينبغي أن يعلم ـ أيضًا ـ أن هذا الذكر الممدوح هو على عمومه فليس المقصود به الصلاة فقط، وإنما الصلاة بعض أنواعه الكثيرة.

كما ينبغي أن يُعلم أن الذكر المطلوب الممدوح النافع، هو ما اجتمع عليه القلب واللسان، بحيث يكون صادرًا عن محبة صادقة وشكر عميق، وطلب لمرضاته، وشوق إلى قربه، ولهذا جاء في حديث السبعة الذين يظلهم اللَّه في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «**رجلٌ ذَكَر اللَّهَ خاليًا ففاضت عيناه**»[1].

ولما كان الذكر النافع هو ذكر القلب، عمم اللَّه وروده وحصوله في جميع الأحوال، من قيام وقعود واضطجاع.

وقد قدم اللَّه ذكره في حالة القيام؛ لأن الإنسان لا يقعد في الغالب إلا لشغل يشتغله، ولأن الذكر حالة القيام أخف منه في حالة القعود، وفي حالة القعود أخف منه في حالة الاضطجاع.

ولكن ذكر اللَّه حاصل من هؤلاء المؤمنين بشكل دائم، وفي كل حالة من حالاتهم، وفي كل حركة من حركاتهم وسكناتهم؛ لأن اللَّه سبحانه لا يغيب من بالهم.

واعلم أن اللَّه سبحانه لما ذكر في الآية الأولى ما يدل على كمال ربوبيته، فقد ذكر في هذه الآية ما يدل على كمال عبادته ليجذب الأرواح وينقلها من عالم الغرور إلى عالم السعادة والفلاح، ولما كانت العبودية ثلاثة أقسام: التصديق بالقلب، واللَّهج باللسان، والعمل بالجوارح، كان قوله تعالى: ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ إشارة إلى لهج اللسان، وقوله: ﴿قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾، إشارة إلى عبودية الجوارح والأعضاء.

وقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، إشارة إلى عبودية الروح بالقلب والفكر. وليس الإنسان إلا هذا المجموع، فإذا كان

---

(١) تقدم تخريجه.

لسانه منهمكًا بذكر اللَّه بحيث يستغرق أكثر أوقاته، وكانت أعضاؤه وسائر جوارحه مشتغلةً بالشكر العملي الذي هو الطاعة، وكان جنانه منشغلًا بالتفكير في آياته وعجائب قدرته، فقد استغرقت جميع أجزائه في ذكر اللَّه تعالىٰ.

وقد وردت أحاديث صحيحة في فضل الذكر وعظيم ثوابه، فقد أخرج البخاري ومسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «**كلمتانِ خفيفتانِ علىٰ اللسان، ثقيلتانِ في الميزان، حبيبتانِ إلىٰ الرَّحمن: سبحان اللَّه وبحمده، سبحان اللَّه العظيم**»(١).

ورویٰ مسلم عنه ﷺ قال: «**لأن أقول: سبحان اللَّه، والحمد للَّهِ، ولا إله إلا اللَّه، واللَّه أكبر، أحبُّ إليَّ ممَّا طلعت عليه الشمس**»(٢).

والأحاديث في هذا الباب - باب الأذكار - كثيرة؛ فليرجع المسلم إلىٰ مظانها من كتب السنة.

هذا؛ وإن لذكر اللَّه أكثر من مائة فائدة ذكرها ابن القيم في كتابه «الوابل الصيب»، فليرجع إليه المستزيد.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عطف منه سبحانه لعبادة الذكر الشريفة القدر، علىٰ عبادة عظيمة تحصل منها الدلائل المحسوسة علىٰ توحيد اللَّه وتعظيمه وتقديسه، وتنزيهه عن مشابهة خلقه.

فإن دلائل التوحيد محصورة في قسمين:

أحدهما: دلائل الآفاق.

الثاني: دلائل النفس.

ولكن دلائل الآفاق أجل وأعظم؛ كما قال سبحانه: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] ولهذا وصف اللَّه أرباب العقول

---

(١) رواه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).

(٢) رواه مسلم (٢٦٩٥).

المستنيرة، ذات اللب الصالح، بالتفكر في خلق السماوات والأرض بعد وصفهم بكثرة الذكر، وفي هذا إشارة إلىٰ الجمع بين الذكر والفكر، وأن الفكر لا يفيد بدون الذكر.

فكثير من المفكرين بالكونيات لم يهتدوا إلىٰ التوحيد لغفلتهم عن الذكر، وهذا لقصور في ألبابهم.

وقد أخبرنا اللَّه سبحانه عن النتائج التي حصل عليها أولو الألباب، أرباب الذكر والتفكر، وهي خمسة أنواع من المعاني والدعاء، وهي:

١ ـ قولهم: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ أي عبثًا زائلًا، بل خلقت يا ربنا هذه المخلوقات التي نحن منها لحكمة عظيمة، بل لحكم كثيرة؛ منها ما نعلمه ومنها ما لا نعلمه، ومما نعلمه أن هذه المخلوقات التي خلقتها كلها تشير إلىٰ قدرتك وعظمتك وسلطانك و جبروتك.

ونحن من بين مخلوقاتك لم تخلقنا عبثًا، بل خلقتنا لغاية سامية هي عبادتك، وجعلت لنا وللأكوان أجلًا مسمًّي لا ريب فيه، يحصل به منك الجزاء علىٰ الطاعة والعصيان، كما صرحت في وحيك المبارك.

٢ ـ وهي ثناؤهم علىٰ ربهم بقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، فأعلنوا تنزيهه عن السوء، وعما لا يليق بجلاله وعظمته، وذلك إسراعًا منهم في طاعته وابتغاء مرضاته، واستمطارًا لرحمته المنجية لهم من عذابه، فتحصل لهم النتيجة الثالثة:

٣ ـ دعاؤهم إياه وضراعتهم إليه بالنجاة من النار، حيث استيقنوا أن خلقه لهذه الأكوان العظيمة يستلزم مدلول ألوهيته وملوكيته من الأمر والنهي والثواب والعقاب، وأن يلتزموا طاعته، ويسألوه قبولها والنجاة من عذاب النار؛ لأنه خزي لمن يناله يوم القيامة.

والخزي أعظم شيء يهرب منه العقلاء ويعوذون بربهم منه، وفي هذا تعليم رباني للعباد في كيفية دعائهم؛ أن يشرحوا أسباب الدعاء من مرغوب ومرهوب، ولذا قال حكايةً عنهم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ

﴿فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾.

والخزي والبلاء والفضيحة ينشأ منهما الإذلال والإهانة.

وقيل: إن الخزي: الحياء بما يحصل من إذلال العقوبة.

وعلىٰ هذا فخزي المؤمنين يوم القيامة استحياؤهم في دخول النار بين سائر الأديان إلىٰ أن يخرجوا منها.

والخزي للكافرين هو إذلالهم، وإهانتهم بالخلود فيها من غير خروج ولا فتور عذاب. ويزداد خزيهم وقنوطهم إذا قال لهم اللَّه: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون]. فالمؤمنون الصادقون المخلصون يصونهم اللَّه من جميع أنواع الخزي.

وقد دلت الآياتُ أن العذاب الروحاني أشد وأنكىٰ من العذاب الجسماني؛ لأن الخزي ـ وهو عذاب روحاني ـ تتألم به روح المعذَّب بعد عذاب النار ـ العذاب الجسماني ـ، والخزي أشد وأنكىٰ من عذاب النار.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾، قدمنا معنىٰ الظلم، والظالمون هم المُنقِصون لجناب اللَّه والباخسون حقوقه، والكافرون هم الظالمون ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وهؤلاء الظالمون لا يجدون لهم أنصارًا ينصرونهم وينقذونهم من عذاب النار، ولا تنفعهم شفاعة الشافعين، كما قال تعالىٰ: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

قوله سبحانه في الآية (١٩٣، ١٩٤) من السورة: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾:

تفيد هاتان الآيتان الكريمتان: أن أولي الألباب ـ الذين جرىٰ التنويه بذكرهم ـ لما علموا أن خلق السماوات والأرض يستلزم الثواب والعقاب تعوَّذوا باللَّه من عقابه.

ثم ذكروا الإيمان الذي أوقفهم عليه تفكيرُهم في خلق السماوات والأرض فقالوا: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ﴾، فكانت ثمرة تفكيرهم في خلق السماوات والأرض الإقرارَ بربوبيته وألوهيته ووحدانيته، ودينه الذي أرسل به رسله، فتوسلوا إليه بإيمانهم الذي هو من أعظم فضله عليهم، وأنفع الوسائل إليه في غفران ذنوبهم، ورفعة درجاتهم، فقالوا: ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ فتوسلوا إليه بإنعامه الأول عليهم بالإيمان، وأن ينعم عليهم بغفران الذنوب وتكفير السيئات.

والفرق بين الذنوب والسيئات: أن الذنوب ما تفعل مع الدراية بشؤمها، والسيئات ما تفعل مع الجهل.

وقيل: إن السيئات ما تحتاج إلىٰ كفارة من فعل الحسنات المغطية لها، والذنوب ما[1] تكفي التوبة لمحوها.

والأولىٰ: أن الذنوب هي الكبائر، والسيئات هي الصغائر؛ لقوله ﷻ: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١﴾ [النساء]، ولقوله تعالىٰ في آخر سورة هود: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ١١٤]، ولقوله ﷺ: «**الجمعةُ إلىٰ الجمعة، والحجُّ إلىٰ الحج، ورمضانُ إلىٰ رمضان مكفرات لما بينهنَّ إذا اجتنبت الكبائر**»[2].

والحاصل: أن اللَّه أخبرنا عن جدوىٰ التوسل إليه بصالح الأعمال وأصلحها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، والوسيلة: التقرب إلىٰ اللَّه بما يرضيه من الطاعات ـ كحديث الغار المشهور[3] ـ، ولو كان التوسل إلىٰ اللَّه جائزًا ونافعًا بغير صالح

---

(١) «ما» ـ هنا ـ بمعنىٰ «الذي».
(٢) رواه مسلم (٢٣٣).
(٣) رواه البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (١٠٠).

الأعمال لأخبرنا به.

فأول شيء طلبه المؤمنون من ربهم: أن يغفر ذنوبهم.

والثاني: سألوه أن يميتهم علىٰ حالة الأبرار؛ ليكونوا في معيتهم يوم القيامة.

الثالث: يجنبهم الخزي في الدار الآخرة يوم يقوم الأشهاد.

الرابع والخامس: سألوه تحقيق وعده الذي وعدهم به علىٰ ألسنة رسله من الفوز بجنات النعيم، والنجاة من العذاب الأليم الذي يحصل به الخزي بين العالمين، وهذا يشكل النتيجة الرابعة والخامسة من نتائج ذكرهم للَّه وتفكرهم في مخلوقاته.

✍ وهنا مسائل عدة:

١ ـ من المنادي ـ كما في قوله تعالىٰ: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ﴾ ـ: هل هو الرسول أو القرآن؟.

قد جزم بعضهم أنه القرآن؛ لأنه ليس كل أحد لقي الرسول ﷺ؛ أما القرآن فكل أحد سمعه وفهمه، وهو مشتمل علىٰ جميع أنواع الرشد والهداية.

وعندي أن الداعي المنادي للإيمان هو رسوله محمد ﷺ، وأن من لم يدركه فإنه يدرك أتباعه الحاملين رسالته والداعين بدعوته والرافعين راية العقيدة.

٢ ـ قوله سبحانه: ﴿يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ﴾ ذكروا عدة معان لـ«اللام»:

منها: أنها «لام» الأجْل والتعليل والعاقبة.

ولكن الأصح أنها بمعنىٰ «إلىٰ» أي ينادي إلىٰ الإيمان؛ كقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ [المجادلة: ٣]، وقوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة]: أي أوحىٰ إليها، ويعودون إلىٰ ما قالوا.

٣ ـ جمع اللَّه بين لفظ «منادي»، ولفظ «ينادي»، تفخيمًا لشأن المنادي؛ لأنه لا نداء أعظم وأفخم من نداء الإيمان.

٤ ـ احتج بعضُ العلماء بِهذه الآية علىٰ حصول المغفرة بدون توبة؛ إذ إن الآية لم تصرح بذكر التوبة، هذا غير صحيح؛ لأن سؤالهم المغفرة لذنوبهم يتضمن التوبة ويستلزمها.

ويلاحظ هنا: أنه جرىٰ من المؤمنين تكرير اسم ﴿رَبَّنَا﴾ خمس مرات، كلها علىٰ سبيل الاستعطاف وطلب الرحمة من اللَّه، والتكرار هذا يفيد مشروعية الإلحاح في الدعاء، وكثرة الطلب من اللَّه، وكثرة الضراعة إليه.

قال الحسن: ما زالوا يقولون: ربنا حتىٰ استجاب اللَّه لهم.

قوله سبحانه في الآية (١٩٥) من السورة: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ (١٩٥)﴾:

لما ذكر اللَّه النتائج الحتمية للذكر الصحيح، والتفكير السليم، والتي سبق ذكرها ذكر في هذه الآية، حسن عاقبة أهل الذكر والفكر حيث استجاب لهم، وشكر مساعيهم، فلم يُضِع من أعمالهم شيئًا، لا ذكورهم ولا إناثهم.

بمعني أنه سبحانه يحفظ لهم أعمالهم كاملةً، ويوفيهم أجورهم كاملةً، وهذا من جميل شكره لحسنات عباده وقبوله لها.

فالأعمال الصالحة المقبولة سبب في استجابة الدعاء وشرط فيها؛ فقد بشرهم اللَّه علىٰ العموم بنيل مطالبهم منه، ذكورهم وإناثهم، بقوله ﷻ: ﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾، يعني أن بعضكم شبهُ بعض في استحقاق الثواب علىٰ الطاعات والعقاب علىٰ المعاصي، وأنه لا تفاوت بينهم أبدًا.

ثم ذكر سبحانه تفاصيل الأعمال المرضية له والجالبة لثوابه،

والممحصة لخطايا أهلها فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾، ومراده سبحانه بالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم: من ألجأهم الكفار إلىٰ الخروج بالفتنة الحسية أو المعنوية، وهم علىٰ درجات في الأفضلية، وأفضلهم من هاجر مختارًا لخدمة الرسول ﷺ ونصرة رسالته؛ لأن بعض المسلمين لم ينلهم الأذىٰ والتعذيب، إما لشجاعتهم أو لنصرة عشائرهم، فهاجروا دون إكراه، فكانت هجرتهم أفضل، وثوابهم أكثر.

وقدم اللَّه القتال علىٰ القتل في قوله: ﴿وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾؛ لأن القتال يقع قبل القتل.

وقد ذكر اللَّه ثلاثة أمور في جزائهم:

١ ـ محو السيئات، وغفران الذنوب، بقوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ وذلك استجابة لطلبهم: ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾.

٢ ـ إعطاؤهم الثواب الجزيل، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، وهو ما طلبوه بقولهم السابق: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾.

٣ ـ حصولهم علىٰ الثواب العظيم المقرون بالإجلال والتعظيم في قوله سبحانه: ﴿ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وهو ما قالوه في دعائهم: ﴿وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي أن اللَّه أثابهم ثوابًا يبعدهم من الخزي ويكسبهم الكرامة والعزة والفخر والشرف العظيم، فثوابهم عظيم لا نهاية لعظمته، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ تأكيدًا لكون ثوابهم في غاية الشرف وأعلىٰ الدرجات، وقد استحقوا ذلك الجزاء العظيم لقوة صبرهم وثباتهم علىٰ دين اللَّه، والتضحية في سبيله بكل ما يملكون، فذكر سبحانه ما حصل لهم من الإيذاء، وما حصل منهم من التضحية علىٰ الترتيب: الهجرة أولًا من الفريق المختار، ثم الإخراج من البلاد ثانيًا، ثم الإيذاء علىٰ العقيدة ثالثًا.

وبالإيذاء هذا تحصل الفتنة عن الدين، والتي هي أشد من القتل وأكبر كما حكم اللَّه بذلك. ثم ارتقي إلىٰ أشرف مراتبهم، وهي قتالهم لمن أخرجهم بسبب العقيدة وجهادهم المفضي إلىٰ التضحية بالنفس والمال، وهذا تنويه بصحة إيمانهم، وصدق محبتهم للَّه الذي يفوق كل محبوب؛ فإن العقيدة توجب علىٰ أهلها أن تكون أغلىٰ من أنفسهم وأهليهم وأوطانهم وعشيرتهم، كما قال اللَّه تعالىٰ في الآية (٢٣) من سورة التوبة، وأن يكون بذلهم وتضحيتهم في سبيل العقيدة، لا في سبيل قومية أو وطنية.

والعامل في سبيل القومية أو الوطنية بعيد عن العقيدة الإسلامية؛ لحكم اللَّه عليه في هذه الآيات من سورة التوبة بالظلم والفسوق المنافي للدين، ولا شك أن العامل في سبيل القومية أو الوطنية، هو من أهل الرياء والسمعة، وهما من سمات المنافقين والمشركين، وحادث الهجرة ووجوب الجهاد هو من أعظم الدلائل علىٰ بطلان الشرك الجديد والجاهلية والوثنية الجديدة، التي غزتنا بها الأفكار الماسونية اليهودية، وأولعت كثيرًا من الناس بها، وجعلتهم يعملون ويتبرعون ويقاتلون في سبيل الطين، لا في سبيل الدين، وفي سبيل الأشخاص والعشيرة، لا في سبيل اللَّه، وجعلت الحب للوطن والقوم، لا للَّه، والدفاع عن كيان الوطن: العشيرة، لا عن العقيدة الإسلامية، مما قلب المفاهيم، وأفسد الأخلاق والمقاصد، وحرم أهل هذه المبادئ والمذاهب من مدد اللَّه، ونصره وتوفيقه ومثوبته العظيمة.

هذا وإن في هذه الآيات الكريمات تعليمًا من اللَّه لعباده أن يتعرفوا عليه بآياته، ومخلوقاته، و تصريف قدرته، وإرادته، والوسائل التي يتوسلون إليه بها، ويتضرعون بدعائهم، ويكررون الابتهال إليه بعظيم أسمائه ومحبوباته من الأعمال، وأن يتحملوا المشاق في سبيله ابتغاء لمرضاته وتعرضًا لنفحاته، وطمعًا في استجابة دعائهم من فضله ورحمته، وأن يصبروا علىٰ تكاليف دينه طمعًا في ذلك.

وأيضًا فإن هذه الآيات قطع لمطامع الكسالىٰ والجبناء والبخلاء، المتمنين علىٰ اللَّه الأماني، كما فيها عدم التفريق بين الرجال والنساء في حكم اللَّه ومثوبته؛ فالرجل مولود من المرأة، والمرأة مولودة منه، وقد سجل المفسرون حديث أم سلمة المشهور أنها قالت: يا رسول اللَّه، قد ذكر اللَّه الرجال في الهجرة، ولم يذكر النساء في شيء من ذلك، فنزلت هذه الآية وآيات أخرىٰ في معناها، يتضح أنهن متساويات عند اللَّه تعالىٰ في الأعمال، وأنه لا ميزة للرجال عليهن، إلا بالقوامة عليهن، وبما أنفقوا من أموالهم، وبما اختص به الرجال من الإمامة، والخطابة، والمبارزة، والجهاد، وحفظ العرض، وحماية الذمار، والقوة في التفكير، والقوة علىٰ الأعمال الشاقة، وزيادة الأجر بمواصلة الطاعات التي لا يقطعها حيض ولا نفاس، وممارسة الرجال للأسفار بدون محرم، وبنصاب الشهداء الذي سببه كثرة النسيان، وقد قرر علماء النفس والطب الحديث نقصًا في أدمغة النساء.

ومن مميزات الرجال: قضاء الحاجة الجنسية، وإعفافهن بذلك بالنكاح الشرعي، وكون الرجل يكفل عددًا من النساء لهذا الغرض، وسيأتي ذكر ما ورد فيهن من كفر العشيرة وكفر الإحسان، وقد أعطاهن دين الإسلام حقوقهن الإنسانية اللائقة بِهن، ورفع مستواهن الذي كان في المجتمعات الجاهلية أحطَّ من الرقيق، وسيأتي في سورة النساء تفاصيل رد الشارع الحكيم لكرامتهن المسلوبة، أما الآن فقد أعادت الجاهلية الجديدة إهانتهن بأساليبَ فاجرةٍ خدَّاعة؛ جعلتهن سلعًا رخيصة ولحمًا معروضًا مبتذلًا لكل فاسق، وأخرجت الكثير عن أنوثتهن، وصيروهن جنسًا ثالثًا بين النساء والرجال، تقليدًا للغرب في مفاسده، وخروجًا عن الإنسانية الصحيحة، والتشريع الرباني، فيمتحن المسلمون إيمانهم علىٰ ضوء منهج أولي الألباب المذكورين في هذه الآيات ليعرفوا مدىٰ سعيهم لتحقيق شخصياتهم في هذه الحياة، وليعرفوا ـ أيضًا ـ قيمتهم بين الأمم.

وقوله سبحانه في الآيات (١٩٦، ١٩٧) من السورة: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾:

لما أخبر اللَّه عباده المؤمنين عن انتفاعهم بعقولهم واكتسابهم من ثمرات ذكر اللَّه، وتفكيرهم في آياته الكونية العظيمة زيادةً في إيمانهم يتميزون بها عمن سواهم، أخذ ﷻ يرفع من معنوياتهم بالشموخ بها عن فتنة المادة وبريقها الساحر، فقال مبتدئًا بقائدهم ومرشدهم الأكبر نبيِّه ورسوله ﷺ ـ والخطاب لجميع المؤمنين ـ: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾﴾ فالخطاب بحقيقته موجه لكل من سمعه من أمة محمد ﷺ إلىٰ يوم القيامة، أما هو ﷺ فإنه معصوم عن ذلك الاغترار.

ومعنىٰ النهي: ألَّا يغتر المسلم المؤمن بما يراه لدىٰ الكفار من بريق الحضارة المادية، والفتح الصناعي، وما صنعوه من وسائل الراحة لخدمة المدنية حينًا من الدهر، وما صنعوه لتدميرها من وسائل الحرب والدمار، الذي هو عقوبة من اللَّه لهم علىٰ أيديهم، فإن القوة الصحيحة ليست بما يملكونه من مال وما يخترعونه من صنعة أو عتاد حربي، فكل هذا ليس بشيء إذا غزاهم أهل الإيمان بالقوة الروحية، والتي هم منها صفر اليدين، وفي غاية الإفلاس. ولو أن المسلمين رجعوا إلىٰ دينهم، وطبقوه علىٰ أنفسهم، وأقاموا راية الجهاد ـ كما أقامها أسلافهم ـ لكان جميع ما عند الكفار غنيمةً لهم، يغتنمونها كما اغتنم أسلافهم مُلك كسرىٰ وقيصر.

ثم إن مصير هؤلاء نار جهنم، ومن كان هذا مصيره فلا خير في حياته أبدًا، مهما حصل علىٰ زيادة المتاع في الدنيا. فهم ينتقلون ويتقلبون في هذه الحياة الدنيا بشتىٰ النعم، ولكنَّ نهاية المطاف ودار القرار هي جهنم، ولهذا قال سبحانه: ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي

بئس المقر، الذي تكون النار فيه فراشًا ولحافًا، فهم بين أطباق النار يتقلبون، كما تقلبوا في الدنيا بنعم اللَّه التي لم يشكروها.

لمَّا نهانا اللَّه عن الاغترار الانخداع بعيش الكفار، وأخبرنا عن سوء مآلهم وقلة ما تمتعوا به لانقضائه بانقضاء حياتهم التي عاقبتها الخلود في النار، فقد استدرك اللَّه بالإخبار عن حال المتقين:

فقال في الآية (١٩٨) من سورة: ﴿لَكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾:

وقد أوقع اللَّه ذٰلك الاستدراك بكلمة ﴿لَكِنِ﴾ أحسن موقع في مقابلة ما أخبر به عن الكافرين من قلة متاعهم في الدنيا، وخلودهم في جهنم؛ وذلك في شيئين:

١ ـ إخباره سبحانه عن مكان استقرار المؤمنين، وهي الجنات التي وعدهم بها.

٢ ـ الخلود فيها ودوام الإقامة والتمتع بنعيمها الذي ليس بمقطوع ولا ممنوع.

فقابل اللَّه دار الكافرين ـ جهنم ـ بدار المؤمنين ـ جنات الخلد ـ، وقابل متاع الكافرين وانقطاعه عنهم، بخلود المؤمنين في منازلهم ـ جنات النعيم ـ، وكون استقرارهم فيها دائمًا أبد الآبدين.

وقوله: ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ﴾ هو ما أعده اللَّه لكرامة المتقين، من المنزل الطيب الذي يتنعمون به ثوابًا لهم علىٰ إيمانهم وتقواهم.

والنُّزل: ما يعد للضيف النازل من الضيافة والكرامة، وتقرأ بضم الزاي وسكونها، والضم أولىٰ، وقرأ بعضهم «لكنَّ» بالتشديد، وقال بعض المفسرين: سماها اللَّه نزلًا للمؤمنين؛ لأنه ارتفعت عنهم تكاليف السعي والكسب، فهيأ اللَّه لهم منازل في الجنة لا مشقة فيها ولا تعب، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ يعني خير لهم مما هم فيه في الدنيا،

وخير لهم مما يتمتع به الكفار، بل خير لهم من الدنيا وما فيها.

وقوله سبحانه في الآية (١٩٩) من السورة: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾:

في هذه الآية يعلِّم اللَّه سبحانه عباده الإنصاف، حتىٰ لا يحكموا حكمًا جائرًا علىٰ جميع أهل الكتاب بالكفر واللعنة، بل يُمعنون النظر في تصنيف اللَّه لهم مما جرىٰ ذكره في تفسيره الآيات (١١٠ ـ ١١٥) من هذه السورة.

قال ابن عباس ومجاهد: إن هذه الآية نزلت في مؤمني أهل الكتاب من جميع الطوائف، وهو أعم من القول بأنها نزلت في موت النجاشي.

وقد أشاد اللَّه الغفور الشكور بذكرهم، وتحقيق أجرهم لوفائهم بالعهد، الذي أخذه عليهم بواسطة أنبيائهم، كما مضىٰ تفسيره عند تفسير الآية (٨١ ـ ٨٢) من هذه السورة.

فإنهم بإيمانهم هذا، قد حققوا متابعة أنبيائهم، وصدقوا نسبتهم إليهم، وكل فرد من أفراد أهل الكتاب علىٰ اختلاف أنواعهم إن لم يؤمن بخاتم النبيين محمد ﷺ، ويحقق طاعته ويقم بنصرته، فهو كافر بنبيه الذي يدعيه.

وقد وصفهم اللَّه بثلاث صفات هي:

١ ـ الإيمان باللَّهِ؛ وذلك بأخذ وحيه بقوة عملًا به، وإقامةً لحكمه.

٢ ـ خشوعهم للَّه، وتذللهم له تذللًا ينافي استكبارهم.

٣ ـ أنهم لا يشترون بآيات اللَّه ثمنًا قليلًا؛ فلا يحرفونها، ولا يعطلونها كما فعل أحبارهم ورهبانهم.

وقوله سبحانه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يعني ثواب

إيمانهم الذي صدقوه بالأعمال، قد ذكر سبحانه في الآية (٥٤) من سورة القصص، أنهم يؤتَون أجورهم مرتين، وذلك لما تضاعف لهم من الأسباب.

و قد أفادت صيغة المضارع ﴿يُؤْمِنُ﴾ دوام استقامتهم، بخلاف «آمن» بصيغة الماضي.

وقد ورد عن عطاء: أن هذه الآية نزلت في أربعين رجلًا من نصارىٰ نجران، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية من الروم أسلموا، والعبرة بعموم اللفظ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فيه إخبار عن سرعة حسابه ﷻ، وسرعة انقضائه منه، وأن حساب العالم كله كحساب رجل واحد.

وقد ورد عن سرعة حساب اللَّـه للمكلفين: أنه بقدر فَواق الناقة[1]، أو حلب الشاه؛ لأنه لا يحتاج إلي فكر وتأمل ولا إلىٰ رؤية كما يحتاج إليه العاجز؛ فهو سبحانه عالم قادر لا يعزب عن علمه شيء.

وقوله سبحانه في الآية (٢٠٠) من السورة - وهي ختامها -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾:

لما كانت هذه السورة من سور العقيدة، حيث ركز اللَّـه فيها علىٰ الهداية للأمة المحمدية، بأبدع الأساليب، وأقوىٰ أنواع الحوار والحجج، فقد ختمها اللَّـه بما يناسب أعظم موضوعاتها، من حصر العمل للعقيدة، والسير علىٰ نَهجها، فكان ختامها علىٰ غاية البراعة في الختام، حيث أمرهم بما يحقق لهم الفلاح الدنيوي والأخروي.

وقد أمرهم بالصبر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ﴾، أي اصبروا علىٰ ما يلاقيكم ويمسكم من الشدائد والمكاره، في حالة الحرب أو السلم،

---

(١) **الفَوَاق**: الزمن بين الحلبتين.

صبر احتساب وقوة ورباطة جأش دون أن يصيبكم خور أو ملل.

واصبروا علىٰ تكاليف الإسلام ومشقتها، وذلك لأن السورة احتوت علىٰ كثير من أصول الإسلام وفروعه.

واصبروا علىٰ مجاهدة النفس، وإرغامها علىٰ طاعة اللَّه، وحجبها عن محارمه.

وقد ذكروا للصبر ثلاثة أركان وهي:

١ ـ حبس النفس علىٰ المكروه.

٢ ـ تحمل الأذىٰ في سبيله.

٣ ـ انتظار الفرج.

ومن تدرع بالصبر في هذه الأحوال كانت نتيجة صبره الفلاح المنشود الذي يحصل به علىٰ الهداية والفوز العظيم، وبنيل ما وعد اللَّه الصابرين من صلوات ورحمة.

ومن هنا يتبين أن خصلة الصبر ضروريةٌ لازمةٌ في حياة المسلم، وبدونها لا يقوىٰ علىٰ الثبات والاستمرار علىٰ أمر اللَّه.

والصبر يتعلق بالإنسان وحده، أي بينه وبين نفسه، أما المصابرة فهي فيما يكون مشتركًا بينه وبين غيره، فيتحمل ما يلاقيه من المكاره.

ويدخل فيها تحمل ما يصيبه من الأخلاق الرديئة من أهل البيت والأقارب والجيران، فيترك الانتقام ممن أساء إليه، كما قال اللَّهُ ﷻ: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. ويدخل في مسمىٰ المصابرة: الإيثار، كما قال سبحانه في حق من علت رتبته من المؤمنين: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

ومن المصابرة تحمل المؤمن ما يصيبه في طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمن ولج هذا الطريق لابد وأن يصاب بأذىٰ يتخيله وآخر لا يتخيله.

ومن أعظم أنواع الصبر والمصابرة: ما كان في سبيل الجهاد الحسي والمعنوي، من مجالدة أعداء الإسلام، ومجاهدتهم بالحجة والسنان.

أما الرِّباط: فهو الإقامة في مواقع الجهاد، ولزوم كل ثغر من ثغور المسلمين يتعرض لهجوم الأعداء ومصانعهم، وكل مسلم إنما هو علىٰ ثغر من ثغور الإسلام يجب عليه التزامها وملاحظتها حتىٰ لا يؤتىٰ الإسلام من قِبَلِه.

ومن أهم أنواع المرابطة: مقابلة تخطيط أعداء الإسلام بتخطيط مضاد، يَعضِل[1] خططهم، ويقطع الطريق عليهم من كافة الاتجاهات والميادين.

والمسلم شديد المصابرة علىٰ ثغور نفسه وثغور دينه، وما جوارح الإنسان إلَّا ثغور يجب علىٰ المسلم حمايتها من الوقوع في الحرام، وخصوصًا القلب الذي هو سيد البدن ومحركه الوحيد.

كما يجب عليه حماية ثغور الدين المعنوية، من غزو كل ملحد ومجادل بالباطل، ويحفظ الثغور الحسية من غزو كل محارب، والمسلم في كل هذا وذاك متدرع بتقوىٰ اللَّه سبحانه، وهو القائل في ختام الآية: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

فرتب الفلاح بالصبر، والمصابرة والمرابطة علىٰ التقوىٰ.

وذلك أن يكون صبر المؤمن علىٰ طاعة اللَّه ناشئًا عن حب وتعظيم لا عن رياء ومصلحة، وأن يكون صبره عن معاصي اللَّه طمعًا في ثوابه وخوفًا من عقابه لا عن اقتصاد وتوفير، وأن يكون صبره ومصابرته علىٰ الجهاد لإعلاء كلمة اللَّه، لا لأغراض أرضية خسيسة.

وقد وردت أحاديث في فضل الرباط والمرابطة في سبيل اللَّه، **«وأن رباط يومٍ وليلةٍ خيرٌ من الدنيا وما فيها»**[2]، **«وأن الصلاة في موضع**

---

(١) **يعضل**: يمنع.

(٢) رواه البخاري (٢٨٩٢).

الرباط تتضاعف»[١]، «**وأن من مات مرابطًا أجرىٰ اللَّه له أجرَ عملِه الصالح الذي كان يعمله قبل موته**»[٢].

وأما قول البعض بأنه لم يحصل زمن النبي ﷺ مرابطة، فهو بعيد وغير مسلَّم به كما قاله المحققون.

ورد في حديث سبرة بن الفاكه أن النبي ﷺ قال: «**إن الشيطانَ قَعَد لابن آدم في طريق الإسلام، فقال: تُسلم وتذرُ دين آبائك؟ فعصاه، فأسلم، وقعد له بطريق الهجرة، فقال له: أتهاجرُ وتَذرُ دارك وأرضك؟ فعصاه، فهاجر، فقعد له بطريق الجهاد، فقال: تجاهد ـ وهو جهدُ النفس والمال ـ فتقاتل، فتُقتل، فتُنكح المرأة، ويقسم المال؟ فعصاه فجاهد**». فقال رسول اللَّه ﷺ: «**من فعل ذلك فمات كان حقًّا علىٰ اللَّه أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقًّا علىٰ اللَّه أن يدخله الجنة، وإن وَقَصَتْه دابتُه**[٣] **كان حقًّا علىٰ اللَّه أن يدخله الجنة**»[٤].

انتهىٰ تفسير سورة آل عمران، ولِلَّهِ الحمد والشكر، وصلىٰ اللَّه علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

«اللَّهم اغفر لشيخنا عبد الرَّحمن، وأسكنه مع المقربين عندك في جنات النعيم واكتب له بكل كلمة وبكل حرف في هذا التفسير حسنة، وأحسن له فإنك أنت وحدك العليم بغيرته علىٰ دينك».

❀ ❀ ❀

---

(١) لم أقف عليه.
(٢) رواه مسلم (٤٩١٥).
(٣) وقصته: وطأته فمات.
(٤) رواه النسائي (٣١٣٤).

فهرس الموضوعات

فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾: ١٢٢

قوله ﷻ: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾: ١٢٥

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾: ١٢٩

قوله ﷻ: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾: ١٣١

قوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾: ١٣٢

قوله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾: ١٣٤

قوله ﷻ: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾: ١٣٦

قوله ﷻ: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ

كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾: ١٣٧

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾: ١٤١

قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾: ١٤١

قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾: ١٤٢

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾: ١٤٤

قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾: ١٤٦

قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾: ١٤٨

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾: ١٤٩

قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾: ١٥١

قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾: ١٥٢

﴿٧٤﴾ : ١٧١

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾: ١٧١

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾: ١٧٤

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾: ١٧٦

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾: ١٧٩

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾: ١٨١

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾: ١٨٧

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾: ١٩٠

قوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ

📖 قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾: ٣٥٧

📖 قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾:. ٣٦٩

📖 قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾: ٣٧٠

📖 قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾: ٣٧٢

📖 قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾: ٣٧٥

📖 قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾: ٣٨٢

📖 قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾: ٣٨٥

📖 قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾: ٣٩١

📖 قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا

بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾: ٤٠٠

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾: ٤٠٥

قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾: ٤١٠

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾: . ٤١٨

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾: ٤٢٩

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾: ٤٣٢

قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾: ٤٣٩

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾: ٤٤٠